سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

التاريخ الإسلامي

دروس وعبر

قراءة في تاريخ الحركة الإسلامية للفترة ما بين عامي (٦١ - ٢٥٠) من الهجرة النبوية

دار المحجة البيضاء

التاريخ الإسلامي

دروس وعبر

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

التاريخ الإسلامي

دروس وعبر

قراءة في تاريخ الحركة الإسلامية للفترة ما بين عامي (٦١-٢٥٠) من الهجرة النبوية

الطبعة الثامنة

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

طبعة مزدانة بالتنقيح والتحقيق والإضافة

تعريف الكتاب

* **الكتاب**: التاريخ الإسلامي.. دروس وعبر
* **المؤلف**: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* **الطبعة**: الثامنة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م. (٦١٦ صفحة).
* **الناشر**: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.

مركز العصر للثقافة والنشر
alasrr@gmail.com

دار المحجة البيضاء

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣
مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ
ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، وعلى أصحابه الصادقين.

في عام (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م) عندما رأى كتاب (التاريخ الإسلامي دروس وعبر) النور لأول مرة، ونزل إلى الأسواق في متناول الجميع، لاقى استقبالاً منقطع النظير من قبل مختلف الأوساط الحوزوية، والجامعية، وجماهير الناس، بحيث أعيد طبعه عدة مرات متتالية في فترة قصيرة.

ولعل القارئ الكريم يلمس بوضوح جملة خصائص لهذا الكتاب، منها:

١- إنه على عكس ما يتصوره البعض من أن التاريخ ليس إلّا مجموعة قصص وحكايات لا تمت للحياة بصلة، وأنّ التاريخ لا دور له في تغيير مسار الأمم، على العكس من ذلك جاء هذا الكتاب ليثبت أنّ التاريخ الإسلامي كان حافلًا بالنهضات والحركات التغييرية، وأنّه نافذة على المستقبل، وهو كفيل بتوضيح الرؤية وإعطاء البصيرة لانتخاب المسير.. خصوصًا إذا ما تابعنا أحداثه المهمة في الإصلاح والتغيير.

٢- الكتاب يبحث الفترة التاريخية الهامة بين عامي (٦١-٢٥٤) للهجرة

(أي بعد واقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام إلى بداية عصر الغيبة). وبالرغم من أن هذه الفترة كانت مصيرية بالنسبة للرسالة الإسلامية، وكانت ذات تأثير كبير وأساسي في حركة الأمة، إلّا أن البعض فسَّر نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وما انتهت إليه من نهاية دموية مفجعة، بأنها كانت بداية انكماش النهضة الإسلامية وخمود الأمة، ولكن هذا الكتاب يُثبت عكس ذلك تمامًا، حيث يرى أن النهضة الحسينية كانت بداية انطلاق ثورات ونهضات رسالية كثيرة في التاريخ أدَّت إلى سقوط الأمويين ومن ثم العباسيين، كما أدَّت دورًا كبيرًا في تثبيت حركة الرسالة في الأمة، والحفاظ على جوهر الدين ومضمونه الرسالي والاجتماعي.

٣- لأن هذا الكتاب هو نتاج أحد كبار العلماء المعاصرين، الذي يتصدَّى للمرجعية الدينية والعمل الرسالي من جهة، ويتميَّز برؤية قرآنية ثاقبة وعميقة لكل أمور الدين والحياة ومنها التاريخ من جهة ثانية، فإنّ الكتاب يحظى بقيمة علمية كبيرة، ويحتوي على رؤى وبصائر تساعدنا على الانطلاق من تاريخنا المشرق لبناء حياتنا المعاصرة ومستقبلنا على الأسس الرسالية التي تنشد التقدُّم للأمة في الحياة الدنيا، والفلاح والسعادة في الحياة الأخرى.

٤- رغم وجود الكثير من الاتجاهات -ليس في التاريخ الغابر فقط، بل وفي عصرنا الراهن أيضًا- تعمل على تمزيق شمل أتباع أهل البيت عليهم السلام وتصنيفهم شيعًا متفرقة، إلّا أن هذا الكتاب يثبت وحدة أتباع أهل البيت وارتباطهم المباشر أو غير المباشر بأئمة الهدى عليهم السلام، كما يعيد الاعتبار لقيادات النهضات الرسالية المختلفة عبر التاريخ، رغم أن أتباع البعض انحرفوا -فيما بعد- إلى يمين الجادة أو يسارها.

٥- وأخيرًا: التاريخ هو مدرسة تتعلم فيها الأمم كيف تسلك طريقها المستقبلي بأفضل النتائج وأقل الخسران.

والأمة التي لا تقرأ تاريخها، ولا تأخذ الدروس والعبر منه، سواء السلبية منها أو الإيجابية، لا تستطيع أن تشق طريقها في الحياة بشكل سليم ودون عثرات قاتلة.

وتاريخ أمتنا، وبالذات في مجال العطاء الحركي، والجهاد من أجل التغيير نحو الأفضل، تاريخ حافل بالتجارب، وغنيّ بالدروس والعبر. ونحن إذ نعيش اليوم -وفي كل موقع من ديارنا الإسلامية- تحديات حضارية صارخة، علينا أن نُلقي نظرة إلى تاريخ أمتنا في مواجهة التحديات، وفي سعيها الدؤوب لبناء حياة إسلامية أفضل.

هذه الطبعة

أما هذا الطبعة التي تعد الطبعة الثامنة للكتاب فإنها تتميز بالتالي:

١- تقويم وتنقيح النص الذي كان في الأصل مكتوبًا من محاضرات ألقاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (حفظه الله).

٢- توثيق الشخصيات والحوادث التاريخية التي أشير إليها في نص الكتاب، وذلك عبر الهوامش التوضيحية المفصلة التي أضيفت إلى الكتاب، وذلك بجهد مشكور بذله الإخوة الكرام في ممثلية المرجعية في مدينة القطيف شرق الجزيرة العربية.

وبكلمة: الكتاب فريد في موضوعه من حيث الرؤية الرسالية التي تجعل التاريخ مادة حيوية لبناء الحاضر والمستقبل. لذا يستحق الاهتمام به من خلال دراسته والتأمل فيه بدقة متناهية، آملين أن ينتفع به كل من يستشرف مستقبلًا زاهرًا لأمته.

جعله الله تعالى ذخرًا لسماحة المؤلف (دام ظله)، ولكل من عمل على إعداده للطبع سابقًا، وتجديده لاحقًا بهذه الحلّة الرائعة، وإيصاله إلى أكبر قطاع من أبناء الأمة، إنه مجيب الدعاء.

مركز العصر للثقافة والنشر

٦/ رجب الأصب/ ١٤٣٥هـ

مُقـدِّمةُ الطَّبعةِ المُحقَّقةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

إذا كانت الحياة البشرية تجري وفق سنن قدّرها ربها، تتجلى في الأنظمة التي تسود حركة الأمم، وبها تتقدم مجتمعات وتتلاشى أخرى، فإن التاريخ هو الكتاب المفتوح الذي يعكس تلك السنن بوضوح . ولقد أوتي الإنسان فرصة قراءته والانتفاع به في حياته. وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾(١). وقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾(٢). وقال عزوجل: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾(٣).

ولكن لماذا نجد الكثير من البشر يتنكبون عن الصراط المستقيم بالرغم من ذلك الكم الهائل من العبر التاريخية؟.

إنما لأنّ هناك خللاً في الاعتبار بالتاريخ وللأسباب التالية:

أولاً: لعدم وعيهم بأن ما مضى من التاريخ مصباح ما يأتي، وزعمهم بأنهم

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣.

(٣) سورة الحشر، آية: ٢.

أمة وأسلافهم أمم أخرى.

كلَّا، أنتم من ذرية أولئك، وبينهم وبينكم ألف صلة وصلة من عوامل وراثية وثقافية وتربوية وبيئية وغيرها.

ثانياً: التشويه المتعمّد الذي قد يتعرَّض له التاريخ في كل أمة بفعل خيانة أصحاب القلم أو جهلهم، وبالتالي كتابة التاريخ بصورة مشوهة وربما مقلوبة.

ومع كل ذلك فإنّ في قصص الأولين حقائق لا يمكن تجاهلها، وهي كافية للأجيال الصاعدة، وهي بذلك حجة الله سبحانه البالغة على خلقه، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾(١).

إنّ ما في كوكبنا اليوم من آثار الأولين، التي تحفل ببعضها المتاحف المنتشرة في مختلف البلاد، إنّها تنطق بصوتٍ عالٍ وبكلمات بليغة بما في التاريخ من عبر لا تنتهي لكل من أراد اعتبارًا.

ونحن كمسلمين، سمت حضارتنا ردحًا طويلًا من الزمن، وامتدت على مساحة واسعة من الأرض، وخلَّفت آثارًا عظيمة سُجِّلت في ألوف الكتب، وتناقلتها الأجيال بطرق شتى، وأهم من كل ذلك حفظتها أسفار مقدسة، فهل بقيت لدينا حجة تُبرِّر تجاهل ما في تاريخنا من عِبرٍ بالغة الوضوح؟.

كلَّا، ولكن هذا التاريخ -كما تاريخ سائر الأمم- قد حُرِّف، وقد شُوهت صور منها سواء في عصور ازدهار الحضارة، وذلك بسبب الأقلام المأجورة، لأنّ معظم ما كُتِب عنه إنَّما كان بأمر من السلاطين أو لا أقل بأيدي من كان يخاف على نفسه منهم.

أما عندما غابت شمس حضارتنا، بعد الغزو التتري وسقوط بغداد، وبسبب الهزيمة التي لحقت بنفوس الكُتّاب، فقد حُرّف التاريخ وصيغ صياغة مبتورة بسبب اندثار الكثير من معالم الحضارة وجهل الناس بأبعادها، وبسبب روح الهزيمة عند الكُتّاب.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٩.

وبالرغم من أنّ آثار الهزيمة الحضارية لا تزال تُعشِّش في زوايا النفوس، إلّا أنّ التحولات العلمية في عالمنا اليوم، فيما يتَّصل بالتواصل الحضاري، وتزايد وسائل انتشار الثقافة، يسمح لنا اليوم بدراسة مجددة لتاريخ حضارتنا، وتصفية الغث منه عن السمين، والنفاذ إلى دروسه وعبره وزخم أمجاده، وحماسة السلف الصالح وتضحياته، وما هذا الكتاب الذي بين أيدينا إلّا محاولة متواضعة في هذا الإطار. لأنه يتناول تاريخ الفترة التي تلت شهادة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، والتي فُسِّرت من قبل المنهزمين بأنها كانت فترة انحسار النهضة الإسلامية، بينما العكس تمامًا هو الصحيح، إذ إن دماء السبط الشهيد عليه السلام قد رسمت خارطة طريق للحركة الرسالية التي لولاها لطُمِست معالم الدين، وهُدمت أركان الأمة، ولو استمرت سلطة الأمويين بلا معارض لفترة أطول لانهارت أسس الدين الحنيف.

ولا ريب في أن نهضة عاشوراء كانت أعظم حركة تاريخية، حيث أغنت الأمة الإسلامية بالروح الإيمانية، وأصبحت مشعل الدين الذي لا يخبو ضوؤه أبد الآبدين.

وأملنا من إعادة طباعة هذا الكتاب، والتي تتم بعد بعض التحقيق فيه، أن يُصحِّح نظرة الأجيال الواعدة من أبنائنا إلى تاريخهم الناهض، ليكونوا أشبال أولئك الأسود من أسلافهم الصالحين الذين لم يرضو بالظلم ولا استسلموا للهزيمة، وجاهدوا في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الدين بإذن الله.

كما نأمل من العلماء والخطباء والمؤمنين والإعلاميين أن يجعلوا الاعتبار بالتاريخ أهم أهدافهم لكي تعود الحضارة الإسلامية بإذن الله على أيديهم، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(١).

والله المستعان

محمد تقي المدرسي
كربلاء المقدسة
٢٨/ ربيع الآخر/ ١٤٣٥هـ.

---

(١) سورة محمد، آية: ٧.

مُقـدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الخَامِسَةِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

سُنن الرب في الآخرين هي سُننه في الأولين؛ فالأرض هي الأرض، والشمس، والقمر، والجبال، هي ذاتها منذ نشأة آدم وحتى اليوم. ونحن البشر لم نتغير، فهي هي غرائزنا وعقولنا، وتطلُّعاتنا وحاجاتنا.. ربما اختلفت المناهج، ولكن الأهداف لم تتغير. وهكذا كانت تجارب الآخرين هي ضياء دربنا السالك إلى المستقبل.

أرأيت كيف تنفعك تجاربك من سنة لأخرى، أليست تضيء دربك، وتُبصِّرك كيف تعمل في المستقبل؟ فلو أنك اعتمدت رجلاً خائناً كاذباً في تجارتك أو أي شأن من شؤونك، فأوقعك في مهلكة، أَوَلستَ يزداد حذرك عند اعتماد أي شخص آخر حتى لا يُهلكك مثله؟

كذلك تجارب الآخرين، تنفعنا في مستقبل حياتنا؛ وأمة تعي تجاربها هي أمة حكيمة، وأي إنسان يستوعب دروس التاريخ يعرف كيف يتجاوز العقبات، وكيف يسلك درب التسامي.

والكتاب الذي بين يديك يتحدَّث عن جانب هامٍّ من تاريخ أمتنا؛ جانب

الصراع من أجل الحرية السياسية، والدينية.

إن أكثر المؤرخين عبر تاريخنا لم يُسجِّلوا ملاحم أبطال الحرية في تاريخنا، خوفاً من الطغاة، أو خنوعاً للثقافة التبريرية التي سادت الطبقة المفكرة.

ومعرفة هذا الجانب من التاريخ تجعلنا أشد صلابة، وأقوم تفكيراً في صراعنا اليوم، من أجل الأهداف ذاتها التي جاهد من أجلها آباؤنا الأبطال.

إن أغلب الناس يعيشون الحالة السلبية من صراع العاملين والمجاهدين من أجل أهداف الأمة، ويعيشون السلبية من قضاياهم الاستراتيجية.

ومن أسباب هذه السلبية جهلهم بتاريخهم وملاحم آبائهم، وتشبُّعهم بالأفكار التبريرية التي بثَّها الطغاة والجُبناء من أتباعهم في روع الأمة.

وهذا الكتاب مساهمة في سبيل تبصير الأمة، بتاريخها المشرق.

وكان الكتاب سلسلة أحاديث أُلقيت بمناسبة شهر الله المبارك، في إحدى السنين الماضية، ثم أعيدت صياغتها لتصلح للنشر؛ واليوم حيث قام الأخ الأستاذ حيدر الرضوي بمطالعة جديدة للكتاب، يقدم للإخوة بصيغة أفضل، غير أن اهتمامي بسائر الشؤون الفكرية منعني من مراجعة الكتاب. ولكن أعتقد أبداً أن الكتاب الكامل لن يُطبع، لأنه أساساً لا كتاب بعد مصادر الوحي يمكن أن يُصبح كاملاً؛ إنما على القارئ الكريم أن يستفيد من مواهبه في إتمام نواقص كل كتاب، وأن يقرأ جيداً ويختار ما يريد مما يقرأ، ولا يكون إمّعة يُصدِّق بكل ما يُقال أو يُكتب له، وقد وصف الله عباده بالقول: **﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾**.

محمد تقي المدرسي
طهران
٢٣/ محرم الحرام/ ١٤١٨هـ

التَّاريخُ الإسلاميُّ.. دُروسٌ وعِبر

البابُ الأول: مدخلٌ لدراسةِ التَّاريخ الرِّسالي

لماذا ندرسُ التَّاريخ؟

كيفَ يجبُ أن ندرسَ التَّاريخ؟

نُشوءُ الحركةِ الرِّساليَّة

الحركةُ الرِّساليَّة امتدادٌ لحركةِ الأنبياء عليهم السلام

لماذا ندرس التاريخ؟

هنالك حيثيات كثيرة تقف خلف دراسة التاريخ، لوجود رابط حيوي بين التجربة على مستوى الواقع والتجربة التي مضت، بحيث يكون الواقع الحاضر هو رهينة الرؤية التاريخية، فتكامل المسيرة واستمراريتها على المستوى الراهن، وليد علاقة جذرية بين الحاضر ونظرته إلى الماضي، وضمن هذا التصور يمكننا رصد مجموعة من الحيثيات لها علاقة مباشرة بحياتنا نحن المسلمين على مستوى التفكير والفهم، وعلى مستوى إنضاج التجربة بخلق مسيرة تكاملية يكتسب التاريخ فيها حيوية فاعلة بما يحتويه من تراكم في الخبرة البشرية. ونحن هنا نختار بعض الحيثيات لإنضاج الفكرة ضمن العناوين التالية:

فهم التاريخ ضرورة لفهم الشريعة

إذا نظرنا -نحن المسلمين- إلى أنواع العلاقة التي تربطنا بالتاريخ، نجدها تتجلى في أكثر من رابط، فكل التعاليم التي أمرنا بها الدين تاريخية على مستوى التنزيل والتكليف، كما أنها خضعت لتجربة قد مضت، مما يجعل علاقتنا وثيقة بالتاريخ، فعلى مستوى الحكم الشرعي نرتبط بالتاريخ ونعتمد على الأحكام الشرعية التي نزلت ودُوِّنت قبل ألف وبضع مئات من السنين، فلا بد أن نبحث عن تلك الأحكام في بطون الكتب، وعندما نفعل ذلك فإننا كثيراً ما نجد روايات مختلفة اختلافاً كبيراً في الأحكام، ولذلك يتحتَّم أن نعرف بشكل دقيق الظروف

التاريخية التي جاءت تلك الأحكام فيها.

ومن دون معرفة تلك الظروف المتغيرة، لا يمكننا أن نعرف كيف اختلفت الأحكام والتوجيهات التي صدرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بالرغم من أنهم جميعهم كانوا على نهج واحد، هو نهج جدهم محمد صلى الله عليه وآله.

إن النظرة الأولى للتاريخ تُظهر أدواراً مختلفة للأئمة، فالإمام الحسن عليه السلام كان مُصالحاً(١)، والإمام الحسين كان ثائراً(٢)، والإمام زين العابدين اتّخذ خط الدعاء، والإمام محمد الباقر عليه السلام صاحب علم وفقه ومعارف توحيدية(٣)،

---

(١) لقد صالح الإمام الحسن عليه السلام [٣-٥٠هـ]، معاوية، طمعًا في حقن دماء المسلمين، إذ لو فتح باب الحرب مع معاوية لضحَّى بهم وبشيعته، وهو القائل عليه السلام: **«وَلَوْ لَا مَا أَتَيْتُ لَمَا تُرِكَ مِنْ شِيعَتِنَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا قُتِلَ..»**. وقوله عليه السلام: **«ما أردتُ بمصالحتي مُعاوية إلا أن أدفع عنكم القتل»**. ولو أن الإمام عليه السلام خاض حربًا ضد معاوية، فلا شك ولا ريب فإن المتخاذلين كانوا يُسلمونه كما أسلموا من قبلُ أبيه وخانوه، ولذلك قال الإمام عليه السلام: **«وَاللهِ لَوْ قَاتَلْتُ مُعَاوِيَةَ لَأَخَذُوا بِعُنُقِي حَتَّى يَدْفَعُونِي إِلَيْهِ سِلْمًا، فَوَاللهِ لَأَنْ أُسَالِمَهُ وَأَنَا عَزِيزٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَقْتُلَنِي وَأَنَا أَسِيرُهُ، أَوْ يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَكُونَ سُبَّةً عَلَى بَنِي هَاشِمٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ..»**. للوقوف على قضية الصلح أسبابه ونتائجه، طالع ما كتبه المجاهد الشيخ راضي آل ياسين في كتابه: (صلح الحسن). وأيضًا: حياة الإمام الحسن بن علي، للشيخ القرشي، وما كتبه المؤلف (دام ظله) الإمام الحسن.. قدوة وأسوة.

(٢) لقد حرك الإمام الحسين عليه السلام [٤-٦١هـ]، بنهضته ضمير الأمة، بعد أن أغرقته بني أميه في سباتها، وظلمها وفسادها، فأعاده عليه السلام إلى جادة النهج الإسلامي الذي جاء به جده صلى الله عليه وآله، فمزَّق بنهضته وقيامه كل أقنعة الظلم والزيف والاستبداد، موضحًا للأجيال الموقف الشرعي منها، فكانت ثورته منارًا ونبراسًا لكل السائرين على درب الحرية والكرامة. ومحفزًا لتقويم كل الحكومات الظالمة، والأنظمة الاستبدادية. وهو القائل عليه السلام موضحًا سبب نهضته وخروجه على الظلم والطغيان المتفشي في الأمة، ثائرًا في وجه الطغمة الطاغية يزيد: **«إِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي** صلى الله عليه وآله، **أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي..»**. بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩. طالع ما كتبه المؤلف (الإمام الحسين عليه السلام قدوة وأسوة). و: (الإمام الحسين عليه السلام.. قدوة الصديقين).

(٣) عاش الإمام الباقر عليه السلام [٥٧-١١٤هـ]، طيلة حياته في مدينة جده صلى الله عليه وآله يُفيض من علمه على الأمة، ولقد استطاع خلالها أن يُربِّي عددًا كبيرًا من العلماء والفقهاء، والمفسرين. كما عانى الإمام الباقر عليه السلام من ظلم بني أمية منذ أن وُلد حتى شهادته عام ١١٤هـ. لاحظ كتاب المؤلف: (الإمام الباقر عليه السلام.. قدوة وأسوة).

وكذلك الإمام الصادق عليه السلام(١)، والإمام موسى بن جعفر عليه السلام صاحب ثورة، وهكذا.. مما يخلق تصوراً بَدْوِيًّا بوجود حالة من التباين والتناقض بين هذه الأدوار.

إن الدراسة الواعية للتاريخ، وتتبع الحوادث التاريخية التي كانت تكتنف حياة كل إمام، هي الكفيلة بحل هذا التناقض على مستوى الظاهر، وحينها نكتشف أن هذا الاختلاف هو نتاج طبيعي لاختلاف الظروف التاريخية التي كانوا فيها، مما يجعل من الضروري إعطاء هذه الظروف أهميتها وموقعها الطبيعي في دراسة الحكم الشرعي أيضاً.

وهكذا فإنني أعتقد بأن الفقهاء -وخصوصاً المتأخرين منهم- لو بحثوا تاريخ الأئمة بحثاً دقيقاً ومن جميع النواحي السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وحتى من الناحية الديموغرافية، لاستطاعوا معرفة أسباب بعض الاختلافات بين الأخبار، ولاستطاعوا بالتالي أن يستفيدوا من سيرة الأئمة عليهم السلام بشكل أكبر.

إن الطريقة التي ندرس بها علوم الإسلام، وخصوصاً الفقه، هي الطريقة التجزيئية التي تُجزِّئ العلم، فنبحث التاريخ وحده، والفقه وحده، بينما الفقه والتاريخ كل لا يتجزَّأ.

وهذه الطريقة هي المسؤولة عن بقاء بعض النقاط غامضة في الفقه الإسلامي بل وفي السيرة أيضاً.

---

(١) كان الدور البارز في حياة الإمام الصادق عليه السلام [٨٠-١٤٨هـ]، وبعيدًا عن الصراع السياسي المكشوف قائمًا على بناء الأمة الإسلامية علميًا، وعقائديًا، وذلك من أجل ضمانة سلامتها، وحفاظًا على صيانة العقيدة الإسلامية، فقد تصدى الإمام الصادق للفرق المنحرفة عن النهج الإسلامي، وبالذات الزندقة والتيارات الإلحادية. فعمل على تخريج العلماء والمفكرين في مختلف الفنون والعلوم الإسلامية. أما على النهج الجهادي فقد عمل الإمام عليه السلام على تقويته من خلال تأييده لثورة عمه زيد. انظر مثلاً كتاب المؤلف (الإمام الصادق عليه السلام.. قدوة وأسوة). وما كتبه العلامة القرشي في موسوعته الإمام الصادق عليه السلام.

التاريخ ينبوع الحضارة

إن أهم ما يختص به العقل البشري هو الاستفادة من تجارب الآخرين، وهي الخاصية التي تجعل الحياة تسير بصورة تكاملية، ولولا تلك الإمكانية لما استطاع الإنسان ذو العمر المحدود أن يخلق بنفسه تجاربه الخاصة، فلو أراد أن يجرّب كل شيء بصورة فردية لاحتاج إلى ما لا نهاية من التجارب، وإلى ملايين من السنين. فالحالة المنهجية تقتضي الاستفادة من تجارب الآخرين، والرجوع إلى التاريخ باعتباره الحاضن الطبيعي للتجارب، وما نراه الآن من تقدّم علمي على كافة المستويات هو نتاج لتلك الخاصية؛ لأن الإنسان يبني حياته بما انتهى إليه الأولون، وليس يبدؤها من الصفر، ويمكننا أن نضرب لذلك مثلاً باللغة التي تعتبر من أهم مكاسب التجربة عبر التاريخ، فاللغة هي التي تحتوي الثقافة، وتشكّل الوعاء الذي يحملها، والثقافة بدورها هي التي تحدّد نوعية واتجاه الحضارة.. كما أن اللغة وتطورها هي بحد ذاته تُبيّن نوعية تاريخ الأمة، فاللغة حضارة وتاريخ. فإذا كانت كلمة ماء مثلاً تدل على هذا السائل، وكلمة رغيف تدل على هذا المأكول، وكلمة فاكهة تدل على هذا النوع من الطعام، فربما مرّت عدة آلاف من السنين حتى استطاع الإنسان أن يتوصّل إلى ذلك، فلو أن كل إنسان أراد أن يضع لنفسه علومه وعاداته وتقاليده، لانعدم الفرق بينه وبين الكائنات الحية الأخرى.

إذن علينا أن ندرس التاريخ حتى نستفيد من تجارب آبائنا في مختلف القضايا التي تواجهنا، لكي تكون لنا حضارتنا التي تميّزنا كمسلمين.

من أجل اللحاق بركب الحضارة

أصبح من الواضح والمسلَّم به، ضمن تقييم تجربتنا الحاضرة، أننا أمة متخلفة، نلهث وراء ركب الحضارة البشرية التي سبقتنا منذ قرون، مما يفتح أمامنا سلسلة من التساؤلات:

لماذا نحن هكذا؟ ولماذا لا نكون نحن في بداية القافلة لا في نهايتها؟. وإلى

متى يجب أن نبقى على هذه الحال؟.

يمكن أن تبادرنا مجموعة من الإجابات عن هذه الأسئلة التي سبقت وغيرها، ولكن هناك سبب يُمكن أن يكون رئيساً لتخلّفنا، وهو نظرتنا إلى الحياة، تلك النظرة السلبية والمتخلفة والجامدة، فهناك علاقة بين رؤيتنا للحياة وواقعنا الذي نصنعه، فكيفما نفهم الحياة يكون واقعنا تعبيراً لذلك الفهم. وهذه الفكرة تدعونا إلى سؤال آخر هو: كيف انحدرنا إلى هذه الحالة، ومن أين اكتسبنا هذا الفهم المتخلّف، ومَنِ الذي أملاه علينا؟.

والجواب: إننا اكتسبنا هذه النظرة من خلال تراث ورثناه من الأجيال السابقة، فكل جيل كان يورثنا فكرة وتقليداً وطريقة في الحياة. فنحن لا نتصرف في حياتنا ولا نحدد مواقفنا من وحي إرادتنا وتفكيرنا فقط، إنما أيضاً من وحي عاداتنا وتقاليدنا التي انحدرت إلينا عبر الأجيال.

فكيفية أكل الطعام مثلاً باستخدام الإنسان يده أو باستخدام الملعقة، وكذلك كيفية النوم، وشكل الملابس، كل هذه العادات نتعلّمها من آبائنا الذين يرتبطون بنا في سن الطفولة، وكل هذه الأمور وما إليها تبدو بسيطة نتعلمها من آبائنا.

أما الأمور المعقّدة في كيفية التعامل الاجتماعي، وأين تبدأ حدود حريتنا وأين تنتهي، وأين هي حقوق الناس، وما هي بالضبط حقوقنا، وسائر العلاقات الاجتماعية، فتلك التي يجب أن نتعلّمها من آبائنا وتاريخنا معاً.

أما إذا أراد الإنسان أن ينسلخ من ماضيه، فالانسلاخ ليس فقط صعباً، وإنما هو مستحيل، فالأنبياء هم الوحيدون الذين يُعطيهم الله وبطرق غيبية قدرة على الانسلاخ من مجتمعهم الفاسد لتكوين مجتمع جديد.

لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم عن الأنبياء عليهم السلام:

- ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾(١).

---

(١) سورة الجن، آية: ٢٧.

- ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾(١).
- ﴿لَوْلآ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(٢).

فالقدرة على الطهارة عند الأنبياء قد تكون قدرة غيبية، لأن هناك حكمة معينة في سُنن الله تقتضي أن يخلق الأنبياء واقعاً جديداً.

إذن.. كيف يمكننا أن نتحضّر ونلحق بركب الحضارة؟.

إن ذلك يمكن بتصفية الينبوع الذي يُعطينا الأفكار وهو التاريخ، وكذلك بتغيير نظراتنا إلى التاريخ، لكي نستطيع بذلك أن نتخلّص من التراث الثقيل الذي ورثناه من التاريخ.

وهناك أمثلة مبسَّطة لطريقة تأثر الأجيال الحاضرة بالأجيال السابقة وخصوصاً جيلنا نحن، وهنا نضرب مثالاً يوضح أن التاريخ ليس مظهراً واحداً يتضخم فيه تاريخ السلطة على حساب تاريخ المعارضة، وإنما هنالك رؤيتان تعكس كل واحدة منهما ظلالاً لها تأثيرها في واقعنا وتقييمنا للأحداث الراهنة.

التاريخ بين السلطة والثورة

النظرة الموضوعية للتاريخ تكشف لنا أنّ مسيرة المسلمين كانت ضمن خطين، خط المترفين الذين استأثروا بالسلطة، وانتهكوا حقوق البلاد والعباد، مُشكِّلين بذلك نمطاً تاريخيًّا له خصوصيته، يؤرخ مسيرة الحاكم والذين سايروه من المنتفعين والمستسلمين للقيادات المنحرفة. أما التاريخ الآخر فهو الذي كان يسير في الاتجاه المعاكس، من التيارات الثورية المعارضة التي شكَّلتها مسيرة الخط الرسالي، وهو الخط الذي ما زال محتفظاً بقيم الدين، مُهتماً بشأن الإصلاح في الأمة، معتمداً في تحقيق ذلك على السلاح حيناً وعلى العمل السري حيناً آخر، في سبيل

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٢٤.

تغيير المجتمع الفاسد والحكومات المتكبرة.

ضمن هذا التقسيم الموضوعي لمسيرة التاريخ لا بد أن نفهم أيضاً أن لكل خط منطلقه ومنطقه الخاص، فالطبقة الحاكمة والمستسلمون لها والمنتفعون منها لهم منطقهم، وهو الاستسلام والقبول بالأمر الواقع، كذلك الطبقة المحكومة والثوار لهم منطقهم الخاص أيضاً، هو منطق الثورة على الواقع الفاسد(١)، ويُمكننا وصف ذلك التباعد بين المنطقين بأنه يمثل جانباً أساسيًّا من سنن التاريخ التي تتكرَّر وتمتد عبر الزمان.

هذا ما يُمكِّننا من معرفة الأسباب التي تقف خلف الدعاية المغرضة لتشويه صورة الرساليين، وهي الطريقة التي اعتادها أذناب البلاط الحاكم لتبرير تقاعسهم وانهزامهم من تغيير الواقع، فيلصقوا بالخط الرسالي ألوان التُّهم.

هذه التُّهم تتلخَّص في أن الرساليين هم مجموعة من السُّراق والقتلة والمتمردين انحرفوا عن الدين ويتجرؤون على مقدسات الأمة ويسبون الصحابة وغير ذلك، هذه المجموعة من التُّهم اختلقها الخط المضاد للرسالة، وذلك لسبب بسيط هو أن ذلك الخط كان حاكماً وكان للحكم والحاكم منطقه، والخط الرسالي كان ثورة وكانت الثورة لها ضريبتها.

---

(١) يقول الدكتور فهمي جدعان، وهو يستعرض صورة عن خطين فكريين متقابلين، خط متخلف يشيع التبرير والسلبية، وخط متقدم يبث روح الأمل والسعي: «فالشعور الفاجع بالظلم والغبن الفاحشين هو لدى الشيعة أعظم منه بكثير مما هو عليه لدى أهل السنة. فالشيعة مضطهدون وأئمتهم مشردون ووجودهم الاجتماعي - السياسي غير مشروع، وقد أصابتهم كوارث ماحقة منذ خروج الخلافة من آل البيت ومقتل الإمام علي [عَلَيْهِ السَّلَامُ] وفاجعة كربلاء، وعبر التاريخين الأموي والعباسي على حد سواء. ومع ذلك فإن الفجيعة لديهم لم تولد يأسًا، وإنما ولّدت أملًا رأوه في حتمية مجيء (إمام) أو (مهدي) [الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ] يعيد الحق إلى نصابه ويملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا، أي يعيد إلى آل البيت وشيعتهم الإمامة والحكم في الإسلام، ويخلص الأرض والناس من مفاسد وطغيان الأنظمة السياسية». أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ص٣١.

كل ذلك يمكن أن يُفهم ضمن ظرفه التاريخي، أما الآن وقد تبدّلت الظروف نجد تلك النظرة ما زالت مهيمنة على بعض العقليات الحاضرة، فمثلاً يزيد بن معاوية⁽¹⁾، ولكي يثبت حكمه وسياسته اتهّم الإمام الحسين عليه السلام بالخروج والتمرُّد وشقّ عصا المسلمين وأنه صاحب فتنة لذلك يجب أن يحارب.

أما اليوم فقد ذهب ذلك الواقع الذي تمخّضت عنه تلك التُّهم الرخيصة ضد الإمام الحسين عليه السلام، فيزيد قد مات، وآل مروان والذين جاؤوا من بعده قد ذهبوا، وحتى بني العباس الذين وقفوا نفس الموقف المعارض للحركة الرسالية قد انتهوا، فلماذا لم تنتهِ تلك التُّهم الرخيصة والأفكار السلبية ضد الخط الرسالي، حتى إننا نرى أقلاماً محسوبةً على التقدمية تكتب عن الثوار الإسلاميين ولا تتورع أن تُلصق التُّهم غير الصحيحة بهم.

الكاتب الدكتور حسن إبراهيم حسن -المؤرخ والأستاذ في عدة جامعات في بعض الدول الغربية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية- في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي⁽²⁾)، حينما يتحدَّث عن المختار بن أبي عبيدة الثقفي⁽³⁾، فإنه يُلصق به التُّهم نفسها التي

---

(١) قضى يزيد [٢٥-٦٤هـ] طيلة عمره في اللعب بالقرود والفهود، ومعاقرة الخمرة، وممارسة أنواع القمار، قال المسعودي: «وكان يُسَمّى يزيد السكران الخمّير». كما عرف بالانحطاط الخلقي، وكان عنوانًا للزندقة واللهو. حكم ثلاث سنوات كانت على الأمة من أسوأ أيامها وسود لياليها. قال عنه القاضي في المناقب والمثالب ص٢٩٣-٢٩٤: «لم تكن ليزيد فضيلة يستحق بها الخلافة عند خاص ولا عام، وكانت ولايته ثلاث سنين قتل فيها الحسين عليه السلام، وتلك خطيئة من خطاياه ملأت ما بين السماء والأرض، لم يرضها أحد من المسلمين..». كما أقدم (لعنه الله) على هتك حرمة المسلمين، فأباح المدينة المنورة ثلاثة أيام، وسفك دماء أهلها، ودنس الحرم النبوي. قال فيه صلى الله عليه وآله: «لا يزال هذا الأمر معتدلاً قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له: يزيد». انظر: البداية والنهاية، ج٨، ص٢٣١. تاريخ الإسلام، ج٥، ص٢٧٣. إمتاع الأسماع، ج١٢، ص٢٣٣. عمدة عيون صحاح الأخبار، ص٤٥٧.

(٢) ج١، ص ٣٢٨. وطالع أيضًا: ما كتبه أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق عليه السلام)، ص١٨٨.

(٣) أبو إسحاق [١-٦٧هـ]، من الزعماء الثائرين على بني أمية، وأحد الشجعان الأفذاذ. من أهل الطائف. منقطعًا لأهل البيت عليهم السلام. فلما استشهد الإمام الحسين سنة ٦١هـ تتبّع المختار قتلة الإمام الحسين، فقتل منهم: شمر بن ذي الجوشن الّذي باشر قتل الحسين، وخولي بن يزيد

ألصقها به أعداؤه من الزبيريين والأمويين، في حين أنه ينتمي إلى عصر أصبحت فيه الحالة الأكاديمية ضرورة منهجية لتمييز الأحداث، فهل كان جاهلاً بأن المختار كان ثائراً ضد الزبيريين حتى قُتِل بسيف مصعب بن الزبير؟(١). وبالتالي لا يمكن لأي مؤرخ زبيري أن يتكلَّم عن المختار إلَّا بالسوء باعتباره ثار ضدهم. وهذه حالة طبيعية تتجلَّى بشكل واضح في سُنن الصراع. فلا يمكن أن نتوقع أن مروان بن الحكم(٢)، أو سليمان بن عبد الملك(٣) أو غيرهما من الخلفاء الأمويين أو أتباعهم إذا كتبوا أو تحدَّثوا عن المختار أن يُنصفوه أو يتكلموا عنه بصورة محايدة؛ لأنه كان

الّذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الّذي حاربه. وأرسل إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد، الّذي جهّز الجيش لحرب الإمام الحسين، فقتل ابن زياد، وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة. وكانت مدة إمارته ستة عشر شهرًا. للوقوف على سيرته راجع ما كتبه السيد أبو طالب القائيني في كتابه (اللؤلؤة الغالية) لؤلؤة رقم (١٨)، تحت عنوان: (بيان أحوال المختار)، ص٢٨٨. وأيضاً ما كتبه المؤرخ البراقي عن سيرة المختار في كتابه: تاريخ الكوفة، ص٣١٤. وبدراسة واسعة تحليلية أنظر: المختار الثقفي، للعلامة المحقق القرشي. و: تنزيه المختار للعلامة السيد المقرم.

(١) ابن العوام بن خويلد الأسدي القرشي [٢٦-٧١هـ]، نشأ بين يدي أخيه عبد الله، فكان عضده الأقوى في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق. ولي البصرة سنة ٦٧ هـ. قال بكفر المختار الثقفي فخرج لقتاله، لقيه في الكوفه بعد معركة طاحنة قُتل فيها المختار، وخلق عظيم. الأعلام، ج٧، ص٢٤٧.

(٢) ابن أبي العاص بن أمية [٢-٦٥هـ]، أول حُكام آل الحَكم، بعد نهاية حُكم آل أبي سفيان، عُرف واشتهر بـ(خيط الباطل) نظرًا لطول قدِّه واضطراب قامته، ويُلقب بالوزغ، وهو من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، خصوصًا الإمام علي عليه السلام. قال عنه ابن أبي الحديد، ج٤، ص٣١٢: «فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقلّ من أن يُذكر في الصحابة الذين قد غمصْناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم؛ لأنه كان مجاهرًا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان اللعينان، كان أبوه عدوَّ رسول الله ﷺ يحكيه في مَشْيه، ويغمز عليه عينَه ويُدْلِع (أي يخرج) له لسانه ويتهكَّم به، ويتهانف عليه (أي الضحك مع الاستهزاء).. ثم قال: أما مروان ابنُه فأخبثُ عقيدةً وأعظم إلحادًا وكفرًا..». للاطلاع والفائدة لاحظ: تتمة المنتهى، ج٣، ص٨٦-٩١. الأعلام، ج٧، ص٢٠٧.

(٣) ابن عبد الملك بن مروان [٥٤-٩٩هـ] ولي الخلافة سنة ٩٦هـ. قال ابن سيرين: افتتح خلافته بإحيائه الصلاة لمواقيتها -وكان بنو أمية أماتوها بالتأخير-، واختتمها باستخلافه عمر بن عبدالعزيز». وكان أكولاً، وأن سبب موته كان الشره وهو إدخال الطعام على الطعام. أنظر: تتمة المنتهى، ج٣. ص١١٨. تاريخ الإسلام، ج٦، ص٣٧٩.

عدواً لهم وثار ضدهم.

فكيف يسمح هذا الكاتب لنفسه أن يسترسل مع التُّهم الرخيصة التي ألصقها الزبيريون والأمويون بالمختار؟.

لماذا؟. وكيف حدث ذلك عند مؤرخينا؟.

لقد حدث ذلك في تاريخنا لثلاثة أسباب:

السبب الأول: غفلة أصحاب القضية الرساليين المعنيين بهذه التُّهم، وعدم تصدِّيهم لردّ التزييفات، وكشف الشُّبهات، وتوضيح الحقائق.

السبب الثاني: غفلة الكتَّاب الذين يكتبون حول التاريخ الإسلامي، وعدم تحقّقهم من الأحداث والبحث عن الحقائق التاريخية السليمة، فالمؤرخون ليسوا جميعهم أغبياء وذوي مصالح، وإنما أكثرهم يغفلون.

السبب الثالث: وهو أهم وأخطر الأسباب الثلاثة، وهو وجود الخلفية التي كتبت التاريخ السيئ واستمرارها مع الظروف، ولكي نفهم هذه الحقيقة نطرح السؤال التالي:

لماذا اتَّهم يزيد بن معاوية الإمام الحسين عليه السلام بأنه متمرّد؟.

لا نجد لذلك جواباً سوى أن الإمام الحسين عليه السلام ثار ضده، ويزيد دافع عن سلطته الغاصبة. هذا هو البعد الأساسي لخلفية الصراع بين الحاكم الظالم والمعارض له المطالب بحقوقه أو حقوق الأمة.

إذا كان الأمر هكذا فإن رجلاً مثل يزيد بن معاوية إذا جاء الآن ووجد رجلاً آخر مثل الحسين بن علي عليه السلام يقاومه، فلا بد أن يقول له مثل ما قاله يزيد في حق الإمام الحسين عليه السلام.

فهذا استنتاج طبيعي وواضح اليوم في عالم السياسة، فالحاكم الظالم لا

يتحمّل وجود رجلٍ مجاهد يحاول أن يبث الوعي في الناس ويرشدهم إلى الطريق القويم المتمثّل في عدم الرضوخ للظلم ومحاربة الطغاة، فإن هذا الحاكم لا يملك شيئاً ضد ذلك المجاهد إلّا اتّهامه بأرخص التُّهم التي تُهيِّئ الأرضية لقتله وتصفيته.

فالوعي التاريخي حاجة ملحة ليس لقراءة التاريخ فحسب وإنما لقراءة الواقع أيضاً، فالذي لا يكون له بصيرة تاريخية يقع في أخطاء كبيرة حتى وإن كان رساليًّا يُصنّف نفسه ضمن الثوار، فإننا نجد كثيراً من هؤلاء عندما كتبوا في التاريخ وقعوا في الأخطاء نفسها التي وقع فيها المؤرخ السلطوي، فيُروِّج التُّهم نفسها التي روّجها بنو أمية، فعندما يكتب عن المختار مثلاً فإنه يكرر الأقوال نفسها التي قالها عنه مصعب بن الزبير قاتل المختار، والتُّهم نفسها التي ألصقتها أجهزة الإعلام الأموي بذلك الرجل النزيه.

ومن عجيب أمر الدنيا أن رجلاً مثل أبي الفرج الأصفهاني الذي لا ينتمي إلى الخط الرسالي، حينما يذكر قصة زيد بن علي⁽¹⁾، فإنه ينقل رواية عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال للإمام الحسين عليه السلام: «يخرج رجل من صلبك يقال له زيد، يتخطى هو وأصحابه يوم القيامة رقاب الناس غُرًّا مُحَجَّلِين، يدخلون الجنة بغير حساب»⁽²⁾.

---

(١) ابن الإمام الحسين [٧٩-١٢٢هـ]. عاش زيد في رعاية أبيه الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قرابة خمسة عشر عامًا، وبعد شهادة أبيه كفله أخوه الإمام الباقر عليه السلام، فقد غذّاه بالعلم، ورعاه وهو يشق طريقه في وسط التيارات الفكرية والسياسية، حتى كمل بناؤه المعرفي، ولزيد مناقشات علمية مع واصل بن عطاء مؤسس المعتزلة. ولزيد بن علي علاقة خاصة بالإمام الصادق عليه السلام، فهو عم الإمام، ومن خريجي مدرسة أبيه الإمام الباقر عليه السلام. قام زيد بالثورة ضد الحكم الأموي، واستشهد وصُلب بالكناسة. يكفيه فخرًا وشرفًا قول الإمام الصادق فيه: **«فَإِنَّ زَيْداً كَانَ عَالِمًا، وَكَانَ صَدُوقًا، وَلَمْ يَدْعُكُمْ إِلَى نَفْسِهِ، إِنَّمَا دَعَاكُمْ إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ** عليهم السلام..». وسائل الشيعة، ج١٥، ص٥٠. ولما قتل بلغ ذلك من أبي عبد الله الصادق عليه السلام كل مبلغ وحزن له حزنًا عظيمًا حتى بان عليه، وفرق من ماله في عيال من أصيب معه من أصحابه ألف دينار. وكان مقتله يوم الاثنين لليلتين خلتا من صفر سنة عشرين ومائة، وكان سنه يومئذٍ اثنتين وأربعين سنة». معجم رجال الحديث، ج٨، ص٣٥٨.

(٢) مقاتل الطالبيّين، ص١٢٧.

وأيضًا ينقل قوله ﷺ: «يقتل رجل من أهل بيتي فيصلب، لا ترى الجنة عين رأت عورته»(١). وينقل أيضًا رواية عن أبي داود المدني، عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه عن الإمام علي عليه السلام قال: «يخرج بظهر الكوفة رجل يقال له زيد في أبهة الملك لا يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون إلَّا من عمل بمثل عمله، يخرج يوم القيامة هو وأصحابه معهم الطَّوَامِيرُ أو شبه الطوامير حتى يتخطوا أعناق الخلائق تتلقاهم الملائكة فيقولون: هؤلاء خلف الخلف، ودعاة الحق، ويستقبلهم رسول الله ﷺ فيقول: يا بني قد عملتم ما أمرتم به، فادخلوا الجنة بغير حساب»(٢).

هذه الروايات ينقلها أبو الفرج الأصفهاني وبشكل مكرّر في كتابه مقاتل الطالبيين، بينما هناك من يُشكّك في ثورة المختار، وزيد، ويحيى!(٣).

لماذا يُشكّك هؤلاء في ثورات صحيحة في التاريخ؟.

ولماذا يُعطون الحق ليزيد بن معاوية، ومصعب بن الزُّبير، وعبد الله بن الزُّبير(٤)،

---

(١) مقاتل الطالبيّين: ص١٢٧.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ص١٢٨.

(٣) ابن زيد بن الإمام علي بن الحسين عليه السلام [١٠٧-١٢٥هـ]، أحد الأبطال الأشداء، ثار مع أبيه زيد على بني مروان. فانصرف بعد شهادة أبيه إلى بلخ، ودعا إلى نفسه سرًّا، قام بالثورة واستشهد ثم صُلب عليه الرحمة. أنظر: الأعلام، ج٨، ص١٤٦. منتهى الآمال، ج٢، ص٧١. زيد الشهيد، ص١٧٩. الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، ج١، ص٢٦٨. وستقرأ شيئًا من تفاصيل حياته الجهادية في الصفحات القادمة.

(٤) ابن العوام بن خويلد الأسدي القرشي [١-٧٣هـ]، فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، بويع له سنة ٦٤هـ عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة. فراح يظهر الزهد والتقوى، أطلق على نفسه العائذ ببيت الله. هو من المنحرفين والمبغضين للإمام علي عليه السلام، وكان الإمام علي يقول: «كان الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبدالله فأفسده». وكان سبَّابًا فاحشًا، يُبغض بني هاشم، ويعلن سب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. أنزل الأذى ببني هاشم، فقام بحصار من كان في مكة من بني هاشم في شعب، وكان منهم محمد بن الحنفية. جمع حطبًا كثيرًا عازمًا على إحراقهم، غير أن المختار بعث إليهم قومًا لنجدتهم من الحصار واستطاعوا

ومن أشبه من المتسلّطين على رقاب المسلمين في قتلهم لزيد ويحيى والمختار؟.

السبب في ذلك يرجع إلى أن ذلك الكاتب المدّعي للرسالية حينما يكتب كتابه فإنه يخضع لخلفية فكرية خاطئة ورثها دون تمحيص وتحقيق، مما يستوجب مراجعة جديدة لتلك الخلفيات. إذاً حينما نقوم بدراسة التاريخ، نهدف بذلك الدفاع عن المظلومين في التاريخ كـ: (زيد بن علي، ويحيى، والمختار، وسليمان بن صرد(١)، وحجر بن عدي(٢))، هؤلاء الذين يتّهمهم البعض دون تمحيص وتدقيق.

تخليصهم. ففر ابن الزبير وتعلّق باستار الكعبة وهو يقول: «أنا عائذ بالله». كانت له مع الأمويين وقائع هائلة، حتى سيّروا إليه الحجاج الثقفي، في أيام عبد الملك بن مروان، نشبت بينهما حروب انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة. أنظر: الأعلام، ج٤، ص٨٧. تتمة المنتهى، ج٣، ص٨٤-٨٥ و: ١٠٣.

(١) السلولي الخزاعي [٢٨ ق.هـ- ٦٥هـ]. من أصحاب رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين، والحسن والحسين عليهم السلام، كان اسمه في الجاهلية يسار، فسمّاه رسول الله سليمان، يُكنّى أبا المطرف، عدّه الطوسي في عدة المتخلفين عن أمير المؤمنين يوم الجمل. لكن العلامة المامقاني قال: «لم نقف من كتب التواريخ وأخبار السِّير حتّى كتاب فتنة الجمل للشيخ المفيد على عين منه ولا أثر»... وعن المفيد، أنه من المجمعين على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، بعد قتل عثمان، وعدّه الفضل بن شاذان من التابعين الكبار ورؤسائهم وزهّادهم. وعن ابن الأثير أنّه شهد مع علي مشاهده كلها، ونقلوا أنّه جعله أمير المؤمنين يوم صفّين على رجّالة الميمنة. هو ممن كتب إلى مولانا الإمام الحسين عليه السلام، من أهل الكوفة، وهذه المكاتبة وقعت في داره، ثم عجز عن نصره، فخرج مع التوابين وسمّوه أمير التوابين. مستدركات علم رجال الحديث، ج٤، ص١٣٧.

(٢) الكندي [ت: ٥١هـ]، صحابي جليل، فارس من كبار القادة، كثير العبادة، عرف براهب الصحابة. من الأبدال ومن أصحاب الإمام علي عليه السلام، روى الفضل بن شاذان قال: حدثنا طاوس، عن أبيه، قال: «أنبأنا حجر بن عدي، قال: قال لي علي عليه السلام كيف تصنع إذا ضربت وأمرت بلعنتي؟!. قلت له: كيف أصنع؟. قال عليه السلام: العنّي ولا تبرأ مني، فإني على دين الله. قال: ولقد ضربه محمد بن يوسف، وأمره أن يلعن عليا عليه السلام! وأقامه على باب مسجد صنعاء، قال: فقال: إن الأمير أمرني أن ألعن عليّاً عليه السلام، فالعنوه لعنه الله. فرأيت مجوازاً من الناس إلّا رجلاً فهمها وسلم». وقد أخبر النبي ﷺ بقتل حجر ظلمًا، كما في تاريخ دمشق، ج١٢، ص٢٢٦: «عن أبي الأسود قال: دخل معاوية على عائشة، فقالت: ما حملك على قتل حجر وأصحابه؟. فقال: يا أم المؤمنين، إني رأيت قتلهم صلاحًا للأمة، وأن بقاءهم فساد للأمة!.

فـإذا اسـتطعنا أن نُغـيِّر هـذه النظـرات الخاطئة عن أولئـك الرسـاليين فإننا نستطيع بالتالي تغيير الخلفيات غير الصحيحة الموجودة في ذهنيات الناس، وبالتالي نغيّر من اتجاه المجتمع ونجعله إلى الأمام أبداً.

هذه بعض الحيثيات التي نُبِّرر بها دراستنا للتاريخ.

فقالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم أهل السماء». وجاء في ص٢٣١ اعتراف معاوية وإقراره بقتله لحجر بن عدي، فقال: «ما قتلت أحدًا إلَّا وأنا أعرف فيمَ قتلتُه وما أردت به!. ما خلا حجر بن عدي، فإني لا أعرف فيما قتلته». وقال أبو مخنف: عن الصقعب بن زهير، عن الحسن [البصري]، قال: «أربع خصال كن في معاوية، لو لم يكنَّ فيه منهن إلَّا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابه، وذو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيرًا خميراً، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادًا، وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش، وللعاهر الحجر. وقتله حجراً، ويلاً له من حجر!..». تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٢٧٩.

صفو الكلام

* إن الدراسة الواعية للتاريخ، وتتبّع الظروف التاريخية التي كانت تكتنف صدور الأحكام الشرعية، وهكذا دراسة حياة الأئمة الأطهار عليهم السلام، كفيلة بتسليط الضوء على بعض النقاط الغامضة في الفقه الإسلامي بل وفي السيرة أيضاً.

* إن أهم ما يختص به العقل البشري هو الاستفادة من تجارب الآخرين، وهي الخاصية التي تجعل الحياة تسير بصورة تكاملية.

* إنّ النظرة السلبية والجامدة والكسولة للحياة هي سبب تخلّف الأمة، ولا يمكن اللحاق بركب الحضارة إلا بتصفية الينبوع الذي يعطينا الأفكار وهو التاريخ.

* النظرة الموضوعية للتاريخ تكشف لنا أن مسيرة المسلمين كانت ضمن خطين:

- خط المترفين الذين استأثروا بالسلطة.
- وخط التيارات الرسالية المعارضة التي كانت تكبح جماح المترفين.

* الوعي التاريخي حاجة ملحة أبداً ليس لقراءة الماضي فحسب، وإنما لقراءة الواقع أيضاً.

كيف يجب أن ندرس التَّاريخ؟

هناك خلفيات متباينة تُنتج أنماطاً مختلفة لدراسة التاريخ، تدور أكثرها حول الهدف الدافع للدراسة، فإذا كان هدف المؤرخ إضافة مجموعة معارف إلى معارفه فإنه يدرس التاريخ للتاريخ بغية استخلاص معلومات جديدة، كالذي يدرس التاريخ الفرعوني أو الحضارة الهندية القديمة بما هي في واقعها التاريخي بعيداً عن حاضره الذي يعيش فيه، وهذا الاتجاه هو السائد حاليًّا عند المؤرخين العلميين.

بينما هناك اتجاه آخر ينصب لنفسه هدفاً لدراسة التاريخ، وهو الاستفادة من عبر الماضي لإعادة بناء الحاضر وتشكيل فهم أكثر عمقاً وشمولية للحياة. ونحن انطلاقاً من مفاهيمنا الدينية والرسالية نؤيد القول الثاني، والسبب في ذلك أن مواقف الإنسان تتحدّد وفق رؤاه إلى الحياة، والرؤية هي صنيعة تراكم ثقافي عبر الأجيال، فالتاريخ حاضر وما زال حيًّا فينا، والاشتغال بالجانب الفكري والثقافي، وتكوين مفاهيم إيجابية، هو الذي يخلق لنا أرضية التحدي لواقعنا المتخلّف.

فمثلاً الجيش الذي ينهزم في معركة ما ينقسم أفراده إلى قسمين تبعاً للصفات والرؤى التي تشكّل شخصية أفراده:

القسم الأول: لا يزيده الانهزام إلَّا تحدياً. وقد تعني تلك الهزيمة بالنسبة إلى هذا النوع من الجنود انتصاراً؛ لأنهم يمتلكون موقفاً تجاه الهزيمة، وذلك الموقف هو التحدّي.

القسم الثاني: تسبب له الهزيمة العسكرية انهياراً نفسيًّا، وهؤلاء هم عادة الأكثرية، فالهزيمة الخارجية تنعكس على أنفسهم، فينهزمون نفسيًّا وينهارون وربما إلى الأبد. وهذا التباين هو نتاج طبيعي للخلفية المعرفية والفكرية التي يحملها الإنسان.

ومثال آخر لتوضيح هذا المعنى، إن الشاب الذي يذهب إلى البلاد غير الإسلامية قد يكون من النوع الضعيف الشخصية، فحينما يرى مظاهر الحضارة في العالم الغربي فإنه ينهزم نفسيًّا، وهذه الهزيمة تنعكس على سائر نواحي حياته، فإذا به يتّبع في علاقاته الاجتماعية النمط الأجنبي. بينما إذا كان هذا الشاب يمتلك نفسية شجاعة ومتحدية، وله رؤاه الخاصة النابعة من دينه وقيمه مما يخلق عنده حالة من التجاوز والاستعلاء على الباطل، نجده لا يرجع من الخارج إلّا بعد أن يوصل أفكاره وقيمه التي حملها إلى هناك، والتي كرّسها أولاً في نفسه، والسبب في ذلك هو أن موقفه السابق الذي حمله معه إلى هناك كان يفرض عليه أن يتحدّى.

فهذا المثال البسيط، يكشف عن أهمية الرؤية التي يحملها الإنسان تجاه الحياة، لأن السلوك الإنساني في الواقع هو نتاج طبيعي لموقفه من الحياة، التي ترجع بشكل مباشر إلى رؤاه الفكرية وخلفياته الذهنية التي تُكوِّن شخصيته المتميزة، وكل ذلك يتم تحقيقه بخلق وعي متكامل لكل أبعاد الحياة بما فيه التجربة البشرية على مستوى البعد التاريخي.

الرؤية التاريخية تصنع شخصية الأمة

إذا كان هذا الأمر صحيحاً كما قدّمنا، فإن العمل على بناء شخصية حضارية للأمة تتناسب مع مبادئها وقيمها لا بد أن يبدأ بالعمل على توفير ثقافة جديدة للحياة تتجاوز كل ما هو متخلّف، وتستحضر كل ما لديها من نقاط قوة وتقدّم، وهذا ما لا يتحقّق إلّا بالاستفادة من التاريخ، لأن عقلية الأمة لا تتشكّل بين عشية وضحاها، وإنما هو تراكم عملت الأيام والسنون على تكريسه، فغربلة هذا التراث

وتصنيفه هي الخطوة الأولى لتنضيج وعي جديد يتكفَّل بحل معضلات الحاضر، وبالتالي فإن أي جهد حركي لإصلاح الأمة يكون بعيداً عن مناله إذا أهمل الوعي التاريخي، لأنه ليس ضرورة معرفية فحسب وإنما ضرورة حياتية راهنة، فلو تغيّرت رؤية الإمة إلى التاريخ لتغيرت آليًّا حياتها، لأن رؤيتها إلى التاريخ ستنعكس على موقفها في الحياة، ومواقف الأمة في الحياة حينما تكون إيجابية صحيحة فإن حياتها تتحوّل كلها إلى حياة إيجابية، فهذا هو البعد الثقافي الذي يجب أن ننظر به إلى التاريخ، مما يكشف عن أهمية ذلك الرابط الذي يربط بيننا وبينه، أو بين الحاضر والتاريخ.

ومن هنا حين ندرس التاريخ يجب أن ندرسه بشكل يفيدنا في الواقع الذي نعيشه، فكل جيل يكتب تاريخه بيده، وفقاً لطموحاته وتطلعاته ومشاكله الخاصة، مما يعني أن لكل جيل شخصيته المعيّنة، التي يصوغ بها التاريخ بحيث تحقّق له تلك الطموحات، وبالطبع سوف تختلف آنئذٍ عن نظرة سائر الأجيال سواء السابقة أو اللاحقة، بل إن كل جيل عليه أن يكتب تاريخاً خاصًّا به ولا يعتمد على التاريخ الذي كُتب بأقلام الجيل الماضي.

هذه الحقيقة تنعكس على موقفنا من التاريخ الذي سيكون موقفاً إيجابيًّا عندما نهضم التاريخ ونستفيد منه ونحوّله إلى وقود لتحركنا في الحياة، ولتحقيق ذلك لا بد أن نُبيِّن الكيفية التي يجب أن ندرس بها التاريخ وذلك ضمن العنوان التالي:

دراسة التاريخ ككائن حي

عندما ننظر لأي حدث تاريخي باعتباره جامداً ضمن ظرفه الزماني فإن هذه النظرة سوف تحجمه ضمن بعد أسطوري لا علاقة له إلَّا بزمن وجوده وتحققه، بينما إذا نظرنا للتاريخ أو لأي حدث فيه باعتبار كونه شيئاً متحركاً ينبض بالحياة فإن ذلك الحدث يتجاوز زمن وقوعه ليرتبط بواقعنا ويتفاعل مع حاضرنا.

فحينما ندرس شخصية الإمام علي عليه السلام(١) مثلًا، علينا ألاَّ ندرسه إنساناً ذا بعد واحد، إنما الواجب هو أن ندرسه شخصية متكاملة، باعتباره رجلاً حيًّا بمبادئه ومواقفه، فإن نظرتنا ستختلف عن نظرة ذلك الإنسان الذي يدرس حياته باعتباره شخصاً عاش قبل (١٤٠٠) سنة ضمن حلقة من حلقات التاريخ المنصرم.

وكذلك دراسة الإمام الحسين عليه السلام وواقعة كربلاء، إما أن تكون دراسة لا تحاول أن تحرّك ذلك الحدث الضخم من واقعه التاريخي، فتصوّر تلك المعركة ضمن حدود زمنية تجاوزها الدهر، كأن نقف عند حدود مقتله بأن نقول: يُحكى أن الإمام الحسين استشهد بعد أن أصابه سهم في قلبه وجبهته ووقع من على ظهر الفرس مغشيًّاً عليه(٢).. إلخ. وعندها تغيب عنا كل دلالات تلك الواقعة، لأننا ندرسها وكأنّ الإمام الحسين عليه السلام وكربلاء قصة أسطورية لا تمثّل بشراً له كامل مقومات الحياة التي نمتلكها نحن اليوم أيضاً، فلا نستعرض في مخيلتنا أن هذا الإنسان الذي هو من لحم ودم، كيف يتألم حينما يقع سهم في جبهته، وكيف يتعذّب حينما يُذبح ابنه أمامه وفي حجره، وكيف يتألم حينما يعلم بأن عائلته سوف تُسبى من ورائه، وحينما نتصوّره واقعيًّا كبشر يتألم وله وضع معين فإن نظرتنا ستختلف بالنسبة لهذا الرجل العظيم، وبالتالي ستختلف استفادتنا منه.

ومن المؤسف أن كثيراً من الباحثين يقومون بدراسة ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء من بُعد واحد، لا يتجاوز سرد وقائع تاريخية، كأن يقولوا: إن

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي عليه السلام [٢٣ ق هـ-٤٠هـ]، وليد الكعبة المشرفة، أبو الحسن، أمير المؤمنين، وابن عم النبي صلى الله عليه وآله وصهره، أحد الشجعان الأبطال، ومن أكبر الخطباء والعلماء بالقضاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأول القوم إسلامًا. وربي في حجر النبي صلى الله عليه وآله ولم يفارقه. وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد. ولما آخى النبي صلى الله عليه وآله بين أصحابه قال له: «**أَنْتَ أَخِي وَوَزِيرِي، وَصَاحِبُ لِوَائِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْتَ صَاحِبُ حَوْضِي، مَنْ أَحَبَّكَ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَبْغَضَنِي**». ولي الخلافة سنة ٣٥هـ. وقضى شهيدًا في محراب الكوفة، قتله الشقي عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في المؤامرة المعروفة والمشهورة. طالع: بحار الأنوار، ج٣٥-٤٢. الأعلام، ج٤، ص٢٩٥. منتهى الآمال، ج١ للعلامة القمي.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٤. اللهوف، لابن طاووس، مقتل الإمام الحسين عليه السلام، للمقرم.

الإمام الحسين خرج من المدينة قاصداً مكة وبقي فيها سبعة أشهر، ثم جاء إلى كربلاء وقُتِل فيها، وبهذا تكتمل عندهم وقائع التاريخ، متجاهلين كل التحليلات التي تربط تلك الحركة بظروف موضوعية كانت دافعة لخروجه. فالإمام الحسين عليه السلام حينما خرج من المدينة المنورة كان له موقف من النظام السياسي الاقتصادي والاجتماعي، ومن التيارات والحركات والجبهات المتعددة التي كانت في المدينة. وبالتالي من الضروري معرفة تلك الظروف، ومعرفة المواقف التي بنى عليها الإمام الحسين عليه السلام حركته، وبأي مقياس كوَّن الإمام الحسين عليه السلام علاقته الإيجابية أو السلبية مع تلك الجبهات، كل ذلك يحدّد نظرتنا إلى خروج الإمام عليه السلام.

وهكذا نتابع المسيرة فنتعرّف إلى الحكمة من وجوده في مكة المكرمة، ونزوحه إلى كربلاء، حينما هبط أرض العراق، وكيف كان وضعها الاقتصادي والاجتماعي، وكيف تحوَّل أهل الكوفة بين عشية وضحاها من مؤيدين لمسلم بن عقيل⁽¹⁾ إلى مخالفين له⁽²⁾، وما هي العناصر البشرية التي كانت موجودة في الكوفة، وكيف كانت نفسياتهم، وجنسياتهم، وأنظمتهم الاقتصادية، والاجتماعية، وما هي سلوكياتهم، ومدى عمق الشعور الديني فيهم، بل الأكثر من ذلك كيف كانت الوسائل المادية التقنية من المواصلات والأمور العسكرية في البلاد الإسلامية؟.

هذه الأمور كلها يجب أن نعرفها حتى تساهم في تحديد نظرتنا الواقعية بالنسبة إلى الإمام الحسين عليه السلام وشهادته المشهورة.

---

(١) ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام [ت: ٦٠ هـ]، تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة. رسول الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة ليتعرَّف حال أهلها حين وردت عليه كتبهم يدعونه ويبايعون له. فرحل مسلم إلى الكوفة فأخذ بيعة (١٨٠٠٠) من أهلها وكتب للإمام الحسين عليه السلام بذلك. فشعر به عبيد الله بن زياد فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرَّقوا عنه، فأوى إلى دار امرأة من كندة (طوعة) فأخفته. ولم يلبث أن عُرف مكانه فقبض عليه ابن زياد وقتله. دفن في الكوفة، بُني له ضريح عرف باسمه. الأعلام، ج٧، ص٢٢٢. وأنظر بمزيد من تفصيل حياته وجهاده بدراسة وتحقيق العلامة السيد المقرم (الشيهد مسلم بن عقيل)، وأيضاً العلامة المحقق الشيخ القرشي (الشهيد الخالد مسلم بن عقيل).

(٢) أنساب الأشراف، ج٢، ص٧٧. مقاتل الطالبيين، ص٨٦.

فعندما نقرأ مثلاً أن الحركة الرسالية استوعبت الموالي(١): وهم الفرس والأقباط(٢)، والروم: وهم مجموعة من العناصر البشرية المتواجدة في الكوفة التي كانت في ذلك اليوم عاصمة الدولة الإسلامية غير الرسمية، وأن هذه المجاميع هي التي احتضنت الرسالة. نتساءل من هم الموالي، وكيف كانوا يعيشون، وما هي القوانين والأنظمة التي حكمت حياتهم، والتي كوَّنت العلاقة بينهم وبين العرب؟.

هذه الأسئلة يجب أن تُطرح. وعندما نطرحها، علينا أن نطرحها بصورة حية لمعرفة الظروف التي واكبت ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ومعرفة الحركات والأنظمة والمجتمعات والتكتُّلات التي كانت في الساحة السياسية.

إذن.. حينما نريد أن ندرس التاريخ، سواء بالنسبة إلى حركة من الحركات، كحركة الرسالة في التاريخ أو سيرة قادة ومرشدين كالأئمة المعصومين عليهم السلام أو سائر الناس، فلابد أن ندرسها باعتبارها حياة متحركة أمامنا، فما هي الحياة الحافلة وماذا تقتضي وكيف تكون؟ كل هذا يجب أن نعكسه على التاريخ وبالتالي ندرسه من خلال نظراتنا إلى الواقع الحاضر ومعرفتنا به، وبهذه الطريقة نستطيع أن نعرف التاريخ.

التاريخ يعلّمنا السنن الإلهية

وإذا عرفنا التاريخ وفقاً للبصيرة التي سبقت، حينها يكون باستطاعتنا معرفة القوانين التي تسيّر الحياة البشرية. لأن الحياة تحكمها سُنن واحدة ولكن ضمن وقائع وظروف مختلفة، مثال على ذلك: إننا إذا درسنا حركة التوَّابين(٣)، وحركة

---

(١) المسلمون غير العرب من فرس وترك.

(٢) جمع قبطي، وهو اسم يدل على ساكني وادي النيل بمصر.

(٣) بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء، تلاقت مجموعة من الشيعة في الكوفة بالتلاوم والندم لعدم نصرتهم للإمام الحسين عليه السلام بعد أن دعوه للبيعة، فأرادوا التوبة والتكفير عن ذنبهم، وأخذ الثأر للإمام الحسين، ففزعوا بالكوفة، وكان في مقدمتهم وزعيمهم سليمان بن صرد، والمسيب بن نجية الفزاري، وعبدالله بن سعد الأزدي، وعبدالله بن وائل التميمي. فعُرفوا بالتوَّابين.

المختار نرى بالرغم من أن الفاصل الزمني بين الحركتين لا يتجاوز السنتين، فإننا نرى أن هناك فرقاً كبيراً بينهما.

فحركة التوّابين كانت حركة مأساوية انتهت بالفشل الكامل(١). بينما حركة المختار كانت ناجحة نسبيًّا ولها امتدادات كبيرة في سائر الدول الإسلامية.

وهنا يأتي السؤال: لماذا فشل سليمان بن صرد قائد حركة التوّابين، ونجح المختار بن أبي عبيدة الثقفي إلى حدٍّ ما في حركته؟.

وعلى افتراض أننا قد عرفنا الجواب فإن باستطاعتنا معرفة أننا إذا أردنا أن نقوم بحركة فيجب أن نقوم مثل قيام المختار وليس مثل سليمان على أقل التقادير، وبالتالي نستطيع أن نستفيد من التاريخ استفادة كبيرة، وهي أن نعرف منعطفات التاريخ وأسبابها والعوامل المؤثرة في تغيير مسيرته؛ لأن التاريخ يعيد نفسه، فإذا كانت هناك أخطاء كبيرة وقع فيها الرساليُّون من قبلُ يجب أن نتجنَّبها، وذلك مثل ما حدث للعلويين الذين ضحَّوا وثاروا على الواقع الأموي، إلَّا أن العباسيين حصدوا الثمرة. ولاكتشاف المشكلة لا بد أن نحلل الواقع التاريخي.

الثورة بين العلويين والعباسيين

إن التضحيات التي قام بها الخط الرسالي، بعد نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، كالثورات التي قادها أبناء البيت العلوي من أمثال: زيد بن علي، ويحيى بن زيد، وأولاد الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ كصاحب فخ(٢)، وبَاخَمْرَا(٣)، وآخرين، والثورات التي

---

(١) يتضح لك في الصفحات القادمة.

(٢) وادٍ يبعد عن مكة بثلاثة أميال، فيه التقى الثائرون بجيش الهادي العباسي وانتهت المعركة بهزيمة جيش الحسين بن علي الفخي، ومقتله هو وجماعة من أصحابه. روي عن الإمام الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «**لَمْ يَكُنْ لَنَا بَعْدَ الطَّفِّ مَصْرَعٌ أَعْظَمَ مِنْ فَخٍّ**». بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٦٥. توافيك الصفحات القادمة بشيء من تفاصيل ثورته.

(٣) قال في معجم البلدان، ج١، ٣١٦: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب. قالوا: بين باخمرا والكوفة سبعة عشر فرسخًا، بها كانت الوقعة بين أصحاب أبي جعفر المنصور

قامت طلباً للرضا من أهل البيت عليهم السلام كسليمان بن صرد والمختار، كانت تُمثِّل الجهد الحقيقي الذي زعزع أركان الدولة الأموية، وبرغم ذلك فقد كانت المحصلة دولة عباسية لا تختلف في شيء عن الدولة الأموية.

فكيف تحقّق ذلك؟.

وبتعبير آخر: كانت التضحيات من العلويين، والمغانم والمكاسب للعباسيين. وهذا سؤال كبير؛ لأنه من الممكن أن تتكرّر هذه الواقعة مرات أخرى في غير مكان، حيث يُقدّم الرساليون التضحيات، بينما يجني الثمرة الانتهازيون والوصوليون وثوار الفنادق.

كما أن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام هو الذي زرع، والسفاح(١)، والمنصور(٢)،

وإبراهيم بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فقتل إبراهيم هناك فقبره به إلى الآن يزار، وإياها عنى دعبل بن عليّ بقوله:

وقبر بأرض الجوزجان محلّه   وقبر بباخمرا لدى الغربات

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب [١٠٤-١٣٦هـ]، (أبو العبَّاس السَّفَّاح)، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاة. بُويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢هـ. وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد، وكان شديد العقوبة، عظيم الانتقام، تتبَّع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبقِ منهم غير الأطفال والهاربين إلى الأندلس. لقب بالسفّاح لكثرة ما سفح من دمائهم. الأعلام، ج٤، ص١١٦.

(٢) عبدالله بن محمد بن علي العباسي [٩٥-١٥٨هـ]، تولى الخلافة سنة ١٣٦هـ. أمه فارسية وقيل بربرية. في أنساب الأشراف،ج٤، ص٢٠٢: أن أبا مسلم وصفها بالزانية فقال: «أفَعَلَها ابن سلامة الفاعلة..»!. وفي حكمه دفن المنصور عددًا من العلويين أحياءً في أسطوانات بغداد، كما في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ص٢، ص١٠٢: «لما بنى المنصور الأبنية ببغداد، جعل يطلب العلوية طلبًا شديدًا، ويجعل من ظفر منهم في الأسطوانات المجوفة المبنية من الجص والآجر!». طارد الأمويين وقتلهم، وخاض حربًا ضد مروان، بل جعل ولاية عهده لمن يذهب لحربه. راجع وفيات الأعيان، ج٢. كما تعقَّب أبناء أهل البيت عليهم السلام بالقتل والتنكيل، وقد قال للإمام الصادق عليه السلام مشافهة: «لأقتلنك ولأقتلن أهلك حتى لا أبقي على الأرض منكم قامة سيف..». دس السم للإمام الصادق عليه السلام، كما في كثير من المصادر التاريخية. راجع مثلًا: دلائل الإمامة للطبري، والإرشاد للمفيد قدس سره.

وهارون الرشيد(١)، هم الذين حصدوا. لماذا؟.

إذا عرفنا الجواب هناك نستطيع أن نعرف الجواب هنا. ولا نعرفه فقط، وإنما لا نسمح لأنفسنا بأن تتكرّر تلك التجربة.

ولمعرفة ذلك المنعطف الذي حوَّل المسار إلى صالح العباسيين، لا بد أن نعرف ذلك الحدث التاريخي ضمن الظروف الموضوعية التي شكَّلت ملابساته، فقد كانت للعلويين حركة سرية في أيام الأمويين، لها انتشار في كافة البلاد الإسلامية، وتميَّزت هذه الحركة بطابع تنظيمي يجعل على كل مجموعة داعية يُمثِّل قيادة وسيطة، ويربط بين هذه القيادات جهاز مشرف واحد، هو الذي يرتبط بالقيادة الأساسية هو الإمام الذي يمارس عمله بصورة سرية، والإمام هو الجهة التي تربط خيوط جميع تلك المجموعات، وبالتالي هو الشخص الوحيد الذي يعرف أسرار الحركة بكاملها ويعرف دعاتها وأين هم وارتباطهم، وهذه السرية هي نتاج تجربة من الصراع المرير مع النظام الأموي، فهي الصورة الوحيدة للنجاح التي دونها لا يمكنهم تحقيق أهدافهم، لذلك عملوا بالسرية المطلقة.

---

(١) هارون بن محمد بن المنصور العباسي، [١٤٩-١٩٣هـ]، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم. بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ. يلقب بجبّار بني العباس، وهو أول خليفة عباسي لعب بالكرة والصولجان. صاحب وقعة البرامكة، وهم من أصل فارسي، وكانوا قد استولوا على شؤون الدولة، فقلق من تحكمهم، فأوقع بهم في ليلة واحدة. قابل العلويين وشيعتهم بكل قسوة وصرامة فقد ساسهم كما ساسهم جدّه المنصور بسياسة العنف والجور والاضطهاد، ويضاف إلى ذلك عدم تورعه عمّا حرَّمه الله فقد أسرف في الإثم والموبقات، أقسم على استئصالهم وقتلهم فقال: «والله لأقتلهم -أي العلويين- ولأقتلنَّ شيعتهم». كما أرسل طائفة كبيرة منهم إلى ساحات الإعدام، ودفن قسمًا منهم وهم أحياء، وأودع الكثيرين منهم في ظلمات السجون إلى غير ذلك من المآسي الموجعة التي صبَّها عليهم. كما ضاق الرشيد ذرعًا واستشاط غضبًا وغيظًا حينما رأى جماهير المسلمين تتهافت على زيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام، فأمر بإحضار سادن المرقد المطهر ابن أبي داود ليصب عليه جام عقابه... فأمر بهدم المرقد العظيم وهدم الدور المجاورة له. كما طارد الرشيد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وسجنه في ظلم المطامير ثم قتله. الأعلام، ج٨، ص٦٢.

بناءً على هذه الخلفية نستطيع أن نفهم انحراف المسيرة لصالح العباسيين، لأن الرجل الذي كان على رأس الجهاز المشرف للحركة وهو العلوي أبو هاشم(١)، أصيب بمرض في الطريق إلى المدينة المنورة خلال توقفه في قرية الحميمة(٢)، بعد أن ذهب إلى الشام ليقوم بالدعاية والعمل التنظيمي وليُلبِّي دعوة(٣) الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. وقد أشرف أبو هاشم على الموت فخشي أن تفشل بعد مماته الدعوة؛ لأن أسرار الحركة كلها عنده، فالدعاة لا يرتبطون ببعض مباشرة بسبب منهج العمل السري، وكذلك لأنهم منتشرون ما بين خراسان والكوفة والمدينة ومصر والشام، فحفاظاً على المسيرة وخوفاً من أن تموت الحركة بموته أخذ في التفتيش عن رجل يُسلِّم بيده الأمانة، والتي تشمل أسماء الدعاة وكلمات السر التي فيما بينهم، وبعد أن فتَّش أبو هاشم في تلك القرية، لم يجد علويًّا يُسلِّمه أسرار الدعوة، ولكنه وجد أحد العباسيين وهو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فاختاره وسلَّمه تلك الأسرار، وبيَّن له أن الحكم هو من حق العلويين وينبغي أن يبقى بأيديهم، وبذلك أصبح هذا العباسي هو المالك لزمام الحركة بعد أن عرف كل أسرارها بما فيها رسائل إلى الدعاة. وبعد أن توفي أبو هاشم أصبح ذلك العباسي هو الإمام من بعده(٤).

فبينما كانت الحركة العلوية على مشارف النجاح والانتصار، جاء العباسيون وقطفوا الثمار واستولوا على الحكم، وكل ذلك كان نتيجة منعطف بسيط في التاريخ مكّن العباسيين من أن يسرقوا الحكم من العلويين.

---

(١) عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب عليه السلام، المعروف بـ(عَبْد الله الهاشمي) [ت: ٩٩هـ]، أبوهاشم: أحد زعماء العلويين. وهو يعدّ من واضعي أسس الدولة العباسية. الأعلام، ج٤، ص١١٦.

(٢) قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام والحجاز.

(٣) كان سبب دعوة أبي هاشم للحضور إلى الشام من قبل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أنه كان يخشى من أبي هاشم أن يدعو إلى نفسه، فدس إليه السم.

(٤) الكامل في التاريخ: ج٤، ص ٣١٦. أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٧٥.

إن مثل هذه المعرفة بالأحداث التاريخية تخلق وعياً حركيًّا لمسيرة الأحداث على مستوى الحاضر، لأن العمل الإسلامي اليوم يمر بمنعطفات شبيهة بالتي مرت في التاريخ، وقراءة التجربة التاريخية بصورة ناضجة كفيل بمنع الحركات الإسلامية من تكرار أخطاء الحركات السابقة، والكل يعرف أنّ واقع الحركات الرسالية منذ حوالي خمسين سنة وإلى الآن شهد قصصاً كثيرة وشبيهة بقصة الداعية العلوي السابق الذكر.

ففي العراق مثلاً، نجد أن الاستقلال قام على أكتاف الناشطين الإسلاميين وبالأخص من أتباع أهل البيت عليهم السلام ولكن الذي استطاع أن يحكم العراق بعد الاستقلال هو الملك فيصل ابن الشريف حسين(١)، القادم من خارج العراق، والسبب في ذلك هو غياب الوعي التاريخي، فلم يكونوا يعرفون أن تنازلهم عن حقهم هنا ماذا يعني في المستقبل.

إنه يعني المجازر، والتشريد، والتهجير الجماعي، والاستغلال، والاستعباد لفترة طويلة من الزمن، ولا يمكن أن يستبق الإنسان إلى هذه النتيجة إلّا بالوعي التاريخي.

من هنا فإن طريقة دراستنا للتاريخ هي أن نجعله وكأنه أحداث حية تجري أمامنا، وذلك إذا نظرنا إليه بمنظار الحاضر، فإذا عرفنا سُنن التاريخ وقوانينه فإن من السهل تطبيقها على واقعنا المعاش، عندها سيصبح لنا وعي تاريخي ننتصر به ونتفوّق به في الحياة.

---

(١) الملك فيصل الأول [١٨٨٣-١٩٣٣م]، أول ملوك المملكة العراقية: ١٩٢١-١٩٣٣م. الابن الثالث لشريف مكة، الشريف حسين بن علي الهاشمي [١٨٥٤-١٩٣١م] مؤسس الدولة الحجازية الهاشمية والحاكم قبل الأخير لمكة من الأشراف الهاشميين. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج٥، ص٢٥٠٢.

صفو الكلام

* هناك اتجاهان في دراسة التاريخ:

ألف: دراسة التاريخ للتاريخ، وهذا هو السائد حالياً بين المؤرخين العلميين.

باء: دراسة التاريخ بهدف الاستفادة من عبر الماضي لإعادة بناء الحاضر واستشراف المستقبل. ونحن نؤيد هذا الاتجاه، لأن مواقف الإنسان تتحدد وفق رؤاه في الحياة، والرؤية هي صنيعة تراكم ثقافي عبر الأجيال، فالتاريخ حاضر ولا يزال حيّاً فينا.

* بناء الشخصية الحضارية يبدأ بالعمل على تجاوز كل ما هو متخلّف واستحضار كل نقاط القوة والتقدم، وهذا لا يتحقق إلّا بالاستفادة من التاريخ.

* وإذا درسنا التاريخ وفقاً للبصيرة السابقة، فإننا نستطيع معرفة القوانين التي تسيّر الحياة البشرية، لأنّ الحياة تحكمها سنن واحدة ولكن ضمن وقائع وظروف مختلفة.

* وإذا عرفنا -عبر دراسة التاريخ- أسباب فشل بعض التجارب الماضية، علينا ألّا نسمح لأنفسنا بتكرار تلك التجارب، فبالوعي التاريخي نتجاوز الكثير من أسباب الفشل.

نُشُوء الحركة الرِّساليَّة

تمثَّلت بداية تحول الرساليين إلى حركة سياسية جماهيرية معارضة للنظام السياسي بعد مقتل الامام الحسين عليه السلام في العام (٦١) من الهجرة النبوية، فقبلئذٍ كانت الحركة موجودة، وكان لها مظهر سياسي يتمثل في حكومة الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكنه كان على نطاق محدود نسبيًّا موزعاً في أنحاء البلاد الإسلامية.

ولكن بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، تحوَّل الرساليون إلى حركة جماهيرية معارضة شملت جميع المسلمين وبلا استثناء، حيث إن المسلمين عرفوا حقيقة الاسلام ومغزى التفكير الرسالي الذي نادى من أول يوم بأن يكون الحكم حكماً مستقيماً وصالحاً، وعرف العالم الإسلامي كله آنئذٍ أنه كان من الخطأ الفظيع سكوت الأمة على انحراف القيادة؛ لأن ذلك السكوت أدَّى بالتالي إلى فاجعة كبيرة كفاجعة كربلاء. من هنا فنحن نؤرّخ للحركة الرسالية منذ عام ٦١هـ.

فما الذي حدث بالضبط بعد استشهاد الإمام الحسين؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من تمهيدين:

الأول: معرفة النظام الأموي بالمقاييس العصرية، بما فيها الألفاظ والكلمات المستخدمة الآن في القواميس العلمية والأدبية.

الثاني: معرفة طبيعة الحركات الرسالية، وما هي المجموعات البشرية التي اشتركت في تلك الحركات.

أولاً: طبيعة النظام الأموي

إن السلوك الإنساني على مستوى الفرد أو الجماعة هو انعكاس لما يحمله الفرد أو الجماعة من خلفيات نفسية وسلوكية، وهي السمات التي تمثّل أصل الطبيعة وأساس التوجُّه، وبالتالي فإنّ طبيعة النظام الأموي هي تعبير عن طبيعة بني أمية في الأساس، ومن هنا فإنّ الإشارة إلى بني أمية قبل الإسلام وبعده يسلّط الضوء على طبيعة نظام الحكم الأموي.

أما قبل دخولهم في الإسلام فقد كان الحزب الأموي جزءاً لا يتجزّأ من المجتمع الجاهلي المولع بالدم، والغارق إلى أذنيه في الجريمة، و «**شِعَارُهَا الخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ**»⁽¹⁾ -كما تشير إلى ذلك بعض كلمات الإمام علي عليه السلام-. إضافة إلى ذلك، فقد كان الحزب الأموي قائداً للتجمّع القبلي الذي حارب الرسالة الإسلامية منذ بدايتها، والسبب في ذلك أن بني عبد الدار هم الذين كانوا يقودون القرشيين في كل الحروب، باعتبارهم يُشكّلون وزارة الدفاع في أيام حكومة قريش التي كانت هي سيدة العرب في زمن الجاهلية الأولى. والذي كان يمثّل بني عبد الدار هم الأمويون وفي طليعتهم أبو سفيان⁽²⁾، وعندما جاء الإسلام بتأسيس جديد يتجاوز كل التقسيمات القبلية، تحوّل هذا الدين الجديد -في نظر الزعامات التقليدية- إلى خطر حقيقي يُهدّد مصالحهم، ولهذا عمل أبو سفيان والحزب الأموي من بعده على الوقوف في وجه الدين الجديد⁽³⁾، حتى أصبحوا هم العقبة الأساس التي مثّلت كل صراع الإسلام مع الكفر.

أما بعد انتصار الرسالة الإسلامية على كل جبهات الكفر، قام الحزب الأموي

---

(١) نهج البلاغة، خ ٨٩.

(٢) الطبقات الكبرى، ج١، ص٦٣-٦٤.

(٣) قاتل أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحد، وقتل خيار أصحابه سبعين ما بين مهاجري وأنصاري، منهم أسد الله حمزة.. كما قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الخندق، وكتب إليه: «باسمك اللهم، أحلفُ باللات والعزى، وأساف ونائلة وهبل، لقد سرتُ إليك أريد استئصالكم فأراك قد اعتصمت بالخندق، فكرهت لقاءنا ولك مني كيوم أُحد». النزاع والتخاصم، ص٥٢.

بتغيير طريقته وأسـلوبه(١). فبعد أن كان يمارس عداءه بطريقة علنية(٢)، ومن موقع القوة، تحوّل بعد الانتصار إلى العمل السري ومن موقع الضعف والنفاق(٣).

تنامي الحزب الأموي

وقـد تمكّنوا بهـذا الآلية الجديدة التـي اعتمدت على النفاق بصورة متمرسـة ومدروسة من الانتشـار حتى كوَّنوا لهم امتداداً ونفوذاً داخل الحكم الإسلامي(٤)، وأول مـن اعتمـد على الحزب الأمـوي في تكوين حكومة ائتلافية -حسـب التعبير الحديث- هو الخليفة الثاني الذي جعل من بعضهم قادة لبعض الحروب(٥)، واعتمد عـلى البعـض الآخر بشـكل كبير(٦). ويذكـر أن الحزب الأمـوي كان قد تسرَّب إلى الحكم في عهد الخليفة الأول بصورة نسبية(٧).

وبحكـم هذا التآلف مارس الحزب الأموي ضغوطاً كبيرة على الخليفة الثاني حتى يصبح معاوية حاكماً على الشـام، ونجـح في ضغوطه. فلم يكن معاوية بن أبي

---

(١) جاء في أسد الغابة، ج٥، ص١٤٩. روي أنه -أبا سفيان- لما أسلم ورأى المسلمين وكثرتهم، قال للعباس: «لقد أصبح ملك ابنِ أخيك عظيمًا. قال ابن عباس: إنّها النبوّة! قال: فنعم، إذًا».

(٢) قال أبو سفيان: «يا بني أمية، تَلَقَّفُوها تلقُّفَ الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرَنّ إلى صبيانكم، وراثة..». مروج الذهب، ج٢، ص٣٤٣.

(٣) روي أن معاوية سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله!. فقال معاوية: لله أبوك يا بن عبدالله! لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلّا أن يُقرن اسمك باسم رب العالمين. شرح نهج البلاغة، ج١٠، ص٣٢١.

(٤) كان هذا الأمر واضحاً وجليًّا، وبانت علائمه عند مجيء الخليفة الثالث عثمان، بل جعل عثمان بني أمية أوتاد خلافته، وهو ما حقّقه وأثبته المقريزي في كتابه النزاع والتخاصم، فراجعه.

(٥) كان قائد الجيش الذي فتح مصر ثم عينّ والياً عليها عمرو بن العاص الأموي. تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص١٠٤.

(٦) ولي في عهد الثاني على الشام يزيد بن أبي سفيان، ولما مات استخلف مكانه أخاه معاوية، واستقر على ولاية الشام، وكانت الرسل تأتي لعمر تشتكيه من أفعال معاوية وتذمّه، وكان يقول لهم: «دعوا فتى قريش وابن سيدها..» البداية والنهاية، ج٧، ص١٠٩.

(٧) كان يزيد بن أبي سفيان قائداً لأحد الجيوش الأربعة التي أنفذها الخليفة الأول لفتح الشام (تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٣٨٧). وفيه: لما استلحق معاوية بأبويه عينه أميرًا على الشام.

سفيان وحده، فقد كان معه مجموعة من آل سفيان والمغيرة ومروان، يشكّلون معاً تجمعاً كاملاً. وباعتبار أن معاوية هو ابن أبي سفيان الذي كان قائداً لبني أمية في أيام الجاهلية، لذا فقد تم اعتباره والياً على الشام، علماً بأن أخاه يزيد بن أبي سفيان كان أحد القادة العرب لجبهة الشام. وبعد اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب⁽¹⁾، تسارعت الأحداث لصالح بني أمية، ولعل الحقائق التاريخية ترجّح أن الأمويين كان لهم اليد الطولى في اغتياله⁽²⁾، فعلى ضوء المعطى القانوني الذي يدين المستفيد من الجريمة تكون الشبهة أكثر انحصاراً فيهم باعتبارهم المستفيد الوحيد، حيث أصبح الخليفة من بعد عمر من بني أمية وهو عثمان بن عفان الذي أطلق لهم العنان في اللعب بمقدرات الأمة الإسلامية المتنامية⁽³⁾، فعيَّن منهم الولاة⁽⁴⁾ والقضاة وقادة الحرب⁽⁵⁾ وقد خصّهم بالعطاء من بيت المال⁽⁶⁾.

---

(١) قتله فيروز، غلام المغيرة بن شعبة المعروف بـ(أبي لؤلؤة). تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص١٩٠. أنساب الأشراف، ج١٠، ص٤٢٤. وكان أصل أبي لؤلؤة من نهاوند، فأسره الروم أيام فارس، وأسره المسلمون بعدُ، فنسب إلى حيث سبي. البداية والنهاية، ج٧، ص١١٢.

(٢) ومن القائلين بهذا الرأي العلائلي، في كتابه سمو المعنى في سمو الذات، ص٣١، فراجعه.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٣١. وقال تقي الدين المقريزي: «رُوي أن الأمر لما أفضي إلى عثمان بن عفان، أتى أبو سفيان قبر حمزة فَرَكَلَهُ برجله ثم قال: «يا حمزةُ، إن الأمر الذي كنتَ تقاتلنا عليه بالأمس قد مَلَكْناه اليوم، وكنا أحق به من تيم وعدي». النزاع والتخاصم، ص٨٤.

(٤) ولي إمارة الشام معاوية بن أبي سفيان. تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٤٢١. أما مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ فإنه أصبح في خلافة عثمان بن عفان بمنزلة الوزير. وكان عامله على الكوفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو المعروف بفسقه وشربه للخمر، حتى إنه قدم يومًا إلى صلاة الفجر في المسجد وهو سكران، فصلى بأهل الكوفة صلاة الصبح أربع ركعات، ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟. أسدالغابة، ج٤، ص٦٧٦. وقتل ببدر كافرًا، قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. النزاع والتخاصم، ص٥١.

(٥) غزا معاوية بن أبي سفيان وبأمرٍ من عثمان قُبرس. وغزا الوليد بن عقبه في إمارته على الكوفه أذربيجان، وأرمينية.. وعمرو بن العاص غزا الإسكندرية بعد نقضها للعهد فقتلهم. تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٤.

(٦) خص عثمان قومًا من بني أمية بعطاياه وهباته الكبيرة، فقد ذكر المؤرخون أنه وهب أبا سفيان مائتي ألف من بيت المال شرح النهج، ج١، ص١٩٧-١٩٨، كما أعطى للحارث بن الحكم

ولمّا نما الأمويون ووصلوا إلى درجة كبيرة من القوة والنفوذ، قرروا التخلص من عثمان نفسه(١)، لأنه لم يكن يمثل امتداد أبي سفيان الزعيم التقليدي لبني أمية، ومعاوية

ثلاثة آلاف درهم، ووهبه إبل صدقات المدينة، وأقطعه «بموضع سوق بالمدينة، يعرف بمهزور» وهو الذي تصدّق به النبي ﷺ على المسلمين، وكتب لمروان بن الحكم بخُمس إفريقية (بلغت خمس مئة ألف دينار)، وأعطى أقاربه المال وتأوّل في ذلك الصلة التي أمر الله بها، واتّخذ الأموال واستسلف من بيت المال مالًا وقال: إنّ أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما، وإني آخذه فأصل به ذوي رحمي..». أنساب الأشراف، ج٥، ص٥١٢ و٥٤١. وروي أنه حين استعمل عمر بن الخطاب، عُتبة بن أبي سفيان على كنانة «فقدم معه بمال، فقال: ما هذا يا عتبة؟. قال: مال خرجت به معي وتجرت فيه، قال: ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه!. فصيّره في بيت المال. فلما قام عثمان بن عفان قال لأبي سفيان: إن طلبتَ ما أخذ عمر من عتبة رددته عليه..». أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٣٢، ومثله بشيء من الاختلاف في الفخري، ١٠٢-١٠٣.

(١) يذكر المؤرخون أن بني أمية وآل أبي معيط أسلموا عثمان وانهزموا عنه بعد أن أحاط به الثوار، وقد خذله معاوية، حيث كتب عثمان لمعاوية يستنجده ويستصرخه وهو واليه على الشام، فقال في كتابه: «.. إن أهل البغي والسفه والجهل والعدوان من أهل الكوفة وأهل مصر وأهل المدينة قد أحاطوا بداري ولم يرضهم شيء دون قتلي، أو خلعي سربالاً سربلنيه ربي، ألا وإني ملاقٍ ربي، فأعنّي برجال ذوي نجدة ورأي، فلعلّ ربي يدفع بهم عنّي بغي هؤلاء الظالمين الباغين عليّ. والسلام». وقد حمل الكتاب مسور بن مخرمة، فقال لمعاوية بعد أن قرأ معاوية الكتاب: «يا معاوية، إن عثمان مقتول فانظر فيما كتبت به إليه.. فقال معاوية: يا مسور، إني مصرّح أن عثمان بدأ فعمل بما يحبّ الله ويرضاه ثم غيّر فغيّر الله عليه، أفيتهيّأ لي أن أردّ ما غيّر الله عزّ وجلّ». الفتوح، ج٢، ص٤١٧. وذهب جملة من المؤرخين إلى أن معاوية كان يترقب مصرعه ليتخذ من دمه وسيلة للظفر بالمُلك، وقد قال الإمام علي عليه السلام لمعاوية في أمر عثمان: «**فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَه**»، وقالوا: بأن مروان بن الحكم كان السبب في الثورة على عثمان، كما أورده المسعودي في تاريخه، ج٢، ص٣٤٤. وقال ابن الأثير: «خرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، وكان يقول: والله إنّي كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان..». الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٥. وروى البلاذري في أنساب الأشراف ج٢، ص٢٨٧، عن لسان عمرو بن العاص في محاورته مع معاوية في أمر عثمان: «إنّ أحق الناس ألّا يذكر عثمان لأنا وأنت، أما أنا فتركته عيانًا وهربت إلى فلسطين، وأما أنت فخذلته ومعك أهل الشام». للاستفادة والإيضاح انظر: الصحيح من سيرة الإمام علي، المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، ج١٨. وأيضًا ما كتبه العلامة المحقق الشيخ الأميني في الغدير، ج٩.

ابن أبي سفيان(١)، موجود وله سلطة ونفوذ كوّنها خلال فترة ولايته على الشام، فعمل على تركيز كل الدولة بشكل أساسي في بلاد الشام، المنطقة العربية، الحديثة الانعتاق من سلطة الرومان. ولم يكن اختيار الحزب الأموي لبلاد الشام مقرًّا لسلطته عبثاً، وإنما كان وفقاً لتخطيط مسبق، فهي مسندة من الخلف من قبل الإمبراطورية الرومانية، هذا مضافاً إلى أن عرب الشام هم الذين قاموا بقيادة العرب الآخرين إلى حدٍّ ما، نيابة عن الحكم الروماني، فلهم حالة من التمرُّس على الحكم والقيادة(٢).

وبذلك يمكننا تشكيل تصور أولي مفاده أن بني أمية سعوا بكل الوسائل لوراثة الدولة الإسلامية، وبالتالي لم يكونوا يتورعون عن استخدام أي وسيلة توصلهم إلى ذلك الهدف، حتى أصبحوا مثالاً لذلك النظام ذي الطبيعة القبلية الجاهلية المولعة بالدم والغارقة إلى أذنيها في الجريمة.

بناء الجيش الأموي

أول ما قام به معاوية بن أبي سفيان هو جمع الأموال من عرب الشام(٣) بطريقة مشروعة أو غير مشروعة(٤)، مضافاً إلى الأموال الموجودة مسبقاً عند الأمويين

---

(١) عُرف معاوية [٢٠ق هـ-٦٠هـ] بالمكر والدهاء والغدر، وبسياسة البطش والجبروت، فاستهان بمقدرات الأمة وكرامتها، قال بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام: «ألا كل شيء أعطيته للحسن بن علي تحت قدميَّ هاتين لا أفي به». وعنه قال الحصين بن نمير: «ما وفى معاوية للحسن بشيء مما أعطاه، قتل حجرًا وأصحاب حجر، وبايع لابنه، وسم الإمام الحسن». وعن إسلامه فال ابن أبي الحديد: «معاوية مطعون في دينه عند شيوخنا (رحمهم الله)، يُرمى بالزندقة» شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢٨٧.

(٢) كانت قُضَاعة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام، وانضافوا إلى ملوك الروم، فملَّكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب... ثم وردت سليح الشام فغلبت على تَنُوخَ، وتنصرت فملَّكتها الروم على العرب الذين بالشام... وغلبت غسان على من بالشام من العرب، فملَّكها الرومُ على العرب. المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٨٢-٨٣.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص٢٦٩. وقال اليعقوبي، ج٢، ص٢٣٢: «إن معاويه أول من استصفى أموال الناس، فأخذها لنفسه».

(٤) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٢٢.

نتيجة خبرتهم في التجارة، وما تمكَّنوا من نهبه أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ثم وظف هذه الثروة في شراء الضمائر والنفوس الضعيفة من فلول الجيش الأموي⁽¹⁾ الجاهلي الذي هزمه الإسلام، لتكوين جناح عسكري جديد يكون قادراً على محاربة الإسلام المتمثل في أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وبالتعبير الحديث، قام بتوظيف المرتزقة والمحاربين القدامى لتكوين جيش ضخم يتركب من العرب الذين كانوا يحاربون الإسلام في بداية أمره، ومن الذين أصبحت الحرب مهنتهم وحرفتهم، وكذلك من الموتورين الحاقدين على الإسلام، هذا مضافاً إلى المرتزقة الأجانب الذين وجدوا مصالحهم تقترب من معاوية.

فهذا حسان بن مالك⁽²⁾ -الذي كان رئيس قحطان وسيدها بالشام- لما بايع مروان بن الحكم، اشترط على مروان ما كان له من الشروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد، منها: أن يفرض لهم لألفي رجل منهم ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وَصَدْر المجلس، وكل ما كان من حل وعقدٍ فعن رأي منهم ومشورة. فرضي مروان بذلك، فانقاد إليه. وقال له مالِك بن هُبَيْرة اليشكري⁽³⁾: «إنه ليست لك في أعناقنا بيعة، وليس نقاتل إلَّا عن عَرَض دنيا؟ فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى فوالله ما قريش عندنا إلَّا سواء، فأجابه مروان إلى ما سأل!»⁽⁴⁾.

---

(١) حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، للقرشي، ج٢، ص١٢٦.

(٢) ابن بَحْدَل بن أنيف، أبو سليمان الكلبي [توفي نحو ٦٥هـ]: أمير بادية الشام. كان من القادة في جيش معاوية يوم صفين. ثم آزر مروان في حربه مع الضحاك بن قيس. قال أحد مؤرخيه: سلم الناس على حسان بالخلافة، أربعين ليلة، ثم سلم الأمر إلى مروان. وكان له قصر في دمشق يعرف بقصر البَحْادلة، ثم صار يعرف بقصر ابن أبي الحديد». الأعلام، ج٢، ص١٧٦.

(٣) ابن خالد السكونّي الكندي [ت: ٦٥هـ]، من رؤساء كندة في العصر الأموي، بالشام. ومن الخطباء. كان مع معاوية أيام صفّين. الأعلام، ج٥، ص٢٦٧.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص١١، مروج الذهب، ج٣، ص٨٦. المنتظم، ج٥، ص٢٢٣.

مستشار رومي للاستخبارات العسكرية

أما في الشأن الأمني والسياسي، نجد أن معاوية اختار مستشاراً(١) روميًّا، وهو سرجون(٢)، كاتباً(٣) ومتوليًّا لرئاسة ديوان الرسائل والخراج(٤)، وعيّنه في وظائف هامَّة وأعطاه صلاحيات كبيرة(٥).

أما والد سرجون (منصور)، فقد اعتمد عليه معاوية كثيرًا لخبرته بالشؤون العسكرية والأمنية(٦)، إذ كان من قواد الجيش الروماني، فوسَّع له في الصلاحيات حتى

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٤١. الدعوة إلى الإسلام، سير أرنولد، ص٦٠. فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج١، ص٥٧. تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص١٢٤.

(٢) ابن منصور الرومي، (نصراني)، أبو القديس يوحنا الدمشقي، الذي عرف بابن سرجون، أو سمي بجده ابن منصور، أو سمي بمنصور على قول. وسرجون كاتب معاوية ومستشاره الخاص، وصاحب سرِّه، وبعد معاوية أصبح كاتبًا ومستشارًا عند يزيد ونديمه. وفي الأغاني، ١٧، ص٣٠١، قال: «يزيد بن معاوية ... شرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني».

(٣) للوقوف على مفهوم الكاتب في عهد بني أمية، ومكانته كوزير ومستشار، راجع: تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص١٥١. وقد استعمل معاوية واليه على خراج حمص النصراني ابن أثال. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٣٢.

(٤) الوزراء والكتّاب، ص٢٢. تاريخ دمشق، ج٢٠، ص١٦١. تاريخ خليفة، ص١٤١. خطط الشام، ج١، ص١١١. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة، ج١، ص٣٤٥.

(٥) كان لنصارى الشام عمومًا حضورٌ بارزٌ في الدولة الأموية في عهد معاوية على الخصوص، فقد كانت زوجته -أم يزيد- نصرانية تنتمي لمذهب اليَعاقِبة، وهي شامية (عربية) من بني بجدل من قبيلة كلب، القبيلة التي تنتمي لها زوجة الخليفة الثالث. كما كان للنصارى الدور الأبرز في تشكيل شخصية يزيد الدينية والسياسية. حتى نقل أنهم يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد، وكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل على عبدالملك بن مروان بغير إذن، وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه أحد، ولا يستنكفون من ذلك لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار. تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٣٨٩. وطالع أيضًا: تاريخ مدينة دمشق، ج٤٨، ص١١٢. ولاحظ أيضًا: ما كتبه الملوحي عن العلاقة الحميمية بين النصارى وبني أمية في كتابه: (الحب بين المسلمين والنصارى).

(٦) الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ج٢، ص١٥٨. وراجع أيضًا: منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب آل تقي الحصيني.

أصبح بمثابة مديرٍ للاستخبارات العسكرية، فجمعت المصالح بينهم برغم اختلافهم العقدي، فسرجون كان يبحث عن الثروة وتقويض التجربة الإسلامية التي أدت إلى انهيار النظام الروماني، ومعاوية يبحث عن بسط سيطرته ونفوذه على أنقاض التجربة الإسلامية. ولذا أصبح سرجون مخلصاً لهذا النظام الذي ضمن له مصلحته حتى بعد موت معاوية، فدعا إلى يزيد وعمل على تثبيت خلافته، فعندما أراد يزيد أن يعزل عبيد الله بن زياد، الذي كان يعتبره منافساً له⁽¹⁾، منعه سرجون وأشار إليه بأن يجعله والياً على الكوفة التي بدأت تتمرَّد على النظام الأموي معلنة الولاء للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد نجح ابن زياد في القضاء على تلك الحركة، كما عمل سرجون على إقناع القادة العسكريين أو غير العسكريين الذين كانوا يبتعدون عن يزيد، لكي يرجعوا إلى الخدمة العسكرية⁽²⁾.

وهكذا، وبهذا الشكل التلفيقي تمكَّن معاوية من تأسيس نظام عسكري قوي في الشام يستعد به للانقضاض على التجربة الإسلامية.

ضحالة الوعي السياسي في الشام

من أهم الدعائم التي ساعدت هذا النظام الجديد هو ضحالة الوعي الديني لدى أهل الشام، وبُعدهم عن مركز الرسالة، وقد عمل بنو أمية بشكل كبير على حجب تلك المجتمعات⁽³⁾ الجديدة عن تعاليم الإسلام، بل مارسوا دوراً سلبيًّا في

---

(١) ذكر في البداية والنهاية، ج٨، ص١٥٢: أن يزيد «كان يبغض عبيدالله بن زياد، وكان يريد أن يعزله عن البصرة». وذلك لأن ابن زياد كان ممن عارض بيعة يزيد التي أعلنها معاوية، كما أن معاوية استشاط غضبًا حين وصله رسول ابن زياد حاملًا له رسالة احتجاجه واعتراضه مبررًا فيها: «فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغ، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس... فقال معاوية للرسول: ويلي على ابن عبيد!؛ لقد بلغني أن الحادي حدا له أن الأمير بعدي زياد، والله لأردنه إلى أمه سمية، وإلى أبيه عبيد». تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٢٠.

(٢) الفتوح، ج٥، ص٣٦. تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٣٥٦.

(٣) ذكر المسعودي في مروجه جملة من المواقف التاريخية يستبين من خلالها مستوى وعي أهل الشام. طالع: مروج الذهب، ج٣، ص٣٢ وما بعدها. كما عمل معاوية على عزل أهل الشام، وكأنه بعزلهم يخشى من تواصلهم مع مختلف البلدان، وهو ما أبقاهم في ربقة التخلف، بل خشيته عليهم من قوى

محاولة لتضليل الناس وقلب المفاهيم، بشكل تخدم التوجهات الأموية إلى درجة أن معاوية عندما وصف عناصر جيشه قال -في تهديده لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حرب صفين-: «أني أُقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل..»⁽¹⁾.

هؤلاء هم أهل الشام، العناصر الأولى للدولة الأموية.

قال المسعودي: «وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: مَنْ أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام (أي إمام الجماعة) على المنبر؟.

قال: أراه لصًّا من لصوص الفتن.

وكما حكى الجاحظ إذ قال: «سمعت رجلًا من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول: إذا أتيته مَنْ يكلّمني منه؟. وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمّد [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ] ما تقول في محمد هذا؟. أربنا هو؟»⁽²⁾.

أولم يصلّ فيهم معاوية صلاة الجمعة يوم الأربعاء في مسيره إلى صفين⁽³⁾.

فقد شكَّل هذا التخلف والبُعد عن مفاهيم الإسلام عند أهل الشام الأرضية التي قام عليها الحكم الأموي، حتى أن الخلفاء الأمويين إذا جاء أحد معارضيهم إلى الشام، لم يسمحوا له بالمكوث فيها لكيلا يقوم بعملية التوعية وتصحيح المفاهيم فيقلب عليهم الأمر. وقد حدث ذلك عندما ذهب الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هشام بن

التأثير. كما هو واضح في عهده لولده يزيد. تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٣٢٣: حيث قال: «وانظر -يا يزيد- أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم..». وقال في أنساب الأشراف، ج٥، ص١٤٥: «فإنّي لا آمن الناس على إفسادهم..». وانظر أيضًا: تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٢٤. والكامل في التاريخ، ج٤، ص٦. المنتظم، ج٥، ص٣٢١.

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٣٢.

(٢) مروج الذهب، ج٣، ص٣٢.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص٣٢. وانظر أيضاً: الغدير للعلامة الأميني، ج١٠، ص٢٣٧.

عبد الملك في الشام وبعد أن رأى هشام أن الناس ماجوا وخاضوا إلى دار الإمام عليه السلام، طلب منه أن ينصرف إلى المدينة من ساعته ولا يجلس في الشام أبدًا(١).

ورغم أنّ أهل الشام كانوا قد عاشروا عدداً من الخلفاء الأمويين، إلّا أنّهم حتى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمويين نتيجة التعتيم والخداع(٢) الذي انتهجه بنو أمية اعتماداً على الإغراء حيناً والسيف حيناً آخر لكل من يكتشف الحقيقة ويحاول إبلاغها للناس(٣). وبعد أن قويت شوكة الحكم الأموي في الشام، أخذ عمليًّا يتحيّن الفرص للانقضاض على الدولة الإسلامية في محاولات عدة منذ أيام الخليفة الثاني، وخلال فترة حكم الخليفة الثالث، حتى استطاع القضاء على الحكم الإسلامي الصحيح والشرعي في أيام الإمام الحسن عليه السلام(٤).

ومن هنا، ووفقاً للقراءة السابقة لتاريخ النظام الأموي، ينكشف واضحاً أن الجيش الذي بناه معاوية ظل العمود الفقري للحكم الأموي خلال فترة النظام بكاملها وهي زهاء (٨٣) سنة، فهو نظام عسكري بامتياز، مما يجعل الطبيعة العامة لهذا النظام هي كل ما تقتضيه النظم العسكرية الدكتاتورية، من دموية ووحشية وقبضة حديدية في كل شؤون الدولة.

وعلى سبيل المثال فإن الحكم الأموي في مصر أو العراق عندما كان يندثر نتيجة قيام ثورة جماهيرية فإن الجيش الأموي كان يأتي من الشام ويخمدها ويعيد الحكم الأموي من جديد(٥).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٣٠٦. دلائل الإمامة، ص٩٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٩٦.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤٦٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢١٤. الإرشاد للمفيد، ج٢، ص١١. مروج الذهب، ج٢، ص٤٢٨.

(٥) قاد معاوية جيشه من الشام إلى العراق (المدائن) في مواجهة حركة الإمام الحسن عليه السلام وإجباره على الصلح. مقاتل الطالبيين، ص ٦٩. تاريخ دمشق، ج١٣، ص٢٦٤. تهذيب الكمال، ج٦، ص٢٤٥. كما قصد معاوية الحجاز من الشام في ألف فارس مواجهًا معارضيه في بيعة يزيد

ثانياً: طبيعة الحركات الرسالية

لاكتمال الخلفية التي قدمناها عن طبيعة النظام الأموي لا بد أن نعرف أيضاً الظروف والملابسات التي تكشف عن وضع وطبيعة الحركة الرسالية في التاريخ بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. ولمعرفة تلك الخلفية لا بد من إثارة مجموعة من الأسئلة التي تجعلنا ضمن السياق التاريخي للحركة:

١- ما هي العناصر البشرية التي كانت في تلك الحركات؟.

٢- ما طبيعة الوضع الاقتصادي والجغرافي الذي كانت تعيشه هذه العناصر؟.

٣- كيف فشلت بعض الحركات، وكيف نجحت أخرى؟.

الوضع الاجتماعي في الكوفة

لملاحظة الوضع الاجتماعي لمدينة تاريخية كالكوفة، يتطلَّب الأمر معرفة الحالتين السياسية والجغرافية، باعتبارهما من العوامل الأساسية التي تكشف عن طبيعة التركيبة السكانية. أما من الناحية السياسية فيكفي أنّ الكوفة كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام خلافة الإمام علي، وابنه الإمام الحسن عليهما السلام، ثم تحوَّلت بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة الثانية أو العاصمة غير الرسمية. وأما من

فاستقبله كبار الصحابة وهو يشتم ويهدد من لا يبايع يزيد. قال في نهاية الأرب، ج٢٠، ص٢٢٢-٢٢٣: «وسار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دنا من المدينة لقيه الحسن بن علي عليهما السلام أول الناس، فلما نظر إليه معاوية قال: لا مرحباً ولا أهلاً بدنةٌ يترقرق دمها والله مهريقه. قال: مهلاً فإني لست بأهل لهذه المقالة. قال: بلى ولشرٍّ منها..». كما حرك يزيد جيشه من الشام إلى أهل المدينة مواجهًا لاحتجاجاتهم بمسلم بن عقبه، وذلك بتوصية من أبيه معاوية كما ينقل كثير من المؤرخين أنّ معاوية قال ليزيد ابنه: «إنّ لك من أهل المدينة يومًا فإن فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة فإنّه رجل قد عرفنا نصيحته». أنساب الأشراف، ج٥، ص٣٣٤. البداية والنهاية، ج٨، ص٢٢١. تاريخ خليفة، ص١٤٨. الفتوح، ج٥، ص١٥٨. الكامل في التاريخ، ج٤، ص١١٢. وعبد الملك بن مروان يرسل الحجاج لقتال ابن الزبير في مكة في عشرين ألفًا من أهل الشام وغيرهم، وقدم الحجاج بن يوسف، فقاتلهم قتالًا شديدًا.. كما في تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٦٦.

الناحية الجغرافية فقد كانت تشرف على البلدان التي تمتد من حدودها إلى الهند بخطين:

الأول: خط: الكوفة، مدائن، ري، خراسان، بلاد ما وراء النهر.. التي هي بالأسماء الحديثة: «الكوفة، بغداد، طهران، خراسان، مقاطعات أفغانستان، وآسيا الوسطى».

الثاني: خط: الكوفة، واسط، بصرة، هجر، عمان، سرنديب، الهند، التي هي بالأسماء الحديثة: «الكوفة، الكوت أو الديوانية، البصرة، إمارات الخليج، عمان، سيريلانكا، مقاطعات من الهند (الساحل الهندي)».

وقد جعلها هذا الموقع الجغرافي المتميّز مرشحةً أن تكون هي العاصمة في عهد الإمام علي عليه السلام بدلاً من المدينة المنورة[١].

والكوفة وأصلها كوفان، وهي كوفة الجند[٢]، كانت قد خُطَّت[٣] وأُنشئت على يد سعد بن أبي وَقَّاص[٤] -حسب بعض الروايات التاريخية- في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، في الجانب الغربي من الفرات على بضع أميال إلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة، في السهل المحصور ما بين الفرات شرقاً والبادية المطلة على مشارف الشام وعمّان غرباً.

---

[١] دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام، ج١، ص٩٣-١٠٣.

[٢] القاموس المحيط، للفيروزآبادي، فصل الكاف. وانظر أيضًا: موسوعة النجف الأشرف، (النجف قديمًا) ج١، ص١٤١، وما بعدها.

[٣] خطت سنة ١٧هـ، وذلك بعد عودة سعد بن أبي وقاص من فتح المدائن. تاريخ الكوفة، ص٩٠. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (إقليم العراق)، ص١١٦. البلدان (اليعقوبي)، ص١٦. البلدان (ابن الفقيه)، ص٢٠٠. الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٩٠.

[٤] أبو إسحاق [٢٣ ق هـ-٥٥هـ]، واسم أبي وقاص: مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أسلم قديمًا، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدراً. فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عيّنهم عمر للخلافة، ونزل أرض الكوفة فجعلها خططاً لقبائل العرب، وابتنى بها داراً فكثرت الدور فيها. وظل واليًا عليها مدة عمر بن الخطاب. وأقره عثمان زمناً، ثم عزله. فعاد إلى المدينة، فأقام قليلاً وفقد بصره. الأعلام، ج٣، ص٨٧. طبقات الفقهاء، ج١، ص١١٢.

وكان السبب في تمصيرها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق، ودار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن⁽¹⁾.

وما أن حطّت القبائل رحالها في المصر الجديد وبدأ العمران، حتى توافد عليها الناس من كل صوب، ثم نمت الكوفة بعد ذلك وتحضَّرت وازدهر فيها العمران حتى صارت قِبلة أنظار العرب وزعمائهم. فتوسَّعت بشكل كبير وازداد سكّانها، ففي العصر الأموي بلغت مساحة الكوفة كما قدَّر الفقيه الشعبي: (ستة عشر ميلًا وثلثي الميل)، وكان بها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار للمسلمين⁽²⁾.

وعندما فتح العرب بلاد خراسان، وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الخليج والسند والهند، قام قسم من أهل هذه البلدان بالتوافد على العاصمة الكوفة، فأصبحت هناك مجموعات وافدة متنوعة.

كانت الكوفة أولاً منزل العرب وحدهم، وكان غالبيتهم عناصر متحضرة من اليمن وحضرموت مثل قبيلة (كندة) و(بجيلة). ثم نزل الكوفة بعد تمصيرها وبنائها عدد من الموالي، من الفرس، وأخلاط من أبناء المدن المجاورة كالسريان والنبط والنصارى واليهود⁽³⁾.

فأصبحت بذلك قبلة للموالي، وهم المواطنون من الجنسيات غير العربية، ورغم أنهم كانوا مسلمين إلَّا أنهم ظلّوا محرومين من حقوقهم في الدولة الإسلامية، فهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأجانب في الوطن الإسلامي في عصر الأمويين⁽⁴⁾،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٤٠. الكامل في التاريخ، ج٢، ص٥٢٨.

(٢) لاحظ: معجم البلدان، ج٤، باب (الكاف والواو). و: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج١٠، ص٣٥ - ٣٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج١٠، ص٣٧.

(٤) العقد الفريد، ج٣، ص٣٦٠. تاريخ الدولة العربية، فلهوزن، ص٤٧١. تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٣٤٢.

ولذا نجد أكثر المؤرخين حينما يكتبون عن الحكم الأموي فإنهم يقولون: (الحكم العربي)؛ لأن الأمويين اعتمدوا على العصبية العربية(١)، وكانوا يعتمدون على الجيش العربي الموجود في سوريا، كما ذكرنا آنفاً.

لذلك ثار الموالي على القوانين المجحفة بحقهم(٢)، برغم محاولاتهم الانصهار في الوسط العربي وعدم تمييز أنفسهم، فقد كانوا يدينون بالإسلام ويتحدثون العربية حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي، وهنا كان يمكن أن تقوم حركتان:

الأولى: حركة ارتداد، وذلك بأن يعود الفرس وسائر الموالي إلى دياناتهم السابقة، ويكوّنوا لهم كتلة يحاربون بها الدولة الأموية.

الثانية: قيام حركة دفاع عن حقوق الموالي تحت راية الإسلام.

القاعدة الاجتماعية للحركات الرسالية

إن الإسلام بصورته الأموية لا يقدّم أي بوادر أمل أمام الموالي، بالتالي كان أقرب الخيارات تحقّقاً هو الارتداد وتشكيل جبهة مقاومة للنظام الإسلامي المتمثّل في بني أمية، فلو قام الفرس وسائر الموالي بالرجوع إلى دياناتهم السابقة، ومن ثم القيام بحركة مضادة، فإن النتيجة لم تكن في صالح النظام الإسلامي، فحتى لو تعرّضوا القمع في البداية، إلّا أن خيار نجاهم موجود ويؤدّي بالتالي إلى زوال الحكم العربي للأمويين والحكم الإسلامي ولا يبقى من الإسلام أي أثر.

ولكن الذي حدث هو قيام الإمام الحسين عليه السلام بحركته التي أظهرت وعياً جديداً يكون فيه الإسلام إلى جانب المظلومين والمحرومين، فهو الخيار الذي يحافظ على إسلام الموالي وفي الوقت نفسه يدافع عن حقوقهم المهضومة، فكانت كربلاء بمثابة الشرارة التي حرَّكت كل المجاميع المحرومة الناقمة على النظام الأموي للمطالبة بحقوقها، وهكذا

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٣٣٦. وانظر أيضًا: الدول العربية في الجزء الأول من تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن. و: تاريخ الدولة العربية ليوليوس فلهوزن.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٣٧٢.

تحوّل الحسين عليه السلام وثورته إلى مخزون روحي يُغذِّي الحركات الرسالية.

وبعد حركة الإمام الحسين عليه السلام قامت مجموعتان بدعم وتغذية الحركة الرسالية:

الأولى: مجموعة الفقهاء، والزاهدين والمتدينين وأصحاب المساجد، فهم الذين دفعتهم الغيرة على الإسلام حينما سمعوا ورأوا بأم أعينهم الإمام الحسين عليه السلام وهو يقتل ولم يُحرِّكوا ساكناً.

الثانية: مجموعة العسكريين، والموالي، والسياسيين، الذين اعتقدوا بضرورة إعادة الخلافة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام.

حركة الفقهاء والعُبّاد

جمع سليمان بن صرد أنصاره وقال لهم: «إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل بيت نبينا، ونُمنّيهم النصر، ونحثّهم على القدوم، فلما قدموا ونَيْنَا وعَجزْنا، وأدهنّا وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قُتل فينا وَلدُ نبيّنا وسُلالتُه وعُصارتُه وبَضعةٌ من لحمه ودمه، إذ جعل يستصرخ ويسأل النّصف فلا يُعطاه، اتّخذه الفاسقون غَرَضًا للنَّبل، ودرّية للرّماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا فقد سخط ربكم..»(١).

وهول المأساة التي واجهها الحسين وأصحابه وأهل بيته عليهم السلام في كربلاء كانت النفوس مهيَّأة للانتقام من قتلة الحسين عليه السلام، فقد اهتزت لمأساته حتى ضمائر الذين قتلوه وحاربوه مثل عمر بن سعد الذي دخل على ابن زياد وبين يديه رأس الإمام الحسين عليه السلام وهو ينشد قائلاً:

أوقر ركابي فضة أو ذهبا فقد قتلت الملك المحجبا
قتلتُ خير الناس أمًّا وأبًا وخيرهم إذ ينسبون نسبا(٢)

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٥٥٤، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٨٧.

(٢) مقاتل الطالبيين: ص١١٩. مروج الذهب، ج٣، ص٦١.

وإنّها لكلمة عجيبة أن يقولها رجل فاتح في زعمه. وإذا كان ضمير عمر بن سعد قد أنّبه(١)، حيث يعترف بأنّه قتل خير الناس أمًّا وأباً، فكيف بذلك الرجل المؤمن النقيّ الصادق الذي أمره الإمام الحسين عليه السلام بالقتال إلى جانبه، فلم يستجب في الوقت المناسب؟(٢).

فقد فضح الحسين عليه السلام بتضحياته كل الذين تستروا بالدين، وحكموا الناس باسم الإسلام، فأثارت تلك العاطفة الجموع الغاضبة التي التفّت حول راية: «**يَا لَثَأْرَاتِ الحُسَيْنِ**»، بزعامة سليمان بن صرد، ومن معه، وقد اجتمع حوله ألف رجل(٣) من خُلّص الموالين للإمام الحسين عليه السلام الذين كان ابن زياد قد سجنهم في

---

(١) يذكر سبط ابن الجوزي في كتابه (تذكرة الخواص، ص٢٣٣) ندم عمر بن سعد، بعد خروجه من مجلس ابن زياد الذي وعده بمنصبه الدنيوي وتحقيق جملة من أطماعه، ولما رأى ابن سعد أن لا شيء من ذلك سيتحقق، قال وهو يريد منزله إلى أهله: «ما رجع أحد مثل ما رجعت؛ أطعت الفاسق ابن زياد الظالم ابن الفاجر، وعصيت الحاكم العدل، وقطعت القرابة الشريفة». وقال: هجره الناس وكان كلما مرّ على ملأ من الناس اعرضوا عنه، وكلما دخل المسجد خرج الناس منه، وكل من رآه قد سبّه، فلزم بيته إلى أن قتل.

(٢) ذكرت أرباب السير وكتاب المقاتل جملة من الرجال الذين لقيهم الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه من مكة إلى كربلاء -في بعض المنازل- فمنهم من قدّم للإمام الحسين عليه السلام نصيحته في عدم خوضه للقتال، فأجابهم الإمام الحسين عليه السلام، بمثل ما أجاب به عبدالله بن عباس وغيره، ومنهم من دعاه الإمام الحسين لنصرته فاستجاب، ومنهم من اعتذر عن النصرة. كما ذكر أرباب السير ندمهم لعدم نصرة الإمام الحسين عليه السلام، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، عمرو بن قيس المشرقي، فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله بسنده «عَنْ أَبِي الجَارُودِ عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ المَشْرِقِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الحُسَيْنِ عليه السلام أَنَا وَابْنُ عَمٍّ لِي وَهُوَ فِي قَصْرِ بَنِي مُقَاتِلٍ -قرب القطقطانة وسُلام ثم القريات، وهو منسوب إلى مقاتل بن حسان التميمي- فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَمِّي: يَا أَبَا عَبْدِ الله، هَذَا الَّذِي أَرَى خِضَابٌ أَوْ شَعْرُكَ؟. فَقَالَ عليه السلام: خِضَابٌ وَالشَّيْبُ إِلَيْنَا بَنِي هَاشِمٍ يَعْجَلُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ عليه السلام: جِئْتُمَا لِنُصْرَتِي؟. فَقُلْتُ: إِنِّي رَجُلٌ كَبِيرُ السِّنِّ، كَثِيرُ الدَّيْنِ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَفِي يَدِي بَضَائِعُ لِلنَّاسِ، وَلَا أَدْرِي مَا يَكُونُ، وَأَكْرَهُ أَنْ أُضِيعَ أَمَانَتِي. وَقَالَ لَهُ ابْنُ عَمِّي مِثْلَ ذَلِكَ. قَالَ عليه السلام لَنَا: فَانْطَلِقَا فَلَا تَسْمَعَا لِي وَاعِيَةً، وَلَا تَرَيَا لِي سَوَاداً، فَإِنَّهُ مَنْ سَمِعَ وَاعِيَتَنَا أَوْ رَأَى سَوَادَنَا فَلَمْ يُجِبْنَا وَلَمْ يُغِثْنَا، كَانَ حَقًّا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُكِبَّهُ عَلَى مَنْخِرَيْهِ فِي النَّارِ». بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢٠٤. ومن أراد التوسع فليراجع مثلاً موسوعة: مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣. الفتوح، ج٦، ص٢١٠. المنتظم، ج٦، ص٣٥.

الكوفة بعد قدومه إليها(١). فقاموا بحركة استشهادية ضد يزيد وجلاوزته، ولم يكن مقصودهم الوصول إلى الحكم، وإنما كانوا يطلبون القصاص من ابن زياد الذي قاد الجيوش لقتل الحسين عليه السلام. وبشكل درامي انتهت حركتهم سنة ٦٥هـ(٢)، بعدما حاربوا ابن زياد قريباً من الرقة في الشام، حرباً رسالية صمدوا فيها صمود الأبطال، وقتلوا من الجيش الأموي مقتلاً عظيماً، وقد انتهت المعركة باستشهاد سليمان والغالبية من جيشه، بينما رجع النفر القليل منهم إلى الكوفة ليبثّوا ثقافة الثورة. وعلى طول التاريخ كانت هنالك حركة مثل حركة سليمان بن صرد، تظهر بين وقت وآخر، تتكوّن من الفقهاء والزُّهّاد وأصحاب المساجد يقومون بالثورة ضد الظالمين.

حركة السياسيين والعسكريين:

أما المجموعة الثانية فتختلف في عناصرها عن الأولى، وتتكوَّن من:

١- العسكريين الذين شاركوا في الحروب الإسلامية، وكان اهتمامهم اهتماماً سياسيًّا، واعتقدوا بأن أهل البيت أحق بالخلافة.

٢- الموالي غير العرب الذين رأوا في التشيُّع الإطار المناسب للعدالة الاجتماعية التي ينشدونها.

٣- السياسيين المحنّكين والمفكرين الذين هم في داخل الحكم والسياسة، فهم إما أمراء أو وزراء، وإما ولاة، وهؤلاء أيضاً اعتقدوا بأن الخلافة يجب أن ترجع إلى الأئمة من آل الرسول، لذلك قاموا بحركتهم.

وهذه المجموعة قامت بحركات كان لها وزن سياسي، بينما كانت الحركات السابقة دينية عاطفية، الهدف منها هو إشباع الأمة بالروح الثورية، وكانت أشبه شيء باختطاف طائرة أو احتجاز رهائن عند الحركات الفدائية اليوم.

فلو أن فدائيين أقدموا على اختطاف طائرة، فنجحوا، أو فشلوا فهؤلاء من الناحية العسكرية والسياسية لن يربحوا شيئاً وإنما سيربحون إعلاميًّا، بإلهاب روح

---

(١) إمتاع الأسماع، ج١٢، ص٢٥١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٥٩٩.

شعبهم وتعريفهم بالأهداف التي قاموا بالعملية من أجلها.

أهداف الحركات السياسية

أما الحركات السياسية فأهدافها تختلف عن الحركات الدينية، فقد كانت تهدف في الوصول إلى الحكم، مما يتطلَّب التخطيط والإعداد الجيد، وهذا ما قام به المختار بن أبي عبيدة الثقفي، الذي تربَّى في بيت والده الصحابي الجليل أبي عبيدة بن مسعود الثقفي⁽¹⁾، ووالده يُعتبر من القادة العسكريين الذين فتحوا العراق⁽²⁾، كما كان مع أخيه سعد⁽³⁾ من الموالين للإمام علي عليه السلام، فكان يراه أحق بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، كما كان سعد أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأحد قادة حروب الإمام علي عليه السلام، وله الأثر الأكبر في تنشئة المختار عسكريًّا⁽⁴⁾. والمختار رجلًا رساليًّا

---

(١) أبو عبيدة بن مسعود الثقفي [ت: ١٣هـ]، من القادة، ومن الشجعان. اعتنق الإسلام، وأخلص له، وكان من أبرز القادة، وقد أمّره عمر بن الخطاب على الجيش الزاحف إلى العراق لقتال الفرس، وهو أول جيش سيّره عمر. الأعلام، ج٤، ص١٩٠. بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٤٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٣، ص١٣٧.

(٢) شارك أبو عبيدة بن مسعود الثقفي في فتح العراق زمن الخليفة الثاني، فهو من الزعماء الفاتحين، وكان مبعوث الخليفة الثاني للعراق وواليًا عليها، ومن ثم قائدًا لمعركة الجسر التي استشهد فيها، وكان لجنبه ابنه المختار. وفي يوم معركة الجسر وهو ابن ثلاثة عشر سنة كان يتفلّت للقتال فيمنعه عمه سعد بن مسعود. فتوح البلدان، ص٢٤٧. الاستيعاب، ج٤، ص١٧٠٩. البداية والنهاية، ج٧، ص٢٨. بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٥٠.

(٣) سَعْد بن مَسعود الثَّقَفيّ عمّ المختار، روى عن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه، ومن أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الأوفياء. كان والي الإمام علي عليه السلام على بعض الأمصار، ثم استصحبه معه إلى صفين. كما أثنى عليه الإمام علي عليه السلام في رسالة له، وذكره بالتّقوى والنّجابة، ودعا له: «أمّا بَعدُ، فَقَدْ وَفّرتَ علَى المُسلِمينَ فَيْأهُم وأَطَعْتَ رَبَّكَ، ونَصَحْتَ إمامَكَ، فِعْلَ المُتَنزِّهِ العَفيفِ، فَقَدْ حَمَدْتُ أمْرَكَ، ورضِيتُ هَدْيَكَ، وأَبَنْتَ رُشدَكَ، غَفَرَاللهُ لَكَ. والسَّلامُ». وهو الذي التجأ إليه الإمام الحسن عليه السلام في ساباط حين جُرح وناله سوء من أصحابه. مكاتيب الأئمة، ج١، ص٣٨٦. الإصابة، ج٣، ص٧١.

(٤) تنقل كتب التاريخ أن سعد بن مسعود الثقفي حين خرج من المدائن قاصدًا الكوفة في زمن حكومة الإمام علي عليه السلام لمواجهة الخوارج عند محاذاتهم المدائن، أنه خلّف عليها ابن أخيه المختار، ومنها نتعرف على المكانة السياسية والعسكرية التي كان المختار يتبوؤها. أنظر: الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٣٧. تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٧٦.

بعيدة عنه التُّهم التي تقول: بأنه كان كيسانيًّا(١)، أي يعتقد بإمامة محمد بن الحنفية(٢) ابن الإمام علي عليه السلام التي كانت أمه(٣) من قبيلة بني حنيفة. كما أنه لم يكن راوندي المذهب(٤)، لأن المختار كان من جماعة الإمام علي عليه السلام، وأن الإمام حسب اعتقادنا كان يوصي دائماً بإمامة الحسن والحسين عليه السلام ثم ابنه زين العابدين(٥)، فلا يمكن

---

(١) روي عن الأصبغ أنه قال: «رَأَيْتُ الْمُخْتَارَ عَلَى فَخِذِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَهُوَ يَمْسَحُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: يَا كَيِّسُ يَا كَيِّس». (بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٤٤). ذهب كثير من المؤرخين والكُتّاب من أهل العامة إلى القول بنسبة الفرقة الكيسانية للمختار، منهم: ما قاله الأشعري في مقالات الإسلاميين، ج١، ٩١: «إنما سُمُّوا كيسانية لأن المختار الذي خرج وطلب بدم الحسين بن علي، وَدَعا إلى محمد بن الحنفية، كان يقال له: كيسان». وغيره الكثير، ومنهم من فند هذه التهمة ورفضها رفضًا قاطعًا كالدكتور النشار، طالع: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج٢، ص٤٧. وأما من أعلام الإمامية فإنهم أجمعوا على تفنيد هذه التهمة وردها، قال السيد الخوئي في معجم رجال الحديث ج١٨، ص١٠٢: «هذا القول باطل جزماً، فإن محمد بن الحنفية لم يدَّعِ الإمامة لنفسه حتى يدعو المختار الناس إليه، وقد قتل المختار ومحمد بن الحنفية حي، وإنما حدثت الكيسانية بعد وفاة محمد بن الحنفية، وأما أن لقب مختار، هو كيسان فإن صح ذلك فمنشؤه ما تقدَّم في رواية الكشي من قول أمير المؤمنين عليه السلام له مرتين يا كيس، يا كيس فثنَّى كلمة كيس، وقيل كيسان»..

(٢) محمد [٢١-٨١هـ] بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الهاشمي القرشي، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية. أمّه خولة بنت جعفر بن قيس، وهي من سبي اليمامة الذين سُبُوا لولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وأرادوا بيعها. فتزوجها أمير المؤمنين عليه السلام. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يَا عَلِيُّ سَيُولَدُ لَكَ وَلَدٌ قَدْ نَحَلْتُهُ اسْمِي وَكُنْيَتِي**». ذكر العلامة المجلسي في البحار من فضائله ومدائحه وإقراره بإمامة السجاد عليه السلام. فراجع. وهو: أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام. وكان يقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأخبار قوّته وشجاعته كثيرة. مستدركات النمازي، ج٧، ص٧٧. الأعلام، ج٦، ص٢٧٠.

(٣) خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية، قال في أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٠٠: «بعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا إلى اليمن فأصاب خولة في بني زبيد، وقد ارتدّوا (الحنفية، وأدعت نبوة مسيلمة) مع عمرو بن معدي كرب، وصارت في سهمه (أي سهم الإمام علي).. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إن ولدت منك غلامًا فسمه باسمي، وكنّه بكنيتي، فولدت له بعد موت فاطمة عليها السلام غلامًا فسماه محمدًا وكناه أبا القاسم». وأنظر أيضاً: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢١٢. قاموس الرجال، ج٩، ص٢٤٦.

(٤) الراوندية وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب. يرون أن أحق الناس بالإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله العباس بن عبد المطلب، وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره، وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب عليه السلام بإجازته لها، وذلك لقوله: «يا ابن أخي، هلمَّ إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان ..». راجع: مروج الذهب، ج٣، ص٢٣٧.

(٥) طالع تنزية المختار، ص١٦. تحت عنوان: عقيدة المختار. و: المختار الثقفي، للمحقق القرشي.

أن يكون المختار (كيسانياً) أو (راوندياً). ثم إن قائد جيش المختار كان إبراهيم بن مالك الأشتر صاحب أمير المؤمنين وقائد عسكره ، حيث ورث إبراهيم القيادة من أبيه حسب المفاهيم السائدة في ذلك اليوم.

وقد حكم المختار فترة من الوقت، وكان حكمه بصدق عودة الحكم الرسالي بعد غياب طويل منذ حكم الإمام علي عليه السلام، ولقد قتل في حركته أغلب من اشترك في قتل الإمام الحسين عليه السلام من أمثال: ابن زياد(١)، وابن سعد(٢)، وابن ذي الجوشن(٣)، وبعض أشراف الكوفة(٤)، وغيرهم، فحركته كانت ضخمة، والذين أيّدوا هذه الحركة كانوا من الموالي والرساليين.

ولمعرفة كيف بدأت حركة المختار؟ وكيف انتهت؟ ولماذا نجح أولاً وفشل بعد ذلك؟ فإننا سنعالج ذلك في البحوث القادمة إن شاء الله.

---

(١) عبيد الله بن زياد بن أبيه [٢٨- ٦٧هـ]، عرف واشتهر بـ(ابن مرجانة) وهي أمه. ولد بالبصرة، وكان أول مولود ولد بها، ولّاه معاوية خراسان (سنة ٥٣ هـ). أقرّه يزيد على إمارة الكوفة (سنة ٦٠هـ) وكتب إليه: «بلغني أن الحسين بن عليّ قد توجَّه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح... واكتب إليّ في كل ما يحدث». فكانت الفاجعة بمقتل الإمام الحسين. ولما مات يزيد (سنة ٦٥هـ) بايع أهل البصرة لعبيد الله. ثم لم يلبثوا أن وثبوا عليه، فتنقّل مختبئًا إلى أن استطاع الإفلات إلى الشام، وأقام مدة قليلة، ثم عاد يريد العراق، لحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الإمام الحسين، فاقتتلا وتفرَّق أصحاب عبيد الله، فقتله إبراهيم بن الأشتر. الأعلام، ج٤، ص١٩٣.

(٢) ابن أبي وقاص [ت: ٦٦هـ] الزهري المدني، هو الذي سيرَّه عبيد الله بن زياد على أربعة آلاف لقتال الديلم، ثم لما علم ابن زياد بمسير الإمام الحسين بن علي عليه السلام من مكة متجهاً إلى الكوفة، فكتب إليه ابن زياد أن يعود بمن معه، فعاد، فولّاه قتال الإمام الحسين وكتب له عهد الريّ. وعاش ابن سعد إلى أن خرج المختار الثقفي طالبًا الثأر ممَّن قتل الإمام الحسين، فبعث إليه من قتله بالكوفة. الأعلام، ج٥، ص٤٧.

(٣) ابن قرط الضبابي الكلابي العامري، أبو السابغة، اللعين، اسمه شرحبيل [ت: ٦٦هـ]، حضر في صفين في صف الإمام علي عليه السلام، وشهد على حجر بن عدي، وهو الذي حرَّض ابن مرجانة للتشديد على الإمام الحسين، وهو قاتل الإمام الحسين عليه السلام، أرسله عبيدالله بن زياد مع آخرين إلى يزيد في الشام، يحملون رأس الإمام. قتله أبو عمرة أحد قادة جيش المختار الثقفي. الأعلام، ج٣، ص١٧٥. مع الركب الحسيني، ج٤، الإمام الحسين في كربلاء، ص٩١.

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٥٥٨.

صفو الكلام

* نحن نؤرخ للحركة الرسالية منذ عام ٦١هـ أي بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، لأنّ هذه الواقعة العظيمة كانت بداية تحوُّل الرساليين إلى حركة سياسية جماهيرية معارضة للنظام السياسي القائم. ولا بد لنا -في البدء- من معرفة النظام الأموي، ومعرفة طبيعة الحركات الرسالية.

* عمل أبو سفيان ومعه الحزب الأموي -منذ فجر الرسالة- على الوقوف في وجه الدين الجديد، حتى أصبحوا هم العقبة الأساس في وجه تقدُّمه.

* سعى بنو أمية -بكل الوسائل- لوراثة الدولة الإسلامية، ولم يتورعوا عن استخدام كل الوسائل والجرائم للوصول إلى هذا الهدف.

* بسبب الحرمان ثار المحرومون ضد القوانين المجحفة بهم. وكانوا يواجهون أحد أمرين؛ إما الارتداد إلى دياناتهم السابقة، أو قيام حركة دفاع عن حقوق المحرومين تحت راية الإسلام.

* بعد نهضة الامام الحسين عليه السلام قامت مجموعتان بدعم الحركة الاسلامية؛ مجموعة الفقهاء والزهاد والمتدينين الذين كانت تدفعهم الغيرة على الإسلام. ومجموعة العسكريين والموالي والسياسيين الذين اعتقدوا بضرورة إعادة الخلافة الى أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الحَرَكَةُ الرِّسَالِيَّةُ امتِدادٌ لِحَرَكةِ الأنبِيَاءِ عليهم السلام

قبـل كل شيء لا بـد أن نعـرف أن دور الأئمة المعصومـين عليهم السلام هو مكمل لدور الأنبياء عليهم السلام، وأن حركتهم الرسالية إنما هي امتداد للرسالات السماوية التي نزلت قبل الإسلام، وبالتالي لرسالة رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وآله.

فلو أردنا أن نعرف مسـؤولية الأئمة، لا بد أن نعرف قبلئذٍ مسـؤولية الأنبياء ووظيفتهـم ودورهـم وأعمالهـم وأهدافهم الكبـيرة في الحياة، وبعـد أن نعرف دور الأنبياء وهدفهم الكبير، فإن كل شيء يبدو أمامنا واضحاً، ونتساءل:

ما هو دور الأنبياء في الحياة؟.

إن هناك ميزة تتمتَّع بها حركة الأنبياء عليهم السلام، وهي مواجهتهم للطواغيت في عصورهـم، فمثـلاً إبراهيم عليه السلام يقول عنه ربنا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾.

إن كلمـة ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ كانت رفضاً صارخاً لأقوى سـلطة متحكمة في

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٦٩-٨٧.

قومه، وأما النبي موسى عليه السلام فقد أمره الله سبحانه بالذهاب إلى فرعون: ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾(١). وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام، حتى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما بُعث بالرسالة في مكة، كان قوله: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾(٢). وكان شعاره صلى الله عليه وآله وسلم: «**قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا..**»(٣).

وهكذا كان يرفض سلطة الأقلية المستكبرة، وهذا الرفض ينسحب على كافة أبعاد الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولا يكتفي الرسول بالرفض بل يضع نظاماً توحيديًّا متكاملاً. وبتعبير آخر، يمكن أن نلخص دور الأنبياء وأهدافهم في كلمتين:

الأولى: تنمية الضمير الديني الحق في الإنسان.

الثانية: تنظيم حياة الإنسان على الأرض.

تنمية الضمير الديني

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «.. **فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ..**»(٤).

إذن، الوظيفة الأولى هي: تنمية الضمير الديني للبشر.

ويندرج تحت هذا العنوان (الإنذار، والتبشير).

فالأنبياء جاؤوا لينذروا الناس ويبشّروهم، ولكن بم ينذرون الناس، وبم يبشّرونهم؟. لينذروا الناس بالنار ويبشّروهم بالجنة ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾(٥).

---

(١) سورة النازعات، آية: ١٧.

(٢) سورة الكافرون، آية: ١-٢

(٣) بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٢.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم: (١)، يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم.

(٥) سورة النساء، آية: ١٦٥.

وهـذه الكلمة تكرّرت في القرآن الحكيم مرات عديـدة، وهي أهم وظيفة للأنبياء، ومن آثارها:

١- تذكرة الإنسان بالحياة الآخرة.
٢- رفع حجب الغفلة والنسيان التي تُغلّف عقل الإنسان.
٣- إثارة دفائن العقل واستجلاء الضمير.
٤- تزكية الإنسان وتربيته الخلقية.

وهـذه كلهـا تؤدّي إلى تنمية الضمير الديني في الإنسـان، هـذا هو أهم عمل كان يقوم به الأنبياء في الحياة.

تنظيم حياة الإنسان

أما الوظيفة الثانية فهي: تنظيم حياة الإنسان.

وذلك عبر:

١- وضع البرامج وبلورتها بشكل كامل.
٢- رفع العقبات والعراقيل التي تعترض تطبيق تلك البرامج.

فالأنبيـاء عليهم السلام جاؤوا من أجل وضع برامج للعدالة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي، بكافة جوانبه الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والتربوية.

وليس وضع البرامج فقط، وإنما وضعها وتطبيقها ورفع العقبات التي تحول دون ذلـك، فـإذا كان الطغـاة يقفـون حجـر عثـرة أمام تطبيـق المناهج الإسـلامية الرسـالية، آنئذٍ تكون وظيفة الأنبياء عليهم السلام هي أن يحملوا السـيف، ويعلنوا الحرب عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٦.

وكلمة ﴿وَكَأَيِّن﴾ تُستخدم للتكثير والمبالغة، بمعنى كم من أنبياء قاتل معهم علماء فقهاء أخلصوا للرب تعالى. فكان هذا دور الأنبياء في الحياة، تنمية الضمير الديني، وهي المسؤولية الأولى، وتطبيق البرامج الإلهية في الأرض، وهي المسؤولية الثانية. وهذا أيضاً هو دور الأئمة عليهم السلام لأنهم المستحفظون على رسالات الأنبياء. فإذا كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رجل سياسة، إلَّا أنّ السياسة لم تكن كل همّ الإمام.

فقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «**دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ** عليه السلام **بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟.**

فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا!.

فَقَالَ عليه السلام: **وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا..**»(١).

ومرة قال في إحدى خطبه(٢): «.. **وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ**».

فالسياسة في منطق الإمام علي عليه السلام لم تكن هدفاً وكذلك الحكم، فجلوس الإمام على أريكة الخلافة الإسلامية ليس مهمًّا، وإنما المهم عنده هو إحقاق الحق وإبطال الباطل، وبالتالي تنمية الضمير الديني في الإنسان المسلم.

لذلك نجد أن نهج البلاغة، وهو كتابٌ يتضمن كلمات وخطب ورسائل حاكم مقاتل، وقائد عسكري، يفيض بالتقوى، والتوحيد، وبذكر صفات الله سبحانه وتعالى وآياته في الكون. ونجد أن الأحاديث والخطب التي قالها الإمام علي عليه السلام قبل أن يصل إلى الحكم، والتي قالها بعده، والتي قالها في حالة الحرب أو السلم، كانت على طراز واحد، حيث كانت تُوجِّه الأمة إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما نعتبره إماماً لأنه قام بذلك، وهذه هي وظيفة الإمام علي عليه السلام ومسؤوليته، وليس فقط لأنه حاكم عادل، فالحكم بالعدل مهم ولكنه ليس كل شيء.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: (٣٣)، عند خروجه لقتال أهل البصرة.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: (٣)، وهي الخطبة المعروفة بالشقشقية.

إن الصفة الأساسية في شخصية الإمام علي عليه السلام والتي يجب أن تستقطب اهتمامنا هي تقواه، واستقامته، وتجسيده في سلوكه لقيم الرسالة ومناهجها.. بالإضافة إلى تربيته لمجموعة منتخبة من الناس كطليعة رسالية، وضمير إنساني ناطق في الأمة، أمثال: همّام⁽¹⁾، وكميل بن زياد⁽²⁾، وغيرهما. لقد كانت تربيته لهذه المجموعة تنطبق عليها المواصفات التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في كلمته: **«رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ أُسْدٌ بِالنَّهَارِ»**⁽³⁾.

فهمّام مثلاً هذا الرجل الذي طلب من أمير المؤمنين عليه السلام أن يصف له المتقين، كأنه ينظر إليهم، وبعد أن وصف له أمير المؤمنين عليه السلام المتقين، **«صَعِقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً، كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَمَا وَاللَّهِ؛ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ، وَأَمَرَ بِهِ فَجُهِّزَ وَصَلَّى عَلَيْهِ، وَقَالَ عليه السلام: هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا..»**⁽⁴⁾.

أما كميل بن زياد الذي تربَّى على يد الإمام عليه السلام وارتضع من توجيهاته ودروسه، كان يُمضي لياليه بالتبتُّل والتضرُّع، وهو الراوي للدعاء المشهور والمعروف باسمه (دعاء كميل)، هذا الدعاء الذي يُقرأ في ليالي الجُمَع، ولكنه في الوقت نفسه كان حاكماً من قبل الإمام علي عليه السلام على ولاية هيت⁽⁵⁾ من نواحي بغداد، فهو لم

---

(1) ابن شريح بن يزيد. من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، كان ناسكًا عابدًا، مجتهدًا. شرح نهج البلاغة، ج١٠، ص٣٤٤. مستدركات علم رجال الحديث، ج٨، ص١٦٧. تكملة الرجال، ج٢، ص٥٩٤-٥٩٥.

(2) النخعي الكوفي، من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ثقاته، قال عنه ابن كثير: «وكان شجاعًا فاتكًا على كبر سنه». كان والياً على هيت من قبل الإمام عليه السلام، روى عن الإمام الدعاء المشهور، الذي عرف واشتهر باسمه (دعاء كميل) لكونه راويه. ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق من العبّاد الثمانية المشهورين في الكوفة. استشهد سنة ٨٢هـ، على يد الحجاج. انظر: رجال الطوسي، ص٩٥. رجال البرقي، ص٦. تاريخ دمشق، ج٥٠، ص٢٥٠. البداية والنهاية، ج٩، ص٤٢.

(3) بحار الأنوار، ج٦٥، ص١٨٠.

(4) بحار الأنوار، ج٦٤، ص٣٤٥.

(5) بلدة تقع على الفرات، فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة. معجم البلدان، ج٥، ص٤٢١.

يكـن منقطعـاً عن الدنيا، وإنـما كان كادحاً وعاملاً طوال النهـار، وقائماً في المحراب ليـلاً، هـذا الرجل ليس الأوحد من بين أصحاب الإمام علي عليه السلام إنّ هناك من هم أمثاله: كعمار⁽¹⁾، وميثم⁽²⁾، وقنبر⁽³⁾، وحجر بن عدي، وضِرار⁽⁴⁾، وغيرهم.

---

(١) ابن ياسر بن عامر المَذحِجيُّ [٥٧ق.هـ-٣٧هـ]، أبو اليقظان، من السابقين إلى الإيمان والهجرة، الثابتين الراسخين في العقيدة، تحمّل تعذيب المشركين مع أبويه منذ الأيام الأولى لفجر الإسلام، فلم يدخله الشك ولم يعرفه قط. كان واليًا على الكوفة في عهد عمر، ومن المعارضين الأشداء في عهد عثمان، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وخُلّص مواليه، اشترك في معركة صفين فتولى قيادة رجالة الكوفة والقراء، وفيها استشهد، قال رسول صلى الله عليه وآله في حقه: «**تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ**». قال في حقه الإمام علي عليه السلام حين سئل عنه: «**ذَلِكَ امْرُؤٌ خَالَطَ اللهُ الْإِيمَانَ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ وَشَعْرِهِ وَبَشَرِهِ حَيْثُ زَالَ [الإيمان] زَالَ مَعَهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِلنَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئاً**». الطبقات الكبرى، ج٣، ص١٨٦. مستدركات علم رجال الحديث، ج٦، ص١٤.

(٢) ابن يحيى التّمار الأسدي [ت: ٦٠هـ]، أبو سالم، من أصحاب الإمام علي عليه السلام، كان عبدًا لامرأة من بني أسد فاشتراه الإمام علي عليه السلام وأعتقه، من حواري الإمام علي عليه السلام ومن الراسخين الثابتين على طريق الحق، والمدافعين عن الولاية، صاحب منزلة رفيعة في العلم حتى قال عنه أمير المؤمنين بأنه «**أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَ الْبَلَايَا وَالْمَنَايَا**». كان خطيبًا، مفسرًا، متكلمًا، له كتاب في الحديث. قتله عبيدالله بن زياد قبل شهادة الإمام الحسين عليه السلام بأيام قليلة، وكان الإمام علي عليه السلام قد أخبره بكيفية استشهاده، وما يلاقيه في سبيل الله من التعذيب، فصلبه ابن زياد لمدة ثلاثة أيام، وكان رضي الله عنه يحدّث الناس عن فضائل الإمام علي، ويخبرهم بما يكون من الفتن، فضاق ذلك على ابن زياد فأمرهم أن يُلجموه بلجام من شريط، فكان أول من أُلجم وهو مصلوب، ثم وجأ جوفه حتى مات. أعيان الشيعة، ج١٠، ص١٩٨. معجم رجال الحديث، ج١٩، ص٩٤. منتهى الآمال، ج١، ص٢٩٨.

(٣) مولى أمير المؤمنين عليه السلام، ومرافقه، عُد من الأوائل والسابقين الذين عرفوا حق أمير المؤمنين عليه السلام فاتَّبعوه وناصروه ودافعوا عن حقه وثبتوا على ولايته، بل عُدَّ من أركان تابعيه عليه السلام. قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «**كَانَ لِعَلِيٍّ عليه السلام غُلَامٌ اسْمُهُ قَنْبَرٌ وَكَانَ يُحِبُّ عَلِيًّا حُبًّا شَدِيدًا..**». وفي رواية العامة أنه «سئل قنبر مولى مَنْ أنت؟. فقال: أنا مولى من ضرب بسيفين، وطعن برمحين، وصلى القبلتين، وبايع البيعتين..». وكان رضي الله عنه مرافقًا وملازمًا لقضاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومنفذًا لأوامره، واستشهد على يد الطاغية الحجاج. طالع: الاختصاص، ص٧٣. مستدركات علم رجال الحديث، ج٦، ص٢٨١. منتهى الآمال، ج١، ص٢٩٢.

(٤) ابن ضمرة الضبابي، من خلّص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فصيح اللسان، قوي الحجة والبيان. له موقف مشهور حين طلب منه معاوية أن يصف الإمام أمير المؤمنين. فوصفه حتى بكى معاوية ومن معه. أعيان الشيعة، ج٤، ص٤٠٣. مستدركات علم رجال الحديث، ج٤، ص٢٧٩.

الإمام عليه السلام الذي يُربِّي في الكوفة أشخاصاً يسهرون الليل تبتُّلاً، ويصلون صلاة الصبح بوضوء صلاة العشاء، وفي النهار يقودون الناس، في السلم والحرب، إنه لا بد أن يُربِّي مجموعات أخرى على درجات أقل، بمعنى إذا كان قد كوّن عشرات من الصنف الأول، فمئات من الذين يسهرون نصف الليل، وآلاف من الذين يصلون الصلوات ويقرؤون القرآن بشكل جيد، وآخرين من النموذج الذي يؤمن بالله إيماناً عميقاً، ويستعد للتضحية في سبيل الله، وبالتالي فهو يكوّن أمواجاً متلاحقة داخل الأمة الإسلامية، موجة تتبع موجة، وكل موجة هي أكبر من السابقة.

وهكذا كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي عاش في فترة كانت الأمة الإسلامية قد وصلت يومذاك إلى قمة مجدها المادي، وكانت الأموال تُجبى إلى العاصمة من كل مكان، حتى أن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «اذهبي إلى حيث شئت يأتني خراجك»⁽¹⁾. وكان الحكام والأغنياء، يملكون الضياع والأموال والعبيد والجواري بلا حساب، ويتمتعون بحياة مرفهة، ويمارسون البذخ والإسراف العجيب.

فما هي وظيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في هذا الوضع؟.

هل وظيفته تنحصر في إسقاط هارون الرشيد، باعتبار أن هارون الرشيد هو رأس الدولة الفاسد، وقد امتد فساده إلى جسم الأمة أيضاً؟.

إن وظيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الأساس كانت تنمية الروح الدينية في الأمة، لذلك عندما كان الإمام عليه السلام يُسجن فإن سجانيه لم يملكوا إلّا أن يتأثروا بحياته، ويتشبَّعوا بالمبادئ والأخلاق التي كان يُجسِّدها من خلال سلوكه وعبادته ودعائه ومناجاته لله سبحانه وتعالى.

وقد بعث هارون الرشيد رسالة إلى ابن عمه في سفك دم الإمام عليه السلام

---

(١) مآثر الإناقة في معالم الخلافة، ج١، ص١٩٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٣، ص٢٨٥.

وإراحته منه. وكان ابن عمه عيسى بن جعفر بن أبي جعفر العباسي، واليًا من قبله على البصرة.

فكتب عيسى بن جعفر إلى الرشيد يقول: «يا أمير المؤمنين، كتبت إليَّ في هذا الرجل وقد اختبرته طول مقامه في حبسي بمن حبسته معه عينًا عليه لتنظروا حيلته وأمره وطويته بمَنْ له المعرفة والدراية ويجري من الإنسان مجرى الدم، فلم يكن منه سوء قطّ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلّا بخير، ولم يكن عنده تطلّع إلى ولاية ولا خروج ولا شيء من أمر الدنيا، ولا قطّ دعا على أمير المؤمنين ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلّا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُعفيني من أمره ويُنفذ من يتسلّمه منّي وإلّا خلّيت سبيله، فإني منه في غاية الحرج»(١).

ثم يأتي به ويضعه عند رئيس الشرطة في بغداد، وكان الوزير فيها الفضل بن الربيع، فقال الفضل أيضًا: «إني أتفقّده الليل والنهار فلا أجده في وقت من الأوقات إلَّا على الحال التي أخبرك بها، أنه يصلي الفجر فيعقب ساعة في دبر الصلاة إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة فلا يزال ساجدًا حتى تزول الشمس، وقد وكل من يترصد له الزوال فلست أدري متى يقول الغلام قد زالت الشمس إذ يثب فيبتدئ الصلاة من غير أن يُحدث، فأعلم أنه لم ينم في سجوده ولا أغفى، ولا يزال إلى أن يفرغ من صلاة العصر، فإذا صلى سجد سجدة فلا يزال ساجدًا إلى أن تغيب الشمس، فإذا غابت الشمس وثب من سجدته فصلى المغرب من غير أن يُحدث حدثًا، ولا يزال في صلاته وتعقيبه إلى أن يُصلِّي العُتمة، فإذا صلى العتمة أفطر على شوى يُؤتى به، ثم يجدد الوضوء، ثم يسجد، ثم يرفع رأسه، فينام نومته خفيفة ثم يقوم فيُجدِّد الوضوء ثم يقوم، فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر، فلست أدري متى يقول الغلام إن الفجر قد طلع إذ قد وثب هو لصلاة الفجر، فهذا دأبه منذ حُوّل إليَّ..

---

(١) الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، ج٢، ص٩٥٣-٩٥٤.

فقلت -عبدالله الغروي- اتّقِ الله ولا تحدثنَّ في أمره حدثًا يكون فيه زوال النعمة، فقد تعلم أنه لم يفعل أحد بأحدٍ منهم سوءًا إلّا كانت نعمته زائلة.

فقال الفضل: قد أرسلوا إليَّ غير مرة يأمروني بقتله فلم أُجبهم إلى ذلك، وأعلمتهم أني لا أفعل ذلك ولو قتلوني ما أجبتهم إلى ما سألوني»⁽¹⁾.

إذن فالإمام كان يبثُّ الروح التوحيدية الحقة عبر صلواته ومناجاته ودعواته وقيامه في الليل، ويُربِّي بذلك مجموعات من الناس ليكونوا طلائع العمل الرسالي.

اقرؤوا رسالة الإمام عليه السلام إلى هشام بن الحكم⁽²⁾، التي هي وحدها كافية لتربية الإنسان تربية متكاملة، ولو أن إنساناً آخر ألقى بهذه الوصية على هشام، فقد لا يتأثر بها. أما الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فإنه استطاع أن يبثُّها في روح هشام، وربما كان للإيحاء النفسي في هذه الوصية تأثير أكبر من عباراتها، لأن الإمام كان يجسِّد تعاليمها في أفعاله قبل أن يُلقيها كوصايا على هشام، والأكثر من ذلك الموالي الذين كانوا حول الإمام، والخدم، وكذلك أبناؤه، كل واحد من هؤلاء بنظرته إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تحوّل إلى رجل متدين، وهذه هي الوظيفة الأساس للأئمة عليهم السلام.

وربما يقول أحدنا: كان الواجب على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن يُخفي نفسه ويكوّن حركة سرية ويبدأ العمل السياسي. إن هذا في الواقع عمل مهم ولكن الإمام قد وكل أمر هذه الوظيفة إلى أناس غيره، وقد تحدثنا سابقاً عن التنظيم الرسالي الذي توسَّع في عهده.

ان أعظم دور قام به الأئمة المعصومون عليهم السلام، هو القيادة الروحية للأمة، لذلك فرضوا أنفسهم بصورة طبيعية حتى على أعدائهم، فمثلًا المنصور الدوانيقي هو الذي قتل الإمام الصادق عليه السلام، ولكن مع ذلك وبعد وفاة الإمام تراه يبكي

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) رسالته عليه السلام في العقل، طالع: الكافي، ج١، ص١٣. تحف العقول، ص ٢٨٢-٢٩٧.

بكاءً مرًّا ويقول لأحد رجاله، وهو أبو أيوب الحوزي: «هَذَا كِتَابُ مُحَمَّدِ بْن سُلَيْمَانَ يُخْبِرُنَا أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ مَاتَ فَإِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ -ثَلاثًا- وَأَيْنَ مِثْلُ جَعْفَرٍ؟..»⁽¹⁾.

إننا نقرأ في التاريخ أن الإمام علي عليه السلام كان يذهب إلى حديقة النجار، حيث يقضي الليل هناك يبكي بصورة متواصلة⁽²⁾، إن هذا لم يكن مجرّد بكاء، وإنما كان توجُّهاً صادقاً وعميقاً لله سبحانه، وهذا البكاء هو الذي خلَّف في نفوسنا شعلة الإيمان، وكان يمشي في طرقات المدينة المنورة علّه يجد فقيراً أو مسكيناً أو مريضاً فيساعده، أو صاحب مصيبة فيُعزِّيه. وفي الرواية: أن حبَّة العرني كان نائمًا في رحبة القصر، إذ سمع أنينًا وبكاءً، وإذا به يجد الإمام علي عليه السلام واضعًا رأسه على الحائط يبكي كالواله⁽³⁾، وقد كان لجوؤه إلى الحائط بسبب أن قواه كانت قد خارت من كثرة التعبُّد والتهجُّد وقيام الليل.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣. أعلام الورى، ص٢٩٨. مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص٣٢٠.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤١، ص١١.
(٣) بحار الأنوار، ج٤١، ص٢٢.

صفو الكلام

* إنّ دور الأئمة المعصومين عليهم السلام هو مكمل لدور الأنبياء عليهم السلام، كما أن حركتهم الرسالية هي امتداد للرسالات السماوية.

* إنّ أهم ميزة تتمتّع بها حركة الأنبياء عليهم السلام -وكذلك الأئمة عليهم السلام- هي مواجهة الطواغيب في عصورهم.

* ويتلخص دور الأنبياء عليهم السلام وأهدافهم في:

ألف: تنمية الضمير الديني الحق في الإنسان.

باء: تنظيم حياة الإنسان على الأرض.

* جاء الأنبياء لوضع وتطبيق برامج للعدالة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي في كل مجالات الحياة. وهذا هو أيضاً دور الأئمة عليهم السلام لأنهم المستحفظون على رسالات الأنبياء عليهم السلام.

التّاريخُ الإسلاميُّ.. دُروسٌ وعِبَر

البابُ الثّاني: مَسيرةُ الحركةِ الرّساليّةِ في العهدِ الأمويّ

الفصلُ الأوّلُ: سيرةُ وحياةُ الإمامِ السّجاد عليه السلام
الفصلُ الثّاني: الحركةُ الرّساليّةُ في عهدِ الإمامِ السّجاد عليه السلام
الفصلُ الثّالثُ: الحركاتُ السّياسيّةُ في زمنِ الدّولةِ الأمويّة
الفصلُ الرّابعُ: الحركةُ الرّساليّةُ في عهدِ الإمامينِ الصّادقينِ عليهما السلام

الباب الثاني، مَسيرةُ الحَرَكة الرِّساليّة في العَهدِ الأموي

الفَصلُ الأوّل: سِيرةُ وحَياةُ الإمام السّجاد عليه السلام

عصرُ الإمام السَّجاد عليه السلام دِراسةٌ وتحليل

وَضعُ الدّوْلة الإسلاميّة في عَصرِ الإمام السَّجاد عليه السلام

عصر الإمام السجاد عليه السلام دراسة وتحليل

لرسم تصوُّر يقترب من طبيعة الشخصية التاريخية التي يُراد دراستها، لا بد من ملاحظة بُعدين:

الأول: تُراعي الحالة الثقافية لتلك الشخصية باعتبارها المحدّد للمعالم السلوكية.

الثاني: تُلاحظ الظروف الموضوعية التي على أساسها تُبنى المواقف.

وبعيداً عن هذين البعدين لا يمكن الحصول على تصوُّر يكشف عن حقيقة تلك الشخصية، فإهمال البعد الأول يُؤدِّي إلى إهمال المحددات الأساسية للشخصية، مثل الدوافع والمنطلقات والأهداف التي يسعى إليها، بالتالي نفقد الطبيعة التي يتميّز بها عن الآخرين. كما أن إهمال الطبيعة التاريخية والظروف الموضوعية تبعدنا عن واقعه الشخصي. فتقويم أي حدث بعيداً عن البعد الزمني الذي صُنع فيه الحدث يكون أقرب إلى ارتجال فروض غير واقعية. ومن هنا عندما نقوم بتلك المحاولة للتعرُّف إلى حياة الإمام علي بن الحسين عليه السلام ينبغي أن ندرس حياته(١) بعمق لكي نُغيِّر تلك الصورة المشوشة التي رُسمت له، إلى صورة مشرقة تُنير لنا الطريق. فقد كان تأثيره العظيم والهائل على واقع المسلمين خفيًّا، ودوره في قيادتهم من أخفى أدوار الأئمة عليهم السلام تقريباً.

---

(١) للوقوف على سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام، راجع مثلاً ما كتبه المؤلف: (الإمام السجاد.. قدوة وأسوة)، وما كتبه العلامة المحقق القرشي، (حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.. دراسة وتحليل). وأيضًا: (الإمام زين العابدين من المهد إلى اللحد)، للعلامة السيد محمد كاظم القزويني.

ولذلك أصبح كثير من الناس لا يعرف الدور الحقيقي الذي مارسه الإمام السجّاد عليه السلام، حيث يحصر البعض الإمام ببعض الصفات البارزة فيه والواضحة في الصحيفة السجادية(١)، وما أشبه، أو أنهم يجهلونه كليًّا.

أهداف الحركة الرسالية

ولكي نعرف دور الإمام زين العابدين عليه السلام(٢) معرفة واضحة، لا بد أن نعرف معنى الرسالة والرساليين، تلك المعرفة هي التي تكشف لنا المخزون المعرفي والثقافي للإمام عليه السلام، فحركة الإمام لم تكن نتيجة طبيعة ذاتية وإنما وليدة القيم الإسلامية المتجذرة في شخصيته عليه السلام، ومن هنا لا بد أن نعرف أن الحركة الرسالية لم تكن حركة سياسية تستهدف فقط القضاء على الحكم الأموي فالعباسي بالرغم من أنها طبعت بالطابع السياسي في كثير من الحقب، حيث كانت السياسة الوجه البارز لها. وإنما الحركة الرسالية حركة حضارية شاملة، تصبو إلى الهدف ذاته الذي جاءت من أجله الرسالات الإلهية التي هبطت على الأنبياء عليهم السلام وعلى النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهو بناء الإنسان بناءً متكاملاً خلقيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، فالهدف من رسالات الأنبياء ليس هو العمل السياسي فقط؛ ذلك لأن العمل السياسي بدوره مرتبط تمام الارتباط بسائر جوانب حياة الإنسان.

---

(١) تحتوي على سلسلة كبيرة من أدعية الإمام السجاد عليه السلام، عرفت بالصحيفة السجادية، قال العلامة المحقق الجلالي: «يعبر عن هذه بالصحيفة الأولى، حيث أن جمعًا من الأعلام جمعوا أدعية أُخرى للإمام فتعدّدت الصحائف». ووصفها العلامة الطهراني في الذريعة بقوله: «ويعتني بها شيعة أهل البيت عليهم السلام، عناية بالغة، وقد سمّاها العلامة ابن شهر آشوب في (معالم العلماء) عند ترجمة المتوكل بن عمير بـ: (زبور آل محمد عليهم السلام). وعند ترجمة يحيى بن علي بن محمد الحسني العريضي بـ: (إنجيل أهل البيت عليهم السلام). وقد خصها الأصحاب بالذكر في إجازاتهم، واهتموا برواياتها منذ القدم، وتوراث ذلك الخلف عن السلف، وطبقة عن طبقة، وتنتهي روايتها إلى الإمام الباقر عليه السلام وزيد الشهيد ابني الإمام زين العابدين عليه السلام». انظر: الذريعة، ج١٣. فهرس التراث، ج١، ص١١١.

(٢) قال في شذرات الذهب، ج١، ص٣٧٤: «سمّي زين العابدين لفرط عبادته، وكان وِرده في اليوم والليلة ألف ركعة إلى أن مات». و: «سبب لقبه زين العابدين أنه كان ليله في محرابه قائماً في تهجُّده..». مطالب السؤول في مناقب آل الرسول صلى الله عليه وآله، ج٢، ص٨٥.

السلطة السياسية بنت الحالة الاجتماعية

فمن الناحية العلمية لا يمكن أن يكون الحاكم إلَّا ممثلاً طبيعيًّا أو شرعيًّا للمجموعة التي يحكمها. فالممثل الطبيعي هو الذي يمثل الأمة سلباً أو إيجاباً. بينما الممثل الشرعي هو الذي يمثل الأمة إيجاباً فقط.

لقد كان الإمام علي عليه السلام ممثلاً إيجابيًّا وشرعيًّا لعهده الذي استخلف فيه، ولكن يزيد بن معاوية كان ممثلاً طبيعيًّا لعهده، بمعنى أن يزيد بن معاوية وأعماله الوحشية البربرية التي اقترفها، إنما كانت من مسؤولية الأمة الإسلامية جميعاً، ولم تكن الأمة حينها راضية بما فعله يزيد بن معاوية والنظام الأموي من قبله، ولكن وبسبب أزمة الأخلاق التي أصابت الأمة بالتقاعس عن الحق والتواني والتواكل، ساهمت الأمة فيما اقترفه يزيد من أعمال شنيعة.

ولو كانت الأمة الإسلامية تتمتَّع بالروح الإيمانية الواعية والاهتمام بالدين والتضحية من أجله، لما وقعت جريمة واحدة من جرائم يزيد، بل وإن يزيد بن معاوية -الذي هو بدوره جريمة على الأمة الإسلامية- لم يكن ليأتي كحاكم متسلّط أصلاً.

إذن لم يكن يزيد بن معاوية إلَّا ممثلاً للأمة الإسلامية، وواقعها في الحقبة التي حكمها، (فكما تكونون يولى عليكم)، وهذا الأمر صحيح من الناحية التاريخية ومن ناحية علم السياسة والاجتماع، لذلك فإن تغيير السياسة لا يمكن أن يكون بتغيير الحاكم فقط. بل إن تغيير الحاكم لن يحدث إلَّا إذا تغيرت طائفة من الأمة، لها من التفوق كمًّا وكيفاً.

إن هتلر(١) كان يمكن تغييره وتبديله، لتنصيب رجل آخر مكانه، إذا غيّرت

---

(١) أدولف ألويس هتلر [١٨٨٩-١٩٤٥م] سياسي ألماني نازي، ولد في النمسا، وكان زعيم حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف للعامة باسم الحزب النازي. تولى أدولف هتلر حكم ألمانيا في الفترة ما بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤٥م حيث شغل منصب مستشار الدولة، في

الأمة الألمانية من نفسها ودخلت المعركة ضد هتلر.

إذن التغيير يجب أن يحدث أولاً في الأمة، ومن ثم يأتي تبعاً لذلك تغيير الحاكم، وهذا يبيّن لنا مدى الارتباط بين الأمة وبين الحكام والأنظمة، وهو بدوره يهدينا إلى مدى الارتباط بين السياسة والدين، وبين السياسة والاقتصاد، وبالتالي يجعل من الإنسان والمجتمع وحدة متكاملة، تتأثر وتتفاعل فيه عدة عوامل اجتماعية، واقتصادية، ودينية، وخلقية، وسياسية.

زرع حب الحرية في النفوس

والأئمة المعصومون عليهم السلام كانت لهم رسالة كبيرة، جزء منها تغيير أنظمة الحكم، ولكن الأجزاء الأخرى لا تقل أهمية في بناء الأمة الإسلامية وحضارتها، وكان من جملة رسالتهم زرع حب الحرية في نفوس جماهير الأمة.

والإنسان بفطرته يُحب الحرية، لولا عوامل الاستغلال والاستعباد وأغلال النفس التي تحجب الإنسان عن تلك القيمة، إلى درجة يتحوَّل معها من محب للحرية إلى محب للعبودية. كما حدث مع (أبراهام لينكولن[1]) الذي أنقذ العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية إبّان الحرب المعروفة بين الشمال والجنوب، وألغى قانون الرق من الدستور، وأخرج العبيد الذين كانوا يعملون عند أسيادهم البيض في مصانعهم وأراضيهم وتجارتهم، إلى الحياة الحرة المستقلة، وانتهت بذلك سلطة السادة على

الفترة ما بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤٥م. وفي عام ١٩٤٥م، نجحت جيوش الحلفاء في اجتياح ألمانيا من جميع جوانبها وحتى سقوط برلين. وأثناء الأيام الأخيرة من الحرب في عام ١٩٤٥، تزوج هتلر من عشيقته إيفا براون بعد قصة حب طويلة. وبعد أقل من يومين، انتحر العشيقان.

(١) أبراهام لينكون [١٨٠٩-١٨٦٥م]، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية بالفترة من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥م. يعد من أهم رؤسائها على الإطلاق، إذ قامت في عهده الحرب الأهلية الأمريكية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية وإعلانها تكوين دولة مستقلة سمّيت الولايات الكونفدرالية الأمريكية، فتمكن لينكون من الانتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزي بقوة السلاح، كما كان لينكون صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا عام ١٨٦٣م. وقد مات مقتولاً في عام ١٨٦٥م.

العبيد. ولكن الكثير من هؤلاء كانوا قد تعوَّدوا على الذل والعبودية، فذهب الكثيرون منهم إلى أسيادهم ليبقوا تحت سلطتهم رغم الذل الذي كانوا يلاقونه.

إن سبب ذلك يكمن في أن نفوسهم كانت قد استُعبِدت، ولو كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومون، والأنبياء السابقون عليهم السلام، لم يعملوا على حرية الناس لتحوَّل الناس إلى عبيد لدى الطواغيت، ولما كانت هناك ثورات ولا حركات ولا تغيير، وبالتالي لم يحدث تقدُّم ولا أية حضارة، إنما أنبياء الله هم الذين حرروا الإنسان منذ أول حقب التاريخ، وبثُّوا في روحه حب الحرية والتضحية من أجلها، فربّوا رجالاً صالحين كأصحاب الحسين عليه السلام الذين حاربوا معه في كربلاء وأبلوا كل ذلك البلاء، ولو كان أولئك الرجال كسائر مَنْ في الكوفة، لكانوا يحاربون إلى جانب يزيد، إنما الأئمة هم الذين ربَّوهم على حب الحرية والجهاد في سبيل الله، والإيمان بالآخرة، والتضحية من أجلها.

بناء الإنسان هدف الأنبياء وبرنامج الأئمة

إن الأنبياء بُعِثوا من أجل بناء الإنسان، وجاهدوا من أجل بناء بشر مثاليين، لأنها نقطة التحوُّل في المسيرة البشرية التي لا تكتمل إلَّا بإعطاء الإنسان دوره الطبيعي، فهدف الأنبياء يمكن تلخيصه في بناء حضارة يتكامل فيها الإنسان وفقاً للقيم الإلهية. ضمن هذا الرؤية نفهم الدور الكبير الذي قام به الإمام زين العابدين عليه السلام الذي عمل على إحياء مفاهيم الدين التي تبدَّلت، فقام ببث روح الدين التي تحتوي -فيما تحتوي- على رفض الطواغيت، والتهيئة من أجل إقامة حكم الله، والعمل من أجل إنقاذ الإنسان من براثن الظلم والعبودية. ولو أن الأئمة عليهم السلام كانوا لا يهتمون بأمر الناس، أو كانوا يشتغلون بالسياسة فقط دون النظر إلى القيم الإلهية التي تخلق للسياسة أطرها وأنظمتها الخاصة، لكانت حركاتهم تشبه بعض الحركات السياسية التي تقوم بها فئات من الناس في أي مكان من العالم من أجل أهداف صغيرة ومحدودة، ما أن يصلوا إليها حتى يعودوا ويحكموا الناس بالظلم والعدوان.

الفرق الأساس بين حركة العباسيين وحركة العلويين

من هنا نعرف الفرق بين حركة العباسيين وحركة العلويين، فالعلويون كانوا يريدون الرسالة، والرسالة تعني الإسلام، الذي جاء برؤية متكاملة تستوعب النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وبالتالي لم تكن المطالبة بالحكم وإنما الحكم العادل الحر الجامع لكل شرائط الحق والكمال.

بينما العباسيون كانوا يريدون إسقاط النظام الأموي والسيطرة على مقاليد الحكم، لذلك عندما وصل العباسيون إلى الحكم فعلوا ما فعله الأمويون من الجرائم، فعندما بدأت التحركات العباسية في خراسان قام أبو مسلم الخراساني(١) بقتل ستمائة ألف صبرًا كما جاء في بعض التواريخ(٢).

وأبو مسلم الخراساني بدوره قُتل على يد العباسيين غدراً(٣)، كما قتلوا أبا سَلَمة الخَلَّال، وهو وجه العباسيين في الكوفة(٤). وقاموا بقتل مجموعة من العلويين

---

(١) عبد الرحمن بن مسلم [١٠٠ - ١٣٧هـ]، أبو مسلم الخراساني، كان يقال له: (أمين آل محمد)، وصاحب دولة بني العباس، ويقال له عبد الرحمن بن شيرون بن إسفنديار أبو مسلم المروزي، كان فاتكاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم، نشأ بالكوفة. قال الشيخ عباس القمي في تتمة المنتهى: «دعا الناس إلى بيعة إبراهيم بن محمد بن علي الملقب بالإمام، ذلك لأنه كان يعتقد بإمامة محمد بن الحنفية، بعد أمير المؤمنين.. سار إلى خراسان، وكان على الدوام يدعو الناس إلى بيعة بني العباس، حتى اجتمع الناس حوله واشتد أمره وعلا. فصفا له حكم خراسان، أمر الناس بلبس السواد، واتخذ الرايات السود أعلامًا له وشعارًا». وفي حديقة الشيعة، ص٥٥٦، رُوي بسند صحيح عن الإمام الرضا رواية في ذمّه وأن اسمه في صحيفة أعداء أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد كذّب الإمام من يقول أنه من الشيعة.. وكما راسل الإمام الصادق، فأجابه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليس لكتابك جواب، اخرج عنا». ورُوي عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يخرج (رجلٌ) في آخر الزمان من المشرق، ويهلك الله به أهل الشام، ويسلب عن بني أمية ملكهم». قتله المنصور الدوانيقي سنة ١٣٧هـ. طالع: البداية والنهاية، ج١٠، ص٦٧. ونحوه: تتمة منتهى الآمال، ص١٥٠. و: مستدركات النمازي، ج٨، ص٤٥٢. الأعلام، ج٣، ص٣٣٧.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٣٧.

(٣) الفخري، ص١٦٥. الإمامة والسياسة، ج٢، ١٨٥. الأخبار الطوال، ص٣٨٣.

(٤) حفص بن سليمان الهمداني الخلاّل [ت:١٣٢هـ]، يعرف بالخلاّل لسكناه بدرب الخلاّلين

والموالي الذين على أكتافهم قامت الدولة العباسية(١). وكان حكم العباسيين حكمًا وراثيًّا ديكتاتوريًّا بما في الكلمة من معنى، والذي أبقى على هذا الفرق بينه وبين الحركة الرسالية وغيرها من الحركات هو الدور الرسالي الذي قام به الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي كان يشتري العبيد ويقوم بتربيتهم ثم يعتقهم ويتركهم في المجتمع(٢)، ليطالبوا بتحقيق أهداف الرسالة ويضحُّوا من أجل ذلك، لقد كان يُربيِّ ويُغذِّي جيل الثورة الرسالية وليس الثورة السياسية فقط، وإنما الثورة على جميع المستويات وجميع الأصعدة.

الحركة الرسالية ضمان بقاء الإسلام

ولو لم يكن الأئمة المعصومون عليهم السلام موجودين، وخصوصاً الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام لتعرض الإسلام للخطر؛ إذ إن الأمة الإسلامية في عهده تحوَّلت إلى مجموعات من الحركات السياسية، كل واحدة منها تطلب الحكم لنفسها، وتسعى في هذا السبيل، ومن أجل ذلك تقترف كل الجرائم من أجل الوصول إلى الحكم.

فنجد أن عبد الله بن الزبير يأتي ويُنكِّل ويقتل ويهدم ما يشاء من أجل الحكم(٣)، ونجد كيف قتل السفاح والمنصور الدوانيقي الأمويين بصورة وحشية، فقد كانوا يقتلون الأمويين ويفرشون البساط عليهم وهم لا يزال بهم نَفَس من

بالكوفة. وكان يقال له: (وزير آل محمد)، وهو أول من لقب بالوزارة في الإسلام، أنفق أموالًا كثيرة في سبيل الدعوة العباسية. لما استقام الأمر للسفاح استوزره، فكان أول وزير لأول خليفة عباسيّ. وكان يسمر كل ليلة عند السفاح فيأنس به لما في حديثه من إمتاع وأدب، ولما كان عليه من علم بالسياسة والتدبير، اغتاله أشخاص كمنوا له ليلًا ووثبوا عليه وهو خارج يريد منزله، فقطعوه بأسيافهم. قيل: إن أبا مسلم الخراساني دسهم له لشحناء بينهما، أو لأن السفاح توهَّم فيه الميل لآل عليّ فسلَّط عليه أبا مسلم. الأعلام، ج٢، ص٢٦٤.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١١١. دلائل الإمامة للطبري، ص٢٩٨. بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٠٦. الأغاني، ج٥، ص٢٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٠٣-١٠٥. ولاحظ: الإمام السجاد قدوة وأسوة، للمؤلف، ص٥٠.

(٣) اشتهر بكثرة ما بعث إليه من رؤوس أعدائه بعد مقتلهم، كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص١٧١.

الحياة، فيجلسون ويأكلون عليهم(١) كما كان يفعل الحجاج(٢) بأنصار العباسيين والعلويين(٣).

انظروا إلى أيِّ درجة وصل الحقد، لقد كادت الأمة الإسلامية أن تتحوَّل إلى أمة حاقدة، ليس فقط حقداً سياسيًّا، وإنما هذا الحقد كان ينعكس على سائر النواحي الأخلاقية. وهذه الأعمال ورَّثت الأمة نُظماً دكتاتورية عملت على إنهاء كل القيم الإنسانية والأخلاقية، مما أدَّى إلى فشل التجربة الإسلامية في تقديم صورة حضارية.

إن الدولة ينبغي أن تقوم بنشر الفكر الصحيح الذي يرتكز على وعي أصيل للإسلام، وإلَّا سوف تكون نهايتها السقوط، لذلك كانت أولى الدول والبلاد التي سقطت بأيدي المسيحيين هي الأندلس(٤)، لأنها لم تقم على أساس الأفكار الرسالية المتينة التي تُشكِّل الخلفية الحقيقية للحضارة الإسلامية، وكان من الواجب تكوين هذا الفكر بكل أبعاده. والأئمة عملوا في هذا السبيل، ولولاهم لكانت الأمة تنتهي إلى الدمار والاندثار.

وهذا هو جواب السؤال الذي يقول: لماذا اشتغل الإمام علي بن الحسين زين العابدين في قضايا غير سياسية؟ ويكفينا أن ندرس دور الصحيفة السجادية وكيف شكّلت حينها خلفية العمل الإسلامي لنعرف عظمة دور هذا الإمام.

الصحيفة السجادية زبور الحركة الرسالية

إن أدعية الصحيفة السجادية لا تمثِّل حالة وجدانية يعيشها الفرد المؤمن فحسب، ولا يمكن أن تُحصر في كونها رباط معنوي تسمو به الروح المشتاقة إلى لقاء

---

(١) الفخري، ص١٤٩. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، ص٥٠.

(٢) ابن يوسف بن الحكم الثقفي [٤٠- ٩٥هـ]، (الحَجَّاج الثَّقفي). قائد، داهية. كان سفَّاكًا سفَّاحًا باتِّفاق معظم المؤرخين. قال عبد بن شوذب: ما رُئي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. مات بواسط، وأُجري على قبره الماء، فاندرس. الأعلام، ج٢، ص١٦٨.

(٣) أنساب الأشراف، ج٧، ص٢٩٧.

(٤) أنظر: خلاصة تاريخ الأندلس، للأمير شكيب أرسلان.

الله، وإنما هي أيضاً تأصيل لفكر التحدِّي وثقافة الثورة، فقد كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى خلفية ثورية متكاملة، وليس إلى الكلام والشعر الذي يبثُّ حقداً أو يُؤصِّل لحالة التبرير، أو يُثير العواطف المرتجلة والآنية.

لقد كانت الأمة بحاجة إلى نظرية متكاملة للثورة، والإمام زين العابدين عليه السلام بيّن هذه النظرية، ليس في الصحيفة السجادية التي كانت خلاصة تربية الإمام عليه السلام فحسب، وإنما كان الإمام ذاته زبوراً ناطقاً، فقد قام في حياته بتربية الآلاف وقدَّمهم للمجتمع⁽¹⁾.

وهناك سؤال يطرحه البعض وهو: لماذا لم يبذل الإمام كل جهوده في السياسة؟.

والجواب هو: إن الحركة الرسالية هرم يقف على رأسه الإمام، وتتكوَّن أركان هذا الهرم من المجموعات التي تقوم بالأنشطة المختلفة التي تُلبِّي كافة احتياجات المجتمع، فالفقه، والعلوم، والسياسة.. كل ذلك كانت الأمة بحاجة إليه، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يعدّ لكل ركن المجموعة المناسبة القادرة على القيام بالدور المُوْكَل إليها، وهذا منتهى القدرة في القائد، وهو أن يكون قادراً على تربية رجل للحركات السرية، وآخر للحركات العلنية، وآخر في الزهد والتقوى. وهكذا، ربّى الإمام نموذجين من البشر:

- نموذج العلماء.
- نموذج الثوار.

فمن العلماء كان: الإمام محمد بن علي الباقر الذي بقر العلم بقراً⁽²⁾، وسعيد بن

---

(1) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٠٥.

(2) روى رَجَاءُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شِمْرٍ قَالَ: «سَأَلْتُ جَابِرَ الْجُعْفِيِّ فَقُلْتُ لَهُ: وَلِمَ سُمِّيَ الْبَاقِرُ بَاقِراً؟. قَالَ: لِأَنَّهُ بَقَرَ الْعِلْمَ بَقْراً. أَيْ شَقَّهُ شَقّاً وَأَظْهَرَهُ إِظْهَاراً». بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٢١.

جبير(١)، وسعيد بن المُسيَّب(٢).

ومن الثوار ابنه زيد الذي فجّر سلسلة من الثورات الإسلامية في التاريخ، حتى أصبح الزيديون الجناح العسكري والمظلَّة لحماية الشيعة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«لَا أَزَالُ أَنَا وَشِيعَتِي بِخَيْرٍ مَا خَرَجَ الخَارِجِيُّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ الخَارِجِيَّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ خَرَجَ وَعَلَيَّ نَفَقَةُ عِيَالِهِ»**(٣).

فحقًّا، إن مثل هذا الرجل يجب أن يُعطى حق التقدير والاقتداء، ويعرف بأنه إمام حقًّا، وأن الإسلام يُوصي باتِّباعه.

ولكننا نرى أن النظرية الرسالية هذه تتعرَّض لهجوم عنيف ليس في أشخاص الأئمة عليهم السلام فقط، وإنما في ممارساتهم وأفكارهم وخلفياتهم الثورية، وهذا الهجوم

---

(١) ابن هاشم الأسدي [٤٥-٩٥هـ]، الكوفي، المعروف بالولاء، تابعيّ، كان أعلمهم على الإطلاق، من خيار أصحاب الإمام السجاد عليه السلام. مستدركات النمازي، ج٤، ص٥٧. وعن أبي عبدالله عليه السلام أن سعيد بن جبير كان يأتمُّ بعلي بن الحسين عليه السلام وكان علي عليه السلام يُثني عليه، وما كان سبب قتل الحجاج له إلَّا على هذا الأمر، وكان مستقيمًا، وذكر أنه لما دخل على الحجاج بن يوسف قال له: أنت شقي بن كسير؟. قال: أمي كانت أعرف باسمي، سمتني سعيد بن جبير. قال: ما تقول في أبي بكر وعمر، هما في الجنة أو في النار؟. قال: لو دخلت الجنة فنظرت إلى أهلها لعلمت من فيها، وإن دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت من فيها. قال: فما قولك في الخلفاء؟. قال: لست عليهم بوكيل. قال: أيهم أحب إليك؟. قال: أرضاهم لخالقي. قال: وأيهم أرضى للخالق؟. قال: علم ذلك عند الذي ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾، قال: أبيت أن تَصدُقني!. قال: بلى، لم أحب أن أكذبك». رجال الكشي، ص٢٠٣. وكما في الأعلام، ج٣، ص٩٣: قال الإمام أحمد بن حنبل: «قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلَّا وهو مفتقر إلى علمه».

(٢) ابن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي [١٣- ٩٤هـ]، أبو محمد، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. في رواية تعداد الحواريين، عدَّه الإمام الكاظم عليه السلام، من حواريّ الإمام السجاد عليه السلام. وروى الكشي عن الفضل بن شاذان، أنه «لم يكن في زمن علي بن الحسين عليه السلام في أوّل أمره، إلَّا خمسه أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب.. إلخ». وعن وفيات الأعيان، قال: «سعيد بن المسيب، سيد التابعين، جمع بين الحديث والفقه، والزهد، والورع». مستدركات النمازي، ج٤، ص٨١. الأعلام، ج٣، ص١٠٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٥٤.

ليس وليد العصور المتأخرة، وإنما بدأ منذ فجر الإسلام الأول.

والسؤال: لماذا الهجوم على الفكر الرسالي؟.

والجواب: لأن هذا الفكر خطر على الطغاة والانتهازيين والوصوليين. لذلك على الذين يدافعون عن هذا الفكر بشكله الصحيح أن يعرفوا أنهم يُواجهون تحدِّياً عظيماً. فعلى سبيل المثال لا الحصر نرى أحمد الشلبي يقول في كتابه (تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية): «.. على أن صفات الحسن لم تكن تُهيِّئه للخلافة. فلم تكن له ميزة أعظم من أنه ابن علي بن أبي طالب، وهذه لا تكفي قطعًا لنيل المكانة، فلم يكن للحسن علم أبيه، ولم تكن له بطولة أبيه، ولم تكن له سابقة أبيه، ومع هذا غلبت أباه الأحداث، فأنّى للشاب الذي يُروى أنه تزوج مائة زوجة(١)، أن يملأ هذا الفراغ، لقد قيل: إنه كان يجرُّ على أبيه المتاعب ويخلق له الأعداء بسبب كثرة الزواج والطلاق حتى أوصى عليٌّ الناس ألّا يُنكِحوه بناتهم..»(٢).

وحينما يأتي إلى ذكر الإمام الحسين عليه السلام يقول: «إن معاوية حينما خلّف يزيدًا، كان يقوم بعمل حكيم، وذلك لأسباب عديدة منها: أن الذين كانوا يعارضون حكم يزيد لم يكونوا بأحسن منه، فعبد الله بن عمر كان زاهدًا عابدًا وأن هذه هي صفته الوحيدة. والحسين بن علي ففضله أنه من الأرومة الطيبة، وأنه قريب النسب بالمصطفى، وفيما عدا ذلك لا يثبت له التاريخ تجارب سياسية أو إدارية متعددة أو بارزة تجعله يفضل غيره في حمل العبء، ولعله أخطأ التوفيق حينما قبل دعوة أهل العراق وسار إليهم...»(٣).

هذا المؤرخ الذي تنبعث من كلماته رائحة التبرير للأنظمة الطاغوتية، يؤكد

---

(١) هذه فرية وشبهة من الأباطيل التي افتعلها وروجها المنصور الدوانيقي وأخذها عنه المؤرخون كما أثبت ذلك وناقشه وردّها المحقق الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه: حياة الإمام الحسن بن علي، ج٢، ص٤٤١. فلاحظ.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٣٦.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٤٨-٥٠.

لنا أن الرؤية الثقافية التي تحركها أيديولوجيات محدّدة ومعروفة كيف يمكن أن تحجب الحقائق التاريخية الواضحة، فالظلم الذي ارتكبه بنو أمية وبنو العباس أكبر من أن تحجبه تبريرات المثقفين الذين أصبحوا أبواقاً للسلاطين. أما الإمام الحسين عليه السلام الثائر الشهيد الذي يُعرِّي كل الظالمين يصبح في نظر هذا المؤرخ مجرّد إنسان غُرِّر به من قبل الكوفيين، ويُريح نفسه بذلك من عناء دراسة ثورة كربلاء وظروف قيامها والأهداف التي نشدها الإمام الحسين عليه السلام من ثورته ضد الأمويين. لذلك عندما نؤكد على الالتزام بالفكر الرسالي وندافع عنه فإننا لا ندافع عن فكرة ميتة، وعن تاريخ ورجال ذهبوا، وإنما ندافع عن تلك النظرية الثورية الخلّاقة المعطاءة التي خلَّفت وراءها الأمة الإسلامية وحضارتها.

ولو أن هذه النظرية صيغت وأُعيدت وطُبِّقت وجُسِّدت حرفيًّا وبالشكل السليم من قبل فئة رسالية حيوية، لاستطاعت أن تخلق حضارة جديدة. أما انحرافات يزيد وأبيه معاوية وهارون الرشيد والمأمون العباسي(١) لا يمكنها أن تكوّن حضارة.

---

(١) عبد الله [١٧٠- ٢١٨هـ] بن هارون (الرشيد) بن محمد (المهدي) بن أبي جعفر المنصور، (المأمُون العَبَّاسي). سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك، في سيرته وعلمه وسعة ملكه. نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند. الأعلام، ج٤، ص١٤٢. ذكر المحقق العلامة القرشي للمأمون العباسي جملة من الصفات والنزعات النفسية منها: الغدر، والقسوة، والدهاء، وميله إلى اللهو... وفي ختام البحث قال العلامة القرشي: «نهج المأمون في أيام حكومته منهج معاوية بن هند، فقد ذكر المؤرخون أنه عرضت عليه سيرة أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي عليه السلام، فأبى أن ينهج نهجهم، ويسير بساستهم...». حياة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، دراسة وتحليل، ج٢، ص٢٣٩ - ٢٨٠. فراجع.

صفو الكلام

* للتعرف على حياة الإمام السجاد عليه السلام ينبغي أن ندرس حياته بعمق حتى نعرف صورته المشرقة التي تنير لنا الطريق.

* كانت حركة الإمام وليدة القيم الإسلامية المتجذّرة في شخصيته عليه السلام.

* والحركة الرسالية التي كان يقودها الإمام عليه السلام هي حركة حضارية شاملة، تصبو إلى الأهداف ذاتها التي جاءت من أجلها الرسالات الإلهية. ومن أهمها صياغة الأمة وفق المعايير الربانية.

* ولو كانت الأمة تتمتع بالروح الإيمانية الواعية، لما وقعت جرائم الأمويين (فكما تكونون يولّى عليكم).

* وكانت رسالة الأئمة عليهم السلام تغيير الأمة قبل كل شيء.

* ضمن هذه الرؤية نفهم دور الإمام السجاد عليه السلام الذي عمل على إحياء مفاهيم الدين وبث روح رفض الطواغيت، وانقاذ الإنسان من براثن الظلم.

* ولو لم يكن الأئمة موجودين وخصوصًا الإمام السجاد عليه السلام لتعرض الإسلام للخطر.

وَضعُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ في عَصرِ الإمامِ السَّجادِ عليه السلام

إن حيـاة البشر كُلٌّ لا يتجزّأ، فالسياسـة ترتبط بالاجتـماع، والاجتماع يرتبط بالاقتصـاد، والاقتصاد يرتبط بالأخلاق، والأخلاق ترتبط بالثقافة والفكر، كما أن الثقافة والفكر بدورهما يرتبطان بسائر جوانب حياة الإنسان، لذلك فإن دور الإمام عـلي بـن الحسـين عليه السلام لم يقتصر على جانـب دون آخر. وفي هذا الموضـوع نود أن نتحدث عن صور من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.

في عهـد الإمام السـجاد عليه السلام كان الوضـع العام للدولة الإسـلامية يعاني من أزمـة حضارية حادة على مختلف الصعد، السياسـية والفكريـة والاجتماعية والخلقية، وكانت هذه الأزمة تهدّد الأمة الإسلامية ليس فقط بتغيير مسيرتها، وإنما أيضاً بزوالها.

وكان عـلى الإمام زيـن العابديـن عليه السلام أن يعالج هذه الأزمـة، ليس وحده بالطبـع، وإنـما باعتباره قائداً للطليعة الرسـالية، أمثال: سـليمان بن صرد الخزاعي، والمختـار بـن أبي عبيـدة الثقفي، والزهـري(١). ومن الصحابـة: «جَابِرُ بْـنُ عَبْدِ الله

---

(١) صفوان بن سليم الزّهريّ المدني [٦٠-١٣٢هـ]، من أصحاب السجاد عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج١٠، ص١٣١، وقال في سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٦٤: «صفوان بن سليم، الإمام الثقة، الحافظ الفقيه، أبو عبدالله، وقيل: أبو الحارث القرشي، الزهري المدني مولى حميد بن عبدالرحمن بن عوف». وقال عنه في كتابه: (الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة): «صفوان بن سليم الزهري، مولاهم المدني، الإمام القدوة، ومن يستسقى بذكره... يقال: إنه لم يضع جنبه أربعين سنة، وقيل: إن جبهته ثقبت من كثرة السجود، وكان قانعًا لا يقبل جوائز السلطان، ثقة حجة». وانظر: مستدركات علم رجال الحديث، ج٨، ص٥١٤.

الْأَنْصَارِيُّ⁽١⁾، وَعَامِرُ بْنُ وَاثِلَةَ الْكِنَانِيُّ⁽٢⁾، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ وَكَانَ رَبَّاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام: «**سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآثَارِ. أَيْ فِي زَمَانِهِ**»⁽٣⁾، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْهَانَ [جمهان] الْكِنَانِيُّ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ⁽٤⁾.

وَمِنَ التَّابِعِينَ: أَبُو مُحَمَّدٍ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ نَزِيلُ مَكَّةَ، وَكَانَ يُسَمَّى: جَهِيدَ الْعُلَمَاءِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَتَيْنِ. قِيلَ: «**وَمَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى عِلْمِهِ**». وَمُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ⁽٥⁾، وَأَبُو خَالِدٍ الْكَابُلِيُّ⁽٦⁾، وَالْقَاسِمُ بْنُ

---

(١) ابن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي [١٦ ق هـ - ٧٨هـ]، صحابي، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين والحسن والحسين والسجاد والباقر عليهم السلام، ومن شرطة خميس أمير المؤمنين عليه السلام، شهد بدرًا وثماني عشرة غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وآله. من المكثرين في الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وروى عنه جماعة من الصحابة. غزا تسع عشرة غزوة. وكان مع الإمام أمير المؤمنين في قتال البصرة وحرب صفين، وهو من النقباء الاثني عشر، انتخبهم رسول الله صلى الله عليه وآله، بأمر جبرئيل عليه السلام، وعدَّه الإمام الصادق عليه السلام في رواية الأعمش في شرايع الدين من الذين لم يُغيِّروا ولم يُبدِّلوا بعد نبيهم وتجب ولايتهم. وعدَّه الإمام الصادق عليه السلام من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي صلى الله عليه وآله يُؤخذ عنه العلم. مستدركات النمازي، ج٢، ص٩٩. الأعلام، ج٢، ص١٠٤.

(٢) كان: «عامر بن واثلة [ت: ١١٠] كيسانيًّا، ممن يقول بحياة محمد بن الحنفية، وله في ذلك شعر، وخرج تحت راية المختار بن أبي عبيدة، وكان يقول: ما بقي من الشيعة غيري. كان من محبي علي عليه السلام، وبه خُتم الصحابة في الدنيا. قال معروف بن خربوذ: عرضت هذا الكلام على أبي جعفر عليه السلام، فقال: «صدق أبو الطفيل رحمه الله». وفي هذا شهادة على حسن حاله ورجوعه على فرض صحّة كيسانيّته. ولعل رميه بالكيسانيّة بسبب خروجه تحت راية المختار، وفيه ما فيه». منتهى المقال في أحوال الرجال، ج٤، ص٥٣.

(٣) وفي رجال الكشي ص٢٠٢: «.. بما تقدمه من الآثار وأفهمهم في زمانه».

(٤) ابن علاقة الكناني، مولى أم هاني، من رجال الإمام السجاد عليه السلام، ومن أصحابه، وكنيته أبو فاختة، عدَّه البرقي من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من مضر. معجم رجال الحديث، ج٩، ص١٢٠.

(٥) ابن عدي بن نوفل بن عبدمناف. عن الفضل بن شاذان أنه قال: «لم يكن في زمن علي بن الحسين عليه السلام إلَّا خمسة أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب، محمد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أم الطويل، أبو خالد الكابلي واسمه وردان، ولقبه كنكر». مستدركات النمازي، ج٦، ص٤٨٩.

(٦) وردان أبو خالد الكابلي، من خواص أصحاب السجاد، والباقر، والصادق عليهم السلام، عدَّه الإمام الكاظم عليه السلام، من حواريّ الإمام السجاد عليه السلام، وروى الكشي في حقه روايات تدل على مدحه وجلالته. مستدركات النمازي، ج٨، ص١٠٠.

عَوْفٍ(١)، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ(٢)، وَإِبْرَاهِيمُ، وَالْحَسَنُ(٣) ابْنَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ أَبُو يَحْيَى الْأَسَدِيُّ(٤)، وَأَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ الْمَدَنِيُّ الْأَقْرَنُ الْقَاصُّ(٥).

وَمِنْ أَصْحَابِهِ: أَبُو حَمْزَةَ الثُّمَالِيُّ(٦)، بَقِيَ إِلَى أَيَّامِ مُوسَى [الكاظم عليه السلام].

---

(١) الشيباني أبو عامر: «من التابعين، كان يختلف بين مولانا علي بن الحسين عليه السلام، ومحمد بن الحنفية. روى الشيخ الطوسي في أماليه ج٢، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، عنه، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، ما يفيد حسنه وكماله، ومعرفته بالفضائل». مستدركات النمازي، ج٦، ص٢٥١.

(٢) ابن أبي طالب عليه السلام، تابعي، من أصحاب علي بن الحسين، والباقر، والصادق عليهم السلام. نقد الرجال، ج١، ص٢٢٢.

(٣) الفقيه أبو محمد الهاشمي، المدني. عُدّ من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام. وكان من علماء بني هاشم. قال عمرو بن دينار: «ما رأيت أحداً أعلم بما اختلف فيه الناس من الحسن بن محمد..» طبقات الفقهاء، ج١، ص٣٢٣.

(٤) تابعي، فقيه الكوفة، عُدّ من أصحاب الإمام علي بن الحسين، والإمام الباقر، والإمام الصادق عليهم السلام. وعدّه في رجال الشيعة كل من ابن قتيبة في معارفه، والشهرستاني في الملل والنحل. منتهى المقال، ج٢، ص٣٢٣. طبقات الفقهاء، ج١، ص٣٢٠.

(٥) عُد من أصحاب الإمامين السجاد والباقر عليهما السلام، كان فقيهًا، كثير الحديث، وكان يقصّ، وله كلمات في الوعظ والتذكير. وعُدَّ من خواص الإمام الصادق عليه السلام. انظر: مستدركات علم رجال الحديث، ج٨، ص٣٥٥. وأيضاً: طبقات الفقهاء، ج١، ص٣٨٠.

(٦) هو: ثابت بن أبي صفيّة دينار [ت: ١٥٠هـ]، ويُكنى أبا حمزة الثمالي، من أهل الكوفة، من الثقات عند الإمامية والمعروف بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، بل ثقة وجليل بالاتفاق، من رجال الحديث، روى عنه بعض أهل السنّة، من أصحاب الإمام السجاد، والإمام الباقر، والإمام الصادق والإمام الكاظم عليهم السلام، له كتاب النوادر، وكتاب تفسير القرآن. قال الفضل بن شاذان، سمعت الثقة يقول: سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: «أبو حمزة الثمالي في زمانه كلقمان في زمانه، وذلك أنه خدم منا أربعة: علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد عليهم السلام، وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليه السلام، ويونس بن عبدالرحمن سلمان في زمانه». قتل ثلاثة من أولاده مع زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام. قاموس الرجال، ج٢، ص٤٤٤. و: ج١١، ص٢٩٥. مستدركات النمازي، ج٢، ص٧٩. الأعلام، ج٢، ص٩٧.

وَفُرَاتُ بْنُ أَحْنَفَ(١)، بَقِيَ إِلَى أَيَّامِ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام، وَجَابِرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ(٢)، وَأَيُّوبُ بْنُ الْحَسَنِ(٣)، وَعَلِيُّ بْنُ رَافِعٍ(٤)، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الْقُرَشِيُّ السُّدِّيُّ الْكُوفِيُّ(٥)، وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ(٦)، أَصْلُهُ مِنَ الْكُوفَةِ. وَطَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ أَبُو عَبْدِالرَّحْمَنِ(٧)، وَحُمَيْدُ بْنُ مُوسَى الْكُوفِيُّ(٨)، وَأَبَانُ بْنُ تَغْلِبَ بْنِ رَبَاحٍ(٩)، وَأَبُو الْفَضْلِ

---

(١) العبدي، أبو محمّد، يُرمى بالغلوّ والتفريط في القول، من أصحاب الإمام علي بن الحسين، والإمام الباقر، والإمام الصادق عليهم السلام، كوفي، قال العقيقي: إنّه كان زاهداً رافضاً للدنيا. نقد الرجال، ج٤، ص١٤.

(٢) عدَّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام علي بن الحسين. معجم رجال الحديث، ج٤، ص٣٣٦.

(٣) ابن علي بن أبي رافع، مولى رسول الله ﷺ، واسم أبي رافع أسلم، من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام، وذكره البرقي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. قال ابن شهر آشوب: له كتاب، وهو ثقة. أمل الآمل، ج٢، ص٤٢. معجم رجال الحديث، ج٤، ص: ١٦٧

(٤) عدَّه ابن شهر آشوب من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج١٣، ص١٦.

(٥) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدّي، من الكوفة. أبو محمّد القرشي، المفسرّ، من أصحاب الإمام علي بن الحسين والإمام الباقر والإمام الصادق عليهم السلام. ذكره صاحب ميزان الاعتدال وقال عنه: إسماعيل السدّي، شيعي، صدوق، لا بأس به. منتهى المقال، ج٢، ص٧١.

(٦) تابعي، من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام، قال ابن حجر في لسان الميزان، ج٧، ص٢٤٩: «الضحاك بن مزاحم المفسر الهلالي أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني».

(٧) الحميري الجَندي، أبو عبد الرحمن اليماني، من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام. روى عن: زيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وابن عباس، ولازم ابن عباس مدّة، وهو معدود في كُبراء أصحابه. وكان من عبّاد الخاصة وزهّادهم، وأقام بمكة مجاوراً متعبّداً. قال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذر في زمانه، وطاوس في زمانه، والثوري في زمانه. وكان فقيهاً جليلًا. قال خصيف: أعلمهم بالحلال والحرام طاوس. وقال سفيان الثوري: كان طاوس يتشيّع. وروى أبو نعيم الأَصفهاني بسنده عن طاوس عن بُريدة عن النبيّ ﷺ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه». وثّقه ابن معين وأبو زُرعة، وقال ابن حبّان: كان من عبّاد أهل اليمن، ومن سادات التابعين، مستجاب الدعوة، حجّ أربعين حجّة. مات بمكة في سنة ست ومائة. نقل عنه الشيخ الطوسي في كتاب الخلاف، أربعًا وأربعين فتوى. طبقات الفقهاء، ج١، ص٤٠٨.

(٨) عده ابن شهرآشوب في مناقبه ج٤، ص١٧٧، من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام.

(٩) البكري الجُرَيْري [ت: ١٤١هـ]، أبو سعيد، معروف بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، كان قارئًا، فقيهًا، لغويًّا، نبيلًا، سمع من العرب، وحكى عنهم، من أهل الكوفة. ثقة، جليل القدر، عظيم

سَـدِيرُ بْنُ حَكِيـم بْنِ صُهَيْبِ الصَّـيْرَفِيُّ(١)، وَقَيْـسُ بْنُ رُمَّانَـةَ(٢)، وَعَبْـدُاللهِ الْبَرَقِيُّ(٣)، وَالْفَرَزْدَقُ الشَّاعِرُ(٤)، وَمِنْ مَوَالِيهِ شُعَيْب(٥)». فتحرك الإمام عليه السلام ومعه هذه الكوكبة من الطليعة الرسالية، وكان في انتظارهم مجموعة من الأزمات وهي على النحو التالي:

أولاً: الأزمة السياسية

تُعتبر الأزمة السياسـية من أبرز التحديات التي تُواجه الحركة الرسالية، فقد عصفت بالأمة الإسلامية اضطرابات واسعة تزداد تموُّجاً بفعل الحركات المعارضة

المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمد علي بن الحسين، وأبا جعفر، وأبا عبدالله عليهم السلام، وكانت له عندهم حظوة وقدم. وقال له أبو جعفر عليه السلام: «اجلس في مسجد المدينة وأفتِ الناس، فإني أُحبُّ أن يُرى في شيعتي مثلُك». وقال أبو عبدالله لما أتاه نَعيُه: «أما والله لقد أوجع قلبي موتُ أبان». . منتهى المقال، ج١، ص١٣٢. من كتبه: غريب القرآن، ولعله أول من صنف في هذا الموضوع. والقراءات، وصفين، والفضائل، ومعاني القرآن. الأعلام، ج١، ص٢٦.

(١) كوفي، يكنّى أبا الفضل، والد حنّان، من أصحاب الإمام علي بن الحسين والإمام الباقر والإمام الصادق عليهم السلام، وروى الكشّي رحمه الله عن زيد الشحّام، قال: «إنّي لأطوف حول الكعبة وكفّي في كفّ الصادق عليه السلام، قال: ودموعه تجري على خدّيه، فقال عليه السلام: يا شحّام، ما رأيت ما صنع ربّي إليّ، ثمّ بكى ودعا، ثمّ قال لي: يا شحّام، إنّي طلبت إلى إلهي في سدير وعبد السلام بن عبد الرحمن وكانا في السجن فوهبهما لي وخلّى سبيلهما. وفي الكافي: عن الحسين بن علوان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال وعنده سدير: «إنّ الله إذا أحبّ عبداً غتّه بالبلاء غتّاً وإنّا وإيّاكم لنُصبح به ونُمسي». قال في منتهى المقال، ج٣، ص٣١٣: «وفيه (الكافي) في باب قلّة عدد المؤمنين رواية يظهر منها حسن حاله في الجملة، وكذا في باب درجات الإيمان وقال: وبالجملة: يظهر من الروايات كونه من أكابر الشيعة، مضافًا إلى ما فيه من كثرة الرواية ورواية الأجلّة..».

(٢) ابن أبي مسلم الأشعري الكوفي، وأمه رمانة، يُكنى أبا المفضل. من أصحاب الإمامين السجاد والباقر عليهما السلام. رجال ابن داود، ص٢٧٩.

(٣) عامّي. من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليهما السلام. نقد الرجال، ج٣، ص٨٨.

(٤) همام بن غالب التميمي الحنظلي، شاعر تميمي، كان سيدًا جوادًا فاضلاً وجيهًا. راجع ترجمته في لسان الميزان، ج٦، ص١٩٦. وفي مستدركات النمازي، ج٦، ص١٩٦: عدوه «من أصحاب أمير المؤمنين، والحسين، والسجاد عليهم السلام، يُكنى أبا فراس، وهو مادح الإمام السجاد عليه السلام، بقصيدة جليلة كريمة مشهورة في وجه هشام، تكشف قصيدته عن حسن عقيدته وكماله».

(٥) ذكرته كتب الرجال والتراجم بالاسم فقط، ولم تذكر أي شيء من سيرته ولا نسبه ولا مدحه. طالع مثلاً: نقد الرجال، ج٢، ص٣٩٨. منتهى المقال، ج٣، ص٤٤٣.

لسلطة بني أمية، فكانت هناك تحركات معارضة في العراق(١)، والحجاز(٢)، ومصر والمغرب(٣)، وغيرها من البلاد الإسلامية(٤). فالسياسة لم تكن مستقرة حينها أبداً، وأبسط دليل على ذلك هو أنه وخلال نصف قرن -كما يُبيِّن التاريخ- تسارع هلاك حكام بني أمية(٥).

---

(١) بعد استشهاد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بدأت قوى المعارضة لبني أمية في العراق بالبروز، منها حركة التوابين، والمختار.. وستقف على تفاصيل أكثر من خلال بحوث الكتاب.

(٢) يشير د. إبراهيم بيضون إلى أن أول معارضة قامت ضد الحكم الأموي على يد حجر بن عدي الكندي، ولكن دون أن تكون متبوعة بمحاولات تتجاوز الموقف الحجازي... وفي أحداث سنة أربعة وستين ثار أهل المدينة، على بني أمية وطرد الثائرون عامل يزيد فيها وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ومن فيها أيضًا من الأمويين كمروان بن الحكم وغيره، وكانت هذه الحركة بزعامة عبدالله بن حنظلة غسيل الملائكة، وجاء هذا التمرُّد نتيجة للمؤتمر الفاشل الذي جمعهم مع يزيد، وقد انتهت الثورة بوقعة الحرة الشهيرة، وإباحة المدينة ثلاثة أيام، على يد مسلم (مسرف) بن عقبة، فقتل من أهل المدينة أكثر من أربعة آلاف. وفي أحداث سنة ٨١، ثار ابن الأشعث على الحجاج وخلع عبدالملك بن مروان، واستمرت ثورته حتى سنة ٨٣، ثم قضى عليها الحجاج بجيش الشام. انظر: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص١٩٢. و: الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، ص١٤٦. و: كتاب: الإمام الحسين في المدينة المنورة، ص١٧٨، ضمن موسوعة مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة.

(٣) يقصد بالمغرب تلك المناطق التي تمتد من حدود غرب مصر، حتى شواطئ المحيط الأطلسي، وهي المناطق التي سيطر عليها البيزنطيون، واحتُلت من قبل الرومان، ثم فتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وقد برزت فيها قوى المعارضة للسلطة الأموية حين سيطر عليها الخوارج، ولأن الخوارج ترى كفر بني أمية فكانت الثورة ضد عامل بني أمية في القيروان، قام بها من كانوا قد تلقَّوا تعاليم الخوارج وآمنوا بها. لاحظ: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، ص٧٨.

(٤) حركة الموالي، وبعض الشيعة من العرب في خراسان. قال البلاذري في فتوح البلدان، ص ٣٩٦، «ثم ولَّى زياد بن أبي سفيان الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان، وحوَّل معه من أهل المصرين -البصرة والكوفة- زهاء وخمسين ألفاً بعيالاتهم..» ذلك لأنه أراد تصفيتهم من الكوفة وكسر شوكتهم، فأخذت تلك الجماهير التي أُبعدت تعمل على نشر التشيُّع، حتى تحوَّلت إلى مركز للمعارضة ضد الحكم الأموي. طالع: العلامة القرشي، الإمام الحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص١٧٩.

(٥) بدأت الخلافة الأموية من عام ٤٠ هـ وكان أول حكامها معاوية بن أبي سفيان، واستمرت حتى هلاك آخر حكامها مروان بن محمد. بدأ حكمه عام ١٢٧هـ، وانتهى عام ١٣٢هـ: «فكانت ولايته من حين بويع إلى أن قتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يومًا». تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٤٤٢.

فيزيد بن معاوية بقي في السلطة فترة (٣) سنوات(١)، ومعاوية بن يزيد ولي الأمر أربعين ليلة(٢)، ومروان بقي تسعة شهور، وقيل عشرة أشهر(٣)، وابنه عبدالملك بقي (١٣) سنة(٤). هؤلاء الحكام الذين كانوا رأس النظام الأموي، أما الولاة فكانوا أيضاً يُبدّلون بطريقة عجيبة نظراً لحدة الأزمة السياسية(٥). وهذه الأزمة أولدت أزمات أخرى، أهمها الأزمة الخلقية التي عصفت بالأمة الإسلامية.

ثانياً: الأزمة الخلقية

وتعني أن تلك القيم التي جاء بها الإسلام من أجل الرقي بالإنسان، كادت تزول ولم يبقَ منها إلّا شيء بسيط. فقيمة المساواة مثلاً كقيمة أساسية لبناء أي نظام اجتماعي، إذا نظرنا إليها في ذلك الواقع التاريخي ضمن الأطر التالية:

١- المساواة بين العرب والموالي.
٢- المساواة بين الطبقات.
٣- المساواة بين الحاكم والمحكوم.

---

(١) بدأت عام ٦١ وانتهت عام ٦٤هـ. «كانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، ويقال: ثمانية أشهر». تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٤٩٩.

(٢) يعرف بمعاوية الثاني، ثالث خلفاء بني أمية، وصل إلى الخلافة بعد أبيه يزيد في سنة ٦٤هـ. وكانت أربعين يوماً، بعدما صعد المنبر وأعلن تركه للخلافة. تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٥٠٣.

(٣) بدأت من العام ٦٤، وانتهت عام ٦٥هـ. «وعاش بعد أن بويع له بالخلافة تسعة أشهر، وقيل: عاش بعد أن بويع له بالخلافة عشرة أشهر إلّا ثلاث ليال». تاريخ الأمم والملوك: ج٥، ص٦١١.

(٤) بدأت من العام ٧٣ وانتهت عام ٨٦هـ. «مات عبدالملك بن مروان بدمشق يوم الخميس للنصف من شوال سنة ست وثمانين، فكانت ولايته منذ أن بُويع إلى يوم تُوفّي إحدى وعشرين سنةً وشهرًا ونصفًا، كان تسع سنين منها يقاتل فيها عبدالله بن الزبير، ويُسلّم عليه بالخلافة بالشام، ثم العراق بعد مقتل مصعب، وبقي بعد مقتل عبدالله بن الزبير واجتماع الناس عليه ثلاث عشرة سنةً وأربعة أشهر إلّا سبع ليال». تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤١٨.

(٥) لما مات زياد بن أبيه دعا معاوية بسمرة بن جندب الفزاري فولاّه البصرة، فأقام بها ثمانية أشهر، ثم شكاه أهل البصرة فعزله، وولّى مكانه عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي، فأقام على العراق أميرًا ستة أشهر، ثم عزله معاوية وولّى مكانه عبدالله بن خالد... وهكذا. راجع: الفتوح، ج٤، ص٣١٧.

لا نجد لها واقعاً داخل الأمة الإسلامية آنذاك.

لقد رأى الموالي من المسلمين أو غير المسلمين الذين قبلوا بالحكم الإسلامي، أن حياتهم تحوَّلت إلى جحيم في العهد الأموي⁽¹⁾. بينما كان المسلمون قد بشَّروهم بحياة حالمة يتمتعون فيها بالسعادة والعدل والمساواة.

إن الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم حين تم لهم فتح البلدان: «ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..»⁽²⁾.

لم يَرَ الموالي والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين والمهنيين وصغار التجار في البلاد المفتوحة أي وقع له، بل وجدوا أنفسهم قد تحوّلوا عبيداً لسادة آخرين. وربما ظلوا عبيداً لسادتهم الأولين أنفسهم؛ لأن الأمويين كانوا يتفقون مع العلوج ⁽³⁾ الذين هم الدهاقين⁽⁴⁾، بأن لهم الحق في استغلال واستعباد مواطنيهم لقاء الخراج الذي يدفعونه للدولة⁽⁵⁾، وقد قام هؤلاء بالسيطرة على الموالي وعلى تلك الطبقات المحرومة، وأخذوا الضرائب من الناس بشكل عشوائي، ومارسوا بحقهم الظلم والتقتيل باسم الدين، وكان اعتمادهم في ذلك على الفاتحين العرب

---

(١) طالع: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص٣٧٠. وأيضًا: حياة الإمام الحسين بن علي، ص١٣٧.

(٢) البداية والنهاية، ج٧، ص٣٧. تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص٥٣٠. تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٥٢٠. الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٦٣. المنتظم، ج٤، ص١٦٨.

(٣) علج، العِلْج الرجل الشديد الغليظ، ويقال: للرجل القويّ الضخم من الكفار عِلْج. لسان العرب، مادة علج.

(٤) الدهقان، جمعه دهاقنة ودهاقين (فارسي معرب)، ويعني التاجر، ورئيس الإقليم، زعيم فلاحي العجم، رئيس القرية. والدهاقون هم تجار المدينة وأهل الحظوة فيها. أنظر: لسان العرب، تاج العروس: مادة (دهقن).

(٥) الإمامة والسياسة، ج٢، ص٢٩. أنساب الأشراف، ج٥، ص٤١٠. البدء والتاريخ، ج٦، ص٤. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢١٨. تجارب الأمم، ج٢، ص٩٩. الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٤٠.

الذين اعتقد الناس أنهم جاؤوا إليهم بدين جديد، في حين أنهم لم يجدوا تطبيقاً عمليًّا لمبادئ هذا الدين عليهم(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سببّت الأزمة الخلقية افتقاد الأمن الشخصي في عهد بني أمية ابتداءً من عهد معاوية فنازلاً. وأبسط دليل على ذلك ما يذكره المؤرخون حول زياد بن أبيه حينما ولي البصرة من قبل معاوية. حينها كان يسود البصرة قانون الغاب، فالرجل لا يأمن على نفسه حينما يخرج من بيته ليلاً. والمرأة لا تأمن سواء كان ليلاً أم نهاراً(٢). والمختطفون والمغتصبون للنساء كانوا يأتون للمرأة ويقولون لها: إصرخي ثلاثاً، ثم انظري إذا جاء إليك من يساعدك سوف نطلق سراحك، وإلَّا فإن لنا الحق في أن نأخذك معنا. وبعد أن تصرخ لا تجد من يجرؤ لتخليصها من أيدي اللصوص، إلَّا المرأة ذات الوضع الاجتماعي المعيَّن التي لها عشيرة أو قبيلة تحميها. أما ذلك الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية الذي يزرعه الإسلام في الإنسان والذي يقول: «**مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ**»(٣)، ذلك الحس كان مفقوداً تقريباً في المجتمع.

جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والوضع بهذه الحالة، فالناس يقتل بعضهم بعضاً، والإنسان لا يأمن على بيته وزوجته وأمواله من اللصوص.

فقام زياد بن أبيه يومها بفرض منع التجول(٤)، وربما لأول مرة في التاريخ الإسلامي، وحكم بأن الرجل الذي يخرج من منزله ليلاً يقطع رأسه، والحرس الذين يأتون برأس شخص قد خرج ليلاً يُكافؤون بخمسين درهماً. ولما كان أهل البصرة حينها يعيشون الفقر، وكانت هناك طبقات ذات مستوى معيشي ضعيف، لذلك فإنها انضوت تحت لواء زياد بن أبيه وقامت بقتل كل من تراه خارجاً من بيته

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص٢٧٣.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٣٦٥-٣٦٩.

(٣) الكافي: ج٢، ص١٦٣.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص١٠.

ليلاً، بل إن قسماً من الناس كانوا يذبحونهم في بيوتهم ثم يأتون برؤوسهم إلى دار الإمارة.

يقول ابن الأثير: «فإذا فرغ (زياد، من صلاة العشاء) أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فيخرج فلا يرى إنساناً إلّا قتله، فأخذ ذات ليلة أعرابيًا فأتى به زيادًا فقال: هل سمعت النداء؟.

فقال: لا والله!. قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير. فقال: أظنُّك والله صادقًا ولكن في قَتْلِكَ صَلاحُ [هذه] الأمة. ثم أمر به فضربت عنقه»⁽¹⁾.

فلمّا استخلف زياد سمرة على البصرة أكثر القتل فيها، فقال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف. فقال له زياد: أتخاف أن تكون قتلتَ بريئاً؟.

فقال: لو قتلتُ معهم مثلهم ما خشيت.

وقال أبو السوّار العدويّ: قتل سمرة من قومي في غداة واحدة سبعة وأربعين كلّهم قد جَمَعَ⁽²⁾ القرآن⁽³⁾.

وهنا نسأل: هل كانت سياسة القوة هذه تستطيع أن تكون البديلة عن الضمير؟.

بالطبع، لا. وهناك مظهر آخر من مظاهر الأزمة الخلقية، وهو أن الصدق، والأمانة، والتعامل الصحيح مع الناس، بل الاجتناب عن المحرمات، والخمر، والميسر، والفحشاء، والمنكر، كل ذلك أصبح شبه مفقود في المجتمع. فقد تحوَّلت المحرمات إلى مباحات.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٢٢٢. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٠٧.

(٢) أي: حفظه في صدره.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٦٣.

فالناس على دين ملوكهم، وإذا كان يزيد -مثلاً- مولعاً بالقرود، والفهود، والكلاب، والخمر، والفحشاء، فإنه بالطبع سوف يعكس وضعه وشذوذه على كافة القطاعات، خصوصاً وأن الأمة كانت لا تعيش الاستقرار في كافة الحقول.

يقول المسعودي: «وكان يزيد صاحب طرب، وجوارح وكلاب، وقرود وفهود، ومنادمة على الشراب... وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يُكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكأ،..»(١).

ثالثاً: الأزمة الفكرية

برزت هذه الأزمة بشكل واضح في عهد إمامة الإمام زين العابدين عليه السلام. فقد كانت الأمة لا تعرف طريقها، في الوقت الذي تداخلت فيه بالأمم الأخرى نتيجة توسَّع الفتوحات الإسلامية في كافة الأطراف والجبهات، مما أدى إلى دخول ثقافات جديدة، وكانت الأمة بحاجة إلى بوتقة تصهر هذه الأفكار ومن ثم تميّز الخبيث منها من الطيّب، في حين أن الأمة كانت مشغولة بالقضايا السياسية الحادة. فلو جاء أحد الفلاسفة الذين أسلموا في الفتوحات الإسلامية وسأل أبناء الأمة الإسلامية عن أسئلة بعد أن أخبرهم أنه يؤمن بالنظرية الأفلاطونية:

ما هو رأيكم أيها المسلمون في الجبر والاختيار؟. وما هو رأيكم في القدر؟. وما هو رأيكم في الجوهر والأعراض؟.

لكان جوابهم: لا نعرف.

حينما لا يمتلك أبناء الأمة الإسلامية نظرية متكاملة عن مجالات الدين السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، سوف يكون البديل نظريات وأفكار

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٦٧.

هذا الفيلسوف، وتكون الأمة حينها قد ابتعدت بخطى سريعة عن جوهر الإسلام.

وبالفعل فقد انتشرت الأفكار المنحرفة ونشأت تيارات فكرية متضاربة من: زنادقة(١)، وقدرية(٢)، ومفوِّضة(٣)، حتى إن البعض اتَّبعوا نظرية المجوس(٤) وأدخلوا في الدين الأفكار المانوية(٥)، والثنوية(٦)، وأهريمن، ويزدان(٧). وهكذا أصبح لكل الأفكار البشرية واقعاً في الأمة الإسلامية، من ديانات هندية مثل البراهمة(٨)، وفلسفات يونانية(٩) مثل الأفلاطونية، وكيَّفوا الإسلام على تلك

---

(١) الزنديق بالكسر من الثنويّة أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبيّة، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان. والمشهور على ألسنة الناس أن الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة ويقول بدوام الدهر. والعرب تعبر عن هذا بقولهم: ملحد، أي طاعن فى الأديان.

(٢) فرقة تنكر القدر، وتقول: إن كل إنسان خالق لفعله.

(٣) هم الذين يعتقدون بتفويض أفعال البشر إلى أنفسهم، فهم مستقلون في خلق الأفعال وإيجادها ولا صلة لها بخالق البشر.

(٤) من أتباع زرادشت، وتعتقد بوجود إله واحد أزلي هو أهورامزدا بمعنى «الإله الحكيم». وهو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبدًا.

(٥) أو المنانية، كما ذكر ابن النديم في الفهرست، ص٣٩١-٣٩٢، (الفن الأول من المقالة التاسعة): ديانة تُنسب إلى ماني بن فتّق بابك، كان على صغر سنه يتكلم بكلام الحكمة، وقيل: أتاه الوحي وهو في الثانية عشر من عمره، وكان يقول بنبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية...

(٦) هم أصحاب الاثنين الأزليين: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان.

(٧) أهريمن: إله الشّر في ديانة زرادشت. ويزدان: إله الخير.

(٨) القائلة: بنفي النبوات أصلاً ورأسًا. وهم ينتسبون إلى رجل منهم يقال له (براهم) وقد مهَّد لهم نفي النبوات، وقرَّر استحالة ذلك في المعقول بوجوده، فقال: إن الذي يأتي به الرسول لم يخلُ من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما ألَّا يكون معقولًا. فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فأي حاجة لنا إلى الرسول؟. وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خرج عن حد الإنسانية ودخل في حريم البهيمية. راجع: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٦٠٢.

(٩) ناقش المؤلف الأفكار اليونانية (الأوربية) وحدّد الثغرات الواسعة فيها، في كتابه: الفكر الإسلامي.. مواجهة حضارية. وأيضًا: راجع للمؤلف كتاب: العرفان الإسلامي.. بين بصائر الوحي وتصورات البشر.

الأفكار. وإذا بالإسلام تحوَّل إلى عشرين إسلاماً، والأفكار الإسلامية تناقضت بشكل حاد، والأمة الإسلامية لا تعرف ماذا عليها أن تعمل، وما هي واجباتها.

رابعاً: الأزمة الاجتماعية

الأزمة الاجتماعية هي: حصيلة جميع الأزمات، وقد نتجت أساسًا بسبب توسُّع البلاد الإسلامية بالفتوحات، إذ مع توسُّع البلاد انتشرت العائلات وتفرَّقت في البلاد المختلفة. وقد كان الرجل العربي من قبلُ يعيش في قرية أو في واحة، ضمن مجموعته، فيذهبون وينتقلون مع بعضهم، ومتحدون فيما بينهم في كافة الأمور، وذلك الاجتماع كان من أسباب القوة عند العرب. ولكن بعدما كثرت الفتوحات الإسلامية، رأينا أن الابن في العراق بينما الأب في إسبانيا يفتحها. وفي ذلك العهد لم تكن هناك وسائل الاتصال والمراسلة المنتظمة كالبريد والهاتف، وكذلك لم تكن هناك وسائل المواصلات السريعة.

وهكذا فإن تفكُّك الأُسر، وهي الكيانات الاجتماعية الحصينة، وتكوّن تجمعات سكانية خليطة، قد سبب للمسلمين ذلك الفساد والانحلال الذي عانوا منه. إضافة إلى ذلك نشأت أزمة اقتصادية حادة نتيجة جور الولاة في جمع الخراج⁽¹⁾، فخربت البلاد وقلّت العمارة. كل هذه الأزمات كان على الإمام زين العابدين المسؤول الأول في الأمة الإسلامية أن يعالجها.

الإمام السجاد يزرع روح الإيمان في الأمة

إن ضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو العامل الأساس وراء كل الأزمات التي أصيبت بها الأمة الإسلامية. ومن هنا يُمكننا أن نفهم حرص الإمام السجاد عليه السلام على إيمان الأمة بغرس بذور الإيمان في قلوب المسلمين، وسقيها ومداراتها ببرامجه الروحية وسيرته التي عُرف بها زيناً للعابدين.

---

(١) حياة الإمام زين العابدين عليه السلام، العلامة القرشي، ج٢، ص٣٨٠-٣٨٩.

لقد سجّل التاريخ صفحات نيّرة من سيرة هذا الإمام العظيم، في علمه، وعمله، وعبادته وتبتُّله لرب العالمين(١). وهنا نورد غيثاً من فيض السّجاد عليه السلام.

١ - عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مُبَارَكٍ قَالَ: «حَجَجْتُ بَعْضَ السِّنِينَ إِلَى مَكَّةَ، فَبَيْنَمَا أَنَا سَائِرٌ فِي عَرْضِ الْحَاجِّ وَإِذَا صَبِيٌّ سُبَاعِيٌّ أَوْ ثُمَانِيٌّ. وَهُوَ يَسِيرُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْحَاجِّ بِلَا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَهُ: مَعَ مَنْ قَطَعْتَ الْبَرَّ؟.

قَالَ: **مَعَ الْبَارِّ**. فَكَبُرَ فِي عَيْنِي فَقُلْتُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ زَادُكَ وَرَاحِلَتُكَ؟.

فَقَالَ: **زَادِي تَقْوَايَ، وَرَاحِلَتِي رِجْلَايَ، وَقَصْدِي مَوْلَايَ**.

فَعَظُمَ فِي نَفْسِي فَقُلْتُ: يَا وَلَدِي، مِمَّنْ تَكُونُ؟.

فَقَالَ: **مُطَّلِبِيٌّ**.

فَقُلْتُ: أَبِنْ لِي. فَقَالَ: **هَاشِمِيٌّ**.

فَقُلْتُ: أَبِنْ لِي. فَقَالَ: **عَلَوِيٌّ فَاطِمِيٌّ**.

فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي؛ هَلْ قُلْتَ شَيْئاً مِنَ الشِّعْرِ؟.

فَقَالَ: **نَعَمْ**. فَقُلْتُ: أَنْشِدْنِي شَيْئاً مِنْ شِعْرِكَ. فَأَنْشَدَ:

لَنَحْنُ عَلَى الْحَوْضِ رُوَّادُهُ   نَذُودُ وَنَسْقِي وُرَّادَهُ
وَمَا فَازَ مَنْ فَازَ إِلَّا بِنَا   وَمَا خَابَ مَنْ حُبُّنَا زَادُهُ
وَمَنْ سَرَّنَا نَالَ مِنَّا السُّرُورَ   وَمَنْ سَاءَنَا سَاءَ مِيلَادُهُ
وَمَنْ كَانَ غَاصِبَنَا حَقَّنَا   فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ مِيعَادُهُ

ثُمَّ غَابَ عَنْ عَيْنِي إِلَى أَنْ أَتَيْتُ مَكَّةَ فَقَضَيْتُ حَجَّتِي. وَرَجَعْتُ فَأَتَيْتُ الْأَبْطَحَ فَإِذَا بِحَلْقَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ فَاطَّلَعْتُ لِأَنْظُرَ مَنْ بِهَا فَإِذَا هُوَ صَاحِبِي، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ:

---

(١) طالع: بحار الأنوار، ج٤٦، ٤٧، ٤٨.

هَذَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام»(١).

٢- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ آبَائِهِ عَنِ الْبَاقِرِ عليهم السلام قَالَ: «**كَانَ لِأَبِي عليه السلام فِي مَوْضِعِ سُجُودِهِ آثَارٌ نَاتِئَةٌ، وَكَانَ يَقْطَعُهَا فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ خَمْسَ ثَفِنَاتٍ. فَسُمِّيَ ذَا الثَّفِنَاتِ لِذَلِكَ**»(٢).

٣- عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «**حَجَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَاشِيًا فَسَارَ عِشْرِينَ يَوْماً مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ**»(٣).

إن الإمام زين العابدين عليه السلام كان بعبادته يُعطي أكبر دافع للأمة نحو استرجاع الروح التي أخذت تبهت في ذاتها، بفعل سياسة الترغيب والترهيب التي أراد بنو أمية أن يُربُّوا الناس عليها، والتي أنتجت جيشًا من المرتزقة والعملاء، وقلبت المقاييس الأخلاقية في المجتمع وشوَّهت حقائق الدين. فالإمام عليه السلام كان يُعطي للناس الأنموذج والقدوة.

٤- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ: «**كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، كَانَتْ لَهُ خَمْسُمِائَةِ نَخْلَةٍ فَكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ كُلِّ نَخْلَةٍ رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ غَشِيَ لَوْنَهُ لَوْنٌ آخَرُ، وَكَانَ قِيَامُهُ فِي صَلَاتِهِ قِيَامَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ، كَانَتْ أَعْضَاؤُهُ تَرْتَعِدُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ يُصَلِّي صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، يَرَى أَنَّهُ لَا يُصَلِّي بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَقَدْ صَلَّى ذَاتَ يَوْمٍ فَسَقَطَ الرِّدَاءُ عَنْ أَحَدِ مَنْكِبَيْهِ فَلَمْ يُسَوِّهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَسَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَنْ ذَلِكَ؟. فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ أَتَدْرِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ كُنْتُ؟. إِنَّ الْعَبْدَ لَا تُقْبَلُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا بِقَلْبِهِ...**»(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٩١.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٦.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٧٦.

(٤) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٦١.

٥ - عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام قَالَ: «كَانَ أَبِي يُصَلِّي بِاللَّيْلِ حَتَّى يَزْحَفَ إِلَى فِرَاشِهِ»[١]. أي كان يعسر عليه عليه السلام القيام لشدة الإعياء من العبادة.

٦ -كان الإمام السجاد عليه السلام في مكة المكرمة بعدما قلّ الغيث واشتدَّ بالناس العطش. وقف يدعو الله سبحانه وتعالى أن يُمطر على أهل مكة. ثم سجد وقال: «**سَيِّدِي بِحُبِّكَ لِي إِلَّا سَقَيْتَهُمُ الْغَيْثَ**. قَالَ -الراوي-: فَمَا اسْتَتَمَّ الْكَلَامَ حَتَّى أَتَاهُمُ الْغَيْثُ كَأَفْوَاهِ الْقِرَبِ..»[٢].

لقد أعطى بذلك الناس الطاقة الروحية التي كانوا يفقدونها، تلك الطاقة التي تحوَّلت إلى مفاهيم ومبادئ أخلاقية، وبالتالي تحوَّلت إلى خيرات داخل الأمة الإسلامية. فصلاة الإمام زين العابدين وتلاوته وقراءته للقرآن كانت ضرورية للأمة، التي كانت تستوعب ذلك لمكانته بين أبنائها.

انظروا إلى التاريخ لتجدوا الإمام زين العابدين عليه السلام يأتي إلى البيت الحرام، والناس في ذلك الزحام والتدافع والانشغال، ولكنهم ينقشعون ليفسحوا له الطريق، فيستلم الحجر بسهولة[٣]، لأن الناس استوعبوا حياة الإمام زين العابدين عليه السلام

---

[١] بحار الأنوار، ج٤٦، ص٩٩.

[٢] بحار الأنوار، ج٤٦، ص٥٠: عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ قَالَ: كُنْتُ حَاجّاً وَجَمَاعَةَ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ مِثْلَ: أَيُّوبَ السِّجِسْتَانِيِّ، وَصَالِحِ الْمُرِّيِّ، وَعُتْبَةَ الْغُلَامِ، وَحَبِيبِ الْفَارِسِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلْنَا مَكَّةَ رَأَيْنَا الْمَاءَ ضَيِّقًا وَقَدِ اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْعَطَشُ لِقِلَّةِ الْغَيْثِ، فَفَزِعَ إِلَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ وَالْحُجَّاجُ يَسْأَلُونَّا أَنْ نَسْتَسْقِيَ لَهُمْ، فَأَتَيْنَا الْكَعْبَةَ وَطُفْنَا بِهَا ثُمَّ سَأَلْنَا اللهَ خَاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ بِهَا فَمُنِعْنَا الْإِجَابَةَ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا نَحْنُ بِفَتًى قَدْ أَقْبَلَ، قَدْ أَكْرَبَتْهُ أَحْزَانُهُ، وَأَقْلَقَتْهُ أَشْجَانُهُ، فَطَافَ بِالْكَعْبَةِ أَشْوَاطًا. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: يَا مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ، وَيَا ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ، وَيَا أَيُّوبُ السِّجِسْتَانِيُّ، وَيَا صَالِحُ الْمُرِّيُّ، وَيَا عُتْبَةُ الْغُلَامُ، وَيَا حَبِيبُ الْفَارِسِيُّ، وَيَا سَعْدُ، وَيَا عُمَرُ، وَيَا صَالِحُ الْأَعْمَى، وَيَا رَابِعَةُ، وَيَا سَعْدَانَةُ، وَيَا جَعْفَرُ بْنَ سُلَيْمَانَ. فَقُلْنَا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا فَتَى!. فَقَالَ عليه السلام: أَمَا فِيكُمْ أَحَدٌ يُحِبُّهُ الرَّحْمَنُ؟!. فَقُلْنَا: يَا فَتَى عَلَيْنَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ!. فَقَالَ عليه السلام: أَبْعِدُوا مِنَ الْكَعْبَةِ فَلَوْ كَانَ فِيكُمْ أَحَدٌ يُحِبُّهُ الرَّحْمَنُ لَأَجَابَهُ. ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ فَخَرَّ سَاجِداً فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: ...

[٣] بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٢٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج٦، ص ٤٣٥.

وعرفوه ودخلت في قلوبهم ونفوسهم محبته.

لقد ساهم الإمام زين العابدين في علاج الأزمة الفكرية بتوجيهاته وأفكاره الرسالية. فنرى مثلاً: رسالة الحقوق⁽¹⁾ التي بيّن فيها الحقوق التي أوجبها الإسلام على الإنسان المسلم، وقسّم تلك الحقوق إلى خمسين قسماً. وربما تكون بعض بنود هذه الرسالة بديهية بالنسبة لنا، لأننا في واقعنا نعيش بعض القيم المتوارثة في المحبة والتوادد وصلة الرحم، ولكن في زمن الإمام علي بن الحسين عليه السلام كانت رسالة الحقوق تعني تحدِّياً للأزمة الاجتماعية التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية⁽²⁾.

وأما الأزمة السياسية، فقد واجهها الإمام زين العابدين، عليه السلام ، بتغذيته للحركات الثورية مثل حركة سليمان بن صرد الخزاعي، وحركة المختار الثقفي. وهذا ما سنبيّنه في المواضيع القادمة إن شاء الله تعالى.

---

(١) رسالة الحقوق وهي عبارة عن مجموعة حقوق بين الإنسان وربه ومجتمعه، كتبها الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام. وفيها خمسون حقًّا، نقلها المحدث الجليل ابن شعبة الحراني، أبو محمد بن الحسن بن علي، في كتابة القيِّم: (تحف العقول)، أولها: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ لله عَلَيْكَ حُقُوقًا مُحِيطَةً بِكَ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ حَرُكْتَهَا [تَحَرَّكْتَهَا] أَوْ سَكَنَةٍ سَكَنْتَهَا... وآخرها: وَهَذِهِ خَمْسُونَ حَقًّا مُحِيطَةً بِكَ لَا تَخْرُجْ مِنْهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ يَجِبُ عَلَيْكَ رِعَايَتُهَا». ورواها الشيخ الصدوق بإسناده بعنوان: (الحقوق الخمسون)، التي كتب بها علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه، كما في الخصال، ج٢، ص٥٦٤، قال: «حدثنا علي بن أحمد بن موسى رضي الله عنه قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن مالك الفزاري، قال: حدثنا خيران بن داهر، قال: حدثني أحمد بن علي بن سليمان الجبلي، عن أبيه، عن محمد بن علي، عن محمد بن فضيل، عن أبي حمزة الثمالي، قال: «هذه رسالة علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه. اعلم أن لله عز وجل عليك حقوقاً..».

(٢) طالع (نص رسالة الحقوق) في: تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، ص٢٥٥.

صفو الكلام

* في عهد الإمام السجاد عليه السلام، كان الوضع العام للدولة الإسلامية يعاني من أزمة حضارية حادة على مختلف الصعد: السياسية والخلقية والفكرية والاجتماعية، وكانت هذه الأزمة الشاملة تهدّد الأمة الإسلامية، ليس فقط بتغيير مسيرتها، وإنما أيضاً بزوالها.

* وكان على الإمام السجاد عليه السلام أن يعالج هذه الأزمة، بشقوقها الأربعة، باعتباره قائداً للطليعة الرسالية، بما فيهم الحواريون من أتباعه، وبقايا الصحابة والتابعين.

* وكانت الأزمة السياسية من أبرز التحديات التي واجهت الحركة الرسالية، حيث كانت تعصف بالأمة الإسلامية اضطرابات واسعة بفعل الحركات المعارضة لسلطة بني أمية.

* ونتجت الأزمة الفكرية بسبب تداخل الأمة الإسلامية مع الأمم الأخرى، مما أدَّى إلى دخول ثقافات جديدة وغريبة، فكانت الأمة بحاجة إلى من يتولى تنقية الرسالة الإسلامية من الأفكار الدخيلة.

* وتوسّع الفتوحات أدى إلى رحيل الكثير من الرجال إلى أطراف البلاد البعيدة، مما ترك العوائل لوحدها فنتجت الأزمة الاجتماعية والتفكك الأسري.

الباب الثاني، مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

الفصلُ الثّاني: الحركةُ الرّساليّة في عهدِ الإمام السّجاد عليه السلام

ثورةُ التّوّابين.. ثورةٌ استشهاديّة

ثورةُ المختار بين الانتصار والهزيمة

ثَوْرَةُ التَّوَّابِيْنَ.. ثَوْرَةٌ اسْتِشْهَادِيَّة

في سنة خمس وستين⁽¹⁾ للهجرة اجتمع عدد من الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي بالكوفة، وقد كان هذا الاجتماع تعبيراً عن حالة الندم التي خيَّمت على الكوفة بسبب مقتل الإمام الحسين عليه السلام بعد أن وعدته الكوفة بالنصرة طالبة منه القدوم ليقود الجماهير الغاضبة على بني أمية، وتعاقدوا يومها على الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام وحدَّدوا لذلك ساعة الصفر، وعيَّنوا سليمان بن صرد الخزاعي قائداً لهم.

وفي الوقت المحدَّد أطلق شعاره: «يَا لَثَارَاتِ الْحُسَيْنِ»، وكان سليمان بن صرد هو أول من أطلق هذا الشعار، بعد أن كاتب أهل المدائن والبصرة، ووعدوه بالنصرة، واجتمع حوله ما بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل في منطقة النخيلة، وهي مفترق الطرق بين الشام والكوفة والمدينة، باعتبارها منطقة استراتيجية كانت الجيوش تعسكر فيها.

ثم قام سليمان في أصحابه فقال: «أيّها الناس من كان خرج يريد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منّا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيًّا وميتًا، ومن كان إنّما يريد الدنيا فوالله ما نأتي فيئًا نأخذه، وغنيمة نغنمها، ما خلا رضوان [الله]، وما معنا من

---

(١) لاحظ: أحداث السنة الخامسة والستين، في: الكامل في التاريخ، ج٤، تاريخ الأمم والملوك، ج٥. موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٦، للشيخ اليوسفي الغروي.

ذهب ولا فضّة ولا متاع، وما هي إلّا سيوفنا على عواتقنا، وزاد قدر البلغة، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحبنا.

فتنادى أصحابه من كلّ جانب: «إنّا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجنا، إنّما خرجنا نطلب التوبة، والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبيّنا ﷺ».

فلمّا عزم سليمان على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل: «إنّي قد رأيت رأياً إن يكن صواباً فالله الموفّق، وإن يكن ليس صواباً فمن قِبَلي، إنّا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتلته كلّهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع والقبائل، فأين نذهب هاهنا وندع الأوتار؟ فقال أصحابه كلّهم: هذا هو الرأي.

فقال سليمان: لكن أنا لا أرى ذلك، إنّ الّذي قتله وعبّأ الجنود إليه. وقال: لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأُمضي فيه حكمي، هذا الفاسق ابن الفاسق عبيدالله بن زياد، فسيروا إليه على بركة الله فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون علينا منه، ورجونا أن يدين لكم أهل مصركم في عافية فينظرون إلى كلّ من شرك في دم الحسين فيقتلونه ولا يغشموا، وإن تستشهدوا فإنّما قاتلتم المحلّين، وما عند الله خير للأبرار، إنّي لا أحبّ أن تجعلوا جدّكم بغير المحلّين، ولو قاتلتم أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ورجلاً يريد قتله، فاستخيروا الله وسيروا»(١).

عند قبر الحسين عليه السلام

«ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة، فما

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣. وقال ابن كثير في البداية والنهاية، ج٨، ص٢٥٢: «قال سليمان: إن ابن زياد هو الّذي جهز الجيش إليه (إلى الحسين بن علي)، وفعل به ما فعل، فإذا فرغنا منه عدنا إلى أعدائه بالكوفة (أمثال عمر بن سعد وغيره)، ولو قاتلتوهم أولاً، وهم أهل مصركم ما عدم الرجل منكم أن يرى رجلاً قد قتل أباه قد قتل أخاه أو حميمه، فيقع التخاذل، فإذا فرغتم من الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد. فقالوا: صدقت. فنادى فيهم: سيروا على اسم الله تعالى».

رُئي أكثر باكيًا من ذلك اليوم، فترحَّموا عليه وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال معه وأقاموا عنده يومًا وليلة يبكون ويتضرَّعون ويترحمون عليه وعلى أصحابه، وكان من قولهم عند ضريحه: «اللَّهمّ ارحم حسينًا الشهيد ابن الشهيد، المهديّ ابن المهديّ، الصّدّيق ابن الصّدّيق، اللَّهمّ إنّا نشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم، وأولياء محبّيهم، اللّهمّ إنّا خذلنا ابن بنت نبيّنا ﷺ، فاغفر لنا ما مضى منّا وتب علينا، وارحم حسينًا وأصحابه الشهداء الصّدّيقين، وإنّا نُشهدك أنّا على دينهم، وعلى ما قتلوا عليه، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ من الْخاسِرِينَ﴾[1]...».

ثم ساروا بعد أن كان الرجل يعود إلى ضريحه كالمودع له، فازدحم الناس عليه أكثر من ازدحامهم على الحجر الأسود، ثم أخذوا على الأنبار.

ثم ساروا[2] حتى انتهوا إلى قرقيسيا[3] على تعبية، وبها زفر بن الحارث الكلابي[4] قد تحصن بها منهم ولم يخرج إليهم، فأرسل إليه المُسَيَّب بن نَجَبَة[5] يطلب

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٠.

(٢) وكانت طريقهم من منزل قبر الحسين عليه السلام إلى القيارة -وهي اليوم إحدى نواحي مدينة الموصل، التابعة إلى محافظة نينوى. وتقع إلى جنوب مدينة الموصل بحوالي ٦٠ كيلو مترًا -ثم إلى هِيْت -التي تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات إلى الشمال من مدينة الرمادي بمسافة ٧٠ كم- ثم من هيت إلى عانات، وما يليها حتى قرقيسيا على شاطئ الفرات.

(٣) مدينة أثرية هامة في وادي الفرات السوري، اسمها القديم اللاتيني (كركيسيوم) وتعني المعقِل أو الحصن الدائري، وحوّلت إلى قرقيسيا في العصور العربية الإسلامية. تقع على الضفة اليمنى لنهر الخابور عند التقائه بنهر الفرات.

(٤) ابن عبد عمرو بن معاذ الكلابي [ت: ٧٥هـ]، شهد صفين مع معاوية أميرًا على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري. وقتل الضحاك، فهرب زفر إلى قرقيسيا (عند مصب نهر الخابور في الفرات) وقيل: لم يزل متحصناً فيها حتى مات. وكانت وفاته في خلافة عبد الملك بن مروان. الأعلام، ج٣، ص٤٥.

(٥) ابن ربيعة بن رياح الفزاري [٦٥هـ]، تابعي، كان متعبدًا ناسكًا، وشجاعاً بطلًا، فارس مضر الحمراء كلها، إذا عد من أشرافها عشرة كان أحدهم. وكان رأس قومه. شهد القادسية وفتوح العراق، وكان مع الإمام علي عليه السلام في مشاهده. سكن الكوفة. وثار مع التوابين واستشهد. الأعلام، ج٧، ص٢٢٦.

إليه أن يُخرج إليه سوقًا، فأتى المسيب إلى باب قرقيسيا فعرَّفهم نفسه وطلب الإذن على زفر، فأتى هذيل بن زفر أباه فقال: هذا رجل حسن الهيئة اسمه المسيب بن نجبة يستأذن عليك، فقال أبوه: أما تدري يا بني من هذا؟. هذا فارس مضر الحمراء كلها، إذا عُدّ من أشرافها عشرة كان أحدهم هو، وهو بعدُ رجل ناسك له دين، ائذن له، فأذن له، فلما دخل عليه أجلسه إلى جانبه وسأله، فعرّفه المسيب حاله وما عزموا عليه، فقال زفر: إنَّا لم نُغلق أبواب المدينة إلَّا لنعلم إيَّانا تريدون أم غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم، وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة.

ثم أمر إليه فأخرج لهم سوقًا، وأمر للمسيب بألف درهم وفرس، فرد المال وأخذ الفرس. وقال: لعلِّي أحتاج إليه إن عرج فرسي، وبعث زفر إليهم بخبز كثير وعلف ودقيق حتى استغنى الناس عن السوق، إلا أن كان الرجل يشتري سوطًا أو ثوبًا.

ثم ارتحلوا من الغد، وخرج إليهم زفر يُشيِّعهم، وقال لسليمان: إنه قد سار خمسة أمراء من الرقة هم: الحصين بن نمير(١)، وشُرحبيل بن ذي الكلاع(٢)، وأدهم بن محرز(٣)، وجبلة(٤) بن عبد الله الخثعمي، وعبيد الله بن زياد في عدد كثير مثل الشوك والشجر، فإن شئتم دخلتم مدينتنا، وكانت أيدينا واحدة، فإذا جاءنا

---

(١) ابن نائل [ت: ٦٧هـ]، أبو عبد الرحمن الكنديّ ثم السكوني، من أهل حمص، من القساة الأشدّاء، المقدَّمين في العصر الأموي. ومن أتباع معاوية المخلصين له. ومن رؤساء جند ابن زياد، وهو الذي حاصر عبدالله بن الزبير بمكة ورمى الكعبة بالمنجنيق. وهو من قبض على عبدالله بن يقطر، وقيس بن مسهر ﵄، كان له دور فعّال في قتال الإمام الحسين في كربلاء. وفي آخر أمره كان على ميمنة عبيد الله بن زياد في حربه مع إبراهيم بن الأشتر، فقُتل مع ابن زياد على مقربة من الموصل. الأعلام، ج٢، ص٢٦٢. مع الركب الحسيني، ج٤، الإمام الحسين في كربلاء، ص٩١.

(٢) الحميري [ت: ٦٧هـ]، كان في جيش عبيد الله بن زياد بالموصل، ولما نشبت الحرب بين ابن زياد وابن الأشتر، ولي شرحبيل قيادة خيل ابن زياد، فقُتل معه. الأعلام، ج٣، ص١٥٩.

(٣) ابن أسيد الباهلي [ت: ١٠٠هـ]، من أهل حمص، ومن أمراء الجند، كان فارس أهل الشام ورجلهم في أيامه. شهد صفين مع معاوية. الأعلام، ج١، ص٢٨٢.

(٤) من كبار القادة الأمويين. وفي تجارب الأمم، ج٢، ص١٢١: (حملة)، ولعله تصحيف.

هذا العدو قاتلناهم جميعًا.

فقال سليمان: قد طلب أهل مصرنا ذلك منا فأبينا عليهم.

قال زفر: فبادروهم إلى عين الوردة وهي رأس عين فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، فاطووا المنازل، فوالله ما رأيت جماعة قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء تراموا نهم وتطاعنونهم فإنهم أكثر منكم، ولا آمن أن يُحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم، ولا تصفوا لهم، فإني لا أرى معكم رجّالة ومعهم الرجالة والفرسان بعضهم يحمي بعضًا، ولكن الْقَوْهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها فيما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كل كتيبة أخرى إلى جانبها، فإن حمل على إحدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنفّست عنها، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى شاءت كتيبة انحطت، ولو كنتم صفًّا واحدًا فزحفت إليكم الرجالة فدفعتم عن الصف انتقض فكانت الهزيمة، ثم ودَّعهم ودعا لهم ودعوا له وأثنوا عليه.

ثم ساروا مجدّين فانتهوا إلى عين الوردة فنزلوا غربيّها وأقاموا خمسًا فاستراحوا وأراحوا.

وأقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة، فقام سليمان في أصحابه وذكر الآخرة ورغّب فيها ثم قال: «أما بعد فقد أتاكم عدوكم الذي دأبتم إليه في السير آناء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يُولِّيَنَّهم امرؤ دُبره إلّا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة، ولا تقتلوا مدبرًا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيرًا من أهل دعوتكم إلَّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، فإن هذه كانت سيرة علي في أهل هذه الدعوة».

ثم قال: «إن أنا قتلتُ فأمير الناس مسيب بن نجبة، فإن قُتل فالأمير عبدالله بن سعد بن نُفيل، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن وال، فإن قُتل فالأمير رفاعة بن شداد. رحم الله امرأً صدق ما عاهد الله عليه».

ثم بعث المسيب في أربعمائة فارس ثم قال: سر حتى تلقى أول عساكرهم فشنّ عليهم الغارة، فإن رأيت ما تحبه وإلّا رجعت، وإياك أن تترك واحدًا من أصحابك أو يستقبل آخر ذلك، حتى لا تجد منه بدًّا، فسار يومه وليلته ثم نزل السحر، فلما أصبحوا أرسل أصحابه في الجهات ليأتوه بِمَنْ يلقون، فأتوه بأعرابي، فسأله عن أدنى العساكر منه، فقال: أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكر شرحبيل بن ذي الكلاع، وهو منك على رأس ميل، وقد اختلف هو والحصين، ادَّعى الحصين أنه على الجماعة وأبى شرحبيل ذلك، وهما ينتظران أمر ابن زياد.

فسار المسيب ومن معه مسرعين فأشرفوا عليهم وهم غارّون، فحملوا في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر وأصاب المسيب منهم رجالاً، فأكثروا فيهم الجراح وأخذوا الدواب، وخلّى الشاميون عسكرهم وانهزموا، فغنم منه أصحاب المسيب ما أرادوا ثم انصرفوا إلى سليمان موفورين.

ولما بلغ الخبر ابن زياد، بعث الحصين بن النمير في اثني عشر ألفًا وتبعه ابن ذي كلاع في ثمانية آلاف، ثم تبعه أدهم الباهلي في عشرة آلاف فاقتتلوا يوم الجمعة قتالاً شديدًا إلى ارتفاع الضحى، ثم إن أهل الشام كثروهم وتعطفوا عليهم من كل جانب، ورأى سليمان ما لقي أصحابه، فنزل ونادى: عباد الله، من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإليَّ، ثم كسر جفنة سيفه ونزل معه ناس كثير وكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه، فقاتلوهم، فقتل من أهل الشام مقتلة عظيمة وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح، فلما رأى الحصين صبرهم وبأسهم بعث الرجالة ترميهم بالنبل واكتنفتهم الخيل والرجال، فقتل سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ثم وثب ثم وقع.

ولما استشهد سليمان تعاقب أصحابه على حمل الراية، كلّما استشهد حاملها حملها الآخر، إلى أن حملها رفاعة بن شداد البجلي، فقال: «ارجعوا بنا لعلَّ الله يجمعنا ليوم شرهم». فقال له عبد الله بن عوف بن الأحمر: «هلكنا والله، لئن انصرفت ليركبنَّ أكتافنا فلا نبلغ فرسخًا حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجا منا ناجٍ أخذته العرب يتقرّبون به إليهم فقُتل صبرًا، هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلُهم على

خيلنا، فإذا غسق الليل ركبنا خيولنا أول الليل وسرنا حتى نصبح ونسير على مهل، ويحمل الرجل صاحبه وجريحه ونعرف الوجه الذي نأخذه، فقال رفاعة: نِعْمَ ما رأيت! وأخذ الراية وقاتلهم قتالاً شديدًا، ورام أهل الشام إهلاكهم قبل الليل فلم يصلوا إلى ذلك لشدة قتالهم، فلما أمسوا رجع من بقي منهم إلى الكوفة..»(١).

أسباب فشل ثورة التوابين سياسيًّا

والسؤال هنا: لماذا فشلت ثورة التوابين في تحقيق أهدافها السياسية التي تمثَّلت في القضاء على قتلة الإمام الحسين عليه السلام؟.

قبل كل شيء يجب أن نعرف نوعية هذه الثورة، فقد ذكرنا فيما سبق أن هناك في التاريخ الرسالي نوعين من الثورات:

١ - ثورة العسكريين والسياسيين مثل ثورة المختار الثقفي.
٢ - حركات الفقهاء والزُّهَّاد والقُرَّاء، وفي طليعة هذا النوع حركة سليمان بن صرد الخزاعي، ثم حركة زيد بن علي.

وفائدة هذه الحركات كحركة القادة الدينيين من العلماء والفقهاء والمراجع اليوم، هي بعث روح التضحية وروح الجهاد في الأمة. بالطبع لم يكن أكثر المسلمين يتصورون آنئذٍ أن سليمان بن صرد يستطيع بمجموعته وبتركيبة أفراده أن ينجح في حركته ويستلم الحكم، خصوصاً أنه كان قد تجاوز الثامنة والثمانين من عمره، وقد كان هدف هؤلاء جميعاً يتلخَّص في كلمة هي أن يُبيّنوا للأمة الإسلامية وجماهيرها على طول الشارع الإسلامي، ابتداء من أرمينيا وانتهاء بأفريقيا، أن هناك أزمة خطيرة يجب الالتفات إليها.

لقد كانت حركة التوابين من أجل هزّ ضمائر المسلمين التي خيَّم عليها الجمود، ومن ثم تحريكهم للثورة على الحكومة الأموية الطاغوتية المفسدة.

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، من ص ٤. باختصار.

فحركتهم كانت لها أهداف إعلامية ودينية قبل أن تكون لها أهداف سياسية، وقد حققوا هذا الهدف. ومع ذلك لا بأس أن نحاول اكتشاف السبب في فشل ثورة سليمان بن صرد من الناحية السياسية.

أما أسباب عدم انتصار التوابين فهي:

أولاً: اعتماد سليمان بن صرد على الكوفة التي كانت تتكوّن من مجموعة قبائل محاربة انتقلت من موطنها الجزيرة العربية، وكان لكل قبيلة حي صغير مسوّر.

إن الجندي المحترف للقتال، قلّما يكون واعياً من الناحية السياسية، لذا فإنه يكون دائماً تابعاً لميول زعيم قبيلته التي كانت تتبدَّل تبعاً للمصالح والعطايا.

فالجنود لا يعرفون غير شهر السلاح والقتال، وهم بطبيعة وضعهم لا بد أن يتلوّنوا، لذلك نرى أن أهل الكوفة كانوا يختلفون بين وقت وآخر، فيوماً مع مسلم بن عقيل، وحين يأتي ابن زياد ويُطمعهم بالمال والعطاء، يتركون مسلماً ويلتفون حول ابن زياد، وغداً عندما يأتي المختار ويدفع أكثر فإنهم سيكونون معه وينصرونه، وعندما يذهب المختار ويأتي مصعب فإنهم سيكونون معه، ثم يذهب ويأتي عبد الملك بن مروان سيكونون معه، وعلى هذا المعدل.

يقول ابن اثير: «فأصبح من الغد (سليمان) وقد أتاه نحو ممّا في عسكره، ثمّ نظر في ديوانه فوجدهم ستّة عشر ألفا ممّن بايعه، فقال: سبحان الله! ما وافانا من ستّة عشر ألفاً إلّا أربعة آلاف»⁽¹⁾.

والسبب في ذلك أنهم جيوش محترفة، تقف مع الواقف. وحتى في التاريخ الحديث، عندما يحدث انقلاب عسكري في العراق⁽²⁾ مثلًا، نرى أن الجيش الذي كان يحارب من أجل نوري السعيد تحوَّل بعد الانقلاب ليحارب من أجل عبدالكريم قاسم، والذي حارب دفاعاً عن عبد الكريم قاسم نراه يدافع عن أحمد

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣.

(٢) العراق كانت تحدث فيه انقلابات عسكرية بصفة مستمرة.

حسن البكر، ثم عن عبد السلام وعبد الرحمن، ثم مرة أخرى عن أحمد حسن البكر، وأخيراً يدافع عن الطاغية صدام حسين، وعلى هذا المعدل.

والسبب في ذلك أن هذا الجيش عليه اتِّباع قيادته واتِّباع الوضع العام في الدولة، فالذي هو أقوى في الدولة هو الذي يستطيع أن يأخذ بزمام هذا الجيش.

فالسبب الأول للتحولات في الكوفة هي أنها كانت (حامية الجند) والجيش الإسلامي حينها لم تكن قد ترسَّخت في ذهنه الأفكار السياسية الإسلامية، لذلك كان يتَّبع من يرى أنه يسيطر على الوضع.

ومن جهة أخرى كان للجيش الإسلامي اهتمام آخر هو فتح البلاد الخارجية وليس تصحيح الأمور في الداخل، لذلك لا يهمه من يحكم، وإنما المهم عنده أن يُعطيه الحاكم المجال لفتح البلدان البعيدة.

لقد كانت الحاميات العسكرية في الكوفة تسرع لتصل إلى حدود خراسان، وما وراء النهر تحارب وتغتنم وتأتي بالغنائم.

وهذا السبب هو الذي دعا الإمام زين العابدين ألَّا يستجيب لكلام الكوفيين عندما خطب فيهم بعد استشهاد والده ووبَّخهم على ما عملوه مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام قالوا: «نَحْنُ كُلُّنَا -يَا ابْنَ رَسُولِ الله- سَامِعُونَ مُطِيعُونَ، حَافِظُونَ لِذِمَامِكَ غَيْرَ زَاهِدِينَ فِيكَ وَلَا رَاغِبِينَ عَنْكَ، فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ يَرْحَمُكَ الله، فَإِنَّا حَرْبٌ لِحَرْبِكَ، وَسِلْمٌ لِسِلْمِكَ، لَنَأْخُذَنَّ يَزِيدَ وَنَبْرَأُ مِمَّنْ ظَلَمَكَ وَ ظَلَمَنَا.

فَقَالَ عليه السلام: «هَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ، أَيُّهَا الْغَدَرَةُ الْمَكَرَةُ، حِيلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ كَمَا أَتَيْتُمْ إِلَى آبَائِي مِنْ قَبْلُ؟!. كَلَّا وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ(١)، فَإِنَّ الْجُرْحَ لَمَّا يَنْدَمِلْ...»(٢).

---

(١) الجمال التي ترقص في مشيها، وهي التي تقصد الحجّ. ومنها قول الشريف المرتضي:

حلفتُ بربّ الرّاقصاتِ عشيّةً   إلى عَرفاتٍ وهْيَ حَسْري ورُزَّحُ

(٢) بحار الأنوار، ج٤٥، ص١١٢.

بالطبع فإن أهل الكوفة لم يثبتوا على هذا الكلام وإنما أصبحوا مع الحجاج بن يوسف الثقفي ضد أهل البيت وأنصارهم.

ولخصوصية وضع الكوفة كان على سليمان بسط سيطرته عليها بالكامل، ولو فعل لارتفعت فرص نجاحه بشكل أكبر، لكنه فكَّر في رأس عبيد الله بن زياد، وجعله الهدف الأمامي لثورته. في حين أن الرأس ليس أساس المشكلة، فعبيدالله بن زياد يمكن قتله معنويًّا أو جسديًّا، فالأهم هو ضرب القاعدة التي ارتكز عليها عبيدالله بن زياد والقيام بتطهير الكوفة من عمر بن سعد، وشَبَث بن ربعيّ(١)، وحرملة بن كاهل الأسدي(٢)، وغيرهم من القيادات العسكرية التي حاربت وقتلت الإمام الحسين عليه السلام ولا يوجد في الشام من تلك القيادات التي حاربت الحسين عليه السلام إلَّا الحصين بن نمير السكوني حسب ما يذكر المؤرخون(٣).

ثانياً: عدم الاهتمام الجدي بالمضامين الاجتماعية للثورة، فلم يكترث سليمان رضي الله عنه للعمل من أجل المضامين الاجتماعية للدين، فقد قام سليمان بعملية استشهادية: «إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله»(٤).

---

(١) التميمي اليربوعي، أبو عبد القدوس، أدرك عصر النبوة، كان مؤذن سجاح الذي ادَّعى النبوة، وممن أعان على عثمان. ولي شرطة الكوفة، كان ممن كاتب الإمام الحسين عليه السلام، ثم خرج لقتاله مع جيش ابن سعد، وهو من أصحاب المساجد الأربعة التي جدّدت في الكوفة فرحًا بقتل الإمام الحسين، قتله المختار الثقفي، في الطلب لثأر الإمام الحسين. الأعلام، ج٣، ص١٥٤. مع الركب الحسيني، ج٤، الإمام الحسين في كربلاء، ص٩٢.

(٢) قاتل رضيع الإمام الحسين عليه السلام المسمّى بـ(عبد الله الرضيع)، وهو على يديه. يروي المنهال أنّه لما أراد الخروج من مكّة بعد واقعة الطف بسنوات، التقى بالإمام السجاد عليه السلام. وسأله الإمام السجاد عليه السلام عن حرملة؟. فقال: هو حي بالكوفة، فرفع الإمام عليه السلام يديه وقال: «**اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ الحَدِيدِ، اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ الحَدِيدِ، اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ النَّارِ**». ولما قدم المنهال إلى الكوفة قصد المختار، وبينما هو عنده اذ جاؤوه بحرملة، فأمر بقطع يديه ورجليه ثمّ رميه في النار. فأخبره المنهال بدعاء الإمام زين العابدين عليه السلام على حرملة، فابتهج المختار كثيراً لأن إجابة دعوة الإمام السجّاد تحقّقت على يده. بحار الأنوار، ج٤٥، ص٤٦ وص٣٣٢.

(٣) تذكرة الخواص، ص٢٨٤.

(٤) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣.

دون التركيز على الأسباب التي بسببها قُتِل الإمام الحسين عليه السلام، المتمثلة في الانحراف المستشري في الأمة الإسلامية الذي أنعكس على الوضع الاجتماعي والخلقي والسياسي للأمة.

فكان من الأفضل لسليمان أن يثور من أجل تلك المبادئ والأهداف التي ثار من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، ولو فعل لاشترك معه موالي وعبيد الكوفة في الثورة، فهم الذين شملهم ظلم الأمويين أكثر من غيرهم.

فالإمام الحسين عليه السلام خرج من أجل الله ومن أجل تطبيق كتاب الله، ومعنى ذلك إقامة دساتيره وأنظمته، تلك الأنظمة التي تُحقق العدالة الاجتماعية والسلام والأمن والخلق الفاضل وغيرها من القيم السامية.

إن الناس في الكوفة لو كانوا يرون أن سليمان بن صرد يعمل من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة والأمن، والعمل على نشر هذه المضامين وبخاصة في أوساط الموالي، الذين يشكّلون الأكثرية المسحوقة والمحرومة والمستضعفة في الكوفة، لوجد فيهم الصلابة والشجاعة والكثافة. إن أبا مسلم الخراساني عندما عقد لواء للموالي، انضوى تحت هذا اللواء خلال أشهر مائة ألف سيف⁽¹⁾ من الموالي الإيرانيين والأفغانيين وغيرهم. وإن المأمون العباسي تغلّب على أخيه محمد الأمين⁽²⁾ عن طريق الموالي.

من هنا ينبغي تحويل شعارات الحركات الدينية إلى مضامين اجتماعية، فيجب

---

(١) الأخبار الطوال، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) ابن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور [١٧٠-١٩٨هـ]، خليفة عباسي. كان مكثراً من إنفاق الأموال، سيّئ التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة الندماء، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ١٩٣هـ) بعهد منه، فولى أخاه المأمون خراسان وأطرافها. وكان المأمون ولي العهد من بعده. فلما كانت سنة ١٩٥هـ، أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فنادى المأمون بخلع الأمين في خراسان، وتسمى بأمير المؤمنين. وجهز الأمين وزيره ابن ماهان لحربه، وجهز المأمون طاهر بن الحسين، فالتقى الجيشان، فقتل ابن ماهان وانهزم جيش الأمين، فتتبعه طاهر بن الحسين وحاصر بغداد حصارًا طويلًا انتهى بقتل الأمين. الأعلام، ج٧، ص١٢٧.

أن يعرف كل إنسان في الشارع أن خبزه وأمنه وبيته ورفاهه ومستقبل أولاده، كلها ترتبط بالدين، وأن الدين ليس مجموعة أفكار تدور في فراغ، إنما هو حقائق عملية تستطيع أن تُغيِّر حياة الإنسان.

هذان السببان هما اللذان كانا وراء فشل الرجل العظيم سليمان بن صرد، ويُمكن أخذ أسباب فرعية أخرى بعين الاعتبار كالعجلة في توقيت المواجهة العسكرية، وعدم اتّخاذ السرية في العمل بالصورة المطلوبة، وعدم وجود رؤية بعيدة الأفق، وغيرها من الأسباب. وقد لخَّصنا الأسباب الثلاثة في الفكرة الأولى، وهي أن هذه الحركات لم تكن تريد السيطرة على الحكم بقدر ما كانت تهدف بثّ الروح الدينية في الأمة، وهذا الهدف هو بذاته هدف عظيم، إلَّا أن الإنسان لا يمكن أن يتقاعس عن حقّه لمجرّد أنه يعمل في سبيل الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن سليمان كان بإمكانه أن يجمع بين الأمرين لو كان ممكناً، أما إذا كان مستحيلاً فعذره مقبول، ونحن في كلتا الحالتين نُقدّر له هذا العمل العظيم.

فلو أن سليمان كان ساكتاً لما وقعت ثورة المختار، ولو لم تقع ثورة المختار لما وقعت ثورة زيد بن علي، ومن بعده ابنه يحيى، وتبعه قيام أبي مسلم الخراساني، وبعد ذلك سقوط الدولة الأموية.

لقد قام سليمان ضد الظلم والانحراف، كما قام من قبل حجر بن عدي في زمن معاوية بن أبي سفيان حينما رأى المغيرة بن شعبة، وهو على منبر الكوفة(١)، يتكلَّم بأقبح ما ينطق به ضد الإسلام، ولا يدع ذم الإمام علي عليه السلام، والوقوع فيه، فقام إليه حجر وقال: «ان الله عز وجل يقول: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾(٢)، وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وأن من تزكون وتطرون أولى بالذم.

---

(١) أقام المغيره بن شعبة على الكوفه عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٥.

فيقول المغيرة: يا حجر، لقد رُمي بسهمك، إذ كنت أنا الوالي عليك. يا حجر ويحك! اتَّقِ السلطان، اتَّقِ غضبه وسطوته، فإن غضبه -السلطان- أحيانًا مما يُهلك أمثالك كثيرًا»(١).

فلما هلك المغيرة ولي زياد بن أبيه الكوفه...

كان حجر وطائفة من أصحابه يجتمعون في المسجد بعد شخوص زياد، ويجتمع الناس إليهم، فيذمّون معاوية ويشتمونه، ويذكرون زيادًا فيتنقّصونه، حتّى تعلو أصواتهم بذلك.. فكتب عمرو بن حريث إلى زياد مع سنان بن حريث الضبّي بخبر حجر وأصحابه، وأنّه لا يملك من الكوفة معهم إلّا دار الإمارة، فلمّا قرأ زياد كتاب عمرو قال: بئس الرجل حجر، ونعم الرجل عمرو، اركبوا بنا، فركب مغذًّا للسير.

فلـمّا أتى الكوفة صعد المنبر فقال: يا أهل الكوفة، جممتم فأشرتم، وأمنتم فاجترأتم، وإنّ عواقب البغي شرّ العواقب، والله يا أهل الكوفة لئن لم تستقيموا لأداوينّكم بدوائكم، فإنّه عندي عتيد، ثمّ بعث الهيثم بن شدّاد الهلالي صاحب شرطته إلى حجر بن عديّ ليأتيه به، فأبى أصحاب حجر أن يُخلّوا بينه وبين إتيان زياد...(٢).

بالطبع كان حجر يعرف أن زياداً رجل سفَّاك لا يتورّع عن قتله. وبالفعل قُتل حجر ولم يتراجع خطوة في الدفاع عن الإمام علي عليه السلام ، فهل ذهب دمه سدى؟.

كلَّا، فدماء حجر هي التي جرت وتجري في عروق الرساليين، في عروقي وعروقك إلى الآن، وهي تنبض بالحيوية والنشاط والدفاع والثورة من أجل رسالة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٢٥٤. تاريخ بن خلدون، ج٣، ص١٣. المنتظم، ج٥، ص٢٤١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٢٥٦. أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٤٦. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٧٤.

صَفوُالكَلامِ

* في عام (٦٥) للهجرة قرر سليمان بن صرد الخزاعي مع جماعة من الشيعة المخلصين التحرك ضد من قاتلوا الإمام الحسين (وبالأخص عبيد الله بن زياد) تحت شعار (يا لثارات الحسين) وذلك تعبيراً عن حالة الندم التي خيَّمت على الكوفة بعد واقعة كربلاء، ولذلك أطلقت عليهم تسمية (التوابين).

* ولكن ثورة التوابين التي تُصنَّف ضمن حركات الفقهاء والزهّاد والقرّاء فشلت -بعد مواجهات دموية مع جيوش الشام- في تحقيق هدفها السياسي الذي تمثَّل في القضاء على قتلة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

* وأهم أسباب هذا الفشل هو اعتماد سليمان على الكوفة المتقلّبة الولاءات والأهواء، وتركيزه على رأس عبيد الله بن زياد وترك القيادات الأخرى، وعدم الاهتمام الجدي للمضامين الاجتماعية للدين التي كان الاهتمام بها يستقطب المحرومين والمسحوقين تحت وطأة الحكم الأموي. وكانت هناك بعض الأسباب الفرعية كالعجلة في توقيت المواجهة، وعدم اتخاذ السرّيّة في العمل، وعدم وجود رؤية بعيدة الأفق.

* ولكن فشل التوابين في تحقيق الهدف السياسي لا يعني عدم ترك أي أثر إيجابي في حركة الأمة. لقد كانت حركة التوابين من أجل هز ضمائر المسلمين التي خيّم عليها الجمود، ومن ثم بعث روح التضحية والجهاد في المسلمين للثورة على الحكومة الأموية الطاغوتية المفسدة.

٩ ثورة المختار بين الانتصار والهزيمة

التاريخ الإسلامي حافل بالكثير من الثورات والحركات الرسالية وغيرها التي انتهت لأسباب بسيطة، من أبرزها طيبة النفس إلى درجة السذاجة، ويرجع ذلك إلى التصوُّر الخاطئ بأن سلاح العدل والإحسان هو السلاح القادر على تذليل جميع الصعوبات في الطريق، وغاب عنها أن هناك صعوبات لا تذلل إلّا عن طريق استخدام القوة والحزم.

وكانت ثورة المختار من ضمن تلك الثورات التي ذهبت ضحية النفس الساذجة، بيد أن هناك أسباباً أخرى هامَّة كانت وراء فشل المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وقبل أن نستعرض بعض هذه الأسباب لا بد أن نتذكَّر دوماً أنّ دراستنا للتاريخ هي من أجل الحاضر، ولذلك فالسؤال بكلمة (لماذا؟) يجب أن يتكرَّر كلما وقفنا عند ظاهرة تاريخية، لأن التعليل هو الذي يهمنا، ومعرفة الأسباب هي التي تُعطينا القدرة على عدم تكرار تلك الأسباب.

فلماذا فشلت ثورة المختار أخيرًا بعد حكم دام ثمانية عشر شهرًا(١)؟. وبعد أن امتدَّ نفوذ المختار إلى حدود أرمينية؟(٢).

---

(١) قام المختار بنهضته في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وستين، وانتهت بشهادته في آخر شهر رمضان سنة سبع وستين كما جاء في الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢١٢ وص٢٧٨.

(٢) الفتوح، ج٦، ص٢٤١.

الخلافات الداخلية بين الرساليين

لا ريب في أن الخلافات الداخلية قديماً وحديثاً هي السبب الأساس لسقوط أي بناء حكومي أو حركي، وبالتالي لم تكن حركة المختار بمعزل عن هذا السبب الذي أدَّى إلى سقوط دولته؛ لأن الهدف الذي انتظم من أجله الرساليّون خلف المختار هو إسقاط الدولة الأموية والأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام بعد الإمداد العاطفي الذي شكَّلته كربلاء في نفوس الجماهير الإسلامية، فالموالي والعرب المتديِّنون منهم والمتحمسون اشتركوا جميعاً في الانتصار لخط الإمام الحسين عليه السلام والثأر له، ولكن كان انتماؤهم لهذا الشعار بنسب متفاوتة، بمعنى أن هذا المفهوم كان مفهوماً غامضاً بالنسبة إلى أكثرية الناس، أي إنهم كانوا من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ، وكانوا يعتقدون أنّ مقتله سببٌ كافٍ للتمرُّد على حكم بني أمية. في حين أن هناك مفاهيم عديدة كانت تحتاج إلى توضيح، من جملتها:

من هو الحسين عليه السلام ؟. هل هو مجرَّد ابن بنت رسول الله؟. أم هو مجرَّد شهيد في سبيل الحق؟. أم هو إمام معصوم واجب الطاعة؟.

وبعضها يتعلَّق بمفهوم الثورة: هل هي من أجل الانتقام، أم هناك أهداف أخرى؟. وإذا ما ثُرنا على الحكم الأموي فمن الذي يتصدَّى للقيادة؟. وكيف تكون أساليب الحكم؟. وما هو شكل الحكم والنظام الإسلامي الجديد؟.

هذه القضايا كلها كانت غامضة عند الأغلبية الساحقة من المسلمين، وربما غموض هذه الحقائق هو الذي سبَّب في أن يأتي رجل مثل عبد الله بن الزبير الذي صدّقه بعض المسلمين واتَّبعوه وأخاه مصعب، وهما اللذان كانا من أشنأ الناس عداوة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ليحكما رقاب المسلمين باسم الإمام الحسين عليه السلام(١)،

---

(١) روى الطبري قائلًا: «لما قتل الحسين عليه السلام قام ابن الزبير في أهل مكة وعظَّم مقتله، وعاب على أهل الكوفة خاصَّة، ولام أهل العراق عامَّة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم: إن أهل العراق غدر فجر إلّا قليلاً، وأن أهل الكوفه شرار أهل العراق، وأنهم دعوا حسينًا لينصروه،

ويسرقا ثورته المقدسة. بل إنه -عبدالله بن الزبير- وصل إلى الحكم عبر مبادئ الإمام الحسين عليه السلام، وهو الذي قضى على حكم المختار.

كان جملة من أدركه الإحصاء ممَّن قتله مصعب (ابن الزبير) مع المختار سبعة آلاف رجل، كل هؤلاء كانوا ممن طالبوا بدم الحسين عليه السلام وقتلوا أعداءَه، فقتلهم مصعب وسمّاهم الخشبية(١)، وتتبَّع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها، وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه، ففعلن إلَّا حرمتين له، إحداهما: بنت سَمُرَةَ بن جندب الفزاري، والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري(٢).

وقالتا: كيف نتبرَّأ من رجل يقول: ربي الله؟. كان صائمَ نهارِهِ قائمَ ليلِهِ، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قَتَلَةِ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأهله وشيعته، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس.

فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله بخبرهما وما قالتاه، فكتب إليه: إن هما رجعتا عمَّا هما عليه وتبرَّأتا منه وإلَّا فاقتلهما، فعرضهما مصعب على السيف، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرَّأت منه، وقالت: لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرت: أشهد أن المختار كافر.

وأبت ابنة النعمان بن بشير، وقالت: شهادة أرزقها فأتركها؟. كلَّا!، إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، والله لايكون، آتي مع ابن

ويُولّوه عليهم، فلما قدم عليهم ثاروا إليه. فقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلمًا، فيُمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان الله عز وجل لم يُطلع على الغيب أحدًا أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياه الذميمة، فرحم الله حسيناً، وأخزى قاتل حسين!. لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناهٍ عنهم، ولكنه ما حمّ نازل، وإذا أراد الله أمرًا لن يُدفع، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدّق قولهم ونقبل لهم عهدا!». تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٤٧٥.

(١) كان أصحاب المختار يسمّون الخشبيّة، «لأنّ أكثرهم كانوا يقاتلون بالخشب، ويقال: إنهّم سمّوا الخشبيّة لأنّ الذين وجّههم المختار إلى مكة لنصرة ابن الحنفيّة أخذوا بأيديهم الخشب الذي كان ابن الزبير جمعه ليحرق به ابن الحنفيّة وأصحابه فيما زعم، ويقال: بل كرهوا دخول الحرم بسيوف مشهورة فدخلوه ومعهم الخشب ولم يسلّوا سيوفهم من أغمادها». أنساب الأشراف، ج٦، ص٣٩٧.

(٢) بنت سمرة تدعى بأم ثابت، وابنة النعمان اسمها عمرة.

هند فأتَّبعه وأترك ابن أبي طالب؟. اللهم أشهد أني متبعة لنبيك صلى الله عليه وآله، وابن بنته عليه السلام، وأهل بيته عليهم السلام، وشيعته، ثم قدَّمها فقتلت صبرًا، ففي ذلك يقول الشاعر:

إن من أعجب الأعاجيب عندي   قَتْلَ بيضاء حرة عُطْبُولِ
قتلوها ظلماً على غير جرم   إن للَّه درّها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جَرُّ الذيول»(١)

إن غموض الرؤية عند أبناء الأمة الذين نقموا على سلطة بني أمية الجائرة بعد قتلها الإمام الحسين عليه السلام، وعدم معرفتهم تحت أي راية يجب أن ينضووا، هو الذي مكّن ابن الزبير من أن يوسِّع سيطرته على مناطق كثيرة بما فيها الكوفة، حيث قضى على ثورة المختار الفتيَّة، تلك التجربة الرسالية التي كان يُراد لها أن تُعيد المبادئ التي استشهد الإمام الحسين عليه السلام من أجلها، وعلى رأس تلك المبادئ إرجاع الخلافة إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن حوّلها بنو أمية إلى ملك عضوض.

غموض الرؤية هذا لم يكن فقط عند عامة الناس، وإنما عند الكثير من الهاشميين أيضاً. لقد نازع محمد بن الحنفية الإمام السجاد عليه السلام في الإمامة(٢)، كما نازعه بعض أولاد الإمام الحسن عليه السلام(٣)، وكان نزاعهم على أمور الدنيا كما هو الحال مع عمر(٤) بن

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٩٩.

(٢) كان النزاع حول الإمامة، انظر: الكافي، ج١، ص٣٤٨. الاحتجاج، ج٢، ص٣١٦. بحار الأنوار، ج٤٢، ص٧٧. ونقل أيضاً أن النزاع كان حول تولي صدقات النبي وآله عليهم السلام، روى في المناقب، ج٤، ص١٨٦، عن الزهري قال: «كان بينه وبين محمد بن الحنفية منازعة في صدقات علي بن أبي طالب عليه السلام...».

(٣) قال في عمدة الطالب، ص١١٦-١١٧: «كان الحسن بن الحسن (المثنى) يتولى صدقات أمير المؤمنين عليه السلام ونازعه فيها زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، ثم سلّمها له». وما هو واضح فيه أن السلطة (زمن الحجاج) وقفت إلى جنب الحسن المثنى في نزاعه مع الإمام زين العابدين وعمر بن علي حول الصدقات. فانظر جيداً.

(٤) عمر الأطرف، أمه الصهباء، ويقال لها أم حبيب التغلبية، عاش خمساً وثمانين سنة، حاز نصف ميراث أبيه الإمام علي عليه السلام، وكان فاضلاً.. انظر: مستدركات علم رجال الحديث، ج٦، ص١٠١-١٠٢.

الإمام علي بن أبي طالب(١)، ومع أنهم جميعاً كانوا يعتقدون أن الإمام السجاد هو أورعهم وأفقههم وأقدرهم على حمل لواء المواجهة ضد الأمويين باعتباره البقية الباقية من مجزرة كربلاء، وأنه ابن الإمام الشهيد، إلَّا أنهم لم يُوافقوه على طريقته في علاج الانحراف في الأمة، حيث رأى الإمام السجاد عليه السلام أن سيطرة بني أمية على السلطة إنما جاء نتيجة ضعف الروح الدينية عند المسلمين، وسيطرة روح المصلحة عليهم، فسعى من خلال سيرته وأدعيته وتربيته للرساليين إلى تركيز المبادئ الإسلامية في النفوس، وهذا كان يتطلَّب وقتاً طويلاً بينما كان البعض يريد أن يتم التغيير بشكل سريع دون إعارة أيَّة أهمية لهذا العامل المهم في نجاح أي ثورة وضمان عدم انحرافها.

العلاقة بين الأئمة والثورات

تحدثنا فيما سبق عن الخلافات الداخلية التي عصفت بالأمة نتيجةً لقلة الوعي في المجتمع الإسلامي، تلك الخلافات التي كانت سبباً مباشراً لفشل ثورة المختار، ولكي تكتمل الصورة لا بد أن نتناول جانباً آخر قد يكون فيه نوعٌ من الغموض، وهي العلاقة التي تربط بين الثوار والأئمة من أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم القيادات الشرعية والامتداد الطبيعي لنهج الرسول صلى الله عليه وآله. فالسؤال الذي يجب الإجابة عنه هو: نوعية العلاقة بين الإمام زين العابدين عليه السلام والمختار؟، وهو بدوره يجرنا إلى سؤال أوسع يتناول العلاقة التي تربط الشهيد زيد بالإمام الباقر عليه السلام، ويحيى بن زيد والإمام الصادق عليه السلام، ومحمد ذي النفس الزكية

---

(١) روى في المناقب، ج٤، ص١٨٦، أن عمر بن علّي خاصم علّي بن الحسين إلى عبدالملك في صدقات النبي وأمير المؤمنين. وكما جاء في بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٢١: «لمَّا وُلِّيَ عَبْدُالمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْخِلَافَةَ رَدَّ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام صَدَقَاتِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، وَصَدَقَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَكَانَتَا مَضْمُومَتَيْنِ، فَخَرَجَ عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ مِنِ ابْنِ أَخِيهِ، فَقَالَ عَبْدُ المَلِكِ أَقُولُ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ:

إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى   وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ
وَاصْطَرَعَ النَّاسُ بِأَلْبَابِهِمْ   نَقْضِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فَاصِلِ
لَا نَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقّاً وَلَا   نَلُطُّ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا   فَنَخْمُلَ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ

وأخيه إبراهيم بالإمام الصادق عليه السلام؟.

كل هذه الأسئلة تكتسب أهميتها لمعرفة مسار الأئمة بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فإن الأئمة عليهم السلام من بعده، بما فيهم الإمام السجاد عليه السلام، عاشوا حقبة طويلة عانت الأمة الإسلامية خلالها من الاضطرابات، والثورات، والفوضى، وعدم الاستقرار، وتبدُّل الحكومات، وبرغم ذلك لم يحرّك الأئمة ساكناً في ظاهر الساحة السياسية.

فالإمام زين العابدين عليه السلام عاش (٣٢) سنة بعد أبيه مشغولاً بالعبادة والزهادة والدعاء والبكاء على أبيه عليه السلام، كذلك الإمام الباقر عليه السلام الذي عاش فترة إمامته مشغولاً بالتبليغ والدعوة، وكذلك الإمام الصادق عليه السلام. أما الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقد عاش فترة إمامته في السجن⁽¹⁾.

فلماذا لم يقم الأئمة بالسيف بعد الإمام الحسين عليه السلام؟.

هذا السؤال يُلحُّ على الفكر الرسالي وبصورة مستمرة، فقد حاول البعض الإجابة بالقول: إن الأئمة لم يقوموا بالسيف انتظاراً للإمام الحجة عليه السلام، وكذلك يجب ألَّا يقوم أحد بالسيف (القوة) إلى حين ظهور الإمام الحجة عليه السلام.

---

(١) أُلقي القبض على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام [١٢٨-١٨٣هـ]، وهو قائم يُصلي في مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله، من قبل جلاوزة هارون الرشيد، ولم يُمهلوه لإتمام صلاته، فحمل -من ذلك المكان الشريف، وقُيِّد وهو يوجه عليه السلام شكواه إلى جده صلى الله عليه وآله قائلاً: «**إِلَيْكَ أَشْكُو يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَلْقَى**»- إلى هارون الرشيد، وهو يرسف في ذلّ القيود، فلما مثل عنده جفاه وأغلظ له في القول، بعدها حمل الإمام إلى معتقل في البصرة، ودُفع إلى عيسى بن أبي جعفر، فحبسه في بيت من بيوت المحبس، وأقفل عليه أبواب السجن، فكان لا يفتحها إلَّا في حالتين: في خروجه إلى الطهور. وفي وقت إدخال الطعام إليه. وبقى الإمام عليه السلام، في سجن عيسى بن أبي جعفر سنة كاملة، وكان اعتقاله في سنة ١٧٩هـ. ثم أُشخص الإمام عليه السلام إلى بغداد بين عام ١٨٠ و١٨٢هـ، ونقل الإمام إلى سجن السندي بن شاهك، وأمر هارون أن يقيّد الإمام بثلاثين رطلاً من الحديد. ولا يدعه يخرج إلَّا للوضوء، فقضى الإمام الكاظم عليه السلام بقية حياته في سجن السندي، ولكن الإمام وحتى وهو في السحن لم ينفك عن أداء رسالته بإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وآله. وما خرج منه إلَّا بعد شهادته في العام ١٨٣هـ. فالسلام عليه يوم ولد، ويوم جاهد، ويوم سجن في ظلم المطامير، ويوم استشهد، ورحمة الله وبركاته. راجع كتاب (الإمام الكاظم.. قدوة وأسوة) للمؤلف.

ونحن نسأل هؤلاء: لماذا قام الإمام الحسين عليه السلام إذاً بالثورة؟. ألم يكن من الأفضل للإمام الحسين عليه السلام أن يختار العافية، والصحة، والسلامة، ويجلس في بيته في المدينة المنورة انتظاراً للإمام الحجة عليه السلام؟.

فهناك وحدة استراتيجية عامة عند الأئمة لا يفترض أن يكون بينهم تناقض في المواقف، فلا يمكن استثناء عصر الإمام الحسين عليه السلام من الفكرة القائلة: إن الإمام الحجة عليه السلام يظهر في آخر الزمان، وهو الذي يثأر للمؤمنين والأنبياء وأولاد الأنبياء عليهم السلام، ولا داعي للثورة قبل ذلك، فإمّا أن نُخطِّئ الأئمة الآخرين أو نُخطِّئ الإمام الحسين عليه السلام وكلا الأمرين خاطئان.

الجواب هنا دقيق ومهم، وربما تقوم على أساسه معرفتنا بالأئمة المعصومين عليهم السلام، ونحن نرى أكثر الرساليين يعيشون نوعاً من التناقض، حيث يقوم قسم منهم بتقديم وتقدير الإمام الحسين عليه السلام، للاعتقاد بأن موقفه كان صحيحاً، في الوقت الذي يشكّون من طرف خفي، في مواقف الأئمة الآخرين والعياذ بالله، وهم لا يجاهرون بالقول خوفاً من الردة ولكنهم يرتابون.

وقسم آخر على العكس من ذلك، فهم يعتقدون بأن موقف الأئمة عليهم السلام كان صحيحاً بينما يشككون في موقف الإمام الحسين عليه السلام وبعضهم يبرّر موقف الإمام بالقول: إنه لم يخرج للثورة وإنما قتلوه صبراً، كأي إنسان عابد قُتِل في محرابه لم يخطط للعمل والثورة ضد يزيد.

إن عدم معرفة الدور الأساس للأئمة المعصومين هو الذي يجعل البعض ينتقص من قدر الأئمة عليهم السلام. فعلى سبيل المثال يقول البعض: ماذا فعل الإمام الرضا عليه السلام للإسلام⁽¹⁾؟ ولماذا نقدّره؟. وهب أن الإمام الرضا نقدره لأسباب

---

(١) في زمن الانتفاضات العلوية التي زلزلت عروش الدولة العباسية، برز الإمام الرضا [١٥٣-٢٠٣هـ] كألمع شخصية سياسية عرفتها الأمة الإسلامية آنذاك، وطمعًا في تقييد دور الانتفاضات العلوية، وخوفًا على عرش بني العباس منها، عمد المأمون العباسي للفصل بين الإمام الرضا وإدارته للأمة، فرشّحه المأمون للخلافة، ثم لولاية العهد، لكن الإمام الرضا عليه السلام لم تنطلِ عليه

معينة ولكن لماذا نقدّر الإمام الجواد عليه السلام؟ وكيف كان إماماً لنا(١)؟.

وكذلك بالنسبة للإمام علي الهادي(٢)، والإمام الحسن العسكري عليه السلام(٣).

حِيَل المأمون، ففوَّت الفرصة الذهبية التي كان يطمح لها المأمون، فقبل الإمام الرضا بولاية العهد بشرط، فقال عليه السلام: «.. **عَلَى أَلَّا آمُرَ وَلَا أَنْهَى، وَلَا أَقْضِيَ، وَلَا أُغَيِّرَ شَيْئًا مِمَّا هُوَ قَائِمٌ، وَتُعْفِيَنِي عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ**»، فقبل المأمون العباسي بذلك... واغتنم الإمام الرضا عليه السلام هذا الظرف الذهبي فعمل على نشر تعاليم الإسلام الأصيلة وتثبيت دعائم مذهب أهل البيت عليهم السلام، متحديًا كل الخطوط الفكرية المنحرفة، كما ربَّى الإمام عددًا كبيرًا من العلماء الذين حملوا مشاعل العلم والمعرفة في زمن طغيان الحكم العباسي الذي عانت منه الأمة الإسلامية ما عانت... للإفادة طالع ما كتبه المؤلف حول سيرة الإمام الرضا عليه السلام، بعنوان: الإمام الرضا عليه السلام.. قدوة وأسوة.

(١) تقلد الإمام الجواد عليه السلام [١٩٥-٢٢٠هـ]، مقاليد الإمامة وهو في سن السابعة من عمره، وقد تجسَّدت في شخصيته وكسائر آبائه الطاهرين عليهم السلام المثل العُليا التي أهَّلته للإمامة والزعامة الدينية، فاحتفى به العلماء والمحدثون، وانتهلوا من علمه، ورووا عنه الكثير من مسائل الدين، والعقيدة والتفسير، قام برعاية الشيعة وتربيتهم علميًّا، وروحيًّا، وواجه الإمام الجواد عليه السلام محنة خلق القرآن، وهي من أعقد المشاكل السياسية في عصره المأزوم بموجات الفتن والاضطرابات، فقد أظهرها المأمون العباسي، ليمتحن بها العلماء والمتكلمين، فمن لا يقول بمقولته سجنه أو نفاه، أو قتله، فحمل الناس على ما ذهب إليه بالقوة، وبذلك أربك حضور الإمام عليه السلام العلمي والمعرفي طاغوت عصره المعتصم العباسي، فاقدم على سمِّه واستشهد وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف. وبالرغم من قصر سن إمامته إلَّا أننا نجد أن التراث العلمي الذي خلَّفه الإمام يبلغ معدل ضعف عمره الشريف.. للإفادة طالع ما كتبه المؤلف بعنوان: الإمام الجواد عليه السلام.. قدوة وأسوة.

(٢) تقلَّد الإمام الهادي عليه السلام [٢١٤-٢٥٤]، مقاليد الإمامة في سن الثامنة من عمره، تميَّز عصره عليه السلام، بقربه من عصر الغيبة المرتقب، ففرضت عليه حكومة الدولة العباسية عزلة أحكمت الرقابة عليها في عاصمتها (سامراء)، ومع ذلك فقد كان دور الإمام الهادي مهمًّا وصعبًا في الوقت ذاته، حيث كان لا بد أن يُجيب عن كل التساؤلات التي كانت تُتداول بين المسلمين، حول غيبة الإمام الثاني عشر، فعمل الإمام الهادي على تهيئة الظروف المناسبة، من نشره لثقافة الانتظار والغيبة بين صفوف شيعته، وتربيتهم تمهيدًا لاستقبال هذا العصر الجديد. فسعى من خلال جهاز الوكلاء لتقديم أهم ما تحتاج إليه الشيعة في ظروفها الصعبة. وهو بهذا يتَّجه بأتباعه نحو الاستقلال، الأمر الذي كان يتطلَّبه عصر الغيبة. إلى جانب ذلك رفد الواقع الإسلامي بالعطاء الفكري والمعرفي، كما يُمثِّل لنا مسند الإمام الهادي تراثه بالرغم من قساوة الظروف التي عاشها في زمن الدولة العباسية. للاطلاع على سيرته وعطائه راجع ما كتبه المؤلف: الإمام الهادي عليه السلام.. قدوة وأسوة.

(٣) تولى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام [٢٣١-٢٦٠هـ]، بعد شهادة أبيه الإمام الهادي عليه السلام، مهام الإمامة والتي استمرت لمدة ست سنوات، مارس خلالها الإمام العسكري وفي

وربما يتساءل البعض عن كل ذلك لأنهم لا يعرفون الحقيقة التي نريد أن نُوضِّحها والتي تبدو لنا من خلال دراسة التاريخ.

الأئمة عليهم السلام في رأس الهرم القيادي

أحدثت واقعة كربلاء تغييراً فكريًّا وسياسيًّا كبيراً على مستوى الأمة، فبعد أن كان الشعور بالمسؤولية والإحساس بخطر بني أمية على الإسلام محصوراً عند نخب محدودة، توسَّع ذلك الإحساس بسبب ما أحدثته كربلاء من تموجات ضخمة في الأمة، فأصبحت الثورة مطلباً جماهيرياً على امتداد الساحة الإسلامية، هذا التغيير فرض نمطاً جديداً من العمل الرسالي للتغيير، حيث كان الأئمة الهداة عليهم السلام يقومون بقيادة المجموعات المخلصة من الرساليين، وضمن هذا التصوُّر يتَّضح الدور الذي كان يُؤدِّيه الأئمة الأطهار عليهم السلام، حيث كانوا على رأس الهرم يقودون الصفوة من الفقهاء والزُّهَّاد والعُبَّاد والمتكلمين وأصحاب العلوم المختلفة، مضافاً إلى السياسيين والقيادات العسكرية وما أشبه، وبالتالي كانت كل خيوط العمل الثوري بأيديهم، ولم يكن هدف الأئمة المعصومين عليهم السلام الوصول إلى الحكم فقط، وإنما كان أكبر من

أحلك الظروف وأصعبها مسؤولياته الكبرى، لأن الدولة العباسية كانت أعرف من غيرها بأن المخلص والمنتظر الذي به خلاص الأمة من ظلمهم وكيدهم وبه زوال عرشهم، إنما هو من أهل هذا البيت عليهم السلام، فعملوا على تضييق الخناق وفرض الإقامة الجبرية على الإمام، الأمر الذي أدَّى إلى عزل الإمام عن واقع الأمة، وبرغم ذلك إلَّا أن الإمام عمل على تطوير نظام الوكلاء، الذي من خلاله يتَّصل الإمام والأمة، فكان يُجيب على مسائل الأمة، ومن خلال هذا النظام أوصل الإمام فكرة الغيبة وعمل على تهيئة الأمة لتلقِّيها، من هنا قاد الإمام ملحمة كبرى في العمل السياسي المعارض للدولة العباسية مواجهاً ظلمهم وإرهابهم وتلاعبهم بمقدرات الأمة، وهو بذلك يدافع عن خط أهل البيت عليهم السلام وشريعة جدة المصطفى صلى الله عليه وآله من خلال تربيته لكوكبة من أصحابه الرواة وطلاب مدرسته الرسالية. عاصر الإمام عليه السلام من بني العباس (المعتز، والمهدي، والمعتمد)، ولاقى منهم أشد أنواع التضييق والملاحقة والسجن مرات عدة. قضى الإمام شهيداً من سم المعتمد وعمره الشريف لم يتجاوز عقده الثالث. فسلام عليه يوم ولد ويوم دعا الأمة إلى الهدى والصلاح ويوم استشهد ويوم يبعث حيًّا. للوقوف على سيرته المباركة طالع: حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام.. دراسة وتحليل، للعلامة القرشي. و للمؤلف: الإمام الحسن العسكري عليه السلام.. قدوة وأسوة.

ذلك وهو بناء الأمة الإسلامية، وإعدادها للبقاء والتوسُّع والامتداد.

بالطبع كان من ضمن أهدافهم الوصول إلى الحكم، أو أن يكون الحكم في أيدٍ أمينة، كما كانوا يهدفون إلى خلق أمة إسلامية واعية ومتحرّكة وناهضة، لها أنظمتها الصحيحة المستوحاة من الرسالة الإسلامية، وأن يكون أبناؤها متوجِّهين إلى الله وفيهم الزهاد والعباد الصالحون حتى تنمو هذه الأمة وتتقدَّم على جميع الأمم الأخرى في العلم والصناعة. من هنا قاموا بتحريك الأمة الإسلامية باتِّجاه هذه الأهداف بشكل مشترك دون ترجيح العمل السياسي على العمل الاجتماعي والثقافي والأخلاقي وغيره، فالسياسة كانت من ضمن الأهداف ولم تكن السياسة قد استقطبت أهداف الأئمة جميعاً.

بذلك نكتشف أن الأئمة عليهم السلام كانوا يقودون العمل الرسالي التغييري ضد نظام بني أمية، وضد نظام بني العباس، ولكنهم لم يورِّطوا أنفسهم بشكل مباشر في الثورة السياسية دائماً، لماذا؟.

لأنهم كانوا يقودون ثورات من أنواع أخرى أيضاً، فكانوا يقودون الثورة الثقافية الفكرية، والثورة الاجتماعية، والثورة العلمية، إلَّا أنهم في الوقت ذاته كانوا يقودون الثورة السياسية، والآن ربما نستطيع استيضاح هذه الفكرة من عدة أمثلة.

المختار يدعو إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام

لقد عاصر الإمام زين العابدين عليه السلام ثورة المختار، ويرى مجموعة كبيرة من المؤرخين ومنهم أبو الفرج الأصفهاني(١)، والدكتور علي سامي النشار(٢)، وكثير غيرهم(٣)، أن المختار كان رجلًا رساليًّا ثوريًّا مخلصاً يدعو إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام

---

(١) مقاتل الطالبين، ص١٢٤.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج٢، ص٤٦.

(٣) منهم على سبيل المثال لا الحصر: العلامة المجلسي في (بحار الأنوار، ج٤٥). والعلامة المقرَّم في (تنزيه المختار). والعلامة القرشي في (المختار الثقفي.. دراسة وتحليل)، فراجع.

وهو الإمام زين العابدين عليه السلام. والواضح عندنا أن الإمام هو الذي أمر المختار ولو بطريق غير مباشر للقيام بثورته، بل ربما قال عليه السلام للمختار -ولأسباب معينة-: أدعُ إلى محمد بن الحنفية. وهناك رواية مفصَّلة تدل بوضوح على أن محمد بن الحنفية قام بقيادة حركة المختار نيابة عن الإمام زين العابدين عليه السلام. فقد روى جعفر بن نما[1] عن والده رحمه الله: أن محمد بن الحنفية جاءت إليه جماعة من كبار الشيعة من الكوفة من رؤساء القبائل، وكانوا قد جاؤوا إليه ليسألوه في أمر وشأن المختار الذي بدأ يدعو للثأر من الأمويين وإلى الرضا من آل محمد في الكوفة.

وقد قالوا: إن المختار يريد الخروج بنا للأخذ بالثأر وقد بايعناه، ولا نعلم أرسله إلينا محمد بن الحنفية أم لا؟. فجاؤوا إلى محمد بن الحنفية، فبدأ عبدالرحمن بن شريح بحمد الله والثناء عليه، وقال: أمّا بعد فإنكم أهل البيت خصّكم الله بالفضيلة وشرّفكم بالنبوة، وعظّم حقكم على هذه الأمة، وقد أُصِبتم بـ(الحسين عليه السلام) مصيبة عمّت المسلمين، وقد قَدِم المختار يزعم أنه جاء من قبلكم، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، فبايعناه على ذلك، فإن أمرتنا باتِّباعه اتَّبعناه، وإن نهيتنا اجتنبناه.

هنا يقول جعفر بن نما عن والده: إن محمد بن الحنفية قال لهم: «قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين عليه السلام»، فلما دخل ودخلوا عليه أخبر محمد خبرهم الذي جاؤوا لأجله، فقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «يا عم، لو أن عبداً زنجيًّا تعصَّب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد ولَّيتُك هذا الأمر، فاصنع ما شئتَ». فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون: أذن لنا زين العابدين عليه السلام ومحمد بن الحنفية.

---

[1] (١) الشيخ الجليل نجم الدين [٥٦٧-٦٤٥هـ]، أبو إبراهيم، جعفر بن نجيب الدين محمد بن جعفر بن نما، صاحب (مثير الأحزان). من آثاره: (ذوب النضار في أحوال المختار)، ألَّفه إجابة لسؤال جماعة من الأصحاب، وقد أورده بكامله العلامة المجلسي قدس سره في بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٤٦-٣٨٧. وللفائدة طالع: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج١٣، ص١٧٠. فهرس التراث، ج١، ص٦٣٧.

وكان المختار قد علم بخروجهم إلى محمد بن الحنفية، وكان يُريد النهوض بجماعة الشيعة قبل قدومهم، فلما تهيّأ ذلك له، وكان يقول: إن نفراً منكم تحيّروا وارتابوا، فإن هم أصابوا أقبلوا وأنابوا، وإن هم كبوا وهابوا واعترضوا وانجابوا فقد خسروا وخابوا. فدخل القادمون من عند محمد بن الحنفية فقال: ما وراءكم فقد فتنتم وارتبتم؟ فقالوا: قد أُمِرنا بنصرتك. فقال: يا معشر الشيعة، إنّ نفراً أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئتُ به، فخرجوا إلى إمام الهدى، والنجيب المرتضى، وابن المصطفى المجتبى -يعني الإمام زين العابدين عليه السلام- فعرّفهم أني ظهيره ورسوله، وأمركم باتِّباعي وطاعتي. وقال كلاماً يُرغّبهم إلى الطاعة والاستنفار معه وأن يُعلِم الحاضر الغائب»(١).

كما نجد في التاريخ أدلة كثيرة على ارتباط المختار بالإمام السجاد عليه السلام إلى درجة أنه كان يعرف تفاصيل حياة الإمام. في رواية أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يدعو في كل يوم أن يُريه الله قاتل أبيه مقتولًا: «فَلَمَّا قَتَلَ الْمُخْتَارُ قَتَلَةَ الْحُسَيْنِ عليه السلام، بَعَثَ بِرَأْسِ عُبَيْدِ الله بْنِ زِيَادٍ وَرَأْسِ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ مَعَ رَسُولٍ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: إِنَّهُ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، وَإِذَا أَصْبَحَ وَصَلَّى صَلَاةَ الْغَدَاةِ هَجَعَ. ثُمَّ يَقُومُ فَيَسْتَاكُ وَيُؤْتَى بِغَدَائِهِ. فَإِذَا أَتَيْتَ بَابَهُ فَاسْأَلْ عَنْهُ، فَإِذَا قِيلَ لَكَ: إِنَّ الْمَائِدَةَ وُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهِ، وَضَعِ الرَّأْسَيْنِ عَلَى مَائِدَتِهِ، وَقُلْ لَهُ: الْمُخْتَارُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، قَدْ بَلَّغَكَ اللهُ ثَارَكَ. فَفَعَلَ الرَّسُولُ ذَلِكَ.

فَلَمَّا رَأَى زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام الرَّأْسَيْنِ عَلَى مَائِدَتِهِ خَرَّ سَاجِداً، وَقَالَ عليه السلام: **الْحَمْدُ لله الَّذِي أَجَابَ دَعْوَتِي، وَبَلَّغَنِي ثَارِي مِنْ قَتَلَةِ أَبِي**. وَدَعَا لِلْمُخْتَارِ وَجَزَّاهُ خَيْرًا»(٢). وَفِي كِتَابِ الدَّلَائِلِ لِلْحِمْيَرِيِّ عَنِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَقَالَ لِي: **يَا مِنْهَالُ، مَا فَعَلَ حَرْمَلَةُ بْنُ كَاهِلٍ الْأَسَدِيُّ**.

---

(١) بحار الانوار، ج٤٥، ص٣٦٤-٣٦٥ بتصرف وإيجاز.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٥٢.

قُلْتُ: تَرَكْتُهُ حَيًّا بِالْكُوفَةِ. قَالَ: فَرَفَعَ يَدَيْهِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ الحَدِيدِ اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ النَّارِ**.

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ إِلَى الْكُوفَةِ. وَقَدْ خَرَجَ بِهَا الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَكَانَ لِي صَدِيقًا، فَرَكِبْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ دَعَا بِدَابَّتِهِ، فَرَكِبَ وَرَكِبْتُ مَعَهُ، حَتَّى أَتَى الْكُنَاسَةَ فَوَقَفَ وُقُوفَ مُنْتَظِرٍ لِشَيْءٍ، وَقَدْ كَانَ وَجَّهَ فِي طَلَبِ حَرْمَلَةَ بْنِ كَاهِلٍ فَأُحْضِرَ.

فَقَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي مَكَّنَنِي مِنْكَ. ثُمَّ دَعَا بِالْجَزَّارِ فَقَالَ: اقْطَعُوا يَدَيْهِ، فَقُطِعَتَا. ثُمَّ قَالَ: اقْطَعُوا رِجْلَيْهِ، فَقُطِعَتَا. ثُمَّ قَالَ: النَّارَ، النَّارَ. فَأُتِيَ بِطُنٍّ قَصَبٍ ثُمَّ جُعِلَ فِيهَا، ثُمَّ أُلْهِبَتْ فِيهِ النَّارُ حَتَّى احْتَرَقَ. فَقُلْتُ: سُبْحَانَ الله، سُبْحَانَ الله.

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ الْمُخْتَارُ فَقَالَ: مِمَّ سَبَّحْتَ؟!. فَقُلْتُ لَهُ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَسَأَلَنِي عَنْ حَرْمَلَةَ. فَأَخْبَرْتُ أَنِّي تَرَكْتُهُ بِالْكُوفَةِ حَيًّا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ الحَدِيدِ اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ النَّارِ**. فَقَالَ الْمُخْتَارُ: اللهَ، اللهَ. أَسَمِعْتَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام، يَقُولُ هَذَا!. فَقُلْتُ: اللهَ، اللهَ. لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ هَذَا!. فَنَزَلَ الْمُخْتَارُ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ أَطَالَ، ثُمَّ سَجَدَ، وَأَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَذَهَبَ، وَمَضَيْتُ مَعَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ دَارِي.

فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُكْرِمَنِي بِأَنْ تَنْزِلَ وَتَتَغَدَّى عِنْدِي. فَقَالَ: يَا مِنْهَالُ، تُخْبِرُنِي أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ دَعَا اللهَ بِثَلَاثِ دَعَوَاتٍ فَأَجَابَهُ اللهُ فِيهَا عَلَى يَدِي. ثُمَّ تَسْأَلُنِي الْأَكْلَ عِنْدَكَ هَذَا يَوْمُ صَوْمٍ شُكْرًا لله عَلَى مَا وَفَّقَنِي لَه»(١).

ومما يدل على سلامة حركة المختار هو أن الإمام الباقر عليه السلام كان يقول: «**لَا تَسُبُّوا الْمُخْتَارَ فَإِنَّهُ قَدْ قَتَلَ قَتَلَتَنَا، وَطَلَبَ بِثَأْرِنَا، وَزَوَّجَ أَرَامِلَنَا، وَقَسَّمَ فِينَا الْمَالَ عَلَى الْعُسْرَةِ**»(٢).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٤٣.

إذن.. إذا كان المختار رجلاً رسـاليًّا، ويدعو إلى الرضا من آل محمد، فلماذا لا نرى الإمام زين العابدين يأتي إلى الكوفة، ويؤمّ الناس جماعة، ويقود حرب المختار الذي أمضى شـهوراً في الحكم، بل يكتفي الإمام بمشـاهدة رأس عبيد الله بن زياد، وأن يسجد لله شاكراً لأن الله انتقم لأبيه المظلوم؟. ربما لم يكن من المصلحة -حسب رؤية الإمام ﵇- أن يضع بصماته بشكل واضح وظاهر على حركة المختار.

ولهذا قالوا: إن أوّل من سَـنَّ سُـنّة الزهد هو الإمـام زين العابدين ﵇(١)، ومع ذلك فهو ﵇ قائد جميع الفقهاء في عصره، وكل المذاهب قدّست الإمام زين العابدين ﵇، وبقيت في البلاد الإسلامية آثار عظيمة من زهده وعلمه وارتباطه بالله سبحانه وتعالى وتوجيهه إلى الحق(٢).

انظروا إلى التاريخ لتروا سـعيد بن المسيب(٣)، وسعيد بن جبير(٤)، وجبير بن

---

(١) أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ ﵇ عَنِ الزُّهْدِ؟. فَقَالَ ﵇: «عَشَرَةُ أَشْيَاءَ: فَأَعْلَى دَرَجَةِ الزُّهْدِ أَدْنَى دَرَجَةِ الْوَرَعِ، وَأَعْلَى دَرَجَةِ الْوَرَعِ أَدْنَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ، وَأَعْلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ أَدْنَى دَرَجَةِ الرِّضَا، أَلَا وَإِنَّ الزُّهْدَ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ**﴾». الكافي، ج٢، ص١٢٨.

(٢) لاحظ: مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص١٦١. حياة الإمام زين العابدين، ج١، ص٩١.

(٣) جاء في أحواله مع الإمام زين العابدين ﵇، ما رواه صاحب المازندراني في (مناقب آل أبي طالب ﵇)، ص١٣٤: «سَأَلَ لَيْثُ الْخُزَاعِيُّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ عَنْ إِنْهَابِ الْمَدِينَةِ. قَالَ: نَعَمْ. شَدُّوا الْخَيْلَ إِلَى أَسَاطِينِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَأَيْتُ الْخَيْلَ حَوْلَ الْقَبْرِ وَانْتُهِبَ الْمَدِينَةُ ثَلَاثًا. فَكُنْتُ أَنَا وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ﵇ نَأْتِي قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَتَكَلَّمُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ﵇، بِكَلَامٍ لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ فَيُحَالُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ وَنُصَلِّي وَنَرَى الْقَوْمَ وَهُمْ لَا يَرَوْنَنَا..».

(٤) قال الإمام الصادق ﵇، في حقه: «إِنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، كَانَ يَأْتَمُّ بِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﵇، فَكَانَ عَلِيٌّ يُثْنِي عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ سَبَبُ قَتْلِ الْحَجَّاجِ لَهُ إِلَّا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَكَانَ مُسْتَقِيماً، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ قَالَ: أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كَسِيرٍ؟. قَالَ: أُمِّي كَانَتْ أَعْرَفَ بِي سَمَّتْنِي سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ. قَالَ: مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، هُمَا فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ؟!. قَالَ: لَوْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إِلَى أَهْلِهَا لَعَلِمْتُ مَنْ فِيهَا، وَلَوْ دَخَلْتُ النَّارَ وَرَأَيْتُ أَهْلَهَا لَعَلِمْتُ مَنْ فِيهَا. قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي الْخُلَفَاءِ؟. قَالَ: لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ. قَالَ: أَيُّهُمْ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟!. قَالَ: أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِي. قَالَ: فَأَيُّهُمْ أَرْضَى لِلْخَالِقِ؟!. قَالَ: عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ. قَالَ: أَبَيْتَ أَنْ تُصَدِّقَنِي. قَالَ: بَلْ لَمْ أُحِبَّ أَنْ أُكَذِّبَكَ». بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٣٦. وجاء في سير أعلام

مطعم(١)، وأبا خالد الكابلي(٢)، ويحيى بن أم الطويل(٣)، هؤلاء الذين كانوا من

النبلاء للذهبي، ج٤، ص ٣٣٧، في وصف حاله مع بني أمية: «عن أبي حصين، قال: رأيت سعيدًا بمكة فقلت: إن هذا قادم -يعني خالد بن عبد الله القسري- ولست آمنه عليك، قال: والله لقد فررت حتى استحييت من الله. قلت -الذهبي-: طال اختفاؤه، فإن قيام القراء على الحجاج كان في سنة اثنتين وثمانين، وما ظفروا بسعيد إلى سنة خمس وتسعين، السنة التي قلع الله فيها الحجاج». ونقل ابن خلكان، في وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٧٣: «وكان يوم أخذ يقول: وشى بي واشٍ في بلد الله الحرام، أَكِلُهُ إلى الله تعالى، يعني خالد بن عبد الله القسري».

(١) ابن عديّ بن نوفل بن عبد مناف القرشي [ت: ٥٩هـ]، أبو محمد: عده الشيخ في أصحاب الرسول ﷺ، وكان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة، وله ٦٠ حديثًا. عُدَّ من حواري الإمام زين العابدين عليه السلام، كما في رواية علي بن أسباط بن سالم عن أبيه قال: «قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ... **ثُمَّ يُنَادِي أَيْنَ حَوَارِيُّ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَيَقُومُ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ، وَيَحْيَى بْنُ أُمِّ الطَّوِيلِ، وَأَبُو خَالِدِ الْكَابُلِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ... ثُمَّ يُنَادِي سَائِرَ الشِّيعَةِ مَعَ سَائِرِ الْأَئِمَّةِ عليهم السلام يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ الشِّيعَةِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْفِرْدَوْسَ، وَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ السَّابِقِينَ، وَأَوَّلُ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَوَّلُ الْمَحْبُورِينَ**». بحار الأنوار، ج٣٤، ص٢٧٥. أعيان الشيعة، ج٤، ص٦٧. الأعلام، ج٢، ص١١٢.

(٢) في أحواله قال الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ أَبُو خَالِدِ الْكَابُلِيُّ يَخْدُمُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ دَهْراً، وَمَا كَانَ يَشُكُّ فِي أَنَّهُ إِمَامٌ، حَتَّى أَتَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ. فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ إِنَّ لِي حُرْمَةً، وَمَوَدَّةً، وَانْقِطَاعاً، فَأَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، إِلَّا أَخْبَرْتَنِي أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ؟. قَالَ: فَقَالَ: يَا أَبَا خَالِدٍ، حَلَفْتَنِي بِالْعَظِيمِ. الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَلَيَّ وَعَلَيْكَ، وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. فَأَقْبَلَ أَبُو خَالِدٍ لَمَّا أَنْ سَمِعَ مَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ، وَجَاءَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأُخْبِرَ أَنَّ أَبَا خَالِدٍ بِالْبَابِ أَذِنَ لَهُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ دَنَا مِنْهُ قَالَ عليه السلام: **مَرْحَباً بِكَ يَا كَنْكَرُ. مَا كُنْتَ لَنَا بِزَائِرٍ، مَا بَدَا لَكَ فِينَا**. فَخَرَّ أَبُو خَالِدٍ سَاجِدًا شُكْرًا للهِ تَعَالَى مِمَّا سَمِعَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام. فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى عَرَفْتُ إِمَامِي. فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: **وَكَيْفَ عَرَفْتَ إِمَامَكَ يَا أَبَا خَالِدٍ؟**. قَالَ: إِنَّكَ دَعَوْتَنِي بِاسْمِيَ الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي الَّتِي وَلَدَتْنِي وَقَدْ كُنْتُ فِي عَمْيَاءَ مِنْ أَمْرِي، وَلَقَدْ خَدَمْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ عُمُراً مِنْ عُمُرِي وَلَا أَشُكُّ إِلَّا وَأَنَّهُ إِمَامٌ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا سَأَلْتُهُ بِحُرْمَةِ اللهِ، وَبِحُرْمَةِ رَسُولِهِ، وَبِحُرْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَرْشَدَنِي إِلَيْكَ. وَقَالَ هُوَ الْإِمَامُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ وَعَلَى جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمْ. ثُمَّ أَذِنْتَ لِي فَجِئْتُ فَدَنَوْتُ مِنْكَ وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِيَ الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي فَعَلِمْتُ أَنَّكَ الْإِمَامُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَيَّ وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». بحار الأنوار، ج٤٢، ص٩٤.

(٣) وردت روايات في حقه، وتصف جملة من أحواله وجهاده، نذكر منها:

١- ما جاء في رواية الاختصاص عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ارْتَدَّ النَّاسُ بَعْدَ الْحُسَيْنِ

تلامذة الإمام زين العابدين عليه السلام(١)، ومن قادة الأمة الإسلامية، الذين خطوا للأمة مسيرتها، من غير فرق بين مذاهبها وتوجهاتها المختلفة، حيث نجد أنّ السُّنَّة والشيعة والخوارج والمرجئة(٢)، والمعتزلة(٣) كلهم يعتقدون بهؤلاء كقادة وعلماء وموجهين.

كان الإمام يُربِّي رجلاً سياسيًّا كالمختار الثقفي، ورجالاً عسكريين كإبراهيم بن مالك الأشتر، وعبد الله الحر، ورجالاً إداريين، ويبعثهم للقيام بمهمة الثورة.

عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَةً: أَبُو خَالِدٍ الْكَابُلِيُّ، يَحْيَى بْنُ أُمِّ الطَّوِيلِ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ. ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ لَحِقُوا وَكَثُرُوا. وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أُمِّ الطَّوِيلِ يَدْخُلُ مَسْجِدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَيَقُولُ: **﴿كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ﴾**».

٢- ما رواه الكليني في الكافي، ج٢، ص٣٧٩: عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيِّ بْنِ النُّعْمَانِ عَنِ ابْنِ مُسْكَانَ عَنِ الْيَمَانِ بْنِ عُبَيْدِ الله قَالَ: «رَأَيْتُ يَحْيَى بْنَ أُمِّ الطَّوِيلِ، وَقَفَ بِالْكُنَاسَةِ (الكوفة)، ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: مَعْشَرَ أَوْلِيَاءِ الله؛ إِنَّا بُرَآءُ مِمَّا تَسْمَعُونَ، مَنْ سَبَّ عَلِيًّا عليه السلام، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله. وَنَحْنُ بُرَآءُ مِنْ آلِ مَرْوَانَ، وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله. ثُمَّ يَخْفِضُ صَوْتَهُ فَيَقُولُ: مَنْ سَبَّ أَوْلِيَاءَ الله فَلَا تُقَاعِدُوهُ، وَمَنْ شَكَّ فِيمَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَلَا تُفَاتِحُوهُ، وَمَنِ احْتَاجَ إِلَى مَسْأَلَتِكُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَقَدْ خُنْتُمُوهُ. ثُمَّ يَقْرَأُ: **﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً﴾**».

(١) راجع: تذكرة الحفاظ، ج١، ص٤٤، وص٦١.

(٢) نشأت بعد ظهور الخوارج كردٍّ فعلٍ لهم؛ لأن الخوارج ترى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلَّد في النار، وتكفر عليًّا وعثمان، وقالوا بالتحكيم. والمرجئة خالفت الخوارج في جملة من العقائد، فهي القائلة بالإرجاء بمعنى التأخير. وبأن إيمان مرتكب الكبيرة، كإيمان الملائكة والأنبياء بحجة عدم دخالة العمل في الإيمان. وقالوا بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، لأن الحكم عليه موكول إلى الله يوم القيامة مهما كانت الذنوب التي اقترفها. ومستندهم في هذا الاعتقاد قول الله: **﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾**. راجع بحوث في الملل والنحل، ج١، ص٨٦.

(٣) نشأت فرقة المعتزلة في مدينة البصرة، التي كانت في ذلك العصر مجمعًا للعلم والأدب، في جوٍّ مشبع بآثار الثقافات الأجنبية والغريبة عن الإسلام، ويرجع أصل المعتزلة في نشأتها إلى واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري، ولهم منهج كلامي خاص وأُصول معينة اتّفقوا عليها. راجع بحوث في الملل والنحل، ج١. وأيضًا: المعتزلة، زهدي جار الله.

الإمام زين العابدين عليه السلام والثورة الثقافية

في الوقت نفسه يختار الإمام السجاد مسيّباً وسعيداً والزهري لمهات أخرى، ويقوم في الوقت ذاته بنشر الإسلام والتوعية الإسلامية بين العبيد الذين جلبتهم فتوحات بني أمية العشوائية، وكانوا يشكّلون خطراً على الدولة الإسلامية وعلى الإسلام، كان الإمام يبثُّ في هؤلاء روح الدين، ويُربِّي فيهم مُبلِّغين حقيقيين، ويقوم بثورة من نوع آخر(١).

كذلك الإمام الصادق عليه السلام كان من الذين أيدوا(٢) ثورة عمه (زيد بن علي). ونحن لا نستطيع -ولا أي مؤرخ آخر- أن نتقبَّل أنّ أخ الإمام أو ابن عمه أو غيرهم من أتباع الأئمة المخلصين بأنهم كانوا يخرجون على سلطة الإمام، ويقومون بالثورات من دون تنسيق مسبق مع الإمام ولمجرَّد نزوات شخصية، إنما كانت هناك خطط معينة، فالأئمة عليهم السلام كانوا يقومون بعدة أعمال في الوقت ذاته، والثورة السياسية والحركة التحريرية كانت من ضمن أعمالهم، وعلاقة الإمام زين العابدين عليه السلام مع المختار كانت ضمن هذه العلاقة، فالإمام عليه السلام لم يشترك علانية في الثورة ولم يكن من الصحيح أن يشترك فيها، فالثورة تواجه احتمالات الفشل، فإذا ربط الإمام عليه السلام نفسه بشكل مباشر مع هذه الثورة يكون حكم على كل أعماله بالفشل، كما أن كل الرساليين في العالم سينتهون بفشل الثورة العسكرية ولم يكن هذا العمل سليماً، فالإمام عليه السلام كان في موقع يغذّي سائر الثورات ويشرف عليها بصورة عامة وغير علنية، وبذلك نتعرّف إلى بطولة المختار وتفانيه في سبيل الحق، في قبوله بالثورة مع عدم التأييد الظاهري للإمام زين العابدين عليه السلام، ودون أن يُفشي بالسر الذي بينه وبين الإمام عليه السلام.

وهناك مزيد من التفاصيل تُبيّن هذا الارتباط الذي كان بين الأئمة عليهم السلام

---

(١) كسعيد بن جبير عندما خرج مع عبدالرحمن بن الأشعث على حكومة الحجاج.

(٢) يأتينا في الحديث عن ثورة زيد بن علي، في الصفحات القادمة إن شاء الله فلاحظ.

وسائر الثورات.

وخلاصة القول: أنه كلما قامت في الأمة الإسلامية حركة خيّرة، سواء كانت ثورة عسكرية، أو ثقافية، أو دينية، أو حركة (فتوحات وامتداد إقليمي) أو ما أشبه، فإنها كانت بخطط وقيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وسنُثبت في الفصول القادمة هذه الحقيقة التاريخية حتى نعرف أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا أئمة حق قد عملوا من أجل الإصلاح والتغيير، وفجَّروا الثورات، ولم يكونوا مجرَّد أئمة بالوصية ليس لهم عمل وأثر في العالم، وبهذا يرتفع التناقض المزعوم المشار إليه في صدر البحث.

صفو الكلام

* من أسباب فشل الحركات السياسية طيبة النفس وسذاجة القيادات. وكانت ثورة المختار من هذا النوع.

* والخلاف الداخلي حول الهدف من التحرك، هل هو من أجل الانتقام فقط أم هناك أهداف أخرى أبعد؟

* والسؤال الكبير هنا هو عن علاقة أئمة أهل البيت عليهم السلام بالثورات والحركات الرسالية، باعتبارهم القيادات الشرعية والامتداد الطبيعي لنهج الرسول صلى الله عليه وآله.

* ورأى بعض أن الأئمة بعد الإمام الحسين عليه السلام لم يقوموا بالسيف انتظاراً للإمام الحجة، لذا يجب ألّا يقوم أحد بالسيف في وجه الطغاة في عصر الغيبة. وهو رأي ينتقص من قدر الأئمة عليهم السلام.

* الرؤية التحليلية الصائبة هي أن الأئمة عليهم السلام كانوا على رأس الهرم يقودون الصفوة من الفقهاء والزهّاد والعبّاد وأصحاب العلوم المختلفة، والسياسيين والقادة العسكريين، وبالتالي فإن كل خيوط العمل الثوري الرسالي كانت بأيديهم، رغم أنهم لم يكونوا داخلين مباشرة، وبشكل صريح في العمل السياسي العسكري المعارض للطغاة.

* فأئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يقودون العمل الرسالي التغييري ضد نظام بني أمية ونظام بني العباس، ولكنهم لم يورّطوا أنفسهم بشكل مباشر في الثورة السياسية دائماً.

البابُ الثاني، مَسِيرةُ الحركة الرِّسالِيّة في العهد الأمويّ

الفَصِلُ الثَّالِثُ، الحركاتُ السِّيَّاسِيَّةُ في زمنِ الدّولة الأمويّة

الوضعُ السِّيَّاسِيّ في عهدِ عبدِ الملكِ بن مروان

قراءةٌ في مسارِ الحركاتِ السِّيَّاسِيَّةِ

٩ | الوضع السياسي في عهد عبد الملك بن مروان

حياة عبد الملك بن مروان

قيل عن عبد الملك بن مروان بأنه كان حازمًا، أديبًا، لبيبًا، وعالمًا(١)، وقد قال فيه المؤرخون المتزلفون بأنه كان ممَّن حوى علماً كثيراً وحكمة بالغة(٢).

هذا الرجل عندما صعد المنبر في أول خطاب رسم به سياسة بلاده قال: «أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون، فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا! ثم نزل»(٣).

ويقصد بالخليفة المستضعف عثمان بن عفان، والخليفة المداهن معاوية بن أبي سفيان، والخليفة المأفون -ضعيف الرأي- يزيد بن معاوية(٤).

هذا هو عبد الملك بن مروان أعرق الناس في الكفر، كما يقول عنه المقريزي(٥)، ولنرى ماذا فعل عبد الملك بن مروان في حياته!.

إن أول ما عمله عبد الملك بن مروان هو قيامه بتنصيب والٍ من قبله لم تلد

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢٣٩.

(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٥٩.

(٣) أنساب الأشراف، ج٧، ص٢١٢. العقد الفريد، ج٥، ص١٥٠. الرسائل السياسية، ص٤٣٥-٤٣٦.

(٤) البداية والنهاية، ج٩، ص ٦٤. تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٢٥. تاريخ خليفة، ص١٧١.

(٥) النزاع والتخاصم، ص٣٤.

الأمهات عبر التاريخ أسوأ منه، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، مثال الجريمة، والفساد، والغلظة، والعنف، والوحشية(١). فولاَّه مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة، ثم ولَّاه الكوفة والبصرة وبلاد الشرق، بل وخراسان وغيرها(٢)، وترك له المجال مفتوحاً بأن يعيث فساداً في الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً.

«واحصي من قتله (الحجاج) صبرًا سوى من قتل في عساكره وحروبه، فوجد مائة وعشرين ألفًا، ومات (الحجاج) وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف أمرأة، منهن ستة عشر ألفًا مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف، ولا من المطر والبرد في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب..»(٣).

هذا الرجل نصبه الملك العادل(٤)، والخليفة الحكيم والعالم (!)، عبد الملك بن مروان، كما يقول المؤرخون المتزلفون(٥). وبهذا المقياس يمكن التعرف إلى سائر ملوك بني أمية، ومنهم على سبيل المثال: يزيد بن عبدالملك(٦)، أمرهُ أشهر من أن

---

(١) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص١٧٦: «لو لم يكن من مساوئ عبدالملك إلاَّ الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة، يُهينهم ويُذلهم قتلاً وشتمًا وحبسًا، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختمًا، يريد ذلهم، فلا رحمه الله ولا عفا عنه».

(٢) التاريخ الإسلامي، العهد الأموي، ج٤، ص١٧٧.

(٣) مروج الذهب،ج٣، ص١٦٧ - ١٦٨.

(٤) قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال، ج٢، ص٦٦٤: «عبدالملك بن مروان بن الحكم، أنَّى له العدالة وقد سفك الدماء وفعل الأفاعيل».

(٥) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. شلبي، ج٢، ص٥٩.

(٦) ابن مروان [٧١-١٠٥هـ]، من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق، وولي الخلافة سنة ١٠١هـ، ساس الناس بسيرة عمر بن عبدالعزيز، فشق ذلك على بني أمية. قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم: «لما استخلف، قال: سيروا سيرة عمر بن عبد العزيز، فأتوه بأربعين شيخاً شهدوا له أنّ الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب. فأقبل على الظلم وإتلاف المال والشراب، والانهماك على سماع الغناء، والخلوة بالقينات». شذرات الذهب، ج٢، ص٢٩. وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً. الأعلام، ج٨، ص١٨٥.

يذكر. فقد مات في شبابه لأن عشيقته حبّابة التي كان شغوفًا بحبها توفيت، فأقام أيامًا لا يدفنها حزنًا عليها حتى جيفت فقيل له: «إن الناس يتحدثون بجزعك، وإن الخلافة تجلُّ عن ذلك، فدفنها وأقام على قبرها فقال:

فإن تسلُ عنك النفس أو تدع الهوى ... فباليأس تسلو النفسُ لا بالتجلّد

ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات»⁽¹⁾. ولقد كان يبكي على (حبابة) بكاء مريرًا.

يقول المسعودي: «وكان يزيد ذات يوم في مجلسه، وقد غنّته حبابة، وسلّامة فطرب طربًا شديدًا. ثم قال: أريد أن أطير، فقالت له حَبابة: يا مولاي، فعلى من تَدَع الأمة وتدعنا»⁽²⁾.

أما الوليد بن يزيد⁽³⁾، فقد قرأ ذات يوم قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾⁽⁴⁾.

فدعا بالمصحف الشريف فنصبه غرضًا للنشاب، وأقبل برميه وهو يقول:

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص١٩٨.

(٢) مروج الذهب، ج٣، ص١٩٩.

(٣) روى الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال: «ولد لأخي أم سلمة غلام فسموه الوليد، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سميتموه بأسامي فراعنتكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، هو شر على هذه الأمة من فرعون على قومه. قال الزهري: إن استخلف الوليد بن يزيد فهو هو، وإلّا فالوليد بن عبد الملك. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال الحاكم: وهو الوليد بن يزيد بلا شك ولا مرية». قال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص١٩٩: «وكان فاسقًا شرّيبًا للخمر، منتهكاً حرمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه فقتل في جمادى الآخرة سنة [مائة] ست وعشرين». وقال: «إنه لما حوصر قال: ألم أزد في أعطياتكم؟. ألم أرفع عنكم المؤن؟. ألم أعط فقراءكم؟. فقالوا: ما ننقم عليك في أنفسنا لكن ننقم عليك انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله، ولما قتل وقطع رأسه وجيء به يزيد الناقص نصبه على رمح فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد. فقال: بُعدًا له أشهد أنه كان شروبًا للخمر ماجنًا فاسقًا ولقد راودني على نفسي».

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٥-١٦.

تهـدّدني بجبّار عنيد   فها أنا ذاك جبّار عنيد
إذا ما جئت ربّك يوم حشر   فقل يا ربّ مزّقني الوليد»⁽¹⁾

إن هؤلاء جميعاً سواء عبد الملك بن مروان، أو يزيد بن عبدالملك، أو الوليد بن يزيد، أو سليمان بن عبدالملك، كانوا يعيشون حياة بذخ وترف وفساد خلقي، لذلك كانت أعمارهم قصيرة، فقد كان بعضهم يثور على الآخر، وربما قتله شر قتلة⁽²⁾.

والتاريخ يذكر ذلك، فكثير من الملوك الأمويين قُتلوا على فرشهم، وبعضهم قتلتهم أمهاتهم، والبعض الآخر قتلتهم زوجاتهم وإخوانهم، فالأخ يقتل أخاه، كما حدث بالنسبة إلى سليمان بن عبد الملك حيث قتل أخاه الوليد، وقد نتكهن أن فئات المعارضة كانت تجد طريقها إلى البلاط الملكي وتغتال بعضهم. وبالرغم من أن هذا شيء ممكن فإن المؤرخين لم يذكروه.

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٩٠.

(٢) لاحظ: تاريخ الخلفاء للسيوطي. المناقب والمثالب، للقاضي التميمي المغربي.

صفو الكلام

* كان الأمويـون المروانيـون (عبـد الملـك بـن مـروان وأبناؤه وأحفاده) يعيشـون حياة بذخ وترف وفساد خلقي، بينما كانوا يحكمون بلاد المسلمين زوراً وظلماً باسم الإسلام. وبسـبب انهماكهـم في الفسـاد واللهـو فقـد كانـت أعمارهم وحكوماتهـم قصـيرة، حيث كان بعضهم يثـور على الآخر. وقـد نتكهّن أن فئات المعارضة كانت تجد طريقها إلى البلاط الملكي وتغتـال بعضهم. وبالرغم من أن هذا شيء ممكن إلّا أن المؤرخين لم يذكروه.

قراءة في مسار الحركات السياسية

اتَّسعت الخلافات الداخلية في زمن عبد الملك بن مروان بشكل أصبحت معها الدولة الإسلامية أشلاء شتى. يقول المسعودي في مروج الذهب: «كان عبدالملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من أمر ابن زياد⁽¹⁾، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه، وهزيمة الجيش بالليل، أتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دجلة، وكان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مُصعَب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوي بن فلنط، ونزوله المصيصة يريد الشام، ثم جاءه خبر دمشق، وأن عبيدها وأوباشها ودُعارها قد خرجوا على أهلها، ونزلوا الجبل، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن، وخرجوا منه مكابرة، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع، وغير ذلك مما نمي إليه من المفظعات في تلك الليلة..»⁽٢⁾.

وقد أتته أخبار كل ذلك في ليلة واحدة مما يدل على مدى الاضطراب السياسي الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية، ولذا كان حكم بني أمية يمر بظروف صعبة بينما يزعم بعض المؤرخين أن الخليفة الأموي حينها كان أقوى الخلفاء، كيف ذلك؟. وهو الذي أراد أن يبايع ابن الزبير لّما رأى تزعزع حكم الأمويين، إلّا أن

---

(١) الذي بعثه لحرب جيش المختار الثقفي الذي كان بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر.

(٢) مروج الذهب، ج٣، ص٩٨.

الأشدق أشار إليه بدعوة الناس بمبايعته(١).

في هذه الأوضاع كانت هناك حركات عديدة ناشئة، بالإضافة إلى الحركة الرسالية التي تحدَّثنا عنها، فلا بد أن نُلقي بعض الضوء على الحركات التي كانت تعايش وتعاصر الحركة الرسالية في تلك الحقبة؛ لأن معرفة هذه الحركات تُعمِّق فهمنا للحركة الرسالية، ومن جملة تلك الحركات:

أولاً: حركة الخوارج

الخوارج هي الفئة التي خرجت على حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في حرب صفين، وكانوا يشكلون -حسب التعبير الحديث- الجبهة الراديكالية المتطرفة(٢).

حيث اعتقدت جماعة من جيش الإمام علي بأنه كان من الخطأ قبول الإمام علي عليه السلام بالتحكيم، بالرغم من أنهم هم أنفسهم الذين أصروا على الإمام بذلك حين رفع أهل الشام المصاحف، وخاصمهم الإمام عليه السلام وقال لهم: «ويحكم! إنهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها، ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلَّا خديعة، ودهاء، ومَكِيدة.

فقالوا له: إنه ما يسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله.

فقال عليه السلام: ويحكم! إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم به، ونبذوا كتابه، فامضوا على حقكم وقصدكم، وخذوا في قتال عدوكم، فإن معاوية، وابن العاص، وابن أبي مُعَيْط، وحبيب بن مسلمة، وابن النابغة، وعدداً غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً ورجالاً، فهم شر أطفال ورجال..»(٣).

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٨٦.

(٢) أي النزعة إلى إحداث تغيرات متطرفة في الفكر والعادات السائدة والأحوال والمؤسسات القائمة.

(٣) مروج الذهب، ج٢، ص٣٩٠.

ويحكم! إنها كلمة حق يُراد بها باطل!... أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبقَ إلَّا أن يُقطع دابر الذين ظلموا»(١).

فلم يقبلوا منه وهدَّدوه بالحرب إن لم يرجع مالك الاشتر قائد جيشه من ساحة الحرب. وبعد أن قبل الإمام علي عليه السلام بالتحكيم مرغمًا، خرجوا عليه وهم ينادون من كل ناحية: «لَا حُكْمَ إِلَّا لله. الْحُكْمُ لله يَا عَلِيُّ لَا لَكَ، لَا نَرْضَى بِأَنْ نُحَكِّمَ الرِّجَالَ فِي دِينِ الله..»(٢).

فقال عليه السلام: **«... نَشَدْتُكُمْ بِالله؛ أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ حِينَ رَفَعُوا الْمَصَاحِفَ فَقُلْتُمْ نُجِيبُهُمْ إِلَى كِتَابِ الله. قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ بِالْقَوْمِ مِنْكُمْ... فَرَدَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي!!... فَلَمَّا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْكِتَابَ اشْتَرَطْتُ عَلَى الْحَكَمَيْنِ أَنْ يُحْيِيَا مَا أَحْيَاهُ الْقُرْآنُ، وَأَنْ يُمِيتَا مَا أَمَاتَهُ الْقُرْآنُ، فَإِنْ حَكَمَا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُخَالِفَ حُكْمَ مَنْ حَكَمَ بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَإِنْ أَبَيَا فَنَحْنُ مِنْ حُكْمِهِمَا بَرَاءٌ.**

قَالَ بَعْضُ الْخَوَارِجِ: فَخَبِّرْنَا أَتَرَاهُ عَدْلًا يُحَكِّمُ الرِّجَالُ فِي الدِّمَاءِ.

فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، إِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ، وَهَذَا الْقُرْآنُ؛ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ دَفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الرِّجَالُ.**

قَالُوا لَهُ: فَخَبِّرْنَا عَنِ الْأَجَلِ الَّذِي جَعَلْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ!.

قَالَ عليه السلام: **لِيَتَعَلَّمَ الْجَاهِلُ وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ..»**(٣).

وقد كان ذلك في قرية بظاهر الكوفة تسمى حروراء، ثم أرسل لهم الإمام عليه السلام عبد الله بن العباس وناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته، ورجعوا عن رأيهم

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٤٥٧-٤٥٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٢، ص٥٤٤.

(٣) بحار الأنوار، ج٣٣، ص٣٨٧.

بينما امتنع آخرون، وخرجوا بعد مدة عليه في النهروان واعتدوا على الصحابي الجليل عبد الله بن خباب بن الأرت لأنه أثنى على علي عليه السلام، فقتلوه، وقتلوا أم ولده. جاء في تاريخ بغداد: «..وأخرجوا أم ولده، فشقوا عمّا في بطنها، فأُخبر علي عليه السلام بما صنعوا، فقال: الله أكبر..»(١).

ثم حمل عليهم عليه السلام، وكانوا أربعة آلاف فقتلهم أجمع، «فما انفلت منهم إلّا أقل من عشرة. وما قتل من المسلمين إلّا أقل من عشرة. فانهزم اثنان منهم إلى عمان(٢)، واثنان إلى كرمان(٣)، واثنان إلى سجستان(٤)، واثنان إلى الجزيرة(٥)، وواحد إلى تل موزن(٦) باليمن. وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم..»(٧).

وقد قال فيهم أيضاً بعد حرب النهروان عند مروره بهم وهم صرعى: «**بُؤْساً لَكُمْ لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ.**

فَقِيلَ لَهُ: مَنْ غَرَّهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟!.

فَقَالَ عليه السلام: **الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ وَالْأَنْفُسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ بِالْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمُ الْإِظْهَارَ، فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ**»(٨).

وكان من جملة الخوارج المقتولين في النهروان ذو الثدية الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن حكم بمروقهم من الدين: «.. **آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ**

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج١، ص٢٢٠.

(٢) اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند. معجم البلدان، ج٤، ص١٥١.

(٣) ولاية بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٤.

(٤) ولاية جنوبي هراة. معجم البلدان، ج٣، ص١٩٠.

(٥) هي التي بين دجلة والفرات فيها ديار مضر وبكر.

(٦) في الأصل مورون، تحريف، وتل مَوْزَن، بلد قديم بين رأس عين وسروج، يزعم أن جالينوس كان به. معجم البلدان، ج٢، ص٤٥.

(٧) الملل والنحل، الشهرستاني، ج١، ص١٣٥.

(٨) نهج البلاغة، باب من غريب كلامه عليه السلام، الكلمة: ٣٢٣.

مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ..»⁽¹⁾.

تطوّرت هذه الفئة إلى حزب حيوي ونشط، جمع الكثير من المعارضين لحكومة الإمام علي عليه السلام، وقد أصبح هذا الحزب المعارضة الساخنة ضد الدولة الأموية، والأقوى بعد الحركة الرسالية، بالإضافة إلى أنهم كانوا غلاظاً، لا يبالون بهدر الدماء.

واستطاع هذا الحزب أن يستولي على الكوفة لفترة، كما استطاع أن يستولي على البصرة في فترة أخرى، وعلى خراسان، والمدائن، والبحرين، واليمن، وعمان، في فترات متباعدة⁽²⁾.

واستولى أيضاً على سَرَنْدِيب⁽³⁾، لفترة وكوّن فيها حكومة، إضافة إلى أنهم كانوا يدعمون المعارضة في شمال أفريقيا ويمدونهم بالمؤن والمساعدات.

ثانياً: حركة الزبيريين

هناك حقيقة لا بد أن أشير إليها قبل بيان حركة الزبيريين، وهي أن الخلافة الإسلامية، منذ أن خرجت عن مسارها الشرعي الصحيح، قامت السياسة في الأمة على أساس الفساد والمصالح والأهواء، وأصبحت القيم التي من أجلها بُعِث النبي

---

(١) بحار الأنوار، ج٢١، ص١٧٣. صحيح مسلم، ج٢، ص٧٤٩. البداية والنهاية، ج٤، ص٤١٧. وذكر نحو ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج، ج١، ص٢٠٢، وفي (جامع الأحاديث للسيوطي في مسند عائشة: روي أنها «سُئلت ما سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول ف الخوارج؟ قالت: سمعته يقول: هم شر الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم من الله وسيلة..». وروى الخطيب البغدادي أيضًا في تاريخ بغداد ج١، ص١٦٠: «قالت عائشة: ما يمنعني ما بيني وبين علي أن أقول الحق، سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: تفترق أمتي على فرقتين تمرق بينهما فرقة محلقون رؤوسهم، محفون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم، يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يقتلهم أحبهم إليّ وأحبهم إلى الله تعالى..».

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص١٧٤.

(٣) هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند، طولها ثمانون فرسخاً في مثلها، وهي جزيرة تشرع إلى بحر هركند وبحر الأعباب. وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام. وتسمى اليوم جزيرة سيلان. معجم البلدان، ج٣، ص٢١٦.

محمد ﷺ مفاهيم بعيدة لا واقع لها، بل انقلبت وتحوَّلت إلى صور معكوسة بحيث أصبحت القوة، والرشوة، والمكر، هي الميزان لترشيح أي خليفة⁽¹⁾، وهناك تجلَّى دور الأئمة الاثني عشر عليهم السلام في إعادة القيم الإسلامية المحمدية، ومن ثم إعادة الخلافة لمجراها الشرعي والإلهي، وعلى ضوء هذه البصيرة تُفهم الوقائع التاريخية وسير التحوُّلات فيها.

أما عبد الله بن الزبير بن العوام، فقد كان والده من الذين قاوموا الكفار في صدر الإسلام، وكان ممن يميل إلى الإمام علي عليه السلام حتى روي عن علي عليه السلام: «**مَا زَالَ الزُّبَيْرُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، حَتَّى نَشَأَ ابْنُهُ عَبْدُ الله فَأَفْسَدَهُ**»⁽²⁾.

وكان لعبد الله اليد الطولى في تسيير حركة والده وطلحة وعائشة في وقعة الجمل. فقد كان يطمع في تقلُّد منصب الخلافة، ولعل الذي ربَّاه على ذلك وغذَّى طموحه، هي عائشة بنت أبي بكر، فهي التي رشَّحته للخلافة منذ البداية⁽³⁾، وكان هو على درجة من المكر والدهاء، فلما رأى أن الأوضاع تتخلخل في الدولة الإسلامية، ادَّعى الخلافة واستولى على مكة، وسيطر على المدينة، واعتقل مجموعة من العلويين وسجنهم، وضرب حصاراً على الباقي في شعب أبي طالب⁽⁴⁾، وبعث بأخيه مصعب بن الزبير إلى فلسطين، ثم إلى العراق حيث سيطر عليها إلى حد ما، فالدولة الإسلامية كانت تميل إليه حقداً على بني أمية الذين وصل طغيانهم آنئذٍ أوجه، فوقعت مصر والبلدان التي ما وراءها تحت سيطرته، لذا فإنه أحاط بالعاصمة الأموية كإحاطة السوار بالمعصم⁽⁵⁾.

---

(١) انظر: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٨٩.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٤، ص٢٨٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٤٥١.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص٣٤١. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١، ص٤٠. أخبار الدولة العباسية، ص٩٩. تتمة المنتهى، ج٣، ص٨٤-٨٥.

(٥) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢٥٠-٢٥٣. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٦. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٦١.

كيف ولماذا سقط ابن الزبير؟

برغم ذلك التمزُّق في الوضع الإسلامي، وشعور الغضب المتزايد على بني أمية، إلَّا أن حاميات الجيش الأموي الموجودة في سوريا كانت ما تزال على ولائها لبني أمية، لأن التركيبة العضوية لذلك الجيش كانت من المرتزقة الذين تحدَّثنا عنهم سابقاً(١)، فاستطاعوا بعد فترة التغلُّب على ابن الزبير، أما السبب الرئيس لسقوط ابن الزبير بعد أن استمر تسع سنوات (٦٣-٧٢)(٢)، هو استبداده ودكتاتوريته بين جماعته. كما أنه كان مضطرب الرأي، فلم يملك سياسة معينة، وكان سيّئ التدبير في أموره، شديد البخل، صلف المعاملة، إلى غير ذلك من الصفات الرذيلة(٣)، وكان ادِّعاؤه للخلافة قد جعله في مواجهة الحركة الرسالية والتيارات الأخرى.

والحمد لله الذي كفى المؤمنين شرَّه، فقد كان بلاء الأمويين على الأمة الإسلامية وحده نقمة كبيرة، فما بالك ببلاء آخر.

ثالثاً: حركة أهل المدينة

وقد تحدثنا من قبل عن حركة الفقهاء في الكوفة، وهناك نوع آخر من حركة الفقهاء في البلاد الإسلامية، اندفعوا لمقاومة الأوضاع الفاسدة، وربما كان هذا الاندفاع عفويًّا وغير مدروس، فلا يتعدَّى أن يكون ردَّ فعل على أوضاع آنية، وسرعان ما تتبدل الأوضاع فيعودون إلى سابق أمرهم. ومن جملة هذه الحركات، حركة أهل المدينة.

لما شمل الناس جور يزيد وعمَّاله وعمّهم ظلمه، وما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله ﷺ وأنصاره، وشربه الخمور، وسيره سيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله

---

(١) حينما بيّنا تركيبة الجيش الأموي وطبيعة أهل الشام.

(٢) تتمة المنتهى، ج٣، ص١٠٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٤٦٠. الفخري، ص١٢٤.

عليهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، مع مروان بن الحكم، وسائر بني أمية⁽¹⁾، بعد بيعتهم عبد الله بن حنظلة⁽²⁾ غسيل الملائكة⁽³⁾.

أسباب فشل حركة أهل المدينة

لعل أهم سبب في فشل حركة أهل المدينة، أن المدينة المنورة لم تكن موقعاً استراتيجيًّا محصّناً يصعب دخولها. إضافة إلى خيانة بني مروان لأهل المدينة، حيث ساعدوا جيش الشام بعد أن كانوا قد عاهدوا أهل المدينة أن يقفوا على الحياد.

وهذا ما حدث فعلاً عندما قام مسلم بن عقبة (أو مسرف بن عقبة حسب ما

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٦٨-٦٩.

(٢) ابن أبي عامر، من أهل المدينة، والمعروف بالراهب، أدرك النبي وروى عنه ﷺ، حضّ الناس على يزيد وظلمه في أهل المدينة قال في (العقد الفريد، ج٥، ص١٣٦): «فلما كان سنة ثلاث وستين، قدم عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة عاملاً عليها ليزيد بن معاوية، وأوفد على يزيد وفداً من رجال المدينة، فيهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، ومعه ثمانية بنين، فأعطاه مائة ألف، وأعطى بنيه كلّ رجل منهم عشرة آلاف، سوى كسوتهم وحملانهم؛ فلما قدم عبدالله بن حنظلة المدينة، أتاه الناس فقالوا: ما وراءك؟. فقال: «يا قوم، والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء، رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين. والله لو يكون عندي أحد من الناس لأبلى الله فيه بلاءً حسناً». فبلغ الخبر إلى يزيد فبعث إليهم مسلم بن عقبة المري في جيش كثيف من أهل الشام فأباحها ثلاثاً، وقتل ابن الغسيل والأشراف، وأقام ثلاثاً ينهب الأموال ويهتك الحريم. وعرفت هذه الوقعة بفتنة الحرّة. انظر: (تاريخ مدينة دمشق، ج٢٧، ص٤١٨. تذكرة الخواص، ص٢٥٩). أما حنظلة بن عامر والد (عبدالله) قتل شهيداً مع رسول الله ﷺ في يوم أحد، وهو قد خرج من زوجته ليلة زفافه بعد أن سمع منادي الجهاد، وجاء في كتب التاريخ أنه «لما انكشف المشركون ضرب فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض وصاح، وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، ومشى حنظلة إليه في الرمح وقد أثبته ثم ضربه الثانية فقتله، ونجا أبو سفيان.. واستشهد حنظلة». وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت الملائكة تُغسّل حنظلة بن عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة». قال أبو أسيد الساعدي: فذهبنا إليه فإذا رأسه يقطر ماء. فلما أخبر النبي صلّى الله عليه وسلّم بذلك أرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنه خرج وهو جنب.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٥٥.

سمّاه أهل زمانه)(١) بتطويق المدينة، والسيطرة عليها، وإباحتها، ونهبها، وقتل خلق كثير من أهلها، وكان فيمن قُتِل خيرة أهل المدينة وهم صحابة الرسول ﷺ.

وقال ابن كثير: «قال المدائني: وأباح مسلّم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، يقتلون من وجدوا من الناس، ويأخذون الأموال. فأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمك؛ فمر أصحابك ألّا يتعرضوا لإبلنا، بمكان كذا وكذا، فقال لأصحابه: لا تبدؤوا إلّا بأخذ إبلها أولاً.

وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك؛ وابني في الأسارى. فقال: عجلوه لها، فضُربت عنقه... ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج...

قال: سألت الزهري؛ كم كان القتلى يوم الحرّة؟.

قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي، وممَّن لا أعرف من حر وعبد، وغيرهم عشرة آلاف..»(٢).

ويقول ابن قتيبة: «دخل رجل من أهل الشام على امرأة نفساء من نساء الأنصار، ومعها صبيّ لها.. فأخذ برجل الصبي، والثدي في فمه، فجذبه من حجرها، فضرب به الحائط فانتثر دماغه في الأرض..»(٣).

وبعد ان أباح مسلم بن عقبة مدينة رسول الله ﷺ لجيشه ثلاثة أيام، حيث لم يدع بين جنوده وما يشاؤون من حاجز، فقتلوا من أرادوا، واعتدوا على حرمات المسلمين، ونهبوا أموالهم، بعد ذلك أمر الناس بالبيعة ليزيد!(٤).

يقول المسعودي: «وبايع الناس على أنهم عبيدٌ ليزيد، ومن أبى ذلك أمره

---

(١) وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر انظر: الرسائل السياسية، ص٥٤٣:

فسائل مسرف المرّيّ عنكم غداة أباح للجند العذارى

(٢) البداية والنهاية ج٨، ص٢٢٠-٢٢١.

(٣) الإمامة والسياسة، ج١، ص٢٤٠.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ج٦، ص٢٣٣. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٦٠.

مُسْرف على السيف..»⁽١⁾. وقد روي عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ⁽٢⁾ دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يُرِيدُ الْحَجَّ، فَبَعَثَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: أَتُقِرُّ لِي أَنَّكَ عَبْدٌ لِي، إِنْ شِئْتُ بِعْتُكَ، وَإِنْ شِئْتُ اسْتَرْقَقْتُكَ؟.

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَاللهِ يَا يَزِيدُ، مَا أَنْتَ بِأَكْرَمَ مِنِّي فِي قُرَيْشٍ حَسَبًا، وَلَا كَانَ أَبُوكَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَمَا أَنْتَ بِأَفْضَلَ مِنِّي فِي الدِّينِ، وَلَا بِخَيْرٍ مِنِّي، فَكَيْفَ أُقِرُّ لَكَ بِمَا سَأَلْتَ؟!.

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: إِنْ لَمْ تُقِرَّ لِي، وَاللهِ قَتَلْتُكَ.

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: لَيْسَ قَتْلُكَ إِيَّايَ بِأَعْظَمَ مِنْ قَتْلِكَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ابْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم. فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ»⁽٣⁾.

الإمام زين العابدين وحركة أهل المدينة

أما الإمام زين العابدين عليه السلام فإن مسلم بن عقبة لم يلزمه البيعة ليزيد على ما شرط على أهل المدينة⁽٤⁾. «ونظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد عليه السلام، وقد لاذ بالقبر [قبر جده صلى الله عليه وآله وسلم] وهو يدعو، فأُتي به إلى مُسْرِف وهو مغتاظ عليه، فتبرّأ منه ومن آبائه، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له، وأقعده إلى جانبه. وقال له: سَلْنِي حوائجك، فلم يسأله عليه السلام في أحد ممّن قدم إلى السيف إلّا شفّعه فيه. ثم انصرف عنه.

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص ٧٠.

(٢) أو مسلم بن عقبة، حسب رأي صاحب بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٣٧، حيث قال: «ثم اعلم أن في هذا الخبر إشكالًا، وهو أن المعروف في السير أن هذا الملعون لم يأتِ المدينة بعد الخلافة، بل لم يخرج من الشام حتى مات، ودخل النار. فنقول: مع عدم الاعتماد على السير، لا سيما مع معارضة الخبر، يمكن أن يكون اشتبه على بعض الرواة وكان في الخبر أنه جرى ذلك بينه وبين من أرسله الملعون لأخذ البيعة وهو مسلم بن عقبة».

(٣) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٣٧.

(٤) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٦١. مروج الذهب، ج٣، ص٧٠.

وقيل لمسلم: رأيناك تسبُّ هذا الغلام وسَلَفه، فلما أُتي به إليك رفعت منزلته؟.

فقال: ما كان ذلك لرأي مني، لقد مُلئَ قلبي منه رعبًا»(١).

ماذا قدمت الحركات للأمة الإسلامية؟

يبقى سؤال أخير: ما الفائدة التي قدَّمتها هذه الحركات للأمة الإسلامية؟.

بغض النظر عن تصنيف هذه الحركات بأنها رسالية أو غير ذلك، نتساءل عن هذه الألوف من أبناء الحركات المختلفة التي ذهبت ضحية، ما الذي حقَّقت للأمة؟.

الجواب على هذا السؤال:

إن بني أمية كانوا يُريدون أن يُحوّلوا أبناء الأمة الإسلامية إلى مجموعة من العبيد يعملون على خدمتهم، ألم يقل مروان بن الحكم حين خرج من عند عثمان ليرد الجموع الثائرة التي جاءت مطالبة عثمان بالعدالة وعزل ولاته الظلمة: «جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا!، اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منا أمر لا يسرّكم؛..»(٢).

هكذا كان تفكيرهم. ولو أن هذا التفكير كان سائداً على الأمة وهي راضخة له، لزالت الأمة الإسلامية من الوجود، ولم يبقَ لجوهر الإسلام من ذكر.

أليس يزيد بن معاوية هو الذي تمثَّل بأبيات ابن الزبعري(٣)، حينما وضع رأس الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بين يديه:

لَيْتَ أشْيَاخي بِبَدْرٍ شَهِدُوا   جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٧٠-٧١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٣٦٢. البداية والنهاية، ج٧، ص١٧٣.

(٣) البيتان من قصيدة أنشدها عبدالله بن الزبعري في يوم أحد، كما في: طبقات الشعراء لابن سلام، ص٢٣٦-٢٣٨.

قَدْ قَتَلْنَا الْقَرْمَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فاعْتَدَلْ(١)

وزاد فيهما البيتين التاليين كما يقول الشعبي:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل(٢)
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل(٣)

أوَليس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان يقول:

تلعّب بالخلافة هاشميّ بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي

علمًا بأنه قتل بعدها بأيام(٤).

أوَليس مروان، وأبوه الحكم(٥) بن أبي العاص، وهما ما فتئا يُؤذيان رسول الله ويسخران منه ﷺ. أوَليس هو -الحكم قبَّحه الله- اطّلع على رسول الله ﷺ في إحدى حجراته(٦)، فخرج الرسول مغضبًا، ولما عرفه، قال: «من عذيري من هذه الوزغة(٧)»!... ثم أخرجه من المدينة وقال ﷺ: لا يُساكنني»(٨).

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص١١٩.

(٢) قال الطبري في (تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٦٢٣)، معقبًا على قول يزيد: «هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله، ولا إلى دينه، ولا إلى كتابه، ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله، ولا بما جاء من عند الله».

(٣) تذكرة الخواص، ص ٢٦١. الفتوح، ج٥، ص١٢٩.

(٤) مروج الذهب، ج٣، ص٢١٦. شذرات الذهب، ج٢، ص١١١.

(٥) تُوفِّيَ الحكم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور.

(٦) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج، ج٦، ص٣٠٦: «كان يتجسس على رسول الله ﷺ، وهو عند نسائه، ويسترق السمع، ويصغي إلى ما يجري هناك مما لا يجوز الاطلاع عليه، ثم يحدّث به المنافقين على طريق الاستهزاء». وطالع أيضًا: الاستيعاب، ج١، ص٣٥٩.

(٧) الوزغة: الرجل الحارض الفشل.

(٨) أنساب الأشراف، ج٦، ص٦٥٥. وقال في شرح نهج البلاغة، ج٦، ص٣٠٦: «وقد طرده رسول الله ﷺ، عن المدينة، وسيّره إلى الطائف، فلم يزل بها حتى ولي عثمان، فردّه إلى المدينة، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان..».

فإلى أين وصل الحال بالأمة الإسلامية يا ترى؟!.. حتى يصبح أمراؤها أصحاب خمرٍ وقرود، وأصحاب عشقٍ وإلحاد.

أوَليس معاوية بن أبي سفيان قد نقض جميع عهوده التي أعطاها الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدميَّ هاتين لا أفي به»[١].

وفي خطابه في النخيلة قال مخاطبًا أهل العراق: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»[٢].

ثم يكتب إلى عماله على البلدان: «ألّا يُجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة». وكتب أيضًا: «انظروا مَنْ قامت عليه البيّنة أنه يحبّ عليًّا وأهل بيته فامحُوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه..». وفي كتب أخرى كتب: «ومن اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكِّلُوا به، واهدِمُوا داره»[٣].

وقد شرَّع سبّ علي عليه السلام على المنابر وأمر ولاته بذلك حتى يشبّ عليه الصغير ويشيب عليه الكبير[٤]. وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضمّ إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وشرَّدهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمّل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، فلم يبقَ منهم بها معروف.

ونقل ابن الأثير: «فلمّا استخلف زياد سَمُرَة [بن جُندَب[٥]] على البصرة أكثر

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٧٧. الغدير، ج١١، ص١٥.

(٢) البداية والنهاية، ج٨، ص١٣١. المعرفة والتاريخ، ج٣، ص٣١٨. الإرشاد، ج٢، ص١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٣٤.-٣٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص٣٠١.

(٥) بن هلال الفزاري [ت:٦٠هـ]، الراد على رسول الله صلى الله عليه وآله، وشريك معاوية في جرائمه، جمع أحاديث كثيرة في نسخة رواها عنه ابنه سليمان، ويحتمل أن تكون هذه النسخة هي الرسالة التي كتبها سمرة إلى بنيه، وقال فيها ابن سيرين: «في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير». مكاتيب الرسول صلى الله عليه وآله، ج١، ص٤٦١.

القتل فيها. فقال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف. فقال له زياد: أتخاف أن تكون قتلت بريئًا؟. فقال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت»⁽¹⁾.

وسمرة هذا هو الذي بذل له معاوية مائة ألف درهم، حتى يروي أن هذه الآية نزلت في الإمام علي عليه السلام، وهي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾⁽٢⁾.

وأن آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾⁽٣⁾، نزلت في ابن ملجم، فلم يقبل سمرة بذلك، فبذل له معاوية مائتي ألف درهم، فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل..»⁽٤⁾. وقد كان سمرة على شرطة عبيد الله بن زياد يحرّض الناس على الخروج لقتال الحسين عليه السلام⁽٥⁾.

وأقولها لله وللإنسانية جميعاً: لولا إرادة الله باختيار الأئمة الهداة لَمُسِخ المسلمون أجمع، وهل هناك أحد غير الأئمة عليهم السلام بثّ في الأمة روحها، وربّى فقهاءها، وأنشأ الحركات، وواجه أحدوثات الفلسفات الأجنبية، وأبطل زندقة المفسدين، وجعل راية التوحيد خفّاقة؟ فهم الذين بثّوا الجهاد في الأمة في مواجهة انحراف بني أمية وبني العباس.

ونُعيد كرّة القول: إن تلك الحركات وغيرها هي التي حافظت على مقدار من الحرية، ومقدار من الحضارة. ولو كانت الحركات أكثر لكانت الحضارة أكثر والحرية أفضل، لكن ذلك المقدار من الحرية الذي كان هو نتيجة لتضحية أولئك الرساليين، حافظ نوعاً ما على وجود الأمة واستمراريتها، وإلّا فإن سفك الدماء، والقتل،

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣١٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٣١٣. النصائح الكافية، ص٩٥.

(٥) شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٣١٧.

والنهب، وانتهاك الأعراض، لم يكن يترك بيتاً من بيوت المسلمين إلَّا ووصل إليه.

والآن، ومستقبلاً، فإن أي أمة تسكت وتترك حبال السياسة على غاربها، هذه الأمة ليس فقط تُذل، ولكن مصيرها بلا شك هو الزوال والفساد، ولعل الهنود الحمر في أمريكا⁽¹⁾ هو مثال بسيط على ذلك، وهناك وقائع تاريخية كثيرة تؤكِّد هذه الحقيقة.

وإلى هنا تنتهي فترة حياة الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) الهنود الحمر، أو الهنود الأمريكان، اسم يطلق على السكان الأصليين للأمريكيتين، وذلك قبل أن يكتشفها كولومبس، وهو الذي أطلق هذا المسمى عليهم. وقد ظن خطأً أنه وصل إلى جزر الهند الشرقية عندما اكتشف العالم الجديد. والهنود الحمر هم أول من زرع التبغ، وأول من زرع الكاكاو الذي يصنع منه الشوكولاتة. دخل الهنود الحمر والحكومة الأمريكية صراع دام أربعمائة عام، ففي القرن التاسع عشر الميلادي واجه الهنود الحمر تدفق الملايين من الأسبان، طمعاً في الاستيلاء على أراضيهم والاستفادة من خيراتها، وينقل لنا التاريخ الأمريكي أن الحكومة الأمريكية لها اليد الطولى في دعم هذا الاستيطان، طمعًا في إبادة الأمريكين الأصليين (الهنود الحمر). وقد حمل هذا الاستيطان معه إلى أراضي الهنود الحمر الأمراض والأوبئة، حال دون مواجهة الحرب والصراعات القبلية التي أجَّجها هذا الاستيطان، حيث اضطر المحاربون من الهنود -دفاعاً منهم عن أراضيهم- إلى التراجع والاستسلام بسبب الإدمان على الشراب. وفي العام ١٨٩٠م، نهضت روح المقاومة لدى الهنود الحمر، بسبب الحركة الدينية التي عرفت بـ(رقصة الشبح)، فأعادت القوة القتالية والروحية التي تميّز بها الهنود الحمر، لكن الحكومة الأمريكية عدَّت هذه المقاومة بمنزلة التمرُّد، واعتقلت الحكومة زعيم الحركة، مما أدَّى إلى اندلاع معركة ضارية راح ضحيتها من الهنود قرابة ٣٧٠ هنديًّا، بمن فيهم الزعيم بيج فوت. وفي العام نفسه دعت الحكومة الأميركية لنزع السلاح. وأقامت مخيمات وطلبت منهم الاستسلام وتسليم أسلحتهم، وما لبث الأمر أن دارت معركة شرسة بينهم وبين الجنود من الحكومة. ومع ضغوط الحكومة على الهنود، وعلى مر السنين استسلم الهنود لهذه الإبادة التي قضت على الروح المعنوية والمادية والحضارية لهم، فعاشوا في جو القهر الوحشي المستمر عليهم من قبل الحكومة الأمريكية، وإلى الآن حيث تصوّر الثقافة الأمريكية الهنود الحمر قتلة ووحشيين ومناهضين للحضارة الإنسانية. انظر: المسيحية والسيف.. وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية (رواية شاهد عيان)، تأليف: المطران كازاس. فتح أمريكا. مسألة الآخر، للكاتب البلغاري تزفيتان تودوروف. الويلات المتحدة الأمريكية، لشادي عبد السلام. أمريكا والإبادة الثقافية، منير العكش.

صفو الكلام

* بسبب الخلافات الداخلية الواسعة في زمن عبدالملك بن مروان، أصبحت الدولة الإسلامية أشلاء شتى وكانت الاضطراب السياسية تعمُّ كل مكان. لذا برزت حركات عديدة ناشئة تسعى لتقويض الوضع القائم، كان من أبرزها:

ألف: حركة الخوارج، وقد تطوَّرت بقايا هذه الفئة إلى حزب نشط شكل المعارضة الساخنة ضد الأمويين، والحزب الأقوى بعد الحركة الرسالية.

باء: حركة الزبيريين، وسقطت بعد ٩ سنوات بسبب استبداد وديكتاتورية عبد الله، فقد كان مضطرب الرأي، شديد البخل، سيئ التدبير، صلف المعاملة. ورغم تمزق الوضع الإسلامي، إلّا أن حاميات الجيش الأموي في الشام التي حافظت على ولائها لبني أمية دحرت عبد الله بن الزبير وقضت على حركته.

جيم: حركة أهل المدينة (أو واقعة الحرة)، حيث تحرّك الفقهاء والصحابة والتابعون في المدينة ضد بني أمية لما رأوا ظلم يزيد وجوره وفسقه وانحرافه وقتله ابن بنت رسول الله. ولكنها كانت حركة عفوية غير مخططة، سرعان ماقضى عليها جيش الشام إلى جانب خيانة بني مروان.

البابُ الثاني، مَسيرةُ الحركةِ الرِّساليّةِ في العهدِ الأمويّ

الفَصلُ الرّابع، الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامينِ الصّادقينِ عليهما السلام

الحركةُ الزّيديّةُ.. مُنطلقاتُها وأهدافُها

الحركةُ الرِّساليّةُ بينَ زيدٍ والإمامينِ الصّادقينِ عليهما السلام

أبناءُ زيدٍ وامتدادُ الحركةِ الزّيديّةِ في التّاريخِ

سُقوطُ الدّولةِ الأمويّةِ وقِيامُ الدّولةِ العبّاسيّةِ

الحركة الزيدية.. منطلقاتها وأهدافها

استشهد الإمام زين العابدين عليه السلام(١) في المدينة المنورة وشاع النبأ، وغطَّت العالم الإسلامي سحابة حزن عميق، وأصبح الإمام الباقر عليه السلام إماماً شرعيًّا للأمة الإسلامية من بعد والده، وفي عهده وقعت أحداث ثورة زيد بن علي بن الحسين التي أحدثت في الحركة الرسالية تياراً جديداً هو تيار الزيدية.

فالزيدية حركة تُشبه، في رفضها للأنظمة وعدم مهادنتها لها، أكثر الحركات الإسلامية، ولكنها كانت أكثر تنظيماً ووعياً من باقي الحركات، لذلك فإن الحركات الأخرى انتهت قبل أن تنتهي الحركة الزيدية بوقت غير قليل.

وحركة الزيدية حكمت بلاداً كثيرة في العالم(٢)، وآخر تلك البلاد اليمن، وآخر من حكم بلاد اليمن من الزيدية -أو بالأحرى باسم الزيدية- هو الإمام سيف الإسلام البدر الذي تنحَّى عن السلطة بعد انقلاب عسكري قاده ضده عبدالله السلال(٣).

---

(١) على يد الوليد بن عبدالملك، دسَّ إليه السم عن طريق عامله على يثرب، وذلك عام ٩٥هـ. ومن المؤرخين من يقول: إن هشام بن عبدالملك هو الذي دسَّ السم إلى الإمام عليه السلام، وكان في ملك الوليد بن عبدالملك. راجع بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٥٢-١٥٣.

(٢) للوقوف على الحركة الزيدية ودولهم راجع بحوث في الملل والنحل، ج٧، للمحقق السبحاني.

(٣) الإمام محمد البدر بن حميد الدين، توفي الإمام البدر في عام ١٩٩٦م، بلندن ودفن في المدينة المنورة. هو آخر حكام المملكة المتوكلية في اليمن. التي حكمت اليمن من مطلع القرن الرابع

ماذا فعل زيد بن علي؟ وكيف تحوَّلت حركته إلى تيار اجتماعي؟.

يجب أن نتساءل عن ذلك ليس باعتبارنا مؤرّخين فقط، ولكن باعتبارنا نؤمن بالخط الرسالي، لذا علينا أن نعرف ما العلاقة بين حركة زيد بن علي والتيار الرسالي الأصيل في التاريخ؟ وهل الرساليون كانوا يدعمون حركة زيد أم لا؟.

زيد يخطط لحركته الرسالية

يبدو أن زيداً -وحسب تعبير المؤرخين (الإمام زيد)- بقي يخطط طويلاً لحركته، وهذا ما أظنه شخصيًّا، بيد أن مجموعة من المؤرخين يزعمون أن زيداً قام بحركته عفويًّا، وأصابته هفوة وزلة(١)، وبدوافع شخصية وآنية أيضاً، لكن هذا ما أُخطّئه، أما السبب في ذلك فهو عند الإحاطة بهذه النظرية نجد أن زيد بن علي كان يتَّصل بكافة الأحزاب السياسية التي كانت موجودة داخل الأمة الإسلامية حينها، فقد اتَّصل بالخوارج والمعتزلة والمرجئة(٢)، وهذه الاتصالات ليس كما يزعم بعض المؤرخين أنه كان يأخذ من المرجئة أو من المعتزلة أو حتى من الخوارج أفكارهم(٣)، وأنّ اتصاله بهؤلاء كان اتصال الآخذ وليس اتصال المعطي، واتصال المستوحي والتلميذ.

عشر الهجري وحتى عام ١٣٨٣هـ، وأول حاكم لها كان الإمام يحيى حميد الدين، وكان نظام الحكم فيها إسلامي يتبع المذهب الزيدي المنتشر في اليمن الشمالي، والحاكمة فيه، ودخلت الدولة المتوكلية في معارك ضد الاستعمار الإنجليزي في الجنوب اليمني. في عام ١٩٦٢م أطيح بالإمام محمد البدر، على يد عبدالله السلال [١٩١٧-١٩٩٤م]، الذي كان قائدًا للحرس الملكي بعد توليه السلطة خلفاً للإمام أحمد يحيى حميد الدين، ويعتبر عبدالله السلال أول رئيس للجمهورية اليمنية في الفترة ١٩٦٢-١٩٦٧م. (نقلاً عن موقع: ويكيبيديا)، وأنظر أيضاً: موقع رئاسة الجمهورية - المركز الوطني للمعلومات. www.yemen-nic.info.

(١) قال الذهبي: «بدت منه هفوة فاستشهد». تاريخ الإسلام، ج٨، ص١٠٥.

(٢) أنظر: الانتفاضات الشيعية، ص٣٦٥.

(٣) من الذين ذهبوا إلى هذه المغالطة الشهرستاني في الملل والنحل، ولقد تعرَّض المحقق الشيخ جعفر السبحاني لهذه التُّهم والمغالطات مناقشةً وتفنيداً في كتابه الخاص بالزيدية، ضمن موسوعة بحوث في الملل والنحل، ج٧. فراجع.

ولكن هل يمكن هذا وأبوه الإمام علي بن الحسين عليه السلام وبيتهم بيت الثورة؟. وقد كانت القيادة الروحية للأمة الإسلامية في كافة العصور لأهل البيت عليهم السلام.

روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال: «ما قاتل أحد عليًّا إلّا وعليٌّ أولى بِالحقِّ مِنْهُ، ولولا ما سار عليٌّ فيهم، ما علم أحدٌ كيف السّيرةُ في المُسلمين»(١).

هكذا كانت قلوب الأمة مع أهل البيت عليهم السلام، وهم القادة الحقيقيون لها، فكيف يمكن لزيد بن علي أن يأخذ الفكر والأيديولوجية من هذا وذاك؟!.

من هنا أعتقد أن اتصال زيد بالأحزاب والجبهات كان اتصال تخطيط تم بخطة مسبقة، إلَّا أن بعض الأحداث قد تستعجل الإنسان في القيام بخطته قبل أن تكتمل شروطها.

الظروف تستعجل زيداً

هناك حادثة استعجلت حركة زيد. فلقد ولّى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك(٢) على المدينة المنورة رجلًا متعصباً وعنيفاً(٣)، اتَّخذ طريق العنف ضد أهل البيت ومنهم زيد بن علي، ففكر زيد بأنّ أفضل طريقة لحل المشكلة هو الذهاب إلى الشام وإتمام الحجة على هشام.

وعندما وصل زيد إلى الشام لم يأذن هشام له بالدخول عليه، وهو يريد بذلك

---

(١) مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة، ج٢، ص٨٣.

(٢) ابن مروان [٧١-١٢٥هـ]، من ملوك الدولة الأموية في الشام. وصفه اليعقوبي (ج٢، ص٣٢٨) فقال: «كان هشام من أحزم بني أمية وأرجلهم، وكان بخيلًا، حسودًا، فظًّا، غليظًا، ظلومًا، شديد القسوة، بعيد الرحمة، طويل اللسان». ولذا قيل عنه: جمع من المال ما لم يجمعه خليفة قبله. كان شديد البغض للعلويين، هو الذي قتل الشهيد زيد بن علي، كما تعرَّض الإمام الباقر عليه السلام في عهده إلى ضروب من المحن والآلام. راجع: حياة الإمام الباقر.. دراسة تحليلية ج٢، ص٥٩.

(٣) كان الوالي في حينها، إبراهيم بن هشام، ثم عزله هشام وولي المدينة خالد بن عبدالملك بن الحارث بن الحكم. تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٩٠.

إذلالـه وثنيه عمّا جاء مـن أجله⁽¹⁾، فيرجع من حيث أتى. إلّا أن الهدف الذي ذهب زيـد مـن أجله إلى الشـام جعله يصـبر وينتظر ويكـرّر محاولـة لقاء هشـامٍ المرة تلو الأخرى⁽²⁾.

وفي هذا كثير من الإهانة بالنسـبة إلى رجل بمسـتوى زيد بـن علي، وهو آنئذٍ يعتبر شـيخ العلويين وعمره (٤٢ عاماً) قضاها في الزهد والعبادة، وكان حينما يقرأ القـرآن يبكـي، وإذا قُرئ القـرآن أمامه يبكـي، وكان معطاءً، فقد أعطـى أمواله في سـبيل الله مرات عديدة. فكان يُسمَّى بحليف القرآن⁽³⁾، وحليف المسجد⁽⁴⁾، وذي الثفنات⁽⁵⁾، كما كان يُسـمَّى أبوه من قبله. وكان عارفاً وعالماً وصدوقاً⁽⁶⁾. وقد ألّف كتبًا⁽⁷⁾. فهناك كتب تُنسب إلى زيد يعتمد عليها الزيدية إلى الآن⁽⁸⁾.

فالرجل لم يكن شخصاً عاديًّا، والإهانة التي وُجِّهت إليه كانت كبيرة، حيث مُنِع ولمـدة أربعين يوماً من الدخول على هشـام، ولكنه بإصراره دخل على هشـام، وكان هشام يحمل حقداً شخصيًّا تجاه الإمام علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وتجاه أولاده.

وقصه هشام معروفة حينما كان وليًّا للعهد عندما جاء إلى مكة المكرمة ورأى ازدحام الناس حول البيت، فلم يقدر على اسـتلام الحجر، بينما فُتِح الطريق للإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ وجاء الفرزدق وأنشـد أبياته المعروفة، هذه القصة التي ذهبت

---

(١) قصد زيد الشام للقاء هشام من أجل أن يرفع إليه شكاياته على ولاته وسوء معاملتهم له ولأهل المدينة. فلما علم هشام قصد زيد من لقائه، تعمَّد التهرُّب منه بقصد الإذلال. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٣٢. زيد الشهيد، العلامة المقرم، ص١٠٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج١٩، ص٤٧١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص١٨٦.

(٤) كفاية الأثر، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٥) مقاتل الطالبيين، ص١٢٦.

(٦) رجال الكشي، ص٣٥٣.

(٧) مستدركات علم رجال الحديث، ج٣، ص٤٨٠. فهرس التراث، ج١، ص١٢٩.

(٨) بحوث في الملل والنحل، ج٧، ص١١٩.

مثلاً وثورة ضد الطاغوت⁽¹⁾، لذلك فهو أصبح يحمل حقداً شخصيًا تجاه هذه الأسرة، ولهذا السبب لم يفسح المجال لزيد، فجاء زيد ورأى كل المقاعد مملوءة، فجلس حيث ينتهي به المجلس، ولكن زيداً -وهو الرجل الشجاع الذي اكتسب الشجاعة من أجداده ومن ممارساته في الحياة- وجّه خطابه إلى هشام، وقال: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِبَادِ الله أَحَدٌ فَوْقَ أَنْ يُوصى بِتَقْوَى الله، وَلَا مِنْ عِبَادِهِ أَحَدٌ دُونَ أَنْ يُوصِيَ بِتَقْوَى الله، وَأَنَا أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاتَّقِهِ.

فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ: أَنْتَ الْمُؤَهِّلُ نَفْسَكَ لِلْخِلَافَةِ الرَّاجِي لَهَا، وَمَا أَنْتَ وَذَاكَ لَا أُمَّ لَكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ أَمَةٍ.

فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَداً أَعْظَمَ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ، وَهُوَ ابْنُ أَمَةٍ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ يَقْصُرُ عَنْ مُنْتَهَى غَايَةٍ لَمْ يُبْعَثْ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَالنُّبُوَّةُ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله أَمِ الْخِلَافَةُ يَا هِشَامُ؟، وَبَعْدُ فَمَا يَقْصُرُ بِرَجُلٍ أَبُوهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وَهُوَ ابْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام⁽²⁾.

---

(١) جاء في بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٢٥: «حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْإِسْتِلَامِ مِنَ الزِّحَامِ، فَنُصِبَ لَهُ مِنْبَرٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَأَطَافَ بِهِ أَهْلُ الشَّام، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام وَعَلَيْهِ إِزَارٌ وَرِدَاءٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهاً وَأَطْيَبِهِمْ رَائِحَةً، بَيْنَ عَيْنَيْهِ سَجَّادَةٌ، كَأَنَّهَا رُكْبَةُ عَنْزٍ، فَجَعَلَ يَطُوفُ فَإِذَا بَلَغَ إِلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ تَنَحَّى النَّاسُ حَتَّى يَسْتَلِمَهُ هَيْبَةً لَهُ. فَقَالَ شَامِيٌّ: مَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟. فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ، لِئَلَّا يَرْغَبَ فِيهِ أَهْلُ الشَّام!. فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ، وَكَانَ حَاضِرًا: لَكِنِّي أَنَا أَعْرِفُهُ. فَقَالَ الشَّامِيُّ: مَنْ هُوَ يَا أَبَا فِرَاسٍ؟. فَأَنْشَأَ قَصِيدَته:

يَا سَائِلِي أَيْنَ حَلَّ الْجُودُ وَالْكَرَمُ عِنْدِي بَيَانٌ إِذَا طُلَّابُهُ قَدِمُوا
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

فَغَضِبَ هِشَامٌ وَمَنَعَ جَائِزَتَهُ، وَقَالَ: أَلا قُلْتَ فِينَا مِثْلَهَا!. قَالَ: هَاتِ جَدًّا كَجَدِّهِ، وَأَباً كَأَبِيهِ، وَأُمًّا كَأُمِّهِ حَتَّى أَقُولَ فِيكُمْ مِثْلَهَا. فَحَبَسُوهُ بِعُسْفَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَم، وَقَالَ: أَعْذِرْنَا يَا أَبَا فِرَاسٍ، فَلَوْ كَانَ عِنْدَنَا أَكْثَرُ مِنْ هَذَا لَوَصَلْنَاكَ بِهِ فَرَدَّهَا. وَقَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، مَا قُلْتُ الَّذِي قُلْتُ إِلَّا غَضَبًا لله وَلِرَسُولِهِ، وَمَا كُنْتُ لِأَرْزَأَ عَلَيْهِ شَيْئًا. فَرَدَّهَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: بِحَقِّي عَلَيْكَ لَمَّا قَبِلْتَهَا، فَقَدْ رَأَى اللهُ مَكَانَكَ، وَعَلِمَ نِيَّتَكَ فَقَبِلَهَا..».

(٢) مروج الذهب، ج٣، ص٢٠٧. وفي: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢١٠. باختلاف يسير.

فَوَثَبَ هِشَامٌ مِنْ مَجْلِسِهِ وَدَعَا قَهْرَمَانَهُ وَقَالَ: لَا يَبِيتَنَّ هَذَا فِي عَسْكَرِي(١).

فَخَرَجَ زَيْدٌ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَكْرَهْ قَوْمٌ قَطُّ حَرَّ السَّيْفِ إِلَّا ذَلُّوا»(٢).

ولم يقتصر هشام على إذلال زيد بهذه العملية، وانما ادَّعى أن أحد ولاته المعزولين، وهو خالد بن عبد الله القري، له في ذمة زيد ومحمد بن علي مال، ولأن خالداً كان مسجونًا فكان على زيد أن يذهب إليه في الكوفة ويمثل أمام القضاء هناك.

قال هشام: «فإنا باعثون بكم إليه يجمع بينكم وبينه»(٣).

أي إنه يريد إبعاث زيد ومحمد بن عمر بن علي إلى الوالي المعزول الذي يطالبهم بالمال حسب زعم هشام. وقد كان السبب في عزل هذا الوالي هو أن الخلفاء الأمويين كانت لهم عادة خاصة، فكل خليفة يعزل الولاة السابقين وينصب ولاة من أصحابه وأزلامه، وربما يُنكِّل بالولاة السابقين، كما نكَّل سليمان بن عبد الملك بأولاد الحجاج وأقاربه باعتباره كان والياً من قبل أخيه.

فالوالي السابق(٤) أُخِذ وغُلّ في السجن وعذَّبوه وطلبوا منه أن يدّعي على

---

(١) لما دخل زيد على هشام قال له: «فما يصنعُ أخوك البقرة؟. فغضب زيد، حتى كاد يخرج من إهابِه، ثم قال: سمّاه رسول الله ﷺ الباقر، وتسميه أنت البقرة؟. لَشَدَّ ما اختلفتما!، لتخالفنّه في الآخرة كما خالفته في الدنيا. فيرد الجنة، وترد النار. فقال هشام: خُذُوا بيد هذا الأحمق المائق فأخرجوه..». شرح النهج، ج٣، ص٢١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٨٦. وفي: الإرشاد، ج٢، ص١٧٣. مسند الإمام الشهيد عليه السلام، العطاردي، ج٣، ص٣٥٤. تيسير المطالب في أمالي أبي طالب، ص١٦٢: «**إِنَّهُ لَمْ يَكْرَهْ قَوْمٌ قَطُّ حَرَّ السُّيُوفِ إِلَّا ذَلُّوا**».

(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٦١. مقاتل الطالبيين، ص١٣٠. المنتظم، ج٧، ص٢٠٨.

(٤) خالد القسري، عزله هشام، وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وكانت بينهم عداوة وبغضاء، اتَّهمه يوسف باختلاس أموال الدولة، وعذَّبه عذابًا شديدًا، وبإيعاز من السلطة اتّهم القسري زيد بن علي، وقيل على لسانه بأنه أودع عند زيد ستمائة ألف درهم. طالع: الشهيد الخالد زيد بن علي، للقرشي، ص٢٤٠. و: زيد الشهيد، للمقرم، ص١١٦.

زيد بن علي مالاً، وأن يقول: إن له أمانة عند زيد بن علي وخانها فيه، حتى تُلوَّث بهذه الطريقة سمعة زيد.

وتحت التعذيب وافق هذا الوالي على ذلك، وادّعى عند جماعة قائلاً: إني أطلب زيد مالًا... ولكن زيدًا قال: ما لخالد عندي شيء.

فقال هشام: فلا بد من أن تشخص إلى يوسف بن عمر حتى يجمع بينك وبين خالد».

وهكذا أجبروا زيدًا على الرواح إلى الكوفة عند الوالي الجديد يوسف بن عمر، فجيء بالوالي القديم المعزول وعليه حديد ثقيل، فقال له يوسف: هذا زيد بن علي، فاذكر ما لك عنده!.

فقال: والله الذي لا إله إلّا هو ما لي عنده قليل ولا كثير، ولا أردتم بإحضاره إلّا ظلمه. فانقلبت الآية على بني أمية. فأقبل يوسف على زيد، و قال له: إن أمير المؤمنين أمرني أن أخرجك من الكوفة ساعة قدومك.

قال زيد: فأستريح ثلاثًا، ثم أخرج.

قال: ما إلى ذلك سبيل.

قال: فيومي هذا.

قال: ولا ساعة واحدة.

فأُجبر على الخروج، ومشت معه سرية من الحرس حتى يأخذوه إلى خارج الكوفة(١).

زيد يتخذ من الكوفة منطلقاً لثورته

ولكن زيداً وبذكاء وحكمة، لما رجع الجنود الذين رافقوه، وبعد مضي يوم

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٢٥-٣٢٦.

رجع إلى الكوفة مرة ثانية خفية واتَّصل بجماعته[١]، وأرسل بعض أفراده إلى المدائن، والبصرة، وخراسـان، وأهل المدينة[٢]. ولكي نتعرف إلى أهداف حركة زيد بن علي عليه السلام، نسـتعرض هنا إحـدى خطبه التي ألقاها على أنصـاره قُبيل انطلاق حركته، حيث جاء فيها: «.. أُذَكِّرُكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ لِدَعْوَتِهِ ﷺ -الْمُتَفَهِّمُونَ مَقَالَتَنَا- بِاللهِ الْعَظِيـمِ الَّـذِي لَمْ يَذْكُرِ الْمُذَكِّـرُونَ بِمِثْلِهِ، إِذَا ذَكَرْتُمُـوهُ وَجِلَتْ قُلُوبُكُمْ، وَاقْشَـعَرَّتْ لِذَلِـكَ جُلُودُكُمْ، أَلَسْـتُمْ تَعْلَمُـونَ أَنَّا وُلْدُ نَبِيِّكُـمُ الْمَظْلُومُونَ الْمَقْهُورُونَ، فَلَا سَـهْمٌ وُفِّينَـا، وَلَا تُرَاثٌ أُعْطِينَا، وَمَا زَالَـتْ بُيُوتُنَا تُهْدَمُ، وَحَرَمُتُنا تُنْتَهَـكُ، وَقَائِلُنَا يُعْرَفُ، يُولَدُ مَوْلُودُنَا فِي الْخَوْفِ، وَيَنْشَأُ نَاشِئُنَا بِالْقَهْرِ، وَيَمُوتُ مَيِّتُنَا بِالذُّلِّ.

وَيْحَكُـمْ؛ إِنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ جِهَادَ أَهْـلِ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ مِنْ أُمَّتِكُمْ عَلَى بَغْيِهِـمْ، وَفَـرَضَ نُصْرَةَ أَوْلِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَى اللهِ وَإِلَى كِتَابِـهِ، قَالَ: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾.

وَيْحَكُمْ؛ إِنَّا قَوْمٌ غَضِبْنَا للهِ رَبِّنَا، وَنَقِمْنَا الْجَوْرَ الْمَعْمُولَ بِهِ فِي أَهْلِ مِلَّتِنَا، وَوَضَعْنَا مَـنْ تَوَارَثَ الْإِمَامَـةَ وَالْخِلَافَةَ. وَيَحْكُمُ [حكَمَ] بِالْهَوَاءِ وَنَقَضَ الْعَهْدَ وَصَلَّى الصَّلَاةَ لِغَيْرِ وَقْتِهَا وَأَخَذَ الزَّكَاةَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا، وَدَفَعَهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، وَنَسَكَ الْمَنَاسِكَ بِغَيْرِ هَدْيِهَـا، وَأَزَالَ الْأَفْيَـاءَ، وَالْأَخْمَـاسَ، وَالْغَنَائِـمَ، وَمَنَعَهَـا الْفُقَرَاءَ، وَالْمَسَـاكِينَ، وَابْنَ السَّـبِيلِ، وَعَطَّلَ الْحُدُودَ، وَأَخَذَ بِهَا الْجَزِيلَ، وَحَكَمَ بِالرِّشَـا، وَالشَّفَاعَاتِ، وَالْمَنَازِلِ، وَقَرَّبَ الْفَاسِـقِينَ، وَمَثَّلَ بِالصَّالِحِينَ، وَاسْتَعْمَلَ الْخِيَانَةَ، وَخَوَّنَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ، وَسَلَّطَ الْمَجُـوسَ، وَجَهَّزَ الْجُيُوشَ، وَخَلَّـدَ فِي الْمَحَابِسِ، وَجَلَدَ الْمُبِينَ!!. وَقَتَـلَ الْوَالِدَ، وَأَمَرَ بِالْمُنْكَـرِ، وَنَهَـى عَـنِ الْمَعْرُوفِ، بِغَيْرِ مَأْخُـوذٍ عَنْ كِتَابِ اللهِ، وَلَا سُـنَّةِ نَبِيِّـهِ. ثُمَّ يَزْعُمُ

---

(١) اختلفت المصادر التاريخية في عدد المبايعين لزيد، قال في الفخري، ص١٣٢: «خمسة عشر ألفًا من أهل الكوفة»، ومثله تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص١٢٣، لكنه قال: وقيل: «أربعون». وأضاف في أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٧: «ويقال: اثنا عشر ألفًا من أهل الكوفة». كما ذكرت جملة من المصادر أسماء عدد من الذين بايعو زيدًا، وللإفادة يمكن الرجوع إليها منها: الروض النضير، ج١، للسياغي. وبحوث في الملل والنحل، ج٧. والشهيد الخالد زيد بن علي، للقرشي.

(٢) الفخري، ص١٣٢. مقاتل الطالبيين، ص١٤٢. أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٧.

زَاعِمُكُمْ أَنَّ الله اسْتَخْلَفَهُ، يَحْكُمُ بِخِلَافِهِ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَيَنْتَهِكُ مَحَارِمَهُ، وَيَقْتُلُ مَنْ دَعَا إِلَى أَمْرِهِ، فَمَنْ أَشَرُّ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا، أَوْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ، أَوْ بَغَاهُ عِوَجًا، وَمَنْ أَعْظَمُ عِنْدَ الله أَجْراً مِمَّنْ أَطَاعَهُ، وَآذَنَ بِأَمْرِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، وَسَارَعَ فِي الْجِهَادِ، وَمَنْ أَحْقَرُ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً، مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ بِغَيْرِ ذَلِكَ يَمُنُّ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ ذَلِكَ اسْتِخْفَافاً بِحَقِّهِ وَتَهَاوُنًا فِي أَمْرِ الله، وَإِيثَاراً لِلدُّنْيَا، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صالحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١)»(٢).

وكما ذكرنا سابقاً: إن زيداً كان مخططاً لثورته، ومن ذلك اتصالاته مع جماعات شتى من أرجاء البلاد الإسلامية(٣) من سائر الحركات الإسلامية، ويدلّ عليه قول هشام: «أَنْتَ الْمُؤَهِّلُ نَفْسَكَ لِلْخِلَافَةِ الرَّاجِي لَهَا..»(٤). حيث يثبت أن زيداً كان يخطط لثورته. ثم إن هذه المسرحية التي لعبها النظام مع زيد تدل على أنه كان يخطط لعمله منذ عهد بعيد.

انطلاق الثورة

بعد أن جعل زيد ساعة الصفر للثورة ليلة أول صفر ١٢٢هـ(٥)، وكانت خطته أن يقوم الثوار في موعد واحد في كل من البصرة والمدائن والكوفة، وتزحف الجيوش على الكوفة وتستولي عليها، ثم تزحف على الشام.

لكن يبدو أن أهل الكوفة كانوا ضعاف النفوس، وأن عيون بني أمية كانت تراقبهم.

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٣) كتب زيد إلى أهل الآفاق كتبًا يصف فيها جور بني أمية وسوء سيرتهم ويحضهم على الجهاد، ويدعوهم إليه، وقال: «لا تقولوا: خرجنا غضبًا لكم، ولكن قولوا: خرجنا غضبًا لله ودينه». أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٨.

(٤) مروج الذهب، ج٣، ص٢٠٧.

(٥) عيوان أخبار الرضا، ص٢٥٢، وفيه: «قد خرج يوم الأربعاء غرة صفر، فمكث الأربعاء والخميس وقتل يوم الجمعة». تاريخ الأمم والملوك، ج٧، أحداث سنة ١٢٢هـ.

الوالي يعلن الاستنفار

ولقد سعى رجلٌ من أتباع بني أمية وكتب -فيما ذكر- إلى هشام، يذكر له أمر زيد، فكتب هشام إلى يوسف (بن عمر عامله في العراق) يشتمه ويجهله، ويقول: «إنك لغافل، وزيد غارز ذنبه بالكوفة يبايع له فالحح في طلبه، فأعطه الأمان فإن لم يقبل فقاتلة»(١).

فأعلن الوالي الاستنفار العام في جيشه، وأرسل إلى جيش الشام للاستعداد، وجمع الناس في المسجد، وأغلق الأبواب عليهم، حتى لا تستطيع جماعة زيد القيام بالثورة.

يقول الطبري في تاريخه: «بعث (يوسف بن عمر) إلى الحكم بن الصلت، فأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرهم فيه، فبعث الحكم إلى العرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة، فأدخلهم المسجد، ثم نادى مناديه: ألا إن الأمير يقول: من أدركناهُ في رحله فقد برئت منه الذمة، ادخلوا المسجد الأعظم. فأتى الناس المسجد يوم الثلاثاء قبل خروج زيد بيوم، وطلبوا زيداً في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، فخرج ليلًا، وذلك ليله الأربعاء، في ليله شديده البرد، من دار معاوية بن إسحاق..»(٢).

ولمّا خرج في ٢٣ محرم كان أنصاره في المدائن والبصرة والحيرة وغيرها ينتظرون ساعة الصفر، فإذا بهم يسمعون بأن زيداً قد خرج واستشهد.

خرج زيد بن علي في الكوفة وقاتل في منطقة واسعة، كان في جانب منها جيش الشام والقبائل التي تؤيِّد الشام، وفي الجانب الآخر كانت القبائل التي تؤيِّد الخط الرسالي، وكانت هناك منطقة قاحلة تُسمَّى (كنانة) وأخذ يحاربهم. وقد فوجئ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٨. البداية والنهاية، ج٩، ص٣٣١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨١-١٨٢. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص١٢٤. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٤٣. مقاتل الطالبيين، ص١٣٢.

بأن الذين وعدوه بالنصرة كانوا أربعة آلاف، بينما الذين يقاتلون معه لا يتجاوزون الخمسمائة(١): «وأصبح زيد بن علي، فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتي رجل، وثمانية عشر رجلًا. فقال زيد: سبحان الله!. أين الناس؟. فقيل له: هم في المسجد الأعظم محصورون. فقال: لا والله ما هذا لمن بايعنا بعذر»(٢).

المهم.. إنّ الوالي أغلق أبواب المسجد على الناس ووضع سرية حول المسجد فهزمها زيد ووصلت طليعة جيشه إلى المسجد فرأته مغلقاً، فصعدوا على جدار المسجد وصاحوا بأعلى أصواتهم: «يا أهل المسجد، اخرجوا. وجعل نصر بن خزيمة يناديهم، ويقول: يا أهل الكوفه، اخرجوا من الذل إلى العز، اخرجوا إلى الدين والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا دنيا»(٣). ولكنهم لم يحركوا ساكناً.

وحميت المعركة بين جيش زيد والجيش الأموي، ودخلت حاميات جيش الشام في المعركة «وخرج زيد في أصحابه، وعلى مجنبتيه نصر بن خزيمة العبسى ومعاويه بن إسحاق الأنصاري، فلما رآهم العباس- و لم يكن معه رجال- نادى: يا أهل الشام، الأرض والأرض! فنزل ناس كثير ممَّن معه، فاقتتلوا قتالًا شديدًا في المعركة.

وقد كان رجل من أهل الشام من بني عبس، يقال له: نائل بن فروة، قال ليوسف بن عمر: والله لئن أنا ملأت عيني من نصر بن خزيمة لأقتلنه أو ليقتلني.. فلما التقى أصحاب العباس بن سعيد وأصحاب زيد واقتتلوا، بصر نائل بن فروة بنصر بن خزيمة، فأقبل نحوه، فضرب نصرًا، فقطع فخذه، وضربه نصر ضربة فقتله، فلم يلبث نصر أن مات، واقتتلوا قتالاً شديداً.

---

(١) وقد ذكر بعض أهل الكوفة أنه اجتمع إلى زيد أربعة آلاف فلم يصبح إلاَّ وهو في ثلاثمائة أو أقل منها!. أنساب الأشراف،ج٣، ص٢٤٤. وفي مقاتل الطالبيين، ص١٣٦: «قال سعيد بن خيثم: وكنا مع زيد في خمسمائة، وأهل الشام اثنا عشر ألفا».

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٣. مقاتل الطالبيين، ص١٣٤.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٥. أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٤٧. الفتوح، ج٨، ص٢٩١. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٤٥. مقاتل الطالبيين، ص١٣٥.

ثم إن زيد بن علي هزمهم وقتل من أهل الشام نحوًا من سبعين رجلًا، فانصرفوا وهم بشَرِّ حالٍ، وقد كان العباس بن سعيد نادى في أصحابه أن اركبوا، فإن الخيل لا تطيق الرجال في المضيق فركبوا، فلما كان العشى عبَّأهم يوسف بن عمر ثم سرحهم، فأقبلوا حتى التقوا هم وأصحاب زيد، فحمل عليهم زيد في أصحابه فكشفهم، ثم تبعهم حتى أخرجهم إلى السبخة، ثم شدَّ عليهم بالسبخة حتى أخرجهم إلى بني سليم، ثم تبعهم في خيله ورجاله، حتى أخذوا على المسناة. ثم إن زيدًا ظهر لهم فيما بين بارق ورؤاس، فقاتلهم هنالك قتالاً شديدًا»⁽¹⁾.

وربما كانت المعركة تطول أكثر لولا أن الوالي فكَّر في طريقة معينة، لقد فكر أن زيداً وجماعته شجعان بالرغم من أنهم فرقة قليلة، وإذا حاربوا بالسيوف فإنهم سيُبيدون جيش الشام في الكوفة، فأمر جماعته أن يحاربوهم بالنبال، والسبب أن صاحب النبل بعيد، ويستطيع أن يضرب بشكل أكبر وبخسارة أقل، فبالتالي الكثرة تغلب الشجاعة، كما جاء في المثل.

«فبعث العباس إلى يوسف بن عمر يعلمه ذلك، فقال له: إبعث إليّ الناشبة. فبعث إليهم سليمان بن كيسان الكلبي في القيقانية والبخارية، وهم ناشبة، فجعلوا يرمون زيدًا وأصحابه، وكان زيد حريصًا على أن يصرفهم حين انتهوا إلى السبخة، فأبوا عليه، فقاتل معاوية بن إسحاق الأنصاري بين يدي زيد بن علي قتالًا شديدًا، فقتل بين يديه..»⁽²⁾.

وقد نجحت هذه الطريقة، وإذا بالنبال تأتي من جميع الأطراف من على السطوح والمنازل والنخيل على زيد وأنصاره، يقول الطبري: «وثبت زيد بن علي ومن معه حتى إذا جنح الليل رُمي بسهمٍ فأصاب جانب جبهته اليُسرى، فتشبث في الدماغ، فرجع ورجع أصحابه..»⁽³⁾.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٥. تجارب الأمم، ج٣، ص١٤٦.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٦.
(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٦. الفتوح، ج٨، ص٢٩٢.

ولما أصيب زيد انهزمت جماعته: «قال أبو مخنف: فحدّثني سلمة بن ثابت، وكان من أصحاب زيد، وكان آخر من انصرف عنه هو وغلام لمعاوية بن إسحاق، قال: أقبلت أنا وأصحابي نقتفي أثر زيد فنجده قد دخل بيت حرّان بن أبي كريمة في سكة البريد في دور أرحب وشاكر، فدخلت عليه، فقلت له: جعلني الله فداك أبا الحسين، وانطلق ناس من أصحابه فجاؤوا بطبيب يقال له: سفيان مولى لبني دواس، فقال له: إنك إن نزعته من رأسك مُتَّ.

قال زيد: الموت أيسر عليَّ مما أنا فيه.

قال: فأخذ الكلبتين فانتزعه، فساعة انتزاعه مات عليه السلام»(١).

وأخذوا زيدًا وحاروا في أي مكان يدفنونه، فأجمعوا على دفنه تحت النهر وبعدها يُجرون عليه الماء، وبهذه الطريقة لا يُمكن اكتشافه(٢).

ودفنوه في ذلك المكان الذي يُعتبر حاليًّا قبر(٣) زيد. إلاَّ أنه ليس لزيد قبر في الحقيقة، لأنه أُخرج وصُلب لمدة أربع سنوات(٤). ثم أُنزل وأُحرق ودُقَّ جسمه بالهاون ثم ذُري في الرياح(٥). وهكذا أُصيبت حركة زيد بضربة قاصمة، كل ذلك

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص١٣٧.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص١٣٨.

(٣) يقع في الشرق الجنوبي لقرية الكفل (تقع بين بابل والنجف وكربلاء جنوب العراق قرب نهر الفرات) يبعد حوالي حدود الفرسخين عنه، وهذا المشهد هو موضع دفنه. مراقد المعارف، ج١، ص٣٢١. وقال الجلالي في مزارات أهل البيت عليهم السلام، ص٨٧: «مرقده وآل الحسن في الهاشمية عند قبائل الخفاجة اليوم، وكانت قبورهم في بنية واحدة مستطيلة تعرف بالقبور السبعة». وذهب البعض -منهم الحموي في معجمه-، إلى أن رأسه دفن بمصر، حيث حمل رأسه فطيف به الشام، ثم حمل إلى مصر ودفن هناك. وقيل: إن والي مصر حنظلة بن صفوان هو الذي دفن الرأس الشريف بالمكان الذي يُعرف الآن بمشهد الرأس بحي زين العابدين بالقاهرة. أنظر: أهل البيت في مصر.

(٤) قال الصفدي في الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٢٢: «ولم يزل مصلوبًا إلى سنة ست وعشرين، ثم أنزل بعد أربع سنين من صلبه».

(٥) مقاتل الطالبيين، ص١٣٩. الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٢٢.

لأنه سبق الموعد الذي اتّفق فيه مع أنصاره.

رُوِيَ عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ قَالَ: «دَخَلْتُ إِلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقَالَ لِي: **يَا حَمْزَةُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟**. قُلْتُ: مِنَ الْكُوفَةِ. قَالَ فَبَكَى عليه السلام حَتَّى بَلَّتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، مَا لَكَ أَكْثَرْتَ الْبُكَاءَ؟!.

فَقَالَ عليه السلام: **ذَكَرْتُ عَمِّي زَيْداً عليه السلام، وَمَا صُنِعَ بِهِ فَبَكَيْتُ.**

فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الَّذِي ذَكَرْتَ مِنْهُ؟!. فَقَالَ عليه السلام: **ذَكَرْتُ مَقْتَلَهُ وَقَدْ أَصَابَ جَبِينَهُ سَهْمٌ فَجَاءَهُ ابْنُهُ يَحْيَى فَانْكَبَّ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: أَبْشِرْ يَا أَبَتَاهْ فَإِنَّكَ تَرِدُ عَلَى رَسُولِ الله وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهم السلام، قَالَ: أَجَلْ يَا بُنَيَّ؛ ثُمَّ دَعَا بِحَدَّادٍ فَنَزَعَ السَّهْمَ مِنْ جَبِينِهِ، فَكَانَتْ نَفْسُهُ مَعَهُ فَجِيءَ بِهِ إِلَى سَاقِيَةٍ تَجْرِي عِنْدَ بُسْتَانٍ زَائِدَةٍ فَحُفِرَ لَهُ فِيهَا وَدُفِنَ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الْمَاءُ، وَكَانَ مَعَهُمْ غُلَامٌ سِنْدِيٌّ لِبَعْضِهِمْ فَذَهَبَ إِلَى يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ مِنَ الْغَدِ فَأَخْبَرَهُ بِدَفْنِهِمْ إِيَّاهُ، فَأَخْرَجَهُ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ فَصَلَبَهُ فِي الْكُنَاسَةِ أَرْبَعَ سِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ وَذُرِيَ فِي الرِّيَاحِ، فَلَعَنَ اللهُ قَاتِلَهُ وَخَاذِلَهُ، وَإِلَى الله جَلَّ اسْمُهُ أَشْكُو مَا نَزَلَ بِنَا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَ بِهِ نَسْتَعِينُ عَلَى عَدُوِّنَا، وَهُوَ خَيْرُ مُسْتَعَانٍ**»(١).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٧٢.

صفو الكلام

* بعد استشهاد الإمام زين العابدين وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام، وقعت أحداث ثورة زيد بن علي بن الحسين التي أحدثت تيار الزيدية في الحركة الرسالية.

* وكانت الحركة الزيدية أكثر تنظيماً ووعياً من باقي الحركات الإسلامية.

* ونحن نرى أن حركة زيد بن علي لم تكن حركة عفوية وبدوافع شخصية وآنية، كما يقول البعض، بل إن زيداً خطَّط لها، واتَّصل من أجل ذلك بكافة الحركات والأحزاب السياسية الموجودة يومذاك في الأمة، وكان اتِّصاله بهدف العطاء وليس الأخذ. وقد أرسل بعض أفراده إلى المدائن والبصرة وخراسان وأهل المدينة.

* ولكن بعض الأحداث دفعت بزيد للاستعجال بإعلان الثورة قبل الموعد المتفق عليه بين الكوفة والمدائن والبصرة، الأمر الذي أدَّى إلى تحركه في الكوفة قبل الجماعات الأخرى، مما أدَّى إلى إخفاق الحركة واستشهاده عليه السلام.

٩

الحركة الرسالية بين زيد والإمامين الصادقين عليهما السلام

في الفصل الماضي كنّا مع زيد بن علي حينما خرج من الشام إلى العراق، فجمع الأنصار وحارب الأعداء وأصيب بسهم واستشهد.

وفي هذا الفصل نحاول البحث عن علاقة زيد بالأئمة المعصومين عليهم السلام، ما يستدعي بيان جانبٍ من حياة الإمام الباقر عليه السلام الذي عاصر مرحلة الإعداد لثورة زيد، والذي نرجوه هنا أن يتعرَّف كل رسالي إلى حياة الإمام الباقر عليه السلام باعتباره قدوة يجب اتّباعه، ولا يتحقّق ذلك إلّا بعد التعرف إلى الخطوط العريضة لسيرته.

ماذا عمل الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في حياته؟.

للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نُبيِّن أن كل إصلاح وتغيير في المجتمع بحاجة -على الأقل- إلى ثلاثة أركان، وهي:

١- الخلفية الروحية (بعث الروح).
٢- الخلفية الثقافية (إثارة العقل).
٣- التفجير الثوري (تعبئة الطاقات).

وهذه الأركان تأتي قبل الانتصار، وهناك أركان تأتي بعده، من جملتها وضع البرامج الواضحة للإصلاح والتغيير.

الخلفية الثقافية والإحساس بالحاجة إلى الثورة

حين تقوم بأي عمل فلا بد من الإحساس بالحاجة إليه، فلو لم تكن الحاجة النفسية موجودة لما قام الإنسان بأي عمل في الحياة.

مثلاً لو لم تكن هناك حاجة إلى المسكن لما بُنيت البيوت، ولو لم تكن هناك حاجة إلى النقل والانتقال لما كانت السيارات والشوارع المعبَّدة.

إن الحاجة تدفعك إلى القيام بعمل ما، وإذا لم يكن لدى أمة من الأمم إحساس نفسي بضرورة الإصلاح والنهوض، فإنه من غير الممكن، بل من المستحيل، دفع هذه الأمة نحو الإصلاح والعمل، أو التضحية في سبيله، وخصوصاً أن الإصلاح بحاجة إلى تضحيات كبيرة وإلى نكران الذات، ممَّا لا يُقدم عليه الفرد الذي لا يشعر بالحاجة إلى الإصلاح ولا يتطلَّع نحو تحقيقه.

ويبقى سؤال: كيف يمكن إيجاد روح التطلُّع نحو الإصلاح والنهوض في أمة من الأمم؟.

يمكن ذلك بإيجاد روح الثورة في هذه الأمة، ونعني بذلك معرفة أهمية الإصلاح وضرورته، وبعث الأمل في النفوس بإمكانية النهوض، وذلك عبر إعطاء التطلُّع والهمَّة العالية لتحقيقه، وهذا يُسمَّى بعث الروح في الأمة.

قد ترى أنّ شعباً من الشعوب يبقى ٤٠٠ عام يرزح تحت نير الاستعمار، فيُقتل، وتُنهب أمواله وثرواته، ويُستعبد، ويظل هذا الشعب مستسلماً لمستعبديه وغاصبيه.

وبعدئذٍ يأتي من يبعث فيه الروح، وقد لا يقول لهم شيئاً إلَّا كلمة واحدة، أيها الشعب انتفض، تحرَّك، ثر، انهض.

فإذا بهذا الشعب يثور ويتحوَّل إلى مِرجل، وإذا بالاستعمار يُلملم أمتعته

ويرحل، كما حدث بالنسبة للشعب الهندي(١) والشعب الصيني(٢)، وكما حدث تاريخيًّا للشعب العربي حينما جاء نبينا صلى الله عليه وآله وبعث فيه روحاً دفعته إلى القيام والنهوض، فإذا بأولئك الحفاة الذين كان يقتل بعضهم بعضاً، أصبحوا سادة العالم. وإذا بشاب تربَّى بتربيتهم (طارق بن زياد(٣)) يقدم على بلد من أجمل بلاد العالم وأقواها وهي الأندلس القديمة ويفتحها، وكان الجيش الإسلامي حينها لا يمتلك إلَّا الأسلحة الخفيفة حسب مفاهيمنا الحاضرة.

والسبب في انتصار هذا الجيش هو امتلاؤه بالروح المتصلة بالسماء. تلك الروح التي دفعته للفتوحات الهائلة. وبالتالي، أيّ ثورة إصلاحية بحاجة إلى هذه الروح، وبعد ذلك تحتاج إلى ثقافة ثورية متكاملة تدعم تلك الثورة. فلو لم تكن لدى الشعب ثقافة ثورية متكاملة، وكانت مكانها ثقافة الاستعباد والاستغلال لكانت الروح وحدها لا تغني شيئاً.

فلو اعتقد شعب بكامله، كالشعب الهندي مثلاً، أن الرجل الأبيض خير من الرجل الأسمر، أترى هل كانت صيحات غاندي(٤) تستطيع أن تحرك هذا الشعب؟

---

(١) من خلال العصيان المدني اللاعنفي، قاد غاندي الهند إلى الاستقلال، وذلك بعد كفاح المجتمع الهندي المناضل من أجل الحقوق المدنية، قام بتنظيم احتجاجات من قِبل الفلاحين والمزارعين والعمال في المناطق الحضرية ضد ضرائب الأراضي المفرطة والتمييز في المعاملة من قِبل البريطانيين، بعدها بدأت قصة الكفاح الطويل والذي تميَّز على نطاق واسع بالمقاومة غير العنفية حتى أصبحت الهند دولة مستقلة في عام ١٩٤٧م. عن: الموسوعة الحرة.

(٢) في عام ١٩١١م، وبعد أكثر من ألفي عام من الحكم الإمبراطوري للصين، تأسست جمهورية الصين، بعد أن قامت جماعة من الثوار بالإطاحة بالنظام الحاكم والبلاط الإمبراطوري لسلالة (تشينغ) الحاكمة، التي ظلَّت لمدة قرن كامل قبل هذا التاريخ تعاني من الثورات الداخلية، والتحكم الدولي في شؤونها الداخلية من قبل الإمبراطوريات الأخرى. عن: الموسوعة الحرة.

(٣) طارق بن زياد الليثي [٥٠-١٠١هـ]، قائد عسكري، من أهم معاركه فتح الأندلس، وقاد أول الجيوش الإسلامية التي دخلت شبه جزيرة أيبيريا، ويحمل اسمه جبل طارق بجنوب إسبانيا. الأعلام، ج٣، ص٢١٧. تاريخ الإسلام، ج٦، ص٣٩٣. الكامل في التاريخ، ج٤، ص٥٤٠.

(٤) المهاتما غاندي (مهنداس كارامشاند) [١٨٦٩ -١٩٤٨م]. زعيم روحي هندي، رائد وقائد حركة الاستقلال في الهند (الستيا جراها) وهي مقاومة الاستبداد السياسي والاجتماعي من خلال العصيان المدني الشامل، والتي أدت إلى استقلال الهند، وألهمت الكثير من حركات

كلَّا.. لأن مثل هذا الاعتقاد لا يدعه يتحرك.

فإذا أردنا الإصلاح والتغير فإننا بحاجة إلى ثقافة ثورية متكاملة تدعم عقيدة الإصلاح. ثم تحتاج العملية إلى تعبئة الطاقات وتفجير الثورة.

بعد هذه المقدمة نلاحظ أن دور الإمام زين العابدين عليه السلام في الحركة الرسالية كان بعث الروح الإصلاحية الثورية في المسلمين. وكان دور الإمام الباقر عليه السلام هو إعطاء فكرة متكاملة عن الإصلاح الاجتماعي للأمة الإسلامية.

فالإمام زين العابدين قام ببعث روح الجهاد، بينما نجد الإمام الباقر عليه السلام يطرح الخلفية الفكرية والثقافية لتأجيج هذه الروح. فماذا عمل الإمام الباقر عليه السلام خلال العشرين عاماً من عمره، بعد أن استلم مقاليد الإمامة من والده الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

لقد سُمّيَ الإمامُ بالباقر لأنه بقر العلم، وقد قال جابر[١]: «رَوَيْتُ خَمْسِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ..»، وفي رواية أخرى: «تِسْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ»[٢]. وكما سمع منه عليه السلام محمد بن مسلم[٣]

الحقوق المدنية والحرية في جميع أنحاء العالم. أنظر (مهاتما غاندي) سيرته كما كتبها بقلمه وترجمها للعربية: إسماعيل مظهر. الصادر عام ١٩٣٤م.

(١) جابر بن يزيد الجعفي، ثقة، تابعي عده البرقي في أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام. انظر: معجم رجال الحديث، ج٤، ص١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٦٩. باب (١٢) النهي عن كتمان العلم.

(٣) محمد بن مسلم بن رياح [ت: ١٥٠هـ]، قال عنه النجاشي: «محمد بن مسلم بن رياح أبو جعفر الأوقص الطحان، مولى ثقيف الأعور: وجه أصحابنا بالكوفة، فقيه، ورع، صحب أبا جعفر عليه السلام، وأبا عبد الله عليه السلام، وروى عنهما، وكان من أوثق الناس، له كتاب يسمَّى الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. وعدَّه الشيخ المفيد في رسالته العددية من الفقهاء، والأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام، والفتيا والأحكام الذين لا يُطعن عليهم، ولا طريق إلى ذم واحد منهم». قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا أَحَدٌ أَحْيَا ذِكْرَنَا، وَأَحَادِيثَ أَبِي، إِلَّا زُرَارَةُ، وَأَبُو بَصِيرٍ الْمُرَادِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَبُرَيْدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، وَلَوْلَا هَؤُلَاءِ مَا كَانَ أَحَدٌ يَسْتَنْبِطُ هُدًى، هَؤُلَاءِ حُفَّاظُ الدِّينِ، وَأُمَنَاءُ أَبِي عَلَى حَلَالِ اللهِ وَحَرَامِهِ وَهُمُ السَّابِقُونَ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ**». معجم رجال الحديث، ج١٨، ص٢٦١.

ثلاثين ألف حديث(١).

ونحن نتساءل: هل كانت أحاديث الإمام الباقر عليه السلام حول مسائل الطهارة والنجاسة فقط؟.

بالطبع ليس من المناسب لبيت النبوة ومهبط الوحي أن يشغل نفسه بقضية جزئية كقضية الطهارة والنجاسة فقط، وإنما مثل هذه المسائل كانت لا تشكل إلَّا جزءاً بسيطاً من المنظومة الفكرية التي اضطلعوا برسم معالمها وفقاً لنور الرسالة المحمدية.

وبإجماع المؤرخين فإن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام هو الذي طرح نظرية الإمامة الإسلامية بشكل متكامل(٢). بمعنى أنه بَيَّن للأمة الإسلامية كيف يجب أن تكون القيادة الإسلامية؟. ومن هو الإمام؟. ولماذا الحاجة إلى الإمام؟. وما هي وظيفة ومسؤولية الإمام؟.

علم الإمام الباقر لسعادة الإنسانية

إنَّ العلم الذي بقره الإمام بقراً، هو ذلك العلم الذي يحتاج إليه الإنسان، وهو الذي من أجله بعث الله الأنبياء وأرسل الرسل عليهم السلام.

إن العلم المطلوب هو العلم الذي يُبيِّن كيف يمكن للإنسان أن يصلح نفسه ومجتمعه، لذلك لم يأتِ الأنبياء بعلم فلق الذرة وصنع الصاروخ، وكيفية بعث مركبة فضائية إلى المريخ، بل شغلوا أنفسهم بإصلاح الناس، وإثارة المحرومين ضد الضالين، وإعطائهم طرق وكيفيات العمل والتحرك في مواجهة المفسدين والمستكبرين في الأرض؟.

---

(١) قَالَ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ: «مَا شَجَرَ فِي رَأْيِي شَيْءٌ قَطُّ، إِلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام حَتَّى سَأَلْتُهُ عَنْ ثَلاَثِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ..». بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٩٢.

(٢) انظر الكافي، ج١، ص٢٨٩: ما قاله الإمام الباقر عليه السلام، في تفسير آية: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**.

إنما فعلوا ذلك لأن هذا هو أهم حاجة للإنسان، وإلّا فماذا يجدي الإنسان أن يصنع مركبة فضائية، ويُحلِّق بها إلى أعالي السماء، ثم يصب من هناك القنابل الذرية والهيدروجينية على أهل الأرض لتدميرهم؟.

الإمام الباقر يواجه الأفكار التبريرية

فالأئمة المعصومون عليهم السلام والإمام الباقر بالذات، بيّنوا معالم الفكر الرسالي المسؤول للمجتمع، والسبب في ذلك أن هناك أفكاراً تبريرية انتشرت في عصر الإمام الباقر عليه السلام كأفكار المرجئة⁽¹⁾، وهم الجماعة الذين قالوا بأن الأفضل لنا ألاّ نُدين الرجال، بمعنى ألّا نُحدِّد موقفنا من الرجال السابقين، ونُرجئ ذلك إلى يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى هو المسؤول فقط. فمعاوية والإمام علي عليه السلام مثلاً تحاربا وذهبا إلى ربهم، وهو الذي يحاكمهم، فليس من وظيفتنا أن نُدين أحدهما ونُحدد الموقف من هؤلاء ونقف إلى جانب أحد الطرفين، وقالوا استنادا للآية الكريمة: ﴿**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾⁽²⁾: إن الناس بعضهم كافر فأمره ظاهر، ولكن الذي يظلم ويقتل الناس، هذا الرجل ليس لنا سبيل لإصلاحه، فلماذا نحن نتخذ موقفاً مضاداً منه؟.

لقد كانت حركة المرجئة حركة تبريرية. وهناك أيضاً كانت حركة القدرية⁽³⁾ التي بثّها الحسن البصري، والتي تقول: إن أي حاكم إنما يجيء إلى الحكم بأمر من الله، أي بالجبر، ونحن لا نستطيع أن نُخالف أوامر الله.

---

(١) سميت بالمرجئة، لأنهم قالوا: بتأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يُقضَى عليه بحكم ما في الدنيا، من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. راجع الملل والنحل، ج١. و: بحوث في الملل والنحل، ج٣.

(٢) سورة التوبة، آية:١٠٦.

(٣) يعبر عن المعتزلة في الكتب الكلامية بالقدرية، والمعتزلة يطلقونها على خصومهم، وجاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله قَوْلُهُ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ أُمَّتِي». والحسن البصري [٢١-١١٠هـ]، يعتبر أحد أبرز رموز المعتزلة التي من فرقها القدرية. وللتعرف إلى جملة من آراء وأفكار البصري طالع: بحوث في الملل والنحل، ج٣، ص١٨٤، و: الملل والنحل، ج١، ص٥٦.

ولم يقتصر الأمر على الجانب السياسي إنما شمل كل الأصعدة، وخصوصاً أن عهد الإمام الباقر عليه السلام قد شهد أفكاراً متناقضة؛ لأن الأمة وصلت إلى مستوى من الفوضى السياسية في جميع النواحي، لذلك احتاجت إلى نظريات، فأخذ كل إنسان يطرح نظريته.

الفكر الرسالي هو الفهم الصحيح للإسلام

ومن هنا تعدَّدت النظريات الفقهية، فإرهاصات نشوء المذاهب الفقهية، وخاصة المذاهب الأربعة(١) كانت تقريباً في أواخر زمان الإمام الباقر عليه السلام(٢)، وكانت من بين عشرات المذاهب الأخرى(٣) التي بدأت تنتشر آنذاك، وأصبحت الأمة تعيش بلبلة فكرية عجيبة انشغلت بعدها بأشياء تافهة وأصبح اليأس يدبُّ في نفوس أبنائها، وفي الوقت ذاته كانت الأمة بحاجة إلى رجل فقيه قد أخذ علمه من أصفى المنابع، وكان ذلك هو الإمام الباقر عليه السلام.

فلم يكن الإمام الباقر عليه السلام إماماً للشيعة فقط، فقد اتَّخذته السُّنَّة إماماً، وتأثرت به كافة المذاهب السنية، حتى التي نشأت بعد وفاته، ربما أكثر ممَّا تأثر الشيعة به. فهو الذي أعطى كافة الفئات الإسلامية الأخرى الفكر الرسالي المرتبط بكليات الرسالة وقضاياها الأساسية.

---

(١) هي المذاهب الفقهية المعتمدة عند أهل السنة، نشأت في القرنين الثاني أو الثالث الهجري، وأنتشرت بشكل واسع وأصبحت رسمية في معظم كتبهم. وتُمثِّل الاجتهادات الفقهية الراجعة للأئمة الأربعة من أهل السنة، وبرغم انتشار كثير من المذاهب إلَّا أن قافلة الفقه وقفت عندهم، وهم حسب ترتيبهم التاريخي: * **المذهب الحنفي**، نسبة للإمام أبي حنيفة النعمان [٨٠-١٥٠هـ]. * **المذهب المالكي**، نسبة للإمام مالك بن أنس [٩٣-١٧٩هـ]. * **المذهب الشافعي**، نسبة للإمام محمد بن إدريس الشافعي [١٥٠-٢٠٤هـ]. * **المذهب الحنبلي** نسبة للإمام أحمد بن حنبل [١٦٤- ٢٤١هـ]. طالع: الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة، ج١، ص١٦٠-١٧٠.

(٢) لاحظ: الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة.

(٣) طالع: حياة الإمام الباقر عليه السلام، دراسة وتحليل، ج٢، ص٧٤.

لقد أعطى الإمام عليه السلام الخلفية الثقافية الفكرية للحركة الثورية الرسالية في الأمة، ولكن الأمر كان بحاجة إلى دعم وتركيز ميداني لهذا الفكر والثقافة، فكان دور زيد بن علي هو القيام بهذا الأمر، وكما قلنا فإن زيد بن علي اتَّصل بكافة الحركات الإسلامية، كالمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، والشيعة، واتَّفق معهم على قلب نظام الحكم ممَّا جعل الفكر الرسالي قائداً لتيار المعارضة.

حركة زيد بن علي والإمام الصادق عليه السلام

وهنا يُطرح سؤال هام هو: هل كان زيدٌ مدفوعاً من قبل الإمام الصادق عليه السلام في القيام بثورته؟.

أمام هذا السؤال، ينقسم المؤرخون إلى قسمين:

الأول: يرى أن زيداً لم يكن له أي تنسيق(١) مع الإمام الصادق عليه السلام، بل إنه خالف نهيه إيَّاه عن الخروج حينما قال له عليه السلام: «**يَا عَمِّ، إِنْ رَضِيتَ أَنْ تَكُونَ الْمَقْتُولَ الْمَصْلُوبَ بِالْكُنَاسَةِ فَشَأْنَكَ**»(٢).

الثاني: يرى أن قيام زيد إنما كان ضمن خطة مدروسة رُسِمت معالمها وفق توجيهات وتطلعات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبالذات الإمام الصادق عليه السلام(٣).

وهذا ما نراه استناداً للكمّ الهائل من الروايات التي تتحدَّث عن شخصية الشهيد زيد رضي الله عنه والأهداف التي كان ينشدها من وراء قيامه وثورته، التي يقف على رأسها الدعوة إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام، التي تعني فيما تعني المطالبة بإرجاع الخلافة إلى أصحابها الشرعيين، الأئمة الاثني عشر من أهل بيت النبوة عليهم السلام.

---

(١) انظر: جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، ص٦١-٦٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٧٤.

(٣) طالع: الغدير، ج٣، ص٩٧. زيد الشهيد للمقرم. الشهيد الخالد زيد بن علي، للقرشي.

ولـو قُـدّر لزيد النجاح بخطته، لـكان وفى لتلك الأهداف، كـما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**رَحِمَ اللهُ عَمِّي زَيْداً، لَوْ ظَفِرَ لَوَفَى، إِنَّمَا دَعَا إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَأَنَا الرِّضَا**»⁽¹⁾.

وزيد إنما هو خريج تلك المدرسة التي تربَّى فيها القادة الرساليون على امتداد الخط منذ زمن الرسـول الأكرم محمـد صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده في زمن أمـير المؤمنين علي عليه السلام، أمثال عمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد، وحجر، وعشرات غيرهم من القادة الرساليين، الذين ظلّوا مشاعل نور في بحار الظلمات التي أراد بنو أمية أن يُغرقوا المسلمين فيها.

وهنا نورد بعض الروايات التي تُبيّن بشـكل لا يقبل الشـك أن الشهيد زيد، إنما كان يتحرك في إطار إمامة أهل البيت عليهم السلام:

١- رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليهما السلام فَقُلْتُ: «إِنَّ قَوْمًا يَزْعُمُونَ أَنَّكَ صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ؟!. قَالَ: لَا؛ وَلَكِنِّي مِنَ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: فَمَنْ يَلِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَكُمْ؟.

قَالَ: سَبْعَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ؛ وَالْمَهْدِيُّ مِنْهُمْ.

قَالَ ابْنُ مُسْـلِمٍ: ثُـمَّ دَخَلْتُ عَلَى الْبَاقِـرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَـلِيٍّ عليهما السلام فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ عليه السلام: **صَدَقَ أَخِي زَيْدٌ، صَدَقَ أَخِي زَيْدٌ، سَـيَلِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدِي سَـبْعَةٌ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْهُمْ. ثُمَّ** بَكَى عليه السلام وَقَالَ: **كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ صُلِبَ فِي الْكُنَاسَـةِ. يَا ابْنَ مُسْـلِمٍ، حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ** عليهما السلام **قَالَ: وَضَعَ رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **يَدَهُ عَلَى كَتِفِي، وَقَالَ يَا حُسَيْنُ؛ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: زَيْدٌ، يُقْتَلُ مَظْلُومًا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حُشِرَ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْجَنَّةِ**»⁽²⁾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٩٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٠٠.

٢- ورُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ قَالَ: «قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليهم السلام: فِي كُلِّ زَمَانٍ رَجُلٌ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، يَحْتَجُّ اللهُ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَحُجَّةُ زَمَانِنَا ابْنُ أَخِي جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، لَا يَضِلُّ مَنْ تَبِعَهُ، وَلَا يَهْتَدِي مَنْ خَالَفَهُ»(١).

٣- ورُوِيَ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ الْعَلَاءِ قَالَ: «قُلْتُ لِزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: فَأَنْتَ صَاحِبُ الْأَمْرِ؟!.

قَالَ: لَا؛ وَلَكِنِّي مِنَ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: فَإِلَى مَنْ تَأْمُرُنَا؟!.

قَالَ: عَلَيْكَ بِصَاحِبِ الشَّعْرِ. وَأَشَارَ إِلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام»(٢).

الإمام الرضا عليه السلام يُثني على زيد بن علي

وقد كان زيد رجلاً مؤمناً يُسمّى بحليف القرآن، وكان وهو شاب إذا ذُكر اسم الله أمامه بكى وأُغمي عليه، وهذا ما جاء في الرواية التالية:

* عَنِ ابْنِ أَبِي عُبْدُونٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حُمِلَ زَيْدُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام إِلَى الْمَأْمُونِ، وَقَدْ كَانَ خَرَجَ بِالْبَصْرَةِ وَأَحْرَقَ دُورَ وُلْدِ الْعَبَّاسِ. وَهَبَ الْمَأْمُونُ جُرْمَهُ لِأَخِيهِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام، وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، لَئِنْ خَرَجَ أَخُوكَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ لَقَدْ خَرَجَ قَبْلَهُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ فَقُتِلَ، وَلَوْلَا مَكَانُكَ مِنِّي لَقَتَلْتُهُ، فَلَيْسَ مَا أَتَاهُ بِصَغِيرٍ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لَا تَقِسْ أَخِي زَيْدًا إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام، غَضِبَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَجَاهَدَ أَعْدَاءَهُ، حَتَّى قُتِلَ فِي سَبِيلِهِ. وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ: رَحِمَ اللهُ عَمِّي زَيْدًا، إِنَّهُ دَعَا إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام، وَلَوْ ظَفِرَ**

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٧٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٠١.

لَوَفَى بِمَا دَعَا إِلَيْهِ، وَقَدِ اسْتَشَارَنِي فِي خُرُوجِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَمِّ، إِنْ رَضِيتَ أَنْ تَكُونَ الْمَقْتُولَ الْمَصْلُوبَ بِالْكُنَاسَةِ فَشَأْنَكَ.

فَلَمَّا وَلَّى؛ قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام: وَيْلٌ لِمَنْ سَمِعَ وَاعِيَتَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ؛ أَلَيْسَ قَدْ جَاءَ فِيمَنِ ادَّعَى الْإِمَامَةَ بِغَيْرِ حَقِّهَا مَا جَاءَ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **إِنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام لَمْ يَدَّعِ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ كَانَ أَتْقَى لِلَّهِ مِنْ ذَاكَ، إِنَّهُ قَالَ: أَدْعُوكُمْ إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ. وَإِنَّمَا جَاءَ مَا جَاءَ فِيمَنْ يَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ نَصَّ عَلَيْهِ ثُمَّ يَدْعُو إِلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ وَيَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَكَانَ زَيْدٌ وَاللَّهِ مِمَّنْ خُوطِبَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾**»(١).

الإمام الصادق عليه السلام ينعى عمه زيداً عليه السلام

رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَيَابَةَ قَالَ: «خَرَجْنَا وَنَحْنُ سَبْعَةُ نَفَرٍ فَأَتَيْنَا الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَقَالَ: **أَعِنْدَكُمْ خَبَرُ عَمِّي زَيْدٍ؟**.

فَقُلْنَا: قَدْ خَرَجَ، أَوْ هُوَ خَارِجٌ.

قَالَ عليه السلام: **فَإِنْ أَتَاكُمْ خَبَرٌ فَأَخْبِرُونِي.**

فَمَكَثْنَا أَيَّاماً فَأَتَى رَسُولُ بَسَّامِ الصَّيْرَفِيِّ بِكِتَابٍ فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ زَيْدًا خَرَجَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ غُرَّةَ صَفَرٍ، فَمَكَثَ الْأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيسَ وَقُتِلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَقُتِلَ مَعَهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ.

فَدَخَلْنَا عَلَى الصَّادِقِ عليه السلام وَدَفَعْنَا إِلَيْهِ الْكِتَابَ فَقَرَأَ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، عِنْدَ اللهِ أَحْتَسِبُ عَمِّي، إِنَّهُ كَانَ نِعْمَ الْعَمُّ. إِنَّ عَمِّي كَانَ رَجُلًا لِدُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا، مَضَى وَاللهِ عَمِّي شَهِيدًا كَشُهَدَاءَ اسْتُشْهِدُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم**

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢٤٨.

وَعَلِيٍّ وَالحَسَنِ وَالحُسَيْنِ عليهم السلام»(١).

كبار الفقهاء يؤيدون حركة زيد عليه السلام

والدليل الثاني أن كبار الفقهاء(٢) انضموا تحت لواء زيد، من أمثال أبي حنيفة رئيس المذهب الحنفي الذي كان من الذين أيّدوا زيد بن علي في حركته، روى أبو الفرج الأصفهاني عن الفضل بن الزبير، قال: «قال أبو حنيفة: من يأتي زيدًا في هذا الشأن من فقهاء الناس؟.

قال: قلت: سليمة بن كهيل، ويزيد بن أبي زياد، وهرون بن سعد، وهاشم بن البريد، وأبو هاشم الرّماني، والحجاج بن دينار، وغيرهم.

فقال لي: قل لزيد: لك عندي معونة، وقوة على جهاد عدوك فاستعن بها أنت وأصحابك في الكراع(٣)، والسلاح ثم بعث ذلك معي إلى زيد، فأخذه زيد»(٤).

ونقل -أبو الفرج الأصفهاني- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: روى عبدالله بن مروان بن معاوية، قال: سمعت محمد بن جعفر بن محمد في دار الإمارة يقول: «رحم الله أبا حنيفة؛ لقد تحقَّقت مودّته لنا في نصرته زيد بن علي..»(٥).

لقد كان الفقهاء في عهد زيد يُؤيّدونه ويتّبعونه، وعلى رأسهم الفقهاء الرساليّون، وهذا دليل على أن زيداً كان مُؤيَّداً من الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام فليس من الممكن للفقهاء الرساليين اتّباع زيد رغماً على الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢٥٢.

(٢) ذكرهم أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، وأيضًا: زيد الشهيد، ص١٢٧. و: الشهيد الخالد زيد بن علي، ص٢٥٠-٢٦١. و: بحوث في الملل والنحل، ج٧، ص٢٩٦-٣٠٠. فراجع.

(٣) اسم لجماعة الخيل.

(٤) مقاتل الطالبيين، ص١٤١.

(٥) مقاتل الطالبيين، ص١٤٢.

الإمام الصادق يتمنى لو كان مع زيد عليه السلام

* رُوِيَ عَنِ الْفُضَيْلِ قَالَ: «انْتَهَيْتُ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام صَبِيحَةَ خَرَجَ بِالْكُوفَةِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ يُعِينُنِي مِنْكُمْ عَلَى قِتَالِ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ، فَوَ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ بَشِيرًا لَا يُعِينُنِي مِنْكُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا أَخَذْتُ بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ بِإِذْنِ الله.

قَالَ: فَلَمَّا قُتِلَ؛ اكْتَرَيْتُ رَاحِلَةً وَتَوَجَّهْتُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَدَخَلْتُ عَلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا أَخْبَرْتُهُ بِقَتْلِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَيَجْزَعَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ قَالَ عليه السلام لِي: **يَا فُضَيْلُ، مَا فَعَلَ عَمِّي زَيْدٌ**؟!. قَالَ: فَخَنَقَتْنِي الْعَبْرَةُ.

فَقَالَ عليه السلام لِي: **قَتَلُوهُ**؟. قُلْتُ: إِي وَالله؛ قَتَلُوهُ.

قَالَ عليه السلام: **فَصَلَبُوهُ**؟. قُلْتُ: إِي وَالله؛ صَلَبُوهُ.

فَأَقْبَلَ يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ عَلَى دِيبَاجَتَيْ خَدِّهِ كَأَنَّهَا الْجُمَانُ، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **يَا فُضَيْلُ، شَهِدْتَ مَعَ عَمِّي قِتَالَ أَهْلِ الشَّامِ**؟.

قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: **فَكَمْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ**!. قُلْتُ: سِتَّةً.

قَالَ عليه السلام: **فَلَعَلَّكَ شَاكٌّ فِي دِمَائِهِمْ**؟!. قَالَ: فَقُلْتُ: لَوْ كُنْتُ شَاكًّا مَا قَتَلْتُهُمْ.

قَالَ: فَسَمِعْتُهُ عليه السلام وَهُوَ يَقُولُ: **أَشْرَكَنِيَ اللهُ فِي تِلْكَ الدِّمَاءِ، مَضَى وَالله زَيْدٌ عَمِّي وَأَصْحَابُهُ شُهَدَاءُ مِثْلُ مَا مَضَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُه**»⁽¹⁾.

من هنا نُثبت بما لا يدع للشك مجالاً أن الإمام الصادق عليه السلام هو الذي أمر زيداً بالقيام بحركته وثورته، وربما أخطأ زيد في بعض التفاصيل، فهو لم يكن معصوماً عن الخطأ، إنما فِعْله كان بتخطيط وأمر من الإمام الصادق عليه السلام .

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٧١.

* رُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْأَئِمَّةِ؟.

فَقَالَ: الْأَئِمَّةُ اثْنَا عَشَرَ، أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَاضِينَ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْبَاقِينَ.

قُلْتُ: فَسَمِّهِمْ يَا أَبَتِ.

قَالَ: أَمَّا الْمَاضِينَ: فَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَمِنَ الْبَاقِينَ: أَخِيَ الْبَاقِرُ، وَبَعْدَهُ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ مُوسَى ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ الْحَسَنُ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ الْمَهْدِيُّ ابْنُهُ.

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ، أَلَسْتَ مِنْهُمْ؟!.

قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي مِنَ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: فَمِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ أَسَامِيَهُمْ؟!.

قَالَ: عَهْدٌ مَعْهُودٌ عَهِدَهُ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ..»⁽¹⁾.

يقول العلامة المجلسي قدس سره، وهو يُعلِّق على هذا الحديث: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَزِيدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا سَمِعَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مِنَ الثِّقَاتِ الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَآمَنَ بِهَا، وَاعْتَقَدَهَا، فَلِمَ خَرَجَ بِالسَّيْفِ وَادَّعَى الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ، وَأَظْهَرَ الْخِلَافَ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهُوَ بِالْمَحَلِّ الشَّرِيفِ الْجَلِيلِ، مَعْرُوفٌ بِالسِّتْرِ وَالصَّلَاحِ مَشْهُورٌ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ بِالْعِلْمِ وَالزُّهْدِ، وَهَذَا مَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مُعَانِدٌ جَاحِدٌ وَحَاشَا زَيْدًا أَنْ يَكُونَ بِهَذَا الْمَحَلِّ؟!.

فَأَقُولُ فِي ذَلِكَ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ:

إِنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ عَلَى سَبِيلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْمُخَالَفَةِ لِابْنِ أَخِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْخِلَافُ مِنْ جِهَةِ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا خَرَجَ وَلَمْ يَخْرُجْ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ،

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٩٨.

تَوَهَّمَ قَوْمٌ مِنَ الشِّيعَةِ أَنَّ امْتِنَاعَ جَعْفَرٍ كَانَ لِلْمُخَالَفَةِ وَإِنَّمَا كَانَ لِضَرْبٍ مِنَ التَّدْبِيرِ.

فَلَـمَّا رَأَى الَّذِينَ صَارُوا لِلزَّيْدِيَّةِ سَلَفًا ذَلِكَ قَالُوا: لَيْسَ الْإِمَامُ مَنْ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَأَرْخَى سِتْرَهُ، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ مَنْ خَرَجَ بِسَيْفِهِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ. فهذان [فَهَذَا] سَبَبُ وُقُوعِ الْخِلَافِ بَيْنَ الشِّيعَةِ.

وَأَمَّـا جَعْفَـرٌ وَزَيْدٌ عليهما السلام فَمَا كَانَ بَيْنَهُمَا خِلَافٌ. وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا قَوْلُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: **«مَنْ أَرَادَ الْجِهَادَ فَإِلَيَّ، وَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَإِلَى ابْنِ أَخِي جَعْفَرٍ»**. وَلَوِ ادَّعَى الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ لَمْ يَنْفِ كَمَالَ الْعِلْمِ عَنْ نَفْسِهِ، إِذِ الْإِمَامُ أَعْلَمُ مِنَ الرَّعِيَّةِ، وَمِنْ مَشْهُورِ قَوْلِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام: **«رَحِمَ اللهُ عَمِّي زَيْدًا لَوْ ظَفِرَ لَوَفَى إِنَّمَا دَعَا إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام، وَأَنَا الرِّضَا»**.

وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ عَنْ عَامِرِ بْنِ عِيسَى بْنِ عَامِرٍ السَّيْرَافِيِّ بِمَكَّةَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْحَسَنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليهم السلام، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُطَهَّرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَيْرِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ بْنِ هَارُونَ الْبَجَلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ الْمُتَوَكِّلِ بْنِ هَارُونَ قَالَ: «لَقِيتُ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى خُرَاسَانَ، فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ رَجُلًا فِي عَقْلِهِ وَفَضْلِهِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَبِيهِ.

فَقَـالَ: إِنَّـهُ قُتِلَ وَصُلِبَ بِالْكُنَاسَةِ. ثُمَّ بَكَى، وَبَكَيْتُ حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَكَنَ قُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، وَمَا الَّذِي أَخْرَجَهُ إِلَى قِتَالِ هَذَا الطَّاغِي وَقَدْ عَلِمَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَا عَلِمَ؟!. فَقَالَ: نَعَمْ؛ لَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبِي عليه السلام يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: وَضَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يَدَهُ عَلَى صُلْبِي فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ، يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: زَيْدٌ يُقْتَلُ شَهِيدًا. فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَخَطَّى هُوَ وَأَصْحَابُهُ رِقَابَ النَّاسِ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ كَمَا وَصَفَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ قَالَ: رَحِمَ اللهُ أَبِي زَيْدًا كَانَ -وَاللهِ- أَحَدَ الْمُتَعَبِّدِينَ، قَائِمٌ لَيْلَهُ، صَائِمٌ نَهَارَهُ، يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ جِهَادِهِ.

فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله ﷺ، هَكَذَا يَكُونُ الْإِمَامُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ؟.

فَقَالَ: يَا عَبْدَ الله، إِنَّ أَبِي لَمْ يَكُنْ بِإِمَامٍ وَلَكِنْ مِنْ سَادَاتِ الْكِرَامِ وَزُهَّادِهِمْ، وَكَانَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله.

قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، أَمَا إِنَّ أَبَاكَ قَدِ ادَّعَى الْإِمَامَةَ وَخَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ الله. وَقَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، فِيمَنِ ادَّعَى الْإِمَامَةَ كَاذِبًا.

فَقَالَ: مَهْ يَا عَبْدَالله. إِنَّ أَبِي عليه السلام كَانَ أَعْقَلَ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ وَإِنَّمَا قَالَ: «أَدْعُوكُمْ إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ». عَنَى بِذَلِكَ عَمِّي جَعْفَرًا.

قُلْتُ: فَهُوَ الْيَوْمَ صَاحِبُ الْأَمْرِ. قَالَ: نَعَمْ هُوَ أَفْقَهُ بَنِي هَاشِمٍ.

ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الله، إِنِّي أُخْبِرُكَ عَنْ أَبِي عليه السلام وَزُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ، أَنَّهُ كَانَ عليه السلام يُصَلِّي فِي نَهَارِهِ مَا شَاءَ اللهُ فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ عَلَيْهِ، نَامَ نَوْمَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ يَقُومُ قَائِماً عَلَى قَدَمَيْهِ يَدْعُو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيَتَضَرَّعُ لَهُ وَيَبْكِي بِدُمُوعٍ جَارِيَةٍ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ سَجَدَ سَجْدَةً، ثُمَّ يَقُومُ يُصَلِّي الْغَدَاةَ، إِذَا وَضَحَ الْفَجْرُ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، قَعَدَ فِي التَّعْقِيبِ إِلَى أَنْ يَتَعَالَى النَّهَارُ. ثُمَّ يَقُومُ فِي حَاجَتِهِ سَاعَةً، فَإِذَا قَرُبَ الزَّوَالُ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ، فَسَبَّحَ الله، وَمَجَّدَهُ إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، قَامَ فَصَلَّى الْأُولَى، وَجَلَسَ هُنَيْئَةً، وَصَلَّى الْعَصْرَ، وَقَعَدَ فِي تَعْقِيبِهِ سَاعَةً، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَةً، فَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ، صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْعَتَمَةَ.

قُلْتُ: كَانَ يَصُومُ دَهْرَهُ؟.

قَالَ: لَا؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَصُومُ فِي السَّنَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَيَصُومُ فِي الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

قُلْتُ: وَكَانَ يُفْتِي النَّاسَ فِي مَعَالِمِ دِينِهِمْ؟.

قَالَ: مَا أَذْكُرُ ذَلِكَ عَنْهُ. ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيَّ صَحِيفَةً كَامِلَةً أَدْعِيَةَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام»(١).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص ١٩٨-٢٠٠.

صفو الكلام

* إنّ دور الإمام زين العابدين عليه السلام في الحركة الرسالية كان بعث الروح في الأمة.

* وكان دور الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام هو إعطاء الخلفية الثقافية الفكرية للحركة الرسالية.

* وقام زيد بن علي بدور الدعم الميداني للفكر الرسالي من خلال حركته الثورية.

* أما عن علاقة زيد بأئمة أهل البيت عليهم السلام، فنحن -وخلافاً للبعض- نرى أن قيام زيد إنما كان ضمن خطة مدروسة رُسمت معالمها وفق توجيهات وتطلعات أئمة أهل البيت وبالذات الامام الصادق عليه السلام.

أبناء زيد وامتداد الحركة الزيدية في التاريخ

بعد أن قُتل زيد بن علي وصُلِب جثمانه المبارك في كناسة الكوفة، اتَّخذ كل واحد من أبنائه (يحيى⁽¹⁾، وحسين ذي الدمعة⁽²⁾، وعيسى⁽³⁾) طريقاً معيناً لمحاربة بني أمية. وهنا نستعرض حركتهم على النحو التالي:

حركة يحيى بن زيد

إنّ يحيى ذهب إلى المدائن ومن ثم إلى خراسان وقام بالاتصال بالرساليين هناك، وبقي حوالي أربع سنوات يبثُّ دعوته ويحشد الأنصار لثورته، ثم حارب بمجموعة من شيعته والي بني أمية قبل الموعد المقرر للقيام، فهزم جيش الوالي الأموي أول مرة، وفي المرة الثانية انهزم جيش يحيى وجاءه سهم أصاب منه مقتلاً، فأخذه الوالي وصلبه على باب مدينة جوزجان في إيران، ثم بعث رأسه إلى الخليفة في الشام.

---

(١) اشترك في الثورة مع أبيه زيد، وكان موجودًا بعد شهادته، وقام بالثورة.

(٢) الحسين بن زيد بن علي بن الحسين (أبو عبد الله، ويُكنَّى بأبي عاتقة)، قيل: كان له يوم شهادة أبيه أربع سنين، وقيل: سبع سنين. وكان أبو عبدالله الإمام الصادق عليه السلام تبنَّاه ورباه، فنشأ الحسين في حجر الإمام، وأخذ من علمه الكثير. وكان الحسين سيِّدًا، عابدًا، زاهدًا. وإنّما لقب (ذِي الدَّمعة) لكثرة دَمْعِه، وبكائه في صلاة الليل من خشية الله. وذكر الأصفهاني عن يحيى بن الحسين أنه قال: قالت أمي لأبي ما أكثر بكاءك!. فقال: وهل ترَك السَّهمان والنار سرورًا يمنعني من البكاء؟. يعني السَّهمَين اللذين قُتل بهما أبوه زيد وأخوه يحيى.. للوقوف على سيرته طالع: منتهى الآمال، ج٢، ص٧٥.

(٣) توارى بعد ثورة أخيه يحيى ومات متواريًا سنة ١٩٩م.

وحينما استلمه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، كتب كتاباً إلى واليه وقال: «إذا أتاك كتابي هذا، فانظر عِجْل العراق فأحرقه ثم انسفه في اليمِّ نسفاً»(١).

وهكذا تتلخَّص القصة بهذه العبارة، ولكن وراء هذه القصة خلفيات عديدة، وأسئلة هامة. منها: هل في الحركة الرسالية تناقض؟.

قد قُتِل زيد، وظلَّ جسده مصلوباً في الكوفة مدَّةً من الزمن، ثم قام ابنه يحيى بالثورة للطلب بثأر أبيه، وقُتِل وصُلِب، وطافوا برأسه في الأرجاء، كل ذلك حدث بينما كان الإمام الصادق عليه السلام يقوم بنشر الفكر الرسالي على أوسع نطاق، وكان يشتغل في المدينة المنورة بتدريس: الفقه، والتفسير، والفلسفة، والمعارف الإسلامية الأخرى.

إن هذه الظاهرة غريبة حقًّا، فزيد هو عم الإمام الصادق ويحيى هو ابن عمه، ومع ذلك لم يُحرِّك ساكناً، فما هو تفسير ما حدث؟.

بعض الناس يتصوَّر أن هذا تناقض، فإما أن يكون زيد ويحيى مخطئين، وإما أن يكون الإمام جعفر الصادق عليه السلام -والعياذ بالله- هو المخطئ. وإذا ثبت أن يحيى كان من أتباع الأئمة باعتبار أن أباه كان كذلك، وعرفنا أن الإمام الصادق هو إمام ومعصوم، فكيف يُمكننا حل هذا اللغز وهذا التناقض؟.

العمل العسكري درع الحركة الرسالية

الجواب على ذلك بسيط، وهو أن وجود جسد زيد مصلوباً في كناسة الكوفة وقيام ابنه يحيى بالدعوة كان ذلك ضروريًّا لاستمرار الإمام الصادق عليه السلام في نشر الفقه الإسلامي، كما أن قيام الإمام الصادق عليه السلام بنشر العلوم الإسلامية كان ضروريًّا لاستمرار دعوة زيد، فكانا كجناحي طائر لا يطير إلَّا بهما، ويسقط إذا كان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٢٣٠. أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٥٧.

أحدهما مفقوداً. هذه الحقيقة هي التي عبّر عنها الإمام الصادق عليه السلام في كلمة موجزة لشيعته الذين كانوا يجدون هذا التناقض ويتساءلون عنه، قال عنها: «**لَا أَزَالُ وَشِيعَتِي بِخَيْرٍ، مَا خَرَجَ الخَارِجِيُّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ الخَارِجِيَّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ خَرَجَ وَعَلَيَّ نَفَقَةُ عِيَالِهِ**»(١).

وكان يقصد بذلك أنه لو لم تكن حركة زيد، ولو لم تستمر هذه الحركة، لكان الأئمة عليهم السلام بحاجة إلى إيجاد هذه الحركة، لأنهم كانوا يحتاجون إلى وقاية وظلال يعملون تحتها.

لقد شكّلت الحركة الزيدية جسد ثورة محمد ذي النفس الزكية(٢)، وأخيه إبراهيم(٣)، وقواعد ثورة يحيى(٤) بن عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام في الديلم، ومن هنا أصبحت الحركة الزيدية، أو الجناح العسكري، درعاً لحماية الحركة الرسالية، وقد يكون هذا الأمر غامضاً بالنسبة إلى البعض ولكن يتوضّح ذلك بما يلي:

إن أي دولة في العالم هي بحاجة إلى جناحين:

- جناح عسكري.
- جناح مدني.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٧٢.

(٢) ستوافيك الصفحات القادمة تفاصيل عن حركتها ولماذا قامت.

(٣) إبراهيم بن عبدالله [١٠٣-١٤٥هـ]، من كبار العلماء في فنون كثيرة، وهو الثائر الثالث بعد يحيى بن زيد. انظر: الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، ج١، ص٢٩٩.

(٤) يُكنّى أبا الحسن. كان حسن المذهب، والهدى، مُقدَّمًا في أهل بيته، بعيدًا مما يعاب على مثله. وكان قصيرًا، حسن الوجه والجسم، تُعرف سلالة الأنبياء في وجهه. قال الأصفهاني: «لما قتلوا أصحاب فخّ، استتر يحيى مدّةً يجول في البلدان، ويطلب موضعاً يلجأ إليه، وعلم الفضل بن يحيى بمكانه في بعض النواحي فأمره بالانتقال عنه وقصد الديلم، وكتب له منشورًا ألّا يتعرَّض له أحد. فمضى مُتنكِّرًا حتى ورد الدّيلم، وبلغ الرشيد خبره وهو في بعض الطريق، فولّى الفضل بن يحيى نواحي المشرق، وأمره بالخروج إلى يحيى. فذهب الفضل واحتال حتى أقدم يحيى معه على الرشيد، ثم كان إطلاق سراحه على يد الفضل..». انظر: مقاتل الطالبيين.

الجناح العسكري هو الوقاية للجناح المدني، فلو لم تكن هناك قوة عسكرية لما كان بإمكان رجل بسيط في المحكمة أن يحكم في أحوال الناس، وأن يصدر الأوامر إليهم.

ولكن وجود تلك القوة العسكرية هو الذي يفرض هيبة الحكومة على الشعب، وتلك الهيبة هي التي تمنح الفرصة لكل المدنيين للعمل، ابتداء من جابي الضرائب وانتهاء بأكبر رأس في البلد، هؤلاء كلهم يحتاجون إلى القوة العسكرية حتى تظلّ وقاية بالنسبة لهم. والحقيقة نفسها تنطبق على واقع الحركات التغييرية الجذرية في التاريخ.

وكانت الحركة الزيدية بمثابة الدرع الواقي للحركة الرسالية التي كانت تهتم بنشر المعارف الإسلامية، وبلورة الفقه والثقافة ونشر الدعوة الحقّة في كل مكان.

ولكي نفهم ذلك جيداً نستعرض هذه القصة التي تكشف إلى أي مدى شكَّلت الحركات الثورية حماية للأئمة عليهم السلام.

هشام هو الذي قام بإذلال زيد فتحدَّاه بثورته، كما رأينا سابقاً، وهذا الخليفة الأموي هو الذي أراد أن يهين الإمام الباقر عليه السلام عندما طلب إحضاره من المدينة إلى الشام.

ذكر السيد بن طاووس رحمه الله في كتاب (أمان الأخطار) ناقلاً عن كتاب دلائل الإمامة، تصنيف محمد بن جرير الطبري الإمامي، من أخبار معجزات مولانا محمد بن علي الباقر عليه السلام.

ذكره بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ سَنَةً مِنَ السِّنِينَ، وَكَانَ قَدْ حَجَّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ وَابْنُهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليهما السلام فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ نَبِيًّا، وَأَكْرَمَنَا بِهِ فَنَحْنُ صَفْوَةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخِيرَتُهُ مِنْ عِبَادِهِ وَخُلَفَاؤُهُ، فَالسَّعِيدُ مَنِ اتَّبَعَنَا، وَالشَّقِيُّ مَنْ عَادَانَا وَخَالَفَنَا.

ثُمَّ قَالَ: فَأَخْبَرَ مَسْلَمَةُ أَخَاهُ بِمَا سَمِعَ، فَلَمْ يَعْرِضْ لَنَا حَتَّى انْصَرَفَ إِلَى دِمَشْقَ وَانْصَرَفْنَا إِلَى المَدِينَةِ، فَأَنْفَذَ بَرِيدًا إِلَى عَامِلِ المَدِينَةِ بِإِشْخَاصِ أَبِي وَإِشْخَاصِي مَعَهُ، فَأَشْخَصَنَا فَلَمَّا وَرَدْنَا مَدِينَةَ دِمَشْقَ حَجَبَنَا ثَلَاثًا، ثُمَّ أَذِنَ لَنَا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ فَدَخَلْنَا، وَإِذَا قَدْ قَعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ، وَجُنْدُهُ وَخَاصَّتُهُ وُقُوفٌ عَلَى أَرْجُلِهِمْ سِمَاطَانِ مُتَسَلِّحَانِ، وَقَدْ نُصِبَ الْبُرْجَاسُ حِذَاهُ وَأَشْيَاخُ قَوْمِهِ يَرْمُونَ، فَلَمَّا دَخَلْنَا وَأَبِي أَمَامِي وَأَنَا خَلْفَهُ، فَنَادَى أَبِي وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ارْمِ مَعَ أَشْيَاخِ قَوْمِكَ الْغَرَضَ.

فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ عَنِ الرَّمْيِ، فَهَلْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْفِيَنِي.

فَقَالَ: وَحَقِّ مَنْ أَعَزَّنَا بِدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا أُعْفِيكَ.

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ: أَنْ أَعْطِهِ قَوْسَكَ، فَتَنَاوَلَ أَبِي عِنْدَ ذَلِكَ قَوْسَ الشَّيْخِ ثُمَّ تَنَاوَلَ مِنْهُ سَهْمًا، فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ انْتَزَعَ وَرَمَى وَسَطَ الْغَرَضِ، فَنَصَبَهُ فِيهِ، ثُمَّ رَمَى فِيهِ الثَّانِيَةَ فَشَقَّ فُوَاقَ سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ، ثُمَّ تَابَعَ الرَّمْيَ حَتَّى شَقَّ تِسْعَةَ أَسْهُمٍ بَعْضُهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، وَهِشَامٌ يَضْطَرِبُ فِي مَجْلِسِهِ، فَلَمْ يَتَمَالَكْ إِلَّا أَنْ قَالَ: أَجَدْتَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ، وَأَنْتَ أَرْمَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، هَلَّا زَعَمْتَ أَنَّكَ كَبِرْتَ عَنِ الرَّمْيِ. ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ نَدَامَةٌ عَلَى مَا قَالَ.

وَكَانَ هِشَامٌ لَمْ يَكُنْ كَنَّى أَحَداً قَبْلَ أَبِي وَلَا بَعْدَهُ فِي خِلَافَتِهِ، فَهَمَّ بِهِ وَأَطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ إِطْرَاقَةً يَتَرَوَّى فِيهَا وَأَنَا وَأَبِي وَاقِفٌ حِذَاهُ مُوَاجِهَيْنِ لَهُ فَلَمَّا طَالَ وُقُوفُنَا غَضِبَ أَبِي فَهَمَّ بِهِ، وَكَانَ أَبِي عليه السلام إِذَا غَضِبَ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ نَظَرَ غَضْبَانَ يَرَى النَّاظِرُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ هِشَامٌ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَبِي، قَالَ لَهُ: إِلَيَّ يَا مُحَمَّدُ، فَصَعِدَ أَبِي إِلَى السَّرِيرِ وَأَنَا أَتْبَعُهُ فَلَمَّا دَنَا مِنْ هِشَامٍ، قَامَ إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ وَأَقْعَدَهُ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ اعْتَنَقَنِي وَأَقْعَدَنِي عَنْ يَمِينِ أَبِي.

فَقَالَ لَهُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الرَّمْيِ قَطُّ مُذْ عَقَلْتُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ فِي الْأَرْضِ أَحَداً يَرْمِي مِثْلَ هَذَا الرَّمْيِ، أَيَرْمِي جَعْفَرٌ مِثْلَ رَمْيِكَ؟!.

فَقَالَ: إِنَّا نَحْنُ نَتَوَارَثُ الْكَمَالَ وَالتَّمَامَ اللَّذَيْنِ أَنْزَلَهُمَا اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فِي

قَوْلِـهِ: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُـمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْـلامَ دِيناً﴾**⁽¹⁾، وَالأَرْضُ لاَ تَخْلُو مِمَّنْ يُكْمِلُ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَقْصُرُ غَيْرُنَا عَنْهَا.

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ أَبِي انْقَلَبَتْ عَيْنُهُ الْيُمْنَى فَاحْوَلَّتْ وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلاَمَةَ غَضَبِهِ إِذَا غَضِبَ... فَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ: إِنَّ عَلِيًّا كَانَ يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ، وَاللهُ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً فَمِنْ أَيْنَ ادَّعَى ذَلِكَ؟.

فَقَالَ أَبِي: إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ كِتَابًا بَيَّنَ فِيهِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾**⁽²⁾، وَفِي قَوْلِـهِ: **﴿وَكُلَّ شيَءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمـامٍ مُبِينٍ﴾**⁽³⁾، وَفِي قَوْلِهِ: **﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾**⁽⁴⁾.

وَأَوْحَـى اللهُ إِلَى نَبِيِّـهِ ﷺ أَلَّا يُبْقَـي فِي غَيْبِـهِ وَسِرِّهِ وَمَكْنُونِ عِلْمِهِ شَـيْئًا إِلَّا يُنَاجِي بِهِ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَلِّفَ الْقُرْآنَ مِنْ بَعْدِهِ وَيَتَوَلَّى غُسْـلَهُ وَتَكْفِينَهُ وَتَحْنِيطَهُ مِنْ دُونِ قَوْمِهِ،... وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، لَهُ مَا لِي، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيَّ، وَهُوَ قَاضِي دَيْنِـي وَمُنْجِزُ وَعْدِي. ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَـمَا قَاتَلْتُ عَـلَى تَنْزِيلِهِ. وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَـدٍ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ بِكَمَالِـهِ وَتَمَامِهِ إِلَّا عِنْدَ عَلِيٍّ عليه السلام، وَلِذَلِـكَ قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَقْضَاكُمْ عَـلِيٌّ، أَيْ هُوَ قَاضِيكُمْ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرَ، يَشْهَدُ لَهُ عُمَرُ وَيَجْحَدُهُ غَيْرُهُ.

فَأَطْرَقَ هِشَـامٌ طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَـهُ فَقَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ. فَقَالَ: خَلَّفْتُ عِيَالِي وَأَهْلِي مُسْتَوْحِشِينَ لِخُرُوجِي. فَقَالَ: قَدْ آنَسَ اللهُ وَحْشَتَهُمْ بِرُجُوعِكَ إِلَيْهِمْ وَلَا تُقِمْ سِرْ مِنْ يَوْمِكَ.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٣) سورة يس، آية: ١٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

.. وَأَمَرَنَا أَنْ نَنْصَرِفَ إِلَى المَدِينَةِ مِنْ سَاعَتِنَا وَلَا نَجْلِسَ... فَرَكِبْنَا دَوَابَّنَا مُنْصَرِفَيْنِ وَقَدْ سَبَقَنَا بَرِيدٌ مِنْ عِنْدِ هِشَامٍ إِلَى عَامِلِ مَدْيَنَ عَلَى طَرِيقِنَا إِلَى المَدِينَةِ أَنَّ ابْنَيْ أَبِي تُرَابٍ السَّاحِرَيْنِ: مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَجَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليهما السلام، الْكَذَّابَيْنِ -بَلْ هُوَ الْكَذَّابُ لَعَنَهُ اللهُ- فِيمَا يُظْهِرَانِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَرَدَا عَلَيَّ وَلَمَّا صَرَفْتُهُمَا إِلَى المَدِينَةِ مَالَا إِلَى الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ مِنْ كُفَّارِ النَّصَارَى وَأَظْهَرَا لَهُمَا دِينَهُمَا وَمَرَقَا مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ دِينِ النَّصَارَى، وَتَقَرَّبَا إِلَيْهِمْ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُنَكِّلَ بِهِمَا لِقَرَابَتِهِمَا؛ فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَنَادِ فِي النَّاسِ: بَرِئَتِ الذِّمَّةُ مِمَّنْ يُشَارِيهِمَا أَوْ يُبَايِعُهُمَا أَوْ يُصَافِحُهُمَا أَوْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمَا، فَإِنَّهُمَا قَدِ ارْتَدَّا عَنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: وَرَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلَهُمَا وَدَوَابَّهُمَا وَغِلْمَانَهُمَا وَمَنْ مَعَهُمَا شَرَّ قِتْلَةٍ..»(١).

وسبب ذلك أن الإمام قام ببيان فضيلة جدِّه علي بن أبي طالب عليه السلام وأحقيته بالخلافة. وكانت هذه المناقشة بالغة الأهمية؛ إذ إنها لم تكن كالمناقشات التي نراها تجري اليوم بين الأفراد حول مسألة القيادة، فيذهب بعد ذلك كل واحد لسبيله وكأن شيئاً لم يكن.

فقد كانت مناقشة الإمام عليه السلام مع هشام تعني أن الأخير كان على باطل وعليه أن يتنازل عن منصبه، بمعنى أن أسلوب الحكم في الدولة الإسلامية يجب أن يتبدَّل.

وأين جرت تلك المناقشة الحادة؟.

في قلب العاصمة، وفي بيت الملك، داخل البلاط الأموي، وقد كان الحضور هم قادة الجيش، ورؤساء العشائر، والولاة، والقضاة، والفقهاء. ونتساءل: لماذا لم يأمر هشام جلاديه بقتل الإمام الباقر عليه السلام؟.

ولماذا لم يقتل الخلفاء الأمويون من بعده الإمام الصادق عليه السلام بصراحة؟

---

(١) أمان الأخطار، ص٦٧-٧٢. بحار الأنوار، ج٤٦، ص٣٠٦-٣١٦.

إن السبب يكمن في أن الحكومات تُفكِّر دائماً في أنها لو قتلت هذا القائد المعتدل، فإن المسلمين سيغضبون عندئذ ويُصبحون مع الحركة المتطرِّفة (مع الزيدية مثلاً). وإذا صاروا مع الزيدية فإن الحكومات ستجد نفسها هي التي دفعت بالمجتمع والأمة باتِّجاه الحركة الزيدية، وبالتالي ساهمت وعجَّلت بانتهائها.

وهكذا نجد أنه لو كانت هناك حركة مسلحة في منطقة من المناطق، فإنّ الحكومات تحاول أن تُغذِّي المعتدلين بإعطائهم المناصب، وتتقرَّب لهم وتستميلهم. وإذا كانت لدى المعتدلين خطط بعيدة المدى، كالحركة الرسالية التي تسعى لكسب المواقع، فإن الدولة ساقطة لا محالة، إذ إنها تقع آنئذٍ بين سندان الحركات المعتدلة ومطرقة الحركات الثورية، فهي لا تستطيع أن تضغط ولا أن تتساهل، فلا بد لها أن تسكت.

والرساليون على مر التاريخ عملوا بهذا الأسلوب، فكان هناك جناح مُتطرِّف، وهو الجناح الزيدي على طول الخط ويتكون من زيد وابنه يحيى، وابنه علي، ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله(١) بن الحسن بن الحسن، ويحيى(٢) بن الحسين بن زيد، وعلى هذا المعدل على طول التاريخ الرسالي، إمّا أولاد زيد وإخوانه، وإما

---

(١) عبدالله بن الحسن [٧٠-١٤٥هـ]، يطلق عليه عبدالله المحض، لأن أباه هو الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام، وأمه فاطمة بنت الإمام الحسين عليهما السلام، كان شيخ بني هاشم في زمانه، وكان قوي النفس شجاعًا، مات في سجن الدوانيقي مخنوقًا، وله من العمر خمس وسبعين سنة. أنظر: عمدة الطالب، ص١١٩. منتهى الآمال، ج١، ص٣٥١. وللاطلاع أكثر على سيرته وشيء من تفاصيل حياته أنظر: تتمة المنتهى، ص١٨٨-١٩٦.

(٢) من الرواة والمحدثين الثقات، عده الشيخ الطوسي قدس سره من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، وقال عنه واقفي، وعلق العلامة المحقق الرجالي التستري قدس سره في القاموس (ج١١، ص٣٧)، على قول الشيخ الطوسي بأن لعله -الشيخ- أراد أن يقول زيدي، لأن أغلب أولاد زيد (زيديّون)، وإنما أغلب أولاد الإمام الكاظم عليه السلام (واقفيّون). وقال الشيخ النمازي رحمه الله في مستدركاته، (ج٨، ص١٩٨): «هو من شهود وصيّة الإمام الكاظم عليه السلام، ولعل الإشهاد لإتمام الحجة عليه لئلا يقف لا لوثاقته». توفي في بغداد سنة سبع ومئتين، وصلى عليه المأمون. أنظر: منتهى الآمال، ج٢، ص٧٦. الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٣٩.

أولاد الحسن ابن الإمام الحسن، لأن الحركة الزيدية انتشرت بين أولاد زيد وبين أبناء الإمام الحسن عليه السلام.

ففي بعض الفترات كان أولاد الإمام الحسن عليه السلام هم الذين يقودون الحركة، وفي بعض الفترات الأخرى كان أولاد زيد هم الذين يقودونها.

ومنذ ثورة زيد في بداية القرن الثاني الهجري وإلى القرن العاشر والحادي عشر الهجري، كانت للحركة الزيدية فصائل منظمة مسلحة، وهؤلاء كانوا يُشكِّلون حماية للحركة الرسالية(١).

استشهاد يحيى بن زيد عليه السلام وسقوط بني أميّة

وقبل أن نُبيِّن الحركة الزيدية بعد يحيى، لا بد أن نُبيِّن ما وصلت إليه الحركة من انتشار، فيحيى قُتِل في خراسان بلد الموالي(٢)، والموالي هم أولئك الذين كان زيد ومن بعده يحيى، يريد إنقاذهم من ظلم بني أمية(٣).

وهذا يدل على ارتكازهم على البُعد المؤثِّر في تحرك الناس، ومن هنا كانت تتمّ المبايعة لزيد وابنه يحيى من بعده على الصيغة التالية: «إنَّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ الظالمين، وإقفال المجمر(٤)، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقّنا، أتبايعون على ذلك»(٥).

فالحركة كانت من ضمير المظلومين، والمحرومين، والمستضعفين. إنّ المحروم

---

(١) أنظر: منتهى الآمال، ج٢، ص٥٩ وما بعدها، وأيضًا: مقالات الإسلاميين، ج١، ص١٣٦-١٦٦. فقد ذكر كل من خرج من آل علي بن أبي طالب عليه السلام، من خروج الإمام الحسين عليه السلام وحتى آخر من خرج من الزيديين. فراجع.

(٢) مقاتل الطالبين، ص١٤٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٣٠٠.

(٤) جمر الأمير الجند، أي أبقاهم في ثغر العدو ولم يقفلهم.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص١٧٢.

الذي رأى أن إمامه قُتِل وصُلِب فإنه بالطبع سيثور. وفعلاً لم يُولد في مقاطعة خراسان، وأفغانستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وباد كوبا، وبخارى، وسمرقند⁽¹⁾، مولود في تلك السنة التي قتل فيها يحيى إلَّا سُمِّي يحيى أو زيداً⁽²⁾.

فيحيى وزيد قُتِلا، ولكن مائة ألف شخص أمثال: زيدٍ، ويحيى، خرجوا إلى الحياة، وهذه هي طبيعة الحركة الرسالية التي كانت للحق وخالصة لوجه الله، يُقتل فيها القائد، ولكن ينمو من جديد بمائة ضعف: **﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾**⁽³⁾.

إن السلسلة التي قُيِّد بها يحيى اشتُريت بمبالغ طائلة⁽⁴⁾، وتحوَّلت إلى خواتم لكل الثائرين في خراسان، كل ذلك من أجل التبرُّك⁽⁵⁾. وبعد أربع سنوات من مقتل يحيى ظهر أبو مسلم الخراساني⁽⁶⁾ في خراسان مطالباً بدم يحيى. وأخذ جيشاً من الموالي باسمه، وقتل كل من اشترك في الجيش الذي هزم جيش يحيى، آلاف الأفراد قُتلوا بتهمة انتمائهم إلى الحركة المضادة ليحيى، ودُفِن يحيى وأصبح مدفنه أول مزار علني اتَّخذته الحركة الرسالية⁽⁷⁾.

---

(١) معجم البلدان، ج٢، ص٣٥١، وما بعدها.

(٢) شذرات الذهب، ج٢، ص١٠٩. منتهى الآمال، ج٢، ص٧٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٤) مقاتل الطالبيين، ص١٤٧. منتهى الآمال، ج٢، ص٧٢.

(٥) مقاتل الطالبيين، ص١٤٥. تتمة المنتهى، ص١٤٢.

(٦) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤٧٢. زيد الشهيد، ص١٨٧.

(٧) هناك قولان في مكان مدفنه:

الأول: في قرية أرعونة، كما في مروج الذهب، ج٣، ص٢١٢: «فقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها ارعونة، ودفن هنالك، وقبره مشهور مزور إلى هذه الغاية..». وإليه ذهب صاحب شذرات الذهب، ج٢، ص١٠٩.

الثاني: في قرية جُوزجان، قال الاصفهاني في مقاتل الطالبيين، ص١٥٠: «وصلب يحيى بن زيد على باب مدينة الجوزجان. في وقت قتله.. فلم يزل مصلوبًا.. فأنزلوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه ثم دفنوه». ومثله في مراقد المعارف، ج٢، ص٣٦٧.

ونقل الأمين رحمه الله في دائرة المعارف الشيعية، ج١٠ عنوان: (مقام يحيى بن زيد)، مقالاً

وبدأ أبو مسلم الخراساني يقتل من وجد أسمه في ديوان بني أمية⁽١⁾، ويجمع الأنصار باسم يحيى وانتصر -أبو مسلم- على بني أمية، وأُزيلت دولتهم من الوجود، تلك الدولة التي كانت رمزاً للفساد والجريمة والكفر والشرك، انتهت بسبب مقتل يحيى.

* عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَلَبِيِّ قَالَ: قَالَ: أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «**إِنَّ آلَ أَبِي سُفْيَانَ قَتَلُوا الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام، فَنَزَعَ اللهُ مُلْكَهُمْ، وَقَتَلَ هِشَامٌ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ فَنَزَعَ اللهُ مُلْكَهُ، وَقَتَلَ الْوَلِيدُ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ فَنَزَعَ اللهُ مُلْكَهُ**»⁽٢⁾.

* وعَنْ دَاوُدَ الْبَرْقِيِّ قَالَ: سَأَلَ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام رَجُلٌ وَأَنَا حَاضِرٌ عَنْ قَوْلِ الله: ﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ**﴾⁽٣⁾، فَقَالَ عليه السلام: **أَذِنَ فِي هَلَاكِ بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَ إِحْرَاقِ زَيْدٍ [بـ] سَبْعَةَ أَيَّامٍ**»⁽٤⁾.

وسقوط بني أمية كان انتصاراً للفضيلة والعدالة، وآخر مسمار دُقّ في نعش بني أمية، دُقّ بيد يحيى بن زيد. فالناس كلهم يموتون ويذهبون، ولكن يحيى قُتِل بشرف، وبمقتله استطاع أن يعمل عملاً جباراً. فسلام الله عليه يوم جاهد، ويوم قُتِل شهيداً، ويوم يُبعث حيًّا.

إن النهاية المفجعة التي انتهت إليها حياة يحيى بن زيد، تحوّلت إلى انتصار هو

تحقيقيًّا، ذكر فيه الكاتب عبدالحي حبيبي، أن: «يحيى وأصحابه قصدوا جوزجان، وهناك التحم الطرف في معركة في قرية أرغوي (تعرف اليوم بقراغوي) في جوزجان....»، ثم قال: «إن اسم مدفن الشهيد يحيى ذكر في مروج الذهب للمسعودي (أرعونه)، وفي عمدة الطالب لإبن المهنا (أرعوي) وفي دائرة المعارف الإسلامية (أرعو)، وكلها تصحيف لكلمة (أرغونه)؛ القرية التي تقع في جوزجان، واستمدت شهرتها من مرقد الشهيد يحيى.. وعلى هذا فإن مرقد الشهيد يحيى في جوزجان شمال أفغانستان».

(١) مقاتل الطالبيين، ص١٥٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٠٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٢.

(٤) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٩١.

نهاية الحكم الأموي.

بقي أن نعرف أنه كانت هناك حركات متلاحقة للزيدية، سواء التي قادها أبناؤه الذين من صلبه، أو الذين تسلَّموا القيادة منه. ونواصل الحديث هنا عن إثنين آخرين من أبناء زيد اللذين هما من صلبه. أما الذين تسلموا القيادة من زيد ولم يكونوا من صلبه كثورة محمد وإبراهيم، فسوف نُشير إليهم في المواضع القادمة.

الحسين بن زيد

أحد أبناء زيد هو الحسين الذي يُسمَّى ذي الدمعة(٥)، وقد اتَّخذ بعد مقتل أبيه حياةً تُشبه إلى حدٍّ بعيد حياة الإمام زين العابدين عليه السلام، بعد استشهاد والده الإمام الحسين عليه السلام، فكما أن الإمام زين العابدين عليه السلام، كوّن بتلك الحياة المأساوية وبالبكاء والدعاء، الخلفية الرسالية في المجتمع الإسلامي، وربّى رجلاً مثل زيد بن علي، ثار وثارت من بعده أجيال. كذلك الحسين بن زيد المعروف بدمعته وبكائه، وهو العالم الزاهد، قد ربّى من بعده أجيالاً من الثائرين منهم يحيى حفيده(٦)، وكان من الرجال الذين ثاروا ثورة بطولية.

يحيى يقود ثورتين

ثار يحيى (الحفيد) أول مرة في أيام المتوكل العباسي في خراسان حيث جمع الأنصار وقاتل الجيش العباسي، إلَّا أن أنصاره انهزموا أمام كثافة الجيش العباسي،

---

(٥) ويلقب -أيضاً- بذي العَبرة، رباه الإمام الصادق عليه السلام بعد شهادة أبيه زيد وهو ابن سبع سنين، فأخذ عن الإمام علماً كثيراً، وكان عابداً زاهداً، ولقب بذي الدمعة لكثرة بكائه في صلاة الليل من خشية الله، وشهد حرب محمد (النفس الزكية)، وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام، ثم توارى.. أنظر: بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٠٦. منتهى الآمال، ج٢، ص٧٥.

(٦) هو يحيى بن عمر بن الحسين (ذي الدمعة) بن زيد بن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام. وقيل: إنه وابن الحسين بن زيد بن علي، أي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، أنظر: منتهى الآمال، ج٢، ص٧٦. الشاهد هنا، قصته سواء كان ابن الحسين ذي الدمعة أو حفيده.

فأُسِر وأُخِذ إلى والي خراسان، ومن ثم إلى بغداد، ومن ثم إلى العاصمة سامراء عند المتوكل العباسي. وبعد وساطات عند المتوكل العباسي أفرج عنه وأخذ منه الضمانات الكافية⁽¹⁾ بألاّ يثور ضده مرة أخرى وفعلًا لم يقم يحيى في أيام المتوكل العباسي بثورة أخرى⁽٢⁾.

وبعد أن قُتِل المتوكل، جاء يحيى إلى الكوفة وبدأ يتَّصل بزوار قبر الإمام الحسين عليه السلام الذي كان له في أيام العباسيين جميعاً زوّارٌ ثوريّون، وهؤلاء الزوار كانوا يأتون للزيارة، لا لمجرد أداء طقوس، إنما كانوا يزورون كربلاء للاتِّصال بعضهم ببعض ولتجديد الولاء للإمام الحسين عليه السلام ولنهجه في رفض الظلم.

فالزيارة لقبر الإمام الحسين عليه السلام كانت تقوم بدور أساس في معارضة الدولة العباسية، لذلك كان العباسيون يُحاربون قبر الإمام الحسين عليه السلام؛ لأن القبر كان قد تحوَّل إلى مركز تجمّع لحركة المعارضة.

اتَّصل يحيى بزوّار قبر الإمام الحسين عليه السلام⁽٣⁾، واستجاب جماعة كثيرة منهم له، ورجع إلى الكوفة، ثم دعا أصحابه أهل الكوفة لبيعته، وكانوا ينادون: «أيها الناس، أجيبوا داعي الله»، فدخل في بيعته خلق كثير⁽٤⁾.

يحيى يستولي على السلطة في الكوفة

سيطر يحيى على الكوفة⁽٥⁾، وأول ما قام به أخذ الأموال التي كانت في بيت المال ووزَّعها على الفقراء والمساكين، وبهذه الطريقة استطاع أن يجتذب أكبر قطاع

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٥٦.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٥٠٦. الفخري، ص٢٣٧.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص٥٠٧. منتهى الآمال، ج٢، ص٧٦.

(٤) منتهى الآمال، ج٢، ص٧٦.

(٥) من أحداث سنة ٢٥٠هـ. كما في: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢٦٦. فهرس التراث، ج١، ص١٩٩. لكن الكامل في التاريخ (ج٧، ص٥٣) ذكرها من أحداث سنة ٢٣٥هـ.

ممكن من الشعب⁽¹⁾. ثم عدل بين الناس، وتحمّل ثقل الرسالة، واجتمع حوله أناس كثيرون. وكان يحيى رجلاً متديِّناً عابداً زاهداً. بالإضافة إلى ذلك فإنه كان رجلاً شجاعاً، ومن شجاعته أنه عندما حارب في أول معركة ضد والي الكوفة الذي كان يمتلك جيشاً وشرطة، قال لأنصاره قفوا هاهنا فإني أكفيكم الجيش كله، وأخذ بيده السيف ونزل إلى ساحة المعركة وحده وهزم الجيش العباسي المؤلف من الفرق التي كانت موجودة في الكوفة كلها بقيادة واليها وقتل الوالي العباسي عبدالله بن محمود وانتهى كل شيء ورجع إلى جيشه وأنصاره⁽²⁾.

قوات العباسيين تهزم يحيى

وبعد أن بقي في الحكم لعدة سنوات وجرت خلالها معارك كثيرة بينه وبين الحاكم العباسي المستعين بالله، وهو الثاني عشر من الخلفاء العباسيين، كان له الغلبة في بعضها، وبعضها كانت متكافئة. إلَّا أن كثرة الهجمات التي كان العباسيون يشنُّونها عليه، أضعفته وقاد جيشه إلى الهزيمة في معركة استشهد فيها مع عدد كبير من أنصاره ولم يعرف رأسه من بين الرؤوس لكثرة الجراح التي كانت به.

وبعد استشهاده أسر أهله وأنصاره وأخذوا إلى بغداد مشياً على الأقدام، وكان إذا عجز أي أسير عن المشي قُتِل صبراً، ولما وصل الأسرى إلى بغداد خرج أهلها في تظاهرة غاضبة استنكاراً لهذه العملية ولقتل يحيى بالذات، الذي وضع رأسه على صليب، وجاؤوا إلى عامل العباسيين عليها وهو محمد بن عبد الله بن طاهر، مستنكرين ما جرى⁽³⁾.

وعندها أمر محمد بن عبد الله بن طاهر بأن يُفرج عن الأسرى، وبالتالي أصبحت العملية كلها إثارة جديدة ضد الحكم العباسي وانتهت بثورات أخرى سنتكلم عنها.

---

(١) منتهى الآمال، ج٢، ص٧٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٥٦. مقاتل الطالبيين، ص٥٠٧.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص٥١٠.

هـذه واقعة من الوقائع الكثيرة التي وقعت في التاريخ وقد قادها يحيى حفيد الحسين بن زيد المشهور بذي الدمعة.

عيسى بن زيد

وهناك ابن آخر لزيد له قصة مؤثرة جدًّا وهو عيسى بن زيد، وهذه القصة إن كانت تدل على شيء فإنها تدل على الجو المكهرب الذي كان يعيشه الرساليون آنئذٍ، وأنهم كيف كانوا يواجهون كل تلك الضغوط بشجاعة وبسالة نادرة.

لقد خرج عيسى مع محمد وإبراهيم اللذين ثارا ضد الحكم العباسي أيام المنصور⁽¹⁾، وعندما انهزم جيش إبراهيم في البصرة، اختفى عيسى في الكوفة⁽²⁾. وقبل كل شيء لا بد أن نعرف أن اختيار عيسى لمنطقة الكوفة، كان اختياراً موفقاً وعلى طول الخط، لأنها كانت المنطقة المعارضة للحكم الأموي والعباسي، والمنطقة الموالية لأهل البيت عليهم السلام، لذا فإنه توارى وعاش بسرية بالغة حتى إن يحيى سأل والده (أو جدّه) ذا الدمعة وقال: «يا أبة، إني أشتهي أن أرى عمي عيسى بن زيد، فإنه يقبح بمثلي ألّا يلقى مثله من أشياخه، فدافعني عن ذلك مدة وقال: إن هذا أمر يثقل عليه، وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إيّاه فتُزعجه.

فلم أزل به أداريه وألطف به حتى طابت نفسه لي بذلك، فجهَّزني إلى الكوفة وقال لي: إذا صرت إليها فاسأل عن دور بني حي، فإذا دللت عليها فاقصدها في السكة الفلانية، وسترى في وسط السكة دارًا لها باب صفته كذا وكذا فاعرفه

---

(١) أنظر: عمدة الطالب، ص٦٣. وقال في مقاتل الطالبيين، ص٣٤٤: «كان عيسى والحسين ابنا زيد بن علي مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن في حروبهما من أشد الناس قتالا وأنفذهم بصيرة، فبلغ ذلك عنهما أبا جعفر فكان يقول: ما لي ولابني زيد وما ينقمان علينا؟. ألم نقتل قتلة أبيهما، ونطلب بثأرهما، ونشفي صدورهما من عدوهما؟».

(٢) كان أختفاؤه في دار الحسن بن صالح بن حي، وهو من كبار الشيعة الزيدية، له معرفه بالفقه، والكلام، وله فيهما مصنفات. وقد تزوج عيسى بن زيد من أبنته. راجع عمدة الطالب، ص٦٣.

واجلس بعيدًا منها في أول السكة، فإنه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون الوجه، قد أثَّر السجود في جبهته، عليه جُبَّة صوف، يستقي الماء على جمل، وقد انصرف يسوق الجمل، لا يضع قدمًا ولا يرفعها إلّا ذَكَرَ الله عز وجلّ، ودموعه تنحدر، فقم وسلّم عليه وعانقه، فإنه سيذعر منك كما يذعر الوحش، فعرّفه نفسك وانتسب له، فإنه يسكن إليك ويُحدِّثك طويلًا، ويسألك عنّا جميعًا ويُخبرك بشأنه ولا يضجر بجلوسك معه، ولا تُطل عليه، وودعه فإنه سوف يستعفيك من العودة إليه، فافعل ما يأمرك به من ذلك فإنك إن عدت إليه توارى عنك، واستوحش منك وانتقل عن موضعه، وعليه في ذلك مشقة.

فأجابه يحيى. فقلت: أفعل كما أمرتني. وأضاف: وردتُ الكوفة حتى إذا رأيته (عيسى).. كما وصف لي أبي، لا يرفع قدمًا ولا يضعها إلّا حرك شفتيه بذكر الله، ودموعه ترقرق في عينيه، وتذرف أحياناً، فقمتُ فعانقته، فذعر مني كما يذعر الوحش من الإنس.

فقلت: يا عم، أنا يحيى بن الحسين بن زيد بن أخيك، فضمَّني إليه وبكى حتى قلت قد جاءت نفسه، ثم أناخ جمله، وجلس معي، فجعل يسألني عن أهله رجلًا رجلًا، وامرأةً امرأةً، وصبيًّا صبيًّا، وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكي، ثم قال: يا بني، أنا أستقي على هذا الجمل الماء، فأصرف ما أكتسب، يعني من أجرة الجمل إلى صاحبه، وأتقوَّت باقيه، وربّما عاقني عائق عن استقاء الماء فأخرج إلى البريّة، يعني بظهر الكوفة، فألتقط ما يرمي الناس به من البقول فأتقوَّته.

وقد تزوَّجتُ إلى هذا الرجل ابنته، وهو لا يعلم من أنا إلى وقتي هذا، فولدت مني بنتًا، فنشأت وبلغت، وهي أيضًا لا تعرفني، ولا تدري من أنا، فقالت لي أمها: زوّج ابنتك بابن فلان السقاء -لرجل من جيراننا يسقي الماء- فإنه أيسر منا وقد خطبها، وألحّت عليَّ، فلم أقدر على إخبارها بأن ذلك غير جائز، ولا هو بكفء لها، فيشيع خبري، فجعلت تلحّ عليَّ فلم أزل أستكفي الله أمرها حتى ماتت بعد أيام، فما أجدني آسى على شيء من الدنيا أساي على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من

رسول الله ﷺ.

قال: ثم أقسم عليَّ أن أنصرف ولا أعود إليه وودّعني. وأضاف يحيى قائلاً: فلما كان بعد ذلك صرت إلى الموضع الذي انتظرته فيه لأراه فلم أره، وكان آخر عهدي به»⁽¹⁾.

قد يعتقد البعض بأن عيسى كان مجرّد سَقّاء، ولكن الحقيقة أن عمله في السقاية كان مجرّد غطاء أمني في ظل الحكم الإرهابي آنذاك، فخلال فترة بقائه في الكوفة كان يجتمع بالرساليين ويُربِّيهم في تلك الظروف العصيبة.

عن خصيب الوابشي، وكان من أصحاب زيد بن علي وكان خصيصاً بعيسى بن زيد، قال: «كان عيسى بن زيد على ميمنة محمد بن عبد الله بن الحسن يوم قتل، ثم صار إلى إبراهيم فكان معه على ميمنته حتى قتل، ثم استتر بالكوفة في دار علي بن صالح بن حي، فكنا نصير إليه حال خوف، وربما صادفناه في الصحراء يستقي الماء على جمل لرجل من أهل الكوفة، فيجلس معنا ويُحدِّثنا.

وكان يقول لنا: والله، لوددت أني آمن عليكم هؤلاء فأُطيل مجالستكم، فأتزوَّد من محادثتكم والنظر إليكم، فوالله، إني لأتشوَّقكم وأتذكَّركم في خلوتي وعلى فراشي عند مضجعي، فانصرفوا لا يشهر موضعكم وأمركم فيلحقكم معرَّة وضرر»⁽²⁾.

فقد فرضت عليه الظروف هذا القدر من التخفِّي، وبرغم ذلك كان يقوم بدور توجيه القيادات الوسيطة التي بدورها تُوجِّه أُناساً آخرين في المجتمع الكوفي.

وهكذا حمل الرساليون مشعل الرسالة يداً بيد ولم يدعوه يسقط، ولو سقط لأظلم العالم ولما تحوَّلت بصائر الوحي إلى نور يُهتدى به في الظلمات، وإنما كان هناك مَنْ تحمَّلوا أعباء الدعوة ومصاعب الظروف ليقوموا بدورهم الرسالي، ممَّا يُضاعف المسؤولية علينا ونحن قد نعيش ظروفاً مشابهة، وما نجده اليوم من قيم، وما نمتلكه

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٣٤٥-٣٤٧.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٤٩.

من بصائر، ندين فيها لأولئك الرجال الأبطال الذين عاشوا جنوداً مجهولين لمبادئهم.

وروي عن علي بن جعفر الأحمر قال: حدثني أبي، قال: «كنت أجتمع أنا، وعيسى بن زيد، والحسن وعلي ابنا صالح بن حي، وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق، وجناب بن نسطاس، في جماعة من الزيدية في دار بالكوفة، فسعى ساعٍ إلى المهدي بأمرنا، ودلّه على الدار. فكتب إلى عامله بالكوفة بوضع الأرصاد علينا، فإذا بلغه اجتماعنا كبسنا وأخذنا ووجَّه بنا إليه.

فاجتمعنا ليلة في تلك الدار، فبلغه خبرنا فهجم علينا، ونذر القوم به وكانوا في علو الدار، فتفرَّقوا ونجوا جميعًا غيري. فأخذني وحملني إلى المهدي فأُدخلت إليه، فلما رآني شتمني بالزنا، وقال لي: يا ابن الفاعلة، أنت الذي تجتمع مع عيسى بن زيد وتحثّه على الخروج عليَّ وتدعو إليه الناس؟.

فقلت له: يا هذا، أما تستحيي من الله، ولا تتقي الله ولا تخافه؟. تشتم المحصنات وتقذفهن بالفاحشة!!. وقد كان ينبغي لك ويلزمك في دينك وما وليته، أن لو سمعت سفيهًا يقول مثل قولك أن تقيم عليه الحد.

فأعاد شتمي ثم وثب إليّ فجعلني تحته، وضربني بيديه، وخبطني برجليه، وشتمني. فقلت له: إنك لشجاع شديد أيّد، حين قويت على شيخ مثلي تضربه، لا يقدر على المنع من نفسه ولا الانتصار لها. فأمر بحبسي والتضيق عليَّ، فقُيِّدتُ بقيد ثقيل وحُبست سنين. فلما بلغه وفاة عيسى بن زيد بعث إليَّ فدعاني فقال لي: من أي الناس أنت؟. قلت من المسلمين. قال: أعرابي أنت؟. قلت: لا. قال فمن أي الناس أنت؟. قلت: كان أبي عبدًا لبعض أهل الكوفة وأعتقه فهو أبي.

فقال لي: إن عيسى بن زيد قد مات.

فقلت: أعظم بها مصيبة، رحمه الله فلقد كان عابدًا ورعًا، مجتهدًا في طاعة الله، غير خائف لومة لائم.

قال: أفما علمت بوفاته؟. قلت: بلى. قال: فَلِمَ لم تُبشرني بوفاته؟.

فقلت: لم أحب أن أُبشرك بأمر لو عاش رسول الله ﷺ فعرفه لساءه.

فأطرق طويلاً ثم قال: ما أرى في جسمك فضلًا للعقوبة، وأخاف أن أستعمل شيئًا منها فيك فتموت، وقد كُفيتُ عدوي، فانصرف في غير حفظ الله، والله لئن بلغني أنك عدتَ لمثل فعلك لأضربن عنقك.

قال: فانصرفت إلى الكوفة. فقال المهدي للربيع: أما ترى قلّة خوفه وشدّة قلبه. هكذا يكون والله أهل البصائر»⁽¹⁾.

وفاة عيسى بن زيد

ظل المهدي العباسي يسعى في طلب عيسى بن زيد سعياً حثيثاً فلم يقدر على الإمساك به، وقد بذل في سبيل ذلك الأمان لعيسى ووعده إن أتاه أن يُعطيه الأموال الكثيرة، ولكن عيسى كان يُدرك هدف الخليفة العباسي من أمانه ذاك الذي ما جاء إلَّا لخوفه من عيسى وما كان يعده في سبيل الثورة على العباسيين.

رُوي عن سعيد بن عمر بن جنادة البجلي قال: «حج عيسى بن زيد والحسن بن صالح، فسمعنا مناديًا ينادي: ليبلغ الشاهد الغائب أن عيسى بن زيد آمن في ظهوره، وتواريه. فرأى عيسى بن زيد الحسن بن صالح قد ظهر فيه سرور بذلك فقال: كأنك قد سررت بما سمعت!. فقال: نعم. فقال له عيسى: والله لإخافتي إيّاهم ساعة أحبّ إليّ من كذا وكذا»⁽²⁾.

ورُوي عن علي بن جعفر: عن أبيه قال: «اجتمعت أنا، وإسرائيل بن يونس، والحسن، وعلي ابنا صالح بن حي، في عدة من أصحابنا، مع عيسى بن زيد، فقال له الحسن بن صالح بن حي: متى تُدافعنا بالخروج وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل؟.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٣٥٢-٣٥٣.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٤٨.

فقال له عيسى: ويحك، أتكثر عليَّ العدد وأنا بهم عارف. أما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل أعلم أنهم يُريدون الله عزّ وجلّ، ويبذلون أنفسهم له، ويصدقون للقاء عدوه في طاعته، لخرجت قبل الصباح حتى أُبلي عند الله عذراً في أعداء الله، وأُجري أمر المسلمين على سنّته وسنّة نبيه ﷺ، ولكن لا أعرف موضع ثقة يفي ببيعته للهّ عزّ وجلّ، ويثبت عند اللقاء!..»(١).

لقد اشتمل ديوانه على عشرة آلاف رجل، وهذا يدلل على أنه كان يقود حركة واسعة ضد العباسيين، وقد شعر العباسيون بهذا الخطر الكبير الذي يتهدَّد سلطتهم، فسعوا بكل الطرق للقضاء عليها، عن طريق القضاء على عيسى.

قال علي بن محمد بن سليمان النوفلي: «حدثني أبي عن أبيه وعمه، قال: إن عيسى بن زيد انصرف من وقعة باخمرى بعد مقتل إبراهيم فتوارى في دور ابن صالح بن حي، وطلبه المنصور طلبًا ليس بالحثيث. وطلبه المهدي وجدّ في طلبه حيناً فلم يقدر عليه. فنادى بأمانه ليبلغه ذلك فيظهر، فبلغه فلم يظهر، وبلغه خبر دعاة له ثلاثة وهم: ابن علاق الصيرفي، وحاضر مولى لهم، وصباح الزعفراني، فظفر بحاضر فحبسه، وقرّره ورفق به واشتد عليه ليُعرِّفه موضع عيسى فلم يفعل، فقتله»(٢).

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٣٥٣.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٥٥. أورد أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (ص٣٥٩)، طريقه شهادة حاضر صاحب عيسى بن زيد، قال: قال محمد بن أبي العتاهية: قال: حدثني أبي: «لما امتنعت من قول الشعر وتركته، أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم، فأخرجت من بين يديه إلى الحبس، فلما أُدْخِلتُه دهشت وذهل عقلي ورأيت منظراً هالني، فرميت بطرفي أطلب موضعًا آوي إليه أو رجلًا آنس بمجالسته، فإذا أنا بكهل حسن السمت، نظيف الثوب، يبيِّن عليه سيماء الخير فقصدته فجلست إليه من غير أن أسلم عليه أو أسأله عن شيء من أمره، لِما أنا فيه من الجزع والحيرة، فمكثت كذلك مليًا وأنا مطرق مفكر في حالي، فأنشد هذا الرجل هذين البيتين، فقال:

تعوّدت مسَّ الضر حتى ألفته ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيّرني يأسي من الناس واثقًا ... بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

فاستحسنت البيتين وتبرّكت بهما وثاب إليَّ عقلي، فأقبلت على الرجل فقلت له: تفضل أعزك الله بإعادة هذين البيتين، فقال لي: ويحك يا إسماعيل، ولم يُكنِّني، ما أسوأ أدبك، وأقل عقلك ومروءتك، دخلت إليَّ ولم تُسلِّم عليَّ بتسليم المسلم على المسلم، ولا توجَّعت لي توجُّع

توفي عيسى ودفن كسقَّاء في الكوفة(١)، ودفن قرب قرية الشنافية، (٢)، حيث هناك قبر يُنسب إليه.

وبعد دفن عيسى اجتمع صباح الزعفراني بالرساليين الذين كانوا معه، أي بـ(الخليّة الرسالية) حسب التعبير الحديث، ولم يكن عيسى وحده مختفيًا ويقوم بالعمل في تلك الدرجة الشديدة من الخفاء والكتمان، وإنما الذين يتَّصلون به كانوا

المبتلى للمبتلى، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم حتى إذا سمعت منّي بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله فيك خيرًا ولا أدبًا، ولا جعل لك معاشًا غيره. لم تتذكَّر ما سلف منك فتتلافاه، ولا اعتذرت ممَّا قدَّمته وفرطت فيه من الحق حتى استشهدتني مبتديًا كأن بيننا أُنسًا قديمًا، ومعرفة شافية، وصحبة تبسط المنقبض!.

فقلت له: اعذرني متفضلًا، فإن دون ما أنا فيه يُدهش.

قال: وفي أي شيء أنت، إنما تركت قول الشعر الذي كان جاهك عندهم وسبيلك إليهم، فحبسوك حتى تقوله، وأنت لا بد من أن تقوله، فتُطلق، وأنا يُدعى بي الساعة فأطلب بإحضار عيسى بن زيد بن رسول الله ﷺ فإن دللتُ عليه فقُتل، لقيتُ الله بدمه، وكان رسول الله ﷺ خصمي فيه، وإلَّا قتلتُ، فأنا أولى بالحيرة منك، وأنت ترى احتسابي وصبري.

فقلت: يكفيك الله، وأطرقت خجلًا منه. فقال لي: لا أجمع عليك التوبيخ والمنع، اسمع البيتين واحفظهما، فأعادهما عليَّ مرارًا حتى حفظتهما، ثم دُعي به وبي، فلما قمنا قلت: من أنت أعزك الله؟.

قال: أنا حاضر صاحب عيسى بن زيد. فأدخلنا على المهدي، فلما وقف بين يديه قال له: أين عيسى بن زيد؟. قال: ما يُدريني أين عيسى، طلبتَه وأخفتَه فهرب منك في البلاد، وأخذتني فحبستني، فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوس؟.

فقال له: فأين كان متواريًا؟. ومتى آخر عهدك به؟. وعند من لقيته؟.

فقال: ما لقيته منذ توارى، ولا أعرف له خبرًا.

قال: والله لتدلّني عليه، أو لأضربن عنقك الساعة.

قال: اصنع ما بدا لك، أنا أدلك على ابن رسول الله ﷺ لتقتله، فألقى الله ورسوله وهما يطالباني بدمه، والله لو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه.

قال: اضربوا عنقه. فقدم فضرب عنقه.

ثم دعاني فقال: أتقول الشعر أو أُلحقك به، فقلت: بل أقول الشعر، فقال: أطلقوه».

(١) عمدة الطالب، ص٣٤٩. مراقد المعارف، ج٢، ص١٤٤، الإمامة والسياسية، ج٢، ص١٨٦.

(٢) مراقد المعارف، ج٢، ص١٤٤.

كذلـك، فالواحد منهم أصبح نجّاراً، والآخر فلّاحاً، وهؤلاء كانوا في السـابق من كبار الوجهاء والشخصيات ولكنهم تنازلوا عنها، ففي سبيل الله يهون كل شيء.

وكان رأي الزعفراني في أن يذهب إلى المهدي العباسي ويُخبره بموت عيسى. قـال صباح للحسـن بن صالح: «أما ترى هذا العـذاب والجهد الذي نحن فيه بغير معنى، قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله، وإنما نُطلب خوفًا منه، فإذا علم أنه قد مـات أَمِنُوه وكفُّوا عنا، فدعني آتي هذا الرجل -يعني المهدي- فأُخبره بوفاته حتى نتخلَّص من طلبه لنا، وخوفنا منه.

ولكـن الحسـن بن صالح قـال: لا والله، لا تُبشِّر عـدو الله بموت ولي الله ابن نبـي الله ﷺ، ولا نُقِرُّ عينه فيه ونُشـمته به، فوالله لليلـة يبيتها خائفًا منه أحبّ إليَّ من جهاد سنة وعبادتها»⁽¹⁾.

وبعد شهرين توفي الحسن بن صالح والتحق بالرفيق الأعلى.

ففكَّـر صباح أن يُطبق رأيه وخُطَّته، فأخذ أطفال عيسـى⁽²⁾ معه ثم ذهب إلى سـامراء وهـو متنكر، فقـد كان أهل البلـد يعرفونه، ولما وصل دخـل على المهدي، فانتفض المهدي العباسي وقال: عدو الله جاء برجله، ائتوني به.

لقد مضت خمس سنوات أو أكثر وهو يبحث عنه، وصرف الكثير من أموال الدولة في سبيل أن يُلقي القبض على هؤلاء الرجال، وما استطاع أن يقبض عليهم، والآن أحدهم يأتي إليه برجليه، إنه أحسن صيد بالنسبة للمهدي العباسي.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٣٥٥.

(٢) لعيسى بن زيد أربعة أبناء: أحمد، وزيد، ومحمد، والحسين الغضارة. أما أحمد (المختفي) فقد كان رجلاً عالمًا، فقيهًا زاهدًا عظيمًا، له كتاب في الفقه، أصبح ضريرًا آخر أيامه، عاش منذ جرى تسليمه للمهدي حتى أيام الرشيد في دار الخلافة، وقيل حتى كبر وخرج، فأخذوه وحبسوه، لكنه تخلص من السجن وتوارى حتى توفي في البصرة، ولذلك سمّوه المختفي. وأما الحسين فهو جد علي بن زيد بن الحسين الذي خرج بالكوفة في أيام المهتدي العباسي، بعد أن بايعه جماعة من عوام الكوفة وأعرابهم... طالع: منتهى الآمال، ج٢، ص٨٣.

قال المهدي العباسي: «فلا حيّاك الله ولا بيّاك، ولا قرّب دارك، يا عدو الله، أنت الساعي على دولتي، والداعي إلى أعدائي؟.

قال صباح: أنا والله هو، وقد كان كل ما ذكرته.

فقال: أنت إذا الخائن الذي أتت به رجلاه، أتعترف بهذا مع ما أعلمه منك، وتجيئني آمنًا؟.

فقلت: إني جئتك مُبشِّرًا ومُعزيًا.

قال: مُبشِّرًا بماذا؟. ومُعزيًا بمَنْ؟.

قلت: أما البشرى فبوفاة عيسى بن زيد. وأما التعزية ففيه لأنه ابن عمك ولحمك ودمك.

فحوّل (المهدي) وجهه إلى المحراب وسجد وحمد الله...

والعجيب في ذلك أنه كان رئيس دولة لا تغيب عنها الشمس ويسجد لله شكراً لأن عيسى السقَّاء، في الكوفة توفي. فهل يعني سجوده أن عيسى كان مجرَّد سَقّاء، أم أنه كان يُشكِّل خطراً حقيقيًّا على الظلم والاستكبار، وأنه قد اتَّخذ السقاية وسيلة لأعماله الحقيقية؟.

وأردف المهدي قائلًا: ومنذ كم مات؟.

قلت: منذ شهرين.

قال: فَلِمَ لم تُخبرني بوفاته إلّا الآن؟.

أجاب صباح: منعني الحسن بن صالح، وأعدتُ عليه بعض قوله.

قال: وما فعل؟.

قلت: مات، ولولا ذلك ما وصل إليك الخبر ما دام حيًّا. فسجد سجدة

أخرى وقال: الحمد لله الذي كفاني أمره، فلقد كان أشدّ الناس عليَّ، ولعلّه لو عاش لأخرج عليَّ غير عيسى. سلني ما شئت فوالله لأغنينك، ولا رددتك عن شيء تريده».

أليس هذا بمستغرب؟. فالظاهر أن الحسن بن صالح كان عنصرًا خطرًا على الدولة العباسية، أكبر إمبراطورية على وجه الأرض منذ قديم التاريخ وإلى الآن، فنحن لم نر إمبراطورية أعظم من البلاد الإسلامية.

من كان هذا الرجل؟. وماذا كان يعمل في سبيل الله حتى أخاف الله منه أكبر الجبابرة؟.

إن هذه أشياء لا يذكرها التاريخ، إنما خلف أسطر التاريخ نقرأ أشياء كثيرة، إن وراء الأسطر تكمن الحقيقة وهو المهم بالنسبة لنا.

قال صباح: «والله ما لي حاجة، ولا أسألك شيئا إلّا حاجة واحدة.

قال: وما هي؟.

قلت: ولد عيسى بن زيد، والله لو كنتُ أملك ما أعولهم به ما سألتك في أمرهم ولا جئتك بهم، ولكنهم أطفال يموتون جوعاً وضرًا، وهم ضائعون، وما لهم شيء يرجعون إليه، إنما كان أبوهم يستقي الماء ويعولهم، وليس لهم الآن من يكفلهم غيري، وأنا عاجز عن ذلك، وهم عندي في ضنك، وأنت أولى الناس بصيانتهم، وأحق بحمل ثقلهم، فهم لحمك ودمك، وأيتامك وأهلك.

قال: فبكى (المهدي) حتى جرت دموعه. ثم قال: إذاً يكونون والله عندي بمنزلة ولدي، لا أُؤثرهم عليهم بشيء، فأحسن الله يا هذا جزاءك عني وعنهم، فلقد قضيتَ حق أبيهم وحقوقهم، وخفَّفتَ عني ثقلاً، وأهديتَ إليَّ سروراً عظيماً.

قلت: ولهم أمان الله ورسوله، وأمانك، وذمتك وذمة آبائك في أنفسهم وأهليهم وأصحاب أبيهم ألَّا تتبع أحدًا منهم بتبعة ولا تطلبه.

قال: ذلك لك ولهم...»(١).

كل ذلك كان تاريخ جهاد. فيحيى بن زيد، وعيسى بن زيد، والحسين ذو الدمعة ثاروا وشيَّدوا صرح الرسالة لبنة لبنة من أجسادهم ودمائهم ودموعهم، فحتى الدمعة كان الرسالي آنئذٍ يستفيد منها في سبيل توعية الجماهير، فلم يكن يبكي ضعفاً، ولو كان يريد ذلك لبكى في بيته ولم يَثُر أبداً.

ولكن الرسالي كان يثور ويبكي ويستفيد من دمعته في سبيل إثارة الناس، كذلك كان الرساليون في التاريخ يبكون ولكن ليس مثل بكاء الضعفاء بالطبع، وإنما كان بكاؤهم من أجل توعية الناس وإثارتهم، وهذا بكاء مطلوب.

وبالتالي مثَّلت هذه الثورات درعاً للحركة الرسالية التي عملت على تكريس ملامح الإسلام عبر التاريخ.

---

(١) مقاتل الطالبين، ص٣٥٦.

صفو الكلام

* بعد استشهاد زيد بن علي عليه السلام واصل طريقه أبناؤه الثلاثة: يحيى بن زيد، والحسين بن زيد، وعيسى بن زيد، في بقاع مختلفة من العالم الإسلامي، وبأساليب متنوعة من العمل الرسالي.

* قاد يحيى بن زيد الرساليين في خراسان وواجه والي بني أمية بعمل عسكري ثوري فهزمه في المواجهة الأولى، ولكن انهزم جيشه في المواجهة الثانية واستشهد فيها يحيى. إلا أن دم يحيى الشهيد هو الذي أدّى بعد سنوات إلى إنطلاق حركة واسعة ضد بني أمية انتهت إلى سقوط الدولة الأموية.

* أما الحسين بن زيد، فقد سار على نهج الإمام زين العابدين عليه السلام، حيث عمل -من خلال البكاء والدعاء- على صنع الخلفية الرسالية في المجتمع الإسلامي، وربّى أجيالاً من التأثرين، منهم: يحيى حفيده (أو ابنه) الذي كان من الرجال الثوريين الأبطال.

* وأما عيسى بن زيد فقد عاش حياة الاختفاء في الكوفة، وعمل بسريّة بالغة على الاتصال بالرساليين وتشكيل وتربية الخلايا الرسالية للمطالبة بحق آل محمد.

* وهكذا حمل الرساليون مشعل الرسالة يداً بيد، ولم يدعوه يسقط، وبذلك تحوّلت بصائر الوحي إلى نور يُهتدى به في الظلمات.

سُقوطُ الدَّولةِ الأُمويّةِ وَقيامُ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ

إن سقوط الدولة الأموية الكبيرة وقيام الدولة العباسية بعدها ليس بالأمر البسيط. فمن الناحية السياسية كان سبب سقوط الدولة الأموية هو:

- الطغيان والفساد المنتشران في قيادة الدولة.
- التناقض والاختلاف بين أركانها.
- الثورات المتلاحقة من الفئات المستضعفة ضد الدولة ابتداءً من الرساليين، ومروراً بالمعتزلة والمرجئة، وانتهاءً بالخوارج، وغيرهم من الفئات.

لقد تفاعلت هذه الأسباب مع بعضها، وكانت النتيجة هي سقوط الدولة الأموية، وقد سئل أحد شيوخ الأمويين بعد سقوط دولتهم: ما كان سبب زوال ملككم؟.

فأجاب: «إنّا شُغِلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفَقُّده يلزمنا، فظَلَمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنَّوا الراحة منا، وتُحومل على أهل خراجنا فتَخَلَّوْا عنا، وخربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمْضَوْا أموراً دوننا أُخْفَوْا علمها عنا، وتأخَّر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا...»⁽¹⁾.

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٢٢٨.

وإذا أعدنا قراءة تلك الإجابة بلغتنا اليوم نجدها تتلخَّص في أنّ الدولة تخلخلت إداريًّا وتسلَّل إلى الإدارات من ليس أهل لذلك، كما أهملت الدولة وسائل الإنتاج الطبيعية مثل الزراعة التي تُمثِّل المصدر الأول للثروة في كثير من الدول، فترك أصحاب المزارع من الفلاحين مزارعهم واتَّجهوا إلى المدن، وبذلك خربت المزارع وضاق الناس بسياسة الدولة، وبسبب كثرة الإسراف في الأموال من جانب الأمراء، قلّ العطاء، فبدأ التململ في صفوف الجيش. ذلك لأنه منذ أن تأسست الدولة الأموية على يد معاوية كان الجيش يدين بالولاء لكثرة العطاء وإغداق الأموال لا لشيء آخر.

الجيش القائم على العطاء

يقول معاوية في كتابه إلى الإمام علي عليه السلام: «أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بَعضُنا على بعض، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نَرُمّ به ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على ألَّا تلزمني لك طاعة..»(١).

فمؤسس دولتهم هدفه لذة الفوز بالشام واللعب بأموال المسلمين.

ذات مرة دخل عمرو بن العاص على معاوية بعدما كبر ودقّ، ومعه مولاه ورْدَان، فأخذا في الحديث، وليس عندهما غير وردان، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، ما بقي ممَّا تستلذه؟.

فقال معاوية: أما النساء فلا أربَ لي فيهن، وأما الثياب فقد لبست من ليِّنها وجيّدها حتى وهى بها جلدي فما أدري أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من ليِّنه وطيِّبه حتى ما أدري أيها ألذّ وأطيب، وأما الطِّيْب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيّه أطيب، فما شيء ألذّ عندي من شراب بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنيَّ وبني بنيَّ يدورون حولي، فما بقي منك يا عمرو؟.

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص١٣.

قال: مالٌ أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلّته.

فالتفت معاوية إلى ورْدَان فقال: ما بقي منك يا وردان؟.

قال: صنيعة كريمة سنيَّة أُعلِّقها في أعناق قومٍ ذوي فضل وأخطار لا يُكافئونني بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لِعَقِبي في أعقابهم بعدي.

فقال معاوية: تبًّا لمجلسنا سائر هذا اليوم، إن هذا العبد غلبني وغلبك»(١).

حلفاء النظام الأموي طائفة من المرتزقة

نزل عمرو بن العاص الشام فكتب إلى معاوية: «ما كنت صانعًا إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع.

فبعث إليه معاوية، فسار إليه، فقال له معاوية: بايعني!.

قال: لا، والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك.

قال: سَلْ. قال: مصر طُعْمَة، فأجابه إلى ذلك، وكتب له به كتابًا..»(٢).

هكذا بدأ تحالف عمرو بن العاص مع معاوية.

ومرة في أيام صفين لما رأى معاوية القتلى في أهل الشام استدعى النعمان بن جبلة التنوخي، وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء، وقال له: «لقد هممت أن أُولِّي قومك من هو خير منك مقدمًا، وأنصح منك ديناً.

فقال له النعمان: إنَّا لو كنا ندعو قومنا إلى جيش مجموع لكان في وسع الرجال بعضُ الأناة، فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف قاطعة، ورُدَينيّة شاجرة، وقوم ذوي بصائر نافذة، والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه، وحِدْتُ عن الحق وأنا أبصره، وما وُفِّقت لرشد حين أقاتل

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٢٢.

(٢) مروج الذهب، ج٢، ص٣٥٤.

على ملكك ابن عم رسول الله ﷺ، وأول مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية، وأجزل في العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غيًّا أو رُشدًا، وحاشا أن يكون رُشدًا، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حُرمنا أثمار الجنة وأنهارها، وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب..»(١).

لقد صرَّح بالحقيقة وهي أنهم كانوا يُقاتلون عن تين الغوطة وزيتونها، وهل يعقل أن إنساناً مثل الوليد الذي يقول بعد أن جعل القرآن الكريم غرضاً للنشاب:

«تهدّدني بجبّار عنيد فها أنا ذاك جبّار عنيد
إذا ما جئت ربّك يوم حشرٍ فقل: يا ربّ، مزّقني الوليد»(٢)

وقال أيضًا:

فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي(٣)

أو إنسان مثل يزيد بن معاوية صاحب الخمر والقرود والغواني(٤)، أو مثل باقي الخلفاء الأمويين، هل يعقل أن هؤلاء يُريدون إعلاء كلمة الإسلام بالجهاد في سبيله، إنها مهزلة إن صدَّقنا بهذا.

لقد كان الهدف الأول والأخير لهؤلاء الخلفاء هو جلب العدد الأكبر من الغواني والجواري، والإكثار من المغانم والأموال(٥)، ولكن كيف ومن أين لهم؟. وقد توقَّفت الفتوحات التي كانت مصدراً للغنائم والأموال، فمن أين إذن الأموال التي تُصرف على قادة الجيوش، مع هذه الأموال الطائلة التي تصرف في اللعب والفساد؟.

والناتج من كل ذلك هو ثورة الجيش على النظام عندما قلّ العطاء، كما أن هناك داعياً آخر لثورة الجيش عليهم وهو كثرة الحروب والثورات، والاغتيالات

---

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٣٨٤ - ٣٨٥

(٢) الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٩٠.

(٣) شذرات الذهب، ج٢، ص١١١. مروج الذهب، ج٣، ص٢١٦.

(٤) انظر: تاريخ الخلفاء، ص١٦٧.

(٥) تاريخ دمشق، ج١٢، ص٢٣٨، الإصابة، ج٤، ص١٩٧.

التي حصلت لقواده. إن الدولة الأموية كانت تعتمد على الجيش، وحينما قلّ عطاؤه، وزادت نقمة الرعية، قلّ ولاؤه، وحين قلّ الولاء انتهت الدولة.

العباسيّون خلفاء النظام الأموي

ولكن كيف قامت الدولة العباسية؟.

من الناحية الاجتماعية نستطيع أن نُفسِّر قيام الدولة العباسية بأنهم كانوا يُمثِّلون الجناح الوسط داخل الأمة الإسلامية، أي الوسط بين المبادئ الصحيحة للإسلام التي كان يحملها الرساليون، والسلوك المنحرف الذي مثَّله بنو أمية.

فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله تقاسمت الأمة الإسلامية ثلاثة أجنحة هي:

الجناح الأول: جناح الإمام علي(١) بن أبي طالب عليه السلام، وهو الجناح الرسالي الثابت الذي لا تأخذه في الله لومة لائم.

الجناح الثاني: الجناح الجاهلي المُتطرِّف، وهذا الجناح يضم بني أمية من أبي سفيان(٢)، والمغيرة بن شعبة(٣)، والحكم بن العاص بن أمية.

---

(١) قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يَا عَلِيُّ، أَنْتَ وَشِيعَتُكَ عَلَى الْحَوْضِ تَسْقُونَ مَنْ أَحْبَبْتُمْ وَتَمْنَعُونَ مَنْ كَرِهْتُمْ وَأَنْتُمُ الآمِنُونَ يَوْمَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا تَفْزَعُونَ، وَيَحْزَنُ النَّاسُ وَلَا تَحْزَنُونَ...**». بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨.

(٢) صخر بن حرب بن أمية، كانت ولادته قبل عشر سنوات من عام الفيل، دأبه العداء لرسول الله صلى الله عليه وآله، وسعيه في تأجيج الحروب وسوق الجنود عليه. ولم تقم في قريش فتنة إلَّا وكانت له فيها قدم راسخة، انتهى به الأمر عام الفتح إلى إشهار إسلامه قهرًا. وراح يتقلب في النفاق وبه عرف واشتهر. وهو القائل: «يا بني أمية، تلقَّفوها تلقُّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار..». ولقد اشتهر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال فيه: «اللعين ابن اللعين، والطليق ابن الطليق». توفي سنة ثلاثين للهجرة، وله من العمر اثنين وثمانين عامًا. طالع: تتمة المنتهى، للقمي، ج٣، ص٥٠.

(٣) كان إسلامه من غير اعتقاد صحيح، كما أجمعت الأمة على فسقه وفجوره، قال ابن أبي الحديد: «أصحابنا غير متَّفقين على السكوت على المغيرة، بل أكثر البغداديين يُفسِّقونه ويقولون فيه ما يقولون في الفاسق». شرح النهج، ج٢٠، ص٣٦٨.

الجناح الثالث: جناح الوسط، وكان يضم كثيرًا من المسلمين، ومنهم العباسيون، وهم الذين سوف يقومون بدور هذا الجناح في المستقبل.

إن الجناح الصحيح هو الجناح الثابت المستقيم على الفكر الإسلامي، الجناح المحافظ على القيم والمبادئ والملتزم بها التزامًا صارمًا كما قالت فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها: «**وَمَا نَقَمُوا مِنْ أَبِي الحَسَنِ؛ نَقَمُوا وَاللهِ مِنْهُ نكِيرَ سَيْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْئِهِ، وَنكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ..**»(١).

وليس بمقدور القلم أو اللسان التحدُّث عن كل مواقف الاستقامة والثبات على الحق ومواجهة الباطل التي وقفها الإمام علي عليه السلام، إن الأمر الثابت هو استقامته حتى النهاية واستقامته في مواقف تزلّ فيها أقدام الرجال وتلين عندها عزائم الأبطال.

ولكن الجناح العباسي أخيراً استطاع التغلُّب على الساحة بوجود ظروف مهيأة له، إذ إن أغلب الناس كان لا يهمهم مَنْ يحكمهم، إلَّا أنهم كانوا مجمعين على أمر واحد، هو رفض الحكم الأموي والشعور بالذنب تجاه آل محمد عليهم السلام.

والعباسيون والعلويون من أولاد جعفر وأولاد عقيل، كل هؤلاء أجمعوا أمرهم في إطار الدعوة إلى (الرضا من آل محمد عليهم السلام).

والرضا من آل محمد عليهم السلام، يعني الدعوة إلى الرجل الذي تتوافر فيه المؤهلات الرسالية القيادية، ولكن هذه الكلمة فضفاضة، تجمع شتات الفِرق الثورية، ولأن الدعوة كانت على درجة كبيرة من السرية فقد تجمّع تحت هذا الشعار العديد من الفرق الثورية.

تحوُّل القيادة إلى العباسيين

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بدأت الحركة السياسية ترسَّخ جذورها

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٥٨.

في ضمائر الناس، إذ تحوَّل الفكر الرسالي من مبدأ لمجموعة من الناس إلى مبدأ تحمله أوسع قطاعات الأمة الإسلامية.

وانتشرت هذه الحركة في جميع الأرجاء، وكان القائد التنظيمي لها أحد أولاد محمد بن الحنفية وهو عبد الله المُكنّى بأبي هاشم الذي يبدو أن السلطات الأموية كانت قد اكتشفت أهميته، لذلك استدعاه سليمان بن عبد الملك إلى الشام وأكرمه ودسّ إليه السم فخرج من الشام قاصداً المدينة، وفي طريقه وصل إلى منطقة الحميمة وفيها غلب عليه المرض وخشي أن يموت فتضيع دعوته ولم يجد هناك رجلاً يوثق به إلَّا محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فخوّل إليه أمور العمل، وبيّن له مَنْ هو قائد الحركة في المغرب ومصر وخراسان وري والكوفة والبصرة، وكيفية العمل وأسماء أنصاره، وأعطاه رسائل إليهم، وبيّن أسرار الحركة ونقلها إلى هذا الرجل العباسي، وكان من المقرر أن يتَّبع هذا الرجل العباسي الخطة نفسها التي كان يتّبعها الرجل العلوي، بيد أن علي بن عبد الله خان الدعوة وجعلها في مجموعة بني العباس، وكانت الثورة حينها ناضجة مختمرة، وكانت التجمّعات والحركات مستعدة للقيام، فتحوَّلت الثورة حينها من الجناح العلوي إلى الجناح العباسي(١).

ولكن هذا لا يُشكِّل السبب الوحيد الذي أدَّى إلى تحوُّل الخلافة من العلويين للعباسيين، إنما السبب الرئيس هو أن العباسيين لم يكن يهمهم إلَّا الوصول إلى الحكم، بينما العلويون كان همُّهم من الوصول إلى الحكم أن يُحقِّقوا هدفهم وهو تطبيق حكم الله.

وكان العباسيون ينتظرون سقوط الدولة الأموية لكي تتحوَّل السلطة إليهم، وكانوا يُصوّرون أنفسهم بأنهم هم الذين سيُطبقون ويجسِّدون الرسالة، بمعنى أنهم قد حوَّلوا النظرة إلى الهدف وهو تطبيق القيم، إلى النظرة إلى الأشخاص وحكم الأشخاص، واكتسحوا الشارع ووصلوا إلى الحكم.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص١٢٤. المعارف، لابن قتيبة، ص٢١٧. الكامل في التاريخ: ج٤، ص٣١٦.

وهنـاك وقائع كثيرة تدل على أنهم لم يكونوا مـن البداية على الخط الصحيح، مثلاً: إن أبا سلمة الخَلَّال -وهو داعٍ كبير من دعاة العباسيين وبيده الخيوط الرئيسة للحركة العباسـية، بعد دخول أبي مسلم الخراسـاني العراق قاصداً احتلال الكوفة المعروفة بتشيُّعها للإمام الصادق عليه السلام- يكتب رسالة⁽¹⁾ إلى الإمام الصادق عليه السلام. ولأن أبا سـلمة كان يعلم رفض الإمام الصادق عليه السلام لما بعث به إليه، كتب نسـخة ثانية من الكتاب ووجَّهها بيد الرسـول نفسـه وهو محمد بن عبد الرحمن بن أسـلم، وكان جدُّه مولىً لرسول الله صلى الله عليه وآله، إلى عبد الله بن الحسن.

وجـاء هذا الرجل بالرسـالة إلى الإمـام الصـادق عليه السلام وكان هناك مصباح زيتـي فوضعهـا عليـه فاحترقت، وقال الإمـام عليه السلام: «وما أنا وأبو سـلمة؟. وأبو سلمة شيعة لغيري».

وعندما رأى الرجل ذلك المشـهد وكان قد ائتمنه أبو سـلمة الخلّال على سر كبير قال: يا ابن رسول الله، الجواب!.

فأجابه عليه السلام: عرِّف صاحبك بما رأيت»[2].

فتعجَّـب الرسـول وقال: عجبـاً، إن أحداً تُعرَض عليـه الخلافة فيرفض. ثم ذهب إلى عبد الله بن الحسـن، فجاء أبو محمد عبد الله بن الحسـن إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال:

«هذا كتاب أبي سـلمة يدعوني إلى ما أقبله، وقد قدمت عليه شـيعتنا من أهل خراسان.

---

(١) قال المسعودي، في مروج الذهب، ج٣، ص٢٥٤: «وكتب (أبو سلمة الخلال) كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، وإلى أبي محمد عبد الله بن الحسن (رضي الله عنهم أجمعين)!، يدعو كل واحد منهما إلى الشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه، ويجتهد في بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول: العَجَلَ العَجَلَ، فلا تكونن كوافد عاد. فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبي عبد الله جعفر بن محمد فلقيه ليلًا..».

(٢) الفخري، ص١٥١. مروج الذهب، ج٣، ص٢٥٤.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟. أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟. وأنت أمرته بلبس السواد؟. وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وَجَّهت فيهم؟. وهل تعرف منهم أحدًا؟.

فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمدًا، لأنه مهديُّ هذه الأمة. فقال أبو عبدالله عليه السلام: والله ما هو مهديُّ هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن. فنازعه عبدالله القول، حتى قال للإمام: والله ما يمنعك من ذلك إلَّا الحسد.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله ما هذا إلَّا نصح مني لك، ولقد كتب إليَّ أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك. فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه، فانصرف عبدالله من عند جعفر مغضبًا..»(١).

ولقد كان العباسيون يستفيدون من أي اسم علوي يدخل معهم في واجهة الحركة، فلقد كان للعلوي سحر في أن يستهوي القلوب كما كان يُبعد عنهم تهمة سحب القيادة من العلويين.

ولقد كانت مسألة العلويين هي الشغل الشاغل للعباسيين منذ أن كانت الحركة سرية حتى آخر يوم في دولتهم، وأبرز شاهد على حديثنا هذا هو أن الخليفة العباسي لا يفتأ يخاف من وزيره أو حاشيته من أن يكونوا موالين للعلويين. ولكن أهل الكوفة كان اتِّجاههم اتِّجاهاً علويًا، ويعرفون الفرق بين العلويين والعباسيين، بينما لم يعرف أهل خراسان هذا الفرق بذلك الوضوح، فقد كانوا يقولون هاشميين ولكن لا يُفرِّقون بين العلوي والعباسي. وبدأ أبو سلمة الخَلَّال بنشر الدعوة باسم الرضا من آل محمد، وكان معروفاً عند الناس بأنه علوي.

والمهم في كل ذلك هو أننا نستدل من هذه الواقعة على أن تحوُّل الحركة

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٢٥٤-٢٥٥.

الجماهيرية من العلويين للعباسيين لم يكن تحوُّلاً آنيًّا عبر قصة بسيطة في الحميمة، إنما كان ذلك التحوُّل لأن التيار العباسي كان تياراً انتهازيًّا، فالغاية عنده تبرر الوسيلة، وكان رسالي الواجهة، مصلحي الباطن. فمثلاً: حنث المنصور الدوانيقي في يمينه ثلاث مرات، وذلك عندما حلف على أن يُعطي الأمان لابن هبيرة(١)، والثانية مع عمه عبدالله بن علي(٢)، والثالثة مع أبي مسلم الخراساني(٣)، وكلهم غدر بهم(٤) بعد يمينه على أن يُؤمِّنهم، فماذا تريد من الرأي العام أن يقول في رئيس دولة يحلف ثم يحنث يمينه، وتتكرَّر العملية ثلاث مرات.

وبهذا الأسلوب جمع التيار العباسي المرجئة والخوارج في البداية وأيَّدهم وكان يقول لهم: إن الحق معكم وسوف نحكم باسمكم.

فجاء الخوارج مع العباسيين في البداية لأنهم سمعوا بأن العباسيين سوف يستولون على الحكم ويقومون بتسوية الأمر شورى بين المسلمين، كذلك المعتزلة دخلوا مع العباسيين عندما قالوا لهم: بأنهم سيأتون بواصل بن عطاء(٥) إلى الحكم(٦).

ولكن عندما وصل العباسيون إلى السلطة قاموا بتصفية الرؤوس التي جاءت بهم إلى الحكم، كأبي سلمة الخلَّال داعيتهم في الكوفة(٧). وتبعه قتل أبي مسلم الخراساني، وهو القائد العسكري الذي وطّد لهم الأمور ومن ثم ظهرت له

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٥، ص٨٢. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٢٢١.

(٢) الإنباء، ص٦٢. أنساب الأشراف، ج٤، ص١٨٣.

(٣) البداية والنهاية، ج١٠، ص٦٨.

(٤) منهم: عيسى بن موسى العباسي، الذي به توطَّدت الدولة العباسية، وعيَّنه السفاح وليًّا للعهد بعد المنصور، لكن المنصور تحايل عليه بكل ممكن حتى أخَّره وقدَّم في العهد عليه المهدي. ومنهم أيضًا: يعقوب بن داود، وفضل بن سهل، وجعفر البرمكي، ويحيى الحسني، وغيرهم ممَّنْ أسدوا إليهم خدمات كبيرة وطدت دولتهم.

(٥) أبو حذيفة (٨٠-١٣١هـ)، مؤسس الاعتزال.

(٦) البداية والنهاية، ج١٠، ص٧٩.

(٧) البداية والنهاية، ج١٠، ص٥٤. أنساب الأشراف، ج٤، ص١٥٥.

مكانة بين الناس وأخذ صيته ينتشر، كما قتل المنصور عمه عبد الله بن علي الذي طارد آخر الخلفاء الأمويين وقتله في مصر(١).

وهكذا كان العباسيون يقومون باغتيال الرموز، وقاية من أي تحزُّبات ضدهم، وهذا ما رأيناه في أعمال العباسيين تجاه البرامكة عندما قام الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكي، واستئصال شأفة الباقين منهم.

لقد كان العباسيون يُبقون على الأفراد ما بقيت لديهم حاجة إليهم، وعقب انتهائها لا يجدون غير تصفيتهم.

أسباب نجاح حركة العباسيين

هناك أسباب مباشرة لنجاح الحركة العباسية وهي:

السبب الأول: طول الفترة التي أمضتها الحركة في النضال للوصول إلى الحكم، وعلينا ألَّا نتصوَّر أن الحركة العباسية كانت وليدة عشية وضحاها. وربما نستطيع أن نقول: إن حوالي ٣٠ إلى ٥٠ سنة من العمل، هي التي جاءت بهم إلى دفة الحكم.

وإن بعض أئمة العباسيين قُتِلوا في عهد الأمويين، بمعنى أن الناس بايعوهم، ولكن الأمويين قتلوهم، وذلك بعد أن ظهرت إلى ساحة العلن.

السبب الثاني: اختيارهم لخراسان، حيث كانت تضم ميزات عديدة ساعدت على نمو المعارضة وتحوُّلها إلى تيار ناضج ضد الحكم الأموي، منها:

ألف: ابتعاد خراسان عن دار الخلافة، ممَّا يسمح بازدياد العمل وتقويته.

باء: وجود شخصيات معارضة للحكم الأموي نتيجة لعنصريته الغريبة، حيث كان يعتبر أهاليها من الموالي.

---

(١) أنساب الأشراف، ج٩، ص٣١٥. البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٣. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص١٦٤.

جيم: إحاطة بلاد خراسان ببلاد كثيرة كان بإمكان الثوار أن يعتمدوا عليها ويأتوا بالجيوش منها، بمعنى كثرة عددها، واستمرارية قوتها.

دال: سلامة ميول أهالي خراسان، أي إنهم كانوا خالصين في الولاء لبني هاشم.

فالاختيار كان جيداً، لذلك كان مبدأ الزحف من خراسان صوب العراق، واتَّجهوا بعدها إلى الشام، وبعدها اصطدموا مع مروان الحمار آخر الخلفاء الأمويين وقتلوه(١).

مع أن مروان كان أذكى الخلفاء الأمويين وأمكرهم، وقد لُقِّب بالحمار لطول نَفَسِهِ في محاربته لأعدائه، ولشدة تحمُّله(٢)، مع كل ذلك فقد كانت عواصف الثورة أقوى منه فقلعته. وفي فترة خلافته التي لم تتجاوز الخمس سنين وبضعة أشهر، لم يفارق مروان الحمار ساحة الحروب، إن ذلك يرسم لنا هيجان الوضع سياسيًّا واجتماعيًّا في تلك الفترة، فقد كانت أخبار الحروب تُدوِّي آنذاك في كل مكان، ولو كان مروان بن محمد أول الخلفاء الأمويين -على سبيل الفرض- لكان له تاريخ مسطور كمعاوية، ولكن الدولة الأموية كانت في نزعات الموت ولا سبيل لإرجاع الحياة إليها، وسقوطها كان مسألة وقت فقط.

والواقع أن الدولة الأموية انتهت منذ عهد هشام بن عبد الملك، والذين أتوا من بعده كانوا أربعة خلفاء أولهم: حكم سنة وشهرين(٣)، والثاني خمسة أشهر(٤)،

---

(١) البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٦. تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٤٢.

(٢) الفخري، ص١٣٥. تاريخ الخلفاء، ص٢٠٣.

(٣) الوليد بن يزيد بن عبدالملك. بويع له في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين ومائة بعد مقتل هشام، وقتل في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة وشهرين وعشرين يومًا. الإنباء، ص٥١. أنساب الأشراف، ج٩، ص١٢٧، البداية والنهاية، ج١٠، ص٥.

(٤) يزيد بن الوليد بن عبد الملك. بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد، وذلك في آخر ليلة جمعة من شهر جمادى الآخرة، قيل: توفي بالخضراء من طاعون أصابه، اختلفوا في تاريخ وفاته لكن

والثالث شهرين(١)، والرابع -مروان الحمار- كان عهده عهد الحروب، لا عهد المُلك.

وهؤلاء لم تكن لهم هيبة الملك والسلطة، وكلهم كانوا مشغولين باللهو والخلاعة(٢)، وقسم كبير من الخلفاء الأمويين عندما جاؤوا إلى الخلافة لم تكن البلاد البعيدة تعرف أنهم أصبحوا خلفاء، وهذا يدل على أن الدولة قد زالت أيام هشام، خاصة إذا عرفنا ما قام به هشام في فترة حكمه التي طالت حوالي (١٩ سنة وسبعة أشهر) والتي كانت بين (١٠٥-١٢٥)(٣) من أعمال القتل والذبح والإرهاب ضد الفئات الإسلامية الأخرى.

الإمام الصادق ودوره في التحولات

عاصر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العباسي، وهنا نتساءل: ما هو دور الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلك التحوُّلات؟.

لقد اشتبه على بعض الباحثين دور الأئمة بعد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بحيث

الأشهر في نهاية شهر ذي القعدة. وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر، وقيل: خمسة أشهر وأيام. البداية والنهاية، ج١٠، ص١٧. تاريخ خليفة، ص٢٤٠. الأنساب للسمعاني، ج١٣، ص١٧.

(١) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، تولى الخلافة بعد يزيد ودام فيها شهرين وأحد عشر يوماً، خلعه مروان من الخلافة. عندها تولى مروان أمر دمشق وسيطر على الدولة، ثم اختفى إبراهيم، وظهر بعد أن أمَّنه مروان. وقُتل مع مَنْ قُتل من بني أمية حين سقطت دولتهم على يد العباسيين، وقيل: إنه غرق في نهر الزاب، وكان ذلك سنة ١٢٦ هـ. مروج الذهب، ج٤، ص٢٩٤. الإنباء، ص٥٢. الفتوح، ج٨، ص٣٠٦، الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤٩٩.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص٨٧.

(٣) بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد في يوم الجمعة، آخر أيام شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ، وقيل: توفي في آخر شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وكانت خلافته عشرين سنة إلَّا خمسة أشهر. ويقال: إنه مات ليلة الأربعاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة. ويقال: كانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وواحداً وعشرين يومًا. أنساب الأشراف، ج٨، ص٣٦٩. البداية والنهاية، ج٩، ص٢٣٣.

اعتقد بعضهم ترك الأئمة عليهم السلام للتوجُّه السياسي واهتمامهم بنواحٍ أخرى.

ولكي نقترب من الدور الحقيقي للأئمة عليهم السلام لا بد لنا من العودة لتاريخهم ومحاولة فهمه بأفق واسع يتخلَّى عن النظرة الجزئية، فلا يُمكن معرفة الدور الذي يقوم به الإمام بعيداً عن معرفة الواقع التاريخي والسياسي الذي يعيش فيه، ومدى العلاقة التي تربط بين الإمام وذلك الواقع؟. وما هو تأثير الإمام في مجريات ذلك الحدث السياسي؟.

فهذه الأسئلة تُقرِّب من الدور الحقيقي للأئمة عليهم السلام، وهو ما غاب عن بعض الباحثين الذين نظروا للأئمة عليهم السلام من خلال دورهم الديني المباشر فقط. فلم يعرفوا الإمام الصادق عليه السلام خارج مسجد المدينة، وما كان يقوم به من حلقات علم ودرس. وهذه النظرة تنسى كون الإمام يعيش ضمن واقع سياسي ممتد ومعقد.

ومن خلال العودة إلى التاريخ يتَّضح أن الأئمة ابتداءً من الإمام زين العابدين عليه السلام وانتهاءً بالإمام الحجة عجل الله فرجه، قد دخلوا في كل مجالات ونواحي السياسة، وقد كشف التاريخ عن دورهم المباشر وغير المباشر في قيادة الحركة الرسالية، التي وصلت إلى درجة سيطرت فيها على قطاعات واسعة من البلاد الإسلامية وظلَّت هكذا في كل عهد الأئمة عليهم السلام.

فالأئمة وابتداءً من الإمام الصادق كانوا يحكمون أجزاءً من الدولة الإسلامية، ولقد كانت سيطرتهم على تلك الأجزاء عن طريق ولاتها، الذين كانوا من أنصارهم. وعلى سبيل المثال، كان والي الأهواز⁽¹⁾ يجاهر نوعاً ما بالتشيُّع ويدعو إلى الإمام الصادق عليه السلام ويُطيع أوامر الإمام الذي يبعث إليه برسالة تختص بالتنظيم الإداري مرة وبالقضاء مرة أخرى.

---

(١) عبدالله النجاشي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، ومن خيار الشيعة في تقواه وورعه. روى الرسالة وجوابها من الإمام عليه السلام، الشهيد الثاني في رسالة الغيبة. وعنه: وسائل الشيعة، ج١٧، ص٢٠٧. وبحار الأنوار، ج٧٢، ص٣٦٠.

فكما كان يكتب الإمام علي عليه السلام تنظيماً إداريًّا لواليه على مصر مالك الأشتر رضي الله عنه (١)، فقد كان الإمام الصادق عليه السلام أيضاً يكتب تنظيمًا إداريًّا لوالي العباسيين على الأهواز، فبالرغم من أن القضية كانت صعبة ومُعقَّدة إلَّا أن العباسيين لم يستطيعوا أن يحكموا لوحدهم، ومن الطبيعي أن الرساليين لم يتركوا التدخُّل في شؤون الحكم، وكمثال على ذلك: الربيع(٢) الذي كان حاجباً للمنصور، وتعني كلمة حاجب في ذلك الوقت (وزير البلاط)، كان هذا الرجل من محبي الأئمة عليهم السلام، وفي اليوم الذي جاء المنصور بالإمام الصادق عليه السلام قال الإمام للربيع: «**يَا رَبِيعُ، أَنَا أَعْلَمُ مَيْلَكَ إِلَيْنَا، فَدَعْنِي أُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَأَدْعُو.**

فقال له الربيع: **شَأْنَكَ، وَمَا تَشَاءُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ..**

بعد ذلك بكى الربيع، فصلى الإمام عليه السلام ركعتين ثم دخل على المنصور، وكان قد جعل سيفاً تحت لبده، وكلما يحتدُّ النقاش بينه وبين الإمام الصادق عليه السلام كان المنصور يقبض على السيف، فقال الربيع في نفسه: «**إِنْ أَمَرَنِي فِيهِ بِأَمْرٍ أَنْ أَعْصِيَهُ، لِأَنَّنِي ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَأْمُرُنِي أَنْ آخُذَ السَّيْفَ فَأَضْرِبَ بِهِ جَعْفَرًا، فَقُلْتُ: إِنْ أَمَرَنِي ضَرَبْتُ الْمَنْصُورَ وَإِنْ أَتَى ذَلِكَ عَلَيَّ وَعَلَى وُلْدِي..**»(٣).

وسوف نُبيِّن في الفصول القادمة دور الإمام الصادق عليه السلام في تلك الفترة بشيء من التفصيل.

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم (٥٣)، من كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رضي الله عنه لما ولاَّه على مصر وأعمالها. وانظر للمؤلف شرحاً وافياً للعهد طبع بعنوان: الحكم الإسلامي.. في مدرسة الإمام علي عليه السلام، وأيضاً: انظر للمؤلف: فقه الدستور وأحكام الدولة الإسلامية.

(٢) الربيع صاحب المنصور، كان يتشيَّع، عدَّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام الصادق ومن الراوين عنه عليه السلام.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٩٦.

صفو الكلام

* سقوط الأمويين كان بسبب: انتشار الطغيان والفساد في قيادة الدولة، والاختلاف بين أركانها، والثورات المتلاحقة من الفئات المستضعفة وبالأخص الرساليين.

* كانت الدولة الأموية تعتمد على الجيش، وحينما قل عطاء الدولة للجيش، وزادت نقمة الرعية، قلّ ولاؤه، وحين قلّ ولاء الجيش انتهت الدولة.

* استغل العباسيون الظروف المهيّأة، حيث كان أغلب الناس يرفضون الحكم الأموي ويشعرون بالذنب تجاه آل محمد ﷺ. فتحركوا تحت شعار الرضا من آل محمد، وأوهموا الناس بأنهم سيُطبقّون ويُجسِّدون الرسالة إذا وصلوا إلى الحكم.

* وكان العباسيون يستفيدون من اسم أي علوي ينضوي تحت رايتهم ويجعلونه في الواجهة، ولكن الإمام الصادق عليه السلام وهو شيخ العلويين في ذلك العصر رفض التعاون معهم بشكل قاطع.

* نجح العباسيون في الاستيلاء على الحكم بسبب طول كفاحهم في سبيل ذلك (من ٣٠ إلى ٥٠ سنة) وبسبب اختيارهم خراسان قاعدة للانطلاق، وكانت فيها ميزات عديدة ساعدت على نمو المعارضة وتحولها إلى تيار جارف ضد الحكم الأموي.

التَّارِيخُ الإِسْلامِيُّ.. دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

البَابُ الثَّالِثُ: مَدخلٌ إلى وَاقِعِ الحَرَكَةِ الرِّسَالِيَّةِ في العَهْدِ العَبَّاسِيّ

الحَرَكَةُ الرِّسَالِيَّةُ في عَصرِ الإمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام

كَيْفَ كَانَ الإمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام يُوجه الأُمَّة ؟

الحركة الرساليّة في عصر الإمام الصّادق عليه السلام

في القرن الأول للهجرة كانت المبادئ الرسالية العامة تتكامل في النفوس وفي الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكانت الدولة الإسلامية تقوم بالامتداد عبر جميع الاتِّجاهات غرباً، وشرقاً، وشمالاً، وجنوباً، ولكن في الوقت نفسه كانت هناك حركة معارضة تصحيحية هي الحركة الرسالية التي كان يقودها ويُمثِّلها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم أولاده الأطهار عليهم السلام.

وفي القرن الثاني للهجرة تحوَّل الجهد العملي لجميع أبناء الأمة إلى الإصلاح الداخلي، وتوقَّفت الفتوحات الخارجية نوعاً ما، وقلَّ الاهتمام بها.

وقد كان هذا التحوُّل نتيجة جهود العناصر الرسالية المؤمنة التي عملت على تركيز العمل نحو الداخل، أي نحو تصحيح المسيرة، ومن هنا نلاحظ في القرن الثاني الهجري نشوء حركات فكرية وسياسية كثيرة في الدولة، وهي وإن كانت ذات اتِّجاهات مختلفة، إلَّا أنها جميعها كانت تهدف هدفاً مشتركاً واحداً وهو الإصلاح الداخلي في الأمة.

ومن جملة تلك الحركات المعتزلة، والمرجئة، والخوارج، والزيدية، وحركات أخرى، كل ذلك مضافاً إلى الحركة الأم التي كانت عليها أعباء التغيير أكثر من غيرها وهي حركة الرساليين.

وفي القرن الثالث للهجرة نجحت الحركات الإسلامية في إيجاد نوع من

التوازن السياسي داخل الأمة الإسلامية، وكان نتيجة ذلك أن انصبَّ الاهتمام أكثر فأكثر على اللغة وآدابها والعمران بمجالاته المختلفة، فتحوَّلت الحضارة الإسلامية من حضارة القيم والمقدسات والعلوم إلى حضارة العمران المادي، والترف الأدبي فقط.

ونحن نتصوَّر أن هذه التحوُّلات والمراحل المتدرجة لم تحدث في التاريخ الإسلامي فقط وإنما حدثت في كل الأمم، والحضارات الماضية.

كانت تلك نظرة عامة للتاريخ الإسلامي، وإذا طبقنا هذه النظرة على العهد العباسي فإننا سنلاحظ أنه قد تميَّز في آخر عهده بإصلاحات سياسية واسعة بالرغم من أنه كان عهد تحضُّر عمراني في أكثر الوجوه، وكانت هذه الإصلاحات نتيجة مباشرة لاختمار الحركة التصحيحية داخل الأمة الإسلامية، فقد استوعبت ذهنية الأمة مفهوم الحركة التحرُّرية بشكل جيد.

فالأفكار والمفاهيم السياسية التي فرضها الحكام على الجماهير المسلمة، قد ذابت عمليًّا في القرن الأول، الذي غاب فيه مفهوم المعارضة، لأن كثيراً من الناس كان ينخدع بالتأويل الخاطئ للآية الكريمة: **﴿أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**(١). أمّا بعد ذلك فإن غالبية الأمة عرفت أنه ليس كل من جلس على سدة الحكم فهو مخوّل أن يحكم بما يشاء، بل إنّ على المسلمين أن يقوموا في وجه الحاكم الظالم، فقد كان سكوتهم عن الحكام الطغاة سببًا في نزول الكوارث بهم، وبذلك انضوى الناس تحت الألوية المختلفة التي كانت تحارب الوضع القائم.

وهكذا نجد أن الحركات التحرُّرية(٢) قد اجتمعت على إسقاط الدولة الأموية التي كانت صعبة السقوط. والوضع الأموي -كما حللناه فيما سبق- كان يعتمد على الجيش المرتزق، وعلى القبائل الجاهلية، وعلى كل الأفكار المادية المنحرفة، من

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) هي شكل من أشكال المقاومة والرفض، تقوم بها جماعة أو حزب، أو تيار شعبي، ضد الدولة الفاسدة والمنحرفة، أو حتى غير المرضية شعبيًّا.

نظام العائلة الحاكمة، إلى الطابع العنصري العربي (العدناني والشامي ضد القحطاني)، وانتهاءً ببقية المفاهيم الجاهلية المادية، فكانت قوة الدولة الأموية من النوع المرحلي، ولهذا فقد اجتمعت الحركات التحرُّرية، وأسقطت هذه الدولة، وبعد سقوطها كان من الطبيعي أن تختلف هذه الحركات بعضها مع بعض.

فقد اشتركت الحركة الزيدية مثلاً مع العباسيين في إسقاط الدولة الأموية، ولكن حينما جاء ثاني الخلفاء العباسيين وهو المنصور الدوانيقي سرعان ما قام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام بالحركة المعارضة، وكانت هذه أولى الحركات التي قامت ضد العباسيين.

حركة محمد ذي النفس الزكية(١)

كيف قامت هذه الحركة، ولماذا؟.

قبل أن نُبيّن ذلك لا بد أن نعرف أن الأمة الإسلامية كانت أرضية خصبة للحركة التحرُّرية، فالإمام الحسين عليه السلام كان قد جهد كثيراً حتى أوجد بعض الأنصار ليُحاربوا معه، وبعده جهد المختار وزيد، ولكن عندما جاء محمد وإبراهيم -ابنا عبد الله بن الحسن- كانت الأرضية حينها أكثر صلاحية ونضوجاً، وكان الناس أكثر وعياً فالتفُّوا حولهما، وتساقطت الولايات الواحدة بعد الأخرى بيد محمد وأخيه إبراهيم، كل ذلك بفعل التحوُّل الذي حدث. ويُشير المؤرخون إلى ظاهرة ذات دلالة كبيرة، وهي أن الإمام الحسين عليه السلام نزع الشرعية بنهضة من يد

---

(١) أبو عبدالله، محمد بن عبدالله بن الحسن بن الإمام الحسن بن علي عليهما السلام [١٠٠-١٤٥هـ]، وكان يُسمَّى المهدي، ويُعرف بالنفس الزكية وقد ورد الأثر أنه يُقتل فيسيل دمه إلى أحجار الزيت كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام. كان شجاعًا فارسًا خطيبًا بارعًا في الخطبة على تمتمة كانت تعتريه إذا تكلَّم، فإذا عرضت له ضرب بيده صدره فينفتح لسانه، وكان غزير العلم، وافر الفهم، قد سمع من آبائه عليهم السلام الحديث، نال الشهادة في أيام المنصور. راجع: الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، ج١، ص٢٧٤. المجدي في أنساب الطالبيين، ص٢٢٣. مقاتل الطالبيين، ص٢٠٧. منتهى الآمال، ج١، ص٣٧٨.

النظام الحاكم وسلَّمها إلى الحركة المناهضة في وعي الأغلبية من أبناء الأمة، فالبصرة -مثلاً- كانت معقلاً من معاقل الفكر المعادي لأهل البيت عليهم السلام(١)، وبعدها تحوَّل هذا المعقل وسقط بيد الحركة الزيدية في عهد العباسيين(٢).

ولذا فإنهم يقولون: إن ذلك كان دليلاً على مدى توغل الزيدية وانتشار أفكار المعارضة في البصرة، ما يعني أن الأرضية كانت صالحة للثورة، وأن الأمة قد نضجت فيها الفكرة التي تقول: يجب أن نقوم وندافع عن حريتنا بتطبيق الإسلام بصورة صحيحة، لأنه الطريق الذي نستطيع من خلاله أن نحصل على حقوقنا وإلَّا سنظل نرزح تحت الطغيان والظلم. وهكذا قامت الحركة الزيدية بالثورة في عهد المنصور الدوانيقي ثاني الخلفاء العباسيين.

فقبل أن يتمتَّع الخلفاء العباسيون بالجلوس على كرسي الخلافة، إذا بهم يرون أن محمد بن عبد الله يثور ضدهم، وكان يُدعى بالنفس الزكية لزهده ونُسُكه، وكان والده عبد الله يقوم بتهيئته مع أخيه إبراهيم للقيام، وهذا قليلاً ما نجد أمثاله في التاريخ، وهو أن نجد الأب نفسه قادراً على تحمُّل أعباء الثورة والقيام ضد الدولة، ومع ذلك يُهيِّئ ابنه لهذا الأمر، ويقول: «إنما يريد القوم ابني محمدًا لأنه مهديُّ هذه الأمة»(٣).

إن فكرة المهديّ عند الزيدية، تختلف عن فكرة المهديّ لدى الرساليين الشيعة

---

(١) عرفت البصرة بميولها لعثمان، بل إن الكثير من أهلها هم من محبي الزبير وطلحة، وهوما قاله الأصمعي: البصرة كلها عثمانية. كما نقل ابن أبي الحديد عن شيخه أبي جعفر الإسكافي قوله: إن أهل البصرة كلهم يبغضون الإمام علي عليه السلام. والسبب في ذلك حرب الجمل وما حصدت من رؤرس أهلها. راجع: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص١٠٢. العقد الفريد، ج٧، ص٢٧٥.

(٢) كانت حركة إبراهيم وانطلاقة دعوته من دار أبي فروة في البصرة، وقد أنفذه محمد النفس الزكية قبل ظهوره على خلافة البصرة. وقد رُوي أن ديوانه انطوى على مائة ألف من أهل البصرة. الحدائق الوردية، ج١، ص٢٩٣ و٣٠٨. وراجع أيضًا: البداية والنهاية، ج١٠، ص٨٧. تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ٦٣٤. الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٤٠... وغيرهم.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص٢٥٤. مقاتل الطالبيين، ص٢٠٧. أخبار الدولة العباسية، ص٣٩٤. الفخري، ص١٦٣.

الاثنا عشرية، فعند الزيدية المهدي هو الذي يقوم بالسيف من آل محمد عليهم السلام⁽¹⁾، وكانت فكرة المهدية منتشرة ليس فقط عندهم وإنما عند كل المذاهب الأخرى.

لقد كان عبد الله يقول لابنه: أنت الذي يجب أن تُصحِّح الحكم، وذلك منذ أيام الأمويين، وفي بداية الثلاثينات من عمره، ومنذ ذلك الحين غاب محمد عن أنظار الناس.

فلسفة الغيبة عند الثوار

حينما كان يغيب الرجل من أهل البيت فإن ذلك يعني أنه قد ابتدأت حركة معينة، فغيبته لا تعني أنه ترك الساحة، بل تعني أنه يتنكَّر ويُخفي هويته، حتى يتمكَّن من الاتِّصال بالجماعات والقيام بالأعمال التحضيرية اللازمة حتى إذا حانت ساعة الصفر ظهر مُعلناً الثورة. وهذا ما قام به محمد، فقد توارى وتبعه أخواه إبراهيم وإدريس⁽²⁾ في

---

(١) طالع: الزيدية، للصاحب بن عباد، تحقيق: د. ناجي حسن، ص١٦٠. ط: ١- ١٩٨٦م.

(٢) إدريس بن عبدالله [ت: ١٧٧هـ] بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، نشأ على طريقة أهله الغر الميامين فأحرز قصبات السبق في ميدان الشرف، شارك مع الحسين بن علي بن الحسن المثلّث، في المدينة، أيام ثورته على الهادي العباسي سنة ١٦٩هـ، وبعد مقتل الحسين انهزم إدريس إلى مصر ثم المغرب سنة ١٧٢هـ، فعرفه جماعة من أهل الناحية كانوا قد حجُّوا في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي، وأجابه خلق كثير، وكانت له مواقف كثيرة ومحاربات جمّة ظهر فيها على الجنود العباسية وكذلك الخوارج، قال في الأعلام: نزل بمدينة وليلي (على مقربة من مكناس وهي اليوم مدينة قصر فرعون)، وكان كبيرها يومئذٍ إسحاق بن محمد فعرّفه إدريس بنفسه، فأجاره وأكرمه، ثم جمع البربر على القيام بدعوته، وخلع طاعة بني العباس، فتم له الأمر، فجمع جيشًا كثيفًا وخرج به غازيًا فبلغ بلاد تادلة (قرب فاس) ففتح معاقلها، وعاد إلى وليلي، ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها. وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن تُوفي مسمومًا في وليلي. هوأول من دخل المغرب من الطالبيين. وأسس دولة الأدارسة في المغرب. وإليه نسبتها. ولد له ولد وأسماه إدريس، وكان من سادات العترة، وولده إدريس المثلث، ومن نسله الباقي إلى الآن في المغرب، وقد عاش جماعة من أحفاده في مصر وعرفوا بالفاطميين. راجع: الحدائق الوردية، ج١، ص٣٥٨. الأعلام، ج١، ص٢٧٩. منتهى الآمال، ج١، ص٣٥٧، وتتمة المنتهى، ص٢٤٥. شذرات الذهب، ج٢، ص٤٨٣. مقاتل الطالبيين، ص٤٠٦.

الاختفاء، وتفرَّق باقي إخوة محمد وولده في البلدان يدعون إلى إمامته(١)، فتوجَّه إلى مصر ابنه علي بن محمد(٢)، وإلى خراسان ابنه عبد الله(٣)، وإلى اليمن ابنه الحسن(٤)، وإلى الجزيرة ابنه موسى(٥)، وإلى الري وطبرستان ابنه يحيى(٦). فشكَّلوا الحركة الثورية في أيام الأمويين، وبعدها، اجتمعت جماعة من بني هاشم في الأبواء(٧)، وهو مكان بين مكة والمدينة، وكان فيهم: إبراهيم(٨) بن محمد بن علي بن عبد الله العباسي

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٢٩٦. وطالع أيضًا: أحداث سنة ١٤٥هـ، ج٧ من: تاريخ الأمم والملوك. للطبري.

(٢) مات بمصر في حبس محمد بن أبي جعفر الملقب بالمهدي، الحدائق الوردية، ج١، ص٢٩٣.

(٣) عبد الله الأشتر، ولد سنة ١١٨هـ، لاحقه جيش المنصور فهرب إلى السند. استشهد بأرض بكابل في جبل يقال له علج، وعمره ٣٣ سنة، وحمل رأسه إلى المنصور العباسي. الحدائق الوردية، ج١، ص٢٩٣. قتله هشام بن عمر ببلاد القشمير، على رواية سبط ابن الجوزي، في تذكرة الخواص، ص٢٢٥.

(٤) روى المسعودي في مروج الذهب، ج٣، ص٢٩٦: أنه حُبس، ومات في الحبس. أما مصادر أخرى فإنها تُشير إلى أنه شهد وقعة فخ مع الحسين بن علي، وقتل. منها: المجدي في أنساب الطالبيين، ص٢٢٤، قال عنه: «وأما الحسن بن محمد فكان يُلقب أبا الزِّفت [لشدّة سمرته]، قال بعض شيوخنا: حُدَّ أبوالزفت في الخمر، وحضر فخًّا، مع الحسين بن علي فأصابه سهم، ففر وجيء به إلى العباسيين، فضربوا عنقه صبرًا». وأيضًا: جمهرة أنساب العرب، ص٤٥. وتذكرة الخواص، ص٢٢٥. والكامل في التاريخ، ج٦، ص٩٠. وتاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٢٧٠. وتاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص١٩٢. الحدائق الوردية، ج١، ص٢٩٣. فراجع.

(٥) موسى بن عبد الله [ت: ١٨٠هـ] بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب ﵇، أبو الحسن، يُلقب بالجون، يُعدُّ من شعراء الطالبيين، له رواية في الحديث، وكان أديبًا شاعرًا. سكن المدينة، ظفر به المنصور فضربه، ثم عفا عنه. وسكن بغداد. وعاش إلى أيام الرشيد وله معه مواقف كثيرة تذكرها كتب التاريخ والسير. له نسل كثير. مقاتل الطالبيين، ص٣٣٣. منتهى الآمال، ج١، ص ٣٥٢. الأعلام، ج٧، ص٣٢٤.

(٦) يحيى بن عبد الله المحض، صاحب الديلم، من المشاركين في ثورة الحسين بن علي صاحب فخ.

(٧) مقاتل الطالبيين، ص١٨٥.

(٨) إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب [٨٢-١٣١هـ]، كان فصيح اللسان، راجح العقل، يروي الحديث والأدب، يقال له الإمام، عُدَّ زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها. أوصى إليه أبوه، وانتشرت دعوته في خراسان كلها. وجَّه بأبي مسلم إلى خراسان واليًا على شيعته ودعاته، فتجرَّد أبو مسلم لمحاربة عمال بني أمية، ثم ظهر أمر إبراهيم وعلم به

(الذي لقب بالإمام في الدعوة العباسية فيما بعد)، وأبو جعفر المنصور، وصالح بن علي⁽¹⁾، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، وابناه: محمد وإبراهيم، ومحمد⁽²⁾ بن عبد الله بن عمرو بن عثمان.

... فقال صالح بن علي: «قد علمتم أنكم الذين تمدّ الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تُعطونه إيّاها من أنفسكم، وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين.

فتكلَّم عبد الله بن الحسن، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد علمتم أن ابني هذا هو المهدي فهلمُّوا فلنُبايعه.

وقال أبو جعفر المنصور: لأي شيء تخدعون أنفسكم، ووالله لقد علمتم ما النّاس إلى أَحَدٍ أَصْوَرَ⁽³⁾ أَعْنَاقاً ولا أسرع إجابةً منهم إلى هذا الفتى -يريد محمد بن عبد الله-.

قالوا: قد -والله- صدقتَ، إن هذا لهو الذي نعلم. فبايعوا جميعًا محمدًا، ومسحوا على يده.

مروان بن محمد فقبض عليه وزجَّه في السجن بِحرَّان ثم قتله في حبسه، وقيل: مات في حبسه بأرض الشام، وقيل: إنه هدم عليه بيتًا. وقيل: سُقِي لبنا فأصبح ميّتاً. وهو ابن ثمانٍ وأربعين سنة. فكانت البيعة من بعده سرًّا لأخيه السفاح بعهد منه. الأعلام، ج١، ص٥٩. المنتظم، ج٧، ص٢٩٠.

(١) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس [٩٦-١٥١هـ]، الأمير، عمّ السفاح والمنصور، روى عن أبيه. ولّاه السفّاح مصر، فأقام بها سبعة أشهر وأياماً، فتك فيها بكثيرين من أشياع بني أمية، جهّز عسكرًا في طلب مروان الحمار فبيّتوه فحُوصر، فقتله. ثم ولي إمرة دمشق. وولي بعده الشام ولده الفضل. الأعلام، ج٣، ص١٩٢. تاريخ الإسلام، ج٩، ص٤٣٧.

(٢) يعرف بالديباج لحسن وجهه، كان كثير الحديث عالمًا، حبسه المنصور وعذَّبه بالسوط. وقيل: إن ثيابه التصقت بجسده من تأثير السياط والدماء، حتى غدا وجهه أشبه بلون الزنجي، وقد اقتلع السوط إحدى عينيه. قتله المنصور ليلة جاءه خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، وبعث برأسه إلى خراسان. المنتظم، ج٨، ص٩٥. تتمة المنتهى، ج٣، ص١٩٣-١٩٦.

(٣) أميل، يقال فلان يصور عنقه إلى كذا، أي مال بعنقه ووجهه نحوه. كتاب العين، مادة (صور).

قال عيسى: وجاء رسول عبد الله بن الحسن إلى أبي (محمد بن عمر بن علي) أن ائتنا فإننا مجتمعون لأمرٍ، وأرسل بذلك إلى جعفر بن محمد عليه السلام.

وقال غيره: فقال لهم عبد الله بن الحسن: لا نُريد جعفرًا لئلَّا يُفسد عليكم أمركم.

قال عيسى: فأرسلني أبي أنظر ما اجتمعوا عليه. وأرسل جعفر بن محمد عليه السلام، محمد بن عبد الله الأرقط بن علي بن الحسين، فجئناهم فإذا بمحمد بن عبدالله يصلي على طنفسه رجل مثنية. فقلت: أرسلني أبي إليكم لأسألكم لأي شيء اجتمعتم؟.

فقال عبدالله: اجتمعنا لنُبايع المهدي محمد بن عبدالله.

قالوا: وجاء جعفر بن محمد عليه السلام فأوسع له عبدالله بن الحسن إلى جنبه، فتكلَّم بمثل كلامه.

فقال جعفر: لا تفعلوا، فإن هذا الأمر لم يأتِ بعدُ، إن كنتَ ترى -يعني عبدالله- أن ابنك هذا هو المهدي فليس به، ولا هذا أوانه، وإن كنتَ إنما تُريد أن تُخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنَّا -والله- لا ندعك، وأنت شيخنا، ونبايع ابنك.

فغضب عبد الله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول، ووالله ما أطلعك الله على غيبه، ولكن يحملك على هذا الحسد لابني.

فقال عليه السلام: والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم، وضرب بيده على ظهر أبي العباس، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن. وقال: إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك، ولكنها لهم. وإن ابنيك لمقتولان.

ثم نهض عليه السلام، وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري. فقال عليه السلام: أرأيت صاحب الرداء الأصفر -يعني أبا جعفر المنصور-؟.

قال: نعم. قال: فإنَّا والله نجده يقتله.

قال له عبد العزيز: أيقتل محمدًا؟. قال عليه السلام: نعم.

.... قال: فلما قال جعفر عليه السلام ذلك انفضّ القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها»(١).

وهكذا اجتمعت شيوخ بني هاشم سواء من العباسيين أو الحسنيين أو الحسينيين أو أولاد جعفر وعقيل، بما فيهم أبو العباس السفاح والمنصور الدوانيقي، باعتبار أن الدولة الأموية كانت على مشارف السقوط، فنصبوا الخليفة محمداً الذي هيَّأه أبوه للخلافة.

وكان محمد يمتلك المؤهلات القيادية والأعوان المنتشرين في كافة البلاد الإسلامية الذين كانوا ينتظرون القيام، الكل بايعه حينها إلَّا الإمام الصادق عليه السلام فإنه لم يُبايع.

وكان المنصور آنئذٍ قد بايع محمداً، ولمحمد في عنق المنصور قاتله بيعة، وقد رُوي أن المنصور بايع محمداً مرتين(٢) قبل أن تتحوَّل قيادة الحركة من العلويين إلى العباسيين حسب القصة المعروفة.

وعندما جاء المنصور إلى الحكم وقام بأعمال مخالفة للشريعة، قرَّر محمد وأخوه إبراهيم إعلان الثورة على النظام المنحرف، واتَّخذا من المدينة والبصرة قاعدتي انطلاق، فالمدينة كانت مركزاً من المراكز الدينية المقدّسة، وكانت الأمة الإسلامية مُتوجِّهة إليها باعتبارها مركزاً دينيًّا، ومن جهة ثانية كانت البصرة مركزاً عسكريًّا مُتقدِّماً لا بأس به.

فالتخطيط كان جيداً، وكان يقوم على أساس أن يثور محمد في المدينة المنورة

---

(١) مقاتل الطالبين، ص١٨٦-١٨٧.

(٢) مقاتل الطالبين، ص١٨٨. منتهى الآمال، ج١، ص٣٧٨.

ويأخذ مكة وأطرافها، بينما يفجر أخوه إبراهيم ثورة أخرى في البصرة في الوقت نفسه(١)، ولكن الذي حصل أن الاتصالات بين محمد وأعوانه في مختلف الأمصار كمصر وخراسان وري وغيرها من المناطق لم تكن على ذلك المستوى من السرعة والتنظيم، هذا من ناحية الحركة.

أما من ناحية الدولة العباسية التي كان يرأسها أبو جعفر المنصور، فقد وصلت إليه عن طريق الربيع أنباء عاجلة مفادها أن محمداً قد نهض في المدينة، وكانت الأخبار قد وصلت أن إبراهيم قد استولى على الإمارة في البصرة، وأن بلاد فارس والأهواز وواسط أصبحت تحت سلطته(٢)، فدبّر المنصور خطة مضادة لما حدث، وأول ما فعل هو إرساله عبد الله إلى الكوفة -وقد أشار عليه بهذا العمل عمُّه عبد الله بن علي الذي كان في السجن- فسدّت منافذها، وضربت أعناق كثير من الناس فيها، وبالتالي أمن المنصور من الكوفة التي كانت موالية لأهل البيت عليهم السلام(٣)، في الوقت نفسه بعث إلى سَلم بن قُتيبة(٤) الذي كان أحد قوّاد جيوشه آنئذٍ في الري ثم جهّز المنصور- جيشاً قويًّا وأرسله إلى قتال محمد في المدينة(٥).

ولقد كان تحرُّك إبراهيم السابق لأوانه يعود -كما يقول المؤرخون- إلى أن رسالة -ولعلها مكذوبة- قد وصلت إلى إبراهيم مفادها أن أخاه محمداً قد قام

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٥٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٦٣. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٢٣٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٦٤. تجارب الأمم، ج٣، ص٣٩٣. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥٣٤.

(٤) سَلم بن قتيبة [ت: ١٤٩هـ] بن مسلم الباهلي الخراساني، والي البصرة. وليها ليزيد بن عمر بن هبيرة في أيام مروان بن محمد، ثمّ وليها في أيّام أبي جعفر المنصور، فكان من الموثوق بهم في الدولتين (الأموية والعباسية) وكان من عقلاء الأمراء، مات بالريّ. الأعلام، ج٣، ص١١١.

(٥) كان الجيش بقيادة ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى، وقال المنصور بعد أن سار عيسى إلى المدينة: «ما أبالي أيهما قتل صاحبه»، لأن المنصور يكره ابن أخيه، من حيث إن السفاح قد عهد إليه في أن يولي عيسى الخلافة بعده. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٧٧. تجارب الأمم، ج٣، ص٤٠١. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥٤٤.

بالثورة، وكان إبراهيم قد ساوره الشك في ذلك، وأن الدعوة لم تنضج بعدُ، فَلِمَ العجلة، ولهذا كانت الرسالة مفاجئة له⁽¹⁾.

لكن إبراهيم خرج وبهذه السرعة، ودون التنسيق مع أخيه محمد، ومع باقي مَنْ في الأمصار، كمصر والعراق وخراسان، مما جعل العباسيين يُوجِّهون جيشاً إلى قائد الحركة محمد، ويقضون عليه وعلى حركته في المهد، ولم يدّخر المنصور جهداً إلَّا وبذله في مواجهة حركة المعارضة، فقد أرسل إلى واليه في خراسان رأساً⁽²⁾، وبعث معه من الرجال يحلفون بالله أنه رأس محمد بن عبدالله⁽³⁾. حتى يضمن بالتالي عدم تحرُّكهم.

ولقد كانت الحركة واسعة جماهيريًّا، وقد قيل حينها: إن أمر الخلافة سوف يكون للعلويين، وكان المنصور في أشد حالات الخوف والترقُّب، وتدلّ على ذلك رسائله⁽⁴⁾ التي أرسلها لمحمد يُليّن له الطرف ويدعوه للمسالمة. وكيف لا يخاف المنصور من محمد إذا ما عرفنا أن جيشه في المدينة كان يربو على مائة ألف، وكذلك جيش أخيه في البصرة من دون باقي الأمصار⁽⁵⁾.

ولقد كان ممَّن أيَّد ودعم محمداً بعض فقهاء العراق ومنهم أبو حنيفة، كما كان يجهر في أمر إبراهيم جهراً، ويُحرِّض الناس على الخروج معه⁽⁶⁾، وعندما توجَّه

---

(١) روى الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، ص٢٧٥، قال: أخبرنا يحيى بن علي، قال: حدّثنا عمر، قال: حدثني ابن عفو الله بن سفيان عن أبيه، قال: «أتينا إبراهيم يوماً وهو مرعوب، فأخبرني أن كتاب أخيه محمد جاءه يُخبره أنه قد ظهر، ويأمره بالخروج، فوجم من ذلك، واغتمَّ، فجعلت أُسهِّل الأمر عليه..». وأيضاً: تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٦٢٨.

(٢) روى الطبري ج٧، ص٥٤٩، وغيره: أن المنصور احتاج إلى رأس يُوهم به الناس أنه قتل محمد بن عبدالله فعمد إلى قطع عنق محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان [الديباج]، ثم بعث به إلى خراسان...

(٣) الحدائق الوردية، ج١، ص٢٨٥. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥٢٦. تجارب الأمم، ج٣، ص٣٨٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٦٦. تتمة المنتهى، ج٣، ص١٩٩.

(٥) مقاتل الطالبيين، ص٣٢٧. تتمة المنتهى، ج٣، ص٢٠١.

(٦) مقاتل الطالبيين، ص٣٠٤.

إبراهيم إلى لقاء عيسى بن موسى، كتب إليه أبو حنيفة قائلاً: «إذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه فلا تسر فيهم سيرة أبيك في أهل الجمل، فإنه لم يقتل المنهزم، ولم يأخذ الأموال، ولم يتبع مدبراً، ولم يذفّف⁽¹⁾ على جريح، لأن القوم لم يكن لهم فئة. ولكن سر فيهم بسيرة يوم صفين، فإنه سبى الذرية، وذفّف على الجريح، وقسم الغنيمة، لأن أهل الشام كانت لهم فئة، وكانوا في بلادهم». فظفر أبو جعفر بكتابه، فسيَّره وبعث إليه فأشخصه، وسقاه شربة فمات منها، ودفن ببغداد»⁽٢⁾.

ومن جملة الفقهاء الذين أيّدوا حركة محمد النفس الزكية: مالك بن أنس⁽٣⁾، وعبّاد بن العوّام⁽٤⁾، وأسامة بن زيد⁽٥⁾، وهارون بن سعد⁽٦⁾ الذي خرج معه من

---

(١) يقال: أذففت على الجريح تذفيفاً: إذا أسرعت قتله.

(٢) مقاتل الطالبين، ص٣٦٧.

(٣) روى الطبري في تاريخه: «أن مالك بن أنس استُفتي في الخروج مع محمد، وقيل له: إن في أعناقنا بيعه لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مُكرهين، وليس على كل مُكره يمين. فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته». تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٦٠. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥٣٢. ومالك بن أنس [٩٣-١٧٩هـ]، هو أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تُنسب المالكية. مولده ووفاته في المدينة. الأعلام، ج٥، ص٢٥٧.

(٤) ابن عمر بن عبد الله الكلابي الواسطي [١١٨-١٨٥هـ]، أبوسهل: من رجال الحديث، ثقة. كان من نبلاء الرجال في كل أمره. كان من أهل واسط. قال عنه في الطبقات الكبرى: وكان يتشيَّع فأخذه هارون فحبسه زمانًا ثم خلَّى عنه. وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون وكان ثقة. وكان ينزل بالكرخ على نهر البزازين. ذكره الأصفهاني في جملة الفقهاء ممَّن بايع إبراهيم، وقال: «فلما قتل إبراهيم وانقضت حياته، هرب عبّاد بن العوام، فهدمت داره وانفضّت جموعه، ولم يزل متواريًا حتى مات أبو جعفر». وتوفي سنة خمس وثمانين ومائة في خلافة هارون العباسي. الأعلام، ج٣، ص٢٥٧. الطبقات الكبرى، ج٧، ص٢٣٨. مقاتل الطالبين، ص٣١١.

(٥) البجلي، وجه من وجوه العلم ونقلة الحديث. الحدائق الوردية، ج١، ص٣٠٧.

(٦) هارون بن سعد العجلّي [ت: ١٤٥هـ]، من الفقهاء والزهاد، والعلماء بالحديث. من رؤوس الزيدية، ومن أعلامها. من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، له شعر. خرج وهو شيخ كبير مع إبراهيم بن عبد الله، فولّاه القتال بواسط واستعمله عليها، وضم إليه جيشًا كبيرًا من الزيدية، فأخذها وخطب في أهلها فندَّد بأبي جعفر المنصور وأفعاله من قتله آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وظلمه الناس، وأخذه الأموال ووضعها في غير مواضعها. قال أبو الفرج الأصبهاني: وتبعه خلق كثير، منهم هشيم بن بشير، وهرب من كان في واسط من رجال المنصور. ثم لم يبقَ فيها

الكوفة، وسالم الحذاء(١)، وحمزة بن عطاء(٢)، وخليفة بن حسان(٣)، وسلام بن أبي واصل الحذاء(٤)، وكان هؤلاء من خلّص أصحاب زيد بن علي، وكانوا من جملة الناس الذين استطاعوا الهروب من الكوفة والالتحاق بإبراهيم. حتى قيل: إنه لم يبقَ فقيه في العراق إلّا والتحق بإبراهيم، لذلك بعد انهزام إبراهيم قُتِل قسم منهم، والقسم الآخر توارى حتى مات المنصور(٥).

ولقد كان من ضمن الأدلة على قوة حركة إبراهيم أنه كان يُنصِّب الوُلاة. فقد ولّى هارون بن سعد على واسط، ممَّا يدل على اتِّساع سُلطانه وكثرة أعوانه، برغم أنه على مستوى الحرب قد ارتكب أخطاءً قاتلة، فعند لقائه بجيش عيسى بن موسى، لم يكن جيشه منّظماً(٦) على هيئة كراديس(٧) موصومة(٨)، وهذا ينافي تنظيم الجيش آنذاك.

أحد من أهل العلم إلّا تبعه. حاربته جيوش المنصور، فثبت إلى أن بلغه مقتل إبراهيم، فتوجَّه إلى البصرة فمات بها حين دخلها. وقيل: قبل أن يصل إليها. كما قيل: إنه توارى حتى مات. وهدم محمد بن سليمان داره. طالع: الأعلام، ج٨، ص٦٠. مقاتل الطالبيين، ص٣٠٨-٣١١. تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٦٣٧-٦٣٨. رجال الطوسي، ص٣١٨.

(١) ويقال له: سالم الأشجعي، وسالم بن أبي واصل، وسالم بن شريح، الحذاء الكوفي، ثقة، خلاصة الأقوال، ص٢٣٦. وقيل: كان ممن يرى رأي الزيدية. معجم رجال الحديث، ج١٦، ص١٠٤.

(٢) تركي، ويقال له: البرني، من نقلة الآثار، عده صاحب الحدائق الوردية، ج١، ص٣٠٧: من رواة أهل البيت عليهم السلام.

(٣) الكيال، من نقلة الحديث. من خلص أصحاب زيد بن علي، وكان أفرس الناس. مقاتل الطالبيين، ص٣٠٦

(٤) من أهل العلم، ونقلة الآثار. ومن أصحاب زيد الخلص وممَّن خرج معه، خرج من الكوفة معه عيسى بن أبي أسحاق السبيعي وأبو خالد الأحمر متنكرين عليهم جباب الصوف وعمائم يسوقون الجمال في زي الجمّالين، حتى أمنوا فعدلوا إلى إبراهيم وكانوا معه حتى قتل. مقاتل الطالبين، ص٣٠٥.

(٥) مقاتل الطالبيين، ص٣١١. وما بعدها.

(٦) مقاتل الطالبين، ص٢٩٦. البداية والنهاية، ج١٠، ص٩٣. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٢٤٦.

(٧) الكُرْدُوس: الخيل العظيمة، والكَرادِيسُ: الفِرَق منهم. طالع: تاريخ ابن خلدون، ج١. فصل: في الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها.

(٨) الوَصْمُ: الصَّدْعُ في العُود من غير بَيْنونةٍ. ووَصَمْتُ الشيءَ إذا شَدَدته بسرعة. لسان العرب: مادة (وصم).

التجسس على الحركة

وكانت هناك بعض الأخطاء التنظيمية القاتلة التي وقعت فيها الحركة، وهنا نروي حادثة تُبيِّن بعض تلك الأخطاء:

«روى الأصفهاني عن عيسى بن عبد الله عن محمد بن عمران عن عقبة بن سلم:

أن أبا جعفر (المنصور) دعاه فسأله عن اسمه؟.

فقال: عقبة بن سلم(١) بن نافع من الأزد، من بني هناءة.

فقال: إني لأرى لك همّة، وموضعًا، وإني أريدك لأمرٍ أنا معني به.

قال: أرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين.

قال: فأخفِ شخصك وائتني في يوم كذا. فأتيته.

فقال: إن بني عمِّنا هؤلاء قد أبوا إلّا كيدًا لملكنا، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يُكاتبونهم، ويُرسلون إليهم بصدقات، وألطاف، فاخرج بكسى(٢) وألطاف، حتى تأتيهم متنكرًا بكتاب تكتبه عن أهل القرية. ثم تسير ناحيتهم، فإن كانوا نزعوا عن رأيهم فأحبب والله بهم وأقرب، وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك، وكنت على حذر منهم، فاشخص، حتى تلقى عبد الله بن الحسن مُتخشِّعًا، فإن جبهك، وهو فاعل، فاصبر، وعاوده أبداً حتى يأنس بك، فإذا ظهر لك ما قبله فاعجل عليَّ.

---

(١) ولاّه المنصور البحرين والبصرة، فأكثر القتل في ربيعة حتّى كان ذلك سبب انحلال الحلف بين الأزد وربيعة. وفي الكامل ج٥، ص٦٠٤، أنه: «سار من البصرة إلى البحرين، فقتل سليمان بن حكيم وسبى أهل البحرين وأنفذ بعض السبي والأسارى إلى المنصور، فقتل بعضهم ووهب الباقين للمهديّ، فأطلقهم وكساهم، ثمّ عزل عقبة عن البصرة لأنّه لم يستقصِ على أهل البحرين». قتله رجل من ربيعة، فتك به في جامع البصرة بحضرة الناس. طالع: جمهرة أنساب العرب، ص٣٨٠.

(٢) وفي نسخة: كتبي.

ففعل ذلك، وفعل به حتى آنس عبد الله بناحيته(١).

فقال عقبة: الجواب.

فقال له عبد الله: أمّا الكتاب فإني لا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم فاقرأهم السلام، وأخبرهم أن ابني خارج لوقت كذا وكذا.

فشخص عقبة حتى قدم على أبي جعفر فأخبره الخبر»(٢).

من هذا نرى أن المنصور الذي كان يوماً من الأيام عضواً في الحركة في أيام الأمويين، قد وصلت إليه أخبار تلك الحركة بكل تفاصيلها وهو متربع على سدة الخلافة(٣)، وقد حارب جيشُ إبراهيم الجيشَ العباسي الذي بعثه المنصور الدوانيقي ولكنه انهزم عسكريًّا وكانت الهزائم في ذلك الوقت تحدث ليس فقط نتيجة للقوة والميزان العسكري، وإنما أيضاً نتيجة لمفاجآت غير متوقعة.

فمن الأقدار العجيبة أن إبراهيم جاءه سهم فقتله، كما هو حال أغلب قيادات الزيدية الذين استُشهدوا بسبب السهام التي كانت تُصيبهم في المعارك المباشرة، ما يدل على المستوى الرفيع الذي كانت تتمتع به قيادات الزيدية من الشجاعة والإقدام في مجابهة العدو بأنفسهم، فكانوا يتقدَّمون الصفوف، لذلك كانوا يتعرَّضون للسهام. فلم يكن الفشل العسكري يهمهم، لأن القتل لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة، فلم يكن الرجل منهم يفكر في الحكم وإنما كان يفكر في الحرب ضد أعداء المبدأ ولا يهاب الموت.

من الواضح أن محمد بن عبد الله، وأخاه إبراهيم، وأباهما عبد الله بن الحسن بن الحسن لم يكونوا ذوي عقيدة زيدية مع أن حركتهم أكثر ما قامت على الزيدية؛ لأن الزيدية يعملون وفق مبدأ ثابت منذ مقتل زيد بن علي، وهو الاستعداد للقيام مع أي

---

(١) في رواية الطبري، ج٧، ص٥١٢، فشخص -عقبة- حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب فأنكره ونهره، وقال: ما أعرف هؤلاء القوم، فلم يزل ينصرف ويعود إليه حتى قَبِل كتابه وألطافه وأنس به فسأله عقبة الجواب.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص١٩٠. تجارب الأمم، ج٣، ص٣٨٠. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥١٦.

(٣) منتهى الآمال، ج١، ص٣٧٨.

رجل من أهل البيت عليهم السلام يحمل السيف ويقودهم، وإننا لا نظن أن عبد الله وابنيه كانوا في باطنهم يعتقدون بأن محمداً هو المهدي، مع أنهم كانوا يجهرون بذلك، وخير دلالة على ذلك هو رسالة الإمام الصادق عليه السلام لعبد الله بن الحسن عندما سجن في الكوفة بعدما قُتِل محمد، والتي جاء فيها: «بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيـمِ، إِلَى الْخَلَفِ الصَّالِحِ، وَالذُّرِّيَّـةِ الطَّيِّبَةِ مِنْ وُلْدِ أَخِيهِ وَابْـنِ عَمِّهِ. أَمَّا بَعْدُ: فَلَئِـنْ كُنْتَ قَدْ تَفَرَّدْتَ أَنْـتَ وَأَهْـلُ بَيْتِكَ مِمَّنْ حُمِلَ مَعَـكَ بِمَا أَصَابَكُمْ، مَا انْفَـرَدْتَ بِالْحُزْنِ وَالْغَيْـظِ وَالْكَآبَةِ وَأَلِيمِ وَجَعِ الْقَلْبِ دُونِي، وَلَقَدْ نَالَنِي مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْجَزَعِ وَالْقَلَقِ وَحَرِّ الْمُصِيبَةِ مِثْلُ مَا نَالَكَ، وَلَكِنْ رَجَعْتُ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ بِهِ الْمُتَّقِينَ مِنَ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْعَزَاءِ حِينَ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(١)، ..»(٢).

ويقـول صاحـب البحار العلامـة المجلسي رحمه الله: «وهذه شـهادة صريحة من طـرق صحيحـة بمـدح المأخوذين من بني الحسـن عليهم السلام وأنهم مضـوا إلى الله جل جلاله بشرف المقام والظفر بالسعادة والإكرام»(٣).

وقد أورد العلامة المجلسي روايات تشهد بصحة عقيدتهم بآل البيت عليهم السلام.

منهـا: ما رواه يحيى بن عبد الله قال: «حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ فَاطِمَةَ الصُّغْرَى، عَنْ أَبِيهَا عليه السلام عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَةَ عليها السلام بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: يُدْفَـنُ مِـنْ وُلْـدِي سَبْعَةٌ بِشَـطِّ الْفُـرَاتِ لَمْ يَسْـبِقْهُمُ الْأَوَّلُـونَ وَلَمْ يُدْرِكْهُمُ الْآخِرُونَ. فَقُلْتُ: نَحْنُ ثَمَانِيَةٌ؟!. فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتُ. فَلَمَّا فَتَحُوا الْبَابَ وَجَدُوهُمْ مَوْتَى وَأَصَابُونِي وَبِي رَمَقٌ وَسَقَوْنِي مَاءً وَأَخْرَجُونِي فَعِشْتُ»(٤).

وكان يحيى ممَّن سجن مع أبيه عبد الله بن الحسن في الكوفة.

---

(١) سورة الطور، آية: ٤٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٠٢. وممَّن ذهب إلى هذا القول والرأي المحقق الشيخ القمي رحمه الله راجع كتابه منتهى الآمال، ج١، ص٣٧٣.

(٤) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٠٢.

أبناء الحسن يتوارثون لواء المعارضة

وهكذا انتهت حركة محمد وأخيه، ولكن هل قُبِرت المعارضة؟.

التاريخ يجيب: كلَّا!.

فعبد الله بن محمد سار إلى خراسان، ولما طُورد هرب إلى السند، ويحيى بن عبد الله (أخو محمد بن عبد الله) خرج من السجن كما أتينا على ذكره، ثم سار إلى بلاد الديلم(١)، وتنقَّل في الأمصار(٢). حتى إن الرشيد قد كَلَّ من ملاحقته، فصار له حفيد يُدعى محمد بن جعفر(٣) بن عبد الله سار إلى مصر ثم إلى المغرب وقد بايعته عدة بلدان آنذاك(٤).

أما إدريس بن عبد الله (أخو محمد) فقد هرب إلى المغرب وأجابه خلق من الناس، وبعد ذلك أرسل الخليفة العباسي من يدسّ السمّ إليه فَقُتِل، ولكن ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، واصل مسير أبيه وتأسست دولة الأدارسة(٥)، وهكذا بقيّة رجال محمد بن عبد الله، فكلهم انتشروا في البلاد وكانوا نطف الثورات فيما بعد، حتى إن يحيى وإدريس ابني عبد الله قد شاركا في عملية فخ(٦) أيضاً.

---

(١) بلاد الديلم، هي الواقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر. انظر: معجم البلدان، ج١، ص٣٤٢.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٩٠.

(٣) ابن يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، التفَّ حوله جماعة من المغرب عملوا بأمره، فعمل بينهم بالعدل والاعتدال، ومات مسمومًا. منتهى الآمال، ج١، ص٣٥٦.

(٤) مروج الذهب، ج٣، ص٣٤٣. المنتظم، ج٧، ص٢٠٧.

(٥) انظر: تاريخ الشيعة.. السياسي، الثقافي، الديني، ج١، ص٧٤. بحوث في الملل والنحل، ج٧، ص٣٨٢.

(٦) مقاتل الطالبيين، ص٣٨٢. منتهى الآمال، ج١، ص٣٦٧.

حركة الزيدية تفضح العباسيين

كانت الحركة الزيدية ذات أهمية كبيرة، وتقترب أهميتها من حركة الإمام الحسين عليه السلام من ناحية البعد الاستراتيجي وليس من ناحية الضخامة، أو المقارنة، فحركة الإمام الحسين عليه السلام تظلُّ تُحافظ على خصوصيتها التي تجعلها الإدانة الأولى والمباشرة لأول عملية انحراف في الأمة، وهي انتقال الخلافة إلى ملك وراثي، فالإمام الحسين عليه السلام قام في مواجهة الباطل، كما قام جده الرسول صلى الله عليه وآله بمفهوم إحقاق الحق. وبالتالي اكتسبت أهميتها باعتبارها السبب المباشر لكل الحركات الثورية التي ظهرت بعده مطالبة بإحقاق الحق.

وعندما جاء العباسيون إلى الحكم باسم الخلافة الشرعية كان من الممكن أن تنطلي على الناس هذه الحيلة. ومن هنا كان من الضروري أن تقوم فئة معينة بالسيف وتقاتل بقوة وتبدأ حركة معارضة جديدة ضد الحكم العباسي. وكانت حركة محمد وإبراهيم تقوم بهذه المهمة العسيرة.

حركة الحسين صاحب فخ(١)

وتلت حركة محمد ذي النفس الزكية، حركة (فخ)، التي لم تكن كحركة إبراهيم ومحمد التي اتَّخذت الطابع العسكري والسياسي، إنما حركة حسين بن علي صاحب (فخ) وجماعته اتَّخذت الطابع العفوي كحركة الفقهاء، والزهّاد، والعُبّاد، وأصحاب الفكر كما بيَّنا، ولذا نجد أن حركته اعتمدت على كثير من الفقهاء في المدينة، أمثال:

---

(١) الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام [ت: ١٦٩هـ] كان بطلاً شجاعًا، سخيًّا لا يكترث بالأموال. كان جامعًا بين العلم والعمل حتى اعتلى ذروة الشرف، كان ذا فضل وجلال عظيمين، وقد تركت مصيبته أكبر الأثر في النفوس. روى في فضله الأصفهاني بإسناده عن زيد بن علي، قال: «انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى موضع فخ، فصلَّى بأصحابه صلاة الجنائز، ثم قال: يقتل هاهنا رجل من أهل بيتي في عصابة من المؤمنين، يُنزل لهم بأكفان وحنوط من الجنة، تسبق أرواحهم إلى الجنة قبل أجسادهم». وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «.. وأجر الشهيد معه أجر شهيدين». الحدائق الوردية، ج١، ص٣١٧. منتهى الآمال، ج١، ص٣٦٣.

علي بن هشام(١) بن البريد(٢)، ويحيى بن علي(٣)، وسعيد بن خيثم(٤)، وبني الحسن(٥) بن الإمام الحسن عليه السلام، والمدينة كانت تشبه (الحوزة العلمية في هذا العصر).

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن إبراهيم بن إسحاق القطان قال: سمعت الحسين بن علي، ويحيى بن عبد الله يقولان: «ما خرجنا حتى شاورنا أهل بيتنا، وشاورنا موسى بن جعفر عليه السلام فأمرنا بالخروج»(٦).

وكان والي المدينة(٧) لا يتورَّع عن التنكيل بهم باستمرار، وكان يستعرضهم يوميًّا ويطالبهم بالمجيء أمامه في حركة مراقبة أمنية يومية. وكانوا يخافون حينها الغياب عن الاستعراض أمامه، لأنه وبمجرَّد غياب أحدهم فإن الوالي كان يقوم باعتقال جميع الهاشميين كباراً وصغاراً(٨).

واستمر الأمر بهم هكذا حتى بعثوا برسالة إلى الخليفة، وكان في ذلك اليوم

---

(١) هكذا ورد في مقاتل الطالبيين، ولكن الصحيح (هاشم)، على ما ذهب إليه كثير من المؤرخين والرجاليين.

(٢) أبو الحسن الخزاز، مولاهم الكوفي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج١٢، ص٢٢٠.

(٣) التَّميمي الربعي، كوفي، من رجال الإمام الصادق عليه السلام والراوين عنه، له رواية في كامل الزيارات. معجم رجال الحديث، ج٢٠، ص٦٧.

(٤) أبو معمر الهلالي، كان وأخوه (معمر) من دعاة زيد بن علي، يروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام، ضعَّفه النجاشي. وفي رجال ابن داود، ص٤٥٨، قال: «قال حمدويه: كان ناووسيًّا وقف على أبي عبدالله عليه السلام.. ثم قال عنه: يُعرف ويُنكر، في حديثه نظر، وهو يروي عن الأصبغ بن نباتة». وفي الرجال لابن الغضائري، ص٦٥: «ضعيف جدًّا لا يرتفع به».

(٥) عدتهم: «ستة وعشرون رجلاً. ومعهم جماعة من الموالي». قاله في منتهى الآمال، ج١، ص٣٦٥، وعدَّ أسماءهم صاحب الحدائق الوردية، ج١، ص٣٢٢. فراجع.

(٦) مقاتل الطالبيين، ص٣٨٣.

(٧) كان إسحاق بن عيسى بن علي والي المدينة من قبل موسى الهادي، فاستخلف إسحاق على المدينة عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، الذي حمل على الطالبيين وأساء إليهم بل أفرط في التحامل عليهم. مقاتل الطالبيين، ص٣٧٢. تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص١٩٢.

(٨) مقاتل الطالبيين، ص٣٧٢-٣٧٣. منتهى الآمال، ج١، ص٣٦٤-٣٦٥.

الهادي العباسي⁽¹⁾، فلم يُعرهم انتباهاً، لذلك اجتمع الحسين بن علي بن الحسن بن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ بجماعته وقرَّروا الثورة على الوالي.

وكان شعارهم آنذاك (أحد، أحد)، وثاروا على الوالي، فهرب من المدينة واستولوا على المدينة، وجاؤوا إلى مكة ليأخذوها ويستولوا من بعدها على البلدان الأخرى⁽²⁾.

أخطاء حركة (فخ)

لقد كانت المدينة المنورة ومكة المكرمة منطقتين استراتيجيتين من الناحية الدينية والروحية فقط، إذ كان يكثر فيهما العُبّاد، والزُّهّاد، والفقهاء، والحجاج، كما أن فيهما الحرمين الشريفين.

ولكن من الناحية العسكرية والسياسية لم تكن لهما أهمية⁽³⁾، فالثقل السياسي في الدولة الإسلامية كان في البصرة والكوفة وبغداد، لذلك فقد كانت المدينة منطقة مفتوحة أمام أي جيش معتدٍ.

إن الحسين صاحب فخ وأصحابه لم يعتبروا من الثورات السابقة التي وقعت في الخطأ نفسه الذي أدّى بها إلى القتل، كحركة أهل المدينة بزعامة عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة والتي انتهت بواقعة الحرة الدامية. وحركة عبد الله بن الزبير، وحتى ثورة محمد بن عبد الله التي وقعت قبل مدة وجيزة في الخطأ نفسه، فكان على الحسين بن علي بن الحسن أن يعتبر من تجربة محمد، وأن يتأنّى طويلاً قبل أن يخرج

---

(١) موسى بن محمد بن أبي جعفر المنصور [١٤٤-١٧٠هـ]، من خلفاء الدولة العباسية ببغداد. وُلد بالريّ. وولي بعد وفاة أبيه (سنة ١٦٩هـ) وكان غائبًا بجرجان فأقام أخوه هارون بيعته. واستبدَّت أمه الخيزران بالأمر. وأراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم ترَ أمه ذلك، فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ودُفن في بستانه بعِيسَاباذ (محلة بشرقيّ بغداد، تنسب إلى عيسى بن المهدي). ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. الأعلام، ج٧، ص٣٢٧.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٧٥-٣٧٧. الحدائق الوردية، ج١، ص٣٢٢-٣٢٣.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص٢٩٥.

لكي يُرسل الدعاة، وأن يكون أكثر انضباطاً في التنظيم، وغيرها من العبر التي كان يجب أن يكتسبها من تجربة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن.

وفي طريقه إلى مكة اشتبك مع الجيش العباسي في منطقة تسمى (فخ) وتقاتلا، وأبلت جماعة الحسين بن علي بلاءً حسناً، وصمدوا صمود الجبال الشداد، حتى إن موسى بن عيسى أحد قواد الجيش العباسي طلب من الحسين بن علي وقف الحرب، وذلك بعد أن قال له حيلة: «يا حسين، لك الأمان...» فرفض الجيش المهادنة وأعاد محمد بن سليمان⁽¹⁾ الحيلة وقال: «يا ابن خال، اتَّقِ الله في نفسك ولك الأمان».

فأجابه الحسن بن محمد⁽²⁾ -وكان قد أصابت عينه نشابة-: «والله ما لكم أمان..». وجعل الحسن بن محمد، يقاتل الجيش أشد قتال⁽³⁾.

ثم قُتل الحسين وأصحابه بالرغم من أنهم حاربوا ببسالة عجيبة⁽⁴⁾.

إدريس وريث حركة (فخ)

وبقي منهم إدريس وأخوه يحيى ابنا عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام، وقد كان يحيى من الذين ساهموا في الإعداد لثورة محمد وإبراهيم في زمن الأمويين وبداية العباسيين، ولما رأى الحرب في (فخ) اشترك فيها، وقاتل ببسالة حتى جُرِح، وبعد انهزام الحركة خرج بجرحه وتنكّر وذهب إلى مصر ثم إلى البربر

---

(١) روى الأصفهاني قال: «أخبرني جماعة من موالي محمد بن سليمان: أنه لما حضرته الوفاة جعلوا يُلقِّنونه الشهادة وهو يقول:

ألا ليت أمي لم تلدني ولم أكن   لقيت حسيناً يوم فخ ولا الحسن

فجعل يُردِّدها حتى مات». مقاتل الطالبيين. ص٣٨٣.

(٢) المعروف بأبي الزِّفت. الحسن بن محمد (النفس الزكية) بن عبدالله (المحض) بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص ٣٧١-٣٧٩. الحدائق الوردية، ج١، ص٣٢٥.

(٤) قال المسعودي: «فقتل الحسين وأكثر من كان معه، وأقاموا ثلاثة أيام لم يُوارو حتى أكلتهم السباع والطير». مروج الذهب،ج٣، ص٣٢٧. وأضاف عليه الحموي في معجمه: «ولهذا يقال: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ». معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٨.

في المغرب، وأخذ يدعوهم ويُعرِّفهم بقرابته من رسول الله ﷺ، فاجتمعت له قادة العشائر وبايعوه⁽¹⁾، فاستتبّ له الوضع، وأسّس لنفسه دولة لها سيادتها وحدودها.

فعمل على تقويتها وبقي يحكم إلى أن اغتيل، فحكم أعقابه من بعده إلى عهد قريب⁽²⁾.

إن دولة الأدارسة لم تكن وليدة صدفة، وإنما جاءت بعد تخطيط وعمل مجهد، فالرجل الجريح الذي هرب من السيف العباسي لم يكن إنساناً عاديًّا، وإنما كان قائداً حركيًّا مؤمناً، له كل مواصفات القيادة، وإلّا ما اجتمعت له القلوب في تلك البلاد التي لم تكن له فيها سلطة ولا عشيرة، وإنه لعمل عظيم أن يزحف مجروح بجرحه وحيداً ليواصل الحركة، بل يؤسس دولة في أقاصي البلاد، وهذا بحق من الأعمال التي يقف المرء عندها وقفة إجلال وإكبار بالخصوص عندما تأتي من فرد وحيد في حالة مرض جسدي، وبعد هزيمة عسكرية!.

وهذا يصدّق كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إذ يقول: «**بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَداً وَأَكْثَرُ وَلَدًا**»⁽³⁾.

وكانت دولة إدريس أول دولة رسالية دامت في التاريخ.

---

(1) مقاتل الطالبيين، ص٤٠٧. شذرات الذهب، ج٢، ص٣١١. الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٤٢. الكامل في التاريخ، ج٦، ص٩٣. كما ذكر في الحدائق الوردية، ج١، ص٣٥٧، تفاصيل حركته ودعوته في المغرب، وبعض خطبه.. فراجع.

(2) قام بعد شهادته ابنه إدريس فتولىَّ المغرب، ومن بعده -إدريس بن إدريس- قام ابنه محمد بأمر مدينة فاس، فولّى أخاه القاسم البصرة، وطنجة وما يليهما، واستعمل باقي إخوته على مدن البربرة. راجع: الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤١٥. وفي عمدة الطالب، ص١٩٥، قال: «أعقب إدريس بن إدريس بن عبدالله المحض من ثمانية رجال: القاسم، وعيسى، وعمر، وداود، ويحيى، وعبدالله، وحمزة.. ولكلّ منهم ممالك ببلاد المغرب وهم بها ملوك».

(3) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٨٤.

يحيى بن عبد الله يتابع مسيرة إخوته

أمـا يحيـى⁽١⁾ بن عبد الله بن الحسـن بن الإمام الحسـن عليه السلام فمضافـاً إلى أنه شـكَّل مع إخوته محمـد وإبراهيم وإدريس، قيادات الصـف الأول لأكثر الحركات الرسـالية، كان لـه تميّـزه الخـاص، حيـث كان فقيهاً، تربَّـى في حجر الإمـام جعفر الصادق عليه السلام وروى عنه كثيراً من الأحاديث، فأكسبه ذلك علاقة خاصة بالإمام حتى أصبح لا يُحدِّث عنه إلَّا بقوله: «حدثني حبيبي جعفر بن محمد»⁽٢⁾.

وبعد معركة فخ استتر يحيى مدة يجول في البلدان، ويطلب موضعاً يلجأ إليه، بعـد أن أصبـح ملاحقاً من قبل السـلطة، وبرغـم تلك الظروف الصعبـة التي كان يعيشـها لم يتراجع عن مبادئه الرسـالية، ممَّا يكشف عن نموذج قلَّ نظيره في التاريخ يتربَّى في معدن العلم، ويُشارك في ثورتين، ويُسجَن حتى يكاد يموت، ومع ذلك لم يتنـازل عن كفاحه المسـتمر ضد السـلطة الظالمـة، حتى أصبح يقـضي حياته متنقلاً بالخفيـة في البلـدان. فمن المدينة المنورة إلى الديلم، والشـام، والكوفة، والسـند، ما يجعلنا نتعجَّب من تلك الروح التي لا تهدأ ولا يقرّ لها قرار، وكيف تهدأ وهي ربيبة الإمام الصادق عليه السلام معدن العلم وبيت الرسالة؟.

عَلِـمَ الفضـل بن يحيـى البرمكي⁽٣⁾ الـذي كانت لديـه ميول إلى أهـل البيت

---

(١) يحيى بن عبد الله [ت:١٨٠هـ] بن الحسن بن الحسن بن الإمام الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، أبو الحسن، فقيه، من عيون العلم والفضل، جليل القدر عظيم المنزلة، رفيع الشأن، له مكانة مرموقة عند المسلمين، نشأ في بيت الإمام الصادق عليه السلام، ونهل منه العلوم فكان أحد أوصيائه. شارك في ثورة الحسين بن علي صاحب فخ، فكان بطلاً من أبطالها. وفارسًا شجاعًا، وكانت له مقامات مشهورة في مبارزة الأعداء. فرّ إلى الديلم، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر. الحدائق الوردية، ج١، ص٣٢٩. مقاتل الطالبين، ص٣٨٨. الأعلام، ج٨، ص١٥٤.

(٢) مقاتل الطالبين، ص٣٨٩. حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ج٢، ص٩٠.

(٣) ابن خالد البرمكي [١٤٧-١٩٣هـ] وزير هارون العباسي، وأخوه من الرضاعة. استوزره هارون مدة قصيرة، ثم ولَّاه خراسان سنة ١٧٨هـ فحسنت فيها سيرته، وأقام إلى أن فتك

بمكانه، فأمره بالانتقال عنه والتوجُّه إلى الديلم، وكتب له منشوراً بحيث لا يتعرَّض له أحد، فمضى مُتنكِّراً حتى ورد الديلم، وبلغ الرشيد خبره، فولّى الفضل بن يحيى مهمة الخروج إليه(١).

أما قصة كشفه عند الرشيد فتتلخَّص في أن رجلاً جاء إلى الرشيد فقال: «يا أمير المؤمنين، نصيحة.

فقال لهرثمة (أحد خواصه): اسمع ما يقول.

قال: إنها من أسرار الخلافة.

فأمره (الرشيد) ألَّا يبرح، فلما كان في وقت الظهيرة دعا به فقال: اخلني، فالتفت الرشيد إلى ابنيه فقال: انصرفا. فانصرفا، وبقي خاقان، والحسن على رأسه، فنظر الرجل إليهما.

فقال الرشيد: تنحيا عني. ففعلا، ثم أقبل على الرجل فقال: هاتِ ما عندك.

قال: على أن تُؤمنني من الأسود والأحمر.

قال: نعم، وأُحسن إليك.

قال: كنت في خان من خانات حلوان، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله في درّاعة صوف غليظة وكساء صوف أحمر غليظ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل ويرتحلون إذا رحل ويكونون معه ناحية، فيُوهمون من رآهم أنهم لا يعرفونه وهم أعوانه، مع كل واحد منهم منشور بياض يؤمن به إن عرض له.

قال: أوتعرف يحيى؟.

هارون بالبرامكة سنة ١٨٧هـ، وكان الفضل عنده ببغداد، فقبض عليه وعلى أبيه يحيى، وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما وأجرى عليهما الرزق، واستصفى أموالهما وأموال البرامكة كافة. وتوفي الفضل في سجنه بالرقة. الأعلام، ج٥، ص١٥١.

(١) مقاتل الطالبيين، ص٣٩٠. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٠٨. شذرات الذهب، ج٢، ص٤٣٧.

قال: قديمًا، وذاك الذي حقق معرفتي بالأمس له.

قال: فصفه لي.

قال: مربوع، أسمر، حلو السمرة، أجلح، حسن العينين، عظيم البطن.

قال: هو ذاك. فما سمعته يقول؟.

قال: ما سمعته يقول شيئًا، غير أني رأيته ورأيت غلامًا له أعرفه، لما حضر وقت صلاته فأتاه بثوب غسيل فألقاه في عنقه ونزع جبته الصوف ليغسلها، فلما كان بعد الزوال صلّى صلاة ظننتها العصر، أطال في الأولتين وحذف الأخيرتين.

فقال له الرشيد: لله أبوك، لجاد ما حفظت، تلك صلاة العصر وذلك وقتها عند القوم، أحسن الله جزاءك، وشكر سعيك فما أنت؟. وما أصلك؟.

وبعد ذلك أغدق عليه الرشيد الأموال إلّا أنه أمر أيضًا بصفع الرجل جزاءً لصحبته السابقة ليحيى(١). بعد ذلك احتال الرشيد في عملية اغتياله..(٢).

فانتقل يحيى إلى جوار ربِّه بعد حياة ملؤها الجهاد الدؤوب.

بعد قتله هل انتهت شجرة يحيى بن عبد الله؟ كلَّا، فهي لا تفتأ تُعطي ثمارها، فهذا حفيده محمد بن جعفر بن عبد الله يتوجَّه إلى المغرب عبر مصر، فيتَّصل ببلاد تاهرت السُّفلى فيجتمع إليه خلق من الناس فيظهر فيهم بالعدل وحسن الاستقامة بعد ذلك يستشهد مسموماً(٣). وهكذا الطريق الرسالي لا يستشهد واحد فيه، إلّا ويقوم آخر ويُواصل المسيرة.

وهناك دول أخرى أيضاً بقيت في التاريخ من جماعة الزيدية كدولة الإمام

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٣٩١-٣٩٢.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٤٠١-٤٠٢.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص٣٤٣.

الناصر(١) في الديلم.

إلى هنا انتهى حديثنا عن الزيدية، ويبقى علينا أن نتحدَّث عن الإسماعيلية، حتى تكتمل لدينا صورة الحركة الرسالية. ونتعرَّف حينها إلى دور الأئمة عليهم السلام بعد أن ينكشف لنا أنهم لم يكونوا بعيدين أبداً عن هذه الحركات، وإنما كانوا يُوجِّهونها من بعيد مع قيادتهم لحركات كثيرة في الوقت نفسه، فالدولة الإسلامية كانت كبيرة، لها أطراف عدة وتشعبات مختلفة، وتغيير معالمها عملية شاقة، وبحاجة إلى جهود جبارة.

---

(١) الإمام النّاصر للحق، أو: الإمام النّاصر العلوي، (أبو محمد) الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، [٢٢٥-٣٠٤هـ]. ولد بالمدينة المنورة، كان شاعرًا مفلقًا، علّامة إمامًا في الفقه والدين. يعتبر شيخ الطالبيين وعالمهم. ولي الحكم في طبرستان بعد شهادة محمد بن زيد سنة ٢٨٧هـ، وهو ثالث حكامها من العلويين (الزيدية)، وكانت طبرستان قد خرجت من يده، فخرج إلى بلاد الديلم، فأقام فيها ثلاث عشرة سنة. وكان أهلها كفار، فأسلم منهم عدد وافر. وفيها أسس دولته وبني لأهلها المساجد، ثم ألَّف منهم جيشًا وزحف به إلى طبرستان، فاستولى عليها سنة ٣٠١هـ لُقِّب بالناصر، وكان يدعى بـ(الأطروش) لصمم أصابه من ضربة سيف في إحدى معاركه. قال عنه الطبري: «لم يرَ الناس مثل عدل الأطروش وحسن سيرته وإقامته الحق». له تفسير في مجلدين، وتنسب إليه كتب أخرى، توفي في طبرستان. تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، ص١٤٩. الأعلام، ج٢، ص٢٠٠. الحدائق الوردية، ج٢، ص٥٥-٥٧.

صفو الكلام

* في القرن الثاني للهجرة، وبفضل جهود العناصر الرسالية المؤمنة، تحوّل الجهد العملي لجميع أبناء الأمة إلى الإصلاح الداخلي، وتوقفت الفتوحات الخارجية (التي تميز بها القرن الأول) نوعاً ما.

* اجتمعت الحركات التحررية والإصلاحية على هدف إسقاط الدولة الأموية، وقد اشترك بعضها (كالحركات الزيدية) مع العباسيين في تحقيق هذا الهدف، ولكنها بعد سقوط الأمويين اختلفت معها، وسرعان ما برزت حركات المعارضة ضد العباسيين في عهد المنصور.

* كانت حركة محمد ذي النفس الزكية أولى حركات المعارضة ضد العباسيين بمساعدة إخوانه وتأييد بعض فقهاء العراق، ثم حركات سائر أبناء الحسن مثل: يحيى بن عبدالله وإدريس بن عبدالله، وحركة الحسين صاحب فخ. وتميَّزت هذه الحركات -كسائر الحركات الرسالية- بالبسالة والشجاعة والتضحية والصمود في وجه كل التحديات.

* وواجه العباسيون هذه الحركات بكل شراسة ونكّلوا بهم وطاردوهم في كل أرجاء البلاد الإسلامية. إلَّا أن روح المعارضة الرسالية لم تمت، وظلت شعلتها متوهجة تتناقلها أيدي القيادات المؤمنة.

كيف كان الإمام الصادق عليه السلام يوجه الأمة؟

شمولية توجيه الأئمة

نُؤكِّد هنا ما أشرنا إليه سابقاً عن الدور الذي كان يقوم به الإمام زين العابدين عليه السلام، وكيف كان يُحرِّك جميع الخيوط الموجودة في الأمة الإسلامية، وهو في المدينة المنورة، وذلك عن طريق تربية عناصر قيادية كفوءة تُوجَّه توجيهاً دقيقاً للقيام بكافة التحرُّكات التي يتطلَّبها العمل الإسلامي.

ما يعني أن الإمام لم يكن رجل عبادة وزهد وفقه فقط، وإنما كان رجل عملٍ رساليٍّ وتغييرٍ شاملٍ في الأمة. وهذه وظيفة الأنبياء والأئمة وكل المصلحين التاريخيين، إذ لا يُمكن حصر أنفسهم في نطاق ضيِّق من الثورة السياسية، أو التغيير الثقافي، أو الإصلاح الاجتماعي، وإنما يجمعون الأهداف والمسؤوليات كلها، ويُوجِّهون الأمة توجيهاً شاملاً.

لقد كان حضور الأئمة المعصومين عليهم السلام في الساحة يُغطِّي كل المجالات، فهم بمثابة الدَّفَّة في سفينة الأمة، لا يبرحون يُحافظون على مسيرتها، فهذه آثارهم تشهد بفيضهم الزاخر، وسابغ نميرهم من الفقه، والعقائد، والعرفان، ومختلف المعارف الإسلامية، وكل ما يهم الإنسان من شؤونه ومشاكله السياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، كما كان لهم حضور خاص في إعداد الطليعة، وذلك بإعداد النُّخب العلمية والسياسية، وإشباع مختلف المجالات بالفاعلية والنشاط، وبثّ

روح العمل والتضحية، وجعل المبادئ السامية مرتكزات للتفاضل في المجتمع الإسلامي، حتى يبقى الإسلام حيًّا في ضمير الأمة.

موقف تجاه كل حدث

فالأئمة عليهم السلام كانت لديهم مواقف تجاه كل الأحداث حتى الصغير منها، والتاريخ يشهد على هذه السيرة، فلا يمر تغيير على مستوى الأمة، أو حدث في الساحة الإسلامية الممتدة، إلَّا وللأئمة رأي وموقف تجاهه، إما بشكل مباشر أو يُبلّغونه عبر خواصهم، ومن هنا كانوا يُشكِّلون خطراً كبيراً على السلطة الحاكمة الأموية أو العباسية. ولذلك نجد الخلفاء لا تنام لهم عين حتى تأتيهم أخبار الأئمة أوَّلاً بأوَّل، وهو ما يُفسِّر استدعاء الخلفاء للأئمة بشكل مُتكرِّر. وبرغم أن الثورات السياسية لم تكن تحت قيادة الأئمة عليهم السلام بشكل مباشر إلَّا أن الاتِّهامات كانت دائماً تدور حولهم، وأنهم يدعون لأنفسهم، فكان لدى السلطة إحساس واضح بأن الأئمة عليهم السلام هم وراء هذه الثورات. ولذا تمَّت مضايقتهم بشتى السبل، حتى إن بعضهم قضى أغلب أيام إمامته في السجن⁽¹⁾، كما عمل الخلفاء على كسر هيبة الأئمة عليهم السلام بجلب العلماء لمناظرتهم أملاً في هزيمتهم، ومن ثَمَّ إثبات عدم تميّزهم⁽²⁾، وآخر ما توصَّل إليه الخليفة العباسي هو حبس الأئمة عليهم السلام في مدينته (سامراء)⁽³⁾

---

(١) كالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

(٢) وهو ما قام به المأمون العباسي مع الإمام الرضا عليه السلام، وكان غرضه من ذلك إحراج الإمام وإظهار عجزه أمام العلماء وأصحاب المقالات والمتكلمين، وبعجز الإمام عليه السلام يكون المأمون قد نقض ما تذهب إليه الإمامية من أن الإمام إنما يكون أعلم أهل عصره، فيُسقط هيبة ومكانة الإمام عند عموم المسلمين، وبهذا تكون الفرصة سانحة له في عزل الإمام عن ولاية العهد التي علم أنه إنما أخطأ في توليته الإمام هذا المنصب الخطير. فأحضر المأمون كبار العلماء والمتكلمين، وقد جمعوا للإمام أعقد وأعمق المسائل في جميع العلوم والمعارف، فأجاب عنها الإمام بجواب العالم الخبير، وبهذا أبطل الإمام عليه السلام ما كان يُخطِّط له المأمون... طالع نص المناظرات والحوارت مع الإمام الرضا عليه السلام: التوحيد للصدوق، ص٤١٧. الاحتجاج، ج٢، ص٤١٥. بحار الأنوار، ج١٠، ص٢٩٩.

(٣) قضى الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام، معظم حياته في سامراء -بعد أن أمر المتوكل بإحضاره

لكيلا يظلَّ خائفاً ما دام الإمام عليه السلام تحت مراقبته المباشرة.

كل ذلك يدلّ على أن الأئمة كان لهم موقف تجاه أي حدث يقع في الدولة الإسلامية حتى الصغير منه، ولا يعني قولهم: «... **مَا مِنَّا إِلَّا مَقْتُولٌ أَوْ مَسْمُومٌ**»(١)، إلّا أنهم كانوا محور التوجيه السياسي.

فمثلاً المنصور الدوانيقي، وهو من البيت العباسي الذي اشترك مع البيت العلوي في العمل سوية على إسقاط الدولة الأموية، كان قد عرف بعض أساليب الأئمة عليهم السلام في إدارة العمل الرسالي وتوجيهه.

لذلك حينما كان في منطقة الربذة (مدفن أبي ذر رضي الله عنه) تساءل: ما الذي دفع محمد ذي النفس الزكية إلى القيام بثورته ضدنا؟. أليس الإمام الصادق عليه السلام؟.

هكذا فكّر في نفسه وطلب الإمام الصادق عليه السلام وقال قبل أن يأتي الإمام لبعض أتباعه: «مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ جَعْفَرٍ هَذَا، قَدَّمَ رِجْلًا وَأَخَّرَ أُخْرَى، يَقُولُ: أَتَنَحَّى عَنْ مُحَمَّدٍ -أَقُولُ يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الله بْنِ الْحَسَنِ (ذي النفس الزكية) فَإِنْ يَظْفَرْ فَإِنَّمَا الْأَمْرُ لِي وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَكُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُ نَفْسِي، أَمَا وَالله لَأَقْتُلَنَّهُ..»(٢).

ويفسّر صاحب كتاب (بحار الأنوار) العلامة المجلسي رحمه الله هذه الكلمة فيقول: «قدّم رِجْلاً وأخّر أخرى، أي وافق محمد بن عبد الله في بعض الأمر، وحثّه على الخروج وتنحّى عنه ظاهرًا أو حرف الناس عن ناحيتنا، ولم يُوافقه في الخروج، يقول أي الصادق عليه السلام: أتنحى عن محمد بن عبد الله بن الحسن فإن يظفر محمد فالأمر لي لكثرة شيعتي، وعلم الناس بأني أعلم وأصلح لذلك، وإن انهزم وقتل

عنوة- وكان فيها مثل السجين في زنازينها حيث أمر الطاغية العباسي جلاوزته بمراقبة دار الإمام عليه السلام وكل من يتّصل به من شيعته وعامة المسلمين. كما قام حكام بني العباس الذين جاؤوا بعد المتوكل بسجن الإمام الحسن العسكري عليه السلام ومراقبته وهو في السجن.

(١) عَنْ عُتْبَةَ بْنِ الضَّحَّاكِ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَطَبَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ، فَقَالَ: فِي خُطْبَتِهِ.... بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢١٦. كفاية الأثر، ص١٦٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٩٢.

فقد نجيت نفسي من القتل»(١).

وقال المنصور للإمام عليه السلام: «وَأَنْتَ -يَا جَعْفَرُ- مَا تَدَعُ حَسَدَكَ وَبَغْيَكَ وَإِفْسَادَكَ عَلَى أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَمَا يَزِيدُكَ اللهُ بِذَلِكَ إِلَّا شِدَّةَ حَسَدٍ وَنَكَدٍ مَا تَبْلُغُ بِهِ مَا تُقَدِّرُهُ..»(٢).

فالمنصور كان يعلم يقيناً أن الإمام الصادق عليه السلام صاحب موقف تجاه أي حركة تغييرية على الساحة الإسلامية، لذلك فمن المستحيل أن يكون تحرُّك ابن الحسن ضد الحكم العباسي بعيداً عن توجيه الإمام الصادق عليه السلام.

التقية دعامة ثابتة في قيادة الأئمة

إن أعمال الأئمة عليهم السلام كانت تتَّسم بطابع التقية، والعمل السري، والكتمان في كل التحرُّكات، الأمر الذي أدَّى إلى عدم ظهور هذه الأعمال إلَّا متأخراً، وحتى حينذاك لم يكن الموالون أمام ظرف يسمح لهم بإظهار كافة الخطط التي كان يرسمها الأئمة المعصومون عليهم السلام.

رُوِي عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنِ احْتِمَالِ أَمْرِنَا التَّصْدِيقُ لَهُ وَالْقَبُولُ فَقَطْ. مِنِ احْتِمَالِ أَمْرِنَا سَتْرُهُ، وَصِيَانَتُهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَأَقْرِئْهُمُ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُمْ رَحِمَ اللهُ عَبْدًا اجْتَرَّ مَوَدَّةَ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ، حَدِّثُوهُمْ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَاسْتُرُوا عَنْهُمْ مَا يُنْكِرُونَ.. ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا النَّاصِبُ لَنَا حَرْبًا بِأَشَدَّ عَلَيْنَا مَؤُونَةً مِنَ النَّاطِقِ عَلَيْنَا بِمَا نَكْرَهُ.**

فَإِذَا عَرَفْتُمْ مِنْ عَبْدٍ إِذَاعَةً فَامْشُوا إِلَيْهِ وَرُدُّوهُ عَنْهَا فَإِنْ قَبِلَ مِنْكُمْ وَإِلَّا فَتَحَمَّلُوا عَلَيْهِ بِمَنْ يُثَقِّلُ عَلَيْهِ، وَيَسْمَعُ مِنْهُ. فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَيَلْطُفُ فِيهَا حَتَّى تُقْضَى لَهُ، فَالْطُفُوا فِي حَاجَتِي كَمَا تَلْطُفُونَ فِي حَوَائِجِكُمْ. فَإِنْ هُوَ قَبِلَ مِنْكُمْ

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٩٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٩٦.

وَإِلَّا فَادْفِنُوا كَلَامَهُ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَلَا تَقُولُوا: إِنَّهُ يَقُولُ وَيَقُولُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْمَلُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ مَا أَقُولُ لَأَقْرَرْتُ أَنَّكُمْ أَصْحَابِي..»(١).

كل تلك السرية كانت لسبب بسيط وهو: كون النظام الحاكم لو عرف طريقة الأئمة المعصومين عليهم السلام في توجيه الأمة، لقام بتدبير المؤامرات المضادة وعرقل أعمالهم. فلو عرف المنصور الدوانيقي طريقة قيام الإمام الصادق عليه السلام بإدارة المجتمع وتوجيهه وقيادته، لما تمكَّن الإمام من صنع هذه التموُّجات في الساحة، ولأصبح المنصور حجر عثرة في طريق الإمام، وحتى لو تحقَّقت للمنصور هذه المعرفة بعد حياة الإمام الصادق عليه السلام فإن باستطاعته أن يستفيد منها في ضرب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وريث الإمام الصادق، وهكذا... ولو عرف هارون الرشيد طريقة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في إدارة الحركات الرسالية وهو مسجون لتمكَّن من محاصرتها ومن ثم القضاء عليها، ولو تسرَّبت تلك الخطط بعد وفاة الإمام لاستفاد منها المأمون في ضرب الإمام الرضا عليه السلام وهكذا...

فمن هنا تجد التأكيد في أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام على ضرورة السرية في التحرُّك حتى جُعلت رمزاً للانتماء، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كِتْمَانُ سِرِّنَا جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(٢).

ولكن أيّ سرّ يقصدون؟. هل إن كتمان فضائلهم وعدم إظهارها جهاد؟.

لم يكن ذلك بالتأكيد، فإن سيرة الأئمة تُثبت عكس ذلك تماماً، فإنهم يُشجِّعون كل من يبثّ فضائلهم ويُبيِّن للناس منزلتهم، حتى الشعراء لم يمنعوهم من مدحهم وإظهار مقامهم من أمثال: دعبل الخزاعي(٣)، والسيد

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٢٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٧٠.

(٣) دعبل بن علي الخزاعي [١٤٨-٢٤٦هـ]، اسمه محمد، وإنّما لُقِّب بدعبل لدعابة كانت فيه. شاعر مفلق، فصيح، متفنن في فنون الشعر، مدحًا، وهجاءً، وكان في هجائه لاذعًا. شهد له بذلك أشعر شعراء عصره. وحسبك بشاعريته أن يقول له أبو نواس الشاعر: «أحسنت ملء

الحميري(١)، والكميت(٢)، والفرزدق.

ولذا نجد أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام حينما سمع أن الفرزدق قد سُجِن بسبب قصيدته المشهورة في مدحه أمام الطاغية الأموي، لم يغضب عليه، ولم يتضايق

فيك...». ولقد مثَّل دعبل بشعره لسان المعارضة للدولة العباسية، فتعرَّض لسخط بني العباس، وقال في الأغاني واصفًا هجاءه: «شاعر متقدّم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء، ولا من وزرائهم ولا أولادهم..». عرف واشتهر بإيمانه وعلو منزلته، فعظم شأنه بين الموالين لأهل البيت عليهم السلام، عُدَّ من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، اشتهرت قصيدته التائية في أهل البيت عليهم السلام، بين الشيعة والسنة، حيث لم يبقَ مؤرخ ولا رجالي إلَّا وذكرها، أو أشار إليها، أو ذكر أبياتًا منها، كما أشار إليه الشعراء في أشعارهم، حتى قال عنها في الأغاني: «قصيدته: (مدارس آيات خلت من تلاوة) من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام». وفي معجم الأدباء: «قصيدته التائية في أهل البيت عليهم السلام من أحسن الشعر وأسنى المدائح». وقال العاملي في أعيانه: «بلغ من شهرتها أن يحفظها لصوص الأكراد وينشدوها ويتمثَّلوا بها وتكون سببًا في نجاة دعبل وأصحابه منهم ورد مسلوباتهم إليهم». له كتاب: طبقات الشعراء. أعيان الشيعة، ج٦، ص٤٠٠. فهرس التراث، ج١، ص٢٦٠.

(١) اسمه إسماعيل بن محمد الحميري [١٠٥-١٧٣هـ]، والسيد لقبه. كنيته أبو عامر الحميري، وبها اشتهر. عُدَّ من شعراء الإمام الصادق عليه السلام، قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «**سَمَّتْكَ أُمُّكَ سَيِّداً وَوُفِّقْتَ فِي ذَلِكَ وَأَنْتَ سَيِّدُ الشُّعَرَاءِ**..». فهو من شعراء أهل البيت عليهم السلام ومن المجاهرين بالولاء وبحبه لهم، استنفد شعره في معنى واحد وهو مدحهم عليهم السلام ولم يترك منقبة لأمير المؤمنين عليه السلام إلَّا نظم فيها شعرًا. كما كان من أقدر الناس على نظم الأخبار والأحاديث والقصص، ولم يُسمع بشاعر مُكثر مُطيل مُجيد غيره. وشعره مملوء بالاحتجاج، وله مناظرات جمة. انظر: أعيان الشيعة، ج١، ص١٨٥. الأعلام، ج١، ص٣٢٢.

(٢) ابن زيد الأسدي [٦٠-١٢٦هـ]، أبو المستهلّ، شاعر الهاشميين. من أهل الكوفة. خطيب بني أسد، وفقيه من فقهاء الشيعة، كان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، فارسًا شجاعًا، سخيًّا، راميًا لم يكن في قومه أرمى منه. عُرف بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، كثير المدح لهم. وهو من أصحاب الملحمات. أشهر شعره (الهاشميات)، وهي عدة قصائد في مدح أهل البيت عليهم السلام. ترجمت إلى الألمانية. ويقال إن: «شعره أكثر من خمسة آلاف بيت». وحكى السيد المرتضى عن الجاحظ في بعض كتبه أن: «الكميت أول من ناظر في التشيُّع وأقام فيه الحجج، وأنه لولا الكميت وما احتج به في هذا الشعر لما عرف الشيعة وجه الحجة في تقديم آل محمد صلى الله عليه وآله». أعيان الشيعة، ج١، ص١٣٣. الأعلام، ج٥، ص٢٣٣.

منه، وإنما بعث إليه بآلاف الدراهم تشجيعاً له على موقفه⁽١⁾، وهكذا كانت سيرة الأئمة عليهم السلام، فالإمام الصادق عليه السلام كان يحثُّ الحميري⁽٢⁾، والأشجع السلمي⁽٣⁾ لقول الشعر فيهم، وكان الإمام الرضا عليه السلام يُشجِّع دعبل الخزاعي معنويًا وماديًا حيث دفع إليه حين أنشده قصيدته التائية مائة دينار وجُبّة كان قد صلَّى فيها ما شاء الله له⁽٤⁾.

فنتساءل إذاً: ما الأمر الذي كان الأئمة المعصومون عليهم السلام يأمرون أتباعهم بكِتمانه والمحافظة على سرِّيته؟. إن هذا الأمر لا بد أن يكون مرتبطاً بالخطط والأساليب التي يتَّبعها الأئمة عليهم السلام في تبليغ الرسالة والمحافظة عليها في ظل النظم الإرهابية، ما يكشف عن الدور المهم والحساس الذي كان يقوم به أئمة أهل البيت عليهم السلام في التاريخ الإسلامي.

---

(١) الاختصاص، ص١٩٣. بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٢٧.

(٢) رُوِيَ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام لَقِيَ السَّيِّدَ ابْنَ مُحَمَّدٍ الْحِمْيَرِيَّ، قَالَ: سَمَّتْكَ أُمُّكَ سَيِّداً، وَوُفِّقْتَ فِي ذَلِكَ، وَأَنْتَ سَيِّدُ الشُّعَرَاءِ. ثُمَّ أَنْشَدَ السَّيِّدُ فِي ذَلِكَ:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِقَائِلٍ لِي مَرَّةً   عَلَّامَةٌ فَهِمٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ
سَمَّاكَ قَوْمُكَ سَيِّدًا صَدَقُوا بِهِ   أَنْتَ الْمُوَفَّقُ سَيِّدُ الشُّعَرَاءِ
مَا أَنْتَ حِينَ تَخُصُّ آلَ مُحَمَّدٍ   بِالْمَدْحِ مِنْكَ وَشَاعِرٌ بِسَوَاءِ
مَدَحَ الْمُلُوكَ ذَوِي الْغِنَى لِعَطَائِهِمْ   وَالْمَدْحُ مِنْكَ لَهُمْ بِغَيْرِ عَطَاءِ
فَأَبْشِرْ فَإِنَّكَ فَائِزٌ فِي حُبِّهِمْ   لَوْ قَدْ وَرَدْتَ عَلَيْهِمْ بِجَزَاءِ
مَا يَعْدِلُ الدُّنْيَا جَمِيعاً كُلَّهَا   مِنْ حَوْضِ أَحْمَدَ شَرْبَةٌ مِنْ مَاءِ

بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٢٨.

(٣) أشجع بن عمرو السلمي [ت: ١٩٥هـ]، أبو الوليد، من بني سليم، كان شاعرًا مُفلقًا مكثرًا، معدودًا في فحول الشعراء في طبقة أبي نواس وأبي العتاهية وبشار. كان الشعر يومئذٍ في ربيعة واليمن ولم يكن لقيس شاعر معدود فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. مدح الخلفاء وولاة العهود والوزراء والأمراء وغيرهم وأخذ جوائزهم السَّنِيَّة وحظي عندهم، فمدح الرشيد وأولاده فأعجب به الرشيد، ومدح البرامكة فاعجبوا به، ومدح غيرهم. دخل على الإمام الصادق عليه السلام فمدحه وأجازه ورثى الإمام الرضا عليه السلام. وروى الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، ص٤٥٨، أن الأشجع السلمي عندما نظم قصيدته يرثي الإمام الرضا عليه السلام، وقد شاع خبرها إلّا أن الأشجع غيَّر ألفاظها فجعلها في الرشيد. انظر: بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣١٠ و٣١٩. أعيان الشيعة، ج٣، ص٤٤٧. الأعلام، ج١، ص٣٣١.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٦٤. بحار الأنوار، ج٤٩، ص٢٣٩.

حركة إسماعيل ابن الإمام الصادق

وليس من الصدفة أيضاً أن يبرز إسماعيل⁽¹⁾ ابن الإمام الصادق عليه السلام ويقود بنفسه أكبر حركة ضد الحكم العباسي، ويُفجِّر ثورته المسلحة التي كان لها أكبر أثر في تاريخ الإسلام. ولا شك في أن الفضل في ذلك يعود إلى تربية الإمام الصادق عليه السلام وتوجيهه ودعمه وإدخاله في مجريات أمور الأمة الإسلامية. فقد جعل عليه السلام ابنه إسماعيل يقوم بالتجارة في بادئ الأمر، مع علمنا أن الأئمة المعصومين كانت تُجبى إليهم أموال الخمس والزكاة⁽²⁾، وكانوا يبعثون عليهم السلام أفراداً لجمعها⁽³⁾،

---

(١) ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، [ت: ١٣٣هـ]، أبو محمد، عُرف بتقواه، أخذ علومه ومعارفه عن أبيه، وإليه تنسب فرقة الإسماعيلية، وهم القائلون بإمامته بعد أبيه. ولأنه كان أكبر إخوته، وكان الإمام الصادق عليه السلام شديد المحبة له والبر به والإشفاق عليه، ولميل أبيه إليه وإكرامه له، كان قوم من الشيعة يظنون أنه القائم بعد أبيه والخليفة له من بعده، مات في حياة أبيه بالعريض وحمل إلى أبيه بالمدينة حتى دفن بالبقيع. رُوي أن أبا عبدالله عليه السلام جزع عليه جزعًا شديدًا وحزن عليه حزنًا عظيمًا وتقدَّم سريره بغير حذاء ولا رداء، وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مرارًا كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه، يريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانين خلافته له من بعده وإزالة الشبهة عنهم في حياته. وفي الإسماعيلية من يرى أن أباه أظهر موته تقيَّة حتى لا يقصده العباسيون بالقتل. أعيان الشيعة، ج٣، ص٣١٦-٣١٨.

(٢) رُوي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قوله: «**عَلَىَ كُلِّ امْرِئٍ غَنِمَ أَوِ اكْتَسَبَ الْخُمُسُ مِمَّا أَصَابَ لِفَاطِمَةَ** عليها السلام **وَلِمَنْ يَلِي أَمْرَهَا مِنْ بَعْدِهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهَا الْحُجَجِ عَلَى النَّاسِ فَذَاكَ لَهُمْ خَاصَّةً يَضَعُونَهُ حَيْثُ شَاؤُوا.. حَتَّى الْخَيَّاطُ يَخِيطُ قَمِيصًا بِخَمْسَةِ دَوَانِيقَ فَلَنَا مِنْهُ دَانِقٌ..**». وسائل الشيعة، ج٩، ص٥٠٣.

(٣) عَدَّ الشيخ الطوسي في كتابه (الغيبة، ص٣٤٧-٣٥٠)، عددًا من الوكلاء عن أئمة الهدى عليهم السلام قائلاً: «منهم: نصر بن قابوس اللخمي. فرُوي أنه كان وكيلًا لأبي عبدالله عليه السلام عشرين سنة ولم يُعلم أنه وكيل، وكان خيِّرًا فاضلًا. وكان عبد الرحمن بن الحجاج وكيلًا لأبي عبدالله عليه السلام ومات في عصر الرضا عليه السلام على ولايته. ومنهم: عبد الله بن جندب البجلي، وكان وكيلًا لأبي إبراهيم [الإمام الكاظم عليه السلام] وأبي الحسن الرضا عليه السلام، وكان عابدًا رفيع المنزلة لديهما على ما رُوي في الأخبار». أما قول الشيخ قدس سره: «ولم يُعلم أنه وكيل..»، فالمعنى أن وكالته لم تكن مشهورة عند الناس، ومنها يُعلم أن عملهم إنما هو قائم على التقية والسريّة لا يعلم حالهم إلّا الثقات من الشيعة. ويدل عليه ما رواه الشيخ الطوسي عن هشام بن أحمر قال:

من مواليهم وأنصارهم رغم الحظر الذي كانت تفرضه السلطة، وكانت الأموال التي تصلهم كثيرة بسبب العدد الكبير للشيعة والموالين الذين كانوا يعملون في التجارة، مضافاً إلى أن الدولة الإسلامية آنئذٍ كانت في قمَّة وضعها الاقتصادي، ما يجعل الأموال تأتيهم من كل صوب، فلم يكونوا في حاجة إليها.

ما يجعلنا نسأل التاريخ عن السبب الذي كان يدعو إسماعيل إلى ممارسة التجارة؟.

إن التاريخ يُصوِّر لنا إسماعيل تاجراً(١)، تحوَّل فجأة إلى قائد حركة كبيرة، تُعتبر الثانية من نوعها التي استطاعت أن تتغلَّب على أكبر دولة في العالم آنذاك، وهي الدولة العباسية، ما يجعلنا نتيقن أن القضية لم تكن عملية تجارة، وإنما التجارة كانت تغطية لأعمال أخرى أكبر منها. الأمر الذي يُوقفنا أمام المقدرة الفائقة للأئمة المعصومين عليهم السلام على تحريك الخيوط العديدة في الساحة الإسلامية.

فالإمام الصادق عليه السلام كان يُدرّس بطريقة مباشرة أربعة آلاف شخص(٢) مختلف العلوم، من علوم القرآن، والفقه، والأصول، والتاريخ، ومعارف الحكمة، وغيرها من العلوم النظرية والتطبيقية، وكان يُخرّج العلماء المختصين في ضروب المعارف المختلفة(٣). والرواية التالية تكشف لنا عن التخصّصات العلمية المختلفة في أصحاب وتلاميذ الإمام الصادق عليه السلام: «وَرَدَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ سَلَّمَ فَأَمَرَهُ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام بِالجُلُوسِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ؟.

«حملت إلى أبي إبراهيم عليه السلام إلى المدينة أموالًا، فقال عليه السلام: ردَّها فادفعها إلى المفضل بن عمر، فرددتها إلى جعفي فحططتها على باب المفضل».. وعن موسى بن بكر قال: «كنت في خدمة أبي الحسن عليه السلام فلم أكن أرى شيئًا يصل إليه إلَّا من ناحية المفضل، ولربما رأيت الرجل يجيء بالشيء فلا يقبله منه يقول: أوصله إلى المفضل».

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٦٧.

(٢) قال العلامة المحقق الحلي قدس سره في المعتبر، ج١، ص٢٦: «انتشر عنه عليه السلام من العلوم الجمّة ما بهر به العقول... وروى عنه من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل..». وطالع أيضًا: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج١، ص٦٧.

(٣) الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، ص٤٥-٧٠.

قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا تُسْأَلُ عَنْهُ، فَصِرْتُ إِلَيْكَ لِأُنَاظِرَكَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **فِي مَاذَا؟**

قَالَ: فِي الْقُرْآنِ وَقَطْعِهِ، وَإِسْكَانِهِ، وَخَفْضِهِ، وَنَصْبِهِ، وَرَفْعِهِ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا حُمْرَانُ**(١)**؛ دُونَكَ الرَّجُلَ.**

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّمَا أُرِيدُكَ أَنْتَ، لَا حُمْرَانَ!.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِنْ غَلَبْتَ حُمْرَانَ فَقَدْ غَلَبْتَنِي.**

فَأَقْبَلَ الشَّامِيُّ يَسْأَلُ حُمْرَانَ، حَتَّى ضَجَرَ وَمَلَّ وَعَرَضَ، وَحُمْرَانُ يُجِيبُهُ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **كَيْفَ رَأَيْتَ يَا شَامِيُّ؟.**

قَالَ: رَأَيْتُهُ حَاذِقاً مَا سَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَجَابَنِي فِيهِ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا حُمْرَانُ سَلِ الشَّامِيَّ.** فَمَا تَرَكَهُ يَكْشِرُ.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: أَرَأَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِالله أُنَاظِرُكَ فِي الْعَرَبِيَّةِ.

فَالْتَفَتَ أَبُو عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: **يَا أَبَانَ بْنَ تَغْلِبَ**(٢) **نَاظِرْهُ.**

فَنَاظَرَهُ فَمَا تَرَكَ الشَّامِيَّ يَكْشِرُ. قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُنَاظِرَكَ فِي الْفِقْهِ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا زُرَارَةُ**(٣) **نَاظِرْهُ.** فَمَا تَرَكَ الشَّامِيُّ يَكْشِرُ.

قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُنَاظِرَكَ فِي الْكَلَامِ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا مُؤْمِنَ الطَّاقِ**(٤) **نَاظِرْهُ.**

---

(١) حمران بن أعين الشيباني، كوفي مولى، تابعي مشكور. خلاصة الأقوال، ص١٣٤.

(٢) أبان بن تغلب الجريري، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة. خلاصة الأقوال، ص٧٣.

(٣) زرارة بن أعين الشيباني، شيخ أصحابنا في زمانه، متقدّمهم، قارئ فقيه متكلم أديب، اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادق فيما يرويه. رجال النجاشي، ص١٧٥.

(٤) محمد بن علي بن النعمان، ثقة، كوفي صيرفي، يُلقِّبه الشيعة بـ(مؤمن الطاق)، والعامة بـ(شيطان الطاق). من أصحاب الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ. رجال النجاشي، ص٣٢٥.

فَنَاظَرَهُ فَسُجِلَ الْكَلَامُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ تَكَلَّمَ مُؤْمِنُ الطَّاقِ بِكَلَامِهِ فَغَلَبَهُ بِهِ..

فَقَالَ الشَّامِيُّ: كَأَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تُخْبِرَنِي أَنَّ فِي شِيعَتِكَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ؟!.

قَالَ عليه السلام: هُوَ ذَلِكَ....»(١).

صحيح أن كل إمام امتاز بشيء بحسب الظرف ومقتضى الواقع، فأخذ المسلمون الفقه من الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وأصول الفكر من الإمام الباقر عليه السلام، والعبادة والتقوى والروح الدينية من الإمام السجاد عليه السلام، والثورة على النظام الفاسد من الإمام الحسين عليه السلام والصلح والسلم والتضحية من الإمام الحسن عليه السلام، والقضاء والشجاعة والعدالة من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولكن هذا التميز لا يمنع أن يكون كل إمام هو محور بنفسه في كل أبواب العلوم والمعارف، لولا الحكمة التي تقتضي إبراز الأمر المناسب في الموضع المناسب.

من هنا نرى أن الإمام كان يجمع هذه الخيوط جميعاً في يده، وكان يُحيط بكل الأمور إحاطة تامة، فمع اشتغال الإمام الصادق عليه السلام بالفقه الذي بلغ به هذا الشأن العالي، حتى أصبح مرجعاً فيه ليس للرساليين فقط، وإنما لأئمة المذاهب الأخرى أيضاً، مثل: أبي حنيفة(٢)، ومالك بن أنس(٣)، والشافعي محمد بن

---

(١) راجع تفصيل الرواية في: بحار الأنوار، ج٤٧، ص٤٠٧، ح١١، باب مناظرات أصحابه عليه السلام مع المخالفين.

(٢) رئيس المذهب الحنفي، تتلمذ على يد الإمام الصادق عليه السلام، نحو سنتين متصلتين، وهو القائل: «لولا السنتان لهلك النعمان». إحقاق الحق، ج٢٨، ص٤٤٣. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج١، ص٦٩.

(٣) رئيس المذهب المالكي، كانت له صلة تامة بالإمام الصادق عليه السلام، وروى الحديث عنه. وقال عن تتلمذه على يد الإمام الصادق الكاتب عبدالرحمن الشرقاوي: «أفاد الإمام مالك من صحبة الإمام جعفر وأخذ عنه كثيرًا من طرق استنباط الحكم، ووجوه الرأي، وأخذ عنه بعض الأحكام في المعاملات...»، وقد رُوي عن الإمام مالك قوله: «كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسُّم، فإذا ذُكِرَ عنده النبي صلى الله عليه وآله اخضرَّ واصفرَّ، ولقد اختلفت إليه زمانًا...». أئمة الفقه التسعة، ص٨٧. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج١، ص٧٠.

إدريـس(١)، وأحمد بـن حنبل(٢)، الذين رجعوا إليه بشـكل مبـاشر أو غير مباشر(٣)، ومـع ذلك فهل سـكت عن التغيير والإصـلاح الاجتماعي؟. ألم يكتـب كتاباً لوالي المنصـور على الأهـواز يُبيِّن له كيفية القضاء والإدارة وطُرقها وأسـاليبها؟. كما كان يكتـب في الحقوق الاجتماعية(٤)، كان في الوقت نفسـه يُربيِّ رجـلًا عالماً في الكيمياء

---

(١) رئيس المذهب الشافعي، ذكروا أن مشائخه في العلم من المدينة ستة، من أبرزهم -بعد أستاذه مالك بن أنس- إبرهيم بن محمد أبو أسحاق المدني، المتوفى سنة ٢٠٨هـ. وإبراهيم تلميذ مباشر للإمام الصادق وخرِّيج جامعته عَلَيْهِ السَّلَامُ، يُعدُّ من الرواة الثقات، ومن خواص الإمامين الصادقين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. ولقد أعابت علماء العامة على الإمام الشافعي تتلمذه على إبراهيم، وأكثرهم يطعنون في إبراهيم ويُضعِّفونه، حتى روى الرجالي الكبير الشيخ النجاشي في رجاله، ص١٥، عن بعض أصحابنا أن كتب إبراهيم نقلها الواقدي وادّعاها. لكن الإمام الشافعي وثَّقه، وقال عنه: «لأن يخر إبراهيم من بُعد أحب إليه من أن يكذب، وكان ثقة في الحديث»، رواها عنه العسقلاني في تهذيب التهذيب، ج١، ص١٣٨. والشافعي يعتمد على إبراهيم في كتبه ورواياته، فكان مرةً يُصرِّح باسمه وأخرى يُوري عنه، وكان يقول: «حدثني الثقة، حدثني من لا أتّهمه». الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج٢، ص١٩٢-١٩٣.

(٢) رئيس المذهب الحنبلي، رحل في طلب العلم إلى كل من بغداد، والكوفة، والبصرة، ومكة والمدينة، فأخذ علومه ومعارفه عن جمع غفير من أهل العلم، كان من أبرزهم أستاذه هشيم السلمي المتوفَّى سنة ١٨٣هـ، والإمام الشافعي الذي اجتمع به في بغداد فأخذ عنه الفقه والأصول، ولقد انقطع لأستاذه الشافعي بعد وفاة أستاذه السلمي، ويُعدُّ الشافعي الموجه الثاني لأحمد بن حنبل، وكانت بينهما صلة ومودة. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج٢، ص٤٧٣.

(٣) للإفادة طالع موسوعة: الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ والمذاهب الأربعة.

(٤) كتابه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى شيعته، حمل وصاياه ونصائحه القيِّمة التي تركَّزت على الاهتمام بواقعهم الديني والاجتماعي فحثَّهم على التمسُّك بمحاسن الأخلاق والصفات الكريمة، وحسن العشرة مع المخالفين لهم عقديًا، من أجل المحافظة على دمائهم، ودفع الأخطار عنهم، كما أوصاهم بحب الفقراء والإحسان إليهم... روى هذا الكتاب العلامة الكليني رَحِمَهُ اللهُ -مفتتحًا به روضة الكافي- عن إسماعيل بن جابر، أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب بهذه الرسالة إلى أصحابه وأمرهم بمدارستها والنظر فيها، وتعاهدها والعمل بها فكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها...

والرياضيات وهو جابر بن حيَّان الكوفي(١)، الذي كتب عنه (٤٠٠٠)(٢) مسألة انتشر على أثرها هذا العلم(٣).

هل بعد ذلك يُمكن أن نتصوَّر أن الإمام يسكتُ عمَّا يجري حوله في حين كانت الدولة الإسلامية تعيش العديد من التقلبات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والفكرية؟.

بالطبع كلَّا، لقد كانت وظيفته الأساسية هي التوجيه بأساليب وأشكال مُتعدِّدة، ولكنها لا تظهر لنا بجلاء، إلَّا من خلال بعض القضايا التي لا نعرفها كل المعرفة بسبب منهج التقيَّة الذي كان يتَّبعه.

ومن هذا الباب يمكننا أن نعرف أن حركة إسماعيل لم تكن مرتجلة، ولم يكن

---

(١) جابر بن حيان بن عبد الله الطرسوسي الكوفي [ت: ٢٠٠هـ]، أبو عبدالله، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، كان حكيمًا فيلسوفًا كيميائيًّا، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وأحد أبوابه، ومن كبار الشيعة.. أعيان الشيعة، ج٤، ص٣٠. الأعلام، ج٢، ص١٠٣.

(٢) ذكر ذلك العلامة السيد محسن الأمين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة)، ج٤، ص٣٠، فقال: «وإن عالمًا يؤلف ما يزيد على (٣٩٠٠) كتاب في علوم جُلّها عقلية وفلسفية لهوحقًّا من عجائب الكون، فبينا هو فيلسوف حكيم ومؤلف مُكثر في الحِيَل والنيرنجات والعزائم ومؤلف في الصنائع وآلات الحرب، إذا هو زاهدٌ واعظٌ مؤلفٌ كتبًا في الزهد والمواعظ. ومن يكون بهذه الإحاطة في العلوم، متى يتَّسع وقته لتأليف ١٣٠٠ كتاب في الحيل؟. ومن لا يكون متخصصًا بعلم الطب ولا مشهورًا به، كيف يؤلف فيه ٥٠٠ كتاب، وأي شيء أغرب من أن يكون -وهو فيلسوف- يؤلف ٥٠٠ كتاب نقضًا على الفلاسفة، وأن هذه الكتب التي تُعدُّ في العلم الواحد بـ(١٣٠٠) كتاب، و(٥٠٠) كتاب، و(٣٠٠) كتاب، و(١٣٠٠) رسالة، مهما صغر حجمها لهي دالة على باع طويل وهمَّة شمَّاء، وهو مع ذلك يشتغل بصناعة الكيمياء حتى صار أشهر من ينسب إليه هذا العلم، وذلك يحتاج إلى زمن طويل وجهد عظيم. ويكفي في تفرُّد الرجل أن كتبه بقي كثير منها محفوظًا في مكاتب الغرب والشرق، وطُبع جملة منها وتُرجم جملة منها». وقد تتبَّع الأستاذ إسماعيل مظهر مؤلفات جابر في كثير من مكتبات العالم فعثر على (٩٠) كتابًا، عرضهم العلامة الشيخ باقر شريف القرشي في موسوعته: الإمام الصادق عليه السلام، (أصحابه ورواته)، تحت عنوان: (جابر بن حيان)، في ذكر مؤلفاته، فراجعه.

(٣) للمزيد من الاطِّلاع والفائدة انظر: الإمام الصادق عليه السلام ملهم الكيمياء. و: الإمام الصادق عليه السلام كما عرفه عُلماء الغرب.

عمله كتاجر بحثاً عن الثروة، وإنما كان تمهيداً للثورة، فإذا كان الإمام الصادق عليه السلام يُشْرِف على الحركات التغييرية لأهل الكوفة والديلم، كيف لا يكون مخططاً لحركة ابنه إسماعيل؟.

أئمة أهل البيت والصراع السياسي في الأمة

إن أئمة أهل البيت عليهم السلام مع كون إمامتهم واجبة، وحقّهم في الحكم حق شرعي، إلَّا أنهم لم يتحرَّكوا وفقاً لهذا الحق الطبيعي، وإنما كانوا يعملون دوماً وفقاً لمصلحة المسلمين، والحفاظ على قيم الرسالة، فعند تزاحُم المصالح وتعارُض المهم والأهم لا بد حينها أن يُقدَّم الأهم، فمثلاً خلافة الإمام علي عليه السلام سياسيًّا كانت مصلحة مهمَّة، وفي مقابلها كان الحفاظ على كيان الإسلام ووحدة المسلمين أيضاً مصلحة، فرأى الإمام أن المصلحة العامة أولى فسكت في أمر الخلافة، وكذلك الإمام الحسن عليه السلام لم يكن حريصاً على الخلافة بقدر ما كان يهمه أن تبقى الدولة الإسلامية على وحدتها أمام الروم والفرس، وهكذا كل أفعال ومواقف الأئمة عليهم السلام كانت تقوم على النظرة العامة والتفكير الشامل الذي يستوعب القيم الدينية والمصالح الاستراتيجية. والقصة التالية تكشف بوضوح هذه الحقيقة:

جاء عدد من كبار الرساليين من الكوفة إلى محمد بن الحنفية في المدينة المنوّرة وسألوه -في اجتماع خاص ومغلق- ما إذا كان المختار يحضى بتأييد أهل البيت حتى يُبايعوه أم لا؟.

يقول العلامة المجلسي رحمه الله -في تتمة هذه القصة الطويلة- في بحار الأنوار: «إن محمد بن الحنفية قال لهؤلاء القادمين من الكوفة: قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين عليه السلام. فلما دخلوا عليه أخبر خبرهم الذي جاؤوا لأجله، فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا عم لو أن عبداً زنجيًّا تعصَّب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد ولَّيتُك هذا الأمر، فاصنع ما شئت». فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون: أذن لنا زين العابدين عليه السلام،

ومحمد بن الحنفية»[1].

وماذا تعني هذه الإجابة من الإمام زين العابدين عليه السلام؟.

إنها تعني أن العبرة ليست بالأشخاص وإنما بالمناهج والأهداف والطرق والوسائل التي تُتَّبع للوصول إلى الأهداف، بمعنى أنه هل كان يهم الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون خليفة مهما ترتّب على ذلك، أم كان يهمُّه أن تسير الدولة الإسلامية على المنهاج الصحيح؟. وهل كان يهم الإمام الحسن عليه السلام أن يكون خليفة ولو أدّى ذلك إلى زوال الدولة الإسلامية، أم كان يهمُّه أن تبقى الدولة الإسلامية على وحدتها أمام الروم والفرس؟!. وكذلك بقية الأئمة المعصومين عليهم السلام، ماذا كان يهمهم؟. وماذا كان الهدف الأساس في حياتهم؟.

بالطبع لم يكن أشخاصهم. وإنما لأن أشخاص الأئمة هم الذين جسَّدوا المبادئ والبرامج والمناهج الرسالية الصحيحة. وإذا كان تركيزنا على أشخاص الأئمة عليهم السلام، فلأننا لا نستطيع أن نفهم البرامج إلَّا من خلال فهمنا للأشخاص الذين جسَّدوها، فلا نفهم العدالة إلَّا من خلال علي، ولا الصلح إلَّا من خلال الحسن، ولا الشجاعة إلَّا من خلال الحسين، ولا الزهادة إلَّا من خلال زين العابدين، لا لأننا نتَّخذهم أنداداً للقيم.

وكان الأئمة عليهم السلام يعرفون مناهج الإسلام، ويُقيِّمون أنفسهم على ضوء تلك المناهج، ولا يُقيِّمونها من خلال أنفسهم، وإذا كان هذا الأمر صحيحاً، وهو صحيح فعلاً، فلا بد أن نعرف أنّ الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يقودون الأمة الإسلامية، ويُؤيِّدون تلك الحركات التي تكون نتيجتها صحيحة وسليمة بالنسبة للأمة الإسلامية، ولا يهمُّهم أشخاصهم.

لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعملون لكي تكون الأمة الإسلامية أقرب إلى المناهج الإسلامية، وألَّا تحكمها المناهج الباطلة، والرساليون آنئذٍ كان يهمُّهم

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٦٥.

هذا الجانب، فالرساليون الحقيقيون لم يكن يهمُّهم شخص الإمام، بل إنهم كانوا يُطيعون شخص الإمام ويتَّبعونه لأنهم يعرفون أنه قد نُصَّ عليه من قبل الله، وما نصَّ الله عليه إلَّا لأنه يتَّبع البرامج الصحيحة ويُريد تطبيق حكم الله.

من هنا ترى أن الإمام الصادق عليه السلام يُؤيِّد حركة محمد، ولا يهمُّه حينها أنّ محمداً غير جعفر، وأنه ابن عبد الله، وجعفر هو ابن محمد الباقر عليه السلام. إن المهم حينها عند الإمام هو الفكر، فالإمام يضع برنامجه حسب الأهداف الحقيقية.

من هنا نستطيع أن نقوّم التاريخ تقويماً جديداً، ونُفنّد بعض الآراء القائلة بفسق إسماعيل⁽¹⁾. فحقيقة الأمر أن اسماعيل مات في زمان الإمام الصادق عليه السلام، والإسماعيلية اتَّبعوا إسماعيل بعد الإمام الصادق عليه السلام وليس في أيامه. يقول العلامة المجلسي رحمه الله: «رُوي أن أبا عبد الله عليه السلام جزع عليه جزعاً شديداً، وحزن عليه حزنًا عظيمًا، وتقدَّم سريره بغير حذاء ولا رداء، وأمر بوضع سريره على الأرض مراراً كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر اليه، يُريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانِّين خلافته له من بعده وإزالة الشبهة عنه في حياته»⁽²⁾. وقد أورد العلامة المجلسي رحمه الله الروايات التي تُبيِّن مدى حبّ الإمام عليه السلام لولده إسماعيل⁽³⁾.

ومخالفة الإسماعيلية للإمام موسى بن جعفر عليه السلام كانت قضية ثانية ليست مرتبطة بشخص إسماعيل⁽⁴⁾، ولكن البعض لهم موقف من إسماعيل، لماذا؟.

---

(١) مستند القائلين بذلك، هو تمسُّكهم بجملة من الروايات منها ما راوه الكليني رحمه الله في الكافي، ج٥، ص٢٩٩، وقد ناقش علماؤنا هذه الروايات سنداً ودلالة، فحكموا بأنها مدخولة ولا يُمكن التعويل عليها. أنظر مثلاً: معجم رجال الحديث، ج٣، رقم: ١٣٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٤٢.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٤٣.

(٤) لأنهم بعد وفاة إسماعيل رجعوا إلى ابنه محمد، ولم يقولوا بإمامه الإمام موسى عليه السلام. فوقع الخلاف بينهم.

إن السبب في ذلك هو إدانتهم لأولئك الذين خالفوا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وهكذا فقد حوّلوا القضية كلها إلى قضية شخصية فوقعوا في الخطأ الجسيم.

وترى بعض الناس يتعجَّبون من الإمام الصادق عليه السلام كيف أنه يترحَّم على زيد بن علي وابنه يحيى، ويقولون في قرارة أنفسهم أن يحيى لم يقم بإذن إمام زمانه، وقُتِل، فكيف يبكي عليه الإمام عليه السلام؟.

إنهم يجدون في ذلك نوعاً من التناقض!.

والواقع ليس هناك أي تناقض، فقد كان الامام الصادق عليه السلام يُؤيِّد كل إنسان يثور على طاغية زمانه، ويسير على جادة المنهاج الصحيح، فلم يكن يهمُّه شخصه.

بهذا التقويم نستطيع أن نعرف ونكتشف كثيراً من خفايا التاريخ الإسلامي.

وفي البحوث القادمة سوف نصل إلى هذه الحقيقة، وهي أن الأئمة عليهم السلام وخصوصاً الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، كانوا يُؤيِّدون بعض الحركات والأشخاص، بحيث يبدو للباحث غير المُتعمِّق أن هذه المواقف تناقض الخط الرسالي للأئمة عليهم السلام.

صفو الكلام

* ليس الإمام هو رجل عبادة وزهد وفقه فقط، وإنما هو رجل عملٍ رسالي وتغيير شامل في الأمة. وهذه وظيفة الأنبياء والأئمة وكل المصلحين التاريخيين.

* وكان للأئمة عليهم السلام مواقف تجاة كل الأحداث حتى الصغير منها. ولذلك كان الخلفاء لا تنام لهم عين حتى تأتيهم أخبار الأئمة أولاً بأول. ولذلك أيضاً كانوا يستدعونهم ويسجنونهم ويدسّون إليهم السم.

* ولكن أعمال الأئمة كانت تتسم بطابع التقيّة والعمل السري والكتمان في كل التحركات لتجنّب ضربات الأعداء، الأمر الذي أدّى إلى عدم ظهور هذه الأعمال إلّا مؤخراً. ومن هنا كان التأكيد في أحاديث الأئمة على ضرورة السرية في العمل حتى جُعِلت رمزاً للتحرك.

* من هذا المنطق تظاهر إسماعيل ابن الامام الصادق بالاشتغال بالتجارة، بينما أعدّه الإمام الصادق عليه السلام ليقود أكبر حركة ضد الحكم العباسي.

* وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعملون لكي تكون الأمة الإسلامية أقرب إلى المناهج الإسلامية وألّا تحكمها المناهج الباطلة، ولم يكن يهمهم الأشخاص.

البابُ الرّابعُ: مَسيرةُ الحركةِ الرِّساليّةِ في العهدِ العبّاسيّ

الفصلُ الأوّلُ: الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامِ الكاظمِ عليه السلام

الفصلُ الثّاني: الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامِ الرِّضا عليه السلام

الفصلُ الثّالثُ: الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامِ الجواد عليه السلام

الفصلُ الرّابع: الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامِ الهادي عليه السلام

الفصلُ الخامسُ: الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامِ العسكريّ عليه السلام

الباب الرابع: مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الأول: الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام

سيرة وحياة الإمام الكاظم عليه السلام

دور الإمام الكاظم عليه السلام في الحركة الرسالية

تطور الحركة الإسماعيلية

سِيرةُ وَحَياةُ الإمَامِ الكَاظِمِ عليه السلام

حينما تُوفِّي الإمام الصادق عليه السلام وصَّى من بعده لخمسة أحدهم ابنه عبدالله المعروف (بالأفطح)⁽¹⁾، والثاني: ابنه موسى عليه السلام، والثالث: محمد بن سليمان⁽²⁾، الوالي العباسي على المدينة، والرابع: زوجته حميدة⁽³⁾، والخامس: الخليفة المنصور العباسي المعروف بـ(الدوانيقي).

كانت التشكيلة غريبة في حينها، وبعد ظهور الأسباب التي دعت الإمام إلى أن يجعل أوصياءه هؤلاء الخمسة تبيَّنت الحكمة من ذلك.

فحينما سمع المنصور العباسي بموت جعفر الصادق عليه السلام كتب رسالة إلى واليه على المدينة محمد بن سليمان جاء فيها: «إِنْ كَانَ أَوْصَى إِلَى رَجُلٍ بِعَيْنِهِ فَقَدِّمْهُ

---

(١) بعد وفاة أبيه مال إلى إمامته جمع كبير من الشيعة، ورجعوا عن إمامته لما امتحنوه بمسائل الحلال والحرام ولم يكن عنده فيها جواب، وظهر منه من الأشياء التي لا ينبغي أن تظهر من الإمام، فدانوا بإمامة أخيه الإمام الكاظم عليه السلام. مات بعد أبيه بسبعين يومًا، وبقي القليل منهم على القول بإمامته. رجال الكشي، ص٣٢٨.

(٢) محمد بن سليمان بن علي العباسي [١٢٢-١٧٣هـ]، أبوعبد الله، والي المدينة، في أيام المنصور، وأمير البصرة. وليها في أيام المهدي، وعزل سنة ١٦٤هـ، وأعاده الرشيد، واستمر في البصرة إلى أن تُوفِّي. الأعلام، ج٦، ص١٤٨.

(٣) حميدة البربرية، ويقال لها: حميدة المصفاة ابنة صاعد البربري، أندلسية، أم ولد وتُكنى لؤلؤة. وكان الإمام الصادق عليه السلام، يُرسلها مع أم فروة تقضيان حقوق أهل المدينة. من الثقات، وهي أم الإمام الكاظم عليه السلام. مستدركات علم رجال الحديث، ج٨، ص٥٦٩.

وَاضْرِبْ عُنُقَهُ. فأجابه سليمان: أَنَّهُ قَدْ أَوْصَى إِلَى خَمْسَةٍ أَحَدُهُمْ: أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَعَبْدُ الله، وَمُوسَى ابْنَيْ جَعْفَرٍ، وَحَمِيدَةَ.

وحينما قرأ المنصور الجواب قال: لَيْسَ إِلَى قَتْلِ هَؤُلَاءِ سَبِيلٌ»⁽¹⁾.

وهكذا استطاع الإمام عليه السلام بوصيته الحكيمة أن يحمي الوصي الشرعي له من بطش المنصور، في حين لم يَخْفَ هذا السر على الرساليين الذين تمرَّسوا في عملهم مع أهل البيت عليهم السلام، فمثلاً أبو حمزة الثمالي أحد قادة الرساليين في الكوفة، لمّا سمع نبأ وفاة الإمام الصادق عليه السلام وهو في ظهر الكوفة عند قبر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مع جماعة من أصحابه، شهق شهقة وأُغمي عليه، فلما أفاق قال: «هَلْ أَوْصَى إِلَى أَحَدٍ؟.

قَالَ: نَعَمْ أَوْصَى إِلَى ابْنِهِ عَبْدِالله ، وَمُوسَى، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ.

فَضَحِكَ أَبُو حَمْزَةَ وَقَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا إِلَى الْهُدَى، وَبَيَّنَ لَنَا عَنِ الْكَبِيرِ، وَدَلَّنَا عَلَى الصَّغِيرِ، وَأَخْفَى عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ.

فَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ، فَقَالَ: بَيَّنَ عُيُوبَ الْكَبِيرِ⁽²⁾، وَدَلَّ عَلَى الصَّغِيرِ، لِإِضَافَتِهِ إِيَّاهُ، وَكَتَمَ الْوَصِيَّةَ لِلْمَنْصُورِ، لِأَنَّهُ لَوْ سَأَلَ الْمَنْصُورُ عَنِ الْوَصِيِّ لَقِيلَ أَنْتَ»⁽³⁾.

وبيان ذلك: أنه لما قرن الإمام الصادق عليه السلام الكبير، وهو عبد الله الذي كان أكبر أولاده، بعدما تُوفِّي إسماعيل، مع الصغير وهو الإمام موسى عليه السلام، دلَّ على أن الكبير، وهو ذو عاهة، لا يصلح أن يكون الوصي بعده، وأن الوصي هو موسى الكاظم عليه السلام.

وكذلك أخفى الأمر على المنصور بعد أن جعله أحد الأوصياء.

---

(1) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣.

(2) وفي رواية أخرى: قَالَ: «بَيَّنَ أَنَّ الْكَبِيرَ ذُو عَاهَةٍ..». بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٥١. الخرائج والجرائح، ج١، ص٣٢٧.

(3) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٤. مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٣، ص٣٢٠.

يقول أبو حمزة الثمالي رضي الله عنه: «وَأَخْفَى عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ»، فماذا يعني إخفاء أمر عظيم؟.

إنه يعني سرًّا كامناً في وصية الإمام جعفر الصادق عليه السلام في خمسة بتوزيعها بينهم، وكذلك يعني السر نفسه الذي أراد كشفه المنصور الدوانيقي، حينما أمر بقتل وصي الإمام، إذا كان قد أوصى إلى رجل واحد، ومعناه -من الناحية الدينية المذهبية- أن الإمامة في المذهب الرسالي ليست بالسن، ولا حتى بالوراثة، فهم لم يعتقدوا بالأئمة المعصومين عليهم السلام لأنهم أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله فقط، وانما لأنهم أعلم أهل زمانهم، وأفضلهم، وأحسنهم خُلقاً، وأكملهم صفات، وبالتالي أكفأهم لإمامة المسلمين(١).

وربما كان أبو حمزة الثمالي يعني بكلمته: «وَأَخْفَى عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ»، ما كان ينتظره الرساليون من ظهور القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله. لأن الإمام الصادق عليه السلام كان يُعِدُّ ابنه موسى بن جعفر عليه السلام للقيام بالثورة لتغيير النظام وإدارة شؤون المسلمين.

دعنا نوضّح المسألة أكثر.

قد وضَّحنا فيما سبق أن اشتراك الأئمة المعصومين عليهم السلام في الإصلاحات السياسية والاقتصادية والدينية والعقائدية كان اشتراك المُوجِّه والمُسيِّر بصفة عامة، إلَّا أن بعض الأئمة تميَّزت ظروفهم بحيث كانت أقرب إلى التغيير السياسي في الأمة، ومن بينهم الإمام الحسين عليه السلام.

وكذلك الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث كان من المتوقّع أن يكون هو القائم من آل محمد عليهم السلام بإمرة المؤمنين، حتى إنه لما استُشهد وشيعت جنازته،

---

(١) لاحظ جواب الإمام الرضا عليه السلام لسؤال عبدالعزيز بن مسلم عن الإمامة، ففيه إيضاح كامل واستيعاب شامل في بيان منصب الإمامة. الكافي، ج١، ص١٩٨. بحار الأنوار، ج٢٥، ص١٢٠، الاحتجاج، ٢، ص٤٣٣، عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢١٦.

نادى العباسيون على جثمانه: «هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ الَّذِي تَزْعُمُ الرَّافِضَةُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ، فَانْظُرُوا إِلَيْهِ. فَنَظَرُوا إِلَيْهِ»⁽¹⁾. دلالة على أن الاعتقاد السائد آنذاك كان أنه قائم آل محمد عليهم السلام وأنه لا يموت حتى «يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا ...»⁽²⁾، ولكن الله أخّر هذا الأمر عندما أُشيع السر، فقتل الإمام شهيداً، وكان مقتله بطريقة مأساوية لم يقتل بها أحد من الأئمة الآخرين، باستثناء الإمام الحسين عليه السلام. فطريقة استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام وما جرى في حياته بذاتها دليل على طبيعة الظروف التي كان يمر بها.

فإذا نظرنا إلى حياة الأئمة عليهم السلام بشكل إجمالي لوجدنا أن الإمام علي عليه السلام وإن كان جالساً في بيته مدة خمس وعشرين سنة⁽³⁾، إلاّ أنه كان يُؤدّي دوراً مهمًا في تقرير شؤون الدولة الإسلامية، فكان يُندَب لكل مشكلة⁽⁴⁾، وقد اشتُهر قول عمر، وكان: يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن عليه السلام، وقد قال: «ولولا علي لهلك عمر»⁽⁵⁾، كل ذلك يدل على أن الإمام كان يُراقب بدقة الأحداث السياسية وهكذا سائر الأئمة عليهم السلام.

أما ما واجهه الإمام الكاظم عليه السلام وظروف شهادته فقد كانت ذات طابعٍ مأساويٍّ، فمثلاً: الإمام الحسن، وسائر الأئمة بعد الحسين عليهم السلام، لم يدخلوا

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤١٧. بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٣٣. إعلام الورى، ص٣١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٢٦.

(٣) اعتزل الإمام علي عليه السلام، -احتجاجًا واعتراضًا- الناس في خلافة الأول، وسنوات قليلة من خلافة الثاني، ولم ينقل لنا التاريخ شيئًا يدل على اشتراكه في أي عمل من أعمال الدولة آنذاك. لاحظ شرح نهج البلاغة، ج٩، ص٢٧.

(٤) كان الخليفة الثاني كثير المشورة من الإمام علي، فكان يستشيره في أمور السياسة والحرب، مثل استشارته له في غزو الروم، والفرس. لاحظ: بحار الأنوار، ج٣١، ص١٣٧. شرح نهج البلاغة، ج٩، ص ٩٥. وأيضاً في مسائل القضاء. وقد نصح الإمام عليه السلام الخليفة الثاني فيما يتعلّق بالقضاء إن سار على ضوئها تحقّقت العدالة في حكومته. لاحظ: بحار الأنوار، ج٧٢، ص٣٤٩. مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص١٤٧.

(٥) الاستيعاب، ج٣، ص١١٠٣. بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٤٨.

السجن، واغتيلوا بطريقة جبانة بدسّ السم إليهم غدراً⁽¹⁾، وكان مقتلهم ومدفنهم باعتزاز، ولم يُسجَنوا ولم يهانوا في حياتهم بمثل ما حصل للإمام الحسين والإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

فلماذا تميَّزت حياة هذين الإمامين الشهيدين بسمة خاصة هي سمة المأساة أو السجن الطويل والإهانة؟.

لماذا كان يُنادى على جثمان الإمام الكاظم حسب ما جاء في الزيارة باحتقار واستخفاف⁽²⁾، وكان هذا بمثابة إهانة كبيرة للإمام؟ فبعد أن أخذ سليمان جثمان الإمام قال: «هذا موسى بن جعفر قد مات، فانظروا اليه، فجعل الناس يتفرَّسون في وجهه وهو ميت»⁽³⁾.

ورُوي أنه لما أُتي بجثمانه الطاهر عليه السلام إلى مجلس الشرطة قام أربعة نفر فنادوا: «أَلَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى (...) بْنَ (...) مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ فَلْيَخْرُجْ..»⁽⁴⁾. وكان النداء يحتوي على كلمات مُهينة. وقيل: إن السندي أخرجه للناس -بعد أن استُشهد الإمام- وعمل محضراً بأنه مات حتف أنفه، بل قيل: إنه «تُرك ثلاثة أيام على الطريق يأتي من يأتي فينظر إليه ثم يكتب في المحضر..»⁽⁵⁾.

فلماذا عامل العباسيون الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بهذه القساوة، كما عامل الأمويون -من قبل- الإمام الحسين عليه السلام؟.

---

(١) اتفقت الغالبية العظمى من أقوال مؤرخي العامة بأن معاوية هو الذي أمر بسمّ الإمام الحسن عليه السلام، حيث دسّ إليه السم بيد جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام، حمله إليها مروان بن الحكم.. البداية والنهاية، ج٨، ص٤٣. تاريخ الإسلام للذهبي، ج٤، ص٤٠. تذكرة الخواص، ص١٩١-١٩٢. السيرة الحلبية، ج٣، ص٤٠٥. الاستيعاب، ج١، ص٣٨٩. مروج الذهب، ج٢، ص٤٢٧. أنساب الأشراف، ج٣، ص٥٥-٥٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٩، ص١٦.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص٥٤.

(٤) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢٧. عيون أخبار الرضا، ج١، ص٩٩. كمال الدين، ج١، ص٣٨.

(٥) عمدة الطالب، ص٢٤٠.

لقد قام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بتدبير خطة للتغيير السياسي في الأمة، ابتداءً من إخفاء الإمام الصادق عليه السلام لإمامته، وانتهاءً بوفاته، ومروراً بكل الأحداث التي جرت في أيامه. وبالرغم من أن الأمر كان يجري في سرية تامة، إلَّا أن ما روي عن حياة الإمام الكاظم عليه السلام يرسم لنا صورة واضحة عن ماهية الأهداف التي كان ينشدها ويسعى لتحقيقها.

رُوي أن محمد بن إسماعيل لمّا حضر عند هارون الرشيد قال له: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ خَلِيفَتَانِ فِي الْأَرْضِ، مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ بِالْمَدِينَةِ يُجْبَى لَهُ الْخَرَاجُ، وَأَنْتَ بِالْعِرَاقِ يُجْبَى لَكَ الْخَرَاجُ؟!.

فَقَالَ: وَاللَّهِ!. فَقَالَ: وَاللَّهِ...»⁽١⁾.

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله: «لم يكن موسى بن جعفر عليه السلام ممَّن يجمع المال، ولكنه حصل في وقت الرشيد وكثر أعداؤه، ولم يقدر على تفريق ما كان يجتمع، إلَّا على القليل ممَّن يثق بهم في كتمان السر. فاجتمعت هذه الأموال لأجل ذلك، وأراد ألَّا يحقق على نفسه قول من كان يسعى به إلى الرشيد، ويقول: إنه تحمل عليه⁽٢⁾ الأموال ويُعتقد له الإمامة ويحمل على الخروج عليه، ولولا ذلك لفرَّق ما اجتمع من هذه الأموال..»⁽٣⁾.

وروي: «أَنَّهُ اجْتَمَعَتْ عِصَابَةُ الشِّيعَةِ بِنَيْسَابُورَ وَاخْتَارُوا مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ النَّيْسَابُورِيَّ، فَدَفَعُوا إِلَيْهِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَشِقَّةً مِنَ الثِّيَابِ، وَأَتَتْ شَطِيطَةُ بِدِرْهَمٍ صَحِيحٍ، وَشِقَّةِ خَامٍ مِنْ غَزْلِ يَدِهَا تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ.

فَقَالَتْ: إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ. قَالَ: فَثَنَّيْتُ دِرْهَمَهَا.

وَجَاؤُوا بِجُزْءٍ فِيهِ مَسَائِلُ مِلْءَ سَبْعِينَ وَرَقَةً فِي كُلِّ وَرَقَةٍ مَسْأَلَةٌ وَبَاقِي الْوَرَقِ

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٣٩.

(٢) في بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٥٣: إليه.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١١٤.

بَيَاضٌ لِيُكْتَبَ (من قبل الإمام الكاظم عليه السلام) الْجَوَابُ تَحْتَهَا، وَقَدْ حُزِمَتْ كُلُّ وَرَقَتَيْنِ بِثَلَاثِ حُزُمٍ، وَخُتِمَ عَلَيْهَا بِثَلَاثِ خَوَاتِيمَ عَلَى كُلِّ حِزَامٍ خَاتَمٌ، وَقَالُوا: ادْفَعْ إِلَى الْإِمَامِ لَيْلَةً وَخُذْ مِنْهُ فِي غَدٍ...»(١).

الحركة الرسالية دولة داخل دولة

لقد وصلت الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام إلى درجة كبيرة من القوة، وأصبحت تُشكِّل معها دولة داخل دولة، حتى إن كثيراً من أعوان هارون الرشيد ووزرائه كانوا ينتمون إلى تلك الحركة، وكان كل ذلك يجري وفق تنظيم دقيق وسرية تامة.

يقول علي بن يقطين(٢) الذي كان بمثابة وزير لهارون الرشيد: «كُنْتُ وَاقِفًا عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ؛ إِذْ جَاءَتْهُ هَدَايَا مَلِكِ الرُّومِ، وَكَانَ فِيهَا دُرَّاعَةُ دِيبَاجٍ سَوْدَاءُ مَنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ، لَمْ أَرَ أَحْسَنَ مِنْهَا، فَرَآنِي أَنْظُرُ إِلَيْهَا فَوَهَبَهَا لِي، وَبَعَثْتُهَا إِلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ (يعني الإمام موسى بن جعفر عليه السلام)، وَمَضَتْ عَلَيْهَا بُرْهَةُ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَانْصَرَفْتُ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ هَارُونَ بَعْدَ أَنْ تَغَدَّيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلْتُ دَارِي قَامَ إِلَيَّ خَادِمِيَ الَّذِي يَأْخُذُ ثِيَابِي بِمِنْدِيلٍ عَلَى يَدِهِ وَكِتَابٍ لَطِيفٍ خَتْمُهُ رَطْبٌ، فَقَالَ: أَتَانِي بِهَذَا رَجُلٌ السَّاعَةَ، فَقَالَ: أَوْصِلْهُ إِلَى مَوْلَاكَ سَاعَةَ يَدْخُلُ.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٧٣.

(٢) وجه من وجوه الطائفة وأعيانها، صاحب مكانة عالية عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، كان والده يقطين من القائلين بإمامة الإمام الصادق، ومن أصحابه ووكلائه عليه السلام، تقلَّد علي بن يقطين -كما في (الوزراء والكُتَّاب للجهشياري، ص١٠٦- منصب (الأزمة) على عمر بن بزيع، وذلك في أيام المهدي. عيّنه الرشيد وزيراً له، فدخل على الإمام موسى عليه السلام يستأذنه في ترك المنصب، فنهاه الإمام عليه السلام، وقال له: «**لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَنَا بِكَ أُنْساً، وَلِإِخْوَانِكَ بِكَ عِزًّا، وَعَسَى أَنْ يَجْبُرَ اللهُ بِكَ كَسْراً، وَيَكْسِرَ بِكَ نَائِرَةَ الْمُخَالِفِينَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ، يَا عَلِيُّ كَفَّارَةُ أَعْمَالِكُمُ الْإِحْسَانُ إِلَى إِخْوَانِكُمْ**..». بحار الأنوار، ج٧٢، ص٣٧٩. وقال عنه الإمام عليه السلام -وقد دخل عليه في أحد الأيام، وكان مع الإمام جمع من أصحابه عليه السلام-: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَرَى رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْمُقْبِلِ**. فقال له رجل من القوم هو إذن من أهل الجنة؟. فقال أبو الحسن عليه السلام: **أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**». رجال الكشي، ص٤٩١.

فَفَضَضْتُ الْكِتَابَ وَإِذَا بِهِ كِتَابُ مَوْلَايَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام؛ وَفِيهِ: **يَا عَلِيُّ، هَذَا وَقْتُ حَاجَتِكَ إِلَى الدُّرَّاعَةِ، وَقَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ.**

فَكَشَفْتُ طَرَفَ الْمِنْدِيلِ عَنْهَا وَرَأَيْتُهَا وَعَرَفْتُهَا، وَدَخَلَ عَلَيَّ خَادِمُ هَارُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ حَدَثَ!.

قَالَ: لَا أَدْرِي.

فَرَكِبْتُ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ بَزِيعٍ وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: مَا فَعَلَتِ الدُّرَّاعَةُ الَّتِي وَهَبْتُكَ؟!.

قُلْتُ: خِلَعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كَثِيرَةٌ مِنْ دَرَارِيعَ وَغَيْرِهَا، فَعَنْ أَيِّهَا يَسْأَلُنِي!.

قَالَ: دُرَّاعَةِ الدِّيبَاجِ السَّوْدَاءِ الرُّومِيَّةِ الْمُذَهَّبَةِ.

فَقُلْتُ: مَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَ بِهَا أَلْبَسُهَا فِي أَوْقَاتٍ وَأُصَلِّي فِيهَا رَكَعَاتٍ، وَقَدْ كُنْتُ دَعَوْتُ بِهَا عِنْدَ مُنْصَرَفِي مِنْ دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّاعَةَ لِأَلْبَسَهَا.

فَنَظَرَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ بَزِيعٍ فَقَالَ: قُلْ يُحْضِرْهَا، فَأَرْسَلْتُ خَادِمِي جَاءَ بِهَا.

فَلَمَّا رَآهَا قَالَ: يَا عُمَرُ، مَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْقُلَ عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ هَذَا شَيْئًا. قَالَ: فَأَمَرَ لِي بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، حُمِلَتْ مَعَ الدُّرَّاعَةِ إِلَى دَارِي.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ يَقْطِينٍ: وَكَانَ السَّاعِي ابْنَ عَمٍّ لِي، فَسَوَّدَ اللهُ وَجْهَهُ وَكَذَّبَهُ، وَالْحَمْدُ للهِ»(١).

سعي السلطات العباسية لكشف الحركة الرسالية

لما كانت الحركة الرسالية على مدى واسع من الانتشار، وكان التغلغل

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٥٩.

الرسالي داخل الدولة وسيعًا، لم تبرح السلطات العباسية من التجسس وبث العيون ومراقبة الوزراء.

ولكي تتمكَّن السلطات العباسية من الحصول على المعلومات فقد بذلت من أجل ذلك الكثير من الأموال لشراء الذمم حتى ذمم بعض العلويين.

فقد رُوي أن يحيى بن خالد (البرمكي) قال ليحيى بن أبي مريم: «أَلَا تَدُلُّنِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَأُوَسِّعَ لَهُ مِنْهَا؟.

قَالَ: بَلَى؛ أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهُوَ: عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ(١).

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَحْيَى فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ عَمِّكَ وَعَنْ شِيعَتِهِ وَالمَالِ الَّذِي يُحْمَلُ إِلَيْهِ؟!.

فَقَالَ لَهُ: عِنْدِي الْخَبَرُ. فَسَعَى بِعَمِّهِ...»(٢).

ولما أيقنت السلطات العباسية بخطورة أهداف الحركة الرسالية التي كانت تسعى إلى تحقيقها بقيادة الإمام الكاظم عليه السلام عملت على تصفيتها والقضاء عليها، وبما أن مخططات الحركة غير واضحة لدى السلطة فكرت بضرب رأس الحركة مهما كلَّفها الأمر، فعمدت إلى سجن الإمام الكاظم الذي سُجِن أغلب أيام إمامته.

إلَّا أن أمر الحركة لم يضعف بالشكل الذي كانت تتمنَّاه السلطات، فقد كان الإمام وعبر الرساليين داخل جهاز السلطة، يقود الحركة ويُدير أعمالها وهو في

---

(١) علي بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، مذموم، سعى بعمه الإمام موسى الكاظم عليه السلام. رُوي عن علي بن جعفر قال: «سمعت أخي موسى عليه السلام قال: قال أبي لعبدالله أخي، إليك ابني أخيك فقد ملآني بالسَّفَه، فإنهما شِرْك شيطان. يعني محمد بن إسماعيل بن جعفر وعلي بن إسماعيل بن جعفر». رجال الكشي ص٢٦٥. مستدركات علم رجال الحديث، ج٥، ص٣٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٠٩. مقاتل الطالبيين، ص٤١٥.

السجن، الأمر الذي جعل السلطات في حالة هستيريا قرَّرت معها تصفية الإمام جسديًّا.

إن استمرار وتصاعد الحركة الرسالية، كان يُهدِّد الدولة العباسية يوماً بعد يوم. وكيف لا يحدث ذلك الارتعاش عند الخلفاء العباسيين وهم يعرفون أن الحركة الرسالية هي امتداد للرسالة المحمدية، واستمرار لما أتى به الرسول الأكرم ﷺ، فقد كانت الحركة مهيَّأة لاستلام زمام الأمور، فلا تنقصها الأموال التي كانت تأتي للإمام من الرساليين من كل مكان في شكل أخماس وزكوات. ومن الناحية العسكرية فهم يعرفون أن كل رسالي متى ما أمره إمامه بالخروج، فإنه لا يفتأ يُطيع إمامه.

روي عن يونس بن عبد الرحمن قال: قال يحيى بن خالد البرمكي لهارون: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنِّي قَدِ اسْتَبْطَنْتُ أَمْرَ هِشَام (يقصد هشام بن الحكم)، فَإِذَا هُوَ يَزْعُمُ أَنَّ للهِ فِي أَرْضِهِ إِمَامًا غَيْرَكَ مَفْرُوضَ الطَّاعَةِ. قَالَ (هارون): سُبْحَانَ اللهِ!!.

قَالَ: نَعَمْ؛ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَوْ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ لَخَرَجَ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَرَى أَنَّهُ مِمَّنْ يَرَى الْإِلْبَادَ بِالْأَرْضِ.

فَقَالَ هَارُونُ لِيَحْيَى: فَاجْمَعْ عِنْدَكَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَأَكُونُ أَنَا مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لِئَلَّا يَفْطُنُوا بِي، وَلَا يَمْتَنِعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِأَصْلِهِ لِهَيْبَتِي.

قَالَ: فَوَجَّهَ يَحْيَى فَأَشْحَنَ الْمَجْلِسَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ... قَالَ: فَتَسَاءَلُوا، فَتَكَافَؤُوا، وَتَنَاظَرُوا، وَتَقَاطَعُوا، تَنَاهَوْا إِلَى شَاذٍّ مِنْ مَشَاذِّ الْكَلَامِ، كُلٌّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَمْ تُجِبْ، وَيَقُولُ: قَدْ أَجَبْتُ.

وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ يَحْيَى حِيلَةً عَلَى هِشَامٍ، إِذْ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَاغْتَنَمَ ذَلِكَ لِعِلَّةٍ كَانَ أَصَابَهَا هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ.

فَلَمَّا تَنَاهَوْا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ قَالَ لَهُمْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: أَتَرْضَوْنَ فِيمَا بَيْنَكُمْ هِشَامًا

حَكَمًا؟.

قَالُوا: قَدْ رَضِينَا أَيُّهَا الْوَزِيرُ، فَأَنَّى لَنَا بِهِ وَهُوَ عَلِيلٌ!.

فَقَالَ يَحْيَى: فَأَنَا أُوَجِّهُ إِلَيْهِ فَأُرْسِلُهُ أَنْ يَتَجَشَّمَ المَشْيَ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِحُضُورِهِمْ وَأَنَّهُ إِنَّمَا مَنَعَهُ أَنْ يُحْضِرُوهُ أَوَّلَ المَجْلِسِ إِبْقَاءً عَلَيْهِ مِنَ الْعِلَّةِ، وَأَنَّ الْقَوْمَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي المَسَائِلِ وَالْأَجْوِبَةِ وَتَرَاضَوْا بِكَ حَكَمًا بَيْنَهُمْ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَفَضَّلَ وَتَحْمِلَ عَلَى نَفْسِكَ فَافْعَلْ.

فَلَمَّا صَارَ الرَّسُولُ إِلَى هِشَام، قَالَ لِي: يَا يُونُسُ، قَلْبِي يُنْكِرُ هَذَا الْقَوْلَ، وَلَسْتُ آمَنُ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا أمرا [أَمْرٌ] لَا أَقِفُ عَلَيْهِ، لِأَنَّ هَذَا المَلْعُونَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ قَدْ تَغَيَّرَ عَلَيَّ لِأُمُورٍ شَتَّى، وَقَدْ كُنْتُ عَزَمْتُ إِنْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِالْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْعِلَّةِ أَنْ أَشْخَصَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَأُحَرِّمَ الْكَلَامَ بَتَّةً، وَأَلْزَمَ المَسْجِدَ لِيَقْطَعَ عَنِّي مُشَاهَدَةُ هَذَا المَلْعُونِ (يَعْنِي يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ).

قَالَ، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ لَا يَكُونُ إِلَّا خَيْرًا، فَتَحَرَّزْ مَا أَمْكَنَكَ.

فَقَالَ لِي: يَا يُونُسُ، أَتَرَى التَّحَرُّزَ عَنْ أَمْرٍ يُرِيدُ اللهُ إِظْهَارَهُ عَلَى لِسَانِهِ أَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُمْ بِنَا عَلَى حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ.

فَرَكِبَ هِشَامٌ بَغْلًا كَانَ مَعَ رَسُولِهِ، وَرَكِبْتُ أَنَا حِمَارًا كَانَ لِهِشَامٍ.

قَالَ: فَدَخَلْنَا المَجْلِسَ، فَإِذَا هُوَمَشْحُونٌ بِالمُتَكَلِّمِينَ.

قَالَ: فَمَضَى هِشَامٌ نَحْوَ يَحْيَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقَوْمِ وَجَلَسَ قَرِيباً مِنْهُ، وَجَلَسْتُ أَنَا حَيْثُ انْتَهَى بِيَ المَجْلِسُ.

فحكم بينهم هشام...

ثُمَّ إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ قَالَ لِهِشَام: إِنَّا قَدْ أَعْرَضْنَا عَنِ المُنَاظَرَةِ وَالمُجَادَلَةِ مُنْذُ الْيَوْمِ، وَلَكِنْ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَبِينَ عَنْ فَسَادِ اخْتِيَارِ النَّاسِ الْإِمَامَ وَأَنَّ الْإِمَامَةَ فِي آلِ بَيْتِ

الرَّسُولِ دُونَ غَيْرِهِمْ؟.

قَالَ هِشَامٌ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ، الْعِلَّةُ تَقْطَعُنِي عَنْ ذَلِكَ، وَلَعَلَّ مُعْتَرِضًا يَعْتَرِضُ، فَيَكْتَسِبُ الْمُنَاظَرَةَ وَالْخُصُومَةَ.

قَالَ: إِنِ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ مُرَادَكَ وَغَرَضَكَ فَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي لَهُ فِيهَا مَطْعَنٌ، فَيَقِفُهَا إِلَى فَرَاغِكَ، وَلَا يَقْطَعَ عَلَيْكَ كَلَامَكَ.

فَبَدَأَ هِشَامٌ -وَسَاقَ الذِّكْرَ لِذَلِكَ وَأَطَالَ وَاخْتَصَرْنَا مِنْهُ مَوْضِعَ الْحَاجَةِ- فَلَمَّا فَرَغَ مِمَّا قَدِ ابْتَدَأَ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ فِي فَسَادِ اخْتِيَارِ النَّاسِ الْإِمَامَ.

قَالَ يَحْيَى لِسُلَيْمَانَ بْنِ جَرِيرٍ: سَلْ أَبَا مُحَمَّدٍ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ؟.

قَالَ سُلَيْمَانُ لِهِشَامٍ: أَخْبِرْنِي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام مَفْرُوضُ الطَّاعَةِ؟!.

فَقَالَ هِشَامٌ: نَعَمْ.

قَالَ: فَإِنْ أَمَرَكَ الَّذِي بَعْدَهُ بِالْخُرُوجِ بِالسَّيْفِ مَعَهُ تَفْعَلُ وَتُطِيعُهُ؟!.

فَقَالَ هِشَامٌ: لَا يَأْمُرُنِي!.

قَالَ: وَلِمَ، إِذَا كَانَتْ طَاعَتُهُ مَفْرُوضَةً عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُطِيعَهُ؟!.

فَقَالَ هِشَامٌ: عُدْ عَنْ هَذَا، فَقَدْ تَبَيَّنَ فِيهِ الْجَوَابُ!.

قَالَ سُلَيْمَانُ: فَلِمَ يَأْمُرُكَ فِي حَالٍ تُطِيعُهُ، وَفِي حَالٍ لَا تُطِيعُهُ؟!.

فَقَالَ هِشَامٌ: وَيْحَكَ، لَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنِّي لَا أُطِيعُهُ، فَتَقُولَ: إِنَّ طَاعَتَهُ مَفْرُوضَةٌ، إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: لَا يَأْمُرُنِي!.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ أَسْأَلُكَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ سُلْطَانِ الْجَدَلِ، لَيْسَ عَلَى الْوَاجِبِ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُكَ.

فَقَالَ هِشَامٌ: كَمْ تَحُولُ حَوْلَ الْحِمَى، هَلْ هُوَ إِلَّا أَنْ أَقُولَ لَكَ: إِنْ أَمَرَنِي فَعَلْتُ، فَتَنْقَطِعُ أَقْبَحَ الانْقِطَاعِ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَكَ زِيَادَةٌ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا يَجُبُّ قَوْلِي، وَمَا إِلَيْهِ يَؤُولُ جَوَابِي.

قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ هَارُونَ. وَقَالَ هَارُونُ: قَدْ أَفْصَحَ(١).

وَقَامَ النَّاسُ، وَاغْتَنَمَهَا هِشَامٌ فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ. قَالَ: فَبَلَغَنَا أَنَّ هَارُونَ؛ قَالَ لِيَحْيَى: شُدَّ يَدَكَ بِهَذَا وَأَصْحَابِهِ.

وَبَعَثَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام فَحَبَسَهُ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ حَبْسِهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ...»(٢).

ومع أن هارون لم يكن يحتاج إلى معرفة هشام بن الحكم لكي يسجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بقدر ما كان يحتاج إلى المعلومات عن الحركة الرسالية، فالسلطات كانت في حالة هستيريا وحيرة لا تدري ماذا تفعل، فهي تخشى من ردة الفعل إنْ قتلت الإمام، إلَّا أنها لم تكن تجد خياراً آخر.

رُوي أنه لما جيء بجثمان الإمام عليه السلام إلى مجلس الشرطة ونُودي بذلك النداء الشنيع: «خَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ مِنْ قَصْرِهِ إِلَى الشَّطِّ، فَسَمِعَ الصِّيَاحَ وَالضَّوْضَاءَ، فَقَالَ لِوُلْدِهِ وَغِلْمَانِهِ: مَا هَذَا؟.

قَالُوا: السِّنْدِيُّ بْنُ شَاهَكَ؛ يُنَادِي عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَلَى نَعْشٍ.

فَقَالَ لِوُلْدِهِ وَغِلْمَانِهِ: يُوشِكُ أَنْ يُفْعَلَ هَذَا بِهِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، فَإِذَا عُبِرَ بِهِ فَانْزِلُوا مَعَ غِلْمَانِكُمْ، فَخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَإِنْ مَانَعُوكُمْ فَاضْرِبُوهُمْ وَخَرِّقُوا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّوَادِ.

---

(١) وفي رواية، أنه قال: مَا عَنَى بِهَا غَيْرَ أَهْلِهَا. وقال: ثُمَّ عَضَّ (هارون) عَلَى شَفَتِهِ. وَقَالَ: مِثْلُ هَذَا حَيٌّ وَيَبْقَى لِي مُلْكِي سَاعَةً وَاحِدَةً، فَوَاللهِ لَلِسَانُ هَذَا أَبْلَغُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ.. بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٠٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٨٩-١٩٣.

فَلَـمَّا عَـبَرُوا بِهِ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ، فَأَخَـذُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَضَرَبُوهُـمْ وَخَرَّقُوا عَلَيْهِمْ سَـوَادَهُمْ، وَوَضَعُـوهُ فِي مَفْـرَقِ أَرْبَعَـةِ طُـرُقٍ، وَأَقَـامَ الْمُنَادِينَ يُنَـادُونَ أَلا مَـنْ أَرَادَ الطَّيِّبَ بْنَ الطَّيِّبِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ فَلْيَخْرُجْ، وَحَضَرَ الْخَلْقُ، وَغُسِّلَ وَحُنِّطَ بِحَنُوطٍ فَاخِرٍ، وَكَفَّنَهُ بِكَفَنٍ فِيهِ حِبَرَةٌ اسْتُعْمِلَتْ لَهُ بِأَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ، عَلَيْهَا الْقُرْآنُ كُلُّهُ، وَاحْتَفَى وَمَشَـى فِي جَنَازَتِهِ، مُتَسَـلِّبًا مَشْـقُوقَ الْجَيْبِ إِلَى مَقَابِـرِ قُرَيْشٍ فَدَفَنَهُ عليه السلام هُنَاكَ، وَكَتَبَ بِخَبَرِهِ إِلَى الرَّشِـيدِ، فَكَتَبَ إِلَى سُـلَيْمَانَ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ: وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يَا عَـمِّ، وَأَحْسَـنَ اللهُ جَزَاءَكَ، وَاللهِ مَا فَعَلَ السِّـنْدِيُّ بْنُ شَـاهَكَ لَعَنَهُ اللهُ مَـا فَعَلَهُ عَنْ أَمْرِنَا»(١).

وهذا موقف ضعف يُبيِّن مدى الخوف الذي كانت فيه الدولة حيث لم تُبدِ أي ردّ فعل تجاه هذا الحدث.

ورُوي أيضـاً أن الإمـام عليه السلام، لمـا اعتُقل وهـو قائم يُصلِّي عنـد رأس النبي صلى الله عليه وآله وحُمِـل إلى هـارون كان يقول: «**إِلَيْكَ أَشْكُو يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَلْقَـى**.. وَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَبْكُونَ وَيَضِجُّونَ، فَلَمَّا حُمِلَ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ الرَّشِيدِ شَتَمَهُ وَجَفَاهُ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَمَرَ بِبَيْتَيْنِ فَهُيِّئَا لَهُ، فَحَمَلَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام إِلَى أَحَدِهِمَا فِي خَفَاءٍ، وَدَفَعَهُ إِلَى حَسَّـانَ السَّرْوِيِّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصِيرَ بِهِ فِي قُبَّةٍ إِلَى الْبَصْرَةِ فَيُسَـلِّمَهُ إِلَى عِيسَـى بْـنِ جَعْفَرِ بْـنِ أَبِي جَعْفَرٍ، وَهُـوَ أَمِيرُهَا، وَوَجَّهَ قُبَّـةً أُخْرَى عَلانِيَـةً نَهَارًا إِلَى الْكُوفَةِ مَعَهَا جَمَاعَةٌ، لِيُعْمِيَ عَلَى النَّاسِ أَمْرَ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام... فَحَبَسَهُ عِيسَى فِي بَيْـتٍ مِنْ بُيُـوتِ الْمَحْبَسِ الَّذِي كَانَ يَحْبِـسُ فِيهِ، وَأَقْفَلَ عَلَيْهِ، وَشَـغَلَهُ عَنْهُ الْعِيدُ، فَكَانَ لَا يَفْتَحُ عَنْهُ الْبَابَ إِلَّا فِي حَالَتَيْنِ: حَـالٍ يَخْرُجُ فِيهَا إِلَى الطَّهُورِ، وَحَالٍ يُدْخِلُ إِلَيْهِ فِيهَا الطَّعَامَ...»(٢).

لقد كانت السـلطات العباسـية على وجل شديد من ردِّ فعل جماهيري، وهل اكتفت بهذه الاحتياطات؟ بالطبع لا.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢١.

فقد رُوي عن محمد بن صدقة العنبري قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام، جَمَعَ هَارُونُ الرَّشِيدُ شُيُوخَ الطَّالِبِيَّةِ وَبَنِي الْعَبَّاسِ، وَسَائِرَ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَالْحُكَّامَ، وَأَحْضَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام، فَقَالَ: هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، قَدْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، وَمَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْهُ فِي أَمْرِهِ -يَعْنِي فِي قَتْلِهِ-، فَانْظُرُوا إِلَيْهِ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنْ شِيعَتِهِ، فَنَظَرُوا إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، وَلَيْسَ بِهِ أَثَرُ جِرَاحَةٍ وَلَا خَنْقٍ، وَكَانَ فِي رِجْلِهِ أَثَرُ الْحِنَّاءِ..»(١).

هارون الرشيد الذي يرأس مملكة لا تغيب عنها الشمس يُحضر كل وجهاء المجتمع وزعمائه، ويجعل نفسه في منصة المتهم ويحاول أن يُبرِّئ نفسه، فكيف يحدث منه هذا لو لا خشية ردّ الفعل الذي قد يقلب عليه حكمه.

حياة الإمام الكاظم عليه السلام في السجن

رُوي عن علي بن إبراهيم عن أحمد بن عبد الله القروي عن أبيه قال:

«دَخَلْتُ عَلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَطْحٍ فَقَالَ لِي: أَشْرِفْ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ وَانْظُرْ مَا تَرَى؟!.

فَقُلْتُ: ثَوْباً مَطْرُوحاً!.

فَقَالَ: انْظُرْ حَسَناً.

فَتَأَمَّلْتُ فَقُلْتُ: رَجُلٌ سَاجِدٌ!.

فَقَالَ لِي: تَعْرِفُهُ؟ هُوَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام، أَتَفَقَّدُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَلَمْ أَجِدْهُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ. إِنَّهُ يُصَلِّي الْفَجْرَ فَيُعَقِّبُ إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً، فَلَا يَزَالُ سَاجِداً حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢٨.

وَقَدْ وَكَّلَ مَنْ يَتَرَصَّدُ أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ، فَإِذَا أَخْبَرَهُ وَثَبَ يُصَلِّي مِنْ غَيْرِ تَجْدِيدِ وُضُوءٍ، وَهُوَ دَأْبُهُ، فَإِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ أَفْطَرَ. ثُمَّ يُجَدِّدُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَسْجُدُ، فَلَا يَزَالُ يُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ.

وَقَالَ بَعْضُ عُيُونِهِ: كُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيراً يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّنِي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ، اللَّهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ..»**(١).

فهذا هو الإمام عليه السلام في عبادته، وهذا هو الإمام في شجاعته، وقاطعية عزيمته. وحينما يأتيه الفضل بن الربيع ويقول له: «اسْتَعِدَّ لِلْعُقُوبَةِ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ رَحِمَكَ اللهُ.

فَقَالَ عليه السلام: **أَلَيْسَ مَعِي مَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَلَنْ يَقْدِرَ الْيَوْمَ عَلَى سُوءٍ بِي إِنْ شَاءَ اللهُ»**(٢).

وهو نفسه الإمام عليه السلام حينما ذاعت الأسرار وأُدخل على هارون، فقال: «مَا هَذِهِ الدَّارُ؟. قَالَ عليه السلام: **هَذِهِ دَارُ الْفَاسِقِينَ**. قَالَ وَقَرَأَ **﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾**(٣).

فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: فَدَارُ مَنْ هِيَ؟.

قَالَ عليه السلام: **هِيَ لِشِيعَتِنَا فَتْرَةٌ وَلِغَيْرِهِمْ فِتْنَةٌ.**

قَالَ: فَمَا بَالُ صَاحِبِ الدَّارِ لَا يَأْخُذُهَا؟.

قَالَ عليه السلام: **أُخِذَتْ مِنْهُ عَامِرَةً وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مَعْمُورَةً.**

قَالَ: فَأَيْنَ شِيعَتُكَ؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٠٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢١٥.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

فَقَـرَأَ أَبُو الْحَسَـنِ عليه السلام: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾⁽¹⁾.... فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ وَغَلَّظَ عَلَيْهِ»⁽²⁾.

وهو الإمام عليه السلام نفسه الذي يُشرف على مجريات الأمور والتغيُّرات في الأمة الإسلامية، حتى إن جعفر بن محمد بن الأشعث⁽³⁾ أحد وزراء هارون، كان من شيعة الإمام عليه السلام. فقد رُوي أن يحيى بن خالد البرمكي قال للرشيد: «**يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَدْ كُنْتُ أُخْبِرُكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَمَذْهَبِهِ فَتُكَذِّبُ عَنْهُ، وَهَاهُنَا أَمْرٌ فِيهِ الْفَيْصَلُ.**

قَالَ: وَمَا هُوَ؟.

قَالَ: إِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَالٌ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ إِلَّا أَخْرَجَ خُمُسَهُ فَوَجَّهَ بِهِ إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْعِشْرِينَ الْأَلْفَ الدِّينَارِ الَّتِي أَمَرْتَ بِهَا لَهُ.

فَقَالَ هَارُونُ: إِنَّ فِي هَذَا لَفَيْصَلًا.

فَأَرْسَلَ إِلَى جَعْفَرٍ لَيْلًا... فَلَمَّا طَرَقَ جَعْفَرًا رَسُولُ الرَّشِيدِ بِاللَّيْلِ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَمِعَ فِيهِ قَوْلَ يَحْيَى، وَأَنَّهُ إِنَّمَا دَعَاهُ لِيَقْتُلَهُ، فَأَفَاضَ عَلَيْهِ مَاءً وَدَعَا بِمِسْكٍ وَكَافُورٍ فَتَحَنَّطَ بِهِمَا، وَلَبِسَ بُرْدَةً فَوْقَ ثِيَابِهِ، وَأَقْبَلَ إِلَى الرَّشِيدِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنُهُ، وَشَمَّ رَائِحَةَ الْكَافُورِ وَرَأَى الْبُرْدَةَ عَلَيْهِ.

قَالَ: يَا جَعْفَرُ، مَا هَذَا؟.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ سُعِيَ بِي عِنْدَكَ، فَلَمَّا جَاءَنِي رَسُولُكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ لَمْ آمَنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَدَحَ فِي قَلْبِكَ مَا يُقَالُ عَلَيَّ، فَأَرْسَلْتَ إِلَيَّ لِتَقْتُلَنِي.

---

(١) سورة البينة، آية: ١.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٥٦.

(٣) الكوفي، كان عاميًّا، فاستبصر، قال عنه المقدسي: وتولّى خراسان، وبذل الأمان للطالبيّين، وأخرج الخمس لبني هاشم. عده الشيخ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج٤، ص١٠٥. البدء والتاريخ، ج٦، ص١٠١.

فَقَالَ: كَلَّا؛ وَلَكِنْ قَدْ خُبِّرْتُ أَنَّكَ تَبْعَثُ إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام مِنْ كُلِّ مَا يَصِيرُ إِلَيْكَ بِخُمُسِهِ، وَأَنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فِي الْعِشْرِينَ الْأَلْفَ الدِّينَارِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ.

فَقَالَ جَعْفَرٌ: اللهُ أَكْبَرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَأْمُرُ بَعْضَ خَدَمِكَ يَذْهَبُ فَيَأْتِيكَ بِهَا بِخَوَاتِيمِهَا.

فَقَالَ الرَّشِيدُ لِخَادِمٍ لَهُ: خُذْ خَاتَمَ جَعْفَرٍ وَانْطَلِقْ بِهِ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِهَذَا الْمَالِ.

وَسَمَّى لَهُ جَعْفَرٌ جَارِيَتَهُ الَّتِي عِنْدَهَا الْمَالُ فَدَفَعَتْ إِلَيْهِ الْبَدْرَ بِخَوَاتِيمِهَا. فَأَتَى بِهَا الرَّشِيدَ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: هَذَا أَوَّلُ مَا تَعْرِفُ بِهِ كِذْبَ مَنْ سَعَى بِي إِلَيْكَ.

قَالَ: صَدَقْتَ يَا جَعْفَرُ، انْصَرِفْ آمِنًا فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ فِيكَ قَوْلَ أَحَدٍ..»(١).

فالذي يكون في مثل هذا المقام الكريم والنشاط المذهل كيف لا يخاف هارون العباسي من دمه، هارون الذي لم يدَّخر وسيلة إلَّا واستعملها ضد الإمام عليه السلام.

فقد روي: «إِنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ أَنْفَذَ إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام جَارِيَةً خَصِيفَةً لَهَا جَمَالٌ وَوَضَاءَةٌ لِتَخْدُمَهُ فِي السِّجْنِ. فَقَالَ عليه السلام: قُلْ لَهُ: ﴿**بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾(٢)، لاَ حَاجَةَ لِي فِي هَذِهِ وَلاَ فِي أَمْثَالِهَا.

قَالَ: فَاسْتَطَارَ هَارُونُ غَضَبًا، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ: لَيْسَ بِرِضَاكَ حَبَسْنَاكَ، وَلَا بِرِضَاكَ أَخَذْنَاكَ. وَاتْرُكِ الْجَارِيَةَ عِنْدَهُ وَانْصَرِفْ.

قَالَ: فَمَضَى. وَرَجَعَ ثُمَّ قَامَ هَارُونُ عَنْ مَجْلِسِهِ وَأَنْفَذَ الْخَادِمَ إِلَيْهِ لِيَسْتَفْحِصَ عَنْ حَالِهَا، فَرَآهَا سَاجِدَةً لِرَبِّهَا لَا تَرْفَعُ رَأْسَهَا، تَقُولُ: قُدُّوسٌ سُبْحَانَكَ، سُبْحَانَكَ.

فَقَالَ هَارُونُ: سَحَرَهَا وَاللهِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ بِسِحْرِهِ..»(٣).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٠٧-٢٠٩.

(٢) سورة النمل، آية: ٣٦.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٣٨.

ولم يُشْفِ هارون غليله من الإمام بكل هذه الألوان من العذاب، حتى إنه بنفسه صعد سطحاً يُشرف منه على الحبس الذي فيه أبو الحسن، فكان يرى أبا الحسن عليه السلام ساجداً، فقال للربيع: «مَا ذَاكَ الثَّوْبُ الَّذِي أَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ؟.

قَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؛ مَا ذَاكَ بِثَوْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، لَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَجْدَةٌ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الزَّوَالِ.

قَالَ الرَّبِيعُ: فَقَالَ لِي هَارُونُ: أَمَا إِنَّ هَذَا مِنْ رُهْبَانِ بَنِي هَاشِمٍ.

قُلْتُ: فَمَا لَكَ فَقَدْ ضَيَّقْتَ عَلَيْهِ فِي الحَبْسِ؟!.

قَالَ: هَيْهَاتَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ»⁽¹⁾.

وكيف لا يكون لهذا الطاغية هذا القلب القاسي البعيد عن الإنسانية؟ إن نعيم الملك الذي هو فيه جعله في درك الضلال. ومع كل ذلك الطغيان، كان الخوف يساور النظام العباسي بأكمله. وروي عن يونس بن عبد الرحمن قال: «حَضَرَ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّوَاسِيُّ جَنَازَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَلَمَّا وُضِعَ عَلَى شَفِيرِ القَبْرِ إِذَا رَسُولٌ مِنَ السِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ قَدْ أَتَى أَبَا المَضَا [المَضَاءِ] خَلِيفَتَهُ، وَكَانَ مَعَ الجَنَازَةِ: أَنِ اكْشِفْ وَجْهَهُ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ تَدْفِنَهُ حَتَّى يَرَوْهُ صَحِيحًا، لَمْ يَحْدُثْ بِهِ حَدَثٌ.

قَالَ: فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِ مَوْلَايَ حَتَّى رَأَيْتُهُ وَعَرَفْتُهُ، ثُمَّ غَطَّى وَجْهَهُ وَأُدْخِلَ قَبْرَهُ عليه السلام»⁽²⁾.

وحتى إن يحيى بن خالد قال لهارون يومًا: «الَّذِي أَرَاهُ لَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؛ أَنْ تَمُنَّ عَلَيْهِ وَتَصِلَ رَحِمَهُ، فَقَدْ وَاللهِ أَفْسَدَ عَلَيْنَا قُلُوبَ شِيعَتِنَا. وَكَانَ يَحْيَى يَتَوَلَّاهُ وَهَارُونُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢٩.

فَقَالَ هَارُونُ: انْطَلِقْ إِلَيْهِ وَأَطْلِقْ عَنْهُ الْحَدِيدَ، وَأَبْلِغْهُ عَنِّي السَّلَامَ. وَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ عَمِّكَ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي فِيكَ يَمِينٌ، أَنِّي لَا أُخَلِّيكَ حَتَّى تُقِرَّ لِي بِالْإِسَاءَةِ، وَتَسْأَلَنِي الْعَفْوَ عَمَّا سَلَفَ مِنْكَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ فِي إِقْرَارِكَ عَارٌ، وَلَا فِي مَسْأَلَتِكَ إِيَّايَ مَنْقَصَةٌ. وَهَذَا يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ هُوَ ثِقَتِي وَوَزِيرِي، وَصَاحِبُ أَمْرِي، فَسَلْهُ بِقَدْرِ مَا أَخْرُجَ مِنْ يَمِينِي وَانْصَرِفْ رَاشِداً..»⁽¹⁾.

فهم لم يدخروا إرهاباً وتعذيباً، ومساومة، وإغراء، ولكن هل كانوا يتوقعون من جبل أن يتحرك عن موقعه؟.

كلَّا.. إن حياة الإمام عليه السلام يعجز القلم عن ذكر يومياتها المثيرة ووقائعها المجيدة، فهي بحق دليل صدق الإمامة فـ﴿**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ**﴾⁽²⁾.

عن بشار مولى السندي بن شاهك، قال: «كُنْتُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُغْضاً لِآلِ أَبِي طَالِبٍ. فَدَعَانِي السِّنْدِيُّ بْنُ شَاهَكَ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بَشَّارُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَئْتَمِنَكَ عَلَى مَا ائْتَمَنَنِي عَلَيْهِ هَارُونُ.

قُلْتُ: إِذَنْ لَا أُبْقِي فِيهِ غَايَةً.

فَقَالَ: هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام، قَدْ دَفَعَهُ إِلَيَّ وَقَدْ وَكَّلْتُكَ بِحِفْظِهِ، فَجَعَلَهُ فِي دَارٍ دُونَ حَرَمِهِ. وَوَكَّلَنِي عَلَيْهِ، فَكُنْتُ أُقْفِلُ عَلَيْهِ عِدَّةَ أَقْفَالٍ، فَإِذَا مَضَيْتُ فِي حَاجَةٍ وَكَّلْتُ امْرَأَتِي بِالْبَابِ، فَلَا تُفَارِقُهُ حَتَّى أَرْجِعَ.

قَالَ بَشَّارٌ: فَحَوَّلَ اللهُ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِنَ الْبُغْضِ حُبًّا»⁽³⁾.

فهذه رشفة من حياة الإمام المليئة بالعمل الدؤوب والجهاد المتواصل في سبيل الله عز وجل.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٣٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٤١.

الرساليون في عهد الإمام الكاظم عليه السلام

كان الرساليون في فترة إمامة موسى بن جعفر عليه السلام في أشد أوقاتهم تقية، ولم تمر عليهم أوقات وظروف شديدة كتلك إلَّا في أيام معاوية بعد مقتل الحسن عليه السلام وانتقال السلطات الظاهرية إلى معاوية.

وقد وصل الاضطهاد مبلغاً بحيث لم يكن الرساليّون يستطيعون حتى ذكر اسم الإمام عليه السلام وذلك «لشدة التقية في أيامه عليه السلام ولكثرة التضييق عليه ممَّن عاصروه من العباسيين»(١)، فكان الشيعة يقولون: «قَالَ: الْعَبْدُ الصَّالِحُ...»، أو: «كُنْتُ عِنْدَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ..»، وهذا من ألقاب(٢) الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. لذلك نرى أكثر الروايات التي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام ترد بألقاب، مثل: «العَالِمِ..»، أو قال: «الصابر»، أو قال: «الأمين»، أو قال: «الزاهد»، أو: «قال أَبُو إبراهيم..»، أو: «سَأَلْتُ الرَّجُلَ..». وحتى بعد رحيل الإمام موسى بن جعفر والتزام الرساليين بالتقية فإنهم كانوا يُسمُّونه فيقولون: «قال الماضِي» أو: «قال أَبُو الحسن الماضِي».

روي عن عبد الله البزاز النيسابوري قال: «كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ حُمَيْدِ بْنِ قَحْطَبَةَ الطَّائِيِّ الطُّوسِيِّ مُعَامَلَةٌ، فَرَحَلْتُ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، فَبَلَغَهُ خَبَرُ قُدُومِي فَاسْتَحْضَرَنِي لِلْوَقْتِ، وَعَلَيَّ ثِيَابُ السَّفَرِ لَمْ أُغَيِّرْهَا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَقْتِ صَلَاةِ الظُّهْرِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ رَأَيْتُهُ فِي بَيْتٍ يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَجَلَسْتُ، فَأُتِيَ بِطَسْتٍ وَإِبْرِيقٍ فَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَغَسَلْتُ يَدَيَّ، وَأُحْضِرَتِ الْمَائِدَةُ وَذَهَبَ عَنِّي، أَنِّي صَائِمٌ وَأَنِّي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. ثُمَّ ذَكَرْتُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي.

فَقَالَ لِي حُمَيْدٌ: مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ؟!.

فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ، وَلَسْتُ بِمَرِيضٍ، وَلَا بِي عِلَّةٌ تُوجِبُ

---

(١) بهجة الآمال في شرح زبدة المقال، ج٧، ص٥٩٣. تاريخ الشيعة، ص٥٥.

(٢) أنظر: الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، ج٢، ص٩٣٥.

الْإِفْطَارَ، وَلَعَلَّ الْأَمِيرَ لَهُ عُذْرٌ فِي ذَلِكَ، أَوْ عِلَّةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَارَ.

فَقَالَ: مَا بِي عِلَّةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَارَ، وَإِنِّي لَصَحِيحُ الْبَدَنِ.

ثُمَّ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَبَكَى، فَقُلْتُ لَهُ بَعْدَمَا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ: مَا يُبْكِيكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟!.

فَقَالَ: أَنْفَذَ إِلَيَّ هَارُونُ الرَّشِيدُ، وَقْتَ كَوْنِهِ بِطُوسٍ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، أَنْ أَجِبْ فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ، رَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ شَمْعَةً، تَتَّقِدُ وَسَيْفاً أُخْضَرَ مَسْلُولاً، وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَادِمٌ وَاقِفٌ، فَلَمَّا قُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ!.

فَأَطْرَقَ ثُمَّ أَذِنَ لِي فِي الانْصِرَافِ. فَلَمْ أَلْبَثْ فِي مَنْزِلِي، حَتَّى عَادَ الرَّسُولُ إِلَيَّ. وَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّا لله، أَخَافُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَزَمَ عَلَى قَتْلِي، وَإِنَّهُ لَمَّا رَآنِي اسْتَحْيَا مِنِّي. فَعُدْتُ إِلَى بَيْنِ يَدَيْهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟!.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ!.

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً. ثُمَّ أَذِنَ لِي فِي الانْصِرَافِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ مَنْزِلِي لَمْ أَلْبَثْ أَنْ عَادَ الرَّسُولُ إِلَيَّ، فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَحَضَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ. فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟!.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالدِّينِ!.

فَضَحِكَ ثُمَّ قَالَ لِي: خُذْ هَذَا السَّيْفَ، وَامْتَثِلْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ هَذَا الْخَادِمُ.

قَالَ: فَتَنَاوَلَ الْخَادِمُ السَّيْفَ وَنَاوَلَنِيهِ، وَجَاءَ بِي إِلَى بَيْتٍ بَابُهُ مُغْلَقٌ، فَفَتَحَهُ فَإِذَا فِيهِ بِئْرٌ فِي وَسَطِهِ، وَثَلَاثَةُ بُيُوتٍ أَبْوَابُهَا مُغْلَقَةٌ، فَفَتَحَ بَابَ بَيْتٍ مِنْهَا، فَإِذَا فِيهِ عِشْرُونَ نَفْساً عَلَيْهِمُ الشُّعُورُ وَالذَّوَائِبُ، شُيُوخٌ وَكُهُولٌ وَشُبَّانٌ مُقَيَّدُونَ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ.

وَكَانُوا كُلُّهُمْ عَلَوِيَّةً مِنْ وُلْدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام، فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ. ثُمَّ رَمَى بِأَجْسَادِهِمْ، وَرُؤُوسِهِمْ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ. ثُمَّ فَتَحَ بَابَ بَيْتٍ آخَرَ، فَإِذَا فِيهِ أَيْضاً عِشْرُونَ نَفْساً مِنَ الْعَلَوِيَّةِ، مِنْ وُلْدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام، مُقَيَّدُونَ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ.

فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَيَرْمِي بِهِ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ. ثُمَّ فَتَحَ بَابَ الْبَيْتِ الثَّالِثِ، فَإِذَا فِيهِ مِثْلُهُمْ عِشْرُونَ نَفْساً مِنْ وُلْدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام، مُقَيَّدُونَ عَلَيْهِمُ الشُّعُورُ وَالذَّوَائِبُ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ أَيْضاً.

فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَيَرْمِي بِهِ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى تِسْعَ عَشْرَةَ نَفْساً مِنْهُمْ، وَبَقِيَ شَيْخٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ شَعْرٌ.

فَقَالَ لِي: تَبّاً لَكَ يَا مَشُومُ، أَيُّ عُذْرٍ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا قَدِمْتَ عَلَى جَدِّنَا رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَقَدْ قَتَلْتَ مِنْ أَوْلَادِهِ سِتِّينَ نَفْساً، قَدْ وَلَدَهُمْ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عليهما السلام؟!.

فَارْتَعَشَتْ يَدِي وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي، فَنَظَرَ إِلَيَّ الْخَادِمُ مُغْضَباً وَزَبَرَنِي. فَأَتَيْتُ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ أَيْضاً فَقَتَلْتُهُ، وَرَمَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ.

فَإِذَا كَانَ فِعْلِي هَذَا وَقَدْ قَتَلْتُ سِتِّينَ نَفْساً مِنْ وُلْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَمَا يَنْفَعُنِي صَوْمِي وَصَلَاتِي، وَأَنَا لَا أَشُكُّ أَنِّي مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ»⁽¹⁾.

ولذلك حينما يأتي الفقهاء إلى الروايات المنقولة عن الإمام موسى بن جعفر

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١، ص١٠٨. بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٧٦.

عليه السلام فإنهم يُفسِّرونها بالتقية فيما إذا عارضت الروايات الأخرى، أسرع مَّما يُفسِّرون سائر الروايات المنقولة عن بقية الأئمة المعصومين عليهم السلام، ويُرجعون سبب ذلك إلى أن عهده تميَّز بشدة التقية.

فقد رُوِيَ عَنْ صَالِحِ بْنِ وَاقِدٍ الطَّبَرِيِّ، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، فَقَالَ: **يَا صَالِحُ، إِنَّهُ يَدْعُوكَ الطَّاغِيَةُ** (يَعْنِي هَارُونَ) **فَيَحْبِسُكَ فِي مَحْبَسِهِ، وَيَسْأَلُكَ عَنِّي، فَقُلْ: إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ**، .... قَالَ صَالِحٌ: فَدَعَانِي هَارُونُ مِنْ طَبَرِسْتَانَ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ عِنْدَكَ؟!.

فَقُلْتُ: وَمَا يُدْرِينِي مَنْ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ؟. أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفُ بِهِ وَبِمَكَانِهِ.

فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْحَبْسِ..»(١).

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ، قَالَ: «**قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام إِنَّ عَلِيًّا عليه السلام**، كَانَ يَقُولُ: (إِلَى السَّبْعِينَ بَلَاءٌ، وَكَانَ يَقُولُ: بَعْدَ الْبَلَاءِ رَخَاءٌ)، وَقَدْ مَضَتِ السَّبْعُونَ، وَلَمْ نَرَ رَخَاءً.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **يَا ثَابِتُ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ وَقَّتَ هَذَا الْأَمْرَ فِي السَّبْعِينَ، فَلَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ عليه السلام اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَأَخَّرَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ، فَحَدَّثْنَاكُمْ فَأَذَعْتُمُ الْحَدِيثَ، وَكَشَفْتُمْ قِنَاعَ السِّتْرِ، فَأَخَّرَهُ اللهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقْتاً عِنْدَنَا: ﴿وَيَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾**(٢).

قَالَ أَبُو حَمْزَةَ: وَقُلْتُ ذَلِكَ لِأَبِي عَبْدِاللهِ، فَقَالَ عليه السلام: **قَدْ كَانَ ذَاكَ**»(٣).

وهناك رواية عَنْ دَاوُدَ الرَّقِّيِّ قَالَ: «**قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام: جُعِلْتُ**

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٦٦.

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٠٥.

فِدَاكَ، إِنَّهُ وَاللهِ مَا يَلِجُ فِي صَدْرِي مِنْ أَمْرِكَ شَيْءٌ، إِلَّا حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ ذَرِيحٍ يَرْوِيهِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام.

قَالَ لِي عليه السلام: وَمَا هُوَ؟.

قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَابِعُنَا قَائِمُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ!.

قَالَ عليه السلام: صَدَقْتَ، وَصَدَقَ ذَرِيحٌ، وَصَدَقَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام.

فَازْدَدْتُ وَاللهِ شَكًّا. ثُمَّ قَالَ لِي عليه السلام يَا دَاوُدَ بْنَ أَبِي كَلْدَةَ، أَمَا وَاللهِ؛ لَوْلَا أَنَّ مُوسَى عليه السلام: قَالَ لِلْعَالِمِ ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صابِراً﴾(١)، مَا سَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، وَكَذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام، لَوْلَا أَنْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَكَانَ كَمَا قَالَ. فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ»(٢).

لقد بدأ الرساليون في ذلك الظرف يتناقلون الكلام، إلى درجة أنه شاع وفشا فبلغ السلطات ذلك، فاعتقلت مجموعات من الرساليين وسجنت الإمام عليه السلام وقتلته بعد ذلك.

وكان الإمام الكاظم عليه السلام بين أن يتحمَّل خطأ الرساليين ويُسجن شخصيًّا، أو أن يدعهم يتحمَّلون الخطأ، وهذا يعني أن الآلاف سوف يذهبون ضحية بسيف السلطات العباسية، ولكن الإمام فدى شيعته بنفسه، تفانياً منه في سبيل المبدأ وشيعته واستمرار الرسالة.

فبينما نرى في الكثير من الأوقات أن الرؤساء يتنازلون عن أتباعهم ويتركونهم يُقتلون، وينزوون جانباً مُتبرِّئين منهم، نرى أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بقي مع أتباعه وهو الذي قُتل.

وهنا عندما ننظر إلى موقف الإمام عليه السلام لا بد أن نمتلئ إكباراً وإجلالاً له، ومع فداحة الخطأ الذي كشف أمر الحركة وعزمها على القيام والنهوض ضد

---

(١) سورة الكهف، آية: ٦٩.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٦٠.

السلطة العباسية فقد كان من الممكن للرساليين أن يقوموا بالسيف، لو أنهم طبَّقوا كل التعاليم، ولكنهم لم يكونوا حينها صالحين لاستلام الحكم، وكان من الواجب أن يتحمَّلوا نتائج وتبعات إفشاء السر.

كانت هذه لمحات من حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الوصي بعد والده الإمام جعفر الصادق عليه السلام .

استقامة إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام

كانت حياة إسماعيل منذ البداية حياة معينة تميَّزت بقيامه بتربية العديد من الكوادر الرسالية في غير مكان من الأماكن التي كان يتنقل بينها. وهنا نتساءل عن مصير تلك المجموعة⁽¹⁾ التي كوَّنها إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق ورتبهم وجعلهم على شكل خلايا، وأرسل الدعاة هنا وهناك؟.

وقبل ذلك علينا أن نُشير إلى أنّ استقامة إسماعيل هو أمر مُسلَّم به مع وجود بعض الآراء التي ترى خلاف ذلك. ولكن الرأي الأقوى يقول: إن إسماعيل كان رجلاً مؤمناً صادقاً صالحاً⁽²⁾؛ ذلك لأن الإمام الصادق عليه السلام لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان الإمام يُحبّه كثيراً. عن عمار بن حيان قال: «أَخْبَرَنِي أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام

---

(١) تميَّزت الحركة الإسماعيلية بدور الستر والتخفي، والعمل السري الذي يُعدُّ أحد أهم دعائم العمل التنظيمي، حتى اشتُهروا به. وهذه الميزة أصبحت من المشاكل المستعصية التي يصعب على المؤرخ والباحث حلها وسبر أغوارها، لأنه وكما يُشير جملة المؤرخين فإن الدعوة الإسماعيلية حرصت حرصًا شديدًا على كتمان وثائقها وتحرُّك قادتها. وبالتالي خفي الكثير من المعلومات على المؤرخين. فلا يعلم من حركة إسماعيل إلّا النزر القليل، وقد ثبت في التاريخ تنقُّله من مكان لآخر، إما لهروبه من سلطة بني العباس، أو لعمله التجاري الذي يُعتقد أنه غطاء لحركته ودعوته، ولا يُعلم عن مصير هؤلاء الكوادر والقادة. ومن خلال قراءة مسار تاريخهم الجهادي يُعرف أنهم كانوا يتسمون بالأسماء الحركية لا الحقيقية.. وللوقوف على هذه الحقيقة طالع مثلًا ما كتبه الدكتور مصطفى غالب في كتابه: تاريخ الدعوة الإسماعيلية. وأيضًا الدكتور حسن إبراهيم حسن: عبيدالله المهدي.. إمام الشيعة الإسماعيلية، ص٢٧١-٢٧٢.

(٢) منتهى المقال في أحوال الرجال، ج٢، ص٥٣. معجم رجال الحديث، ج٣، ص١٢٧.

بِرِّ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ لَهُ، وَقَالَ عليه السلام: **لَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّهُ وَقَدِ ازْدَادَ إِلَيَّ حُبًّا**»[1].

أمـا الروايـات التي نقرؤهـا عن تأكيد الإمـام الصادق عليه السلام عـلى وفاة ابنه الأكبر إسماعيل، ليست إلّا لقطع الطريق أمام من سيذهب إلى غيبته وأن الإمامة له بعد أبيه.

جـاء في الرواية عـن زرارة بن أعين قال: «دَعَا الصَّـادِقُ عليه السلام دَاوُدَ بْنَ كَثِيرٍ الرَّقِّـيَّ، وَحُمْـرَانَ بْنَ أَعْيَنَ، وَأَبَـا بَصِيرٍ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ الْمُفَضَّلُ بْـنُ عُمَرَ، وَأَتَى بِجَمَاعَةٍ حَتَّى صَارُوا ثَلاثِينَ رَجُلًا.

فَقَالَ عليه السلام: **يَا دَاوُدُ، اكْشِفْ عَنْ وَجْهِ إِسْمَاعِيلَ.**

فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ عليه السلام: **تَأَمَّلْهُ يَا دَاوُدُ فَانْظُرْهُ، أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟!.**

فَقَالَ: بَلْ هُوَ مَيِّتٌ.

فَجَعَلَ يَعْرِضُهُ عَلَى رَجُلٍ رَجُلٍ، حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِمْ.

فَقَـالَ عليه السلام: **اللَّهُمَّ اشْـهَدْ.** -ثُمَّ أَمَرَ بِغُسْـلِهِ وَتَجْهِيزِهِ. ثُمَّ قَـالَ:- **يَا مُفَضَّلُ، احْسِرْ عَنْ وَجْهِهِ.** فَحَسَرَ عَنْ وَجْهِهِ.

فَقَالَ عليه السلام: **حَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟، انْظُرُوهُ أَجْمَعُكُمْ!.**

فَقَالَ: بَلْ هُوَ يَا سَيِّدَنَا مَيِّتٌ.

فَقَالَ عليه السلام: **شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ، وَتَحَقَّقْتُمُوهُ؟.**

قَالُوا: نَعَمْ!. وَقَدْ تَعَجَّبُوا مِنْ فِعْلِهِ.

فَقَالَ عليه السلام: **اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ.**

ثُمَّ حُمِلَ إِلَى قَبْرِهِ، فَلَمَّا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ قَالَ عليه السلام: **يَا مُفَضَّلُ، اكْشِفْ عَنْ وَجْهِهِ**

---

[1] بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٦٨.

فَكَشَفَ، فَقَالَ عليه السلام لِلْجَمَاعَةِ: **انْظُرُوا أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟.**

فَقَالُوا: بَلَى مَيِّتٌ؛ يَا وَلِيَّ اللهِ.

فَقَالَ عليه السلام: **اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَإِنَّهُ سَيَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ، يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ،** ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى مُوسَى عليه السلام وَقَالَ عليه السلام: **﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**(١).

ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْنَا الْقَوْلَ، فَقَالَ عليه السلام: **الْمَيِّتُ الْمُكَفَّنُ الْمُحَنَّطُ الْمَدْفُونُ فِي هَذَا اللَّحْدِ مَنْ هُوَ؟.**

قُلْنَا: إِسْمَاعِيلُ وَلَدُكَ!.

فَقَالَ عليه السلام: **اللَّهُمَّ اشْهَدْ.** ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ عليه السلام: **هُوَ حَقٌّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَمِنْهُ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**»(٢).

وهذا العمل من الإمام هو للتأكيد على وفاة إسماعيل، لكيلا يظن أحدٌ أنه خليفته من بعده.

وكان إسماعيل أكبر إخوته، وكان الإمام الصادق عليه السلام شديد المحبة له، والبرّ به، والإشفاق عليه، وكان قوم من الرساليين يظنون أنه القائم بعد أبيه، والخليفة له من بعده، إذ كان أكبر إخوته سنًّا، ولميل أبيه إليه، وإكرامه له، فمات في حياة أبيه عليه السلام بالعريض(٣).

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام جَزِعَ عَلَيْهِ جَزَعاً شَدِيداً، وَحَزِنَ عَلَيْهِ حُزْناً عَظِيماً، وَتَقَدَّمَ سَرِيرَهُ بِلَا حِذَاءٍ وَلَا رِدَاءٍ، وَأَمَرَ بِوَضْعِ سَرِيرِهِ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ دَفْنِهِ مِرَاراً كَثِيرَةً، وَكَانَ يَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، يُرِيدُ عليه السلام بِذَلِكَ تَحْقِيقَ أَمْرِ وَفَاتِهِ عِنْدَ الظَّانِّينَ خِلَافَتَهُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَإِزَالَةَ الشُّبْهَةِ عَنْهُمْ فِي حَيَاتِهِ.

---

(١) سورة الصف، آية: ٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٥٤.

(٣) موضع من أرجاء المدينة المنورة.

وَلَمَّا مَاتَ إِسْمَاعِيلُ رضي الله عنه انْصَرَفَ عَنِ الْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ بَعْدَ أَبِيهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ ذَلِكَ فَيَعْتَقِدُهُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِيهِ عليه السلام، وَأَقَامَ عَلَى حَيَاتِهِ شِرْذِمَةٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَاصَّةِ أَبِيهِ، وَلَا مِنَ الرُّوَاةِ عَنْهُ، وَكَانُوا مِنَ الْأَبَاعِدِ وَالْأَطْرَافِ.

فَلَمَّا مَاتَ الصَّادِقُ عليه السلام انْتَقَلَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، بَعْدَ أَبِيهِ، وَافْتَرَقَ الْبَاقُونَ فَرِيقَيْنِ:

فَرِيقٌ مِنْهُمْ رَجَعُوا عَنْ حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ وَقَالُوا بِإِمَامَةِ ابْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْإِمَامَةَ كَانَتْ فِي أَبِيهِ، وَأَنَّ الِابْنَ أَحَقُّ بِمَقَامِ الْإِمَامَةِ مِنَ الْأَخِ.

وَفَرِيقٌ ثَبَتُوا عَلَى حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ، وَهُمُ الْيَوْمَ شُذَّاذٌ لَا يُعْرَفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ يُومَى إِلَيْهِ. وَهَذَانِ الْفَرِيقَانِ يُسَمَّيَانِ بِالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَالْمَعْرُوفُ مِنْهُمُ الْآنَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِمَامَةَ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ فِي وُلْدِهِ وَوُلْدِ وُلْدِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ»⁽¹⁾.

وهكذا تُوفِّي إسماعيل، بيد أن فريقاً من حزبه لم يُصدِّقوا وفاته، وزعموا أن له غيبة. وقبل أن نتناول هذا الرأي بالنقد، ننقل النص التالي لكاتب إسماعيلي معاصر هو مصطفى غالب، يقول: «بأن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد شعر بالأخطار التي تتهدد حياة ابنه الإمام إسماعيل، بعد أن نصَّ عليه، وأصبح وليًّا للعهد، فأمره أن يستتر، وكان ذلك عام ١٤٥هـ، خشية نقمة الخلفاء العباسيين، وتدبَّر الأمر بأن كتب محضرًا بوفاته وشهد عليه عامل المنصور الذي كان بدوره من الإسماعيليين.

وفورًا توجَّه إسماعيل إلى سلمية، ومنها إلى دمشق، وعلم المنصور بذلك فكتب إلى عامله أن يُلقي القبض على الإمام إسماعيل، ولكن عامله المذكور كان قد اعتنق المذهب الإسماعيلي فعرض الكتاب على الإمام إسماعيل الذي ترك البلاد نحو العراق حيث شوهد بالبصرة عام ١٥١هـ، وقد مر على مُقعَد فشفاه بإذن الله، ولبث الإمام إسماعيل عدة سنوات يتنقل سرًّا بين أتباعه حتى تُوفِّي بالبصرة عام ١٥٨هـ»⁽²⁾.

---

(١) الإرشاد، ج٢، ص٢٠٩-٢١٠.

(٢) تاريخ الدعوة الأسماعيلية، ص١٢٨-١٢٩.

إن اعتقاد الإسماعيليين بغيبة إسماعيل هو أنها غيبة سياسية، كغيبة عيسى بن زيد، أو كغيبة أحمد بن عيسى المسمى بـ(أحمد المختفي) الذي هرب من السجن في زمن الهادي العباسي فغاب عن الناس وكوّن حركة زيدية وثار في غيبته في أيام المتوكل(١).

وهذه الغَيبة ليست من النوع المرتبط بما وراء الغيب والشهود، وليست من نوع اعتقادنا بغيبة الإمام المهدي المنتظر، فنحن نعتقد بغيبة الإمام الحجة عليه السلام ليس على أساس أنه بعيد عن الأنظار، أي إنه مختفٍ وله وكلاء ويتَّصل بأبناء الحركة الرسالية، وإنما هذه غيبة من الله سبحانه وتعالى.

ولأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد بيّن بأنه سيغيب واحد من أولاده، وبعد ذلك يخرج و: «**يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا**..»(٢)، فإن بعض الناس كانوا يستغلّون هذا الحديث في غير مصداقه الصحيح، وليس الرساليون فقط.. وإنما عدد الذين ادَّعوا المهدوية في التاريخ من السُّنّة هم أكثر بكثير من الشيعة.

وآخر من ادَّعى المهدوية في الفترة الأخيرة: محمد علي الباب(٣)، والميرزا غلام أحمد القادياني(٤). ومن أهل السُّنّة أمثال: المهدي الذي حارب الإنجليز في السودان(٥). أما غيبة إسماعيل فلم تكن غيبة من الله عز وجل، وإنما غيبة سياسية حسب عقيدة جماعته(٦).

---

(١) طالع: مقاتل الطالبيين، ص٤٩٢-٤٩٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٨، ص٥٢.

(٣) مؤسس البهائية، وصنيعة الجاسوس الروسي (كنياز دالكوكي). طالع: الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، ص٣٧٤.

(٤) مؤسس جماعة الأحمدية. راجع: الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، ص٣٧٩.

(٥) تقف على تفاصيل قصته وادِّعائه للمهدية ما أرَّخه إبراهيم فؤاد باشا في كتابه: السودان بين يدي غردون وكتشز، ط١، الصادرة عام ١٣١٩هـ. وأيضًا: الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، ص٤٦٠.

(٦) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٢٥.

وهنا بدأ أول انحراف لجماعة إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام حيث أنكروا إمامة الإمام موسى بن جعفر الصادق عليه السلام، واستدلوا على ذلك بأن الإمام لا بد أن يكون الولد الأكبر، وإسماعيل هو الأكبر، فالإمامة فيه، وكأن الإمامة وراثة قبلية. وأين الإسماعيلية عن خبر موت إسماعيل، وقيام الإمام الصداق عليه السلام بدفنه، وتأكيد ذلك للمشيعين من أصحابه؟. لأنه كان يعرف أن هناك جماعة في قلوبهم ريب من موت إسماعيل.

قوة الحركة الإسماعيلية

خلاصة القول: إن الإسماعيلية حدث لديهم انحراف عقائدي أكبر من الانحراف عند الزيدية، ولكنهم على الصعيد السياسي بقوا يُزلزلون عرش الخلافة العباسية، وكانوا يُمثِّلون الدرع الواقي للحركة الرسالية.

واستطاعت الحركة الإسماعيلية الكبيرة -والتي قلنا عنها أنها كانت أقوى حركة رسالية في التاريخ- تكوين دولة في المغرب(١)، ثم في مصر على يد عبيدالله المهدي(٢) سنة ٢٩٦هـ، وهي الدولة الفاطمية(٣)، كما أسسوا دولة أخرى في فارس

---

(١) انظر: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا، ج١، ص٣٥. تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص٢٠٥-٢٢٣.

(٢) عبيدالله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدّق بن محمد المكتوم، [٢٥٩-٣٢٢هـ]. ينتهي نسبه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام. المعروف بـ(المهدي الفاطمي)، مؤسس دولة الفاطميين في المغرب، وجدّ الخلفاء الفاطميّين بمصر. كان أبوه قد أرسل الدعاة إلى البلدان، فمهَّد البيعة لعبيدالله في المغرب عبدالله الشيعي (الحسين بن أحمد)، وكان ظهوره فيها أواخر ٢٩٦هـ حتى بُويع له بيعة عامة سنة ٢٩٧هـ، وذلك بعد أن استفحل أمره. بعث الولاة إلى طرابلس وصقلّيّة، ثم برقة. حتى استولى على تاهرت. خطَّط مدينة المهدية سنة ٣٠٣هـ، واتَّخذها قاعدة حكمه. ومات بها بعد أن حكم أربعًا وعشرين سنة. الأعلام، ج٤، ص١٩٧. أنظر: اتِّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج١. و: عبيدالله المهدي.. إمام الشيعة الإسماعيلية. و: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، والإمامة في الإسلام.

(٣) تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص٢٧٥.

(أَلَموت[١]) على يد الحسن بن الصَّبَّاح[٢] سنة ٤٨٢هـ، وفي مصر على يد القائد جوهر الصقلي[٣] سنة ٣٥٨هـ، وأخرى في اليمن على يد ابن حوشب[٤] سنة

---

(١) أصلها في العربية (إله الموت)، ويقال هي الفناء أي الموت، وفي الفارسية (عش العقاب)، وتقع هذه القلعة في جبال البُرز شمال غربي قزوين. أنظر: تاريخ الإسماعيلية، ج٤، ص٩٢. وأيضاً: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣، ص٣٧. عنوان (الإسماعيليون - إلى ألموت).

(٢) الحسن بن الصَّبَّاح بن علي الإسماعيلي، [ت: ٥٣٤هـ]، عالم بالهندسة والحساب، شجاع، حميري، يمني الأصل. دخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته. عاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر، داعيًا إلى المستنصر. استولى على قلعة أَلَموت من نواحي قزوين، وطرد صاحبها سنة ٤٨٣هـ، وضم إليها عدة قلاع، واستقر إلى أن تُوفي فيها. على يديه تأسست للإسماعيلية أول حركة فدائية مدرّبة، اتَّخذت من قلعة ألموت في قزوين مقرًّا لها، وكانت تسيطر على العالم الإسلامي في ذلك العهد: بغداد، والشام، والقاهرة. منه تسلسلت الأئمة الإسماعيلية إلى أن قضى عليهم المغول في سنة ٦٥٥هـ، أولهم: نزار بن المستنصر، ت:٤٨٣هـ، وآخرهم: ركن الدين خور شاه الذي قتله هولاكو سنة ٦٥٣هـ. طالع: تاريخ الإسماعيلية، ج٤، ص١١. الأعلام، ج٢، ص١٩٤. فهرس التراث، ج١، ص٤٤٩. طائفة الإسماعيلية، ص٦٤.

(٣) أبو الحسين، جوهر بن عبدالله الصقلي [ت نحو: ٣٨١هـ]، من مسلمي جزيرة صقلية، قائد عظيم، شجاع، كثير الإحسان. في سنة ٣٥٨هـ، أسند إليه المعز لدين الله الفاطمي قيادة أضخم جيش لفتح مصر، ففتحها وبنى المنصورية (القاهرة)، والجامع الكبير (الأزهر) سنة ٣٦١هـ، وفيها انتشر التشيع، كما أصبحت أغلب الكفاءة العلمية موالية للنفوذ الشيعي بسبب بطولات قادة الحملات الفاطمية، وجرأتهم منقطعة النظير، وقد ضم هؤلاء جهودهم إلى دعاة الشيعة ورجالهم القدامى في مصر. قاد الصقلي الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها. ثم مكث بها حاكمًا مطلقًا إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢هـ، فحلّ محله، وصار الصقلي من عظماء القادة في دولة المعز وما بعدها، توفي بالقاهرة. رثاه شعراء مصر قاطبة. طالع: مستدركات أعيان الشيعة، ج٥، ص١٠٧. الأعلام، ج٢، ص١٤٨.

(٤) أبو القاسم، (رستم بن) الحسن بن فرح بن حوشب الكوفي [ت: ٢٦٨هـ]، داعي الدعاة، مؤسس الدولة الفاطمية في اليمن، كان أول أمره داعيةً، بعثه عبيدالله المهدي، وعلى يديه بدأت الدعوة الإسماعيلية في اليمن، وكان له الفضل في انتشارها، وسُمِّي بالمنصور لأنه به انتصر المذهب الإسماعيلي. اتِّعاظ الحنفا، ج١، ص٥٥. فهرس التراث، ج١، ص٢٠٣.

٢٧٠هـ، وأخرى في البحرين(١) على يد الحسين الأهوازي(٢)، وأبي سعيد الجنابي(٣)، وحمدان بن الأشعث(٤)، وزكرويه بن مهرويه(٥) سنة ٢٧٠هـ. وكانت للإسماعيليين قلاعهم وحصونهم المستقلة المنيعة في بلاد الشام(٦)، وكذلك في إيران(٧).

إن حركة الزيدية كحركة سياسية انتهت تاريخيًّا بعد القرن الثالث الهجري، أما الحركة الثورية العسكرية التي بقيت كحركة سياسية مستمرة فهي الحركة الإسماعيلية، وقد عملت ما عملته الحركة الزيدية أيام الأئمة عليهم السلام فمن المعروف أن عبد الله المهدي الإسماعيلي مؤسس الدولة الفاطمية، كان من دعاة الحركة الإسماعيلية الكبار وقد سجن عدة مرات واستطاع الهروب من السجن، وسلالته هم الذين توالوا على الحكم في الدولة الفاطمية بمصر(٨).

الحركة الرسالية احتمت بالحركة الزيدية التي كانت الجناح العسكري لها،

---

(١) المعروفة بدولة القرامطة. انظر: الكامل في التاريخ، ج٧، ص٤٩٣. تجارب الأمم، ج٥، ص٩. شذرات الذهب، ج٣، ص٣٥٨. مروج الذهب، ج٤، ص١٧٥. نهاية الأرب، ج٢٥، ص١٨٧.

(٢) الحسين بن أحمد بن عبدالله، المقلب بـ(رضي الدين عبدالله)، عرف بين الناس بـ(الحسين الأهوازي)، وكان يقول عن نفسه إنه داعٍ لإمام مستور من نسل إسماعيل بن جعفر اسمه الحسين بن أحمد. ولد سنة ١٩٨هـ، وأقام مدة سلمية يمارس نشاطه الدعوي للإسماعيلية، كما أقام علاقة مع الدولة العباسية، دون أن يعرفوا شخصيته وحقيقته. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٣٢-١٣٣.

(٣) الحسن بن بهرام الجنابي، (أبو سعيد) [ت: ٣٠١]، كبير القرامطة، ملك البحرين، وهجر والأحساء، والقطيف، كان شجاعاً، داهية، قتل على يد خادمه صقلبي في هجر. انظر: الأعلام، ج٢، ص١٨٥. تاريخ الإسلام، ج٢٣، ص١٠.

(٤) انظر: نهاية الأرب، ج٢٥، ص١٨٧.

(٥) زَكروَيه بن مهرويه القِرْمِطي [ت: ٢٩٤هـ]، من زعماء القرامطة. انظر: الأعلام، ج٣، ص٤٥. تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، ص١٣٠. تجارب الأمم، ج٥، ص٢٩.

(٦) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٩٤-٢٠٢.

(٧) انظر: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣، ص٦.

(٨) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج١، ص٦٢.

وكان هذا إلى القرن الثالث الهجري، وبعد القرن الثالث الهجري قامت الحركة الإسماعيلية بهذا الدور الذي جعل المد الرسالي في مأمن من بطش الدولة العباسية. فالحقيقة أن الحركة الإسماعيلية كانت من العوامل المهمة في تشيّع إيران، وكتب التاريخ مليئة بالقصص المؤيدة لهذا الأمر(١)، وفي بداية نشأة الحركة الإسماعيلية كان أفراد هذه الحركة يشعرون بأنهم هم الواجهة العسكرية السياسية للحركة الرسالية، ولم يكونوا يؤمنون بتلك المفارقات العقيدية التي هم عليها الآن.

---

(١) طائفة الإسماعيلية، ص٦٢-٩٠. الشيعة في إيران، ص٢٩٧-٢٥٧.

صفو الكلام

* قام الإمام الكاظم عليه السلام بتدبير خطة للتغيير السياسي في الأمة. وبالرغم من أن الأمر كان يجري بسريّة تامة، إلّا أنّ ما روي عن حياته يرسم لنا صورة واضحة عن ماهية الأهداف التي كان ينشدها.

* لقد وصلت الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام إلى درجة كبيرة من القوة، وأصبحت تشكل معها دولة داخل دولة، حتى إن كثيراً من أعوان هارون ووزرائه كانوا ينتمون إلى تلك الحركة، وكان كل ذلك يجري وفق تنظيم دقيق وسرية تامة. ومن جهتها كانت السلطات تبث العيون وتراقب الوزراء والمسؤولين.

* ولما أيقن العباسيون بخطورة الحركة الرسالية، عملوا على تصفيتها، ولأن مخططات الحركة وقياداتها كانت غير واضحة لدى السلطات قرّرت ضرب رأس الحركة، فعمدت إلى سجن الإمام الكاظم الذي قضى أكثر أيام إمامته في السجون، ثم تصفيته بدسّ السُّم إليه.

* ورغم أن الحركة الإسماعيلية حدث فيها انحراف عقائدي، إلّا أن هذا الانحراف لم يكن مرتبطاً بإسماعيل الذي نعتقد باستقامته وأنه تلقّى تربيته على يد أبيه الإمام الصادق عليه السلام.

دورُ الإمامِ الكاظمِ عليه السلام في الحركةِ الرِّساليَّة

الترف في العصر العباسي

كان إبراهيم بن محمد بن علي المسمى بالإمام، أول من بُويع بالخلافة العباسية، ولكنه قبل أن يرتقي كرسي الحكم، سقط بيد الأمويين فقتل مسموماً(١)، وفي بعض التواريخ أُدخل رأسه في جراب نورة حتى مات(٢).

وكان ابنه محمد محترماً في الدولة العباسية، فهو أخ الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح، والخليفة الثاني أبي جعفر المنصور.

جاء محمد بن إبراهيم يوماً إلى الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جوهر، وقال: «إنّ حاصلي قد قصّر عمّا أحتاج إليه، وقد علاني دين مبلغه ألف درهم، وإني أستحي أن أُعلم أحدًا بذلك، وآنف أن أسأل أحدًا من التجار أن يُقرضني ذلك، وإن كان معي رهن يفي بالقيمة وأنت -أبقاك الله- لك تجار يعاملونك، وأنا أسألك أن تقترض لي من أحدهم هذا المبلغ وتُعطيه هذا الرهن.

فقال له الفضل: السّمع والطاعة، ولكنّ نجح هذه الحاجة أن تقيم عندي هذا اليوم.

---

(١) البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٩. تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٤٣٦.

(٢) أنساب الأشراف، ج٤، ص١٢٢.

فأقام، ثمّ إن الفضل أخذ السّفط منه وهو مختوم بختمه. وأرسل معه ألف ألف درهم، ونفّذ الدراهم والسّفط إلى منزله، وأخذ خطّ وكيله بقبضه، وأقام محمّد في دار الفضل إلى آخر النهار، ثم انصرف إلى داره، فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم، فسرّ بذلك سرورًا عظيمًا.

فلمّا كان الغد بكَّر [محمد] إلى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكَّر إلى دار الرّشيد فمضى محمّد إلى الرشيد، فلمّا علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه فمضى محمّد إليه وشكره على فعله. وقال له: إنّي بكرت إليك لأشكرك على إحسانك.

فقال له الفضل: إنّي فكّرت في أمرك فرأيت أنّ هذه الألف ألف التي حملتها أمس إليك لتقضي بها دينك، ثم تحتاج فتقترض، فبعد قليل يعلوك مثلها، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى، ولمّا حضرت إلى أمير المؤمنين خرجت أنا بباب آخر. وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبي، لأني ما كنت أُوثر أن ألقاك حتّى يُحمل المال إلى منزلك، وقد حُمل..»(١).

حُمل ثلاثة ملايين درهم إلى دار محمد بن إبراهيم في ذلك النهار.

ماذا تعني هذه القصة التي ذكرها المؤرخون؟.

إنها تعني:

أولاً: إن الوضع الذي كان يعيشه المسلمون في أيام الرشيد كان وضعاً متميزاً بزيادة الموارد المالية، وبتكدّس الثروات الطائلة في أيدٍ معدودة جدًّا من البيت العباسي وأصحابهم البرامكة(٢) والمنتفعين من النظام العباسي.

---

(١) الفخري، ص٢٠٢.

(٢) البَرَامِكَةُ، نسبة إلى آل برمك الوزراء، كالمهالبة والمرازبة اسم محلّة ببغداد وقرية. معجم البلدان، ج١، ٣٦٧.

ثانياً: إن هذه المجموعة الصغيرة من المتربِّعين على الكراسي كانوا يتلاعبون بأموال الناس كما يتلاعب الصبيان بالكرة.

وبتعبير آخر كانوا يتلاعبون بمصير أمة لا تغرب عنها الشمس، ويتلاعبون بقوت أناس دخلوا الإسلام لكي يتخلَّصوا من جور الطغاة الكفرة، فرأوا أن الحكام المسلمين ليسوا بأفضل من غيرهم.

هناك رجل اسمه الوليد بن الطريف الشاري الشيباني(١)، ثار سنة ١٨٧هـ، في منطقة تُسمَّى نصيبين، ثم في أرمينية، ثم أذربيجان. وهذه المناطق كانت واحدة من الناحية الإدارية، فَقَتَل والي نصيبين التي كانت المركز الإداري لهذه المقاطعة وأخذ الحكم، فبعث إليه هارون الرشيد بيزيد بن مزيد، وهو أحد القادة العسكريين الكبار، مع جيش كثيف جدًّا فحاربه(٢)، وكان الوليد بن طريف ينشد في معركته هذه الأبيات:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلي بناري
جوركم أخرجني من داري(٣)

إن هذه الأرجوزة تدل على طبيعة الظلم والحرمان الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية آنئذٍ، وأكثر العلويين الذين خرجوا لقتال بني العباس كان همُّهم الأول هو رفع الحرمان عن الناس.

كانت امرأة تستجدي في شوارع الكوفة، وكانت تتبع أحمال الرطب فتلتقط ما يسقط منه فتجمعه في كساء رثٍّ عليها، فمرّ بها محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن طباطبا بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام وهو صاحب أبي السرايا، فسألها عمَّا تصنع بذلك، فانتسبت، فإذا بها من عائلة شريفة من أبناء

---

(١) ابن الصلت التغلبي الشيبانّي، ثائر من الأبطال. كان رأس الشراة في زمنه. الأعلام، ج٨، ص١٢٠.

(٢) البدء والتاريخ، ج٦، ص١٠١. شذرات الذهب، ج٢، ص٣٤٩.

(٣) الأغاني، ج١٢، ص٣٣٤.

المهاجرين والأنصار في الكوفة، أولئك الذين على أكتافهم وبجهودهم قامت الدولة الإسلامية.

ثم قالت: «إني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي، ولي بنات لا يعدن على أنفسهن بشيء، فأنا أتتبع هذا من الطريق وأتقوَّته أنا وولدي.

فبكى بكاءً شديدًا. وقال: أنت والله وأشباهك تُخرجونِّي غدًا حتى يُسفك دمي»(١).

لماذا قام العلويون بحركات استشهادية؟

إن كثيراً من الحركات العلوية التي انتشرت في أيام العباسيين كانت استشهادية، وكان أصحابها يعرفون أنها ستنتهي إلى الفشل، ولكن كانوا يضيقون ذرعاً بالدنيا ولا يستطيعون الصبر لكي يمنحوا لأنفسهم الفرصة الكافية للتخطيط. لقد كانوا يثورون ويقتلون أنفسهم دفاعاً عن المحرومين.

في أيام الرشيد كانت الطبقة التي تحكم البلاد هي طبقة البيت العباسي، بفروعه المنتشرة، وطبقة العسكريين الكبار، والدهاقنة العلوج، الذين هم من القوميات غير العربية التي اعتنقت الإسلام، وتمتَّعت بعدالته، إلَّا أن رؤساء تلك الطوائف بقوا على وضعهم السابق، وأخذوا يستثمرون طاقات وجهود الفلاحين، والتجار وأصحاب المهن، والحرف الصغيرة، ويتعاونون ويتآمرون مع الطبقة الكبيرة، التي هي طبقة كبار التجار والملاكين وكبار العسكريين وعلى رأسهم وفي طليعتهم الطغاة العباسيُّون(٢).

هؤلاء جميعاً كانوا يتعاونون في سبيل امتصاص واستعباد الطبقات المحرومة، بينما أكثر المسلمين كانوا يعيشون في حالة الحرمان. في مثل وضع كهذا كيف كان يجب على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن يتصرَّف؟. وما هي خطته العملية؟.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٢٦-٤٢٧.

(٢) انظر: حياة الإمام موسى بن جعفر، دراسة وتحليل، ج٢، ص١٩-٢٩.

الإمام عليه السلام يبعث الروح في الأمة

لقد عمل الإمام الكاظم عليه السلام على تنمية الوعي السياسي والديني عند الجماهير المحرومة من الفلاحين، والموالي، وصغار التجار، وممَّن يصلح من عناصر النظام وليس أقطابه، ومن ثم تربية مجموعة من القادة الذين لا يبيعون أنفسهم للذات ومغريات هذه الدنيا الزائلة.

فمثلاً نرى أن كثيراً من العلويين الذين كانوا بالأمس القريب ثواراً، والذين قُتِل آباؤهم أو إخوانهم أو أقاربهم على يد العباسيين، قد وقعوا فريسة الإغراء المادي حيث كان العباسيون ما يفتؤون يحاولون شراءهم بالمال، وكانت أموال الدولة آنئذٍ كثيرة، وكانوا يستطيعون أن يصرفوا الكثير منها في سبيل شراء الضمائر.

إن أحد أبناء أقارب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هو الذي وشى به إلى هارون الرشيد، وتسبَّب في مقتل الإمام من أجل مائة ألف درهم، وكان هذا المبلغ يعني شيئاً كثيراً ذلك اليوم، لأن البيت الواحد كان يُبنى ببضع مئات من الدراهم فقط.

إنها كانت تكفيه وأولاده مؤونة الكد، هذا بالإضافة إلى المناصب التي كانت تُمنح لأمثال هؤلاء، فالرجل إذا كان موالياً للنظام فإنه قد يُصبح والياً على مصر، أو قائداً في المغرب، أو في بلاد فارس.

فالإغراء من قبل النظام كان ضخماً، وهذا الرجل كان يُفكر في نفسه أيبقى مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث الحرمان والمطاردة أم يعيش حياة الأغنياء المترفين؟.

جاء في رواية تاريخية أن «القميص يكون بين جماعة من العلويات يُصلِّين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر..»(١).

---

(١) كان ذلك في زمن ولاية الجبار الشقي عمر بن الرخجي، الوالي من قبل المتوكل على المدينة المنورة، ومكة المكرمة، فقد منع الناس من البر بالعلويين، وكان يُنزل أقصى العقوبات بمن يبرّ بهم، وبقوا على هذه الحالة الصعبة والظليمة العظمى إلى أن قُتل المتوكل. أنظر: مقاتل الطالبيين، ص٤٧٩.

هل يستطيع أن يعيش مع إمامه الحق هكذا أم ينساق مع الطغاة؟.

رُوي إن محمد بن إسماعيل لمّا حضر عند هارون الرشيد قال له: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ خَلِيفَتَانِ فِي الْأَرْضِ، مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ بِالْمَدِينَةِ يُجْبَى لَهُ الْخَرَاجُ، وَأَنْتَ بِالْعِرَاقِ يُجْبَى لَكَ الْخَرَاجُ؟!. فَقَالَ: وَاللهِ!. فَقَالَ: وَاللهِ.

قَالَ: فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ..»⁽¹⁾.

بالطبع لقد كان هارون الرشيد يعرف هذا الوضع إلّا أن العباسيين كسائر الحكام الديكتاتوريين تستخفُّهم الإثارات، والشواهد التاريخية تدل على ذلك، لذلك أُثير هارون بكلام محمد وقدَّم له هدية مائة ألف درهم، وقرَّر قتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بهذه الإثارة الرعناء.

ومرة كان السفاح جالساً في مجلس الخلافة، وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك وسبعون من بني أمية، وقد أكرم السفاح سليمان فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده:

لا يغرنَّك ما ترى من رجال   إن تحت الضلوع داءً دويَّا
فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويَّا

فالتفت سليمان وقال: قتلتني يا شيخ! ثم دخل السفاح وأخذ سليمان فقتل⁽²⁾.

ودخل على أبي العباس -السفاح- شاعر آخر، وقد قدّم الطعام، وعنده سبعون رجلاً من بني أمية فأنشده:

أصبح الملك ثابت الآساس   بالبهاليل⁽³⁾ من بني العبّاسِ
طلبوا وتر هاشم فشفوها   بعد ميل من الزّمان وياسِ
لا تقيلنّ عبد شمس عثارًا   واقطعن كلّ رقلة وغراسِ

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٣٩.

(٢) الفخري، ص١٤٨. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤٢٩.

(٣) جمع بهلول، وهو السيّد الجامع لكلّ خير. لسان العرب: مادة (بهل).

ذلّها أظهر التودّد منها   وبها منكم كحزّ المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي   قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله   بدار الهوان والإنعاسِ
واذكروا مصرع الحسين وزيد   وقتيلًا بجانب المهراسِ
والقتيل الّذي بحرّان أضحى   ثاويًا بين غربة وتناسِ(١)

والمهراس ماء بجبل أحد(٢)، قُتِلَ عنده حمزة بن عبد المطلب(٣) سيد الشهداء ودفن. والقتيل بحرّان هو إبراهيم المسمّى بـ(الإمام)، فضرب أبو العباس أعناقهم.

وهكذا كانوا يُستثارون، فالرجل حينما جاء وأثار هارون الرشيد فإذا به يذهب شخصيًّا إلى المدينة لاعتقال الإمام، لأنه كان يعرف أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يمتلك سلطة روحية على جميع المسلمين، ويعرف أنه إذا بعث بأحد قُوَّاده ليأتي بالإمام فإن قائده قد يخونه ولا يُطيع أوامره.

هارون الرشيد يعتقل الإمام

وهنا قام هارون شخصيًّا باعتقال الإمام عليه السلام حيث ذهب إلى الحج، وجهَّز نفسه، وأخذ معه الجيوش والأموال، فأرهب الناس وطمَّعهم خوفاً من أي ردة فعل يُبديها الناس تجاه ما ينوي عمله، يقول الراوي: «سأل الرشيد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أنت الذي تُبايعك الناس سرًّا؟.

---

(١) الفخرى، ص١٤٩.

(٢) طالع: الإمامة والسياسة، ج٢، ص١٦٩.

(٣) ابن هاشم [٥٤ ق هـ ٣هـ]، أبو عمارة، عمّ النبي صلى الله عليه وآله، وأحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام. شارك في غزوة أحد فقتله عبد اسمه وحشي الحبشي، بطلب وتحريض من هند أم معاوية، وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية، وشرّ الناس في الإسلام. طالع: الأعلام، ج٢، ص٢٧٨. أنساب الأشراف، ج١، ص٩٠.

قال عليه السلام: انا إمام القلوب، وأنت إمام الجسوم»(١).

ولم يجد هارون الرشيد بُدًّا من اعتقال الإمام الكاظم عليه السلام، فاعتقله وطلب تجهيز محملَيْن، محملٍ يذهب على طريق الكوفة، ومحملٍ يذهب على طريق البصرة، لكي يعمي على كلِ من يريد تخليص الإمام، وكان قد جهَّز المحملين ليلاً وراء الستر ضماناً لعدم هياج الناس وثورتهم(٢).

وهذا يدل على أن الوضع الذي كان يعيشه المسلمون آنئذٍ تميّز بأن الإمام عليه السلام كان يبعث الروح الإسلامية في الأمة، وفي أبنائها المحرومين، وكان الخلفاء يريدون تطميع الناس وإرشاءَهم وشراء ضمائرهم، وتكوين مجموعة من المتزلفين والمرتزقة حولهم ليحاربوا الأئمة عليهم السلام أصحاب الحق الشرعي.

إنّ بعث الوعي يعني القضاء على أهم عامل يستند إليه الحكام الظلمة، وهو تجهيل الناس وإعماء الحقائق عنهم، تارة بالإرهاب وأخرى بالإغراء.

ولم يكن الإمام الكاظم عليه السلام والحركة الرسالية يتوسّلون بشيء من ذلك في سبيل الوصول إلى الحكم، كما فعل العباسيون الذين قاموا باسم الدفاع عن مظلومية الناس، فعندما حكموا بقيت تلك المظلومية بل وتعدّدت أشكالها.

الإمام عليه السلام ينشد تغييراً حقيقيًّا

إن الإمام عليه السلام لم يكن يشتري الضمائر، أو يسلك تلك الأساليب الملتوية، بهدف الوصول إلى الحكم والاستيلاء على أموال المحرومين والمضطهدين وتوزيعها على كبار القادة، وبالطبع كان بإمكانه أن يفعل ذلك ولكنه كان حينها لا يختلف عن هارون الرشيد (والعياذ بالله) ولم يكن يُسمَّى موسى بن جعفر إماماً معصوماً، وحاشا الإمام المعصوم أن يكون كذلك، لقد كان الإمام عليه السلام شخصية رسالية

---

(١) عبقات الأنوار، ج٢٣، ص١١٥٠. إحقاق الحق، ج١٩، ص٥٤٣. ينابيع المودة، ج٣، ص٤٢٢. الحقائق من الصواعق، ص٢٠٤.

(٢) راجع: بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٢١، باب أحواله عليه السلام في الحبس.

مؤمنة بأهداف ربّانية، وكان لديه فكر وتخطيط وبرنامج معين يريد أن يُطبقه في الأمة، لينصر المظلومين، ويجعل كلمة الله هي العليا. وهذه كانت قمة الصعوبة في عملية التغيير التي كان الأئمة عليهم السلام ينشدونها.

إنه كان تغييريًّا حقيقيًّا، ولم يكن مجرَّد ترديد شعارات أو بيان ألفاظ يتلاعب بها.

دولة الأدارسة

في عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قامت عدة ثورات منها ثورة إدريس، وقد ذكرنا شيئاً عن إدريس الذي جُرِح في (فخ) واستطاع أن يخرج إلى المدينة، ومنها يختفي فترة، ثم يذهب إلى مصر متنكراً مع حجاجها، ومنها تسلل حتى وصل إلى المغرب، وجمع البربر وكوّن هناك دولة سُمِّيت بدولة الأدارسة، وكانت قوية. ولقد بعث هارون الرشيد بعدة قادة عسكريين من أمثال هرثمة بن أعين في مئات الألوف من الجنود لكي يُحطِّموا دولة الأدارسة فما استطاعوا كسر أي قرن لها وبقيت صامدة. ولكن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لم يكن يُريد أن يكوّن دولة حتى كمثل دولة الأدارسة، وإنما كان يهدف إلى تغيير الأمة الإسلامية كلها، وذلك بإعطاء المحرومين قوَّةً وتنظيماً، وإشباعهم بقيم معينة حتى يقوموا بالثورة على السلطة الطاغوتية الظالمة.

إن الإمام كان يريد أن يُكوّن مجموعة من الناس ذوي عقيدة راسخة، فبالرغم من وجود الإمام موسى بن جعفر عليه السلام محبوساً في سجن السندي بن شاهك، الذي كان مظلماً وقد منع السندي بن شاهك اتصال أي أحد بالإمام⁽١⁾، لكن مع ذلك كان الإمام -وبطرقه الخاصة- يتَّصل بالرساليين في بغداد، ويُعطيهم الأوامر،

---

(١) روى أبو عبدالله الخصيبي [ت: ٣٣٤] في الهداية الكبرى، ص٢٦٥، أن الرشيد ألزم السندي بإبقاء الإمام في سجنه ويُطبق عليه الباب إلَّا من الطعام والوضوء.

ولدينا روايات عديدة بأن الإمام عليه السلام كان على اتصال بهؤلاء⁽¹⁾، إلّا أن بعض الناس يُفسرون اتصال الإمام عليه السلام بأنه كان اتصالاً غيبيًّا، بمعنى أن الإمام وبطريقته الغيبية يفتح السلاسل من يديه ورجليه ويخرج، ثم يذهب للاتصال بجماعته في بغداد، وإعطائهم الخطط والأوامر ثم يرجع إلى سجنه.

ونحن نستبعد ذلك، لا لأن الأئمة عليهم السلام لا يستطيعون أن يقوموا بمثل هذه الأمور بإذن الله، فربما يُسخِّر الله تعالى بمشيته كل القوى والقدرات لوليّه متى يشاء، وكيف يشاء، وإنما لأن الأئمة عليهم السلام لم يكونوا يُريدون تغيير الأمة عن طريق الغيبيات.

وإلّا لكانت القضية في غاية البساطة، فالإمام عليه السلام يرفع يده بالدعاء إلى الله أن يقضي على هارون الرشيد ويحيى وفضل والسندي بن شاهك وعيسى، فيستجيب الله دعاءَه، فيأتي ويحكم البلاد كأبسط ما يكون.

فقد كان الإمام يسير بالسنن الطبيعية في التغيير كما هي رسالة الأنبياء والرسل عليهم السلام، التي تعمل على تغيير الأمة خطوةً بخطوة، وبذلك ترتقي نحو الكمال حتى يكون الناس هم الذين يطبقون الأحكام والقيم، والإمام كبشر يعطي من طاقته ومن علمه ومن تقواه لهذه الأمة المحرومة ما يعطيها القوة، ويُمكِّنها من القيام والنهوض وفق القوانين والشروط الطبيعية.

وهذا يدل على أن الإمام كان يتَّصل بالموالين بطرق عادية، كما يدل على تفاني الموالين، فكان الواحد منهم مثلاً يصبح خادماً عند السندي بن شاهك لفترة طويلة،

---

(1) روى العلامة المجلسي قدس سره أن هند بن الحجاج كان ممَّن اتَّصل بالإمام عليه السلام، وأيضًا: ياسين الضرير، وله كتاب مروي عن الإمام عليه السلام، ومثله إبراهيم المروزي له كتابٌ سمعه من الإمام خلال فترة سجن الإمام عليه السلام، وأيضًا مبارك بن يزيد (أبو يوسف) كان يزور الإمام في الليل، كما كانت رسائل علي بن سويد تصل إلى الإمام وهو يتلقى الجواب، وكان بعضها يطول أشهرًا للوضع الأمني كما تشير لذلك جملة من الروايات. راجع: الكافي، ج٢، ص١٢٤. بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٤١-٢٤٢. رجال النجاشي، ص٢٧٦.

حتى يثق به، فيستطيع الوصول إلى سجنه ويتصل بالإمام، ويكون حلقة الوصل(١) بينه وبين الموالين في بغداد. وهذه هي الطريقة التي كان الإمام عليه السلام ينشدها، وهي نهوض الأمة بتفجير طاقاتها من الداخل.

والواقع أن استمرار سيطرة الطغاة قد يكون بسبب غياب الناس عن الساحة، وذلك حين يكون تناقض النظام الطاغوتي بذاته سبباً لضعفه، ذلك لأن الدولة التي تقوم على أكتاف مجموعة من القادة العسكريين أو القادة السياسيين أصحاب المصالح والأهواء سرعان ما تتعارض مصالحها بعضها مع بعض. لننظر كم حرباً وقعت في أيام العباسيين، سواء بين العباسيين أنفسهم أو التي وقعت بينهم وبين أعدائهم.

فمثلاً، الرشيد قتل ابن أخيه عيسى، ونكَّل بجعفر البرمكي، ونكَّل بالفضل وبمحمد وبموسى، وسجن يحيى، وقَتَل كل من كان حول يحيى. وكان يحيى البرمكي حينها الشخص الثاني في الإمبراطورية الإسلامية. وإن قتل جعفر البرمكي، والتنكيل بالبرامكة، لم يكن شيئاً هيِّناً، فقد كان سبباً لسقوط رؤوس عديدة بعد سقوط رأسه.

إنّ طبيعة الأوضاع تدل على أن جعفر البرمكي لم يذهب وحده، وإنما سحب وراءه مجموعة كبيرة ضخمة من قواده وندمائه وجماعته، وقد سُمِّيت هذه الحادثة (بنكبة البرامكة) التي تشاءم الناس منها(٢).

إن العالم الإسلامي كان يموج بالسخط والاستياء، وكان يُعبِّر عن سخطه تجاه الخلافة العباسية عبر الحركات المتعددة، وهذه الحركات كان يجمعها قاسم

---

(١) هو بشار مولى السندي بن شاهك، وكان في أول أمره من أشد المبغضين للإمام عليه السلام لكن حاله تغيَّر فيما رواه عن نفسه، وكان يمتثل لأمر الإمام في مثل هذه المهمات. راجع بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٤١.

(٢) لاحظ: الفخري، ص٢٠٧. تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٢٦. مروج الذهب، ج١، ص٢٨٥. المنتظم، ج٩، ص١٢٦- ١٤٣- ٢٠٩.

مشترك هو السعي لإسقاط السلطة العباسية وإقامة حكم شرعي عادل، فمرة يقوم يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام في الديلم، وأخرى يقوم أخوه إبراهيم في العراق، ثم يقوم محمد أخوهما الآخر، ومن بعده الحسين بن علي صاحب فخ في الحجاز ثم يقوم إدريس في المغرب العربي.

إن الأئمة المعصومين عليهم السلام لم يكونوا يُريدون إقامة مثل هذه الدويلات، وإنما كانت لهم أهداف أبعد، وهي رفع مستوى الأمة ووعيها وتنظيمها حتى تكون جديرة بالحرية والمحافظة عليها وجديرة بحكم نفسها.

لهذه الأهداف عمل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ولهذه الأهداف استُشهد، وبقيت نهضته مشتعلة، وهي التي دفعت بالمأمون العباسي إلى أن يبعث إلى الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ويأتي به من المدينة إلى خراسان ويجعله وليًّا لعهده⁽¹⁾.

وهكذا كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي عاش في فترة كانت الأمة الإسلامية قد وصلت يومذاك إلى قمة مجدها المادي، وكانت الأموال تُجبى إلى العاصمة من كل مكان، حتى أن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «اذهبي إلى حيث شئت يأتني خراجك»⁽²⁾. وكان الحكام والأغنياء، يملكون الضياع والأموال والعبيد والجواري بلا حساب، ويتمتعون بحياة مرفهة، ويمارسون البذخ والإسراف العجيب.

فما هي وظيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في هذا الوضع؟.

هل وظيفته تنحصر في إسقاط هارون الرشيد، باعتبار أن هارون الرشيد هو رأس الدولة الفاسد، وقد امتد فساده إلى جسم الأمة أيضاً؟.

إن وظيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الأساس كانت تنمية الروح الدينية في الأمة، لذلك عندما كان الإمام عليه السلام يُسجن فإن سجانيه لم يملكوا إلَّا أن يتأثروا

---

(١) تقرأ تفاصيلها في الصفحات القادمة بإذن الله.

(٢) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج١، ص١٩٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٣، ص٢٨٥.

بحياته، ويتشبَّعوا بالمبادئ والأخلاق التي كان يُجسِّدها من خلال سلوكه وعبادته ودعائه ومناجاته لله سبحانه وتعالى.

وقد بعث هارون الرشيد رسالة إلى ابن عمه في سفك دم الإمام عليه السلام وإراحته منه. وكان ابن عمه عيسى بن جعفر بن أبي جعفر العباسي، واليًا من قبله على البصرة.

فكتب عيسى بن جعفر إلى الرشيد يقول: «يا أمير المؤمنين، كتبت إليَّ في هذا الرجل وقد اختبرته طول مقامه في حبسي بمن حبسته معه عينًا عليه لتنظروا حيلته وأمره وطويته بمَنْ له المعرفة والدراية ويجري من الإنسان مجرى الدم، فلم يكن منه سوء قطّ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلّا بخير، ولم يكن عنده تطلّع إلى ولاية ولا خروج ولا شيء من أمر الدنيا، ولا قطّ دعا على أمير المؤمنين ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلّا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُعفيني من أمره ويُنفذ من يتسلّمه منّي وإلّا خلّيت سبيله، فإني منه في غاية الحرج»(١).

ثم يأتي به ويضعه عند رئيس الشرطة في بغداد، وكان الوزير فيها الفضل بن الربيع، فقال الفضل أيضًا: «إني أتفقَّده الليل والنهار فلا أجده في وقت من الأوقات إلَّا على الحال التي أخبرك بها، إنه يصلي الفجر فيعقب ساعة في دبر الصلاة إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة فلا يزال ساجدًا حتى تزول الشمس، وقد وكل من يترصد له الزوال فلست أدري متى يقول الغلام قد زالت الشمس إذ يثب فيبتدئ الصلاة من غير أن يُحدث، فأعلم أنه لم ينم في سجوده ولا أغفى، ولا يزال إلى أن يفرغ من صلاة العصر، فإذا صلى سجد سجدة فلا يزال ساجدًا إلى أن تغيب الشمس، فإذا غابت الشمس وثب من سجدته فصلى المغرب من غير أن يُحدث حدثًا، ولا يزال في صلاته وتعقيبه إلى أن يُصلِّي العُتمة، فإذا صلى العتمة أفطر على

---

(١) الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، ج٢، ص٩٥٣-٩٥٤.

شوى يُؤتى به، ثم يجدد الوضوء، ثم يسجد، ثم يرفع رأسه، فينام نومته خفيفة ثم يقوم فيُجدِّد الوضوء ثم يقوم، فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر، فلست أدري متى يقول الغلام إن الفجر قد طلع إذ قد وثب هو لصلاة الفجر، فهذا دأبه منذ حُوّل إليَّ..

فقلت -عبدالله الغروي- اتَّقِ الله ولا تحدثنَّ في أمره حدثًا يكون فيه زوال النعمة، فقد تعلم أنه لم يفعل أحد بأحدٍ منهم سوءًا إلّا كانت نعمته زائلة.

فقال الفضل: قد أرسلوا إليَّ غير مرة يأمروني بقتله فلم أُجبهم إلى ذلك، وأعلمتهم أني لا أفعل ذلك ولو قتلوني ما أجبتهم إلى ما سألوني»⁽¹⁾.

إذن فالإمام كان يبثُّ الروح التوحيدية الحقة عبر صلواته ومناجاته ودعواته وقيامه في الليل، ويُربِّي بذلك مجموعات من الناس ليكونوا طلائع العمل الرسالي.

اقرؤوا رسالة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هشام بن الحكم⁽²⁾، التي هي وحدها كافية لتربية الإنسان تربية متكاملة، ولو أن إنساناً آخر ألقى بهذه الوصية على هشام، فقد لا يتأثر بها. أما الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه استطاع أن يبثَّها في روح هشام، وربما كان للإيحاء النفسي في هذه الوصية تأثير أكبر من عباراتها، لأن الإمام كان يجسِّد تعاليمها في أفعاله قبل أن يُلقيها كوصايا على هشام، والأكثر من ذلك الموالي الذين كانوا حول الإمام، والخدم، وكذلك أبناؤه، كل واحد من هؤلاء بنظرته إلى الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ تحوّل إلى رجل متدين، وهذه هي الوظيفة الأساس للأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وربما يقول أحدنا: كان الواجب على الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُخفي نفسه ويكوّن حركة سرية ويبدأ العمل السياسي. إن هذا في الواقع عمل مهم ولكن الإمام قد وكل أمر هذه الوظيفة إلى أناس غيره، وقد تحدثنا سابقاً عن التنظيم

---

(١) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ج١، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) رسالته عَلَيْهِ السَّلَامُ في العقل، طالع: الكافي، ج١، ص١٣. تحف العقول، ص ٢٨٢-٢٩٧.

الرسالي الذي توسَّع في عهده.

ان أعظم دور قام به الأئمة المعصومون عليهم السلام، هو القيادة الروحية للأمة، لذلك فرضوا أنفسهم بصورة طبيعية حتى على أعدائهم، فمثلًا المنصور الدوانيقي هو الذي قتل الإمام الصادق عليه السلام، ولكن مع ذلك وبعد وفاة الإمام تراه يبكي بكاءً مرًّا ويقول لأحد رجاله، وهو أبو أيوب الحوزي: «هَذَا كِتَابُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ يُخْبِرُنَا أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ مَاتَ فَإِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ -ثَلاثًا- وَأَيْنَ مِثْلُ جَعْفَرٍ؟..»⁽¹⁾.

والإمام موسى بن جعفر عليه السلام قام أيضاً بهذا الدور، بينما كانت الأمة الإسلامية مُبتلاة برجل كهارون الرشيد الذي كان يحتفظ في قصره بمئات الجواري، وتلبس جواري زبيدة زوجته أحذية من ذهب، وفي عهده كان البرامكة وما اشتهروا به من إسراف.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣. أعلام الورى، ص٢٩٨. مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص٣٢٠.

صفو الكلام

* تميَّز عصر هارون الرشيد بتكدّس الثروة الهائلة بيد السلطة التي كانت تغدق منها على شراء الذمم وإسكات أصوات المعارضة بالقدر الممكن. بينما كان الكثير من الناس يعيشون الفقر والمسكنة.

* إن الحركات العلوية انتشرت في أيام العباسيين، وكان هدفها الدفاع عن المحرومين.

* وقد عمل الامام الكاظم عليه السلام على تنمية الوعي السياسي والديني عند الجماهير المحرومة، وتربية مجموعة من القادة الذين لا يبيعون أنفسهم لمغريات الدنيا.

* إن بعث الوعي يعني القضاء على أهم عامل يستند إليه الظلمة، وهو التجهيل وإعماء الحقائق.

* وبالرغم من سجن الإمام في سجون رهيبة إلَّا أنه كان يتصل بالرساليين بطرقه الخاصة ويوجههم ويقودهم في مواجهة السلطة.

٦ | تَطوُرُ الحَرَكةِ الإسمَاعِيليَّةِ

كان للإمامين محمد الباقر، وجعفر الصادق عليهما السلام صحابي جليل اسمه: ميمون القداح⁽¹⁾، قيل بأنه قام بدور بارز في نشأة الحركة الاسماعيلية، حيث إنه -حسب هذا القول- ولاّه الإمام الصادق عليه السلام على حفيده محمد بن إسماعيل ليربيه⁽²⁾. وميمون القداح هذا كان من أصحاب الإمام الباقر، ومن بعده الإمام الصادق عليهما السلام، فقد روى عنهما روايات كثيرة، كما أنه كان تاجراً، وكان دوره كبيراً

---

(١) ميمون بن الأسود القداح المكي، مولى بني مخزوم، الثقة كما في هداية المحدثين، ص١٠٦، عُدَّ من أصحاب الإمام الصادق، وله روايات عدة عنه عليه السلام، أنظر: قاموس الرجال، ج١٠، ص٣٢٦. مستدرك سفينة البحار، ج١٠، ص٦١٠. وورد في حقه رواية دالة على مكانته وجلالة قدره ومعرفته لمقام الإمام عليه السلام، كما في الكافي، ج١، ص٤٠٠، روى سلام بن سعيد المخزومي، قال: «بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ عَبَّادُ بْنُ كَثِيرٍ، عَابِدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَابْنُ شُرَيْحٍ فَقِيهُ أَهْلِ مَكَّةَ، وَعِنْدَ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام مَيْمُونٌ الْقَدَّاحُ، مَوْلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فَسَأَلَهُ عَبَّادُ بْنُ كَثِيرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِالله، فِي كَمْ ثَوْبٍ كُفِّنَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله؟. قَالَ عليه السلام: فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ، ثَوْبَيْنِ صُحَارِيَّيْنِ، وَثَوْبٍ حِبَرَةٍ. وَكَانَ فِي الْبُرْدِ قِلَّةٌ، فَكَأَنَّمَا ازْوَرَّ (عدل وانحرف) عَبَّادُ بْنُ كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِاللَّهِ عليه السلام: إِنَّ نَخْلَةَ مَرْيَمَ عليها السلام إِنَّمَا كَانَتْ عَجْوَةً، وَنَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَا نَبَتَ مِنْ أَصْلِهَا كَانَ عَجْوَةً، وَمَا كَانَ مِنْ لُقَاطٍ فَهُوَ لَوْنٌ. فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَبَّادُ بْنُ كَثِيرٍ لِابْنِ شُرَيْحٍ: وَالله مَا أَدْرِي مَا هَذَا الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ لِي أَبُو عَبْدِالله. فَقَالَ ابْنُ شُرَيْحٍ: هَذَا الْغُلَامُ يُخْبِرُكَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، يَعْنِي مَيْمُونٌ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ مَيْمُونٌ: أَمَا تَعْلَمُ مَا قَالَ لَكَ؟!. قَالَ: لَا؛ والله. قَالَ: إِنَّهُ ضَرَبَ لَكَ مَثَلَ نَفْسِهِ، فَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ وَلَدٌ مِنْ وُلْدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، وَعِلْمُ رَسُولِ الله عِنْدَهُمْ، فَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَهُوَ صَوَابٌ، وَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِمْ فَهُوَ لُقَاط».

(٢) طالع: زهر المعاني للداعي أدريس القرشي، ص٢٠٠.

إلى حدٍّ اعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي للحركة الإسماعيلية(١).

كان عُمْرُ محمد(٢) بن إسماعيل (١٦) سنة، حين بدأ ميمون القداح -حسب بعض الروايات- يأخذ البيعة له، فاجتمع الناس حوله ورشَّحوه إماماً لهم، وبقي محمد فترة من الزمن في المدينة المنورة إلى أن حكم هارون الرشيد، فسجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وبعدئذٍ أمر بإلقاء القبض على محمد، وكان من مُبرِّرات ذلك أنه كان يدعو الناس إلى نفسه ويجمع حوله الأنصار والأموال ويُريد القيام ضد السلطة.

فاختفى محمد، ثم خرج من المدينة، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد، فمن المدينة انتقل إلى بلاد الري مع دعاته، حيث كان الحاكم إسحاق بن موسى الفارسي(٣) من الإسماعيليين العريقين. ثم انتقل إلى نهاوند، ثم إلى مدينة تدمر في سورية، حيث تُوفِّي فيها بعد أن اتَّخذها الإسماعيليون مركزاً لهم. وأرسل دعاته إلى المغرب العربي،

---

(١) طالع: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٣٩.

(٢) الإمام السابع المتمم للدور السادس، والأول من الأئمة الإسماعيلية المستورين. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١١٧. ظل في أكثر حياته مستوراً عن أعين الناس بسبب الضغوط وطلب العباسيين له، كما ينقل ذلك الباحث الإسماعيلي الدكتور عارف تامر في كتابه: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١١٨، عن مؤلف كتاب: فصول وأخبار: «بعد أن اشتد الضغط على الإمام محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه الأصغر (علي)، فبقي فترة فيها مستتراً عن العيون بعيداً عن الإرصاد فترة من الزمن، ولما عرف أن العباسيين عرفوا بمقرِّه سار إلى الري، واستقر عند أحد دعاته السريين المسمى (إسحاق بن موسى)... وبعد مدة قال له إسحاق: إن العباسيين قد بثوا العيون في كل مكان، وأخشى عليك منهم، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل، وتعتصم بقلعة نهاوند عند تابك منصور بن حوشب، فعمل بإشارته وبعد ذهابه.. ثم أعلمه سرًّا بضرورة سفره من نهاوند، لأن الرشيد يودّ القبض عليه، فخرج متستراً تحت جنح الظلام إلى نيسابور، ومنها إلى فرغانة ثم إلى عسكر مكرم، .. وعندما اشتد الطلب والضغط عليه من قبل المأمون اضطر إلى الذهاب إلى تدمر في بلاد الشام».

(٣) موسى بن إسحاق بن موسى بن عبد الله الانصاريّ، من أمراء بني العباس، كوفي، فقيه، مقرئ، فصيح، كثير السماع، ولي قضاء الريّ، ثم قضاء الأهواز واستمرّ إلى أن مات. انظر: الأعلام، ج١، ص٧٥. طبقات الفقهاء، ج٣، ص٥٩١.

وكان يقال: إن لمحمد بن إسماعيل سرداباً بداره يختفي فيه خوفاً من أعوان الرشيد(١).

ومن بعده بايع الإسماعيليون ابنه عبدالله(٢) بن محمد بن إسماعيل الملقب بـ(أحمد الوفيّ)، أو(وفيّ أحمد)، الذي عاصر المأمون العباسي، وكان من أساليب السرية لديه، ما رُوي أنه كان يملك سرداباً في بيته مُتَّصلاً عبر نفق واسع بالصحراء المحيطة بمدينة السلمية(٣)، حيث «كانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل، وتنزل بأحمالها عليها حتى تحط في داخل الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد»(٤)، وقد كانت السلمية في مكان وسط من الناحية الجغرافية وقريبة من العراق.

وقد تميَّز عصر المأمون العباسي كما هو معروف، بالفلسفة المترجمة من الفكر اليوناني والفارسي القديمين والهندوكية القديمة. وانتشرت هذه الفلسفة في أوساط المسلمين انتشاراً واسعاً، ومن هنا بدأ أحمد بن محمد بن إسماعيل بتأليف ونشر ما سمّي برسائل (إخوان الصفا وخلّان الوفاء)، التي كتبها أحمد إما بنفسه(٥)، أو أمر بعض دعاته الكبار بأن يكتبوها، ثم ألقى عليها نظرة أخيرة(٦)، وأمر باقي الناس

---

(١) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١١٧-١١٩. تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٣٠-١٣٩.

(٢) هو الإمام الثامن بحسب تسلسل الإمامة عند الإسماعيلية، ولكنه بحسب تسلسل الأئمة المستورين يكون الثاني، ولد سنة ١٥٩هـ، في مدينة محمد آباد، بعد وفاة أبيه تولى شؤون الإمامة عام ١٩٣هـ، سكن السلمية عام ١٩٤هـ، فقام بتنظيم الدعوة تنظيماً دقيقاً. توفي عام ٢١٢هـ. دفن في مدينة مصياف وله فيها ضريح. أنظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٣٠-١٣٢.

(٣) السلمية: قضاء في سورية بمحافظة حماة شرقي نهر العاصي فتحها العرب في سنة ٦٣٦م، وهي مركز الإسماعيلية، أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج٤، ص١٨٧٧.

(٤) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٤٩، نقلاً عن: سيرة جعفر الحاجب (مخطوط)، ص١٧.

(٥) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٣١.

(٦) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٤٩. وقال: «فاجتمعت طائفة من العلماء الإسماعيلية، وألَّفوا اثنتين وخمسين رسالة فلسفية عرضوها على الإمام أحمد الوفي فسماها (رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء)».

من أتباعه وجماعته من أبناء حركته بأن يستنسخوا هذه الرسائل وينشروها، وهو الأرجح بالنسبة لنا، وتقع هذه الرسائل حاليًّا في أربع مجلدات(١).

رسائل إخوان الصفا.. منهج فكري للحركة

وتحتوي رسائل إخوان الصفا كثيراً من الأفكار العقائدية حول علم الكلام والسياسة والأخلاق، وفي شتى المجالات الأخرى المختلفة. وهي على شكل دروس حركية كانت تُلقى في الحلقات الخاصة التي كانت لكبار دعاة الإسماعيلية في البلاد الإسلامية. وكان من أولاد أحمد، الخلفاء الإسماعيليون (الفاطميون) في مصر والمغرب العربي، وقد كانت الحركة الإسماعيلية على جانب كبير من دقة التنظيم وسرية العمل.

أما (الإمام) فقد كان عندهم أعلى سلطة في الدعوة وأرفعها، وهي مصدر كل قانون أو تنظيم أو تشريع. ويأتي بعده في الترتيب: (الحجة أو الباب)، ورتبته تلي رتبة الإمام مباشرة، فهو نائب الإمام، ويشغل هذا المنصب ولي عهد الإمامة، أو أحد الأقرباء المقربين الضالعين بالعلوم. أما (داعي الدعاة)، فهو :الرئيس والمسؤول الأول أمام الحجة عن توزيعات الدعاة في الأقاليم. و (داعي البلاغ)، وهو المسؤول الأول عن تبليغ الأوامر التي يرسلها داعي الدعاة إلى الأقاليم. فهو رئيس القلم ومحرّر الرسائل وكاتب البلاغات. وهناك أيضاً (الداعي المطلق، أو النقيب)، فهو الداعي الذي يصل إلى مرتبة يُصبح له من الصلاحية ما يُؤهِّله للسفر إلى الأقاليم. ويأتي بعده (الداعي المأذون) فهو يتبع الداعي المطلق ويُعاونه، ومن ثم يأتي (الداعي المحصور) فهو يتولى الدعوة في منطقة معينة لا يتعداها فهو محصور

---

(١) يضم الجزء الأول أربعة عشر رسالة، في الرياضيات، والهندسة، والفلك، والفنون العلمية. والمنطق. أما الجزء الثاني فإنه تناول الطبيعيات تماماً على النحو الأرسطي. والثالث حوى عشر رسائل فيما وراء الطبيعة. أما الرابع تناول الإلهيات، وما يتَّصل بالديانات، والشرائع.. وعدد رسائل الأجزاء الأربعة (إحدى وخمسون) رسالة.وهي مقدمة ومدخل إلى رسالة (الجامعة)، وهي خلاصة العلم، وغاياته التي ينتهي إليها (إخوان الصفا). انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٤٢. انظر: رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا، الصادر عن دار بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

فيها حتى يأذن له داعي الدعاة بالانتقال إلى غيرها. أما (الجناح الأيمن، والجناح الأيسر) فيقدمان للداعي المطلق الخدمات أثناء جولاته في الأقاليم ويمدانه بالمعلومات. أما (المكاسر) فهو الداعية الذي كان في الأصل مكالباً، ثم تفقَّه في الدعوة وتفوَّق فيها. أما (المكالب) فوظيفته التجسس ومعرفة الأخبار وجذب الناس إلى الدعوة. أما (المستجيب) فهو المنتسب حديثاً إلى الدعوة الإسماعيلية(١).

فمن هذا يظهر أن للحركة الإسماعيلية اثني عشر مرتبة وهي: إمام، حجة أو باب، داعي دعاة، داعي بلاغ، داعي مطلق أو نقيب، داعي مأذون، داعي محصور، جناح أيمن أو يد يمنى، جناح أيسر أو يد يسرى، مكاسر، مكالب، مستجيب.

ومن جملة أساليبهم التنظيمية أنهم كانوا يكتمون اسم الإمام، فالرجل كان يُصبح إسماعيليًّا دون أن يعرف من هو إمامه، بل ولا يكشفون له اسم الحركة، واسم الدعاة، إلَّا بعد أن يتدرج عبر مراحل، ويصل إلى مستوى معين، فبعدئذٍ يكشفون له عن اسم أحد الدعاة. ولذلك استطاعوا التسلل إلى المراكز الحساسة في الدولة، وفي بعض الفترات كان حاجب أحد الخلفاء إسماعيليًّا. كانوا يكشفون للفرد المنظم قضايا الحركة بصورة تدريجية، فحين يصل الفرد إلى درجة معينة يكشف له عن اسم الداعي، وبعد ذلك يكشفون له عن اسم الحجّة، وفي الأخير يكشفون له عن اسم الإمام(٢).

منهج الغيبة عند الإسماعيلية

من التعليمات التنظيمية الداخلية عند الإسماعيلية أن إمامهم لا يكون ظاهراً، وهو ما يُعرف عندهم بالإمام المستور(٣). فمنذ أن اختفى محمد بن إسماعيل، ومن بعده عبدالله بن محمد بن إسماعيل أو (أحمد الوفيّ)، أو (وفيّ أحمد)، لم يظهر أحد

---

(١) تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٢٤-١٢٧ (بتصرف يسير). وأيضاً: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص٣٣-٣٤.

(٢) أنظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٢٧-١٢٩.

(٣) أنظر: بحوث في الملل والنحل، ج٨، ص١٥.

منهم إلى أن حكموا مناطق من البلاد الإسلامية. فبينما نجد أئمتنا المعصومين عليهم السلام ظاهرين يدرّسون الناس ويُوجِّهونهم، ويعرف الناس بأن هذا إمام ويرونه بأعينهم، نجد إمام الإسماعيلية على العكس من ذلك مختفياً لا يدري به أحد، من هو؟ وأين هو؟ وماذا يعمل؟. فليس غريباً أن نجد أحد أئمتهم توفي في سورية⁽¹⁾، وآخر في القاهرة⁽²⁾. وممَّا يدل على ذلك أن إمام الإسماعيلية، والرئيس الأعلى للحركة، كان يتلبس بلباس تاجر⁽³⁾، ويذهب إلى البلاد الأجنبية، وكان بعض أئمتهم يقومون بجولات استطلاعية، يعمل فيها لحركته بحرية وبعيداً عن أعين الرقباء⁽⁴⁾. وقد تدركه المنية هناك حيث تنتقل مهام حركته إلى خليفته. وعلى سبيل المثال، كان أحمد بن عبدالله بن محمد يُدير حركته بشكل مباشر، ولا يُرسل نواباً عنه للمهام الأساسية، فإذا ما استدعى العمل حضوره في مكان ما، كان يقوم بنفسه بالذهاب إليه، ويلتقي بالدُّعاة ويُوجِّههم، كما كانت لأئمتهم أسماء حركية بعيدة عن أسمائهم الواقعية⁽⁵⁾،

---

(١) كالإمام عبدالله بن محمد بن إسماعيل، تُوفي في سورية بـ(سلمية)، في سنة ٢١٢هـ، انظر: (تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٣٢). وسلمية تقع بين حماة ورفنيّة. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٢٦٩.

(٢) توفي في مدينة بلبيس الإمام العزيز بالله نزار، ، وحمل إلى القاهرة حيث دفن عند أبيه المعز، وكان ذلك في سنة ٣٨٦هـ. أنظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص٢٢٠.

(٣) انظر: ما ذكره القرمزي في: اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،ج١، ص٦٠، في وصف حال خروج عبيدالله المهدي إلى المغرب: «فلما انتهى إلى مصر أقام مستتراً بزي التجار..».

(٤) روى المقريزي، فقال: «فخرج أبو عبدالله (المهدي) إلى مكة، وقد أعطاه ابن حوشب مالاً، فلما قدم مكة سأل عن حجاج كتامة، فأُرشد إليهم، واجتمع بهم، ولم يُعرِّفهم قصده، وذلك أنه جلس قريباً منهم....» تقرأ باقي الرواية في (اتِّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا)، ج١، ص٥٥.

(٥) عرف أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بين الناس بأنه أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح، وكان يقول للناس: إنه أحد دعاة الإمام المستور (أحمد بن عبدالله)، تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٣٢. وعبيدالله المهدي، اسمه الحقيقي محمد رضي الدين عبدالله، واشتهر أيضاً بـ(أبي عبدالله الشيعي)، انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٥٨. وأيضاً من اشتهر وعرف بين الناس بـ(الأهوازي)، واسمه الحقيقي الحسين بن أحمد بن عبدالله، كما كانت له علاقة وطيدة

بل يضعون أسماء دُعاتهم على أنفسهم. وهذا من لطائف الحركة، فمثلاً: كان عبدالله، واحداً من كبار الدعاة فَوُضِع اسمه على إمام زمانهم⁽¹⁾.

فكانوا يتلاعبون بالأسماء في سبيل تحقيق مصالح حركتهم. وقيل عن التنظيم الإسماعيلي أيضاً: إنه كان للحركة هرم رأسه (الإمام)، وله أربعة من (الدعاة الأركان) هم حملة علم الإمام، الذين يقومون بتفسير كل الروايات والآيات تفسيراً سياسيًّا.

و(الدعاة الأركان) بدورهم مرتبطون بأربعة دعاة، وهؤلاء الدعاة لهم أمناء، والأمناء لديهم أيادي، والأيادي عندهم أنصار يسمونهم بـ(إخوان الوفاء). والأخ هو ذلك الرجل الذي انتمى إلى حركتهم. أما سائر الناس فيُعتبرون جمهوراً، ويجب توجيههم.

وكانت الروح الفدائية، لدى أفراد الحركة الإسماعيلية، عالية جدًّا، باستلهامهم العزم والتضحية والفداء من بطولات كربلاء، وكثيراً ما يروي لنا التاريخ قصصاً تحكي موت الدعاة الكبار في الحركة تحت التعذيب، ولم يسجل أن أحدهم استسلم أو أفشى سرًّا من أسرار حركته⁽²⁾.

علاقة الإسماعيلية بأئمة أهل البيت عليهم السلام

بعد هذا السرد المختصر لتاريخ الحركة الإسماعيلية، نتساءل: هل كان لهذه الحركة ارتباط وعلاقة مع قيادة الحركة الرسالية الإمامية، أم لا؟.

لقد أجبنا في البداية عن هذا السؤال بشكل مختصر حينما بيّنا أن ميمون القداح، وهو الذي يُعتبر العامل الرئيس في نشأة الحركة الإسماعيلية، هذا الرجل

بالدولة العباسية دون أن يتعرَّفوا عليه وعلى حقيقة شخصيته. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٣١.

(١) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٥٨-١٦٩.

(٢) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج١، ص١٢٣. تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص٢٥.

كان صاحب ومولى للإمام الباقر عليه السلام وأحد صحابة الإمام الصادق عليه السلام، وهو الذي استخلفه على حفيده محمد بن إسماعيل -حسب بعض المصادر التاريخية- وهذه الحقيقة تدل على واحد من أمرين:

الأول: إما أن يكون ميمون القداح، قد انحرف من المذهب الرسالي الجعفري، إلى المذهب الإسماعيلي المعروف. وهذا أمر مستبعد؛ لأن بعض فقهاء الشيعة نقلوا عنه الأخبار والأحاديث ووثّقوه.

الثاني: أو أنه كان مُكلَّفاً من قبل الإمام جعفر الصادق عليه السلام ومن بعده الإمام موسى الكاظم عليه السلام بتأسيس وتحريك طريقة معينة من العمل داخل الأمة الإسلامية في ذلك الوقت. وهذا ما نراه.

ولقد أثارت شخصية ميمون القداح موجة من التساؤلات بسبب حساسية موقعه من الحركة الإسماعيلية، ومغالاة أبناء هذه الحركة في حقه، وجعله شخصية أسطورية. وأيضاً بسبب معاداة المعارضين لهذه الحركة الشديدة لميمون، الذي اتَّهموه بكافة التُّهم التي يفتريها الطغاة ضد مؤسسي الحركات الثورية.

ونرى أن ميمون القداح لم يكن سوى واحداً من الموالين المتشبعين بروح الثورة، وقد وفّر له قربه من الإمام الباقر ونجله الإمام الصادق عليهما السلام فرصة كافية لمعرفة أصول الحركة الرسالية.

وحين كلَّفه الإمام الصادق عليه السلام بالإشراف على تربية حفيده محمد بن إسماعيل، الحبيب إلى قلوب العائلة المفجوعة بوفاة أبيه إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام البكر، بدأ بتأسيس حركة ثورية معارضة للنظام الطاغوتي، وهو لا يتحمَّل سلبيات هذه الحركة، كما لا يتحمَّل الشهيد زيد بن علي عليهما السلام سلبيات الحركة الزيدية في التاريخ. وقبل أن نسرد بقية قصة ميمون نُلقي نظرة خاطفة على نظرات كتب الرجال والتاريخ حوله، وذلك عبر ثلاثة مصادر رئيسة:

أولاً: عن كتاب جامع الرواة⁽¹⁾ -الموثق عند فقهائنا-، يقول عن ميمون القداح، ما يلي: «ميمون القداح مولى بني مخزوم المكي، مولى بني هاشم روى عنهما».

وأورد العلامة الأردبيلي رحمه الله عدداً من الروايات التي رواها ميمون القداح عن الإمام الباقر عليه السلام والتي هي موضع اعتماد عند علماء المذهب الاثني عشري.

منها: «عن علي بن الحكم، عن معاوية بن وهب، عن ميمون القداح، عن أبي جعفر عليه السلام، في باب أن من عفَّ عن حرم الناس، عُفَّ عن حرمه، في أواخر كتاب النكاح. ابن القداح، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام. وفي باب كراهية أن يبيت الإنسان وحده، في (كتاب المروءة) عنه، عن أبيه ميمون، عن أبي جعفر عليه السلام فيه. وفي باب اتِّخاذ الإبل بعد كتاب الدواجن، عنه، عن أبيه ميمون، عن أبي عبد الله عليه السلام. وفي باب قسمة الغنيمة، عبد الله بن ميمون، عن أبان، عن ميمون القداح، عن أبي جعفر عليه السلام في باب النوادر في كتاب فضل القرآن»⁽²⁾.

أما عن عبد الله بن ميمون القداح، فيقول عنه العلامة الأردبيلي: «عبد الله بن ميمون الأسود القداح كان يبري القِداح، المكي مولى بني مخزوم، روى أبوه عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وروى هو عن أبي عبد الله عليه السلام وكان ثقة. حدثني مهدوية، عن أيوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن ابن خالد صالح القماط، عن عبدالله بن ميمون، عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا بن ميمون، كم أنتم بمكة؟.

---

(١) جامع الرواة.. وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد، لمؤلفه العلامة الفاضل محمد بن علي الأردبيلي الغروي الحائري قدس سره (ت: ١١٠١هـ)، عالم فاضل ومحقق ألمعي، وخبير رجالي، مختص في الأسانيد ورجالها، من تلامذة العلامة المجلسي رحمه الله والراوين عنه. وللوقوف على المكانة العلمية لكتاب (جامع الرواة)، انظر: مقدمة الجزء الأول من الكتاب، بقلم المرجع الكبير السيد حسين البروجردي قدس سره، وأيضاً فهرس التراث، ج٢، ص١١، و: كليات في علم الرجال، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) جامع الرواة، ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

قلت: نحن أربعة. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أما إنكم نور الله في ظلمات الأرض؟»(١).

ثم يُورد العلامة الأردبيلي ﷺ عدة من الروايات التي رواها عبد الله بن ميمون القداح في أبواب الفقه المختلفة عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وعن أبيه عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

ثانياً: أما المؤرخ المصري المقريزي فيقول عنه: «وقد وقفت على مجلد يشتمل على بضعٍ وعشرين كراسة في الطعن على أنساب الخلفاء الفاطميين تأليف الشريف المعروف بأخي محسن(٣) يقول فيه (كتابه الذي ردّ فيه على الإسماعيلية): إن هؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي، الذي تنسب إليه الثنوية... فَوَلَدَ ديصانُ هذا ابناً يقال له ميمون القدَّاح.. وكان له مذهب في الغلو، فوُلد لهذا ابن يقال له عبدالله.. وكان عارفاً عالماً بجميع الشرائع والسنن وجميع علوم المذاهب كلها،... وولد له -عبد الله- ابن يقال له أحمد (وبعد أن مات)، فقام من بعده ابنه أحمد هذا في ترتيب الدعوة، وادَّعى أنه من نسل محمد بن إسماعيل. ويُؤكِّد أخو محسن أن عبدالله المهدي، أو محمد المهدي، هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح بن الثنوي الأهوازي، وأصلهم من المجوس».

ويرد المقريزي على هذا القول، فيقول: «إن بني علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة، فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم، والدعاء لابن مجوسي، أو لابن يهودي؟. فهذا ممَّا لا يفعله أحد، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف، وإنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بني العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين، فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم

---

(١) جامع الرواة، ج١، ص٥١٣-٥١٤.

(٢) جامع الرواة، ج١، ص٥١٤.

(٣) محمد بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويُكنَّى بأبي الحسين، وقال في الهامش: علوي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع، وكان معاصراً للمعز لدين الله.

نحواً من مائتين وسبعين سنة، وملكوا من بني العباس: بلاد المغرب، ومصر، والشام، وديار بكر، والحرمين، فلاذت حينئذٍ لهم ببغداد نحو أربعين خطبة، وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومته، فلاذت حينئذٍ بتنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن في نسبهم..»(١).

وبث ذلك عنهم خلفاؤهم، وأعجب به أولياؤهم، وأمراء دولتهم الذين كانوا يُحاربون عساكر الفاطميين كي يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرَّة العجز عن مقاومتهم ودفعهم عمّا غُلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين، حتى اشتهر ذلك ببغداد، وأسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين.

وعندما عجزوا عن مقاومة الفاطميين والوقوف في وجههم أثناء حكمهم بلاد المغرب، ومصر، والشام، وديار بكر، والحرمين، واليمن، وبغداد(٢)، عمدوا إلى الطعن في نسب الأئمة الفاطميين ليسوِّدوا صحائفهم، وليجرّوا الناس إلى كراهيتهم، وأن القضاة الذين سجلوا شهادة الطعن على السماع في بغداد، كانوا من ألد أعداء الفاطميين، ومن أخلص شيعة بني العباس، ولم يُعرف عنهم التجرّد والنزاهة والصدق، بل اشتهروا بكراهيتهم وبغضهم ونقمتهم على آل علي بن أبي طالب عليه السلام منذ ابتداء الدولة العباسية، فتآمروا عليهم، وطاردوهم، وبطشوا بهم أينما وجدوا.

ثالثاً: أما المستشرق الروسي، البروفسور فلاديمير إيفانوف(٣)، فيستنتج من

---

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج١، ص٢٢-٢٦. وأيضًا: المواعظ والاعتبار، ج٢، ٢٦-٢٨.

(٢) أخذ البساسيري لهم (أي للفاطميين) بغداد سنة ٤٥٠هـ وأقام فيها الخطبة للمستنصر الفاطمي، وفر الخليفة القائم بأمر الله العباسي، وسُيّرت ثيابه وعمامته وغير ذلك إلى مصر.. وفي سنة ٤٥١هـ أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الأعمال، فقدم طغريل إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم.. وقتل البساسيري الذي خطب أربعين خطبة في بغداد للمستنصر الفاطمي. المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٣.

(٣) فلاديمير أليكسيفيتش إيفانوف [١٨٨٦-١٩٧٠م]، يُعدُّ رائد الدراسات الإسماعيلية الحديثة.

بحوثه حول الإسماعيلية(١):

١- أنّ ميمون القداح وولده عبد الله لم يكونا من الفاطميين أصلاً، ولم يجمعهما بهم أيّة صلة رحم.
٢- أنهما لم يكونا ديصانيين أو زنديقين، بل كانا فقيهين ورعين، وأن الدعوة السرية الإلحادية التي تُنسب إليهما لم تكن إلّا من نسج الخيال.

ويرى إيفانوف أن الخلفاء الفاطميين أخفوا أنسابهم وفروع ذوي قرباهم، خوفاً من أعدائهم في البلاد الخارجة عن سلطانهم على أولئك الأقربين، وإن قصة ميمون القداح وولده هذه ما هي إلّا أسطورة وخرافة.

ويُورد إيفانوف الأحاديث التي وردت في كتاب الكافي في علم الدين برواية عبدالله بن ميمون، ووالده ميمون بن القداح، والأحاديث التي رواها عبدالله، ونسبها إلى والده ميمون، وعددها مائة وخمسون حديثاً، منها مائة وثلاثون نقلت من كتاب الكافي والبقية نقلت من كتاب تهذيب الأحكام.

ويخلص إيفانوف إلى أن الأحاديث المذكورة توضح أن ميمون القداح كان على صلة بالإمام محمد الباقر عليه السلام، وهناك ما يدل على أنه كان ضمن خدم أسرة الإمام، وكان الإمام الباقر عليه السلام يصحبه في جولاته، وكان إذا سار استند إلى ابن القداح، ويستدل إيفانوف على ذلك بما ورد في الحديث الرابع، حيث يوصف ميمون القداح صراحة بأنه مولى الإمام محمد الباقر عليه السلام وغلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

ويستدل إيفانوف أيضاً ببعض الروايات السُّنية التي تصف عبدالله بن ميمون بأنه (مولى الإمام جعفر الصادق عليه السلام)، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ينفي إيفانوف تهمة الإلحاد عن عبدالله بن ميمون، ويستدل على ذلك بأن اسمه ورد في كتب الحديث السُّنية، مثل ابن النجار المُتوفَّى سنة ٦٤٣، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، وابن حجر المتوفى ٨٥٢هـ، وعبد الله الخزرجي الأنصاري المتوفى ٩٢٢هـ.

---

(١) نقلًا بتلخيص عن تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٤٠.

ولم تنسب إليه في كتب السُّنة، أية دعوة بالإلحاد أو الزندقة، ويصفه أكابر رواة الحديث السُّنة بصفات مختلفة من ضعيف، وسقيم، ولكن لم يرمه أحد منهم بشبهة الإلحاد.

ومن ثَمَّ يستنتج أن ميمون القداح كان من الموالي، وكان مقيماً بمكة، وله أهمية محلية، وكان خادماً مخلصاً للإمام محمد الباقر عليه السلام، ثم ولده جعفر الصادق عليه السلام، ومن الممكن أنه كان تاجراً، وربما كان أيضاً مشرفاً على أملاك الأئمة عليهم السلام في مكة، وقد كان فيها يُعدّ رجلاً ذا شخصية، وكان له عدة أولاد منهم: عبدالله، وأبان، وربما إبراهيم. وكان ولده أبان عالماً يحفظ القرآن، وليس من المستحيل أن يكون أخوه عبدالله معلماً للكتابة وأنه دوّن خلال خدمته للإمام عليه السلام ما سمعه منه، وأن مجهوده -فيما يبدو- كان مقتصراً على تدوين الأحاديث التي سمعها من الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وليس هناك ما يدل على أنه كان مشتركاً في أية حركة إلحادية⁽¹⁾.

ونحن لا نشك في أن الحركة الإسماعيلية على ما هي عليه في الوقت الحاضر قد انحرفت تاريخيًّا، عن خطِّها الصحيح، بعد أن وقعت في تناقض موت إسماعيل قبل أبيه الإمام الصادق عليه السلام وبين إمامته في ظل إمامة الصادق عليه السلام.

كما لا نشك في أن الزيدية قد انحرفت هي الأخرى عن خطِّها الصحيح، ولا نشك أيضاً في أن كثيراً من فئات الموالين قد انحرفوا عن الخط الرسالي الصحيح الذي رسمه لهم الأئمة المعصومون عليهم السلام.

بيد أن انحراف أيَّة حركة عن خطِّها الصحيح، لا يدل على أن هذه الحركة كانت منحرفة من أساسها، كما لا نستطيع أن نتَّخذ من انحراف بعض المسلمين اليوم عن خطهم الصحيح، دلالة على كونهم منحرفين منذ البداية، أو أن الرسالة منحرفة من أساسها.

كما لا نستطيع أن نستدل من انحراف النصارى واليهود عن الحنفية الأولى

---

(١) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٤٠-١٤٦.

دليلاً على انحراف الرسالة.

إذن.. إن تكليف ميمون القداح من قِبَل الإمام الصادق عليه السلام بالإشراف على ابن إسماعيل يدلّ على أن الحركة الإسماعيلية كانت حركة ذات أهداف سياسية سليمة منذ البدء.

الحركة الإسماعيلية وإشراف الأئمة

وقد يقال: لماذا لم يقم الأئمة المعصومون وفي طليعتهم آنئذٍ الإمام الكاظم عليه السلام، بتوجيه الحركة السياسية وإدارة الأجنحة المختلفة فيها بشكل مباشر؟.

أجبنا عن هذا السؤال فيما سبق بأن الأئمة عليهم السلام كانوا يقودون مجموعة شُعَب مختلفة من الحركة (ثقافية، واقتصادية، واجتماعية خلقية، وعلمية فقهية، بالإضافة إلى الحركات السياسية)، وليس من الصحيح إداريًّا أن يلتزم إمام من أئمة المسلمين بحجم أئمتنا عليهم السلام الذين يُريدون تغيير وضع فاسد بأكمله، أن يلتزم بخيوط الأعمال كلها بشكل مباشر.

إن الأئمة الهداة عليهم السلام كانوا مصدر توجيه الأمة الإسلامية، ومصدر نورها ومعارفها. فهم الذين بقوا على طول التاريخ منائر للعلم والزهد والتقوى والجهاد، ففي الوقت الذي انحسر العلم والفقه عن كثير من أبناء الصحابة، بقي الأئمة عليهم السلام معروفين لدى الناس، كونهم: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾(١)، أي إنهم لا يزالون على الخط الرسالي المستقيم ذاته كما كان جدُّهم الرسول صلى الله عليه وآله.

ومن هنا حافظوا على تعدُّد الحركات المنتشرة في عدة أمصار، حتى إذا أخفقت حركة، حملت الحركات الأخرى اللواء الواحدة بعد الأخرى. ولولا هذا العمل من الأئمة عليهم السلام لما بقي للدين ذكر.

فلم يكن بمقدور الخلفاء أن يُحقِّقوا نواياهم الخبيثة ما دامت الأمة تُوجَّه من

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٤.

قِبَل هذه الحركات الرسالية. ثم إن عصر الأئمة عليهم السلام كان يفرض عليهم منطقاً مُعيَّناً، وأساليب خاصة، قد لا تُعجبنا نحن لأننا بعيدون عن ذلك العصر، ولم نقم حتى الآن بفهم استيعابي شامل لعصر الأئمة عليهم السلام حتى نعرف أن هذه الأساليب هي التي كانت تقتضيها الظروف. فمثلاً يطرح سؤال: لماذا طلب المأمون العباسي الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى مركز خلافته في خراسان وجعله ولي عهده، وقال: يجب أن تكون الخلافة مستقبلاً في البيت العلوي؟.

يقول المؤرخون في الإجابة عن هذا السؤال: إن السبب هو خشية المأمون العباسي من انتشار الحركة الإسماعيلية⁽¹⁾. وهذا يُثبت الفكرة التي سبق وأن نوّهنا إليها، والتي تقول: إن الإسماعيلية كانت مظلة حماية للحركة الرسالية، بمعنى أن سيوف الإسماعيلية وحركتهم السرية وتنظيماتهم الداخلية كانت تفسح المجال للإمام موسى بن جعفر عليه السلام ثم للإمام علي بن موسى عليه السلام ومَن جاء بعدهم، لكي ينشروا معالم الرسالة ويُربّوا الأمة عليها. فخوفاً من الإسماعيلية كان العباسيون يُخفِّفون ضغوطهم على الأئمة عليهم السلام فينشر الأئمة الأفكار الرسالية ويُوجِّهون الأمة.

الإسماعيلية بين الباطنيّة والتأويل

ويبقى سؤال آخر هو: لماذا تُسمّى هذه الحركة بالباطنية؟.

الباطنية ماذا تعني؟.

إن كلمة (الباطنية) تُفسَّر بتفسيرين:

---

(١) انظر: الإمام الرضا عليه السلام تاريخ ودراسة، ص٢٠٠. و: حياة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ج٢، ص٣٧٥. ومِمَّا يُؤكِّد ذلك ما رواه المحدث الكُليني في روضة الكافي الشريف (ج٨، ص١٥١)، عن معمّر بن خلاَّد قال: «قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ لِيَ الْمَأْمُونُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، لَوْ كَتَبْتَ إِلَى بَعْضِ مَنْ يُطِيعُكَ فِي هَذِهِ النَّوَاحِي الَّتِي قَدْ فَسَدَتْ عَلَيْنَا..». وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٦٦، عَنْ مُعَمَّرِ بْنِ خَلَّادٍ قَالَ: «قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ لِيَ الْمَأْمُونُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ انْظُرْ بَعْضَ مَنْ تَثِقُ بِهِ، تُوَلِّيهِ هَذِهِ الْبُلْدَانَ الَّتِي قَدْ فَسَدَتْ عَلَيْنَا..».

التفسير الأول: يلتزم به المؤرخون الذين كانوا يُؤيِّدون النظام الطاغوتي، إذ كانوا يُفسِّرون الباطنية، بأنها حركة تؤمن بالتأويل، ويعنون بذلك أن هذه الحركة كانت لا تلتزم بالقرآن حرفيًّا، بل تستوحي من الأفكار الوثنية وتُدخِلها في القرآن الكريم عن طريق التأويل، أي تركيب هذه الأفكار على معاني القرآن، وتفسير الآيات القرآنية بشكل مغاير لمعانيها الأصلية، وإخفاء ذلك عن الآخرين بحجة أنهم دون مستوى إدراكها وفهمها.

إذن، كلمة (الباطنية) تعني -في هذا التفسير- أصحاب العقائد والأفكار الخاصّة الخفيّة.

التفسير الثاني: تعني السرية، كما أن الظاهرية تعني العلنية. هكذا يقول بعض المؤرخين. ونحن نرى أن كلمة (الباطنية) تحمل المعنيين في الوقت نفسه. ولكن ما معنى التأويل؟.

هل كل تأويل هو تركيب الأفكار الباطلة على القرآن؟.

كلَّا؛ إن المعنى الصحيح للتأويل هو تطبيق القرآن على أحداث العصر وفهمه فهماً عقلانيًّا، وهذا مُجمَع على صحته عند فقهاء المسلمين.

ففي القرآن الكريم آيات يجب أن نفهمها بواسطة العقل، كالآية التي تقول: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾(١).

فهل إن أعمى العين في الدنيا يكون أعمى في الآخرة؟.

كلَّا. بل كل من كان قلبه أعمى، فإنه يُحشر أعمى في الآخرة، وهكذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾(٢).

فهل يمكن رؤية الله؟.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٢.

(٢) سورة القيامة، آية: ٢٢-٢٣.

كلَّا. بل إنها ناظرة إلى رحمة ربها. من هنا نعرف أنّ كل المسلمين يؤمنون بالتأويل، بمعنى تفسير القرآن تفسيراً موافقاً للعقل⁽¹⁾.

ولكن لماذا اتُّهمت الحركة الإسماعيلية بالذات بالتأويل؟.

لأنهم كانوا مثلاً يقولون بأن الآية الكريمة: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾⁽²⁾، لها ظاهر هي الصلاة والزكاة المعروفتان، ولها باطن حيث إن المراد من الصلاة التقرُّب إلى إمام المسلمين، والمراد من الزكاة تزكية النفس بإطاعة إمام المسلمين، كما أن المراد من الحج أن يُهاجر الإنسان في سبيل الله بأمر إمام المسلمين.

فكل الشرائع كانوا يُفسِّرونها هكذا.. وكان ذلك ثغرة نفذ من خلالها المعارضون لهم، وأخذوا ينتقدون الإسماعيلية بالتأويل، ويزعمون أنهم لا يؤمنون بالصلاة والصيام والحج، ولكن الواقع أن الإسماعيلية كانت تقول: إن الرجل لا يكفي أن يصلي إذا لم تكن له موالاة، بمعنى أنه لا يكفي أن يكون الرجل ملتزماً بجانب من الدين، ويترك الجانب الآخر، يلتزم بالشعائر ويترك اللباب، فيعتقد بوجوب الصلاة ولكن في الوقت نفسه لا مانع لديه أن يتَّبع هارون الرشيد، أو المتوكل العباسي، أو حكّاماً من هذا النوع، ويقتل الناس، وينهب أموالهم.

فالإسماعيلية كانوا يختلفون في هذا الرأي مع باقي المسلمين⁽³⁾، لأن الإسلام لم يأتِ كقشور، فالصلاة ليست مجرَّد ركعات تُركع، وإنما الصلاة الحقيقية هي التي تُؤدِّي بك لأن تتَّبع الإسلام كله، وكذلك بالنسبة إلى الزكاة والحج.

فالرجل قد يذهب إلى الحج خمسين مرة، ولكنّه في الوقت ذاته يرفض أن يذهب في مهمة دينية لإصلاح وتغيير المجتمع نحو الأفضل، فمثل هذا الحج قد لا ينفعه.

---

(١) انظر: للمؤلف، بحوث تمهيدية، مدخل تفسير (من هدى القرآن)، ج١، وأيضاً: بحوث في القرآن الحكيم.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٣) بحوث في الملل والنحل، ج٨، ص٣٣٦.

إنما الحج الصحيح هو الذي يهيّئ المؤمن لأن يعمل ويسعى في سبيل الله لإقامة شرائعه، وليس الحج مجرَّد الطواف حول الكعبة، فالإنسان إنما كُلِّف بالطواف حول الكعبة حتى يستوحي من الكعبة الطاعة لله، بمعنى إنه يُؤكِّد آنئذٍ أنه قربان لله وليس للأحجار. وتقرّب الفرد إلى الله إنما هو عن طريق العمل بواجباته التي منها التبليغ والجهاد. لماذا نسعى بين الصفا والمروة؟.

إن مفهوم السعي هو الحركة والعمل والنشاط، وكما أنَّ هاجر عليها السلام سعت في سبيل الله، فنحن نسعى أيضاً في سبيل الله. إننا لا نسعى بين الصفا والمروة فقط، كلَّا، بل إنه إعداد نفسي لكي نسعى بعدئذٍ في واجباتنا ووظائفنا الرسالية.

وهذا هو التفسير الصحيح للدين، والإسماعيلية لم تخطئ -في بدايتها- عندما فسَّرت الدين هكذا، ونحن نعترف للإسماعيلية بهذا الأمر، ونقول: إنهم فعلاً حركة باطنية، ولكن إذا قيل: إن الإسماعيلية -في بداية نشأتها- كانت تنفي الواجبات الشرعية والحدود الإلهية، بمعنى أنها لم تكن تعتقد بوجوب الصلاة والزكاة والحج وغيرها من الشعائر والعبادات وتكتفي بإطاعة الإمام، فإننا نرفض ذلك، إذ الإسماعيلية لم تكن هكذا.

وكدليل على ذلك، إن القاضي النعمان بن أبي عبدالله محمد بن منصور بن حيُّون التميمي⁽¹⁾، صاحب كتاب (دعائم الإسلام)، الذي كانت وما زالت الإسماعيلية تعتبر كتابه مصدراً أساسيًّا في الفقه، حتى إن بعضهم سمّى القاضي بالمشرِّع الإسماعيلي، وتزعم الإسماعيلية أنه كان أحد فقهائهم⁽²⁾، ولكن يبدو لي أنه كان اثني عشريًّا حيث ينقل الأحاديث الفقهية إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولا ينزل عنه إلى باقي أئمة الإسماعيلية. بالرغم من أنه كان في مصر إمام الإسماعيلية الثالث عشر وهو المعز لدين الله، بن المنصور، بن القائم بأمر الله، بن عبيد الله المهدي، بن الحسين،

---

(١) من علماء القرن الثالث الهجري توفي سنة ٣٦٣هـ. ودفن بالقاهرة في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

(٢) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج٢، ص١٩١-١٩٩.

بن أحمد، بن عبد الله (أحمد الوفي) بن محمد، بن إسماعيل، بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. ولكنه لا ينقل في كتابه عن هؤلاء السبعة من أئمة الإسماعيلية بعد الإمام الصادق عليه السلام شيئاً، كما أننا نجد فقهه كالفقه الشيعي الاثني عشري⁽¹⁾، إلّا أن مسلك الشيعة الإمامية، في الدولة الفاطمية آنذاك كان إظهار أنفسهم كإسماعيليين.

وفي كتاب (مستدرك وسائل الشيعة) ينقل العلامة المحدث النوري رحمه الله بكثرة من كتاب (دعائم الإسلام)⁽²⁾، وهذا دليل على أن الإسماعيلية لم تكن تعتقد بالباطنية كما يفسرها المؤرخون ذوي العلاقات السلطانية، إذ إنهم كانوا يلتزمون بكل الشعائر الدينية، تماماً كسائر المذاهب الإسلامية، وإنما كانوا يقولون بأن الحدود الشرعية لا تكفي بل يجب أن تقترن بمضامينها الخلقية والاجتماعية.

فإذا استهدفت شعيرة معينة -كالصلاة والصوم والحج والزكاة- حقيقة، فالواجب ألَّا تُترك تلك الحقيقة التي هي الهدف ويُؤخذ بوسيلتها فقط، وهذا لا يعني عدم الاحتفاظ بقدسية العبادة، بل يعني تطبيق الأحكام كلها الظاهر منها والباطن.

ويبقى السؤال: ماذا حقَّقت الإسماعيلية في التاريخ؟.

الذي حقَّقته الإسماعيلية في التاريخ هو:

أنها ومنذ نشأتها في عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وخلافة محمد بن

---

(١) قال العلامة بحر العلوم في فوائده الرجالية: «كان في بدء أمره مالكيًّا، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية، وصنف على طريقة الشيعة كتباً، منها: كتاب (دعائم الإسلام)، وله فيه وفي غيره ردود على فقهاء العامة...». ثم قال قدس سره عن كتابه دعائم الإسلام: «وكتابه (الدعائم) كتاب حسن جيد، يصدّق ما قد قيل فيه، إلّا أنه لم يروِ فيه عمَّن بعد الصادق من الأئمة عليهم السلام، خوفاً من الخلفاء الإسماعيلية، حيث كان قاضيًا منصوبًا من قبلهم بمصر، لكنه قد أبدى -من وراء ستر التقية- حقيقة مذهبه بما لا يخفى على اللبيب». رجال السيد بحر العلوم، ج٤، ص١٤.

(٢) انظر إلى ما كتبه وحققه المحدث النوري، عن المؤلف والكتاب، في خاتمة المستدرك، ج١، ص١٢٨.

إسماعيل من أئمتهم، كوَّنت أقوى حركة في التاريخ الإسلامي، فلم تكن الحركات الإسلامية كالزيدية، والحركات الشيعية الاثني عشرية، وغيرها، من ناحية التنظيم الداخلي ووجود الدعاة الأقوياء المرتبطين ببعضهم، تشبه الحركة الإسماعيلية⁽¹⁾.

فالمرجئة، والمعتزلة، والخوارج، وغيرها من الحركات التي كانت موجودة في البلاد الإسلامية، وكانت جميعها تعمل من أجل إسقاط الأنظمة الفاسدة والوصول إلى السلطة، كانت هذه الحركات تتفاوت فيما بينها في الأخذ بأسباب القوة، ولكن الحركة الإسماعيلية كانت أقواها تنظيماً داخليًّا، كما سبق الحديث حول ذلك.

واستفادت الحركة الإسماعيلية بشكل غريب من الحركات والفرق السنية المتعددة، وذلك عن طريق الحوار والنقاش، حيث كان الداعية الإسماعيلي بمحاورته مع أحد الرؤوس القيادية لتلك الحركة، ودون أن يظهر له عقيدته، تجده وبعد فترة يحوِّل الإسماعيلي هذا القائد إلى الإسماعيلية، بسبب جهوده وعمله الدؤوب وبعلمه ومعرفته، ومن ثم يُوجِّه الحركة نحو الإسماعيلية. وآخرون يفعلون الشيء نفسه، وهكذا... ولأنهم من الناحية التنظيمية كانوا أقوياء، ولأنهم توسّعوا من هنا وهناك، أصبحت حركتهم من كبريات الحركات التاريخية⁽²⁾.

ومن هنا كان أثر الحركة الإسماعيلية في الأمة كبيراً على صعيدين:

الأول: أنها أفادت الأمة الإسلامية في إبقاء الجذوة التي أشعلها الأئمة المعصومون عليهم السلام في الأمة، متّقدة متوهِّجة، وذلك بسبب الحماس الذي بثَّه نشاط الحركة في الأمة.

---

(١) وهذا ما يُؤكِّده الباحث الدكتور محمد كامل حسين في كتابه: (طائفة الإسماعيلية.. تاريخها، نظمها، عقائدها). انظر: ص١٣٠. الفصل السابع (أسرار نظام الإسماعيلية).

(٢) أنظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، الفصل الأول: (الدعوة الإسماعيلية وتنظيماتها السرية). ويقول الدكتور عامر تامر في كتابه الدعوة الإسماعيلية، ج١، ص١٢٤: إن «التنظيم الإسماعيلي كان منعدم النظير في اجتذابه الناس من مختلفي الألوان والاتجاهات..».

الثاني: أن الطغاة العباسيين كانوا يخشون جانب الحركة الإسماعيلية بسبب قوّتها وانتشارها.

إن الحكام الطواغيت لا يعرفون قيمة للضمير أو الوجدان، حيث إنهم يتعاملون مع الناس معاملتهم مع قطيع من الأغنام، وإذا لم يجدوا من يضرب على رؤوسهم بين فترة وأخرى ليُنبِّههم، فإنهم لا يقفون عند حدّ في اتِّباع الشهوات، وهذا يحدث على طول التاريخ، وحدث فعلاً في العالم الإسلامي.

ومن هنا كانت الحركة الإسماعيلية والحركات المشابهة رادعة للحكام من التمادي في غيهم والاسترسال في ظلمهم للناس، وهكذا كان هذا أول وأهم عمل قام به الإسماعيليون (وربما أنشأ الأئمة عليهم السلام الحركة الإسماعيلية لهذه الغاية) إذ لم يكونوا يأملون السيطرة على الحكم، وإنما ليُصبحوا جبهة عسكرية تُعينهم على الاستمرار في التوجيه والقيام برسالتهم الاجتماعية.

وربما نستطيع أن نقول: إن الفائدة الثانية لهذه الحركة هي أنها عملت حتى حكمت بلاداً كثيرة، فبالرغم من أن الحركة الإسماعيلية كانت تكتفي بستة من الأئمة المعصومين، أي إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولكن أَوَليس ذلك أفضل من دولة لا تؤمن أبداً بالأئمة المعصومين عليهم السلام؟.

والدليل على ذلك أن الدولة الفاطمية التي قامت في مصر وبلاد المغرب العربي كانت أفضل من سائر الدول. فمثلاً أنشأت الحكومة الفاطمية -التي كانت تحكم البلاد جيداً، وكانت أحسن حكومات العهد الإسلامي، لأنها كانت فيها نفحة من الروح الرسالية- دار الحكمة، وكذلك الأزهر الشريف، كأول جامعة إسلامية تسودها الحرية الكاملة من الناحية الدينية والمذهبية. وكان جوهر الصقلي، قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي الإسماعيلي هو الذي أمر ببناء الأزهر، وجعله يستوعب كل المذاهب من الشيعة والسُّنة، وكان الناس يأتون الأزهر ليتناقشوا المذاهب الفقهية فيعتقدوا بالطريقة الصحيحة، وهذا من مفاخر

الأمة الإسلامية(١).

وكانت الحكومة الفاطمية تُؤيِّد الحركات الرسالية في العالم الإسلامي على طول الخط، وأشعار الشريف الرضي(٢) دليل على ذلك، حيث يقول:

ما مقامي على الهوان وعندي   مقول صادق وأنف حميُّ
وإباء محلق بي عن الضيم   كما زاغ طائر وحشي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي   وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي   إذا ضامني البعيد القصي
لفَّ عرقي بعرقه سيدا الناس   جميعاً محمد وعلي(٣)

إن الشريف الرضي يفتخر بأبياته هذه بأن هناك حاكماً علويًّا في مصر، فكيف يحمل الضيم في بلاد الخليفة القادر العباسي (بلاد الأعادي).

ولما سمع الخليفة العباسي القادر بالله(٤) هذه الأبيات أرسل إلى والد الشريف الرضي يُعاتبه، وقال له: «قل لولدك: أيُّ هوانٍ قد أقام عليه عندنا، وأيُّ ضيم لقي

---

(١) في صفر سنة ٣٦٢هـ في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي، جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت عليهم السلام، وهو المسمى بكتاب الاختصار في جمع حافل من العلماء والكبراء، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر، ثم توالت حلقات بني النعمان بالأزهر بعد ذلك.. المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢١. وأيضاً: اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٢٧. وللمزيد انظر دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢، ص٣٦٧-٤٠٦، باب الأزهر.

(٢) الرضي ذو الحسبين، أبو الحسن، السيد محمد بن الحسين الموسوي (الشريف الرضي) [٣٥٩هـ-٤٠٦هـ]، ذو فضائل ومكارم ذائعة، أشعر قريش، لأنه جمع ما بين الإكثار والإجادة. ولي نقابة الطالبيين مرارًا، وكانت إليه إمارة الحج والمظالم، كان يتولى ذلك نيابة عن أبيه، ثم تولى ذلك بعد وفاة أبيه مستقلًا وحج بالناس مرات، ومن أشهر شعره وقصائده الحجازيات. عمدة الطالب، ص٢٥٣. أعيان الشيعة، ج٩، ص٢١٦. تعليقة أمل الآمل، ص٢٦٤.

(٣) ديوان الشريف الرضي، ج٢، ص٥٧٦.

(٤) أحمد بن إسحاق بن المقتدر، أبو العباس، [٣٣٦-٤٢٢هـ] الخليفة العباسي، ولي الخلافة سنة ٣٨١هـ، وطالت أيامه. كان حازمًا مطاعًا، هابه من كانت لهم السيطرة على الدولة من الترك والديلم، فأطاعوه، دامت خلافته ٤١ سنة، وتوفي في بغداد. الأعلام، ج١، ص٩٦.

من جهتنا، وأي ذل أصابته في ملكنا؟، ما الذي يعمل معه صاحب مصر؟»(١).

وطلب منه أن يأمره في أن يتراجع ابنه عن هذه الأبيات، التي فضح فيها خطط العباسيين في تشويه نسب الخلفاء الفاطميين(٢)، وأطمعه في تنفيذ جميع مطالب ورغبات الشريف الرضي.

إننا نجد الخليفة العباسي يتعامل مع رموز الرساليين بهذه الصورة، بينما نجد العباسيين من قبل -في عهد هارون الرشيد- يقتلون في ليلة واحدة ستين طالبيًّا، ويُلقون بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام في السجن لسنوات عديدة، فهل أصبح القادر العباسي متديناً، زاهداً، مؤمناً، ورعاً، بينما هارون لم يكن كذلك؟.

كلَّا، فالقضية أن هؤلاء كانوا يخافون من ذلك الحكم القائم بمصر، الذي كان يبث دعاته في كافة البلاد الإسلامية، فخوفاً من ذلك الحكم ومن ميل الناس إليه، كانوا يُعطون الحرية للشريف الرضي، ولخطِّه الفكري المُتحرِّر، ومن هنا نجد أنه يحضر درس الشريف المرتضى عدد هائل من الناس، وعندما تُوفِّي حضر جنازته آلاف المشيعين.

إن قادة الحركة الرسالية وصلوا إلى هذا المستوى من الحرية في عاصمة الخلافة العباسية، لأن الحكم الفاطمي كان يُراقب العباسيين عن كثب، فنتيجة الحكم الفاطمي والحركة الإسماعيلية في التاريخ، أعطى العباسيون الحرية للحركة الرسالية.

---

(١) تعليقة أمل الآمل، ص٢٦٨. أعيان الشيعة، ج٩، ص٢١٨.

(٢) كتب العباسيون سنة ٤٠٢هـ محضراً بأمر القادر العباسي يتضمَّن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر. تاريخ أبي الفداء، ج٢، ص١٤٢. ويقول المقريزي في خططه، ج٢، ص٤٣: «وفي سنة أربع وأربعين كتب ببغداد محاضر بالقدح في نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الانتساب إلى علي بن أبي طالب، وسُيّرت إلى الآفاق».

صفو الكلام

* تميزت الحركة الإسماعيلية بالتنظيم الدقيق، والكتمان والسرية في العمل، والروح الفدائية والتضحوية المستلهمة من بطولات كربلاء.

* تدل الشواهد التاريخية على سلامة الحركة الإسماعيلية في بدايتها، وأنها ارتبطت بأشكال مختلفة بأئمة أهل البيت عليهم السلام، رغم أنها انحرفت فيما بعد كالعديد من فئات الموالين الذين انحرفوا عن الخط الرسالي الصحيح الذي رسمه لهم الأئمة المعصومون عليهم السلام.

* وهكذا كانت الحركة الإسماعيلية مظلّة حماية للحركة الرسالية، حيث كانت سيوفهم ترهب العباسيين فيخففون الضغوط على الأئمة الذين كانوا ينشرون الأفكار الرسالية ويوجهون الأمة.

* ولذلك تعرّضت الحركة لحملة تشويهية طالت أفكارها ومعتقداتها، من قبل العباسيين، حيث اتهموهم بالباطنية (بمعناها السلبي) كما طعنوا في نسبهم العلوي لفصلهم عن جماهير الموالين لأهل البيت عليهم السلام.

* وكان أثر الحركة الإسماعيلية أنها ساعدت على إبقاء الجذوة التي أشعلها الأئمة المعصومون عليهم السلام في الأمة متّقدة متوهّجة، كما أنها كانت رادعة للحكام الجائرين من التمادي في غيهم والاسترسال في ظلمهم للناس.

البابُ الرابع: مسيرةُ الحركةِ الرِّساليّةِ في العهدِ العبّاسيّ

الفَصلُ الثّاني: الحركةُ الرِّساليّةُ في عهدِ الإمامِ الرِّضا عليه السلام

سِيرةُ الإمامِ الرِّضا عليه السلام ودورُهُ في الحركةِ الرِّساليّة
دورُ الإمامِ الرِّضا عليه السلام السِّياسيّ والثّقافيّ في الأُمّة

سيرة الإمام الرضا عليه السلام ودوره في الحركة الرسالية

تنامي الحركة الرسالية

حينما قُتِل الإمام الحسين عليه السلام تحوَّلت الحركة الرسالية إلى حركة جماهيرية تلتزم بها أوسع الجماهير، وكان الخط الرسالي ينمو ويترعرع، يُغذِّيه ويُوجِّهه جهاد الأئمة المعصومين والصفوة من الرساليين في الأمة، الإمام علي بن الحسين، والإمام محمد بن علي، والإمام جعفر بن محمد، ومن ثم الإمام موسى بن جعفر عليهم السلام. وفي عهد الإمام الرضا عليه السلام كانت الحركة الرسالية في عنفوان شبابها.

وهذا يعني أن الحركة الرسالية مرّت بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: ما قبل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

المرحلة الثانية: تنتهي بوفاة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مسجونًا في بغداد.

المرحلة الثالثة: تبدأ بعهد الإمام الرضا عليه السلام.

الحركة الرسالية حركة متنامية

بعد غيبة الإمام الثاني عشر عجل الله فرجه تواصل نمو الحركة وانتشارها حتى اكتملت وأصبحت ناضجة. وهذا التفسير قد لا يُعجب الكثير من المؤرخين، وخصوصاً المؤرخين الذين تعوّدوا أن ينظروا إلى التاريخ بمنظار أسود، ويُفسِّروه تفسيراً منكوساً، يبدأ من الأخير وينتهي بالأول. حيث يعتقدون أن الأمة الإسلامية بعد

أن كانت أمة حميدة رشيدة في أيام الرسول، انتكست في أيام الإمام علي عليه السلام، ثم ازدادت انتكاساً أيام الإمام الحسين عليه السلام، وفي أيام الإمام الرضا عليه السلام كانت الأمة قد وصلت إلى الدرك الأسفل.

لا يُمكن التسليم بهذه الفكرة التي تصف حركة الرسالة والمسيرة التاريخية للمسلمين بكونها حركة متراجعة، في حين أن المسار الطبيعي للرسالات هو النمو والتكامل والنضج المتواصل في كل مراحل التاريخ، فالذي يبحث عن قيم الإسلام عند الحكومات التي حكمت البلاد الإسلامية لا يرى في الإسلام إلَّا تراجعاً واضحاً وانحداراً إلى الهاوية، وهذه النظرة تغفل عن الخط الرسالي المعارض الذي كانت تتكامل بجهاده القيم الأصيلة والوعي الحقيقي بمضامين الرسالة. فكل رسالات السماء كانت في حالة تصاعد ونمو، رسالة نبينا نوح، ثم إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، ورسالة نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولدت وتصاعدت بعد الرسول بأيدي الأئمة المعصومين عليهم السلام. ولا تزال تتصاعد وتتصاعد إلى أن يأتي الإمام الحجة عليه السلام فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً.

حياة الإمام الرضا عليه السلام فاتحة عهد جديد

والآن لنحاول التعرُّف إلى حياة الإمام الرضا عليه السلام وسماتها وأبرز مميزاتها. تلك الحياة التي لا تُشبه حياة والده الذي قضاها من سجن إلى سجن، بل كانت حياة مختلفة جديدة تتمتَّع بنوع من الانفراج والحرية، وكذلك كانت حياة أبنائه الإمام الجواد، والإمام علي بن محمد الهادي، والإمام الحسن العسكري عليهم السلام، وقد رُوي عنه عليه السلام أنه كان يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي حَفِظَ مِنَّا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ، وَرَفَعَ مِنَّا مَا وَضَعُوهُ، حَتَّى قَدْ لُعِنَّا عَلَى مَنَابِرِ الْكُفْرِ ثَمَانِينَ عَامًا، وَكُتِمَتْ فَضَائِلُنَا وَبُذِلَتِ الْأَمْوَالُ فِي الْكَذِبِ عَلَيْنَا، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْبَى لَنَا إِلَّا أَنْ يُعْلِيَ ذِكْرَنَا، وَيُبَيِّنَ فَضْلَنَا، وَاللهِ مَا هَذَا بِنَا وَإِنَّمَا هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَرَابَتِنَا مِنْهُ، حَتَّى صَارَ أَمْرُنَا وَمَا نَرْوِي عَنْهُ صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ وَدَلَالَاتِ نُبُوَّتِهِ**»(١).

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٤٢.

إن التمعُّن جيداً في هذه الرواية يُوضِّح لنا حالة التصاعد التي كانت تمر بها الحركة.. ولكن كيف أصبحت كذلك؟.

من الناحية السياسية تميَّز عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بعهد بناء أسس النهضة الرسالية، وقد سبق وأن تحدثنا عن طريقة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام التي كانت متمثلة في رفع مستوى الأمة، والنهوض بوعيها، ودفعها إلى التضحية والجهاد لتصل إلى مستوى يُمكّنها من استلام الحكم.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يستطيع -إذا ضحّى ببعض مبادئه وقيمه- أن يكون هو الحاكم، ولكن حاشاه ذلك، وإنما أراد هدفاً رساليًّا، وأراد أن تكون الوسيلة لذلك الهدف من النوع نفسه، فيكون هدفه ووسيلته كلاهما من نوع رسالي، مشبع بالقيم والطرق الصحيحة.

لذلك ضحَّى بنفسه، ولذلك بقي في السجن، ولذلك استُشْهِد عليه السلام. وأنا شخصيًّا لا أتّفق مع الذين يتَّخذون من مأساة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مادة للحزن والبكاء فقط، ولا يذهبون أبعد من ذلك ليروا الحقيقة، وهي: أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كان كالإمام الحسين عليه السلام فكلاهما قُتِلا، وكلاهما استُشهِدا. أحدهما اغتيل بالسم وهو في غياهب السجون، والآخر قتل بالسيف.

ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام مجرَّد مظلوم يستشهد، وإنما استطاع بشهادته أن يسقط الحكم الأموي. وكذلك الإمام موسى بن جعفر عليه السلام استُشهِد مسموماً في سجن بغداد، ولكن باستشهاده استطاع فرض نفسه والأئمة من بعده (وهم السلطة الشرعية) على السلطات الحاكمة.

فتجد المأمون العباسي مثلاً، وهو أذكى الخلفاء العباسيين، يصف الإمام علي عليه السلام في روايته الملحمية فيقول: «يُؤَمَّرُ عَلَى الْجَمِيعِ وَلَا يُؤَمَّرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أَشَدُّ النَّاسِ وَطْأَةً عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَأَعْظَمُهُمْ جِهَادًا فِي الله، وَأَفْقَهُهُمْ فِي دِينِ الله، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، وَأَعْرَفُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْوَلَايَةِ فِي حَدِيثِ غَدِيرِ خُمٍّ،

وَصَاحِبُ قَوْلِهِ: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَصَاحِبُ يَوْمِ الطَّائِفِ، وَكَانَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ..»(١).

المأمون رجل السلطة والحكم، الذي لا يهمه دين ولا قيم، ولكنه يبعث رسالة إلى الإمام علي بن موسى الرضا، وهو في المدينة، ويأتي به إلى حاضرة ملكه (خراسان) ويطلب منه بعد ذلك أن يتولَّى الحكم بدلاً منه؟.

جاء في رواية أن أول عمل قام به المأمون العباسي أنه قال للإمام عليه السلام: «يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَدْ عَرَفْتُ فَضْلَكَ وَعِلْمَكَ وَزُهْدَكَ وَوَرَعَكَ وَعِبَادَتَكَ، وَأَرَاكَ أَحَقَّ بِالْخِلَافَةِ مِنِّي.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **بِالْعُبُودِيَّةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أَفْتَخِرُ، وَبِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا أَرْجُو النَّجَاةَ مِنْ شَرِّ الدُّنْيَا، وَبِالْوَرَعِ عَنِ الْمَحَارِمِ أَرْجُو الْفَوْزَ بِالْمَغَانِمِ، وَبِالتَّوَاضُعِ فِي الدُّنْيَا أَرْجُو الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.**

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَعْزِلَ نَفْسِي عَنِ الْخِلَافَةِ وَأَجْعَلَهَا لَكَ وَأُبَايِعَكَ.

فَقَالَ لَهُ الرِّضَا عليه السلام: **إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْخِلَافَةُ لَكَ وَجَعَلَهَا اللهُ لَكَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَخْلَعَ لِبَاسًا أَلْبَسَكَهُ اللهُ وَتَجْعَلَهُ لِغَيْرِكَ، وَإِنْ كَانَتِ الْخِلَافَةُ لَيْسَتْ لَكَ فَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَجْعَلَ لِي مَا لَيْسَ لَكَ..**»(٢).

ومعنى ذلك أن الخلافة مسؤولية واجبة وليست حقًّا يتنازل عنه الفرد، فمن حق الإنسان أن يتنازل عن ماله ومغنمه، بينما الخلافة ليست مكسباً ولا مغنماً.

ولكن يبقى سؤال: كيف أصبح الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بهذه القوة السياسية حتى يتنازل المأمون العباسي عن الخلافة له؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص٢١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٢٨.

لقد أضحى الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام القائد الفعلي للأمة، فالأمة الإسلامية الممتدة من المغرب العربي غرباً وإلى حدود الصين شرقاً، كانت تخضع للإمام عليه السلام وتعتقد بأنه الإمام الحقيقي.

ولم يصل الإمام إلى هذا المستوى بين عشية وضحاها، إنما كان ذلك بجهاد الأئمة المعصومين عليهم السلام، وحركتهم، ومنهجهم الذي نشروه في الآفاق، والذي ربّى الأجيال، ورفع مستوى الوعي عند الناس لتحمل مسؤوليتهم، وللدفاع عن القيم الرسالية، والتضحية بكل غالٍ ونفيس، كل ذلك هو الذي جعل الإمام بتلك الدرجة من القوة.

ولقد حاول المأمون العباسي أن يستغل قوة الإمام الرضا لصالحه، وذلك بالمساومة معه، وربما الدخول معه في ائتلاف. ويعتقد البعض بأن المأمون كان شيعي المذهب⁽¹⁾، وأنه تشيَّع بعد أن شاهد والده هارون الرشيد يقوم باحترام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في المدينة المنورة، ويأمر بنيه بالوقوف لخدمة الإمام: «يَا عَبْدَ الله وَيَا مُحَمَّدُ وَيَا إِبْرَاهِيمُ بَيْنَ يَدِي عَمِّكُمْ وَسَيِّدُكُمْ خُذُوا بِركَابِهِ وَسَوُّوا عَلَيْهِ ثِيَابَهُ وَشَيِّعُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ..». وكذلك بسبب أن الإمام الكاظم عليه السلام كان قد بشّره بالخلافة: «إِذَا مَلَكْتَ هَذَا الْأَمْرَ فَأَحْسِنْ إِلَى وُلْدِي..».

ثم إن المأمون يسأل أباه بعد أن خلا بهما ذلك المجلس، يقول المأمون: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ عَظَّمْتَهُ وَأَجْلَلْتَهُ، وَقُمْتَ مِنْ مَجْلِسِكَ إِلَيْهِ فَاسْتَقْبَلْتَهُ وَأَقْعَدْتَهُ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ وَجَلَسْتَ دُونَهُ، ثُمَّ أَمَرْتَنَا بِأَخْذِ الرِّكَابِ لَهُ؟.

قَالَ: هَذَا إِمَامُ النَّاسِ وَحُجَّةُ الله عَلَى خَلْقِهِ، وَخَلِيفَتُهُ عَلَى عِبَادِهِ.

فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوَلَيْسَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا لَكَ وَفِيكَ؟.

فَقَالَ: أَنَا إِمَامُ الْجَمَاعَةِ فِي الظَّاهِرِ بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ، وَمُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ إِمَامُ حَقٍّ،

---

(١) ذهب إلى هذا الرأي المؤرخ السيد حسن الأمين، طالع كتابه: (الرضا عليه السلام والمأمون وولاية العهد)، فصل: ولاية العهد بين العباسيين والعلويين.

وَالله يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَأَحَقُّ بِمَقَامِ رَسُولِ الله ﷺ مِنِّي وَمِنَ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَوَالله لَوْ نَازَعْتَنِي هَذَا الْأَمْرَ لَأَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ، فَإِنَّ الْمُلْكَ عَقِيمٌ..»(١).

فالمأمون العباسي ومنذ ذلك اليوم -حسب ما يقوله هو- أصبح شيعيًّا، ولكني أرى أن السبب في محاولة المأمون تقليد الرضا الخلافة ليس هو تشيعه، وإنما بسبب فرض الحركة الرسالية نفسها على الواقع، بشكل لا يمكن تجاوزها.

إن نظرة خاطفة إلى عهد هارون العباسي لاستقراء بعض التفاصيل في عهد المأمون، كفيلة بإعطائنا صورة عن المرحلة الثالثة من حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام وعن الحركة الرسالية. روي عن صفوان بن يحيى قال: «لَمَّا مَضَى أَبُوالْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام وَتَكَلَّمَ الرِّضَا عليه السلام خِفْنَا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ أَظْهَرْتَ أَمْرًا عَظِيمًا وَإِنَّمَا نَخَافُ عَلَيْكَ هَذَا الطَّاغِيَ (يعني هارون).

فَقَالَ عليه السلام: **لِيَجْهَدْ جَهْدَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيَّ.**

قَالَ صَفْوَانُ: فَأَخْبَرَنَا الثِّقَةُ أَنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ قَالَ لِلطَّاغِي: هَذَا عَلِيٌّ ابْنُهُ قَدْ قَعَدَ وَادَّعَى الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ!.

فَقَالَ: مَا يَكْفِينَا مَا صَنَعْنَا بِأَبِيهِ تُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّهُمْ جَمِيعاً»(٢).

وعن موسى بن مهران قال: «سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى، يَقُولُ: سَمِعْتُ عِيسَى بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ لِهَارُونَ -حَيْثُ تَوَجَّهَ مِنَ الرَّقَّةِ إِلَى مَكَّةَ-: اذْكُرْ يَمِينَكَ الَّتِي حَلَفْتَ بِهَا فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّكَ حَلَفْتَ إِنِ ادَّعَى أَحَدٌ بَعْدَ مُوسَى الْإِمَامَةَ ضَرَبْتَ عُنُقَهُ صَبْراً، وَهَذَا عَلِيٌّ ابْنُهُ يَدَّعِي هَذَا الْأَمْرَ، وَيُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي أَبِيهِ؟!.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ مُغْضَبًا فَقَالَ: وَمَا تَرَى تُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَهُمْ كُلَّهُمْ؟!.

قَالَ مُوسَى: فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ صِرْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٣١.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١١٣.

فَقَالَ عليه السلام: **مَا لِي وَلَهُمْ، وَالله لَا يَقْدِرُونَ إِلَيَّ عَلَى شَيْءٍ**»(١).

وعن أبي الصَّلت الهرويِّ قال: «كَانَ الرِّضَا عليه السلام ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا فِي مَنْزِلِهِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ هَارُونَ الرَّشِيدِ فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَامَ عليه السلام فَقَالَ لِي: **يَا أَبَا الصَّلْتِ، إِنَّهُ لَا يَدْعُونِي فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا لِدَاهِيَةٍ، فَوَالله لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ بِي شَيْئًا أَكْرَهُهُ لِكَلِمَاتٍ وَقَعَتْ إِلَيَّ مِنْ جَدِّي رَسُولِ الله** صلى الله عليه وآله.

قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الرِّضَا عليه السلام قَرَأَ هَذَا الْحِرْزَ(٢). فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ هَارُونُ الرَّشِيدُ، وَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَاكْتُبْ حَوَائِجَ أَهْلِكَ.

فَلَمَّا وَلَّى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عليه السلام وَهَارُونُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي قَفَاهُ قَالَ: **أَرَدْتَ وَأَرَادَ اللهُ، وَمَا أَرَادَ اللهُ خَيْرٌ**»(٣).

هذه الروايات وغيرها تُشكِّل صورة عن الوضع بين المعارضة والسلطة العباسية، وبربط الأحداث السابقة باللاحقة، نرى أن الذي ذكرناه في حياة الإمام الكاظم عليه السلام كان عملية مخاض ولدت هذا الوضع الجديد الذي بدوره استمر في تطوُّره إلى عهد المأمون. ويُمكننا أن نجمع العوامل المساعدة بما يلي:

أولاً: قوة المعارضة

فالمعارضة بدأت تشتد وتأخذ مواقع القوة في مواجهتها مع السلطة، فبمطالعتنا ملف الأحداث نقرأ عن ثورة أبي السرايا، (السري بن منصور(٤)) التي

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١١٣.

(٢) راجع: مُهج الدعوات، ص٣٣.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١١٦.

(٤) سري بن منصور الشيباني، كان رجلاً شجاعًا قوي القلب بصيرًا في أمور الحرب، خرج سنة ١٩٩هـ بالكوفة. وكان مفجر ثورته وقائدها محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا. طالع: تتمة المنتهى، ص٢٦٨.

كان يقودها محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن طباطبا بن إبراهيم بن الحسن بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، والتي كانت في سنة ١٩٦هـ، حيث امتد نفوذ سلطتها على الكوفة وواسط والبصرة والأهواز والحجاز واليمن، وسنُفصِّل الحديث حولها فيما بعد.

وأيضاً نقرأ عن محمد⁽¹⁾ بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ونهوض عبدالرحمن بن عبدالله العلوي⁽²⁾ في سنة ٢٠٧هـ، وقيام علي بن عبدالله بن خالد المعروف بالسفياني في الشام⁽³⁾.

ولقد كانت ثورة أبي السرايا هي الأشد وطأة على النظام العباسي، حيث تداعت معظم قوته للقضاء عليها، وتجزَّأت بعد ذلك إلى عدة جبهات في مواجهة السلطة، فصارت جبهة في اليمن يقودها إبراهيم بن موسى الكاظم عليه السلام ، وزيد بن موسى الكاظم عليه السلام في جبهة الأهواز، ومحمد بن جعفر الصادق عليه السلام في جبهة مكة، وهكذا..⁽⁴⁾.

---

(١) الملقب بالديباج لحسنه وجماله وبهائه وكماله، رجل سخي كان يذبح في كل يوم خروفًا لضيفانه، وشجاع قوي القلب عابد صوام. طالع: تتمة المنتهى، ص٢٧٤. المنتظم، ج١٠، ص١٢٠.

(٢) ابن محمد بن عمر بن الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام، من الدعاة إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله، وكان خروجه في عكّ من بلاد اليمن، وسببه أن عمّال اليمن أساؤوا السيرة فى الناس. طالع: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٤. تاريخ الإسلام، ج١٤، ص٢٢. تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٥٩٣. المنتظم، ج١٠، ص١٦٠. البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٥٩.

(٣) من بقايا بني أمية، انتهز فرصة الخلاف بين الأمين والمأمون، فعمل على طرد عامل الأمين على دمشق، وامتلكها فبايعه الناس بالخلافة، وهو ابن تسعين سنة. ناصره بعض بقايا الأمويين، وخذله ما بقي من بني مروان، وقاتله أنصار بني العباس، والقيسية المناصرة للأمين، فنهب دورهم وأحرقها، واشتد على من رفض بيعته، فأرسل الأمين لقتاله جيشًا لكنه لم يصل الشام. حيث قبض على السفياني مسلمة بن يعقوب فبايعه رؤساء بني أمية، واستولى على الشام وأقام الدعوة للمأمون، ومنها مات السفياني. طالع: البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٧٧. تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٤١٥. شذرات الذهب، ج٢، ص٤٤٥. المنتظم، ج١٠، ص١٤.

(٤) ووثب بالمدينة محمد بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي، ووثب بالبصرة العباس بن محمد وتعاون معه علي بن جعفر، وزيد بن موسى بن جعفر، فغلبوا على البصرة. طالع: تتمة المنتهى، ص٢٧٢.

هـذا هـو وضع المعارضة ذات الشـكل العسـكري العلني، أما عن أشـكالها الأخـرى ففـي الجهـاز الإداري كان الفضـل بن سـهل وزيـر المأمـون الملقب بذي الرياستين⁽¹⁾، والفضل بن الربيع الوزير الأخير لهارون، ومن ثم لابنه محمد الأمين، وأبو الصلت الهروي الذي كان بمثابة مستشار المأمون، ومثله الريان بن الصلت⁽²⁾ -أيضاً- كانوا يشكلون دعائم قوية للمعارضة. وأما في الجهاز العسكري فالقائدان المشـهوران هرثمة بن أعين⁽³⁾، وطاهر بن الحسـين الخزاعي، كانا يعتقدان بالتشيع، وربـما كان طاهر بن الحسـين أكثـر ولاءً لعقيدتـه⁽⁴⁾، إلّا أنهما كانا يرتئيان أسـلوب الضغط السـياسي البطيء على السـلطة لكـي تتحوَّل إلى مسـارها الشرعي بخلافة الأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولكـن من جانـب آخر كانت السـلطة تُطوِّعهـما بالأعطيـات، وتوليهما على الأمصـار، فمثـلاً: هرثمـة بن أعـين كان رافضـاً محاربـة أبي السرايـا، إلّا أن كتاب المنصور بن المهدي كان معسولاً لدرجة أنه أبكى هرثمة هذا⁽⁵⁾، وبجانب ذلك كله دافع الشهرة والسلطة الذي كان في نفسه.

أما طاهر بن الحسـين فإنه بعد انتصاراته في حروبه، وُلّي هرات⁽⁶⁾ لكي يكون

---

(١) سمّي بذي الرياستين لأنه كان صاحب الوزارة، ووزارة الجند.

(٢) الأشعري القمي، الثقة، الصدوق، روى عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وله كتاب جمع فيه من حديث الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الفرق بين الآل والأمة. رجال النجاشي، ص١٦٥.

(٣) أبو حبيب، كان من خدم المأمون ومواليًا للرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، روى الصدوق بإسناده عن هرثمة في خبر الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ لهرثمة في سمّه من المأمون، كما في عيون أخبار الرضا، ج٢، باب ما حدث به أبو حبيب هرثمة بن أعين من ذكر وفاة الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ. منتهى الآمال، ج٢، ص٣٩٥. وراجع معجم رجال الحديث، ج١٩، ص٢٥٦ ما قاله المحقق الخوئي في وثاقة الخادم.

(٤) عرف بذي اليمينين، أحد وزراء المأمون والمجاهدين في تثبيت دولته. مستدركات علم رجال الحديث، ج٤، ص٢٨٩.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٥٣١-٥٣٣. مقاتل الطالبيين، ص٤٤٤. تتمة المنتهى، ص٢٧٣.

(٦) تأسست دولة الطاهريين في خراسان بعد شهادة الإمام الرضا بسنتين، واستمرت حتى عام ٢٥٩هـ، وكانت الدولة العباسية في أوج قوتها وسلطتها، أي زمن حكم المأمون -بعد شهادة الإمام الرضا- وحتى حكم المعتصم. طالع: الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٦١ وما بعدها.

بعيداً عن الساحة، وكان المأمون يخشاه، وكانت سلالة طاهر بن الحسين الخزاعي كلها تتشيع، حتى إن سليمان بن عبد الله الطاهري عندما حارب الحسن بن زيد(١) الناهض بطبرستان: «تأثم سليمان من قتاله، لشدّته في التشيّع»، حسب ما يقول ابن الأثير(٢)، وقد كان لطاهر حرم ببغداد يأمن من دخله، وقد دُعيَ طاهر بن الحسين لقتال أبي السرايا فكتب:

قناع الشك يكشف اليقين وأفضل كيدك الرأي الرصين
تثبت قبل ان ينفذ فيك أمر يهيج لشره داء اليقين
اتندب طاهراً لقتال قوم بنصرتهم وطاعتهم يدين(٣)

وإن ما كان عليه طاهر من المكانة في السلطة العباسية يُفسِّر كيف أن دعبل الخزاعي شاعر أهل البيت كان يقول الأشعار علانية يخاطب المأمون بقوله:

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرّفتك بمقصد(٤)

وهذا يُعبِّر عن مدى قوة نفوذ التشيع في الجهاز العباسي الحاكم.

ثانياً: شخصية الإمام الرضا عليه السلام

والعامل الآخر والأهم هو شخصية الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام التي كانت الجماهير تندفع بقلوبها إليه، حتى إن المأمون في حاضرة ملكه كان ولمرات عدة يستنقذ الموقف الذي كان يُهدِّد بإسقاطه، فكان الناس يُغشى عليهم من البكاء عندما يرون الإمام، حدث هذا كثيراً في طريق ذهاب الإمام الرضا إلى خراسان

---

(١) ابن محمد بن إسماعيل الحسني العلويّ [ت: ٢٧٠هـ]، كان حازمًا مهيبًا، مرهوب الجانب، فاضل السيرة، حسن التدبير، مؤسس الدولة العلوية في طبرستان. دامت إمرته مدة عشرين عامًا، كانت كلها حروبًا ومعارك. أخرج في خلالها من طبرستان وعاد إليها. وتُوفي بها. الأعلام، ج٢، ص١٩١.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٧، ص١٣٢.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص٤٣٦. أعيان الشيعة، ج١، ص١٩١.

(٤) تاريخ الإسلام، ج١٨، ص٢٦٣. الفخري، ص٢٦. أعيان الشيعة، ج١، ص١٩١.

والذي استغرق مسيره عدة شهور⁽¹⁾، عندما استدعاه المأمون.

كل ذلك مع ما كان لشخصية الإمام عليه السلام من المستوى العلمي الذي ظل منهلاً دائماً للأمة، وحجة في وجه التيارات الفكرية القديمة والناشئة، كاليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والبراهمة، والملحدين، والدهرية، وغيرهم من أنواع الزنادقة. والحق يشهد بما كان للإمام الرضا عليه السلام من دور في رد أباطيل وخداع هذه الفلسفات والعقائد المزيفة⁽²⁾، ومن هنا نستطيع أن نفسر كيف أن أغلب الأحاديث والنصوص الواردة عن الإمام الثامن الرضا عليه السلام كانت في التوحيد وبقية مباني العقائد، حتى إنه اشتهر أن من يحاجج تلامذة الإمام عليه السلام، فلابد أن يخسأ راجعاً عن قوله. ولم تكن البدع التي ظهرت في زمان الإمام عليه السلام بالهيّنة، فنرى أن رجلاً يدَّعي النبوة، وآخر يدَّعي أنه إبراهيم الخليل⁽³⁾، وعلى هذا المعدل.

وظاهرة أخرى: أن الأمة كانت تعيش حالة الانحلال الخلقي، وكان ذلك ناشئاً من تيار النظام الفاسد، حيث كان يشق في أرض الجماهير الواسعة روافده الملوثة، وسوف نستعرض فيما بعد مظاهر هذا الانحلال، حيث كان الإمام الرضا عليه السلام في المقابل يغذي عطش الأمة الروحي، لأنها تعرفه قطباً روحيًّا تنجذب إليه بسبب زهده وعبادته وتقواه وغيرها من الصفات الإيمانية.

فلا زالت الأمة ترتع الخصب من ربيع هذا البيت الذي طهر الله أهله من الرجس، وتنهل من مشرعته وتستقي من سائغ نميره.

ثالثاً: تهالك السلطة

والعامل الثالث لظهور المرحلة الثالثة هذه وتطوُّرها، وعلى الخصوص

---

(1) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٨٢-١٨٤.

(2) طالع مثلًا: ما رواه الطبرسي عن مناظرات الإمام واحتجاجاته في كتابه القيم: الاحتجاج، ج٢، ص٣٩٦.

(3) مروج الذهب، ج٣، ص٤٣٧-٤٣٨.

الجانب السياسي منها، هو استمرار تهالك السلطة أمام المعارضة مع ضرب النظام نفسه من الداخل. فبعد هارون العباسي عرفنا ما وقع بين الأمين والمأمون من حروبهم، ثم جاء عمهم إبراهيم⁽¹⁾ (١٤ يوماً)، ثم رجع الأمين من بعد عمه فحكم (سنة و٦ أشهر و٢٢ يوماً)، ونُصِب إبراهيم ثانياً، حتى جاء المأمون إلى بغداد فعادت إليه الخلافة⁽²⁾.

هذا من حيث الصراع بين أقطاب النظام.

أما بالنسبة للوزراء فإن الخليفة العباسي عندما يظن أن وزيراً أو قائداً عسكريًّا قد تشيَّع، فإن مسألة ضرب عنقه هي أمر محتوم، كما رأينا تصفية الفضل بن سهل ذي الرياستين من قبل المأمون⁽³⁾، وتصفية هرثمة بن أعين القائد الذي طالما جلب الانتصارات للسلطة العباسية والذي بقتله ثار غضب رجال الجيش⁽⁴⁾.

رابعاً: الظلم المتزايد

أما العامل الرابع فتجسَّد في المظالم الكثيرة، فقد رأينا ثورة أهل خراسان على والي الرشيد (ابن ماهان⁽⁵⁾)، فقد بات أمراً طبيعيًّا أن تسمع بين حين وآخر قيام

---

(١) إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور، العباسي [١٦٢-٢٢٤هـ]، أبو إسحاق، ويقال له: ابن شكلة، أمه جارية سوداء نسبه إليها خصومه. أخو هارون الرشيد. ولد ونشأ في بغداد، وولَّاه الرشيد إمرة دمشق، ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين. مات في سر من رأى. الأعلام، ج١، ص٦٠. أنساب الأشراف، ج٤، ص٢٧٨. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٥٠.

(٢) طالع: التنبيه والإشراف، ص٣٠٣، وما بعدها.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص٤٤١. الإنباء، ص٩٩. البدء والتاريخ، ج٦، ص١١١. تجارب الأمم، ج٤، ص١٣٩.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٥٤٢. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٠٦. تاريخ الإسلام، ج١٣، ص٨٠.

(٥) علي بن عيسى بن ماهان [ت: ١٩٥هـ]، من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين. وللوقوف على شيء من تفاصيل قيام أهل خراسان عليه، طالع: الأخبار الطوال، ص٣٩١. الفتوح، ج٨، ص٣٩٦.

مصر من الأمصار على واليهم، كما شاعت حالات التكفُّف والاستجداء، وعمليات الإرهاب التي يفرضها العسكر.

خامساً: ضعف السلطة المركزية

إنّ ضعف السلطة المركزية على الولايات جعل الحكم العباسي يُولي جل اهتمامه للعسكر الذي له ضريبته المالية والنفسية، ولم تكن كأيّة ضريبة أخرى، ونستطيع وصف السلطة العباسية بأنها كانت في مقر الخلافة، أما في الأمصار فقد كان الأمر بيد الولاة، وكان الذي يحافظ على الاتصال بين عاصمة الحكم والولاة هو الجيش لا غير، وكان كل والٍ له مركز شرطة لا يقوى على الوقوف أمام نهوض شعبي إذا ما قام. ولذلك نرى أن المأمون لما ولّى محمد الزيادي(١) سنة ٢٠٢هـ بلاد تهامة أرسل معه جيشاً لكي يُعيد سلطة العباسيين عليها، إلَّا أن محمداً سرعان ما كوّن بهذا الجيش الذي لديه دولة مستقلة، وهي دولة الزيادية في اليمن(٢).

لقد كان الترابط العضوي بين الرأس وباقي الأعضاء في الحكم العباسي على وشك الانحلال والتمزُّق، والذي بقي كرابط وحيد هو الجيش فقط، وذلك لضمان وصول الأموال إلى مقر الخلافة، حتى إنه في حادثة خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد، قام بمشورة أفراده وأركان النظام الذين لا بد من موافقتهم، فقال له هرثمة بن حازم: «يا أمير المؤمنين، لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تُجرِّئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك»(٣).

وهذا يدل على أن قواد الجيش كانوا هم السلطة الحقيقية بعد الخليفة.

---

(١) محمد بن عبدالله زياد [ت: ٢٤٥هـ] (الزيادي)، أول من ولي اليمن من آل زياد. الأعلام، ج٦، ص٢٢٢.

(٢) وذلك على أثر ثورة قامت بها قبيلتا الأشاعرة وعك ضد المأمون بصنعاء. تأسست الدولة سنة ٢٠٢هـ وقامت حتى عام ٤١٢هـ. للاستزادة طالع كتاب: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص٣٨٩. تاريخ الإسلام، ج١٣، ص٢١.

سادساً: انحطاط النظام

أما العامل السادس فكان تفشِّي الصفات السيئة والانحطاطية في النظام، الذي كان بدوره يُشيعها في الناس، كالرشوة والغدر وبيع الضمائر وإلى آخر أمثال هذه الصفات. وعلى سبيل المثال لا الحصر: إن جعفر بن يحيى، وهو أحد الوزراء المعتمدين في الخلافة العباسية، كان يجلس للشراب ويخلو بندمائه الذين يأنس إليهم، ثم يهيّئ المجلس، ويلبسون الثياب المصبوغة، ويغرقون في الفواحش، حتى أنه مرة جاء عبد الملك بن صالح بن علي العباسي إلى هذا المجلس، وكان شديد الوقار والحشمة في البيت العباسي، فلما رآه جعفر بن يحيى استحى، إلّا أن عبدالملك بادره قائلاً: «لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً، وأُحضر له قميص مصبوغ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه. وقال: اسقونا من شرابكم. فسقوه رطلًا، وقال: ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا. ثمّ باسطهم ومازحهم..»⁽¹⁾.

هذه إحدى القصص التي يوجد المئات من أمثالها في كتب التاريخ.

سابعاً: الدويلات المستقلة

والعامل الأخير هو وجود الدويلات المستقلة عن السلطة العباسية كالأدارسة والأغالبة. فوجود مثل هذه الدول كان دليل الضعف المستشري في الدولة العباسية.

لهذه الأسباب نعرف أن الضغط الجماهيري الذي كان يطالب بالخلاص من القيادة الفاسدة الحاكمة باسم الدين، وإعادة الخلافة إلى مجراها الشرعي المتمثل في الإمام الرضا عليه السلام كان قويًّا. حتى إن المأمون بعد تقليده العهد للإمام عليه السلام طلب منه أن يركب ويحضر العيد حيث قال المأمون: «إِنَّمَا أُرِيدُ بِهَذَا أَنْ يَرْسُخَ فِي

---

(1) الفخري، ص٢٠٥.

قُلُـوبِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ وَالشَّـاكِرِيَّةِ هَذَا الْأَمْرُ، فَتَطْمَئِـنَّ قُلُوبُهُـمْ وَيُقِرُّوا بِمَا فَضَّلَكَ اللهُ تَعَالَى بِهِ»(١).

وقـد قلنا فيما سـبق: إنه في أيـام المأمون كانت هناك دولة تابعة للرسـاليين في المغرب وهي دولة الأدارسـة، وكذلك كانت في الحجاز دولة بقيادة محمد بن جعفر الصادق عليه السلام، عم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وقـد ثار محمـد بن جعفر في المدينة المنورة التي ظلَّت تُشـكِّل القيادة الروحية والعلمية للأمة الإسلامية، وذلك بسبب النشاط العلمي والتربوي للأئمة الأطهار عليهم السلام وبالأخـص الإمام الباقر، والإمام الصادق عليه السلام، ولذلك فإن أئمة المذاهب الأخـرى كالشـافعي -من أهل مـصر-، ومالك بن أنـس، وأبو حنيفـة -من أهل الكوفـة ولكنـه كان يُقيم في المدينة للدراسـة- كانوا في المدينة المنـورة، وهي منطقة أساسية واستراتيجية بالنسبة للدولة الإسلامية آنئذٍ.

وقـد بايع أهل المدينة محمد بن جعفر على أنـه أحق بالخلافة من المأمون ومن البيـت العبـاسي كلـه(٢)، ولم يقرّ للمأمون قـرار، فبعث بجيش جـرار لمحاربة محمد فانهـزم محمد بن جعفر، ولكن لم يسـتطع المأمون العبـاسي قتله مع أنه قبض عليه في النهاية(٣).

ليـس لأن المأمـون كان رجـلاً تقيًّا فلم يقتل محمـد الثائر عليـه، فالمأمون هو حفيد الهادي العباسي الذي قَتَلَ ونكَّل بأسرى فخ من الأطفال والنسـاء والشـيوخ بعد أن جيء بهم إلى ذلك الطاغية، فقام أحد الشـعراء المتزلِّفين وألقى شعراً حاقداً فأمر الهادي بقتلهم عن بكرة أبيهم.

فالمأمـون العباسي من تلك الشـجرة الخبيثة نفسـها، وهو الـذي لم يتورع عن

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٤٩. بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٣٣.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٦، ٣١١. منتهى الآمال، ج٢، ص٢١٢. مروج الذهب، ج٣، ص٤٣٩.

(٣) الفخري، ص٢١٧.

قتل ساعده الأيمن الفضل بن سهل، فكيف يُحجم عن قتل عدوه محمد، بل إنه طلبه فجاؤوا به إلى خراسان⁽¹⁾، فأكرمه وأعزه وأعطاه من الأموال والضِّياع بالمقدار الكافي وتسامح معه برغم أنه لم يُبايعه بعد ذلك، بل وبقي يشتمه ويتكلَّم ضده في مجلسه، فلم يسلم منه المأمون إلى أن مات، فلما مات شيَّعه المأمون وجاء شخصيًّا ونزل إلى القبر وأخذ جسده ودفنه ثم قال -لأبناء محمد-: «هذه رحم مجفوة منذ مائتي سنة».

وقضى دينه، وكان عليه نحوًا من ثلاثين ألف دينار⁽²⁾.

إن المأمون لم يجرؤ على قتل محمد لأن الحركة الرسالية آنئذٍ كانت قد وصلت إلى مستوى عظيم من القوة، والرسوخ، والانتشار بين قطاعات الدولة الرسمية منها والشعبية.

ثورة أبى السرايا

خرج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل وهو ابن طباطبا بن إبراهيم بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الكوفة، وكان على موعد مع السري بن منصور (أحد بني ربيعة) بن ذهل بن شيبان (أبي السرايا) في يومٍ حدَّدوه.

وكان أبو السرايا قد جاء إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام ليجمع من يرى من الرساليين، حيث إن قبر الإمام الحسين عليه السلام ظل منطلقاً للثورات، ومركزاً يلجأ إليه الثوار.

قال نصر بن مزاحم: «فحدثني رجل من أهل المدائن، قال: إني لعند قبر الحسين في تلك الليلة، وكانت ليلة ذات ريح ورعد ومطر، إذا بفرسان قد أقبلوا فترجَّلوا ودخلوا إلى القبر فسلموا، وأطال رجل منهم الزيارة، ثم جعل يتمثل

---

(١) أشخص إليه رجاء بن أبي الضحاك. راجع: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٥٤٤. الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣١٩.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٤٤١. المنتظم، ج١٠، ص١٢١.

أبيات منصور بن الزِّبْرِقان النَّمَري[1]:

نفسي فداء الحسين يوم عدا[2]   إلى المنايا عدوّ لا قافل
ذاك يوم أنحى بشفرته   على سنام الإسلام والكاهل
كأنما انت تعجبين ألَّا   ينزل بالقوم نقمة العاجل
لا يعجل الله إن عجلت وما   ربك عمّا ترين بالغافل
مظلومة والنبي والدها   يدير أرجاء مقلة جافل
ألا مساعير يغضبون لها   بسلّة البيض والقنا الذابل

قال: ثم أقبل عليَّ، فقال: ممَّن الرجل؟.

فقلت: رجل من الدهاقين من أهل المدائن.

فقال سبحان الله، يحنُّ الولي إلى وليّه كما تحنُّ الناقة إلى حوارها، يا شيخ إن هذا موقف يكثر لك عند الله شكره ويعظم أجره.

قال: ثم وثب؛ فقال: من كان ها هنا من الزّيدية فليقم إليَّ، فوثبت إليه جماعات من الناس، فدنوا منه فخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها أهل البيت وفضلهم وما خُصُّوا به، وذكر فعل الأمّة بهم وظلمهم لهم، وذكر الحسين بن علي فقال: أيها الناس، هبكم لم تحضروا الحسين فتنصروه، فما يُقعدكم عمَّن أدركتموه ولحقتموه؟ وهو غداً خارج طالب بثأره و حقه، وتراث آبائه وإقامة دين الله، وما يمنعكم من نصرته ومؤازرته؟. إنني خارج من وجهي هذا إلى الكوفة للقيام بأمر الله، والذّب عن دينه، والنصر لأهل بيته، فمن كان له نية في ذلك فليلحق بي. ثم مضى من فوره عائداً إلى الكوفة ومعه أصحابه»[3].

---

(١) من الشيعة والموالين المُتقين، كان مع الرشيد مقدمًا، وكان الرشيد يُعطيه ويجُزل له في العطاء، وكان النَّمَري يظهر له أنه عباسي الرأي منافر لآل علي عليهم السلام. طالع: الشعر والشعراء، ج٢، ص٨٤٧. وأيضًا: أعيان الشيعة، ج١٠، ص١٣٨. معالم العلماء، ص١٥٢.

(٢) في أعيان الشيعة (ج١٠، ص١٤٠) يوم غدا، غدو.

(٣) مقاتل الطالبين، ص٤٢٧.

قال: «وخرج محمد بن إبراهيم في اليوم الذي واعد فيه أبا السرايا للاجتماع بالكوفة، وأظهر نفسه وبرز إلى ظهر الكوفه، ومعه علي بن عبيدالله [عبدالله] بن الحسين ابن الإمام علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأهل الكوفة منبثون مثل الجراد، وإلَّا أنهم على غير نظام وغير قوة ولا سلاح إلَّا العصي والسكاكين والآجر، فلم يزل محمد بن إبراهيم ومن معه ينتظر أبا السريا.. حتى طلع عليهم من نحوالجرف... فتنادى الناس بالبشارة فكبَّروا، ونظروا فإذا هو أبو السريا ومن معه، فلما أبصر محمد بن إبراهيم ترجّل وأقبل إليه فانكب عليه واعتنقه محمد، ثم قال: يا بن رسول الله، ما يُقيمك ها هنا؟. ادخل البلد فما يمنعك منه أحد؟.

فدخل هو وخطب الناس، ودعاهم إلى البيعة إلى الرضا من آل محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيرة بحكم الكتاب.

فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا وازدحموا عليه»(١).

العباسيون يواجهون الثورة

ولما علم والي المأمون العباسي على بغداد الحسن بن سَهْل(٢) بما حدث في الكوفة «دعا زهير بن المُسيَّب(٣)، فضم إليه الرجال وأمدَّه بالأموال وندبه إلى المسير نحو أبي السرايا، وأن يودعه من وقته ويمضي لوجهه فيه ولا ينزل إلَّا بالكوفة...

.. فسار زهير بن المسيب حتى ورد قصر ابن هبيرة فأقام به، ووجّه ابنه أزهر

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٢٨.

(٢) ابن عبد الله السرخسي [١٦٦-٢٣٦هـ]، أخو الفضل بن سهل (ذي الرئاستين)، وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. والد (بوران) زوجة المأمون، وكان المأمون يُجِلّه ويُبالغ في إكرامه، تُوفِّي في سرخس (من بلاد خراسان). الأعلام، ج٢، ص١٩٢.

(٣) الضبي [ت: ٢٠١هـ]، أحد القادة في العصر العباسي. كان مع المأمون في ثورته على الأمين، واستعمله الحسن بن سهل على جوخي (بين خانقين وخوزستان)، فلما قامت الفتنة على الحسن ببغداد وامتدت إلى الأطراف أُسر فيها زهير، وقُتل ذبحاً. الأعلام، ج٣، ص٥٢.

ابن زهير على مقدمته، فنزل سوق أسد. وسار أبو السرايا من الكوفة وقت العصر فأغذ السير حتى أتى معسكر أزهر بن زهير بسوق أسد، وهم غارون فيه وبيته، فطحن العسكر وأكثر القتل فيه، وغنم دوابهم وأسلحتهم، وانقطع الباقون في الليل منهزمين حتى وافت زهيراً بالقصر فتغيظ من ذلك.

ورجع أبو السرايا إلى الكوفة، وزحف زهير حتى نزل، ووافت خريطة من الحسن بن سهل، يأمره ألَّا ينزل إلَّا بالكوفة، فمضى حتى نزل عند القنطرة.

ونادى أبو السرايا في الناس بالخروج، فخرجوا حتى صادفوا زهيراً على قنطرة الكوفة في عشيةٍ صردة باردة، فهم يوقدون النار يستدفئون بها، ويذكرون الله ويقرؤون القرآن وأبو السرايا يسكن منهم ويحثهم.

وأقبل أهل بغداد يصيحون: يا أهل الكوفة، زيّنوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلنَّ بهم كذا وكذا، ولا يُكنُّون...

وأبو السرايا يقول لهم: اذكروا الله وتوبوا إليه، واستغفروه واستعينوه.

فلم يزل الناس في تلك الليلة يتحارسون طول ليلتهم، حتى إذا أصبح نهد إليهم فوقف في عسكره، وقد عشيت أبصار الناس من الدروع والبيض والجواش وهم على تعبئة حسنة، وأصوات الطبول والبوقات مثل الرعد العاصف.

وأبو السرايا يقول: يا أهل الكوفة، صحِّحوا نياتكم، وأخلصوا لله ضمائركم، واستنصروه على عدوكم، وابرؤوا إليه من حولكم وقوتكم، واقرؤوا القرآن، ومن كان يروي الشعر فلينشد شعر عنترة العبسي...

قال: ووقف الحسن بن هذيل -وهو من أصحاب الحسين شهيد فخ يُعبِّئ الناس للقتال- قائلاً: «.. هذا موقف تُستزلُّ فيه الأقدام، وتُزايل فيه الأفعال، والسعيد من حاط دينه، والرشيد من وفّى لله بعهده، وحفظ محمداً في عترته، ألا إن الآجال موقوتة، والأيام ممدودة، من هرب بنفسه من الموت كان الموت محيطاً به، ثم قال:

من لم يمت عبطة يمت هرماً   الموت كأس والمرء ذائقها

قال أبو الفرج الأصفهاني: ... فطلع رجل من أهل بغداد مستلئماً شاكي السلاح، فجعل يشتم أهل الكوفة ويقول: لنفجرنَّ بنسائكم ولنفعلنَّ بكم ولنصنعن...

وانتدب إليه رجل من أهل الوازار -قرية بباب الكوفة- عليه إزار أحمر وفي يده سكين، فألقى نفسه في الفرات وسبح ساعة حتى صار إليه، فدنا منه فأدخل يده في جيب درعه وجذبه إليه فصرعه، وضرب بالسكين حلقه فقتله، وجر برجله يطفو مرة ويغوص مرة أخرى حتى أخرجه إلى الكوفة، فكبّر الناس وارتفعت أصواتهم بحمد الله والثناء عليه والدعاء.

ثم دعا (أبو السرايا) غلاماً له فوجَّهه في نفر من أصحابه وأمره أن يمضي حتى يصير من وراء العسكر، ثم يحمل عليهم. فمضى الغلام لوجهه مع من معه، قاصداً لما أمره به.

ووقف أبو السرايا على القنطرة، على فرس له أدهم محذوف، وقد اتَّكأ على رمحه فنام على ظهر الفرس حتى غطَّ، وأهل الكوفة، جزعون لما يرونه من عسكر زهير، ويسمعونه من تهديدهم ووعيدهم، وهم يضجون ويصيحون بالتكبير والتهليل، حتى يسمع أبو السرايا فينتبه من نومه، فلم ينتبه حتى ظن أن الكمين الذي بعثه قد انتهى إلى حيث أمره فصاح بفرسه: قتال. ثم قنعه حتى رضي بحفزه، ثم أومأ بيده نحو الكمين الذي بعثه، وصاح بأهل الكوفة: احملوا، وحمل وتبعوه، فلم يبقَ من أصحاب زهير أحد إلَّا التفت نحو الإشارة.

وخالط أبو السرايا وغلامه سيار العسكر، وتبعه أهل الكوفة وصاح بغلامه: ويلك يا سيار، ألا تراني. فحمل سيار على صاحب العلم فقتله وسقط العلم، وانهزمت المسودة، وتبعهم أبو السرايا وأصحابه ونادى: من نزل عن فرسه فهو آمن.

فجعلوا يترجَّلون، وأصحاب أبي السرايا يركبون، وتبعوهم حتى جاوزوا شاهي، ثم التفت زهير إلى أبي السرايا فقال: ويحك، أتريد هزيمة أكثر من هذه، إلى أين تتبعني؟.

فرجع وتركه(١).

هزيمة عبدوس

«واشتد غمُّ الحسن بن سهل ومن بحضرته من العباسيين، لما جرى على عسكر زهير، وطال اهتمامهم به، فدعا الحسن بن سهل بعبدوس بن عبد الصمد(٢)، وضم إليه ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، وأزاح علته في الإعطاء.

وقال: إنما أريد أن أُنوّه باسمك فانظر كيف تكون؟.

وأوصاه بما احتاج إليه، وأمره ألَّا يلبث. فخرج من بين يديه وهو يحلف أن يبيح الكوفة، ويقتل مقاتلة أهلها، ويسبي ذراريهم، ثلاثاً.

ومضى لوجهه لا يلوي على شيء حتى صار إلى الجامع، وقد كان الحسن بن سهل تقدَّم إليه بذلك وأمره ألَّا يأخذ على الطريق الذي انهزم فيه زهير، لئلَّا يرى أصحابه بقايا قتلى عسكره، فيجبنوا من ذلك. فأخذ على الطريق الجامع، فلما وافاها وبلغ أبا السرايا خبره، صلَّى الظهر بالكوفة، ثم جرَّد فرسان أصحابه ومن يثق به منهم وأغذَّ السير بهم، حتى إذا قرب من الجامع فرّق أصحابه ثلاث فرق. وقال: شعاركم: (يا فاطمي يا منصور). وأخذ هو في جانب السوق، وأخذ سيار في سيره الجامع، وقال لأبي الهرماس: خذ بأصحابك على القرية فلا يفتك أحد منهم، ثم احملوا دفعة واحدة من جوانب عسكر عبدوس.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٢٩-٤٣٢.

(٢) عبدوس بن محمد المروروذي. على ما جاء في تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٥٣٠، والكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٠٥.

ففعلوا ذلك فأوقعوا به وقتلوا منه مقتلة عظيمة، وجعل الجند يتهافتون في الفرات طلباً للنجاة، حتى غرق منهم خلق كثير. ولقي أبو السرايا عبدوساً في رحبة الجامع فكشف خوذته عن رأسه وصاح: أنا أبو السرايا، أنا أسد بني شيبان.

ثم حمل عليه، وولى عبدوس من بين يديه، وتبعه أبو السرايا فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته وخرَّ صريعاً عن فرسه.

وانتهب الناس من أصحاب أبي السرايا، وأهل الجامع عسكر عبدوس، وأصابوا منه غنيمة عظيمة، وانصرفوا إلى الكوفة بقوة وأسلحة»(١).

وفاة محمد بن إبراهيم

«.. ودخل أبو السرايا إلى محمد بن إبراهيم وهو عليل يجود بنفسه فلامه على تبييته العسكر. وقال: أنا أبرأ إلى الله ممَّا فعلت، فما كان لك أن تبيتهم، ولا تقاتلهم حتى تدعوهم، وما كان لك أن تأخذ من عسكرهم إلَّا ما أجلبوا به علينا من السلاح.

فقال أبو السرايا: يا بن رسول الله، كان هذا تدبير الحرب ولست أعاود مثله.

ثم رأى في وجه محمد الموت فقال له: يا بن رسول الله، كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، فاعهد إليَّ عهدك.

فقال: أوصيك بتقوى الله والمقام على الذب عن دينك ونُصرة أهل بيت نبيك ﷺ، فإن أنفسهم موصولة بنفسك وولِّ الناس الخيرة فيمن يقوم مقامي من آل علي، فإن اختلفوا في الأمر فإلى علي بن عبيدالله، فإني قد بلوت طريقته ورضيت دينه(٢).

وهذا اللوم من محمد بن إبراهيم للسري بن منصور ليس من قبيل المعاتبة

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٣٢-٤٣٣.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٤٣٤.

بقـدر مـا هو توضيح وتأكيد من محمد بأن هدفنـا معروف وهو الحق، فلا يمكن أن ترتكـب أعمال مشـوبة بالباطل. فالثائر الرسـالي يجب أن يبقى حتـى الأخير محافظاً عـلى قيمه، فهو لم يحـارب إلّا لأجلها لا لغيرها. وهذا يُمثِّل أروع آيات الاسـتقامة والإخلاص للمبدأ عند ثوار الحركة الرسالية.

وفي المقابل كان جيش العباسيين يُنادي على الثوار: «زيِّنوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلنَّ بهم كذا وكذا، ولا يُكنُّون»⁽¹⁾.

انتخاب محمد بن زيد قائداً للثورة

بعـد ذلك جمع أبو السرايا الناس «فخطبهـم ونعى محمدًا إليهم وعزَّاهم فيه، فارتفعت الأصوات بالبكاء إعظامًا لوفاته.

ثم قال: وقد أوصى أبو عبدالله (رحمة الله عليه) إلى شـبيهه ومن اختاره، وهو أبو الحسن علي بن عبيد الله، فإن رضيتم به فهو الرضا، وإلّا فاختاروا لأنفسكم.

فتواكلـوا ونظـر بعضهـم إلى بعـض فلـم ينطق منهم أحـد، فتقـدَّم محمد بن محمد بن زيد -(الثائر ابن الإمام علي بن الحسين عليه السلام)- وهوغلام حدث السِّن... فقال: يا آل علي؛ إن دين الله لا يُنصر بالفشـل، وليست يد هذا الرجل عندنا بسيئة، وقد شفى الغليل وأدرك الثأر.

ثـم التفـت إلى علي بن عبدالله، فقال: ما تقول يا أبا الحسـن رضي الله عنك؟. فقد وصَّانا بك، امدُد يدك نُبايعك.

فحمـد الله وأثنـى عليه، ثم قال: إن أبا عبيدالله (رحمة الله عليه) قد اختار فلم يعد الثقة في نفسه، ولم يألُ جهدًا في حق الله الذي قلده، وما أردُّ وصيته تهاوناً بأمره، ولا أدع هـذا نكولاً عنه، ولكن أتخوّف أن اشـتغل بـه عن غيره ممَّا هو أحمد وأفضل عاقبة، فامضِ -رحمك الله- لأمرك، واجمع شـمل ابن عمك، فقد قلدناك الرياسـة

---

(١) مقاتل الطالبين، ص٤٣٠.

علينا، وأنت للرضا معدن الثقة في أنفسنا.

ثم قال لأبي السرايا: ما ترى؟ أرضيت به؟. (أي بمحمد بن محمد بن زيد).

قال: رضائي في رضاك، وقولي مع قولك، فجذبوا محمد بن محمد فبايعوه..»⁽¹⁾.

وهذا يدل على أن الثوار لم يكونوا ينادون بالأهداف والقيم كشعار فقط، وإنما كانوا يعيشونها عمليًّا.

ترى كيف يُبايع علي بن عبيد الله غلاماً حدثاً، وهو محمد بن محمد بن زيد، ويُنكر نفسه؟ وهذا شيء نادر لا تعثر عليه الآن عند أصحاب الرايات الثورية، وهم بهذا العمل قد أكَّدوا وطبَّقوا قيمة مهمة في القيادة، وهي أن الأكفأ هو الذي يجب أن يقود، وليس الأسنّ أو غير ذلك من الاعتبارات.

محمد بن زيد يُعيّن الوكلاء

بعد أن بايع أهل الكوفة محمد بن محمد بن زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام، قام محمد بأرسال وكلائه على المناطق، فعقد لإبراهيم بن موسى بن جعفر عليه السلام على اليمن، وولَّى زيد بن موسى بن جعفر عليه السلام الأهواز، وولّى العباس بن محمد بن عيسى البصرة، وولّى الحسن بن الحسن الأفطس مكة. وعقد لجعفر بن محمد بن زيد، والحسين بن إبراهيم بن الحسن، واسطاً، فخرجوا إلى أعمالهم، وأقام ابن الأفطس⁽²⁾ الحج تلك السنة وهي سنة مئة وتسع وتسعون⁽³⁾.

وكتب إليه أهل الشام والجزيرة أنهم ينتظرون أن يُوجِّه إليهم رسولاً ليسمعوا له ويطيعوا. وعظم أمر الثورة على الحسن بن سهل وبلغ منه كل مبلغ حتى كتب إلى

---

(1) مقاتل الطالبيين، ص٤٣٥.

(2) هو: حسين بن حسن الأفطس بن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام.

(3) مقاتل الطالبيين، ص٤٣٥. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٤٥.

هرثمة لكي يقود جيوش بني العباس للقضاء على الثورة، وكان هرثمة على خلاف مع الحسن بن سهل، ولكنه اضطر إلى ذلك(١).

هرثمة يقود جيوش العباسيين

أخذت السلطة العباسية تحوم حول نفسها خوفاً من ازدياد خطر الثورة، فقامت بحشد كل جيوشها، وكتبت لطاهر بن الحسين الخزاعي فرفض بأبيات شعر محاربة هذه الثورة التي يتعاطف معها ويدين بها(٢).

وكتبت لهرثمة بن أعين تُسيل له لعابه وتُمنيه تارة، وتارة تُدغدغ عواطفه حتى وافق على قيادة الجيوش التي بلغت ثلاثين ألف فارس وراجل، في مقابل الثوار الذين كانوا أقل عدةً وعدداً، فدار قتال كثيف وحمي الوطيس والثوار لا زالوا عند ثباتهم لم يتقهقروا، وما انفك جيش العباسيين يحبك الخدع فيُحبطها جيش الثوار. واستشهد أثناء ذلك الحسن بن الحسين (ذو الدمعة بن زيد بن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام)، وهم في غليان الحرب يصيحون من حناجرهم بالتكبير والحماس يدبّ فيهم أكثر، فالساعة لا يثبت إلَّا من امتحن الله قلبه وصدَّق الإيمان عمله.

---

(١) جاء في تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٥٣٠: «فلما رأى الحسن بن سهل أن أبا السرايا ومن معه لا يلقون عسكراً إلَّا هزموه، ولا يتوجَّهون إلى بلد إلَّا دخلوها، ولم يجد معه من القواد من يكفيه حربه، اضطر إلى هرثمة، وكان هرثمة حين قدم عليه الحسن بن سهل والياً عليها من قبل المأمون، سلّم له ما كان بيده بها من الأعمال، وتوجَّه نحو خراسان مغاضباً للحسن..». ومثله في المنتظم، ج١٠، ص٧٥.

ويقول أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، ص٤٣٨: «وأمر الحسن بن سهل بدواوين الجيش فنقلت إليه (الهرثمة) ليختار الرجال منها وينتخبهم، وأطلق له بيوت الأموال، فانتخب من أراد، وأزاح الغلة في العطيات والنفقات..». كل ذلك يدل على عظم الخطر الذي شكَّلته ثورة أبي السرايا على الدولة العباسية، وهذا ما دفع المأمون إلى تقريب الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إليه وعهده بولاية الأمر إليه، أملاً منه في سحب البساط من تحت أرجل الحركة الرسالية التي انتشرت في عهده في كل مكان. ويضيف الأصفهاني، ص٤٤٧: «ونُظِرَ في الدواوين فُوُجِدَ من قُتِلَ من أصحاب السلطان في وقائع أبي السرايا مائتا ألف رجل».

(٢) طالع: مقاتل الطالبيين، ص٤٣٦.

«فـاشتدت الحرب وكشف أبو السرايا رأسه وجعل يقول: أيها الناس، صبر ساعة وثبات قليل فقد -والله- فشل القوم ولم يبقَ إلَّا هزيمتهم.

ثم حمل وخرج إليه قائد من قواد هرثمة وعليه الدرع والمغفر، فتناوشا ساعة، ثـم ضربه أبـو السرايا على بيضته فقدّه حتى خالط سـيفه قربوس سرجه. فانهزمت المسوّدة هزيمة قبيحة. ووقع هرثمة في الأسر بغير علم أبي السرايا -وكان هرثمة- قد خلّف في عسكره زهاء خمسة آلاف فارس يكونون احتياطاً له إذا انهزم أصحابه.

فلما انهزم أصحابه وأُسر هو، حملت هذه الفرقة الاحتياطية من جيش هرثمة والمكونـة من خمسـة آلاف على جيش الثوار فتكافـأت الجهتان مرة أخرى وخُـلّص هرثمة من الأسر.

إلَّا أن هرثمة لم يبقَ له طائل في المعركة فصاح: «يا أهل الكوفة، علام تسفكون دماءنـا ودماءكـم؟، إن كان قتالكـم إيّانا كراهيـة لإمامنا فهذا المنصـور بن المهدي رضي لنـا ولكم نبايعه، وإن أحببتم إخراج الأمر من ولد العباس فانصبوا أمامكم، واتَّفقوا معنا ليوم الاثنين نتناظر فيه، ولا تقتلونا وأنفسكم».

فأمسك أهل الكوفة عن الحملة، وناداهم أبو السرايا: ويحكم، إن هذه حيلة من هؤلاء.. وإنما أيقنوا بالهلاك فاحملوا عليهم...

فامتنعوا وقالوا: لا يحل لنا قتالهم وقد أجابوا»(١).

كان أبـو السرايا، ينظر إلى ما وراء ذلك، وأن ذلك ليس إلَّا خدعة من جيش العباسيين عندما أحسوا بالهزيمة والإنهاك، وأن الإبقاء على هذا الوضع العسكري يُعطي الأمل للسـلطات العباسية في القضاء على الثوار عن بكرة أبيهم، والحسم في الساحة الآن يُضعف هذا الأمل، ويمنع النظام العباسي معاودة الكرة سريعًا، اللهم إلَّا بعد فترة تطول ريثما يستعيد النظام تماسكه النفسي والعسكري.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٤٣-٤٤٤.

فعملية وقف القتال في هذا الظرف تعني فشل الثورة. إلَّا أن الجموع المقاتلة لم تكن تعي هذه الحقيقة، أو ربما لم تُوازن بين ما هوحق وما هو باطل، فالقتال الآن ليس باطلًا وجورًا وابتعادًا عن القيم والحق.

توقف القتال فأحس أبو السرايا أن مرام العباسيين قد تحقَّق وأن جيشه لم يعد يملك إرادة القتال. ثم إنّ جيش العباسيين دخل الكوفة وأحاط بمنافذها، ودخلها المنصور بن المهدي، وقد توالت الإمدادات على جيش هرثمة بعد ما أحسّت السلطات العباسية بنبرة وقف القتال. فقرر أبو السرايا الخروج من الكوفة والتوجّه إلى موقع أفضل يمكنه من هناك معاودة الكرة على جيوش بني العباس.

فتوجَّه أبو السرايا قاصدًا البصرة، فلقيه أعرابي من أهل البلد، فسأله أبو السرايا عن الخبر، فأعلمه أنّ السلطات العباسية غلبت عليها وأخرجت عماله، فعدل عن البصرة وأراد المسير نحو واسط، فأعلمه الرجال أن صورة أمرها مثل البصرة قد غلب السلطان عليها وأخرج الولاة.

فعمد إلى الأهواز حتى صار إلى السوس، فأغلقوا الباب دونه فأمرهم بفتحه ففتحوه، فدخل الأهواز إلَّا أنه ما شعر إلَّا وجيش العباسيين قد جاء قفاه بقيادة الحسن بن علي المأموني، فقاتل قتالاً شديداً، حتى أوشك أبو السرايا على الانتصار لولا خدعة انغرّ بها غلام له، وبعدها أُلقي القبض على السري بن المنصور، حيث أُرسل إلى الحسن بن سهل في بغداد فأمر بضرب عنقه، ثم أمر برأسه فصلب في الجانب الشرقي، وصلب بدنه في الجانب الغربي، وأرسل محمد بن محمد بن زيد إلى خراسان حيث تعجَّب المأمون من حداثة سِنِّه ولكن لم يجرؤ المأمون على إعدامه علانية، إذ إن المأمون لا يأمن أن تقوم موجة ثائرة أخرى، تُطيح بعرشه، بعدما ثبت أمام هذه الموجة الثائرة، ولكنه أسكته ووفر له وسائل الترفيه حتى إذا استقر دسَّ له السم فقُتل^(١).

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٤٥-٤٤٦. بتصرف يسير.

وخلاصة القول: إن الهزَّة التي أحدثتها ثورة أبي السرايا ليست بالهينة، كما أن الجبهات التي فتحتها في الأمصار استمرت لمدة دفعت السلطات العباسية إلى طلب الهدنة مع الحركات الرسالية، وهذا يُبيِّن لنا السبب الذي جعل المأمون العباسي يأتي بالإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ من المدينة المنورة إلى خراسان، وما عرض عليه من أمر الخلافة فلم يقبل الإمام ففرض عليه ولاية العهد.

وقد يتساءل البعض: ألم يكن من الأفضل للإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرفض ولاية العهد؟.

هناك بعض الروايات تقول: إن الامام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مُجبراً على قبول ولاية العهد، وأنه حينما جيء به إلى خراسان طلبه المأمون فقال له: «فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَعْزِلَ نَفْسِي عَنِ الْخِلَافَةِ وَأَجْعَلَهَا لَكَ وَأُبَايِعَكَ..

فرفض الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ القبول.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، لَا بُدَّ لَكَ مِنْ قَبُولِ هَذَا الْأَمْرِ؟!.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **لَسْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ طَائِعاً أَبَداً.**

فَمَا زَالَ يُجْهِدُ بِهِ أَيَّاماً حَتَّى يَئِسَ مِنْ قَبُولِهِ.

فَقَالَ لَهُ: فَإِنْ لَمْ تَقْبَلِ الْخِلَافَةَ وَلَمْ تُحِبَّ مُبَايَعَتِي لَكَ فَكُنْ وَلِيَّ عَهْدِي لِتَكُونَ لَكَ الْخِلَافَةُ بَعْدِي.

فَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: **وَالله لَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنِّي أَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَكَ مَقْتُولًا بِالسَّمِّ مَظْلُوماً، تَبْكِي عَلَيَّ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَمَلَائِكَةُ الْأَرْضِ، وَأُدْفَنُ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ إِلَى جَنْبِ هَارُونَ الرَّشِيد.**

فَبَكَى الْمَأْمُونُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، وَمَنِ الَّذِي يَقْتُلُكَ أَوْ يَقْدِرُ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْكَ وَأَنَا حَيٌّ؟!.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام **أَمَا إِنِّي لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ مَنِ الَّذِي يَقْتُلُنِي لَقُلْتُ!.**

فَقَالَ المَأْمُونُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، إِنَّمَا تُرِيدُ بِقَوْلِكَ هَذَا التَّخْفِيفَ عَنْ نَفْسِكَ وَدَفْعِ هَذَا الْأَمْرِ عَنْكَ، لِيَقُولَ النَّاسُ: إِنَّكَ زَاهِدٌ فِي الدُّنْيَا!.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **وَاللهِ مَا كَذَبْتُ مُنْذُ خَلَقَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا زَهِدْتُ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ مَا تُرِيدُ.**

فَقَالَ المَأْمُونُ: وَمَا أُرِيدُ؟!.

قَالَ عليه السلام: **الْأَمَانُ عَلَى الصِّدْقِ.**

قَالَ: لَكَ الْأَمَانُ.

قَالَ عليه السلام: **تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى لَمْ يَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا بَلْ زَهِدَتِ الدُّنْيَا فِيهِ، أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ قَبِلَ وِلَايَةَ الْعَهْدِ طَمَعاً فِي الْخِلَافَةِ.**

فَغَضِبَ المَأْمُونُ ثُمَّ قَالَ: إِنَّكَ تَتَلَقَّانِي أَبَداً بِمَا أَكْرَهُهُ وَقَدْ آمَنْتَ سَطْوَتِي، فَبِاللَّهِ أُقْسِمُ لَئِنْ قَبِلْتَ وِلَايَةَ الْعَهْدِ وَإِلَّا أَجْبَرْتُكَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ وَإِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَكَ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **قَدْ نَهَانِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أُلْقِيَ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ، وَأَنَا أَقْبَلُ ذَلِكَ عَلَى أَنِّي لَا أُوَلِّي أَحَداً، وَلَا أَعْزِلُ أَحَداً، وَلَا أَنْقُضُ رَسْماً وَلَا سُنَّةً، وَأَكُونُ فِي الْأَمْرِ مِنْ بَعِيدٍ مُشِيراً..»**(١).

فالقضية التي كان يُريد المأمون تنفيذها، هي إظهار أن قضية الإمام عليه السلام لم تكن قضية زهد وتقوى وعمل في سبيل الله، إنما كانت قضية تزهد للمصلحة السلطوية، فينطبق عليه قول الشاعر:

صَلَّى وَصَامَ لدُنيا كَانَ يَأْمُلُها   فَقَد أصابَ فَلا صَلَّى وَلا صَامَا!(٢)

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٢٨.

(٢) قول شريك بن عبد الله القاضي، طالع: التذكرة الحمدونية، ج٣، ص٨٦.

السحر ينقلب على الساحر

لقد كان المأمون العباسي يريد -حسب هذه الرواية- أن يُشهِّر ويقول للناس: إن قائد المعارضة وإمام الحركة الرسالية يقبل بولاية العهد، ومعنى ذلك أنه يريد السلطة، ولكن الظروف لا تُساعده على ذلك، إلّا أنّ الإمام الرضا عليه السلام قلب المعادلة على المأمون، حينما استفاد من تلك الفرصة في بثّ علومه وتبيين معالم فضله وفضل آبائه الطاهرين.

لقد استسقى أهل خراسان الإمام الرضا عليه السلام لجفاف الماء عندهم وهلاك الزرع، فصلَّى بهم الإمام صلاة الاستسقاء ودعا لهم فنزل المطر بعد ذلك بإذن الله عز وجل(١).

فقال أحد رجال المأمون له -وهو حميد بن مهران-: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُعِيذُكَ بِالله أَنْ تَكُونَ تَارِيخَ الْخُلَفَاءِ فِي إِخْرَاجِكَ هَذَا الشَّرَفَ الْعَمِيمَ وَالْفَخْرَ الْعَظِيمَ مِنْ بَيْتِ وُلْدِ الْعَبَّاسِ إِلَى بَيْتِ وُلْدِ عَلِيٍّ، وَلَقَدْ أَعَنْتَ عَلَى نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ، جِئْتَ بِهَذَا السَّاحِرِ وَلَدِ السَّحَرَةِ، وَقَدْ كَانَ خَامِلاً فَأَظْهَرْتَهُ، وَمُتَّضِعاً فَرَفَعْتَهُ، وَمَنْسِيًّا فَذَكَّرْتَ بِهِ، وَمُسْتَخَفًّا فَنَوَّهْتَ بِهِ، قَدْ مَلأَ الدُّنْيَا مَخْرَقَةً وَتَشَوُّقاً بِهَذَا الْمَطَرِ الْوَارِدِ عِنْدَ دُعَائِهِ، مَا أَخْوَفَنِي أَنْ يُخْرِجَ هَذَا الرَّجُلُ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ وُلْدِ الْعَبَّاسِ إِلَى وُلْدِ عَلِيٍّ، بَلْ مَا أَخْوَفَنِي أَنْ يَتَوَصَّلَ بِسِحْرِهِ إِلَى إِزَالَةِ نِعْمَتِكَ وَالتَّوَثُّبِ عَلَى مَمْلَكَتِكَ، هَلْ جَنَى أَحَدٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمُلْكِهِ مِثْلَ جِنَايَتِكَ؟!.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: قَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مُسْتَتِراً عَنَّا يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ فَأَرَدْنَا أَنْ نَجْعَلَهُ وَلِيَّ عَهْدِنَا لِيَكُونَ دُعَاؤُهُ لَنَا، وَلِيُعْرَفَ بِالْمُلْكِ وَالْخِلَافَةِ لَنَا، وَلِيَعْتَقِدَ فِيهِ الْمَفْتُونُونَ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا ادَّعَى فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، وَأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَنَا مِنْ دُونِهِ، وَقَدْ خَشِينَا إِنْ تَرَكْنَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَنْ يَنْفَتِقَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا لَا نَسُدُّهُ، وَيَأْتِيَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا لَا نُطِيقُهُ، وَالْآنَ فَإِذْ قَدْ فَعَلْنَا بِهِ مَا فَعَلْنَا، وَأَخْطَأْنَا فِي أَمْرِهِ بِمَا أَخْطَأْنَا، وَأَشْرَفْنَا مِنَ الْهَلَاكِ

---

(١) راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٧١. دلائل الإمامة، ص١٩٩.

بِالتَّنْوِيـهِ بِهِ عَلَى مَـا أَشْرَفْنَا؛ فَلَيْسَ يَجُوزُ التَّهَاوُنُ فِي أَمْـرِهِ، وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ أَنْ نَضَعَ مِنْهُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى نُصَوِّرَهُ عِنْدَ الرَّعِيَّةِ بِصُورَةِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ لِهَذَا الْأَمْرِ، ثُمَّ نُدَبِّرَ فِيهِ بِمَا يَحْسِمُ عَنَّا مَوَادَّ بَلَائِهِ..»(١).

يُصـوِّر المأمون هنا دوافع توليـة العهد للإمام، وعلّة جلب العلماء والمحدثين لنقـاش الإمـام الـذي سرعان ما قلـب المعادلة ضـد المأمـون، وخاف مـن النتائج العكسية التي نتجت من تولية الإمام ولاية العهد.

أسباب قبول الإمام الرضا بولاية العهد

إن منطـق الأحـداث كان يفـرض على الإمام علي بن موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقبل ولاية العهد لعدة أسباب:

السـبب الأول: إن عـدم قبول الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ ولايـة العهد كان يعني - عند الأمة الإسلامية - عدم قبول الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ للحكم، وكان ذلك يعطي الشرعية للطواغيت بعد عزوف الحكام الشرعيين عن الحكم، ولشاعت فكرة أن الدين شيء والدولـة شيء آخـر، وأن الإسـلام لا يقبل بدمـج الدين مع الدولـة، وأنه يجب أن تكون في الأمة الإسلامية إمامة روحية فقط، وهي من حق أولاد الإمام علي وفاطمة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، من الأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي منفصلة تماماً عن السلطة السياسية التي هي مِنْ حق مَنْ يكون مسيطراً على الناس سياسيًّا، وعدم قبول الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ ولاية العهد كان يرسخ تلك الفكرة، وأنّ: «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر».

فالإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ إنـما أراد نسـف هذه الفكـرة عمليًّا، وسـدّ الطريـق أمام من يُريدون نشر هذه الفكرة وإشاعتها، وذلك بقبوله ولاية العهد.

السـبب الثـاني: إن طريقة الأئمـة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تقوم على تكريـس الوعي في الأمة، وعدم جبر الناس على رأي معين. ولذلك عمل الأئمة على رفع مستوى وعي الأمة

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٨٢.

حتى تستطيع بنفسها أن تستلم الأوضاع.

فلذلك كان الأئمة عليهم السلام يستفيدون من كافة الأوضاع حتى من الحكم، لأجل هذه الغاية. فحينما عرض عليهم أن يكونوا داخل الحكم، ويستفيدوا من الحرية ونوع من الرخاء، وينشروا مذهبهم وأفكارهم الرسالية في الأمة دون أن يُعطوا امتيازات للحكم، ودون أن يُؤيِّدوه (وسوف نشرح هذه النقطة لاحقاً) قَبِل به الإمام الرضا عليه السلام. وهذا الشيء هو الذي نوّه إليه المأمون عندما انقلبت الآية عليه: «وَالْآنَ فَإِذْ قَدْ فَعَلْنَا بِهِ مَا فَعَلْنَا، وَأَخْطَأْنَا فِي أَمْرِهِ بِمَا أَخْطَأْنَا، وَأَشْرَفْنَا مِنَ الْهَلَاكِ بِالتَّنْوِيهِ بِهِ عَلَى مَا أَشْرَفْنَا؛ فَلَيْسَ يَجُوزُ التَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِ، وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ أَنْ نَضَعَ مِنْهُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى نُصَوِّرَهُ عِنْدَ الرَّعِيَّةِ بِصُورَةِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ لِهَذَا الْأَمْرِ، ثُمَّ نُدَبِّرَ فِيهِ بِمَا يَحْسِمُ عَنَّا مَوَادَّ بَلَائِهِ..».

فالنتائج أتت معكوسة على المأمون.

السبب الثالث: إن الإمام الرضا عليه السلام كان يُريد إسقاط أدلة المأمون العباسي الذي كان يُريد أن يسقط الأئمة عليهم السلام، وبالتالي يمتصّ الحركة الرسالية، وكان يستخدم طريقة معينة وهي المجيء بالإمام الرضا عليه السلام، فإذا نفع فقد حقّق أهدافه، وإذا لم ينفع فإنه يأتي بواحد من أولاد الأئمة كمحمد بن جعفر أو إسحاق بن موسى، أو أي واحد من أولاد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ويضعه في منصب ولي العهد، ويقول للمسلمين: إن كنتم تريدون حاكماً من البيت العلوي فهذا هو دونكم.

ومن المعروف أن عامة الناس باستثناء القليل منهم لا يمتلكون الوعي الكافي حتى يُميِّزوا بين الإمام الحقيقي الشرعي والإمام المزيف. فأكثر الناس ينظرون إلى الأسماء دون أن يُفكِّروا في المسميات، لذلك فالكثير منهم لا يُميِّز بين الإمام المعصوم المنصوص عليه من أبناء علي، وبين العلوي غير المعصوم.

فهناك علوي وهو: الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وعلوي آخر وهو: علي بن

إسماعيل(١)، الذي -حسب بعض الأقوال- كان هو الواشي بالإمام موسى بن جعفر، والمشارك في قتله(٢).

كان بمقدور المأمون العباسي أن يأتي بواحد من هؤلاء الطالبيين المتزلفين وينصبه ولياً للعهد، ويمتصّ قوى الحركة الرسالية.

ولكيلا يقوم المأمون العباسي بمثل هذه العملية، قبل الإمام عليه السلام بولاية العهد.

هذه بعض التفسيرات والأسباب التي نرى أنها كانت وراء قبول الإمام ولاية العهد. ومع أن البعض ونتيجة لعدم الإدراك الكامل لموقف الإمام عليه السلام يتحيَّر في فهم هذا الموقف، والبعض هذا كان موجوداً قديماً كما هو موجود حاليًّا أيضاً، وقد أجاب الإمام عن ذلك بكل تفاصيل سيرته وبِطيّات مواقفه.

فقد رُوي عَنِ الرَّيَّانِ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّكَ قَبِلْتَ وِلَايَةَ الْعَهْدِ مَعَ إِظْهَارِكَ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا؟.

فَقَالَ عليه السلام: قَدْ عَلِمَ اللهُ كَرَاهَتِي لِذَلِكَ، فَلَمَّا خُيِّرْتُ بَيْنَ قَبُولِ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْقَتْلِ، اخْتَرْتُ الْقَبُولَ عَلَى الْقَتْلِ، وَيْحَهُمْ أَمَا عَلِمُوا أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا فَلَمَّا دَفَعَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى تَوَلِّي خَزَائِنِ الْعَزِيزِ قَالَ لَهُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(٣)، وَدَفَعَتْنِي الضَّرُورَةُ إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ عَلَى إِكْرَاهٍ وَإِجْبَارٍ بَعْدَ الْإِشْرَافِ

---

(١) علي بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، روى الكشي في رجاله، ص٢٦٥، عن علي بن جعفر قال: سمعت أخي موسى عليه السلام قال: قال أبي (الإمام الصادق عليه السلام) لعبد الله أخي: إليك ابني أخيك، فقد ملآني بالسَّفَه، فإنهما شرك شيطان، يعني محمد بن إسماعيل بن جعفر، وعلي بن إسماعيل بن جعفر». انظر: قاموس الرجال، ج٧، ص٣٦٧-٣٦٨.

(٢) انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٦٩. بحار الأنوار، ج٤٨، ص٢٣١. الإرشاد، ج٢، ص٢٣٧. كشف الغمة، ج٢، ص٢٣٠. المناقب، ج٤، ص٣٠٨.

(٣) سورة يوسف، آية: ٥٥.

عَلَى الهَلَاكِ، عَلَى أَنِّي مَا دَخَلْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا دُخُولَ خَارِجٍ مِنْهُ. فَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ»(١).

وهنا دلالة جلية تُبرهن على أن الأئمة المعصومين عليهم السلام ظلُّوا أبداً قادة الحركة الرسالية في التاريخ، بل وللأمة الإسلامية قاطبة، حيث إن السلطات أرادت الائتلاف مع مَنْ تَرْكَنُ وتطمئن إليه الأمة الإسلامية.

كان موسى(٢) حفيد الإمام الرضا عليه السلام وابن الإمام الجواد عليه السلام على درجة هابطة من الالتزام الديني، ومن المعروف أن المفاسد والمفاتن آنذاك كانت كثيرة في البلاد الإسلامية، من الشراب والغواني والجواري. وكان بعض أبناء الأمة منشغلون بهذه الأعمال الشيطانية. ففي رواية تُبيِّن لنا كيف أن الخلفاء العباسيين كانوا يستغلون عملية الخلط بين الشخصيات لضرب أعدائهم.

رَوَى يَعْقُوبُ بْنُ يَاسِرٍ، قَالَ: «كَانَ الْمُتَوَكِّلُ يَقُولُ: وَيْحَكُمْ قَدْ أَعْيَانِي أَمْرُ ابْنِ الرِّضَا (يقصد الإمام الهادي عليه السلام)، وَجَهَدْتُ أَنْ يَشْرَبَ مَعِي وَيُنَادِمَنِي فَامْتَنَعَ، وَجَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ فُرْصَةً فِي هَذَا الْمَعْنَى فَلَمْ أَجِدْهَا.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: إِنْ لَمْ تَجِدْ مِنِ ابْنِ الرِّضَا مَا تُرِيدُهُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ فَهَذَا أَخُوهُ مُوسَى، قَصَّافٌ عَزَّافٌ، يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَعْشَقُ وَيَتَجَالَعُ، فَأَحْضِرْهُ وَأَشْهِرْهُ، فَإِنَّ الْخَبَرَ يَشِيعُ عَنِ ابْنِ الرِّضَا بِذَلِكَ، وَلَا يُفَرِّقُ النَّاسُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَمَنْ عَرَفَهُ اتَّهَمَ أَخَاهُ بِمِثْلِ فَعَالِهِ.

ولكن المتوكل لم ينجح في خطته هذه التي كانت تبتني على أساس أن أبناء الإمام الرضا وأحفاده إلى الإمام العسكري عليهم السلام، كان كل واحد منهم يُسمّى بابن الرضا، وكان الناس لا يدعونهم إلّا بهذا الاسم، ففكَّر المتوكل مع حاشيته أن يشرب ويُجبر موسى ابن الإمام محمد الجواد عليه السلام وأخ الإمام علي الهادي عليه السلام أن

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٣٠.

(٢) يقال له: موسى المبرقع، مات بمدينة قم المقدسة. انظر: قاموس الرجال، ج١٠، ص٢٩٨.

يشرب الخمر معه، وأثناء ذلك يأتي بالخمارين والمنحرفين خلقيًّا ليُشهِّروا بابن الرضا أنـه يـشرب ويلهو مع المتوكل، وبالتالي تنجح خطتهـم في ضرب صورة الإمام عند الجماهير.

فَقَالَ: اكْتُبُوا بِإِشْخَاصِهِ مُكَرَّماً، فَأُشْخِصَ مُكَرَّماً، فَتَقَدَّمَ المُتَوَكِّلُ أَنْ يَتَلَقَّاهُ جَمِيعُ بَنِي هَاشِـمٍ وَالْقُوَّادُ وَسَائِرُ النَّاسِ، وَعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا رَآهُ أَقْطَعَهُ قَطِيعَةً وَبَنَى لَهُ فِيهَا، وَحَوَّلَ إِلَيْهِ الخَمَّارِينَ وَالْقِيَانَ، وَتَقَدَّمَ لِصِلَتِهِ وَبِرِّهِ وَأَفْرَدَ لَهُ مَنْزِلاً سَرِيًّا يَصْلُحُ أَنْ يَزُورَهُ هُوَ فِيهِ، فَلَمَّا وَافَى مُوسَى تَلَقَّاهُ أَبُو الحَسَنِ (الإمام الهادي عليه السلام) فِي قَنْطَرَةِ وَصِيفٍ، وَهُوَ مَوْضِعٌ يُتَلَقَّى فِيهِ الْقَادِمُونَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَوَفَّاهُ حَقَّهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: **إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَحْضَرَكَ لِيَهْتِكَكَ وَيَضَعَ مِنْكَ، فَلَا تُقِرَّ لَهُ أَنَّكَ شَرِبْتَ نَبِيذاً، وَاتَّقِ اللهَ يَا أَخِي أَنْ تَرْتَكِبَ مَحْظُوراً.**

فَقَالَ لَهُ مُوسَى: إِنَّمَا دَعَانِي لِهَذَا، فَمَا حِيلَتِي!.

قَالَ عليه السلام: **وَلَا تَضَعْ مِنْ قَدْرِكَ، وَلَا تَعْصِ رَبَّكَ، وَلَا تَفْعَلْ مَا يَشِينُكَ، فَمَا غَرَضُهُ إِلَّا هَتْكَكَ.**

فَأَبَى عَلَيْهِ مُوسَى وَكَرَّرَ عَلَيْهِ أَبُو الحَسَنِ عليه السلام الْقَوْلَ وَالْوَعْظَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى خِلَافِهِ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُجِيبُ قَالَ عليه السلام لَهُ: **أَمَا إِنَّ المَجْلِسَ الَّذِي تُرِيدُ الاجْتِمَاعَ مَعَهُ عَلَيْهِ لَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَنْتَ وَهُوَ أَبَداً.**

قَالَ (الراوي): فَأَقَامَ مُوسَى ثَلَاثَ سِنِينَ يُبَكِّرُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بَابِ المُتَوَكِّلِ، فَيُقَالُ: قَدْ تَشَاغَلَ الْيَوْمَ، فَيَرُوحُ فَيُبَكِّرُ فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سَكِرَ، فَيُبَكِّرُ فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ شَرِبَ دَوَاءً، فَمَا زَالَ عَلَى هَذَا ثَلَاثَ سِنِينَ حَتَّى قُتِلَ المُتَوَكِّلُ وَلَمْ يَجْتَمِعْ مَعَهُ عَلَى شَرَابٍ»(١).

وهذه القصة دليل على أنه كان في البيت العلوي بعض الشاذين، والنظام كان يستفيد منهم في إلقاء الشبهات على سمعة الأئمة عليهم السلام، فيتم له أفضل استغلال

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٣.

لهؤلاء الشواذ في سبيل مصلحته.

هـذه هي الأسـباب الثلاثة. ويبقى أن نعرف أن الإمام علي بن موسـى حينما دخل في الحكم فإنه لم يعترف به، والدلالة على ذلك قوله عليه السلام: «.. **لَا أُوَلِّي أَحَداً، وَلَا أَعْزِلُ أَحَداً، وَلَا أَنْقُضُ رَسْماً وَلَا سُنَّةً، ..**»(١).

وقـد رُوي عنـه عليه السلام قوله للمأمون -بعد أن قـرأ المأمون عليه كتاباً فيه فتح لبعـض قـرى كابل، فيه «إِنَّـا فَتَحْنَا قَرْيَةَ كَذَا وَكَـذَا، فَلَمَّا فَرَغَ قَـالَ لَهُ الرِّضَا عليه السلام: **وَسَرَّكَ فَتْحُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الشِّرْكِ؟!**.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: أَوَلَيْسَ فِي ذَلِكَ سُرُورٌ؟!.

فَقَالَ عليه السلام: **يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اتَّقِ اللهَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَمَا وَلَّاكَ اللهُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ وَخَصَّكَ بِهِ، فَإِنَّكَ قَدْ ضَيَّعْتَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَوَّضْتَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِكَ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ حُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَعَدْتَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَتَرَكْتَ بَيْتَ الْهِجْرَةِ وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ يُظْلَمُونَ دُونَكَ وَلَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، وَيَأْتِي عَلَى الْمَظْلُومِ دَهْرٌ يُتْعِبُ فِيهِ نَفْسَهُ وَيَعْجِزُ عَنْ نَفَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَشْكُو إِلَيْهِ حَالَهُ وَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَارْجِعْ إِلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَمَعْدِنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، أَمَا عَلِمْتَ -يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- أَنَّ وَالِيَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُ الْعَمُودِ فِي وَسَطِ الْفُسْطَاطِ مَنْ أَرَادَهُ أَخَذَهُ.**

قَالَ الْمَأْمُونُ: يَا سَيِّدِي، فَمَا تَرَى؟!.

قَالَ عليه السلام: **أَرَى أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَتَتَحَوَّلَ إِلَى مَوْضِعِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ، وَتَنْظُرَ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ..**»(٢).

وَرُوِيَ عَـنْ مُعَمَّـرِ بْـنِ خَلَّادٍ قَالَ: «قَالَ لِي أَبُو الْحَسَـنِ الرِّضَـا عليه السلام: قَالَ لِي

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٢٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٦٤.

المَأْمُـونُ: يَا أَبَا الْحَسَـنِ، انْظُرْ بَعْـضَ مَنْ تَثِقُ بِهِ تُوَلِّيـهِ هَذِهِ الْبُلْدَانَ الَّتِي قَدْ فَسَـدَتْ عَلَيْنَا.

فَقُلْـتُ لَـهُ: تَفِي لِي وَأَفِي لَكَ، فَـإِنِّي إِنَّمَا دَخَلْتُ فِيمَا دَخَلْتُ عَـلَى أَلَّا آمُرَ فِيهِ وَلَا أَنْهَى، وَلَا أَعْزِلَ وَلَا أُوَلِّيَ، وَلَا أَسِيرَ حَتَّى يُقَدِّمَنِيَ اللهُ قَبْلَكَ، فَوَاللهِ إِنَّ الْخِلَافَةَ لَشَيْءٌ مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسِي، وَلَقَدْ كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ أَتَرَدَّدُ فِي طُرُقِهَا عَلَى دَابَّتِي، وَإِنَّ أَهْلَهَا وَغَيْرَهُمْ يَسْأَلُونِّيَ الْحَوَائِجَ فَأَقْضِيهَا لَهُمْ فَيَصِيرُونَ كَالْأَعْمَامِ لِي، وَإِنَّ كُتُبِي لَنَافِذَةٌ فِي الْأَمْصَارِ، وَمَا زِدْتَنِي فِي نِعْمَةٍ هِيَ عَلَيَّ مِنْ رَبِّي.

فَقَالَ: أَفِي لَكَ»(١).

وفي مناسـبة نصـب ولاية العهد وتقليدها الإمـام كان ممَّا جاء في خطبته التي أشار في مبدئها للمأمون قائلاً له: «.. **عَرَفَ مِنْ حَقِّنَا مَا جَهِلَهُ غَيْرُهُ**»(٢).

وقـال عليه السلام أيضـاً: «**لَنَا عَلَيْكُمْ حَقٌّ بِرَسُـولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَلَكُـمْ عَلَيْنَا حَقٌّ بِهِ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَدَّيْتُمْ إِلَيْنَا ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْنَا الْحَقُّ لَكُمْ**»(٣).

نستخلص من هذه الروايات ما يلي:

أولاً: عدم اعـتراف الإمام الرضا بالنظام العباسي وتأكيده غير مرة على عدم شرعيته.

ثانياً: علانية المعارضة، فالإمام عليه السلام يصرح للمأمون مشافهة بأن الإمام هو نفسـه كان يُطـاع في الأمصـار، فـلا حاجة لـه في ملك المأمـون الذي لا يسـتند إلى الشرعيـة، «.. **وَلَقَـدْ كُنْـتُ بِالْمَدِينَةِ أَتَرَدَّدُ فِي طُرُقِهَـا عَلَى دَابَّتِـي، وَإِنَّ أَهْلَهَا وَغَيْرَهُمْ يَسْأَلُونِّيَ الْحَوَائِجَ فَأَقْضِيهَا لَهُمْ فَيَصِيرُونَ كَالْأَعْمَامِ لِي، وَإِنَّ كُتُبِي لَنَافِذَةٌ فِي الْأَمْصَارِ،**

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٤٤.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٤١.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٤٥.

وَمَا زِدْتَنِي فِي نِعْمَةٍ هِيَ عَلَيَّ مِنْ رَبِّي»⁽¹⁾. ثم كسب الإمام عليه السلام العملية هذه ضمن الأهداف الثابتة لحركته.

وقبل أن نسدل الستار على أحداث هذه التولية، نحاول أن نأتي ببعض الوقائع الهامة التي هي بمثابة حلقة الوصل في جمع أطراف الرؤية حول ولاية العهد:

- كما قلنا: لقد وضع المأمون نفسه بين فكي كماشة، عندما ولّى الإمام الرضا عليه السلام العهد، حيث إن قصده الذي أمّله من وراء هذه العملية، كان امتصاص السخط الجماهيري، ولكن الإمام وعندما أصبح يشغل هذا المنصب، أثبت أن الخلافة الشرعية هي له، لا للمأمون الذي لا يعد حتى تلميذاً من تلامذته. فكان على المأمون نقض هذه الحقيقة الموضوعية، وذلك عن طريق جلب العلماء والفقهاء والمتكلمين حتى من غير المسلمين، لكي ينكفئ الإمام عن إجابتهم ولو لمرة واحدة، فيُشاع عن الإمام ذلك. ولكن الإمام عليه السلام زاد من نقاط نجاح أهدافه.

ونُورد رواية تاريخية من مئات أشباهها تُبيّن صدق ما نقول:

عَنِ الْبَرْقِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «أَخْبَرَنِي الرَّيَّانُ بْنُ شَبِيبٍ خَالُ الْمُعْتَصِمِ أَخُو مَارِدَةَ: أَنَّ الْمَأْمُونَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِلرِّضَا عليه السلام بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ، وَلِلْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ بِالْوِزَارَةِ، أَمَرَ بِثَلَاثَةِ كَرَاسِيَّ فَنُصِبَتْ لَهُمْ، فَلَمَّا قَعَدُوا عَلَيْهَا أَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا يُبَايِعُونَ، فَكَانُوا يُصَفِّقُونَ بِأَيْمَانِهِمْ عَلَى أَيْمَانِ الثَّلَاثَةِ مِنْ أَعْلَى الْإِبْهَامِ إِلَى الْخِنْصِرِ، وَيَخْرُجُونَ حَتَّى بَايَعَ فِي آخِرِ النَّاسِ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَصَفَّقَ بِيَمِينِهِ مِنَ الْخِنْصِرِ إِلَى أَعْلَى الْإِبْهَامِ، فَتَبَسَّمَ أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام ثُمَّ قَالَ: **كُلُّ مَنْ بَايَعَنَا بَايَعَ بِفَسْخِ الْبَيْعَةِ غَيْرَ هَذَا الْفَتَى، فَإِنَّهُ بَايَعَنَا بِعَقْدِهَا.**

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: وَمَا فَسْخُ الْبَيْعَةِ مِنْ عَقْدِهَا؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٤٤.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: **عَقْدُ الْبَيْعَةِ هُوَ مِنْ أَعْلَى الْخِنْصِرِ إِلَى أَعْلَى الْإِبْهَامِ، وَفَسْخُهَا مِنْ أَعْلَى الْإِبْهَامِ إِلَى أَعْلَى الْخِنْصِرِ.**

قَالَ: فَمَاجَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَأَمَرَ الْمَأْمُونُ بِإِعَادَةِ النَّاسِ إِلَى الْبَيْعَةِ عَلَى مَا وَصَفَهُ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام. وَقَالَ النَّاسُ: كَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ مَنْ لَا يَعْرِفُ عَقْدَ الْبَيْعَةِ، إِنَّ مَنْ عَلِمَ لَأَوْلَى بِهَا مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ.

قَالَ: فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ سَمِّه»⁽¹⁾.

وكان المأمون يطلب من الإمام الذهاب إلى المسجد وإمامة الناس، لكي يكون محسوباً على الدولة العباسية، ولكن الإمام الرضا ما كان ليخرج من بيته حتى يعطف الناس لمشاهدته وهم يضجون بالبكاء شعوراً بالتقصير والذنب تجاهه، فتذهب عيون المأمون لتخبره، فيطلب على الفور من الإمام الرجوع إلى بيته، وإلّا فإن الأمر سينقلب رأساً على عقب، لشدة لهفة القلوب المحبة للإمام، وقد حدث هذا مرات⁽²⁾.

لقد رأى المأمون نفسه أنه في مأزق كبير، وأنه كلما تأخر في القضاء على علي بن موسى الرضا عليه السلام خرج الأمر من يده أكثر فأكثر، فهو من جهة لم يتحقّق له الهدف من جلب الرضا وتوليته العهد، بل إن الأنظار أخذت تتّجه نحو الرضا عليه السلام لما بان من منزلته ودرجته العلمية الكبيرة، وأن المأمون لا يُعدّ أمامه سوى تلميذٍ له، وأنه كلما أراد أن يكسب بالرضا شرعية لسلطانه كان الأمر يأتي عكس ما يُريد.

ومن جهة ثانية ازدادت نقمة بني العباس عليه لما رأوا أن في ذلك خروج الأمر منهم، حيث اجتمع مَنْ ببغداد من ولد العباس ومواليهم وشيعتهم على خلع المأمون، ومبايعة إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة. لذا عمد، وبعد سنة

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٤٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٥٠-١٥١. المناقب، ج٤، ص٣٧١-٣٧٢.

واحدة على تولية الإمام الرضا عليه السلام[١]، على دسّ السمّ إليه، وتعجيل إيصال خبر وفاته إلى بني العباس في بغداد مُطَمْئِناً إياهم أن الأمر لا زال في أيديهم.

إذن، فإن النظرة التي طالما يناقشها الباحثون عند الحديث عن ولاية العهد، من أن المأمون كان ينطلق من دوافع دينية ورسالية، ثم بعد ذلك غلب عليه الهوى والمصلحة لقاعدة أن المُلك عقيم، هذه النظرة لا تصمد أمام الواقع التاريخي الذي سبق تولية الإمام الرضا العهد. ففي تلك الظروف الضاغطة على السلطة العباسية، من نتائج الخلافات الداخلية التي جرت بين المأمون وأتباعه وبين أخيه الأمين ومناصريه، والتي خمدت على جثث عشرات الألوف من القتلى، ودمار بغداد[٢]، ثم

---

[١] وبويع الإمام الرضا عليه السلام يوم الخميس لخمس ليال خلون من محرم سنة اثنين ومائتين، وقبض سنة ثلاث ومئتين. مروج الذهب، ج٣، ص٤٤١.

[٢] قال المسعودي: «.. حاصر أهل بغداد وغادى القتال وراوَحهُ، حتى تواكل الفريقان، وخربت الديار، وعفت الآثار، وغلت الأسعار، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة، وقاتل الأخ أخاه والابن أباه. هؤلاء محمدية (نسبة إلى محمد الأمين) وهؤلاء مأمونية وهدمت المنازل، وأحرقت الديار، وانتُهبت الأموال...». مروج الذهب، ج٣، ص٤٠١. ويقول في ص٤٠٤: «ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أربعة عشر شهرًا، وضاقت بغداد بأهلها وتعطّلت المساجد، وتُركت الصلاة، ونزل بها ما لم ينزل بها قط مثله، منذ بناها أبو جعفر المنصور». إلى إن يقول: «وحوصِرَ محمد في قصره من الجانب الغربي، فكان بينهم في بعض الأيام وقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين». ويقول أيضًا في وصفه لوقعة دار الرقيق، ص٤٠٥: «وكانت وقعة أخرى عظيمة بشارع دار الرقيق، هلك فيها خلق كثير، وكثر القتل في الطرق والشوارع، ينادي هذا بالمأمون، والآخر بالمخلوع، ويقتل بعضهم بعضًا، وانتُهبت الدور، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة».

وفي ذلك يقول الشاعر:

بكت عيني على بغداد لما   فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدّلنا همومًا من سرور   ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين   فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قصرًا   ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي: يا صحابي   وقائلة تنادي: يا شقيقي
وحوراء المدامع ذات دَلّ   مضمَّخة المجاسد بالخلوق
تنادي بالشفيق؛ فلا شفيق   وقد فقد الشفيق مع الرفيق

الضغط الكبير الذي شكَّلته الثورة الرسالية في الكوفة (ثورة أبي السرايا) التي كانت تدعو إلى الرضا من آل محمد(١) وامتدادات تلك الثورة في اليمن، والحجاز، ومكة، والمدينة، والبصرة، وواسط، والأهواز، وبلاد الجزيرة. كل تلك الظروف هي التي أراد المأمون أن يتجاوزها بأن يُضفي الشرعية على حكمه، فعمد إلى تولية الإمام الرضا عليه السلام العهد، وحينما رأى أن الأمر سار على غير ما خطط له عجَّل بالقضاء على الإمام عليه السلام، هذا **أولاً**.

ثانيًا: إن كل ما يستدل به المؤرخون على نظرتهم تلك يبتني على أقوال المأمون التي يدّعي فيها تشيعه ونيته الخالصة لله، في الوقت الذي تجد فيه أقوالاً مستفيضة بلسان المأمون نفسه وبلسان حاشيته، أن توليته الإمام العهد لم تكن إلَّا لحفظ النظام العباسي.

ولو سلّمنا جدلاً بما يذهب إليه المؤرخون، فإن في اعترافهم أن المأمون استخدم فيما بعدُ كل وسيلة لضرب الإمام وقتله، دليل على وجود المصلحة في الدوافع.

خلاصة القول: إن الإمام الرضا عليه السلام استفاد من فرصة توليه العهد في نشر المذهب الرسالي وتوعية الناس وتعريفه بالإمام الحق بين الناس، من دون أن يعترف بالنظام أو يخضع له(٢).

وقوم أخرجوا من ظل دنيا　　　متاعهمُ يباع بكل سوق
ومغترب بعيد الدار مُلقىً　　　بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعًا　　　فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه　　　وقد هرب الصديق عن الصديق
ومهما أنسَ من شيء تولى　　　فإني ذاكر دار الرقيق

(١) «.. دخل أبو السرايا (الكوفة) وخطب الناس ودعاهم إلى البيعة إلى الرضا من آل محمد، والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيرة بحكم الكتاب، فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا عليه». مقاتل الطالبيين، ص٤٢٨.

(٢) بعد أن تولى الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد، نشط الشعراء الرساليين في تبيين معالم مدرسة

هـذا جانب من حياة الإمـام الرضا عليه السلام وحياة الإمام الرضا عليه السلام جانب آخر ذلك هو جانب الجهاد الفكري الذي قام به في حياته، وسوف نتحدَّث عنه فيما بعد إن شاء الله.

أهل البيت عليهم السلام وجهادهم ضد الظلم والانحراف، سواءً في عهد الأمويين أو في عهد العباسيين. ومن هؤلاء الشعراء دعبل الخزاعي الذي أنشد الإمام الرضا عليه السلام قصيدته التائية المعروفة التي يقول فيها:

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ
مَنَازِلُ كَانَتْ لِلصَّلَاةِ وَلِلتُّقَى وَلِلصَّوْمِ وَالتَّطْهِيرِ وَالْحَسَنَاتِ
مَنَازِلُ جَبْرَئِيلُ الْأَمِينُ يَحُلُّهَا مِنَ الله بِالتَّسْلِيمِ وَالزَّكَوَاتِ
مَنَازِلُ وَحْيِ الله مَعْدِنُ عِلْمِهِ سَبِيلُ رَشَـادٍ وَاضِـحُ الطُّرُقَاتِ
هُمْ آلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا انْتَمَوْا وَهُمْ خَيْرُ سَادَاتٍ وَخَيْرُ حُمَاةِ

القصيدة تجدها كاملة في: بحار الأنوار، ج٤٩، ص٢٤٤-٢٤٥.

صفو الكلام

* كانت الحركة في عهد الإمام الرضا عليه السلام في عنفوان شبابها، إذ إن المسار الطبيعي للرسالات هو النمو والتكامل لا التراجع والانكفاء. ولذلك فإنّ عهد الإمام الرضا كان يتسم بنوع من الانفراج والحرية.

* وكان السبب وراء سعي المأمون لتقليد الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد، ليس هو تشيّعه -كما يزعم البعض- وإنما بسبب فرض الحركة الرسالية نفسها على الواقع، إلى جانب عوامل أخرى مثل: شخصية الإمام، وتهالك السلطة وانحطاطها، ووجود الدويلات المستقلة هنا وهناك، وثورة أبي السرايا.

* وقد استفاد الإمام الرضا عليه السلام من فرصة توليه العهد في نشر المذهب الرسالي، وتوعية الناس، وتعريفه بالإمام الحق بين الناس من دون أن يعترف بالنظام أو يخضع له.

دَوْرُ الإمَامِ الرِّضَا عليه السلام السِّيَاسِيّ وَالثَّقَافِيّ فِي الأُمَّة

تنعكس الحياة السياسية بشكل أو بآخر على الحياة الفكرية في الأمة، فإذا كانت الحياة السياسية تتميَّز بالاضطراب والتوتُّر، فإن الجانب الفكري منها لا بد أن يتميَّز بالاضطراب والتوتر. وإذا كانت الأمة تفتقد الرؤية الواضحة تجاه مواقفها السياسية فإنها تعيش الضبابية في أكثر المواقف الفكرية والثقافية.

كذلك تنعكس الحياة الفكرية والثقافية على الحياة السياسية، أي إنه إذا كانت الأمة مضطربة التفكير من الناحية الثقافية، فإن مواقفها ورؤيتها في القضايا السياسية أيضاً ستكون مضطربة.

وهذا يُفسِّر لنا سبب الاضطراب الذي عاشته الأمة الإسلامية في عهد الإمام علي بن موسى عليه السلام على الصعيد السياسي. ونعود ونُفصِّل ما أجملناه سابقاً عن الظروف التي عاشتها الأمة الإسلامية.

فمن الناحية السياسية كانت هناك ثورات متلاحقة، فثورة في مصر، وأخرى في السودان، والحجاز، والعراق، وهكذا تلاحقت الثورات في الأمة الإسلامية. وفي تلك الفترة من سنة ١٩٨ إلى ٢٠٤ للهجرة، كان الخليفة العباسي المأمون قد اتَّخذ من خراسان عاصمة له. وقبل هذه الفترة كان مشغولاً بمحاربة أخيه الأمين، الذي كان الخليفة الرسمي حسب المراسيم والمفاهيم العباسية في بغداد، ولكن المأمون خلع الأمين ونسب الخلافة إلى نفسه، وأخذ يُحاربه إلى أن انتصر عليه، ودخل جيش

المأمـون بغداد عاصمة الأمين بعد قتل وهدم واسـعين، وبعدئذٍ هدأت الأوضاع في بغداد، ورجع الجيش إلى خراسان، ومرة أخرى عاد الاضطراب والسخط في بغداد، ونصب أهل بغداد على أنفسهم إبراهيم بن المهدي خليفة، وخلعوا بيعتهم للمأمون. كانـت تلـك ثورة، وفي هـذه الفترة بالذات كانت منطقة مصر تشـهد تحـوُّلاً خطيراً حيث إن المسيحيين المصريين ثاروا على الوالي العباسي وطردوه⁽¹⁾.

وفي تلـك الفـترة حـدث أن الهنود الذين اسـتُرِقُّوا من السـند والبنجاب وباكسـتان الشرقية وجيء بهم إلى البصرة، سـيطروا على البـصرة والبحرين، بعدما رأوا أن هناك حرباً طاحنة تجري في الساحة الإسلامية، وأخذوا يفرضون الضرائب الضخمة على ميناء البصرة، الذي كان من أهم الموانئ الإسـلامية في ذلك اليوم، وقد عرفوا بالزّط نسـبة إلى لغتهم التي لم يكـن الناس يعرفونها، فإذا رأوا أحدهم يتكلَّـم، يقولون: هذا (يرطن)، بمعنى أنه يتكلَّم بكلام غير مفهوم⁽²⁾. وكان تعداد الزّط يربو على العشرين ألفاً كما نقلته كتب التاريخ⁽³⁾.

وفي تلـك الفـترة تشـكَّلت في اليمـن حكومة قامـت بالانفصال عن الجسـم العباسي، وذلك بعدمـا وُلِّيَ محمد الزيادي على اليمن، والذي انفصل وكوّن الدولة الزيادية. وفي الوقت نفسه كانت هناك اضطرابات في أذربيجان وأرمينيا وما حولهما.

وهكذا أصبحت الدولة الإسـلامية غارقة إلى رأسها في الاضطرابات، وهذا الوضع المضطرب انعكس على الجانب الفكري. فأخذ المسلم لا يعرف ما هو دوره في الحياة، وهل أن الدين الذي يُؤمن به صحيح أم لا.

---

(١) كانت الثورة في مصر دائرة بين القيسية (أنصار الأمين) واليمانية (أنصار المأمون)، ثم أعقبها خروج أهل البشرود من كور مصر على والي المأمون في مصر عبدويه بن جبلة (توفي بعد: ٢١٦هـ)، وكان أكثر عمل عبدويه في مصر، ولي شرطتها في إمارة عبدالله بن طاهر، وولي إمارتها بالنيابة عن المعتصم حين كان واليًا لعهد المأمون، وقد تخلَّى عن الإمارة بعد الثورة عليه والإطاحة به. انظر: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٦٥. الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٠٩. الأعلام، ج٤، ص١٨٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٤٦٨. تاريخ الإسلام، ج١٥، ص٣٠. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٢١.

(٣) تاريخ الإسلام، ج١٥، ص٣٠.

انتشار الترجمة(١) في زمن المأمون

وقد استغل المأمون العباسي ذلك الوضع فابتدع في الإسلام بدعة، وهي أنه أمر بترجمة الكتب الأجنبية القديمة، وبذلك أصبحت سياسة سنّ القوانين، وطريقة إدارة الدولة، تعتمد أساساً على القواعد غير الإسلامية، فأنشأ في خراسان ونيسابور وغيرهما من المناطق دوراً للترجمة(٢)، وأخذ يصرف عليها الأموال الطائلة، ولقد قام بهذا العمل لأحد سببين:

السبب الأول: إن المأمون العباسي حينما وجد أن الأفكار الثورية قد انتشرت في الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، لم يجد بُدًّا من الاعتماد على خلفية فكرية معينة يُحارب بها تلك الأفكار الثورية. هذه الخلفية شكَّلتها الأفكار التي تحملها الكتب المترجمة، خصوصاً من اللغة الفارسية.

ونتساءل ما هي تلك الكتب التي تُرجمت؟.

لو رجعنا إلى تاريخ فارس لرأينا أن هناك مجموعة من الملوك كانوا يُسيطرون على رقاب الناس، بينما الناس كانوا مُستعبَدِين، محرومين، ومُشبَّعين بأفكار استسلامية لا تدعوهم للثورة والتحرُّر، وكانت السلطات تعمل على ضخ هذه الثقافة السلبية بواسطة كُتّاب يصرف عليهم الإمبراطور الأموال الضخمة ليكتبوا كتباً يدعمون بها سلطانه.

فكانت هذه الكتب تدعو إلى الاستسلام وتقول: «الله في السماء، والشاهنشاه

---

(١) طالع ما كتبه المصنف عن تاريخ حركة الترجمة في كتابه (العرفان الإسلامي)، تحت عنوان: المسلمون وترجمة العلوم العقلية.

(٢) أسس المأمون في بغداد دار الحكمة سنة ١٤٨هـ، رأسها يحيى بن ماسويه، ومن بعده تلميذه حنين بن إسحاق، يرجع نسبه إلى قبيلة عربية مسيحية، وهو أشهر مترجم للكتب اليونانية إلى السريانية والعربية. وقد شُكّلت لجنة تعمل على الترجمة من السريانية إلى العربية مباشرة. طالع: تاريخ الفلسفة الإسلامية، للمستشرق هنري كوربان، ص٥٧-٥٨. وأيضًا: العرفان الإسلامي.. بين نظريات البشر وبصائر الوحي، ص٨٧.

(ملك الملوك) في الأرض». وكذلك تقول: «صلاح مملكت خويش.. خسروان دانند». وتعني هذه العبارة: أن الحكم لا يعرف أصوله وطرقه إلَّا الكبار، وكذلك تقول هذه الكتب: إن العائلة المالكة ضرورية لاستقرار البلد.

هذه الأفكار هي التي استطاعت التغلُّب على إرادة الجماهير وتخديرها والسيطرة عليها سيطرة كاملة. وقد اطلّع المأمون على تلك الأفكار في خراسان التي عاش فيها واتَّصل ببقايا ممالك فارس، ووجد في تلك الأفكار خير عامل على تثبيت سلطانه.

السبب الثاني: بسبب ما ظهر في البلاد الإسلامية من حركات انحرافية، نتيجة الخيبة التي مُني بها من دخل الإسلام من أتباع الديانات الأخرى، وهم ينشدون العدالة الاجتماعية، والحرية السياسية، والرحمة، فإذا بهم رأوا أن الإسلام -من حيث الواقع السائد تحت ظل الحكومات الاستبدادية- هو مجموعة من الأفكار التي يُسيطر بها بنو أمية وبنو العباس على رقاب الناس، فاندفعوا راجعين إلى دياناتهم السابقة، أو إلى معتقدات انحرافية جديدة نسبوها إلى الإسلام.

ومع أن العباسيين انتهجوا مع أصحاب هذه الأفكار سياسة التقتيل، إلَّا أنهم في الوقت نفسه كانوا يحتاجون إلى ما يُجابهون به تلك الأفكار التي وجدت لها آذاناً صاغية في أوساط المجتمع الإسلامي، الذي كانت السلطات تعمل على فصله عن الفكر الإسلامي الأصيل المُتمثِّل بمدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام، لذلك عمدوا إلى تشجيع حركة الترجمة(١).

---

(١) قال العلامة المجلسي رحمه الله: «أقول: هذه الجناية على الدين وتشهير كتب الفلاسفة بين المسلمين من بدع خلفاء الجور المعاندين لأئمة الدين ليصرفوا الناس عنهم، وعن الشرع المبين، ويدل على ذلك ما ذكره الصفدي في شرح (لامية العجم): أن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى -أظنه صاحب جزيرة قبرس- طلب منهم خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك، فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلَّا مطران واحد، فإنه قال: جهزها إليهم ما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلَّا أفسدتها وأوقعت الاختلاف بين علمائها». بحار الأنوار، ج٥٧، ص١٩٧.

إن السلطات العباسية هي التي دفعت بالناس إلى التمرُّد ضد الإسلام، وذلك لأنها جيّرت الفكر الإسلامي لصالحها، فالمأمون العباسي، كالخلفاء الذين من قبله، حينما رأى تلك الحركات، أراد الاستعانة بالفكر الغربي أو الشرقي في سبيل إعادة التوازن داخل الفكر الإسلامي عن طريق تطعيم الأفكار والعقائد الإسلامية وعلم الكلام الإسلامي بأفكار أرسطو، وأفلاطون، وغيرهما، فكان أشبه بالأنظمة التي ترتدي لباس الإسلام والتي تأتي بسائر أنواع النبيذ ثم تُعاقب من يشربه، أو تقطع يد السارق مع أنها هي التي تدفعه إلى السرقة بسبب سياستها الاقتصادية السيئة.

لأنه حينما ننقل أفكار الغربيين والشرقيين إلى الفكر الإسلامي وهو يعيش حالة اضطراب، فإن ذلك يعني أننا ساعدنا الأمة الإسلامية على الانحراف.

دور الإمام الرضا عليه السلام

في هذا الجو المضطرب جاء الإمام الرضا عليه السلام منقذاً للأمة من جو الاضطراب السياسي الذي ينعكس بدوره على الاضطراب الفكري وانتشار الأفكار اللادينية في الأمة الإسلامية، التي غذّتها ترجمة السلطات للكتب الغربية والشرقية المشحونة بالشرك والكفر والأفكار الاستسلامية.

وحينما ننظر إلى رحلة الإمام الرضا عليه السلام في طريقه من المدينة إلى خراسان بناء على طلب المأمون إياه، هذه الرحلة التي استغرقت عدة شهور. حيث مر بالبصرة، والأهواز، وفارس، وطوس، وحتى مرو. كان الإمام أينما يحط برحله فإنه يبث من علومه ويُحاجج الملحدين والمشككين.

فَقَدْ رُوِيَ أَنّ الإِمَامُ الرِّضَا عليه السلام حِينَ رَحَلَ مِنْ نَيْسَابُورَ وَهُوَ رَاكِبٌ بَغْلَةً شَهْبَاءَ، فَإِذَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْحَارِثِ، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ، وَعِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَدْ تَعَلَّقُوا بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ بِالمَرْبَعَةِ فَقَالُوا: بِحَقِّ آبَائِكَ الطَّاهِرِينَ حَدِّثْنَا بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِيكَ؟.

فَأَخْـرَجَ رَأْسَـهُ مِنَ الْعَمَّارِيَّةِ وَعَلَيْهِ مِطْرَفُ خَـزٍّ ذُو وَجْهَيْنِ، وَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِيَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ مُوسَى بْـنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِـي أَبِيَ الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْـنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بَاقِرُ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ سَـيِّدُ الْعَابِدِينَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي سَـيِّدُ شَبَابِ الْجَنَّةِ الْحُسَيْنُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ: سَـمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: سَـمِعْتُ جَبْرَئِيلَ عليه السلام يَقُولُ: قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي. مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِالْإِخْلَاصِ دَخَلَ فِي حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»⁽¹⁾.

وما هـذه إلَّا واحدة من عشرات المرات التي قال فيها الإمـام هذا الحديث الشريـف وهـو في طريقـه إلى خراسـان، وهـو يُركِّـز في الأمـة ذلك الفكـر الإيماني التوحيدي.

الإمام يناظر أصحاب المقالات

وروي أيضًـا عن الهاشـميِّ قـال: «لَمَّا قَدِمَ عَـلِيُّ بْنُ مُوسَـى الرِّضَا عليه السلام عَلَى الْمَأْمُونِ، أَمَرَ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ أَصْحَابَ الْمَقَالَاتِ مِثْلَ: الْجَاثَلِيقِ، وَرَأْسِ الْجَالُـوتِ، وَرُؤَسَـاءِ الصَّابِئِينَ، وَالْهِرْبِذِ الْأَكْبَرِ، وَأَصْحَابِ زَرْدَهُشْـتَ، وَنِسْـطَاسَ الرُّومِيِّ، وَالْمُتَكَلِّمِينَ لِيَسْـمَعَ كَلَامَهُ وَكَلَامَهُمْ. فَجَمَعَهُمُ الْفَضْلُ بْنُ سَـهْلٍ ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَأْمُونَ بِاجْتِمَاعِهِمْ، فَقَالَ: أَدْخِلْهُمْ عَلَيَّ.

فَفَعَلَ فَرَحَّبَ بِهِمُ الْمَأْمُونُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ لِخَيْرٍ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تُنَاظِرُوا ابْنَ عَمِّي هَذَا الْمَدَنِيَّ الْقَادِمَ عَلَيَّ، فَإِذَا كَانَ بُكْرَةً فَاغْدُوا عَلَيَّ وَلَا يَتَخَلَّفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ.

فَقَالُوا: السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَحْنُ مُبْكِرُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَالَ الْحَسَـنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفِلِيُّ: فَبَيْنَا نَحْنُ فِي حَدِيثٍ لَنَا عِنْدَ أَبِي الْحَسَـنِ الرِّضَا عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا يَاسِرٌ -وَكَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام- فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، إِنَّ

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٢٢.

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: فِدَاكَ أَخُوكَ، إِنَّهُ اجْتَمَعَ إِلَيَّ أَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ، وَأَهْلُ الْأَدْيَانِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ جَمِيعِ الْمِلَلِ، فَرَأْيُكَ فِي الْبُكُورِ عَلَيْنَا إِنْ أَحْبَبْتَ كَلَامَهُمْ، وَإِنْ كَرِهْتَ ذَلِكَ فَلَا تَتَجَشَّمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْكَ خَفَّ ذَلِكَ عَلَيْنَا.

فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: **أَبْلِغْهُ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: قَدْ عَلِمْتُ مَا أَرَدْتَ، وَأَنَا صَائِرٌ إِلَيْكَ بُكْرَةً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.**

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا مَضَى يَاسِرٌ الْتَفَتَ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ عليه السلام لِي: **يَا نَوْفَلِيُّ، أَنْتَ عِرَاقِيٌّ وَرِقَّةُ الْعِرَاقِيِّ غَيْرُ غَلِيظَةٍ، فَمَا عِنْدَكَ فِي جَمْعِ ابْنِ عَمِّكَ عَلَيْنَا أَهْلَ الشِّرْكِ وَأَصْحَابَ الْمَقَالَاتِ؟.**

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، يُرِيدُ الِامْتِحَانَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَكَ، وَلَقَدْ بَنَى عَلَى أَسَاسٍ غَيْرِ وَثِيقِ الْبُنْيَانِ، وَبِئْسَ وَاللهِ مَا بَنَى!.

فَقَالَ لِي: **وَمَا بِنَاؤُهُ فِي هَذَا الْبَابِ؟!.**

قُلْتُ: إِنَّ أَصْحَابَ الْكَلَامِ وَالْبِدَعِ خِلَافُ الْعُلَمَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَالِمَ لَا يُنْكِرُ غَيْرَ الْمُنْكَرِ، وَأَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ وَأَهْلُ الشِّرْكِ أَصْحَابُ إِنْكَارٍ وَمُبَاهَتَةٍ، إِنِ احْتَجَجْتَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَاحِدٌ، قَالُوا صَحِّحْ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، قَالُوا: ثَبِّتْ رِسَالَتَهُ. ثُمَّ يُبَاهِتُونَ الرَّجُلَ وَهُوَ يُبْطِلُ عَلَيْهِمْ بِحُجَّتِهِ، وَيُغَالِطُونَهُ حَتَّى يَتْرُكَ قَوْلَهُ، فَاحْذَرْهُمْ جُعِلْتُ فِدَاكَ.

قَالَ: فَتَبَسَّمَ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ: **يَا نَوْفَلِيُّ، أَفَتَخَافُ أَنْ يَقْطَعُونِي عَلَى حُجَّتِي؟!.**

قُلْتُ: لَا وَاللهِ مَا خِفْتُ عَلَيْكَ قَطُّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُظْفِرَكَ اللهُ بِهِمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَقَالَ عليه السلام لِي: **يَا نَوْفَلِيُّ، أَتُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ مَتَى يَنْدَمُ الْمَأْمُونُ؟.**

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَـالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِذَا سَـمِعَ احْتِجَاجِـي عَـلَى أَهْـلِ التَّـوْرَاةِ بِتَوْرَاتِهِمْ، وَعَـلَى أَهْلِ الْإِنْجِيـلِ بِإِنْجِيلِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الزَّبُورِ بِزَبُورِهِمْ، وَعَـلَى الصَّابِئِينَ بِعِبْرَانِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَهْـلِ الْهَرَابِـذَةِ بِفَارِسِـيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَهْـلِ الـرُّومِ بِرُومِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَصْحَـابِ الْمَقَالَاتِ بِلُغَاتِهِمْ.**

فَإِذَا قَطَعْتُ كُلَّ صِنْفٍ وَدَحَضْتُ حُجَّتَهُ، وَتَرَكَ مَقَالَتَهُ، وَرَجَعَ إِلَى قَوْلِي، عَلِمَ الْمَأْمُونُ أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ النَّدَامَةُ مِنْهُ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا أَتَانَا الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، ابْنُ عَمِّكَ يَنْتَظِرُكَ، وَقَدِ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَمَا رَأْيُكَ فِي إِتْيَانِهِ؟.

فَقَالَ لَهُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: **تَقَدَّمْنِي وَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى نَاحِيَتِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ.**

ثُمَّ تَوَضَّأَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وُضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، وَشَرِبَ شَرْبَةَ سَوِيقٍ، وَسَقَانَا مِنْهُ. ثُمَّ خَرَجَ وَخَرَجْنَـا مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى الْمَأْمُونِ، فَإِذَا الْمَجْلِسُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي جَمَاعَةِ الطَّالِبِيِّينَ وَالْهَاشِمِيِّينَ وَالْقُوَّادُ حُضُورٌ.

فَلَمَّا دَخَلَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ الْمَأْمُونُ، وَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَجَمِيعُ بَنِي هَاشِمٍ، فَمَا زَالُوا وُقُوفاً وَالرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ جَالِسٌ مَعَ الْمَأْمُونِ، حَتَّى أَمَرَهُمْ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسُـوا. فَلَمْ يَزَلِ الْمَأْمُونُ مُقْبِلًا عَلَيْهِ يُحَدِّثُهُ سَاعَةً.

ثُمَّ الْتَفَتَ -إِلَى الْجَاثَلِيقِ- فَقَالَ: يَا جَاثَلِيقُ؛ هَذَا ابْنُ عَمِّي عَلِيُّ بْنُ مُوسَـى بْنِ جَعْفَـرٍ، وَهُوَمِـنْ وُلْدِ فَاطِمَـةَ بِنْتِ نَبِيِّنَا وَابْـنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِـبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَأُحِبُّ أَنْ تُكَلِّمَهُ وَتُحَاجَّهُ وَتُنْصِفَهُ.

فَقَالَ الْجَاثَلِيقُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ أُحَاجُّ رَجُلًا يَحْتَجُّ عَلَيَّ بِكِتَابٍ أَنَا مُنْكِرُهُ وَنَبِيٍّ لَا أُومِنُ بِهِ.

فَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا نَصْرَانِيُّ، فَإِنِ احْتَجَجْتُ عَلَيْكَ بِإِنْجِيلِكَ أَتُقِرُّ بِهِ.**

قَالَ الجَاثَلِيقُ: وَهَلْ أَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ مَا نَطَقَ بِهِ الْإِنْجِيلُ، نَعَمْ وَالله أُقِرُّ بِهِ، عَلَى رَغْمِ أَنْفِي.

ثُمَّ قَرَأَ الرِّضَا عليه السلام عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ، وَأَثْبَتَ عَلَيْهِ أَنَّ نَبِيَّنَا صلى الله عليه وآله مَذْكُورٌ فِيهِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِعَدَدِ حَوَارِيِّ عِيسَى عليه السلام، وَأَحْوَالِهِمْ وَاحْتَجَّ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ، أَقَرَّ بِهَا، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ شَعْيَا وَغَيْرَهُ. إِلَى أَنْ قَالَ الجَاثَلِيقُ: لِيَسْأَلْكَ غَيْرِي، فَلَا وَحَقِّ المَسِيحِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ فِي عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ مِثْلَكَ.

فَالْتَفَتَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى رَأْسِ الجَالُوتِ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَكِتَابِ شَعْيَا وَحَيْقُوقَ حَتَّى أُفْحِمَ وَلَمْ يُحِرْ جَوَاباً.

ثُمَّ دَعَا عليه السلام بِالْهِرْبِذِ الْأَكْبَرِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَطَعَ هِرْبِذُ مَكَانَهُ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **يَا قَوْمِ؛ إِنْ كَانَ فِيكُمْ أَحَدٌ يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ فَلْيَسْأَلْ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ.**

فَقَامَ إِلَيْهِ عِمْرَانُ الصَّابِي -وَكَانَ وَاحِداً فِي المُتَكَلِّمِينَ- فَقَالَ: يَا عَالِمَ النَّاسِ؛ لَوْ لَا أَنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى مَسْأَلَتِكَ لَمْ أُقْدِمْ عَلَيْكَ بِالمَسَائِلِ، فَلَقَدْ دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالشَّامَ وَالجَزِيرَةَ، وَلَقِيتُ المُتَكَلِّمِينَ، فَلَمْ أَقَعْ عَلَى أَحَدٍ يُثْبِتُ لِي وَاحِداً لَيْسَ غَيْرُهُ قَائِماً بِوَحْدَانِيَّتِهِ، أَفَتَأْذَنُ أَنْ أَسْأَلَكَ؟.

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **إِنْ كَانَ فِي الجَمَاعَةِ عِمْرَانُ الصَّابِي، فَأَنْتَ هُوَ.**

قَالَ: أَنَا هُوَ.

قَالَ عليه السلام: **سَلْ يَا عِمْرَانُ، وَعَلَيْكَ بِالنَّصَفَةِ، وَإِيَّاكَ وَالخَطَلَ وَالجَوْرَ.**

فَقَالَ: وَالله يَا سَيِّدِي مَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ تُثْبِتَ لِي شَيْئاً أَتَعَلَّقُ بِهِ، فَلَا أَجُوزُهُ.

قَالَ عليه السلام: **سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ.**

فَازْدَحَمَ النَّاسُ وَانْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَاحْتَجَّ الرِّضَا عليه السلام عَلَيْهِ وَطَالَ

الْكَلَامُ بَيْنَهُمَا إِلَى الزَّوَالِ، فَالْتَفَتَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْمَأْمُونِ فَقَالَ: **الصَّلَاةُ قَدْ حَضَرَتْ.**

فَقَالَ عِمْرَانُ: يَا سَيِّدِي، لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ مَسْأَلَتِي فَقَدْ رَقَّ قَلْبِي.

قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: **نُصَلِّي وَنَعُودُ.**

فَنَهَضَ وَنَهَضَ الْمَأْمُونُ، فَصَلَّى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاخِلًا وَصَلَّى النَّاسُ خَارِجاً خَلْفَ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ. ثُمَّ خَرَجَا فَعَادَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَجْلِسِهِ، وَدَعَا بِعِمْرَانَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **سَلْ يَا عِمْرَانُ.**

فَسَأَلَهُ عَنِ الصَّانِعِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، وَأُجِيبَ إِلَى أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أَفَهِمْتَ يَا عِمْرَانُ؟.**

قَالَ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي، قَدْ فَهِمْتُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى مَا وَصَفْتَ وَوَحَّدْتَ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْهُدَى، وَدِينِ الْحَقِّ.

ثُمَّ خَرَّ سَاجِداً نَحْوَ الْقِبْلَةِ، وَأَسْلَمَ.

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا نَظَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ إِلَى كَلَامِ عِمْرَانَ الصَّابِي، وَكَانَ جَدِلًا لَمْ يَقْطَعْهُ عَنْ حُجَّتِهِ أَحَدٌ قَطُّ، لَمْ يَدْنُ مِنَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ. وَأَمْسَيْنَا فَنَهَضَ الْمَأْمُونُ وَالرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَخَلَا، وَانْصَرَفَ النَّاسُ.

.. فَكَانَ عِمْرَانُ بَعْدَ ذَلِكَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَقَالَاتِ فَيُبْطِلُ أَمْرَهُمْ حَتَّى اجْتَنَبُوهُ، وَوَصَلَهُ الْمَأْمُونُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَأَعْطَاهُ الْفَضْلُ مَالًا، وَحَمَلَهُ وَوَلَّاهُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ صَدَقَاتِ بَلْخٍ فَأَصَابَ الرَّغَائِبَ»(١).

وكان عليه السلام قد حاجج أصحاب المقالات في البصرة، وهو في طريقه إلى خراسان.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٧٣-١٧٧.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيِّ قَالَ: «.. فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ دُخُولِيَ الْبَصْرَةَ إِذَا الرِّضَا عليه السلام قَدْ وَافَى فَقَصَدَ مَنْزِلَ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ دَاخِلًا لَهُ دَارَهُ، وَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَتَصَرَّفُ بَيْنَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَقَالَ: **يَا حَسَنَ بْنَ مُحَمَّدٍ، أَحْضِرْ جَمِيعَ الْقَوْمِ الَّذِينَ حَضَرُوا عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ شِيعَتِنَا، وَأَحْضِرْ جَاثَلِيقَ النَّصَارَى، وَرَأْسَ الْجَالُوتِ، وَمُرِ الْقَوْمَ يَسْأَلُوا عَمَّا بَدَا لَهُمْ.**

فَجَمَعَهُمْ كُلَّهُمْ وَالزَّيْدِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةَ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِمَا يَدْعُوهُمُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا ثُنِيَ لِلرِّضَا عليه السلام وِسَادَةٌ فَجَلَسَ عَلَيْهَا.

ثُمَّ قَالَ: **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، هَلْ تَدْرُونَ لِمَ بَدَأْتُكُمْ بِالسَّلَامِ؟**.

قَالُوا: لَا.

قَالَ عليه السلام: **لِتَطْمَئِنَّ أَنْفُسُكُمْ.**

قَالُوا: مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللهُ.

قَالَ عليه السلام: **أَنَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** عليهم السلام**، وَابْنُ رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله، ..

ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الرِّضَا عليه السلام: **لَا تَتَفَرَّقُوا فَإِنِّي إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ لِتَسْأَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ مِنْ آثَارِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَاتِ الْإِمَامَةِ الَّتِي لَا تَجِدُونَهَا إِلَّا عِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَهَلُمُّوا مَسَائِلَكُمْ.**

فَابْتَدَأَ عَمْرُو بْنُ هَدَّابٍ، فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيَّ ذَكَرَ عَنْكَ أَشْيَاءَ لَا تَقْبَلُهَا الْقُلُوبُ!.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **وَمَا تِلْكَ؟!.**

قَالَ: أَخْبَرَنَا عَنْكَ أَنَّكَ تَعْرِفُ كُلَّ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَأَنَّكَ تَعْرِفُ كُلَّ لِسَانٍ وَلُغَةٍ!.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **صَدَقَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ، فَأَنَا أَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَهَلُمُّوا فَاسْأَلُوا.**

قَالَ: فَإِنَّا نَخْتَبِرُكَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِالْأَلْسُنِ وَاللُّغَاتِ، وَهَذَا رُومِيٌّ، وَهَذَا هِنْدِيٌّ، وَفَارِسِيٌّ، وَتُرْكِيٌّ، فَأَحْضَرْنَاهُمْ.

فَقَالَ عليه السلام: **فَلْيَتَكَلَّمُوا بِمَا أَحَبُّوا، أُجِبْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِلِسَانِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.**

فَسَأَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَةً بِلِسَانِهِ وَلُغَتِهِ، فَأَجَابَهُمْ عَمَّا سَأَلُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، فَتَحَيَّرَ النَّاسُ وَتَعَجَّبُوا وَأَقَرُّوا جَمِيعاً بِأَنَّهُ أَفْصَحُ مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ.

ثُمَّ نَظَرَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى ابْنِ هَذَّابٍ فَقَالَ: **إِنْ أَنَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ سَتُبْتَلَى فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِدَمِ ذِي رَحِمٍ لَكَ كُنْتَ مُصَدِّقاً لِي؟**.

قَالَ: لَا فَإِنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

قَالَ عليه السلام: **أَوَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾(١). فَرَسُولُ اللهِ عِنْدَ اللهِ مُرْتَضًى، وَنَحْنُ وَرَثَةُ ذَلِكَ الرَّسُولِ الَّذِي أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ غَيْبِهِ، فَعَلِمْنَا مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الَّذِي أَخْبَرْتُكَ بِهِ يَا ابْنَ هَذَّابٍ لَكَائِنٌ إِلَى خَمْسَةِ أَيَّامٍ، فَإِنْ لَمْ يَصِحَّ مَا قُلْتُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ فَإِنِّي كَذَّابٌ مُفْتَرٍ. وَإِنْ صَحَّ فَتَعْلَمُ أَنَّكَ الرَّادُّ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَذَلِكَ دَلَالَةٌ أُخْرَى أَمَا إِنَّكَ سَتُصَابُ بِبَصَرِكَ، وَتَصِيرُ مَكْفُوفاً فَلَا تُبْصِرُ سَهْلاً وَلَا جَبَلاً، وَهَذَا كَائِنٌ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَلَكَ عِنْدِي دَلَالَةٌ أُخْرَى إِنَّكَ سَتَحْلِفُ يَمِيناً كَاذِبَةً فَتُضْرَبُ بِالْبَرَصِ.**

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ: تَاللهِ؛ لَقَدْ نَزَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِابْنِ هَذَّابٍ، فَقِيلَ لَهُ: صَدَقَ الرِّضَا أَمْ كَذَبَ؟. قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَخْبَرَنِي بِهِ أَنَّهُ كَائِنٌ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَتَجَلَّدُ.

ثُمَّ إِنَّ الرِّضَا الْتَفَتَ إِلَى الْجَاثَلِيقِ فَقَالَ: **هَلْ دَلَّ الْإِنْجِيلُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم؟**.

قَالَ: لَوْ دَلَّ الْإِنْجِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا جَحَدْنَاهُ!.

---

(١) سورة الجِن، آية: ٢٦-٢٧.

فَقَالَ عليه السلام: أَخبِرْنِي عَنِ السَّكْتَةِ الَّتِي لَكُمْ فِي السِّفْرِ الثَّالِثِ؟.

فَقَالَ الجْاثَلِيقُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُظْهِرَهُ.

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **فَإِنْ قَرَّرْتُكَ أَنَّهُ اسْمُ مُحَمَّدٍ وَذِكْرُهُ، وَأَقَرَّ عِيسَى بِهِ، وَأَنَّهُ بَشَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُحَمَّدٍ لَتُقِرُّ بِهِ وَلَا تُنْكِرُهُ؟.**

قَالَ الجْاثَلِيقُ: إِنْ فَعَلْتَ أَقْرَرْتُ فَإِنِّي لَا أَرُدُّ الْإِنْجِيلَ وَلَا أَجْحَدُ.

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **فَخُذْ عَلَى السِّفْرِ الثَّالِثِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِمُحَمَّدٍ.**

قَالَ الجْاثَلِيقُ: هَاتِ!.

فَأَقْبَلَ الرِّضَا عليه السلام، يَتْلُو ذَلِكَ السِّفْرَ مِنَ الْإِنْجِيلِ حَتَّى بَلَغَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ عليه السلام: يَا جَاثَلِيقُ مَنْ هَذَا الْمَوْصُوفُ؟.

قَالَ الجْاثَلِيقُ: صِفْهُ؟.

قَالَ عليه السلام: لَا أَصِفُهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَهُ اللهُ، هُوَ صَاحِبُ النَّاقَةِ، وَالْعَصَا وَالْكِسَاءِ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. يَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ الْأَقْصَدِ، وَالْمِنْهَاجِ الْأَعْدَلِ، وَالصِّرَاطِ الْأَقْوَمِ. سَأَلْتُكَ يَا جَاثَلِيقُ بِحَقِّ عِيسَى رُوحِ اللهِ وَكَلِمَتِهِ: هَلْ تَجِدُونَ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي الْإِنْجِيلِ لِهَذَا النَّبِيِّ؟.

فَأَطْرَقَ الجْاثَلِيقُ -مَلِيًّا وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ جَحَدَ الْإِنْجِيلَ كَفَرَ- فَقَالَ: نَعَمْ هَذِهِ الصِّفَةُ مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَقَدْ ذَكَرَ عِيسَى فِي الْإِنْجِيلِ هَذَا النَّبِيَّ وَلَمْ يَصِحَّ عِنْدَ النَّصَارَى أَنَّهُ صَاحِبُكُمْ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **أَمَّا إِذَا لَمْ تَكْفُرْ بِجُحُودِ الْإِنْجِيلِ، وَأَقْرَرْتَ بِمَا فِيهِ مِنْ صِفَةِ**

مُحَمَّدٍ، فَخُذْ عَلَيَّ فِي السِّـفْرِ الثَّانِي، فَإِنِّي أُوجِدُكَ ذِكْرَهُ صلى الله عليه وآله وَذِكْرَ وَصِيِّهِ، وَذِكْرَ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ، وَذِكْرَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام.

فَلَمَّا سَـمِعَ الْجَاثَلِيقُ وَرَأْسُ الْجَالُوتِ ذَلِـكَ عَلِمَا أَنَّ الرِّضَا عليه السلام عَالِمٌ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ، فَقَـالَا: وَاللهِ قَـدْ أَتَـى بِـمَا لَا يُمْكِنُنَـا رَدُّهُ وَلَا دَفْعُـهُ إِلَّا بِجُحُـودِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ وَالزَّبُـورِ، وَلَقَـدْ بَشَّرَ بِهِ مُوسَـى وَعِيسَـى جَمِيعاً، وَلَكِـنْ لَمْ يَتَقَـرَّرْ عِنْدَنَا بِالصِّحَّةِ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ هَذَا، فَأَمَّا اسْـمُهُ فَمُحَمَّدٌ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقِرَّ لَكُمْ بِنُبُوَّتِهِ، وَنَحْنُ شَاكُّونَ أَنَّهُ مُحَمَّدُكُمْ أَوْ غَيْرُهُ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **احْتَجَجْتُمْ بِالشَّكِّ، فَهَلْ بَعَثَ اللهُ قَبْلُ أَوْ بَعْدُ مِنْ وُلْدِ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا نَبِيًّا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، أَوْ تَجِدُونَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّذِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرَ مُحَمَّدٍ؟.**

فَأَحْجَمُـوا عَنْ جَوَابِهِ، وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقِرَّ لَكَ بِأَنْ مُحَمَّداً هُوَ مُحَمَّدُكُمْ، لِأَنَّا إِنْ أَقْرَرْنَا لَكَ بِمُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ وَابْنَتِهِ وَابْنَيْهَا عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ أَدْخَلْتُمُونَا فِي الْإِسْلَامِ كَرْهاً.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **أَنْتَ يَا جَاثَلِيقُ آمِنٌ فِي ذِمَّةِ اللهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ، إِنَّهُ لَا يَبْدَؤُكَ مِنَّا شَيْءٌ تَكْرَهُ مِمَّا تَخَافُهُ وَتَحْذَرُهُ.**

قَـالَ: أَمَّا إِذْ قَدْ آمَنْتَنِي، فَإِنَّ هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي اسْـمُهُ مُحَمَّدٌ، وَهَذَا الْوَصِيُّ الَّذِي اسْمُهُ عَلِيٌّ، وَهَذِهِ الْبِنْتُ الَّتِي اسْمُهَا فَاطِمَةُ، وَهَذَانِ السِّبْطَانِ اللَّذَانِ اسْمُهُمَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ.

قَـالَ الرِّضَا عليه السلام: **فَهَذَا الَّـذِي ذَكَرْتَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مِنِ اسْـمِ هَـذَا النَّبِـيِّ، وَهَذَا الْوَصِيِّ وَهَـذِهِ الْبِنْتِ وَهَذَيْنِ السِّـبْطَيْنِ، صِدْقٌ وَعَـدْلٌ، أَمْ كِذْبٌ وَزُورٌ؟.**

قَالَ: بَلْ صِدْقٌ وَعَدْلٌ، مَا قَالَ إِلَّا الْحَقَّ.

فَلَـمَّا أَخَذَ الرِّضَا عليه السلام إِقْرَارَ الْجَاثَلِيقِ بِذَلِكَ، قَالَ لِرَأْسِ الْجَالُوتِ: **فَاسْمَعِ الْآنَ يَا رَأْسَ الْجَالُوتِ السِّفْرَ الْفُلَانِيَّ مِنْ زَبُورِ دَاوُدَ.**

قَالَ: هَاتِ بَارَكَ اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ وَلَدَكَ.

فَتَلَا الرِّضَا عليه السلام السِّفْرَ الْأَوَّلَ مِنَ الزَّبُورِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى ذِكْرِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، فَقَالَ عليه السلام: **سَأَلْتُكَ يَا رَأْسَ الْجَالُوتِ بِحَقِّ اللهِ، هَذَا فِي زَبُورِ دَاوُدَ وَلَكَ مِنَ الْأَمَانِ وَالذِّمَّةِ وَالْعَهْدِ مَا قَدْ أَعْطَيْتُهُ الْجَاثَلِيقَ.**

فَقَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ: نَعَمْ هَذَا بِعَيْنِهِ فِي الزَّبُورِ بِأَسْمَائِهِمْ.

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **بِحَقِّ الْعَشْرِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فِي التَّوْرَاةِ، هَلْ تَجِدُ صِفَةَ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ مَنْسُوبِينَ إِلَى الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ؟.**

قَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ جَحَدَهَا كَافِرٌ بِرَبِّهِ وَأَنْبِيَائِهِ.

قَالَ لَهُ الرِّضَا عليه السلام: فَخُذِ الْآنَ فِي سِفْرِ كَذَا مِنَ التَّوْرَاةِ. فَأَقْبَلَ الرِّضَا عليه السلام يَتْلُو التَّوْرَاةَ وَرَأْسُ الْجَالُوتِ يَتَعَجَّبُ مِنْ تِلَاوَتِهِ وَبَيَانِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَلِسَانِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ، قَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ: نَعَمْ، هَذَا أَحْمَادُ وَإِلِيَّا وَبِنْتُ أَحْمَادٍ، وَشَبَّرُ وَشَبِيرٌ، وَتَفْسِيرُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ. فَتَلَا الرِّضَا عليه السلام إِلَى تَمَامِهِ.

فَقَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ -لَمَّا فَرَغَ مِنْ تِلَاوَتِهِ-: وَاللهِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ لَوْلَا الرِّئَاسَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لِي عَلَى جَمِيعِ الْيَهُودِ لَآمَنْتُ بِأَحْمَدَ وَاتَّبَعْتُ أَمْرَكَ، فَوَاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى وَالزَّبُورَ عَلَى دَاوُدَ مَا رَأَيْتُ أَقْرَأَ لِلتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مِنْكَ، وَلَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ تَفْسِيراً وَفَصَاحَةً لِهَذِهِ الْكُتُبِ مِنْكَ!.

فَأَتَوْهُ بِجَارِيَةٍ رُومِيَّةٍ فَكَلَّمَهَا بِالرُّومِيَّةِ، وَالْجَاثَلِيقُ يَسْمَعُ، وَكَانَ فَهِماً بِالرُّومِيَّةِ، فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام بِالرُّومِيَّةِ: **أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكِ مُحَمَّدٌ أَمْ عِيسَى؟.**

فَقَالَتْ: كَانَ فِيمَا مَضَى عِيسَى أَحَبَّ إِلَيَّ حِينَ لَمْ أَكُنْ عَرَفْتُ مُحَمَّداً، فَأَمَّا بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ مُحَمَّداً، فَمُحَمَّدٌ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِيسَى، وَمِنْ كُلِّ نَبِيٍّ.

فَقَالَ لَهَا الْجَاثَلِيقُ: فَإِذَا كُنْتِ دَخَلْتِ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ فَتَبْغَضِينَ عِيسَى؟!.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ، بَلْ أُحِبُّ عِيسَى وَأُومِنُ بِهِ، وَلَكِنَّ مُحَمَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام لِلْجَاثَلِيقِ: **فَسِّرْ لِلْجَمَاعَةِ مَا تَكَلَّمَتْ بِهِ الْجَارِيَةُ، وَمَا قُلْتَ أَنْتَ لَهَا، وَمَا أَجَابَتْكَ بِهِ.**

فَفَسَّرَ لَهُمُ الْجَاثَلِيقُ ذَلِكَ كُلَّهُ.

.. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مُخَاطَبَةِ الْقَوْمِ، قَالَ عليه السلام: قَدْ صَحَّ عِنْدَكُمْ صِدْقُ مَا كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ يُلْقِي عَلَيْكُمْ عَنِّي.

قَالُوا: نَعَمْ وَاللهِ، لَقَدْ بَانَ لَنَا مِنْكَ فَوْقَ ذَلِكَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، وَقَدْ ذَكَرَ لَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ أَنَّكَ تُحْمَلُ إِلَى خُرَاسَانَ.

فَقَالَ عليه السلام: صَدَقَ مُحَمَّدٌ إِلَّا أَنِّي أُحْمَلُ مُكَرَّماً مُعَظَّماً مُبَجَّلاً.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ: فَشَهِدَ لَهُ الْجَمَاعَةُ بِالْإِمَامَةِ، وَبَاتَ عِنْدَنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَدَّعَ الْجَمَاعَةَ وَأَوْصَانِي بِمَا أَرَادَ وَمَضَى..»⁽¹⁾.

هذه محاججة من عشرات المحاججات التي واجه بها الإمام عليه السلام أصحاب التيـارات المنحرفة والمعادية. وإن التاريخ حينما يذكر عن الإمام الرضا عليه السلام ذلك إنـما ينقـل عن المواجهات والمناقشـات الفكريـة التي كان يُقيمهـا الإمام عليه السلام مع مختلف التيارات.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٩، ص٧٣-٧٩. وقبل انصرافه عليه السلام من البصرة، أوصى محمد بن الفضل بأن يصير إلى الكوفة ويجمع الشيعة في دار حفص بن عمير اليشكري، ثم إنها جرت في الكوفة محاججة كتلك التي جرت في البصرة.

إننا عبر هذه المواجهات نستطيع اكتشاف دور الإمام عليه السلام الفكري داخل الأمة الإسلامية، ومحاولته إعادة التوازن الفكري إليها، وأنا أعتقد أن في أئمتنا عليهم السلام المعصومين جميعاً، هناك إمامان لهما دور الريادة في بيان الفكر الإسلامي، وهما: الإمام الباقر، والإمام الرضا عليه السلام.

أما الأئمة الآخرون فكانت عندهم مناقشات ومواجهات ومحاججات، لكن لا بحجم المناقشات والأفكار الفلسفية والعقائدية والثقافية المأثورة عن الإمام الباقر والإمام الرضا عليه السلام. وهذه مهمة حساسة، وهي أن ندرس التاريخ من خلال هذه الوقائع، أي بمعنى ارتباط العلوم التي نشرها أيُّ إمامٍ بالظرف التاريخي الذي كان فيه.

وبمعنى آخر: إن الأئمة عليهم السلام كانوا يُغذُّون كل جيل بمتطلباته ضمن مسيرة التكامل التي كانوا جميعاً يقطعونها في خط تبليغ الرسالة الإلهية.

فالأئمة عليهم السلام يُشكِّلون مسيرة واحدة، كلٌّ منهم يُؤدِّي الدور الذي عليه فيها، لكن هذا لا يمنعنا من القول: إن عطاء كل إمام كان مرتبطاً بحاجة الظرف التاريخي الذي عاصره.

وها نحن نجد هذه الظاهرة التي واجهها الأئمة المعصومون عليهم السلام ألا وهي:

- أن الحركات الرسالية إضافة لما فصَّلنا فيه القول من نتائجها وآثارها، لا تستقيم عقائديًّا وفكريًّا على التشيع طوال مسيرتها مع أنها انبثقت من نبع التشيع. وهذه الصفة (اللااستقامة) كانت تدعو الأئمة عليهم السلام لتوضيح معتقدات وأصول الرسالة أكثر فأكثر.

- إن الانحراف الذي كان يُصيب الحركات فيما بعد، كان يُوضِّح الرسالة ويُبرزها أكثر، سواء كانت هذه الظاهرة ناجمة عن تدبير أو عفوية.

- إن الأئمة عليهم السلام مع أنهم كانوا يُؤدُّون وظيفة تتكامل بدور كل إمام بعد

الآخـر، إلَّا أن عطـاء كل إمام كان مرتبطـاً بمتطلبات وحاجات عـصره، وبطبيعة الظـرف الذي كان يُعاصره، فهو محصلة التفاعل الحاصل بين ظروف الأئمة عليهم السلام ونوعية عطائهم، أي علينا ألَّا نكتفي بالقول: إن الأئمة عليهم السلام أدّوا الوظيفة المتكاملة بتجمـع عطاءاتهم، بل الربط الحيوي بين العطـاء والواقع هو الذي يجب أن نُفصح عنه.

أيضـاً: نلاحـظ ظاهرة في أنـماط تحاليل المؤرخـين، وهي التركيـز على جعل الجانـب الغيبـي أو المعجزي سـبباً للأحداث، أي عدم إعطاء أهميـة للعمل المرتبط بقوانـين الحيـاة، والـذي كان الأئمة عليهم السلام يعملونـه كبشر. ولا نعنـي بذلك إنكار المعاجز والفضل الإلهي في رفع راية الإسلام، وإنما توجّهنا يجب أن يكون إلى جهاد وكفـاح الأئمـة كبـشر، وللعلـوم المأثـورة عنهـم عليهم السلام التـي بفضلها تنعـم الأمة الإسلامية بفهـم متكامل للإسلام.

صفو الكلام

* عندما أحسّ المأمون بخطورة انتشار الأفكار الرسالية الثورية في الأمة، لجأ إلى بدعة ترجمة الكتب الأجنبية التي تدعو العامة إلى الاستسلام للسلطات الجائرة لتكون خلفية فكرية لمحاربة الأفكار الرسالية.

* في مثل هذا الجو كان الإمام الرضا هو المنقذ للأمة من الاضطراب الفكري وانتشار الإفكار اللادينية فيها، وذلك عبر المحاججات والمناقشات الفكرية العلنية التي كان يقيمها الإمام مع مختلف التيّارات.

الباب الرابع، مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الثالث: الحركة الرسالية في عهد الإمام الجواد عليه السلام

الإمام الجواد عليه السلام ومسألة الإيمان بالغيب

عهد الإمام الجواد عليه السلام وانتشار الحركة الرسالية

الإمام الجواد عليه السلام ومسألة الإيمان بالغيب

بين حصر الغيب وإطلاقه

ضمن النظرة العامة للغيب يُمكننا أن نجد مفارقة بين توجُّهين مُتباينين، بين توجُّه يسعى إلى تفسير الظواهر -وخاصة التي تكون مخالفة للطبيعة المعتادة- تفسيراً حسيًّا من أجل أن يكون لها قبولٌ منطقيٌ، وتوجُّه يسعى لتفسير حتى ما هو طبيعي تفسيراً غيبيًّا يتجاوز به حتى الحدود الطبيعية للمنطق، فهناك من يرفض الأفكار الغيبية تماماً إلَّا في حدود الضرورة، ومنهم من يُفسِّر كل شيء تفسيراً غيبيًّا سواء بالضرورة أم من دون ضرورة.

ولا يرفض الاتِّجاه الأول كون الرسول الأكرم محمداً ﷺ كان مؤيَّداً من قبل الله سبحانه وتعالى بروح القدس، وبرغم أن هذا يُمثِّل نوعاً من الإيمان بالغيب، إلَّا أنه لا يتجاوز هذا الحد ليشمل بقية الغيبيات والمعجزات التي كانت عند الرسول ﷺ.

ويذهب هذا الاتِّجاه إلى أن معجزات الرسول المروية في الأحاديث، والتي منها أن النبي ﷺ كان يستطيع أن يتكلَّم بلغات غير اللغة العربية⁽¹⁾، وأنه ﷺ تكلَّم مع حصى، وأن الحصى شهد له بالنبوة⁽²⁾، وأنه أمر نخلة بالمجيء إليه،

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص١٣٢-١٣٣.

(٢) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «قَدِمَ مُلُوكُ حَضْرَمَوْتَ عَلَىَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله؟. فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى فَقَالَ ﷺ: هَذَا يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله. فَسَبَّحَ الحَصَى فِي يَدِهِ، وَشَهِدَ أَنَّهُ رَسُولُ الله..». بحار الأنوار، ج١٧، ص٣٧٩. المناقب، ج١، ص٩٠.

فجاءت إليه(١).

كل تلك المعاجز وغيرها في نظر هذا الاتّجاه هي محض اختلاق سطّره الجهلة من الناس! وقد يحتاجون إلى تأويلات بعيدة للأحاديث الصحيحة في هذا الجانب. كما أن هذا الاتّجاه يُنكر العصمة، لأن عصمة الرسول هي بدورها إثبات لغيبيته.

أما الاتّجاه الثاني؛ فبالعكس تماماً، فكل شيء في التاريخ عندهم هو من الغيب.

فالرسول انتصر في غزوة بدر بالغيب، واستطاع فتح الجزيرة العربية بالغيب، والمسلمون استطاعوا فتح العالم بالغيب، وهكذا يُفسِّرون كل شيء تفسيراً غيبيًّا.

وحينما نسأل أصحاب هذا الاتّجاه:

- لماذا لم يكن النصر حليفاً للرسول ﷺ في بعض الحروب؟. ولماذا أُغتيل الإمام علي عليه السلام في محراب مسجد الكوفة؟. ولماذا قُتِل الإمام الحسين عليه السلام؟. ولماذا اغتيل الإمام الحسن عليه السلام بالسم؟. رغم أنهم جميعاً كانوا ينصرون الله ويُبلِّغون رسالته؟.

فإن جوابهم هو: أن الله أراد ذلك.

هكذا يُفسِّرون التاريخ تفسيراً غيبيًّا، وبصورة كلية.

أما الاتّجاه الذي نعتقد أنه هو الصحيح فهو الاتّجاه الوسط الذي يقول: إن التاريخ نتاج عمل الإنسان، ولكن في الوقت نفسه للغيب تأثيره في الإنسان نفسه. فالرسول ﷺ كان مُتَّصلاً بالغيب، والأئمة المعصومون بدورهم كانت علومهم وأفكارهم موروثة من رسول الله ﷺ لفضلهم، ولإحسانهم، ولعلمهم، ولأنهم تفوَّقوا على غيرهم في الورع والتقوى. والأنبياء عليهم السلام أنفسهم لا يختارهم الله إلَّا بحكمة... وقد قال ربنا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

---

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٤٧٥. نهج البلاغة، خطبة: ١٩٢ (فضل الوحي). الطرائف، ج٢، ص٤١٣.

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾(١). وقال عن موسى عليه السلام: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾**(٢).

فالابتلاء سبق الاختيار، كما أن الإحسان سبق الحكم والعلم، وأما سائر الأمور فيما ثبت من التاريخ أن عاملها المؤثر هو الغيب نُفسِّرها بالغيب، وفيما ثبت أنها من عالم الشهود نُفسِّرها بالتأثيرات الخارجية، فلا نُنكر هذا ولا نُنكر ذلك، ولا يكون منا إفراط في اتِّجاه الغيبيات ولا تفريط في اتِّجاه الشهوديات، وإنما نسير على الطريق الوسط.

فمثلاً: حينما دُعيَ الإمام الصادق عليه السلام إلى الاجتماع الذي ضم كبار القادة العلويين والعباسيين لانتخاب قائد للحركة، وكان الاجتماع قد عُقد في منطقة الأبواء بين مكة والمدينة، وتم فيه اختيار محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، كقائد للحركة، والمرشح لاستلام الحكم بعد الإطاحة بالأمويين.

في ذلك الاجتماع، لم ينتخب الإمام الصادق عليه السلام محمداً، وأشار إلى أن الأمر لن يتم له، وقال: «لا ينالها -يعني الخلافة- ولن ينالها إلَّا صاحب القباء الأصفر»(٣)، مشيراً إلى أبي جعفر المنصور.

ويومها انفضّ الاجتماع وقد أنكر بعض المجتمعين على الصادق رأيه، إلَّا أن الأيام مرّت، وتحقَّق ما قاله الإمام الصادق عليه السلام، حيث تحوَّلت القيادة الحركية من العلويين إلى العباسيين لأسباب عدة، وإذا بالمنصور الدوانيقي يتسلَّم مقاليد الحكم، أما محمد ذو النفس الزكية وأخوه إبراهيم فقد ثارا على المنصور بعد أن قتل المنصور أباهما وخمسة من أبناء الحسن عليهما السلام، وجيَّش الجيوش لقتلهم، فاستشهد محمد في المدينة، واستشهد أخوه إبراهيم في البصرة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٢٢.

(٣) الفخري، ص١٦٢. مقاتل الطالبيين، ص١٨٦.

ومع أن هذه الرواية قد أوردها أغلب المؤرخين، إلَّا أننا نجد أن البعض يزعم أنها من وضع الغلاة الذين أرادوا إثبات المعجزة لأئمتهم، وذلك انطلاقاً من أنهم يُنكرون كل رواية تُثبت الإعجاز. بالطبع لا يُمكننا أن نماشي هذه الطريقة في التفكير، لأنه مادام الأمر قد ثبت تاريخيًّا، وليس هناك من الناحية العقلية ما يخالفه، حيث إن الإمام الصادق كان يعرف ظروف الثورة ضد الأمويين، وأن العباسيين قد قطعوا في سبيل بناء دولتهم شوطاً كبيراً متجاوزين في سبيل ذلك الكثير من المعايير الدينية التي يتوقَّف عندها الرساليون، وأن ذا النفس الزكية كان أسمى من أن يتوسَّل بقتل عشرات الألوف في سبيل الوصول إلى الحكم، لذلك حكم الإمام الصادق عليه السلام بأن من سيستلم الأمور هو المنصور الدوانيقي الذي كان القائد الفعلي للدولة العباسية حتى في خلافة أخيه أبي العباس السفاح، التي دامت أربع سنين، والذي تُوفِّي عن عمر لا يتجاوز حسب أكثر الروايات (الثالثة والثلاثين) من العمر وقيل (تسعاً وعشرين)⁽¹⁾.

الإمام الصادق ملهم الكيمياء

كذلك حينما كتب أحد الغربيين كتاباً سمَّاه (الإمام الصادق مُلهم الكيمياء) وأثبت في كتابه أن الإمام الصادق عليه السلام هو الذي وضع أساس علم الكيمياء في العالم، وليس في العالم الإسلامي فقط، وأن علم الكيمياء الموجود هو نتاج جابر بن حيان الكوفي الذي اقتبس هذا العلم من الإمام الصادق عليه السلام لأنه في كل رسائله يكتب: «قال مولاي وسيدي جعفر بن محمد الصادق»، «عن الإمام الصادق».

ولكن يأتي أحد المؤلفين ويقول بكل بساطة: إن هذه الرواية كاذبة. لماذا؟.

لأنه حسب قوله: إنه لم يكن في المدينة المنورة أساتذة في علم الكيمياء، فمن أين اقتبس الإمام الصادق هذا العلم؟.

هنا لا يمكن إلَّا أن يكون الله سبحانه هو الذي ألهم الإمام الصادق عليه السلام

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٢٥١.

علـم الكيميـاء، ولكن هذا الكاتب كيف يقبل ذلك وهو يسـير عـلى قاعدة أنه من المسـتحيل أن ربَّنـا يُلهم عباده العلوم بصورة غيبية، علـماً بأن المفكرين والمخترعين وحتى الشعراء يُؤكِّدون جميعاً على دور الإلهام في العلم والفن؟.

الإمام الجواد والإلهام الإلهي

لقد أصبح الإمام الجواد عليه السلام إماماً وهو في عمر لا يتجاوز التاسـعة، وكان ذلك امتحاناً عسيراً وفتنةً لكل الموالين. فكبار العلماء والفقهاء، والقادة العسكريين، كان مـن الواجب عليهم الانقياد لفتى عمره (٩) سـنوات[1]، شـديد السـمرة، ولم يكن ضخم الجثة لكي يتراءى أكبر من سنه.

قَالَ قَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ -وَكَانَ زَيْدِيًّا- قَالَ: «خَرَجْتُ إِلَى بَغْدَادَ فَبَيْنَا أَنَا بِهَا إِذْ رَأَيْتُ النَّاسَ يَتَعَادَوْنَ وَيَتَشَرَّفُونَ وَيَقِفُونَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟!.

فَقَالُوا: ابْنُ الرِّضَا، ابْنُ الرِّضَا. فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَنْظُرَنَّ إِلَيْهِ.

فَطَلَـعَ عَلَى بَغْلٍ أَوْ بَغْلَةٍ، فَقُلْتُ: لَعَنَ اللهُ أَصْحَابَ الْإِمَامَةِ حَيْثُ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ افْتَرَضَ طَاعَةَ هَذَا!. فَعَدَلَ إِلَيَّ، وَقَالَ عليه السلام: **يَا قَاسِمَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾**[2]. فَقُلْتُ؛ فِي نَفْسِي سَاحِرٌ وَاللهِ، فَعَدَلَ إِلَيَّ، فَقَالَ عليه السلام: **﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾**[3].

قَـالَ: فَانْصَرَفْـتُ، وَقُلْـتُ بِالْإِمَامَـةِ وَشَـهِدْتُ أَنَّـهُ حُجَّـةُ اللهِ عَـلَى خَلْقِـهِ وَاعْتَقَدْتُ»[4].

وَعَـنْ عَبْدِ اللهِ بْـنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: «دَخَلْـتُ عَلَى الرِّضَا عليه السلام أَنَـا وَصَفْوَانُ بْنُ

---

[1] بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٢. وفيه كان مقامه مع أبيه سبع سنين.

[2] سورة القمر، آية: ٢٤.

[3] سورة القمر، آية: ٢٥.

[4] بحار الأنوار، ج٥٠، ص٦٤.

يَحْيَى، وَأَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام قَائِمٌ، قَدْ أَتَى لَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ. فَقُلْنَا لَهُ: جَعَلَنَا اللهُ فِدَاكَ، إِنْ -وَأَعُوذُ بِاللهِ- حَدَثَ حَدَثٌ فَمَنْ يَكُونُ بَعْدَكَ؟!.

قَالَ عليه السلام: **ابْنِي هَذَا**. وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ.

قَالَ فَقُلْنَا لَهُ: وَهُوَ فِي هَذَا السِّنِّ؟!.

قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ، وَهُوَ فِي هَذَا السِّنِّ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى احْتَجَّ بِعِيسَى عليه السلام وَهُوَ ابْنُ سَنَتَيْنِ**»(١).

نرى أيُّ فتنة كبيرة، وأي امتحان عظيم، أن يأتي رجل مثل: علي(٢) بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. أبوه إمام، وأخوه إمام، وابن أخيه إمام، وهو كان من فقهاء المذهب، وأسنُّ رجل في بني هاشم، يأتي إلى الإمام الجواد ابن الإمام الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق عليهم السلام، (والد علي) ويدين له بالطاعة، والولاء امتثالاً لأمر الله ورسوله(٣).

نعم، فالقضية ليست قضية عُمْر، وإنما قضية التسليم لأمر الله، والرضا بأمره. فهذا الريان وأبو الصلت وغيرهما وهم من كبار الفقهاء والمحدثين ومن كبار القادة الحركيين، يأتون كلهم ويجلسون عند الإمام الجواد عليه السلام ويسمعون كلامه.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ جَالِساً بِالْمَدِينَةِ وَكُنْتُ أَقَمْتُ عِنْدَهُ سَنَتَيْنِ أَكْتُبُ عَنْهُ مَا سَمِعَ مِنْ أَخِيهِ، -يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ- إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الرِّضَا عليه السلام الْمَسْجِدَ (مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله)

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٣٥.

(٢) علّي بن الإمام جعفر بن الإمام محمّد بن الإمام علّي بن الإمام الحسين بن الإمام علّي بن أبي طالب عليهم السلام، أبو الحسن المدنيّ، كان راويًا للحديث، جليل القدر، ثقة، سديد الطريق، شديد الورع، كثير الفضل. روى عن أبيه وأخيه وعن الإمام الرضا عليهم السلام، لازم أخاه الإمام موسى عليه السلام، وروى عنه الكثير من الروايات في مختلف العلوم والمعارف، انظر ترجمته في: الإرشاد، ج٢، ص٢١٤. رجال الكشي، ص٤٨٨. وبحار الأنوار، ج١٠، ص٢٤٩.

(٣) الكافي، ج١، ص٣٢٢. بحار الأنوار، ج٥٠، ص٣٦.

فَوَثَبَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ بِلَا حِذَاءٍ وَلَا رِدَاءٍ، فَقَبَّلَ يَدَهُ وَعَظَّمَهُ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **يَا عَمِّ اجْلِسْ رَحِمَكَ اللهُ.**

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، كَيْفَ أَجْلِسُ وَأَنْتَ قَائِمٌ. فَلَمَّا رَجَعَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى مَجْلِسِهِ جَعَلَ أَصْحَابُهُ يُوَبِّخُونَهُ وَيَقُولُونَ: أَنْتَ عَمُّ أَبِيهِ وَأَنْتَ تَفْعَلُ بِهِ هَذَا الْفِعْلَ.

فَقَالَ: اسْكُتُوا إِذَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ -وَقَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ-، لَمْ يُؤَهِّلْ هَذِهِ الشَّيْبَةَ وَأَهَّلَ هَذَا الْفَتَى، وَوَضَعَهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، أُنْكِرُ فَضْلَهُ نَعُوذُ بِاللهِ مِمَّا تَقُولُونَ بَلْ أَنَا لَهُ عَبْدٌ»(١).

وَرُوِيَ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام بِالْمَدِينَةِ وَعِنْدَهُ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ، فَدَنَا الطَّبِيبُ لِيَقْطَعَ لَهُ الْعِرْقَ.

فَقَامَ: عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، يَبْدَأُ بِي لِتَكُونَ حِدَّةُ الْحَدِيدِ فِيَّ قَبْلَكَ.

قَالَ: قُلْتُ: يَهْنِئُكَ هَذَا عَمُّ أَبِيهِ!. فَقَطَعَ لَهُ الْعِرْقَ، ثُمَّ أَرَادَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام النُّهُوضَ، فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ فَسَوَّى لَهُ نَعْلَيْهِ حَتَّى يَلْبَسَهُمَا»(٢).

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا قُبِضَ الرِّضَا عليه السلام، كَانَ سِنُّ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام نَحْوَ سَبْعِ سِنِينَ، فَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ مِنَ النَّاسِ بِبَغْدَادَ، وَفِي الْأَمْصَارِ، وَاجْتَمَعَ: الرَّيَّانُ بْنُ الصَّلْتِ(٣)، وَصَفْوَانُ بْنُ يَحْيَى(٤)، وَمُحَمَّدُ بْنُ حَكِيمٍ(٥)، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَجَّاجِ(٦)، وَيُونُسُ بْنُ

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٣٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٠٤.

(٣) الأشعري القمي، مرت ترجمته.

(٤) البجلي، عدّه الشيخ رحمه الله من أصحاب الإمام الكاظم، والإمام الرضا ووكيله، كما عدّه من أصحاب الإمام الجواد عليهم السلام، بل اتّفقت كلمة الرجاليين على وثاقته، وقال عنه الشيخ الطوسي في الفهرست، ص١٤٥: «أوثق أهل زمانه عند أصحاب الحديث، وأعبدهم..».

(٥) الخثعمي، من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، ممدوح. معجم رجال الحديث، ج١٦، ص٣٣.

(٦) البجلي، مولاهم، كوفي من سكان بغداد. انظر: قاموس الرجال، ج٦، ص٩٧. رقم ٤٠٠٣.

عَبْدِ الرَّحمَنِ(١)، وَجَمَاعَةٌ مِنْ وُجُوهِ الشِّيعَةِ وَثِقَاتِهِمْ فِي دَارِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الحَجَّاجِ فِي بِرْكَةِ زَلُولٍ(٢)، يَبْكُونَ وَيَتَوَجَّعُونَ مِنَ المُصِيبَةِ. فَقَالَ لَهُمْ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: دَعُوا الْبُكَاءَ مَنْ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَإِلَى مَنْ نَقْصِدُ بِالمَسَائِلِ إِلَى أَنْ يَكْبَرَ هَذَا؟. -يَعْنِي أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام-.

فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّيَّانُ بْنُ الصَّلْتِ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي حَلْقِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَلْطِمُهُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ تُظْهِرُ الْإِيمَانَ لَنَا، وَتُبْطِنُ الشَّكَّ وَالشِّرْكَ، إِنْ كَانَ أَمْرُهُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ ابْنَ يَوْمٍ وَاحِدٍ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الشَّيْخِ الْعَالِمِ وَفَوْقَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَلَوْ عُمِّرَ أَلْفَ سَنَةٍ فَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، هَذَا مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ. فَأَقْبَلَتِ الْعِصَابَةُ عَلَيْهِ تَعْذُلُهُ وَتُوَبِّخُهُ.

وَكَانَ وَقْتُ المَوْسِمِ، فَاجْتَمَعَ مِنْ فُقَهَاءِ بَغْدَادَ وَالْأَمْصَارِ، وَعُلَمَائِهِمْ ثَمَانُونَ رَجُلًا، فَخَرَجُوا إِلَى الحَجِّ وَقَصَدُوا المَدِينَةَ لِيُشَاهِدُوا أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام، فَلَمَّا وَافَوْا أَتَوْا دَارَ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عليه السلام، لِأَنَّهَا كَانَتْ فَارِغَةً، وَدَخَلُوهَا وَجَلَسُوا عَلَى بِسَاطٍ كَبِيرٍ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُاللهِ بْنُ مُوسَى فَجَلَسَ فِي صَدْرِ المَجْلِسِ. وَقَامَ مُنَادٍ وَقَالَ: هَذَا ابْنُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ فَلْيَسْأَلْهُ.

فَسُئِلَ عَنْ أَشْيَاءَ أَجَابَ عَنْهَا بِغَيْرِ الْوَاجِبِ، فَوَرَدَ عَلَى الشِّيعَةِ مَا حَيَّرَهُمْ وَغَمَّهُمْ، وَاضْطَرَبَتِ الْفُقَهَاءُ، وَقَامُوا وَهَمُّوا بِالانْصِرَافِ، وَقَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام يَكْمُلُ لِجَوَابِ المَسَائِلِ لَمَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللهِ مَا كَانَ!، وَمِنَ الْجَوَابِ بِغَيْرِ الْوَاجِبِ.

فَفُتِحَ عَلَيْهِمْ بَابٌ مِنْ صَدْرِ المَجْلِسِ وَدَخَلَ مُوَفَّقٌ، وَقَالَ: هَذَا أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام، فَقَامُوا إِلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ، وَاسْتَقْبَلُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، فَدَخَلَ عليه السلام وَعَلَيْهِ قَمِيصَانِ وَعِمَامَةٌ بِذُؤَابَتَيْنِ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ، وَجَلَسَ وَأَمْسَكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ.

---

(١) يونس بن عبدالرحمن مولى آل يقطين، الثقة، الإمامي، والمشهور المعروف (سلمان زمانه)، تُوفي سنة ٢٠٨هـ، فأدرك من أيام الإمام الجواد عليه السلام خمس سنوات أو أكثر. انظر: قاموس الرجال، ج١١، ص١٧٠-١٨٥. مستدركات علم رجال الحديث، ج٨، ص٣٠٩-٣١٢.

(٢) محلّة ببغداد، معروفة. معجم البلدان، ج١، ص٤٠٢.

فَقَامَ صَاحِبُ المَسْأَلَةِ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلِهِ، فَأَجَابَ عَنْهَا بِالْحَقِّ، فَفَرِحُوا وَدَعَوْا لَهُ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ: إِنَّ عَمَّكَ عَبْدَالله أَفْتَى بِكَيْتَ وَكَيْتَ.

فَقَالَ عليه السلام: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَا عَمِّ إِنَّهُ عَظِيمٌ عِنْدَ الله أَنْ تَقِفَ غَداً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولَ لَكَ: لِمَ تُفْتِي عِبَادِي بِمَا لَمْ تَعْلَمْ وَفِي الْأُمَّةِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**»(١).

لماذا اغتال المعتصم الإمام الجواد عليه السلام؟

رَوَى زُرْقَانَ -صَاحِبِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ وَصَدِيقِهِ بِشِدَّةٍ- قَالَ: رَجَعَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ عِنْدِ الْمُعْتَصِمِ وَهُوَ مُغْتَمٌّ. فَقُلْتُ لَهُ: فِي ذَلِكَ. فَقَالَ: وَدِدْتُ الْيَوْمَ أَنِّي قَدْ مِتُّ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: وَلِمَ ذَاكَ؟!.

قَالَ: لِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الْأَسْوَدِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الْيَوْمَ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟!.

قَالَ: إِنَّ سَارِقاً أَقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ بِالسَّرِقَةِ، وَسَأَلَ الْخَلِيفَةَ تَطْهِيرَهُ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ لِذَلِكَ الْفُقَهَاءَ فِي مَجْلِسِهِ، وَقَدْ أَحْضَرَ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ، فَسَأَلَنَا عَنِ الْقَطْعِ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَجِبُ أَنْ يُقْطَعَ؟.

قَالَ: فَقُلْتُ: مِنَ الْكُرْسُوعِ(٢). قَالَ: وَمَا الْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ؟!.

قَالَ: قُلْتُ: لِأَنَّ الْيَدَ هِيَ الْأَصَابِعُ، وَالْكَفُّ إِلَى الْكُرْسُوعِ، لِقَوْلِ الله فِي التَّيَمُّمِ: ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**﴾. وَاتَّفَقَ مَعِي عَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ يَجِبُ الْقَطْعُ مِنَ الْمِرْفَقِ. قَالَ: وَمَا الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ؟!.

قَالُوا: لِأَنَّ الله لَمَّا قَالَ: ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرافِقِ**﴾. فِي الْغَسْلِ (أي الوضوء) دَلَّ

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٩٩.

(٢) عُظيم في طرف الوظيف مما يلي الرسغ.

ذَلِكَ عَلَى أَنَّ حَدَّ الْيَدِ هُوَ الْمِرْفَقُ.

قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا يَا أَبَا جَعْفَرٍ؟!.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **قَدْ تَكَلَّمَ الْقَوْمُ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.**

قَالَ: دَعْنِي مِمَّا تَكَلَّمُوا بِهِ، أَيُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ؟.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أَعْفِنِي عَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.**

قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللهِ لَمَّا أَخْبَرْتَ بِمَا عِنْدَكَ فِيهِ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أَمَّا إِذَا أَقْسَمْتَ عَلَيَّ بِاللهِ إِنِّي أَقُولُ: إِنَّهُمْ أَخْطَؤُوا فِيهِ السُّنَّةَ، فَإِنَّ الْقَطْعَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَفْصِلِ أُصُولِ الْأَصَابِعِ، فَيُتْرَكُ الْكَفُّ.**

قَالَ: وَمَا الْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ؟!.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَوْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: السُّجُودُ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ: الْوَجْهِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَالرِّجْلَيْنِ. فَإِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ مِنَ الْكُرْسُوعِ أَوِ الْمِرْفَقِ، لَمْ يَبْقَ لَهُ يَدٌ يَسْجُدُ عَلَيْهَا، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله** (**يَعْنِي بِهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ السَّبْعَةَ الَّتِي يُسْجَدُ عَلَيْهَا**) **فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً**﴾. وَمَا كَانَ لله لَمْ يُقْطَعْ.

قَالَ: فَأَعْجَبَ الْمُعْتَصِمَ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ مِنْ مَفْصِلِ الْأَصَابِعِ دُونَ الْكَفِّ.

قَالَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ: قَامَتْ قِيَامَتِي، وَتَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُ حَيًّا.

قَالَ زُرْقَانُ: قَالَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ: صِرْتُ إِلَى الْمُعْتَصِمِ بَعْدَ ثَالِثَةٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ نَصِيحَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ وَاجِبَةٌ، وَأَنَا أُكَلِّمُهُ بِمَا أَعْلَمُ أَنِّي أَدْخُلُ بِهِ النَّارَ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟!. قُلْتُ: إِذَا جَمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَجْلِسِهِ فُقَهَاءَ رَعِيَّتِهِ، وَعُلَمَاءَهُمْ لِأَمْرٍ وَاقِعٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْحُكْمِ فِيهِ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقُوَّادُهُ وَوُزَرَاؤُهُ وَكُتَّابُهُ، وَقَدْ تَسَامَعَ النَّاسُ بِذَلِكَ

مِنْ وَرَاءِ بَابِهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ أَقَاوِيلَهُمْ كُلَّهُمْ لِقَوْلِ رَجُلٍ يَقُولُ شَطْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِمَامَتِهِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُ أَوْلَى مِنْهُ بِمَقَامِهِ، ثُمَّ يَحْكُمُ بِحُكْمِهِ دُونَ حُكْمِ الْفُقَهَاءِ.

قَالَ: فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَانْتَبَهَ لِمَا نَبَّهْتُهُ لَهُ. وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ عَنْ نَصِيحَتِكَ خَيْراً.

قَالَ: فَأَمَرَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ فُلَاناً مِنْ كُتَّابِ وُزَرَائِهِ بِأَنْ يَدْعُوَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَدَعَاهُ، فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهُ. وَقَالَ: **قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَا أَحْضُرُ مَجَالِسَكُمْ**.

فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا أَدْعُوكَ إِلَى الطَّعَامِ، وَأُحِبُّ أَنْ تَطَأَ ثِيَابِي وَتَدْخُلَ مَنْزِلِي، فَأَتَبَرَّكَ بِذَلِكَ فَقَدْ أَحَبَّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ مِنْ وُزَرَاءِ الْخَلِيفَةِ لِقَاءَكَ. فَصَارَ إِلَيْهِ فَلَمَّا طَعِمَ مِنْهَا أَحَسَّ السَّمَّ فَدَعَا بِدَابَّتِهِ فَسَأَلَهُ رَبُّ الْمَنْزِلِ أَنْ يُقِيمَ.

قَالَ: **خُرُوجِي مِنْ دَارِكَ خَيْرٌ لَكَ**.

فَلَمْ يَزَلْ يَوْمُهُ ذَلِكَ وَلَيْلُهُ فِي خِلْفَةٍ حَتَّى قُبِضَ عليه السلام»(١).

تتبين لنا من هذه الرواية عدة أمور:

أولاً: منزلة الإمام الجواد عليه السلام العلمية.

ثانياً: حالة الحركة الرسالية، حيث قال: «رَجُلٍ يَقُولُ شَطْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِمَامَتِهِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُ أَوْلَى مِنْهُ (أي من المعتصم) بِمَقَامِهِ».

ثالثاً: أسلوب السلطة في مواجهة الحركة الرسالية، وذلك بدس السم إلى قائدها.

لقد أصبحت دلالات الإمامة واضحة للعيان، جلية كالشمس المشرقة، وهكذا فقد بلغ التشيع في عهد الإمام الجواد عليه السلام كل مبلغ، واستطاعت أيديولوجيته الفكرية أن ترسخ في قلوب الناس، الأمر الذي جعل التسليم بإمامته أمر مسلّم به مع صغر سنه.

فالقضية ليست قضية عُمْر، أو طول، أو جثة، أو لحية بيضاء، أو حتى مجرَّد

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٥.

لحية، فالإمام لم يكن ذا لحية آنذاك، فعمره لم يزد على الحادية عشر.

وهكذا الإمام الحجة المنتظر عليه السلام وهو أصغر الأئمة سِنًّا⁽¹⁾ حينما قام بالإمامة، كان عمره خمس سنين، وربما أربع سنين، وكان عنده علم ما كان وما يكون⁽²⁾، وبعدئذٍ انتقل إلى حالة الغيبة، وقد مدَّ الله سبحانه وتعالى في عمره إلى يومنا هذا، وكل هذه أمور غيبية نحن نعتقد بها⁽³⁾، ونستدل عليها من الكتاب والسنة⁽⁴⁾، والعقل لا يستطيع إنكار هذه الحقائق.

وإذا دقَّقنا النظر في حياة الإمام الجواد والسر في أنه أصبح إماماً وهو لا يزال صغيراً، نجد أن سر هذه المرحلة هو جعلها امتحاناً للبشر من حيث انصياعهم لقيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام ومدى إخلاصهم لعقيدتهم، إذ كانت هذه المرحلة تُمهِّد بصورة تدريجية لمرحلة الغيبة التي سيقوم فيها الإمام الحجة عجل الله فرجه وهي أمر لا يحتمله إلّا من امتحن الله قلبه وأخلص في الذب عن المبدأ. فكان من الواجب العمل على تقبُّل الرساليين النفسي للغيبة.

صحيح أن هناك الكثير من الأحاديث المتواترة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أمر المنتظر⁽⁵⁾، إلّا أن سماع الأحاديث شيء والإيمان بها شيء آخر.

إنّ حياة الإمام الجواد عليه السلام، وما فيها من حكم وأحداث، تدفعنا لكي نُؤمن بالغيب ومعجزاته، ولكن ذلك الإيمان الذي لا يُنكر دور المسببات المادية.

---

(١) رَوَى يَحْيَى بْنِ سالِمٍ عَنْ أَبِي جعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ أَصْغَرُنَا سِنًّا..». بحار الأنوار، ج٥١، ص٣٨.

(٢) الإرشاد، ج٢، ص٣٣٩. إلزام الناصب، ج١، ص٢٨٩.

(٣) للفائدة طالع ما كتبه المصنف في كتابه: الإمام المهدي عليه السلام والإيمان بالغيب، والفصل الثالث: الولاية والإيمان بالغيب، من كتابه: الإمام المهدي عليه السلام قدوة الصديقين.

(٤) للوقوف على ذلك راجع مثلاً: كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق، والإرشاد للمفيد، ج٢، ص٣٤٠. وإحقاق الحق للشوشتري، ج١٣، ص٩٨. وأيضًا راجع ما كتبه المصنف في كتابه: الإمام المهدي عليه السلام والإيمان بالغيب، تحت عنوان: الإمام المهدي عليه السلام في الكتاب والسنة.

(٥) طالع: بحار الأنوار، ج٥١.

صفو الكلام

* هناك اتجاهان متباينان في النظرة إلى الغيب:

ألف: الذي يُفسِّر الظواهر كلها تفسيراً حسيّاً ويرفض الأفكار الغيبية تماماً.

باء: الذي يُفسِّر كل شيء تفسيراً غيبيّاً.

أما ما نعتقد به فهو الاتجاه الوسط الذي يرى أن التاريخ هو نتاج عمل الإنسان، ولكن في الوقت نفسه للغيب تأثيره في الإنسان.

* إنّ حياة الإمام الجواد عليه السلام، تدفعنا لكي نؤمن بالغيب ومعجزاته، ولكن دون إنكار دور المسبّبات المادية.

عهد الإمام الجواد عليه السلام وانتشار الحركة الرسالية

عاصر الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، خليفتين عباسيين حيث كان مقتله في ذي القعدة، وقيل: ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، وله يومئذٍ خمس وعشرون سنة⁽¹⁾.

الخليفة الذي عاش الإمام في عهده ظروفاً هادئة، هو المأمون العباسي، الذي قام بالتقرُّب إلى العلويين وإلى سيدهم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، بسبب الضغط الجماهيري آنذاك، حيث قامت في عهد المأمون سلسلة من الثورات والانتفاضات في كافة أرجاء الدولة الإسلامية، لذلك تقرَّب المأمون إلى العلويين وعرف أن التقرُّب يجب أن يكون إلى شخص الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، علّه يجد في ذلك ما يُضفي صفة الشرعية على حكمه.

ومع أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن المأمون العباسي كان شيعيًّا، وكان يذهب إلى أحقية أولاد الإمام علي عليه السلام بالخلافة، إلَّا أنني لا أرى ذلك في المأمون

---

(١) انظر: الكافي، ج١، ص٤٩٢، وفيه: «قبض عليه السلام سنة عشرين ومائتين في آخر ذي القعدة، وهو ابن خمس وعشرين سنة..». ومثله في الإرشاد، ج٢، ص٢٩٥. وفي بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢: «وقيل: وفاته يوم السبت لستٍّ خلون من ذي الحجَّة سنة عشرين ومائتين..». مروج الذهب، ج٣، ص٤٦٤، وفيه: «وذلك لخمس خلون من ذي الحجة، ودفن ببغداد..». تذكرة الخواص، ص٣٦٨، وقال: «وكانت وفاته ببغداد خامس ذي الحجة، ودفن إلى جانب جدِّه موسى بن جعفر..».

العباسي لأن ذلك شرف لا يستحقه خليفة غاصب.

وبعد استشهاد الإمام الرضا عليه السلام على يد المأمون الذي فشل في جعل الإمام الرضا عليه السلام أداة لإخماد الثورات ضد السلطة العباسية، أصبح محمد الجواد عليه السلام إماماً شرعيًّا للرساليين، وقد بقي في المدينة المنورة بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة آنئذٍ.

قصة زواج الإمام الجواد عليه السلام

عَنِ الرَّيَّانِ بْنِ شَبِيبٍ، قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ الْمَأْمُونُ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَتَهُ أُمَّ الْفَضْلِ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام بَلَغَ ذَلِكَ الْعَبَّاسِيِّينَ فَغَلُظَ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَنْكَرُوهُ مِنْهُ، وَخَافُوا أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ مَعَهُ إِلَى مَا انْتَهَى مَعَ الرِّضَا عليه السلام، فَخَاضُوا فِي ذَلِكَ وَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ الْأَدْنَوْنَ مِنْهُ، فَقَالُوا: نَنْشُدُكَ اللهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تُقِيمَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي عَزَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزْوِيجِ ابْنِ الرِّضَا فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِ عَنَّا أَمْرٌ قَدْ مَلَّكَنَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَنْزِعَ مِنَّا عِزًّا قَدْ أَلْبَسَنَاهُ اللهُ، وَقَدْ عَرَفْتَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ قَدِيماً وَحَدِيثاً، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ قَبْلَكَ مِنْ تَبْعِيدِهِمْ وَالتَّصْغِيرِ بِهِمْ، وَقَدْ كُنَّا فِي وَهْلَةٍ مِنْ عَمَلِكَ مَعَ الرِّضَا عليه السلام، مَا عَمِلْتَ فَكَفَانَا اللهُ الْمُهِمَّ مِنْ ذَلِكَ، فَاللهَ اللهَ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى غَمٍّ قَدِ انْحَسَرَ عَنَّا، وَاصْرِفْ رَأْيَكَ عَنِ ابْنِ الرِّضَا وَاعْدِلْ إِلَى مَنْ تَرَاهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ يَصْلُحُ لِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ.

فَقَالَ لَهُمُ الْمَأْمُونُ: أَمَّا مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، فَأَنْتُمُ السَّبَبُ فِيهِ، وَلَوْ أَنْصَفْتُمُ الْقَوْمَ لَكَانُوا أَوْلَى بِكُمْ. وَأَمَّا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ مَنْ قَبْلِي بِهِمْ فَقَدْ كَانَ قَاطِعاً لِلرَّحِمِ، وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللهِ مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي مِنِ اسْتِخْلَافِ الرِّضَا عليه السلام وَلَقَدْ سَأَلْتُهُ أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ وَأَنْزِعَهُ مِنْ نَفْسِي فَأَبَى، **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾**. وَأَمَّا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ فَقَدِ اخْتَرْتُهُ لِتَبْرِيزِهِ عَلَى كَافَّةِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِي الْعِلْمِ، وَالْفَضْلِ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ، وَالْأُعْجُوبَةِ فِيهِ بِذَلِكَ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا قَدْ عَرَفْتُهُ مِنْهُ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّأْيَ مَا رَأَيْتُ فِيهِ.

فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ هَذَا الْفَتَى وَإِنْ رَاقَكَ مِنْهُ هَدْيُهُ فَإِنَّهُ صَبِيٌّ، لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَلَا فِقْهَ،

فَأَمْهِلْهُ لِيَتَأَدَّبَ ثُمَّ اصْنَعْ مَا تَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُمْ: وَيْحَكُمْ، إِنِّي أَعْرَفُ بِهَذَا الْفَتَى مِنْكُمْ، وَإِنَّ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ عِلْمُهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَمَوَادِّهِ وَإِلْهَامِهِ، لَمْ تَزَلْ آبَاؤُهُ أَغْنِيَاءَ فِي عِلْمِ الدِّينِ وَالْأَدَبِ عَنِ الرَّعَايَا النَّاقِصَةِ عَنْ حَدِّ الْكَمَالِ. فَإِنْ شِئْتُمْ فَامْتَحِنُوا أَبَا جَعْفَرٍ بِمَا يَتَبَيَّنُ لَكُمْ بِهِ مَا وَصَفْتُ لَكُمْ مِنْ حَالِهِ.

قَالُوا: قَدْ رَضِينَا لَكَ -يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- وَلِأَنْفُسِنَا بِامْتِحَانِهِ، فَخَلِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، لِنَنْصِبَ مَنْ يَسْأَلُهُ بِحَضْرَتِكَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ فِقْهِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنْ أَصَابَ فِي الْجَوَابِ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ لَنَا اعْتِرَاضٌ فِي أَمْرِهِ، وَظَهَرَ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ سَدِيدُ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ فَقَدْ كُفِينَا الْخَطْبَ فِي مَعْنَاهُ.

فَقَالَ لَهُمُ الْمَأْمُونُ: شَأْنُكُمْ، وَذَلِكَ مَتَى أَرَدْتُمْ.

فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَسْأَلَةِ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ قَاضِي الزَّمَانِ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ مَسْأَلَةً لَا يَعْرِفُ الْجَوَابَ فِيهَا، وَوَعَدُوهُ بِأَمْوَالٍ نَفِيسَةٍ عَلَى ذَلِكَ، وَعَادُوا إِلَى الْمَأْمُونِ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَخْتَارَ لَهُمْ يَوْماً لِلِاجْتِمَاعِ. فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاجْتَمَعُوا فِي الْيَوْمِ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَحَضَرَ مَعَهُمْ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، وَأَمَرَ الْمَأْمُونُ أَنْ يُفْرَشَ لِأَبِي جَعْفَرٍ دَسْتٌ، وَيُجْعَلُ لَهُ فِيهِ مِسْوَرَتَانِ فَفُعِلَ ذَلِكَ. وَخَرَجَ أَبُو جَعْفَرٍ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ، فَجَلَسَ بَيْنَ الْمِسْوَرَتَيْنِ، وَجَلَسَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَامَ النَّاسُ فِي مَرَاتِبِهِمْ وَالْمَأْمُونُ جَالِسٌ فِي دَسْتٍ مُتَّصِلٍ بِدَسْتِ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام.

فَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ لِلْمَأْمُونِ: يَأْذَنُ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَسْأَلَ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْ مَسْأَلَةٍ؟.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: اسْتَأْذِنْهُ فِي ذَلِكَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ فَقَالَ: أَتَأْذَنُ لِي -جُعِلْتُ فِدَاكَ- فِي مَسْأَلَةٍ؟.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: سَلْ إِنْ شِئْتَ.

قَالَ يَحْيَى: مَا تَقُولُ -جُعِلْتُ فِدَاكَ- فِي مُحْرِمٍ قَتَلَ صَيْداً.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ﵇: قَتَلَهُ فِي حِلٍّ أَوْ حَرَمٍ، عَالِماً كَانَ الْمُحْرِمُ أَوْ جَاهِلًا، قَتَلَهُ عَمْداً أَوْ خَطَأً، حُرًّا كَانَ الْمُحْرِمُ أَوْ عَبْداً، صَغِيراً كَانَ أَوْ كَبِيراً، مُبْتَدِئاً بِالْقَتْلِ أَوْ مُعِيداً، مِنْ ذَوَاتِ الطَّيْرِ كَانَ الصَّيْدُ أَمْ مِنْ غَيْرِهَا، مِنْ صِغَارِ الصَّيْدِ أَمْ مِنْ كِبَارِهَا، مُصِرًّا عَلَى مَا فَعَلَ أَوْ نَادِماً، فِي اللَّيْلِ كَانَ قَتْلُهُ لِلصَّيْدِ أَمْ فِي النَّهَارِ، مُحْرِماً كَانَ بِالْعُمْرَةِ إِذْ قَتَلَهُ أَوْ بِالْحَجِّ كَانَ مُحْرِماً؟.

فَتَحَيَّرَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، وَبَانَ فِي وَجْهِهِ الْعَجْزُ وَالانْقِطَاعُ، وَلَجْلَجَ حَتَّى عَرَفَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ أَمْرَهُ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: الْحَمْدُ للهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَالتَّوْفِيقِ لِي فِي الرَّأْيِ.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ لَهُمْ: أَعَرَفْتُمُ الْآنَ مَا كُنْتُمْ تُنْكِرُونَهُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ ﵇ فَقَالَ لَهُ: أَتَخْطُبُ يَا أَبَا جَعْفَرٍ؟.

فَقَالَ ﵇: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: اخْطُبْ لِنَفْسِكَ جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَدْ رَضِيتُكَ لِنَفْسِي، وَأَنَا مُزَوِّجُكَ أُمَّ الْفَضْلِ ابْنَتِي، وَإِنْ رَغِمَ قَوْمٌ لِذَلِكَ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ﵇: الْحَمْدُ للهِ إِقْرَاراً بِنِعْمَتِهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِخْلَاصاً لِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ بَرِيَّتِهِ وَالْأَصْفِيَاءِ مِنْ عِتْرَتِهِ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى الْأَنَامِ أَنْ أَغْنَاهُمْ بِالْحَلَالِ عَنِ الْحَرَامِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾(١).

ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى يَخْطُبُ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ عَبْدِ اللهِ الْمَأْمُونِ، وَقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ مَهْرَ جَدَّتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ جِيَاداً، فَهَلْ زَوَّجْتَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّدَاقِ الْمَذْكُورِ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: نَعَمْ، قَدْ زَوَّجْتُكَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ، أُمَّ الْفَضْلِ ابْنَتِي عَلَى الصَّدَاقِ

---

(١) سورة النور، آية: ٣٢.

الْمَذْكُورِ، فَهَلْ قَبِلْتَ النِّكَاحَ؟.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: قَدْ قَبِلْتُ ذَلِكَ وَرَضِيتُ بِهِ.

فَأَمَرَ الْمَأْمُونُ أَنْ يَقْعُدَ النَّاسُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

قَالَ الرَّيَّانُ: وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ سَمِعْنَا أَصْوَاتاً تُشْبِهُ أَصْوَاتَ الْمَلَّاحِينَ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ، فَإِذَا الْخَدَمُ يَجُرُّونَ سَفِينَةً مَصْنُوعَةً مِنْ فِضَّةٍ، مَشْدُودَةً بِالْحِبَالِ مِنَ الْإِبْرِيسَمِ عَلَى عِجْلَةٍ مَمْلُوَّةٍ مِنَ الْغَالِيَةِ.

ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ أَنْ تُخْضَبَ لِحَاءُ الْخَاصَّةِ مِنْ تِلْكَ الْغَالِيَةِ. ثُمَّ مُدَّتْ إِلَى دَارِ الْعَامَّةِ فَتَطَيَّبُوا مِنْهَا، وَوُضِعَتِ الْمَوَائِدُ فَأَكَلَ النَّاسُ، وَخَرَجَتِ الْجَوَائِزُ إِلَى كُلِّ قَوْمٍ عَلَى قَدْرِهِمْ..»⁽¹⁾.

وقد قيل: إن الإمام عليه السلام سُئل ثلاثين ألف مسألة⁽²⁾، وبالطبع إن هذه الثلاثين ألف لم تكن في يوم واحد، إذ يُعتقَد (كما يقول بعض المؤرخين) أن السؤال كان عبارة عن مجموعة من المسائل الكلية، أي إن الإمام عليه السلام كان يُطلق بعض القواعد الفقهية، وتلك القواعد الفقهية كانت تتشعَّب منها الأحكام، وقد أحصى العلماء تلك الأحكام، فكانت ثلاثين ألف مسألة، وكما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «.. **فَإِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، يَفْتَحُ كُلُّ بَابٍ، أَلْفَ بَابٍ**»⁽³⁾. يعني الباب الواحد يتحوَّل إلى ألف باب، لأن القاعدة كلية والحكم عام، والحكم العام فيه أبواب متعددة، وكما قال الإمام الصادق عليه السلام -حينما بيّن قاعدة فقهية، وهي قاعدة نفي الحرج-: «**هَذَا مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي يَفْتَحُ كُلُّ بَابٍ مِنْهَا أَلْفَ بَابٍ**»⁽⁴⁾.

---

(1) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٧٤-٧٧.

(2) «.. فَقَالُوا: يَا سَيِّدَنَا، أَتَأْذَنُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ؟. فَقَالَ عليه السلام: **نَعَمْ**. فَسَأَلُوهُ فِي مَجْلِسٍ عَنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ مَسْأَلَةٍ، فَأَجَابَهُمْ فِيهَا، وَلَهُ تِسْعُ سِنِينَ». بحار الأنوار، ج٥٠، ص٨٥.

(3) بحار الأنوار، ج٣١، ص٤٣٢. دلائل الإمامة، ص١٠٥. الاختصاص، ص٢٨٣. المناقب، ج٢، ص٣٦.

(4) وسائل الشيعة، ج٨، ص٢٦٠.

يعني هذه القاعدة هي قاعدة عامة تستطيع أن تُطبِّقها على قضايا ومواضيع كثيرة(١).

لماذا صاهر الإمامُ الخليفةَ؟

ويأتي سؤال: كيف أقدم الإمام الجواد عليه السلام على الزواج من بنت المأمون العباسي؟.

الجواب عن هذا السؤال بسيط جدًّا، بعد أن عرفنا الجواب عن سؤال سابق حول قبول الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد من قبل المأمون العباسي، فالجواب نفسه ينطبق هنا.

هناك قلنا: إنه في عهد المأمون تحوَّلت الحركة الرسالية إلى حركة تستطيع أن تكوِّن شيئًا أشبه ما يُسمى اليوم بحكومة ائتلافية، مع أي دولة من الدول من دون أن تفقد الحركة رسالتها وقضيتها. فالأئمة المعصومون عليهم السلام لم يقبلوا بالخلافة ولم يشتركوا فيها، والدليل على ذلك موقف الإمام الرضا.

وهكذا الإمام الجواد عليه السلام حينما خطب ابنة المأمون وتزوَّجها وأصبح صهر الخليفة، وكان يُمكن أن يصير والياً على منطقة، أو حاكماً على بلد، أو قاضي القضاة لا أقل، ولكن الإمام الجواد لم يفعل شيئاً من ذلك، بل أخذ بيد زوجته وذهب إلى المدينة وبقي هناك حتى مات المأمون العباسي عندما كان في الرقة.

وكسب الإمام الجواد بهذا العمل أمرين:

أولاً: قَيَّد المأمون من أن يقوم بعملية اغتياله، وذلك بقبوله الزواج من بنت المأمون.

ثانياً: جعل مخالب السلطة وأنيابها في قفص الحركة الرسالية، وذلك أن المأمون ما كان ليجرؤ بعد ذلك على أن يقوم بالفتك برجالات الحركة ومجموعاتها.

ولقد كان هذا الأسلوب متبعاً في كثير من عصور الأئمة عليهم السلام، وخير شاهد

---

(١) بحث المصنف قاعدة نفي الحرج في كتابه: مبادئ فقه الاستنباط، تحت عنوان: الحرج في الكتاب والسنة وفي كلمات الفقهاء. فراجعه.

على ذلك قصة علي بن يقطين بن موسى البغدادي الذي كان بمثابة مستشار للخليفة المهدي العباسي، ثم صار شبه الوزير لهارون الرشيد. والذي يحصل على هذا المركز ذلك اليوم يُصبح كل شيء بيده، ويسيطر على مرافق أكبر دولة في العالم. وعندما حصل على هذا المنصب، وكان اتِّجاهه رساليًّا، جاء إلى الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ يستأذنه في ترك عمل السلطان، لكن الإمام الكاظم لم يأذن له. ويستمر في أداء مهامه الرسالية، ويبقى في سلطة هارون، لكنه عاود الطلب من الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يأذن له بترك العمل عند السلطة، إلَّا أن الإمام لم يأذن له، وقال له: «**لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَنَا بِكَ أُنْساً، وَلِإِخْوَانِكَ بِكَ عِزًّا، وَعَسَى أَنْ يَجْبُرَ اللهُ بِكَ كَسْراً، وَيَكْسِرَ بِكَ نَائِرَةَ الْمُخَالِفِينَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ..**»⁽¹⁾. ولقد كانت أعماله كبيرة بالنسبة للحركة⁽²⁾.

حتى إن الإمام أبي الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ قال فيه عندما دخل عليه داود الرقي، في يوم النحر: «**مَا عَرَضَ فِي قَلْبِي أَحَدٌ وَأَنَا عَلَى الْمَوْقِفِ إِلّا عَلِيُّ بْنُ يَقْطِينَ، فَإِنَّهُ مَا زَالَ مَعِي وَمَا فَارَقَنِي حَتّى أَفَضْتُ**»⁽³⁾.

ثم عاصر الإمام الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ خليفة من الخلفاء الذين أثّروا تأثيراً مباشراً في زوال الدولة العباسية، وهو المعتصم العباسي، ولأنه ابن أَمَةٍ تركية⁽⁴⁾ مال إلى أخواله، فكان يُحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم عن سائر الجنود⁽⁵⁾. ثم وسمهم رتباً قيادية في الجيش حتى إن نعرة العنصرية ثارت عند العسكريين العرب في الجيش، ودبَّت فيهم روح العصبية العمياء⁽⁶⁾، فلقد حاول

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٣٦.

(٢) طالع: بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٠٧.

(٣) رجال الكشي، ص٤٩٢. جامع الرواة، ج١، ص٦٠٩.

(٤) تُسمَّى شجاع، كما في جمهرة أنساب العرب، (متن) ص٢٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٧١. مروج الذهب، ج٣، ص٤٦٥. تاريخ الإسلام، ج١٥، ص٣٣. تاريخ مدينة دمشق، ج٧٣، ص٢٤٥.

(٦) الرسائل السياسية، ص٥٢٤، هامش رسالة الترك وعامة جند الخلافة.. هامش رقم: ١٢.

عجيف⁽¹⁾ أن يقلب الحكم على المعتصم ليُولي العباس بن المأمون، ولكن هذه المحاولة أخفقت وقتله المعتصم⁽²⁾.

وعندما جاء الأتراك إلى البلاد الإسلامية، استولوا على الحكم من المعتصم، وبعدئذٍ من ابنه⁽³⁾، وأخذوا يحُدثون الانقلابات العسكرية (كما نُسمِّيها الآن) حتى أنه وصل بهم الأمر ألَّا يُوقفهم شيء، وإذا ما مال عنهم أي خليفة عباسي، فإنهم يقتلونه غيلة، ثم ينصبون رجلاً آخر من البيت العباسي. فابتداءً من المتوكل⁽⁴⁾، إلى المستعين⁽⁵⁾،

---

(١) ابن عنبسة، أحد رجالات الدولة العباسية، ومن أبرز قواد المعتصم. وهو الذي وجهه المعتصم لحرب الزط. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٨.

(٢) البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٨٨. تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٧٢-٧٧. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٣٠-٣٣١. المنتظم، ج١١، ص٨٣-٨٤.

(٣) هارون (الواثق) [٢٢٧-٢٣٢هـ]. طالع: البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٩٦-٣٠٨. تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٢٣. البدء والتاريخ، ج٦، ص١٢٠. تاريخ الخلفاء، ص٢٧٠.

(٤) جعفر بن محمد المعتصم [٢٣٢-٢٤٧هـ]. اتَّفق ابنه المنتصر مع الأتراك على قتله، لما رأى من أبيه إصراره على تقديم أخيه المعتز في الخلافة عليه، فدخل عليه الأتراك وقتلوه في جوف الليل مع وزيره ابن خاقان. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢٣٥. الكامل في التاريخ، ج٧، ص٩٧-٩٨، وأيضًا: ص١٣٨. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٥٠-٣٥٨. تاريخ الإسلام، للذهبي، ج١٨، ص٢٠٠. تاريخ مختصر الدول، (متن) ص١٤٣. التنبيه والإشراف، (متن) ص٣١٥.

(٥) أحمد بن محمد المعتصم [٢٤٨-٢٥٢هـ]، كان سبب اختيار الأتراك -بعد وفاة المنتصر- للمستعين هو خشيتهم أن يتولى الخلافة أحد أبناء المتوكل فينتقم منهم، لهذا بايعوا المستعين. وكان (أتامش) القائد التركي أحد أوثق وزراء المستعين. لكن الأتراك وحسدًا من أتامش عملوا على التخلص منه فقتلوه. دبّ خلاف كبير بين الأتراك والمستعين فانتقل إلى بغداد، وصار الأتراك إليه بالوساطة والاعتذار فلم تُفلح مساعيهم، أخرج الأتراك من كان في سجن بسامرا، احتجاجًا ورفضًا للمستعين، ثم بايعوا المعتز، وبخطط عملوا على قتل المستعين بأن أرسل المعتز من يقتله في واسط بعد أن انتقل إليها المستعين، فقتل بعد أشهر من حين خلع نفسه وذلك عام ٢٥٢هـ. البداية والنهاية، ج١١، ص٢-٧. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٥٤-٣٦٤. الكامل في التاريخ، ج٧، ص١٢٣-١٣٩. مروج الذهب، ج٤، ص٧٧. المنتظم، ج١٢، ص٦-٤٤.

إلى المهتـدي(١)، وانتهـاءً بالمقتـدر(٢)، كل هـؤلاء قُتِلوا بواسـطة القادة العسـكريين الأتـراك، وابتـداءً من المعتـز(٣)، إلى القاهـر(٤)، والمتقـي(٥)، وانتهاءً بالمسـتكفي(٦)،

---

(١) محمد بن هارون [٢٥٥-٢٥٦]، بأمرٍ من المهتدي سار موسى بن بغا وبايكباك -وهما من أبرز القادة الأتراك في جيش المهتدي- لقتال الشاري مساور بن عبدالحميد، وبسبب الخلافات القائمة بين المهتدي والأتراك، كتب المهتدي إلى بايكباك أن يقتل ابن بغا ومفلح -قائد تركي، ويتولى قيادة الترك بنفسه، ولكن بايكباك أطلع ابن بغا على كتاب المهتدي، فاتفق الأتراك على الخلاص من المهتدي، ودبَّروا له مكيدة، وقتلوه بعد أن تمكن المهتدي من قتل بايكباك. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٤٥٦-٤٦٩. تاريخ الإسلام، للذهبي، ج١٩، ص٢٠. البداية والنهاية، ج١١، ص٢٢.

(٢) جعفر بن أحمد [٢٩٥-٣٢٠]، قتله مؤنس الخادم. البداية والنهاية، ج١١، ص١٧٠. شذرات الذهب، ج٣، ص٤٠٥. مروج الذهب، ج٤، ص٢١٤.

(٣) محمد بن جعفر المتوكل [٢٥٢-٢٥٥هـ]، بويع بالخلافة بعد خلع المستعين، وعمره آنذاك تسع عشرة سنة، خلع المعتز أخاه المؤيد وقيَّده حتى مات. ثم اجتمع الأتراك على خلعه، والسبب فيه أن الجند طلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده ما يُعطيهم، فخلعوه وأهانوه، ثم أجبروه على البيعة لابن عمّه المهتدي. وبعد خلعه بخمسة أيام عذَّبوه حتى مات. طالع: الإنباء، ص١٢٨-١٣٠. البداية والنهاية، ج١١، ص١٦. تاريخ الإسلام للذهبي، ج١٩، ص١٥.

(٤) محمد بن أحمد المعتضد [٣٢٠-٣٢٢هـ]، كان سفّاكًا للدم، سيئ السيرة، سريع الانتقام، فبعد أن بُويع بالخلافة عذَّب أبناء أخيه المقتدر، وبعد خلافته بسنة شغب عليه الأتراك، والسبب أن خافه وزيره أبو علي بن مقلة فشرع مع الأتراك على خلعه، فخلعوه.. طالع: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٧٩. البداية والنهاية، ج١١، ص٢٢٣. المنتظم، ج١٣، ص٣١٦.

(٥) إبراهيم بن جعفر المقتدر [٣٢٩-٣٥٧هـ]، بويع بالخلافة بعد أخيه الراضي، وعمره أربع وثلاثون سنة، دامت خلافته حتى عام ٣٣٣هـ، وفيها خلعوه. ومن قضاياه أن اختلف مع توزون، وفر المتقي إلى بني حمدان، وبعد فترة ظهر له ضجر بني حمدان منه، فراسل المتقي توزون يعرض عليه الصلح، فوافق وتصالحا، فسار المتقي إلى بغداد واستقبله توزون وترجَّل ومشى بين يديه لكن توزون غدر به -بعد تنسيق وتخطيط مع الأتراك وغيرهم- فكحله بميل محمي وأدخله إلى بغداد مسمول العينين. فخلع المتقي، وأحضر عبدالله بن علي المكتفي وبايعه بالخلافة وأجبر المتقي على البيعة. سجن المتقي مدة خمس وعشرين سنة حتى مات. البداية والنهاية، ج١١، ص٢٦٦. تاريخ الإسلام، ج٢٥، ص١٩. الإنباء، ص١٧٠-١٧١. مروج الذهب، ج٤، ص٢٤٧.

(٦) عبدالله بن علي المكتفي، [٣٣٣-٣٣٤هـ]، بويع بالخلافة بعد خلع المتقي، خلعه معز الدولة بعد أن نما إلى سمعه أن المستكفي يسعى في إقامه غيره، سُملت عيناه بعد خلعه، ونهب الجند

كلهم أيضاً خُلعوا، حتى إن المقتدر غُلب على أمره وخُلع مرتين وذُبح في النهاية(١)، إلى أن انتهى الأمر إلى المطيع العباسي آخر خليفة عباسي والذي لم يكن له أن يأمر أو ينهى ثم قُتل شرَّ قتلة(٢).

وهكـذا كانوا يقومون بالخلع والقتل لأي خليفة لم يكن تتجاوب أهواؤه مع أهوائهـم، وليس ذلك لشيء في تركيبة العنصر التركي، وإنـما نتيجة للحالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي من الانحلال والفساد الخلقي الشامل.

فالمعتصم العباسي كانت هذه سياسته في الحكم، والإمام الجواد استفاد من الوضع أفضل استفادة، لبث الوعي وتغذية الحركة الرسالية التي كانت تضع جنينها للمستقبل.

ثورة محمد بن القاسم

ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، كانت أبرز ثورة في عهد الإمام الجواد عليه السلام. كانت شخصية محمد بن القاسم جليلة القدر إذا ما قرأنا يوميات جهاده. وهنا نستطرد قليلاً حول هذه اليوميات.

دار الخلافة، أُحضر الفضل بن المقتدر وبويع بالخلافة، وبايعه المستكفي، بعد أن شهد على نفسه بالخلع. مات سنة ٣٣٨هـ. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٥٢٢. الإنباء، ص١٧٦. تاريخ الإسلام، ج٢٥، ص٢٦. التنبيه والإشراف، (متن) ص٣٤٥. شذرات الذهب، ج٤، ص١٨٤. الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٥٠.

(١) البداية والنهاية، ج١١، ص١٦٩. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٤٤٧. تاريخ الأمم والملوك، ج١١، ص٣٠. المنتظم، ج١٣، ص٦٣.

(٢) الفضل بن جعفر [٣٣٤-٣٦٣هـ]. بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي، في عهده ضعف أمر الخلافة فلم يبقَ للخليفة أمر ولا نهي ولا وزير، فرجع أمر الدولة للمعز. خرج المطيع مع معز الدولة لحرب ناصر الدولة الحمداني، لكن الحمداني انتصر عليهما، فدخل بغداد وضعف أمر معز، وفي قضية مفصلة مكر معز بناصر الدولة فغلبه، وتصالحا، بعدها عزل معز الدولة المطيع وحجزه لمدة سنة، ثم أعاده للخلافة. وبعدها مرض المطيع فخلع نفسه، وقيل خُلع، وعُيّن ابنه بدلاً عنه. البداية والنهاية، ج١١، ص٢١٢. تاريخ الإسلام، ج٢٥، ص٢٨. تاريخ الأمم والملوك، ج١١، ص٣٥٥.

كانت العامة تُلقِّبه بالصوفي، لأنه كان يُدمن لبس الثياب من الصوف الأبيض الخشن، وكان من أهل العلم والفقه والدين والزهد(١).

كان قد ذهب إلى مرو في مقاطعة خراسان، وكان معه من الكوفيين بضعة رجال، وذلك بعد أن رحل من الكوفة، وكان قبل ذلك قد خرج إلى ناحية الرقة، ومعه جماعة من وجوه الزيدية، منهم يحيى بن الحسن بن الفرات الفراز، وعباد بن يعقوب الرواجني(٢)، والزيدية كما قلنا كانوا يُشكِّلون القاعدة لكثير من الثورات.

روى إبراهيم بن عبدالله العطار قال: «.. كنا معه، فتفرَّقنا في الناس ندعوهم إليه، فلم نلبث إلّا يسيراً حتى استجاب له أربعون ألفًا، وأخذنا عليهم البيعة، وكنا أنزلناه في رستاق من رساتيق مرو، وأهله شيعة كلهم، فأحلوه في قلعة لا يبلغها الطير، في جبل حريز.

.. فبينا نحن عنده إذ سمع بكاء رجل واستغاثته، فقال لي: يا إبراهيم، قم فانظر ما هذا البكاء؟.

فأتيت الموضع فوقفت فيه فاستقربت البكاء حتى انتهيت إلى رجل حائك، قد أخذ منه رجل من أصحابنا ممَّن بايعنا لبدا، وهو متعلق به.

فقلت: ما هذا وما شأنك؟.

فقال: أخذ صاحبكم هذا لبدي.

فقلت: اردد عليه لبده فقد سمع أبو جعفر بكاءه.

فقال لي الرجل: إنما خرجنا معكم لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج إليه.

فلم أزل أرفق به حتى أخذت منه اللبد ورددته إلى صاحبه، ورجعت إلى

---

(١) تاريخ الإسلام، ج١٥، ص٣٨٨. الأعلام، ج٦، ص٣٣٤. مقاتل الطالبيين، ص٤٧٢. مروج الذهب، ج٣، ص٤٦٤. تتمة المنتهى، ص٣٠٤.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٤٦٥.

محمد بن القاسم فأخبرته بخبره وأني قد انتزعت منه اللبد ورددته على صاحبه.

فقال: يا إبراهيم، أبمثل هذا (الذي بايعه) يُنصر دين الله؟.

ثم قال لنا: فرّقوا الناس عني حتى أرى رأيي»(١).

فانتخب الجيدين من الذين بايعوه ثم سار بهم.

وهذا أنموذج من طبيعة الثورات الرسالية، إذ إنها لم تكن تُبيح أية وسيلة في سبيل الوصول إلى الهدف، بل مثلما يكون الهدف هو إقامة حكم الله عز وجل، يجب أن تكون الوسيلة أيضاً مرضية من قبل الله تعالى. وهذا كان يُربِّي المجتمع على عشق المُثُل العُليا، والمبادئ السامية. وبعدما انتقى أصحابه ساروا إلى الطالقان(٢).

ويروي إبراهيم صاحبه: «ورحل محمد بن القاسم من وقته إلى الطالقان، وبينها وبين مرو أربعون فرسخًا، فنزلها، وتفرَّقنا ندعو الناس فاجتمع عليه عالم، وجئنا إليه فقلنا له: إن أتممت على أمرك، وخرجت فنابذت القوم، ... وإن فعلت كما فعلت بمرو، (يقصد اختيار الجيدين فقط)، أخذ عبد الله بن طاهر بعقبك، فأصلح من إسلامك إيّانا ونفسك إليه، أن تجلس في بيتك ويسعك ما يسع سائر أهل بيتك. فأتم عزمه وخرج في الناس..».

ودخل محمد بن القاسم مع عبد الله بن طاهر(٣) في حروب كثيرة وكان يلحق بابن الطاهر شر الهزائم. ومرة هدأت صولات الحرب بينهما فسارع عبد الله بن طاهر بأرسال كل جيوشه مقسَّمة في فرق ضمن خطة ماكرة جدًّا.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٦٥-٤٦٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٤. تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٧. تجارب الأمم، ج٤، ص١٧٦. مروج الذهب، ج٣، ص٤٦٤.

(٣) ابن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي [١٨٢-٢٣٠هـ]، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي. أصله من باذغيس بخراسان. الأعلام، ج٤، ص٩٣.

وقال ابن طاهر لأحد قواد جيشه(١): «قد جرّدت لك ألف فارس من نخبة عسكري، وأمرت أن يحمل معك مائة ألف درهم تصرفها فيما تحتاج إلى صرفها فيه من أمورك، ... وخذ من خاص خيلي ثلاثة أفراس تجنب معك تنتقل عليها، وخذ بين يديك دليلًا قد رسمته لصحبتك، فادفع إليه من المال ألف درهم، واحمله على فرس من الثلاثة فليركض بين يديك، فإذا صرت على فرسخ واحد من نسا(٢)، فافضض الكتاب واقرأه، واعمل بما فيه، ولا تغادر منه حرفاً، ولا تخالف ممَّا رسمته شيئًا، واعلم أن لي عينًا في جملة من صحبك يخبرني بأنفاسك، فاحذر، ثم احذر، ثم احذر، وأنت أعلم».

وهذا يُبيِّن مدى خوف ابن طاهر من أن يكون قائده يميل إلى صف محمد بن القاسم، فلقد كان ذلك شيئًا طبيعيًّا، لأن نفوس الناس كانت مع الحركة الثورية، ولكن السلطات مرة بالتهديد ومرة بالإغراء، ومرة بالإفساد ومرات بأساليبها المختلفة كانت تجلب وتُسخِّر الناس(٣) في ضرب الحركة الرسالية. حتى إن ابن طاهر يقول: «واعلم أن لي عينًا في جملة من صحبك يخبرني بأنفاسك».

فسار قائده إلى نسا، وقبل أن يصل بفرسخ(٤) فتح كتاب ابن طاهر وإذا فيه الخطة كاملة، والبيت الذي ينزل فيه محمد بن القاسم، وصاحبه أبو تراب، ويأمره فيه أن يستوثقهما: «بالحديد استيثاقًا شديدًا، وأنفذ إليَّ خاتمك مع خاتم محمد بن القاسم، لأعلم ظفرك به قبل كتابك..». وذلك قبل أن يعود خطوة واحدة لكي يطمئن، وعلى الذي يرسلهما معه أن يركض بهما ركضًا، ثم يكتب إليه شرح ما حدث.

---

(١) هو: إبراهيم بن غسان بن الفرج العودي. صاحب ابن طاهر وقائد جيشه.

(٢) مدينة بخراسان، وهي المدينة التي يتواجد فيها محمد بن القاسم، وكان سبب تسميتها بهذا الاسم أن المسلمين لما قصدوها وبلغ أهلها ذلك فر الرجال ولم يبقَ إلَّا النساء، فتركوها ومضوا فسموا بذلك نسا. معجم البلدان، ج٥، ص٢٨١.

(٣) جاء في نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، ص٢٤٤: «فلما صار (محمد بن القاسم) بنسا وبها والد لبعض من معه، فمضى الرجل الذى معه يسلّم على أبيه فسلّم عليه، فسأله أبوه عن الخبر فأخبره به، فمضى الأب إلى عامل نسا وأخبره بأمر محمد بن القاسم، فأعطاه العامل عشرة آلاف درهم....».

(٤) أي بعد مسيرة ثلاثة أيام وقبل وصوله نسا بفرسخ.

وقال ابن طاهر في آخر الرسالة: «وكن على غاية التحرُّز والتحفُّظ والتيقُّظ في أمره حتى تصير به وصاحبه إلى حضرتي».

نجحت الخطة وحمل محمد بن القاسم مع صاحبه أبي تراب إلى ابن طاهر في نيسابور، فجاء ابن طاهر ليراهما فقال لقائده: «ويلك يا إبراهيم، أما خفت الله في فعلك؟. أتقيد هذا الرجل الصالح بمثل هذا القيد الثقيل؟.

فقلت: أيها الأمير، خوفك أنساني خوف الله، ووعدك الذي قدّمته إليّ أذهل عقلي عمّا سواه».

وكانا يتكلمان من فوق سطح يُطل على الغرفة المسجون بها محمد بن القاسم، في نيسابور.

فقال لي (ابن طاهر): «خفِّف هذا الحديد كلّه عنه، وقيِّده بقيد خفيف في حلقته رطل بالنيسابوري، وليكن عموده طويلاً، وحلقتاه واسعتين ليخطو فيه».

وفي فترة سجن محمد بن القاسم طلب قرآناً يتدارس فيه.

«فأقام بنيسابور ثلاثة أشهر يُريد بذلك أن يُعمِّي خبره على الناس كيلا يُغلب عليه لكثرة من بايعه بكور خراسان.

وكان عبد الله يُخرج من إصطبله بغالًا عليها القباب ليُوهم الناس أنه قد أخرجه، ثم يردّها حتى استتر بنيسابور سلّه في جوف الليل، وخرج به مع إبراهيم بن غسان -الذي أسره من نسا- ووافى به الرّي، وقد أمره عبدالله بن طاهر أن يفعل به كما فعل هو، يخرج في كل ثلاث ليالٍ، ومعه بغل عليه قبّة، ومعه جيش حتى يجوز الري بفراسخ، ثم يعود، إلى أن يُمكنه سلّه في ليلة مظلمة، ففعل ذلك خوفًا من أن يغلب عليه لكثرة من أجابه، حتى أخرجه من الري، ولم يعلم به أحد، ثم أتبعه حتى أورده بغداد على المعتصم»(١).

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٦٩.

وقد سمع المعتصم بمسير محمد إلى بغداد، فارسل إلى طاهر العودي أن انزع العمامة من عليه واجعله حاسرًا، وانزع رداء قبة البغل ليكون على البغل حاسراً، ثم أدخله بغداد.

وكان يُريد بذلك تعذيب محمد نفسيًّا والحط من كرامته، وقد ازدحم الناس على الطرقات حين أُدخل محمد بن القاسم إلى سر من رأى ازدحاماً شديداً، فأُدخل على المعتصم وكان في مجلس اللهو والشراب وبين يديه الفراغنة يلعبون، فلم يزل واقفًا والناس ينظرون إليه حتى فرغ الفراغنة من لعبهم.

وقال: «وجعلت الفراغنة يحملون على العامة ويرمونهم بالقذر والميتة، والمعتصم يضحك، ومحمد بن القاسم يُسبّح ويستغفر الله ويُحرّك شفتيه يدعو عليهم، والمعتصم جالس في جوسق كان له بالشّمّاسية ينظر إليهم، ومحمد واقف..»(١).

إلى أن انتهى المعتصم من لعبه فأمر بسجن محمد. وسرعان ما دبّر محمد بن القاسم حيلة ذكية للهروب. ثم توارى عن الأنظار في بغداد ثم إلى واسط، «وقد شدّ وسطه للوهن الذي أصاب فقار ظهره»، عند عملية هروبه. وظل محمد مختفيًا بعد ذلك إلى نهاية عهد المعتصم، ثم محمد الواثق، ثم قسم من أيام المتوكل، وقيل: إنه أُخذ إليه فحُمل إلى السجن حتى مات في محبسه(٢).

ولكن ماذا فعل خلال فترة تواريه عن الأنظار، وهي ليست بالفترة القليلة؟.

هذا ما أجابت عنه الثورات العديدة التي قامت بعد ذلك في عهد المتوكل، والمستعين وما بعده من الخلفاء التي لم تدع الخليفة يلعب ويلهو براحة.

وفي واسط سكن محمد بيتًا يعود إلى أمّ ابن عمه، علي بن الحسن بن علي بن عمر بن الإمام زين العابدين عليه السلام، وكانت عجوزًا مقعدة. «فلما نظرت إليه وثبت فرحًا به وقالت: «محمد والله، فدتك نفسي وأهلي، الحمد لله على سلامتك». فقامت

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٧١.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٤٧٢-٤٧٣.

على رجلها، وما قامت قبل ذلك بسنين..»⁽¹⁾.

وقال إبراهيم العودي، قائد جيوش ابن طاهر يصف محمدًا: «عرضوا على محمد بن القاسم كل شيء نفيس من مال وجوهر وغير ذلك، فلم يقبل إلّا مصحفاً جامعاً [كان] لعبد الله بن طاهر، فلما قبله سُرَّ عبد الله بذلك، وإنما قبله لأنه كان يدرس فيه».

وقال: «.. ما رأيت قط أشدّ اجتهادًا منه، ولا أعفَّ ولا أكثر ذكرًا لله عزّ وجلّ مع شدة نفس، واجتماع قلب، ما ظهر منه جزع ولا انكسار، ولا خضوع في الشدائد التي مرّت به، وأنهم ما رأوه قط مازحًا، ولا هازلًا، ولا ضاحكًا إلّا مرة واحدة، فإنهم لما انحدروا من عقبة حلوان أراد الرّكوب، فجاء بعض أصحاب إبراهيم بن غسان فطأطأ له ظهره، حتى ركب في المحمل على البغل، فلما استوى على المحمل قال للذي حمله على ظهره مازحًا: أتأخذ أرزاق بني العباس وتخدم بني علي بن أبي طالب!. وتبسّم»⁽²⁾.

ووجود شخصية ثورية مثل محمد، وثورة مثل ثورته تدل أن الحركة الرسالية لم تتوقّف يومًا ما عن مسيرتها، وأنها لا يمكن أن تميل عن استقامتها التي كانت معهودة بها، وهاتان ميزتان موجودتان في طول الثورات التي قامت بها الحركة الرسالية.

بركة الإمام الجواد عليه السلام

روى ابن اسباط وعبّاد بن إسماعيل: «إِنَّا لَعِنْدَ الرِّضَا عليه السلام بِمِنًى إِذْ جِيءَ بِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قُلْنَا: هَذَا الْمَوْلُودُ الْمُبَارَكُ؟.

قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ هَذَا الْمَوْلُودُ الَّذِي لَمْ يُولَدْ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْهُ**»⁽³⁾.

وروى أبو يحيى الصَّنعانيُّ قال: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام فَجِيءَ بِابْنِهِ أَبِي

---

(1) مقاتل الطالبين، ص٤٧٢.

(2) مقاتل الطالبين، ص٤٦٩-٤٧٠.

(3) بحار الأنوار، ج٥٠، ص ٢٠.

جَعْفَرٍ عليه السلام وَهُوَ صَغِيرٌ، فَقَالَ: هَذَا الْمَوْلُودُ الَّذِي لَمْ يُولَدْ مَوْلُودٌ أَعْظَمُ عَلَى شِيعَتِنَا بَرَكَةً مِنْهُ»(١).

والبركة التي حصلت للحركة الرسالية بولادة الإمام الجواد عليه السلام ليست في ارتفاع الإرهاب والاختناق السياسي عنهم، بل هو في تجذّر الرسالة عقيدةً وفكراً وسياسةً وفقهاً، وغير ذلك من مميزات القوة والانتشار الدائم.

العسكر يسيطرون على السلطة

وقد شهد عصر الإمام الجواد عليه السلام تحوُّلاً خطيراً، حيث أصبحت الخلافة مجرَّد سلطة اسمية على الأمة، وتحوَّلت السلطة الحقيقية إلى أيدي العسكر، وبذلك نستطيع أن نُسمِّي المرحلة بمرحلة التحوُّل العسكري للدولة الإسلامية.

ترى لماذا حصل هذا التحوُّل؟. وما هي آثاره؟ ومن الذي جاء بالعسكر؟.

إن القيمة الوحيدة التي كانت الأمة الإسلامية تعتمد عليها، وتتمحور حولها وتتوحَّد بها، كانت قيمة الإيمان بالله، والاعتقاد بالدولة باعتبارها ضرورة حضارية. فبالرغم من كل ما حدث في الأمة من انشقاقات داخلية، وظلم ودكتاتورية، إلَّا أن هناك إيمان بضرورة بقاء الدولة، وهذه القناعة كانت سائدة لدى كافة الأطراف. صحيح أن إرادة الأمة كانت ضد السلطة الفاسدة، ولكن الحاجة إلى نظام يحكم بالإسلام، والرغبة في الدفاع عن كيان الإسلام، وعن عزة المسلمين، كانتا متداخلتين، وكان الآلاف من الناس يذهبون للدفاع عن الثغور وفتح البلدان انطلاقاً من عقيدة الجهاد المقدسة بغض النظر عن السلطة الفاسدة.

بيد أن تلك القضية أخذت بالزوال بسبب العلاقة الديكتاتورية بين النظام والجماهير، حيث شعر الناس بأن لا شأن لهم بهذه الدولة، وهذا الشعور دفعهم إلى الابتعاد عنها شيئاً فشيئاً.

---

(١) الكافي، ج١، ص٣٢١. الإرشاد، ج٢، ص٢٧٩. بحار الإنوار، ج٥٠، ص٢٣.

وحينئذٍ أصبحت الدولة بحاجة إلى قوة تفرض بواسطتها سيادتها وهيبتها على الناس، وتحافظ على كيانها أمام الدول المعادية كالروم، فاعتمدت على القوة العسكرية وبالذات على الأتراك.

والسؤال: لماذا فقد الجيش العربي قدرته وثقة النظام به؟

الجواب: إنّ الذين كانوا يُشكِّلون القوة الرادعة للدولة، دبَّت في أنفسهم أفكار سلبية تجاه الدولة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: حالة المجون التي تردَّى إليها الخلفاء والمُقرَّبون إليهم، حيث لا تجد خليفة عباسيًّا لا يُدمن على الشرب(١)، واللهو، واللعب(٢)، فالمجون أفقد السلطة هيبتها.

بالإضافة إلى الإسراف والترف، فمثلاً: زواج المأمون ببنت(٣) الحسن بن

---

(١) كان الهادي العباسي يشرب الخمر ويلتذ بسماع الشعر عن الشراب، وكان من ندمائه إبراهيم الموصلي المغني المعروف. قال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام، ج١٠، ص٤٨٠: «كان يتناول المسكر ويلعب ويركب حمارًا فارهًا ولا يقيم أبهة الخلافة». وتبعه على ذلك الرشيد. كما عُرف عن المتوكل شربه للخمر. ومنهم أيضًا القاهر الذي كان سفاحًا كثير التلوُّن، مدمنًا للخمر. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٢٤٢. الوزراء والكتاب، ص١٣٠. الأغاني، ج٤، ص٣٠٩ و: ج١٠، ص٤٠٤، و: ج٢٢، ص٤٠٨. الفخري، ص٢٠٤. حياة الحيوان الكبرى، ج١، ص١٢٤ و: ص٤٧٣. زهرة الآداب وثمرة الألباب، ج١، ص٢٥٩. العقد الفريد، ج٨، ص١٠٦. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، ص٢٨٢. تجارب الأمم، ج٥، ص٣٧٩. وللإفادة طالع: التمدن الإسلامي، ج٥، عنوان: الثورة والرخاء ونتائجها.

(٢) عرف عن الهادي العباسي أنه كان ماجنًا يقبل على اللهو ويبذل في سبيله الأموال، وعن حبه للغناء، حيث كان يصرف على المغنين وجلسات السمر مبالغ طائلة حتى قال عنه إسحاق الموصلي: «لو عاش لنا لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة»، وقد أنفق على المغني المعروف إبراهيم الموصلي مبلغ خمسين ألف دينار، لأنه غنَّاه وأطربه بثلاثة أبيات فقط. طالع: الأغاني، ج٥، ص١١٢، و: ١٢٤-١٢٥. التذكرة الحمدونية، ج٩، ص٣٣. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٤، ص٣٣١.

(٣) خديجة بنت الحسن، تُسمَّى بوران، ويقال: إنه لقبٌ لها. وقد نثر أبوها في زواجها من الأملاك والأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك في الجاهلية ولا في الإسلام. البداية والنهاية، ج١١، ص٤٩. مروج الذهب، ج٣، ص٤٤٣. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٥٩. وأيضًا طالع: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، فيه تفصيل وافٍ للكلام عن الثروة العباسية ومصادرها وأسباب أضمحلالها.

سهل، كلف ٥٠ ألف ألف درهم(١)، كما أعطى ابن سهل عند انصرافه من فم الصلح(٢) عشرة آلاف درهم، ومنحه مقاطعة فم الصلح، وأطلق له خراج فارس وكور الأهوار مدة سنة(٣).

وأما قبيحة زوجة المعتصم، وأم المعتز، لمّا قُتِل ابنها كان عندها (٠٠٠ , ٥٠) دينار، عدا الجواهر والحُلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تُعرف له قيمة(٤).

كانت السلطة تُربِّي المجتمع على مقاييس جاهلية، فالذي كان يلهو ويلعب أكثر مع الخليفة هو الذي يكون الأقرب إليه(٥)، والذي كان ينسلخ عن دينه ويبيع كرامته وشرفه في سبيل الخليفة كانت ورقته أغلى عند الخليفة(٦).

كانت السلطة تدور حول المقاييس الجاهلية في المجتمع، وكما قلنا سابقاً: كان من المسؤوليات العامة التي اضطلع بها الأئمة الأطهار عليهم السلام محافظتهم على الروح الإسلامية في ضمير الأمة، وذلك عبر تربية عناصر رسالية سامية.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ج١٤، ص٣٠. الإنباء، ص١٠٢. شذرات الذهب، ج٣، ص٤٨.

(٢) كورة فوق واسط، لها نهر يستمد من دجلة على الجانب الشرقي. معجم البلدان، ج٣، ص٤٢١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٦٠٨. البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٦٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٣٩٣-٣٩٥. البداية والنهاية، ج١١، ص٣٧. تجارب الأمم، ج٤، ص٣٩١-٣٩٢.

(٥) كالفضل بن الربيع مع الأمين، الذي كان يعلب معه النرد، وهو وزيره والمقرب لديه، طالع: الفخري، ص٥١. كما أمر بعد بيعته ببناء حول قصر المنصور (أبو جعفر) في المدينة للصوالجة واللعب. الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٢٥. تجارب الأمم، ج٤، ص٣١. تاريخ الخلفاء، ص٢٣٦.

(٦) من هؤلاء غياث بن إبراهيم النخعي الكوفي، الذي قرَّبه المهدي العباسي إليه، حيث علم غياث أن المهدي يُحب الحمام التي تجيء من البعد، فحدَّثه حديثًا رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «لا سبق إلَّا في حافر أو خف أو جناح». فأمر المهدي له بعشرة آلاف درهم. ولكنه عندما انصرف غياث من مجلس المهدي، قال في حقه: «أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله، ما قال رسول الله جناح، لكنه أراد أن يتقرَّب إليّ». طالع: تاريخ بغداد، ج١٢، ص٣٢١. ومثله: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ج٤، ص٢٥.

ثانياً: تفشي الشعور باللامبالاة عند القادة العسكريين العرب في مواجهة الأخطار التي كانت تُحدق بالسلطة العباسية، سواءً الداخلية منها أو الخارجية، ممَّا دفع الخليفة إلى جمع المرتزقة، وذلك عن طريق شراء الموالي وتدريبهم على الخدمة المطلقة للسلطة.

وهذه الطريقة مكَّنت الدولة العباسية من الاعتماد على مجموعة ضخمة من العسكريين الأشداء من الأتراك الذين كان يُؤتى بهم أسرى، والتركي كان ضخم الجسم قوي البنية، قاسي الطباع، لا يهمه أن يضرب ويحارب ويقتل، ذلك لأن الفتح الإسلامي كان قريب العهد بالنسبة إليه، حيث كانوا من قبل يعيشون تحت سلطة الرومان المظلمة، ثم هو رجل أسير، ليست لديه علاقات اجتماعية، وليست لديه عائلة يخاف عليها، وما دام هكذا فهو يدفع بنفسه إلى المعركة ويقتل، والأهم أنه ليست لديه مبادئ سياسية يُدافع عنها، والعقيدة الإسلامية جديدة عليه لم تضرب جذورها في أعماق نفسه لتظهر على عمله، فكان يعيش بلا مبادئ، سوى مبدأ التقرُّب إلى السلطة وكسب رضاها. وهكذا كان الأتراك في بداية أمرهم في عهد المعتصم العباسي الذي أحضرهم ودرَّبهم وأعطاهم السلاح، كانوا مجموعة صغيرة قدرها أربعة الآف رجل⁽¹⁾، وشيئًا فشيئًا تحوَّلوا إلى جيش ضخم له لغته التي لم يكن يعرفها غيرهم، وجعل منهم قواداً على الجيش مثل: الأفشين⁽²⁾، وبغا⁽³⁾، وإيتاخ⁽⁴⁾.

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٤٦٥. تاريخ دمشق، ج٧٣، ص٢٤٥.

(٢) كان أكثر الأتراك يدينون بالمجوسية أو الوثنية، وفيهم من دخل الإسلام صادقًا، أما الأفشين فإنه أظهر الإسلام تزلفًا وطمعًا في كسب الغنائم من الحرب. فهو أحد أبرز قوّاد المعتصم وولاته، ولّاه حرب بابك الخرّمي، ثم حبسه مُضيّقًا عليه وبعدها قتله. طالع: تاريخ الإسلام، ج١٦، ص١٨. وأيضًا انظر: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٧٥-٤٧٨، تحت عنوان أمر الأفشين. وأيضًا: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٤٥٠.

(٣) بغا القائد التركي، مولى المعتصم، المعروف ببغا الكبير.

(٤) قائد تركي، مولى المعتصم، كان غلامًا خزريًّا، وطبّاخًا لسلاّم الأبرش، فاشتراه منه المعتصم في سنة (١٩٦هـ)، وكان فيه شجاعة فرفعه المعتصم، والواثق، وضمّ إليه أعمالاً كثيرة.. وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتله فعنده كان يُقتل وبيده يُحبس، فقتل عجيفاً والعباس بن المأمون وابن الزيات الوزير وغيرهم. طالع: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، ص٢٧٨.

إلّا أن أهل بغداد ثاروا على الجيش وازداد يومًا بعد آخر عدد الاغتيالات في صفوف الجيش التركي، ممَّا دفع بالمعتصم إلى بناء سامراء والانتقال إليها، لتلافي وقوع الخطر الذي كان يُهدِّد بانفجار ثورة شعبية، «وكانت الأتراك تُؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيولَ في الأسواق، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأةٍ، أو شيخٍ كبير، أو صبي، أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة معهم..»(١).

ومع أن المؤرخين لا يذكرون هذه الحكايات بشكل مفصل، وإنما يذكرون أنه بين الفينة والأخرى كانت الحكومة تعثر على مجموعة من الجنود مقتولين، وهكذا اضطر الخليفة إلى بناء مدينة سامراء(٢) للجيش خشية غضب الجماهير، وبعدها أصبحت مدينة معروفة في التاريخ.

هذا هو السبب في اعتماد الخليفة على المرتزقة، ولكن ماذا كانت آثار ذلك؟

لما جاء المعتصم بالأتراك وجنّدهم في جيشه، كانت كل ثورة أو انتفاضة تُعْلَن ضد النظام العباسي تُقابَل بفرقة من ذلك الجيش، حتى أصبح يعتمد عليهم اعتماداً كاملاً، وحينما عرفوا أن الخليفة لا يستطيع أن يصنع شيئاً من دونهم، أخذوا يُملون إرادتهم على الدولة العباسية، وبدؤوا يفرضون شروطهم على الحكومة، وشيئاً فشيئاً أخذوا يسيطرون على الحكم والسلطة.

وابتداءً من حكم المعتصم العباسي، وحتى حكم المتوكل، كانت سيطرة الأتراك تزداد شيئاً فشيئاً، فبعد أن مات المعتصم، وجاء ابنه الواثق، ومن بعد الواثق المتوكل، كانت قوة السلطة تضعف أمام نفوذ الأتراك وسيطرتهم على مقاليد الحكم، إلى درجة أنهم جاؤوا بالمنتصر بالله، ثم خلعوه ونصبوا المستعين.

وهكذا صاروا يلعبون بالدولة تحت اسم خلفاء البيت العباسي، وتحت سيادة

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٤٦٥-٤٦٦.

(٢) بناها ونزلها (المعتصم) في سنة ٢٢١هـ. طالع: معجم البلدان، ج٣، ص١٧٤.

وسلطة اسمية، إلى أن وصل الأمر إلى درجة أن أحد الخلفاء⁽¹⁾ العباسيين طلب من صاحب ديوانه مبلغ ثلاثمائة دينار لشؤونه الخاصة، فلم يُعطه⁽²⁾.

وبهذا تحوَّل الخلفاء إلى مجرَّد أدوات بالرغم من أن الدولة الإسلامية كانت تحكم باسم الخليفة، وأصبحت إدارة شؤون البلاد وزمام الحكم بيد قادة الجيش وجنوده⁽³⁾، وبذلك بدأ عهد السلاطين إلى جانب الخليفة مثل سلطة البويهيين.

فالمعتصم العباسي حين جاء بالأتراك كان آخذاً زمام الأمور بيده، ولكن الواثق العباسي لم يكن بيده أي شيء، لذلك سأل الواثق أحد نُدمائه أن يقضي عليه. ولعل ما حدث في عهد هارون الرشيد من توسُّع سلطة البرامكة وتدخُّلهم في شؤون الحكم الصغيرة منها والكبيرة، كان يُشبه هذا الشيء، ولكن الرشيد فطن للأمر قبل استفحاله، فقضى على البرامكة بشكل قاسٍ، وهو ما يُسمَّى بنكبة البرامكة⁽⁴⁾.

لقد كان البرامكة وزراء هارون الرشيد، وهم الذين تعبوا في سبيل حكمه، ولكن شيئاً فشيئاً شعر هارون الرشيد بأنه لا يملك شيئاً، فالبرامكة هم الذين

---

(١) هو المعتمد [٢٥٦-٢٧٩هـ] استمرت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة، انصرف في أغلب هذه المدة للهو، وكان القائم بأمر الخلافة أخاه الموفق. قال عنه المسعودي في مروج الذهب، ج٤، ص١٣١: «وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي..». كما وصف حاله السيوطي في تاريخ الخلفاء ص٢٨٩ بقوله: «انهمك المعتمد في اللهو واللذات، واشتغل عن الرعية فكرهه الناس..». وقد مات وهو محجور عليه من قِبَل الموفق.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٧، ص٤٥٦.

(٣) عقد الواثق لأشناس التركي ولاية بغداد وأمدَّ في سلطته حتى آخر أعمال المغرب، له الحرية في تصرفه يعزل من يشاء ويُولِّي من يشاء دون الرجوع إليه، كما استخلفه على جميع شؤون أمور الخلافة، حتى إنه توَّجه وألبسه وشاحين من جوهر. طالع: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٧٩. البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٩٩. كما فوَّض المستعين أمر الخلافة والتصرُّف في أموال بيت المال إلى ثلاثة وهم: أتامش التركي، وهو بمنزلة الوزير، وشاهك الخادم، وأم الخليفة.. طالع: البداية والنهاية، ج١١، ص٣. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٣٥٥. الكامل في التاريخ، ج٧، ص١٢٣.

(٤) طالع: الفخري، ص٢٠٧. البدء والتاريخ، ج٦، ص١٠٤. الإنباء، ص٧٩. البداية والنهاية، ج١٠، ص١٨٩- ٣١٩. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٢٧٩. تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٢٣٠-٣١٥. تجارب الأمم، ج٣، ص٥٣٧. مروج الذهب، ج١، ص٣٦.

أخذوا الحكم، وعندها حاك مؤامرة ضدهم وأطاح بهم، فقتل جعفرًا وسجن يحيى البرمكي، الذي كان يُناديه الرشيد يا أبتاه، لأن هارون الرشيد تربَّى على يد يحيى، وكان جعفر أخًا لهارون الرشيد من الرضاعة.

أمر هارون الرشيد ياسراً -خادمه المعروف برخلة- فقال له: «.. ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي؟.

قال: يا أمير المؤمنين، وهل أعرف سواه؟. أو يُنكر مثل جعفر؟...

قال: فامضِ الساعة إليه فأتني برأسه على أي حالة تجده عليها...

فقال ياسر لجعفر البرمكي: إن أمير المؤمنين قد أمرني فيك بكيت وكيت.

فقال جعفر: إن أمير المؤمنين يمازحني بأصناف من المزاح فأحسب أن هذا جنس منه.

فقال: والله ما رأيته إلّا جادًّا.

قال: فإن يكن الأمر كما قلت فهو إذاً سكران.

ثم قال جعفر له: فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفَّذت ما أمرك به، فإن أصبح نادماً كانت حياتي على يديك جارية، وكانت لك عندي نعمة مجدّدة، وإن أصبح على مثل هذا الرأي نفَّذت ما أمرت به في غد، قال: ليس إلى ذلك سبيل..».

ترى لماذا هذا الإصرار؟.

ذلك لأن جعفراً كان يعلم أن هارون الرشيد لو رآه ولو من بعيد فإنه لا يقتله لأنه كان يُحبه كثيراً، فأتى ياسر بجعفرٍ إلى حيث أعدمهُ، فلما أحضر رأسه إلى هارون، قال لخدمه: «اضربوا عنق ياسر، فإني لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر»(١).

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٣٨٠.

ووصل الأمر من السوء بالبرامكة أن أم جعفر البرمكي كانت تتمنَّى لو عندها جلد شاتين تفترش أحداهما وتتلحف بالأخرى⁽¹⁾.

قال المسعودي: إن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي قال: «دخلت على والدتي يوم نَحْر، فوجدتها وعندها امرأة برزة متكلمة في أثواب رثة، فقالت لي: أتعرف هذه؟.

قلت: لا!.

قالت: هذه عبادة أم جعفر بن يحيى.

فأقبلت عليها بوجهي أُحدِّثها وأُعظِّمها، ثم قلت لها: يا أماه، ما أعجب ما رأيت؟.

قالت: يا بني، لقد أتى عليَّ عيدٌ مثل هذا وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعدُّ ابني عاقًّا لي. ولقد أتى عليَّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر..»⁽²⁾.

---

(١) انظر: تاريخ بغداد، ج٧، ص١٦٨. تاريخ دمشق، ج٧٢، ص١٨٤.

(٢) مروج الذهب، ج٣، ص٣٨٣-٣٨٤.

صفو الكلام

* تزوّج الإمام الجواد ابنة المأمون، وبذلك قيّد المأمون من القيام باغتياله، كما جعل مخالب السلطة في قفص الحركة الرسالية. وكانت ثورة محمد بن القاسم أبرز ثورة رسالية في عهد الإمام الجواد عليه السلام، وهذا يدل على أن الحركة الرسالية لم تتوقف يوماً ما عن مسيرتها.

* شهد عهد الإمام الجواد عليه السلام تحوّل الخلافة إلى مجرّد سلطة اسمية وانتقال السلطة الحقيقية إلى العسكر الأتراك الذين جاء بهم المعتصم. واشتغل الخلفاء بالمجون والترف تاركين البلاد والعباد تحت وطأة العسكر الذين تلاعبوا بالدولة حتى سقوطها.

الباب الرابع: مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الرابع: الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام

الإمام الهادي عليه السلام وقيادة الأمة
واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام

الإمام الهادي عليه السلام وقيادة الأمة

ثلاثةً وثلاثين عاماً وعدةَ شهور كان الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام(١) خليفةً شرعيًّا للمسلمين، وإماماً وقائداً للشعب(٢)، وهي من الأعمار الطويلة التي يعيشها إمام في إمامته، وخلال تلك الفترة فرضت الحركة الرسالية نفسها على الأحداث بشكل مباشر.

---

(١) يمكننا تقسيم حياة الإمام الهادي عليه السلام إلى مرحلتين:

الأولى: مرحلة ما قبل الإمامة، عاشها الإمام الهادي في ظل أبيه الإمام الجواد عليه السلام، قضى شطرًا منها بعيدًا عن والده، حيث أشخصه المعتصم العباسي إلى بغداد عام ٢١٨هـ.

الثانية: مرحلة الإمامة وما بعدها، فيها تحمل الإمام الهادي أعباء الإمامة، منذ رحيل والده الإمام الجواد سنة ٢٢٠هـ، حتى ٢٥٤هـ، عاصر فيها الإمام الهادي عليه السلام من حكام بني العباس: المعتصم مات سنة ٢٢٧هـ، ثم الواثق مات سنة ٢٣٢هـ، وبعدهما المتوكل مات سنة ٢٤٧هـ، والمنتصر الذي مات سنة ٢٤٨هـ. وأخيرًا المستعين مات سنة ٢٥٢هـ، وبعده المعتز الذي لحق المستعين بعد ثلاث سنوات أي سنة ٢٥٥هـ. فكان حياة الإمام الهادي عليه السلام، والتي استمرت ٣٣ سنة وأشهر، حافلة بالعديد من الأحداث والمواقف التاريخية التي شهدت خلالها تحوُّلات كبيرة على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية، كان للحركة الرسالية وفي ظل توجيهات الإمام الهادي عليه السلام الأثر البالغ في هذا التحول. للفائدة طالع: الإمام الهادي دراسة وتحليل للعلامة المحقق الشيخ باقر شريف القرشي. و: الإمام الهادي عليه السلام قدوة وأسوة. للمصنف.

(٢) الإرشاد، ج٢، ص٢٩٧. الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، ج٢، ص١٠٧٥. بحار الأنوار، ج٥٠، ص١١٥.

وكان الإمام علي الهادي عليه السلام يتنقل بشكل مستمر بين المدينة المنورة وسامراء، بحيث أصبح له من النفوذ على شيعته، حتى إنه عندما كان في المدينة كان يتصرّف وكأنه دولة داخل دولة، يُدير شؤون الرساليين، ويُعيِّن الوكلاء⁽¹⁾ في كافة المناطق، حتى إن والي المدينة⁽²⁾ لم يكن له من القدرة والقوة ليفرض أي أمر على الإمام عليه السلام.

---

(١) بلغت عدتهم وحسب التتبع ثلاثة عشر وكيلًا، نذكر منهم:

- أبوعلي بن راشد، من ثقات ووكلاء الإمام الجواد والهادي عليهما السلام، أقامه الإمام الهادي عليه السلام وكيلاً بعد علي بن الحسين بن عبد ربه، وجعل طاعته من طاعته.. مستدركات علم رجال الحديث، ج٨، ص٤٢٤.
- إبراهيم بن محمد الهمداني، عدَّه الشيخ من أصحاب الإمام الرضا، والإمام الجواد، والإمام الهادي عليهم السلام، ثقة، وكيل الناحية. حج أربعين حجة، وهو من أصحاب الأصول التي استخرج منها الصدوق أحاديث كتابه الفقيه. رجال الكشي، ص٦٤٦، مستدركات علم رجال الحديث، ج١، ص٢٠٦.
- علي بن الحسين بن عبد ربه، عدَّه الشيخ والبرقي من أصحاب ووكلاء الإمام الهادي عليه السلام. مستدركات علم رجال الحديث، ج٥، ص٣٤٩.
- إبراهيم بن مهزيار وولده محمد، الأهوازي، الثقة، من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام، ووكلاء الإمام الهادي عليه السلام. كما جاءت في رجال الكشي ص٥٣٢ رواية تدلنا على أن إبراهيم وولده كانا من وكلاء الإمام الهادي المأمونين الثقات في قبض الحقوق الشرعية، فقد رواها الكشي بسنده عن محمد بن إبراهيم بن مهزيار، قال: «إن أبي لما حضرته الوفاة دفع إليَّ مالًا وأعطاني علامة، ولم يعلم بتلك العلامة أحد إلَّا الله عز وجل، وقال: من أتاك بهذه العلامة فادفع إليه المال. قال: فخرجت إلى بغداد ونزلت في خان، فلما كان اليوم الثاني إذ جاء شيخ ودق الباب، فقلت للغلام: انظر من هذا؟ فقال: شيخ بالباب. فقلت: ادخل فدخل وجلس. فقال: أنا العمري؛ هاتِ المال الذي عندك، وهو كذا وكذا ومعه العلامة. قال: فدفعت إليه المال».
- علي بن بلال البغدادي، الذي خصَّه الإمام الهادي عليه السلام برسالة بيّن فيها الإمام الهادي تعيين أبي علي بن راشد بديلاً عن الحسين بن عبد ربه، دلت على وثاقته ومكانته عند الإمام عليه السلام، عد من أصحاب الإمام الهادي والعسكري، ثقة بالاتفاق. وكما يدل على حسن عقيدته ووثاقته استنابة أبي هاشم الجعفري إياه بأمر الإمام الهادي عليه السلام ليذهب إلى الحائر فيدعو له. رجال الكشي، ص٥٧٧، مستدركات علم رجال الحديث، ج٥، ص٣١٣.

(٢) عبدالله بن محمد بن داود الهاشمي العباسي الناصبي، خبيث ملعون، من ندماء المتوكل، المعروف بـ(بريحة العباسي)، كما في مستدركات علم رجال الحديث، ج٢، ص١٦، وكان عامل المتوكل العباسي على المدينة في إقامة الصلاة، وسائر الشؤون الحربية، وكان دائم التقصد

رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى قَالَ: «كَتَبَ أَبُو الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ عليه السلام إِلَى الْمَوَالِي بِبَغْدَادَ، وَالْمَدَائِنِ، وَالسَّوَادِ وَمَا يَلِيهَا: قَدْ أَقَمْتُ أَبَا عَلِيِّ بْنَ رَاشِدٍ، مَقَامَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ وُكَلَائِي، وَقَدْ أَوْجَبْتُ فِي طَاعَتِهِ طَاعَتِي، وَفِي عِصْيَانِهِ الْخُرُوجَ إِلَى عِصْيَانِي..»(١).

وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى قَالَ: «نُسْخَةُ الْكِتَابِ مَعَ ابْنِ رَاشِدٍ إِلَى جَمَاعَةِ الْمَوَالِي الَّذِينَ هُمْ بِبَغْدَادَ الْمُقِيمِينَ بِهَا، وَالْمَدَائِنِ، وَالسَّوَادِ وَمَا يَلِيهَا: أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكُمْ، مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ عَافِيَةٍ، وَحُسْنِ عَائِدَتِهِ. وَأُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ وَآلِهِ أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ، وَأَكْمَلَ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ، وَإِنِّي أَقَمْتُ أَبَا عَلِيِّ بْنَ رَاشِدٍ مَقَامَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنْ وُكَلَائِي وَصَارَ فِي مَنْزِلَتِهِ عِنْدِي، وَوَلَّيْتُهُ مَا كَانَ يَتَوَلَّاهُ غَيْرُهُ مِنْ وُكَلَائِي قَبْلَكُمْ، لِيَقْبِضَ حَقِّي، وَارْتَضَيْتُهُ لَكُمْ وَقَدَّمْتُهُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَهْلُهُ وَمَوْضِعُهُ، فَصِيرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى الدَّفْعِ إِلَيْهِ ذَلِكَ، وَإِلَيَّ وَأَلَّا تَجْعَلُوا لَهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ عِلَّةً، فَعَلَيْكُمْ بِالْخُرُوجِ عَنْ ذَلِكَ، وَالتَّسَرُّعِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ، وَتَحْلِيلِ أَمْوَالِكُمْ وَالْحَقْنِ لِدِمَائِكُمْ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(٢). ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣). ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾(٤). ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾(٥). فَقَدْ أَوْجَبْتُ فِي طَاعَتِهِ طَاعَتِي، وَالْخُرُوجِ إِلَى عِصْيَانِهِ الْخُرُوجَ إِلَى عِصْيَانِي، فَالْزَمُوا الطَّرِيقَ يَأْجُرُكُمُ اللهُ، وَيَزِيدُكُم

بالأذى للإمام الهادي عليه السلام، كما أنه سعى بالإمام عند المتوكل ليخرجه من الحرمين، فعلم الإمام بذلك، فأرسل الإمام للمتوكل رسالة يشكو فيها حقد عامله على المدينة وسوء معاملته له، وأحاطه الإمام في الرسالة أنه لا يبغي بالمتوكل سوءًا، كما أنه لا يرى الخروج على حكومته. طالع: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٨٤. ولقراءة رسالة عبدالله بن محمد إلى المتوكل، والرسائل المتبادلة مع الإمام عليه السلام. طالع: الإرشاد، ج٢، ص٣٠٩. وأيضًا: الكافي، ج١، ص٥٠١. بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٠٠.

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٢٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٣٢.

مِـنْ فَضْلِه، فَإِنَّ اللهَ بِمَا عِنْدَهُ وَاسِـعٌ كَرِيـمُ، مُتَطَوِّلٌ عَلَى عِبَادِهِ رَحِيـمٌ، نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي وَدِيعَةِ اللهِ وَحِفْظِهِ. وَكَتَبْتُهُ بِخَطِّي، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيراً»(١).

ويجتمـع كبار الرسـاليين في المدينة المنـورة مع الإمام حيـث يعطيهم الأوامر وتُحْمَل إليه الأموال التي كان يبعثها إلى مستحقيها.

أما عندما يكون الإمام في سـامراء، حيث عاصمة الخلافة العباسـية فإنه كان يقـوم بالدور نفسـه، حتى في عهد المتوكل، أشـد خلفاء العباسـين بطشـاً وتنكيلاً بالرساليين، فهو الذي أمر سنة ٢٢٦هـ بهدم قبر الإمام الحسين عليه السلام وما حوله من الدور، وأمر بأن تُحْرَث الأرض التي فيها القبر وأن تُبْذَر وتُسـقى ليُعفي أثره، وأمر بإقامـة مراكز على الطرق المؤدية للقبر، وأوكل إليها قتل كل من يُرى أنه آتٍ لزيارة الإمام الحسين عليه السلام(٢)، ذلك لأن القبر -كما قلنا- كان بمثابة البركان الذي يحافظ على روح الثورة ورفض الظلم عند الناس.

وكان تأثـير الإمام الهادي عليه السلام يمتـدّ إلى كبار رجال البلاط العباسي، الأمر الذي مكّن الإمام من الاطلاع على الكثير من خطط العباسيين ضد الحركة الرسالية.

فعندما كان الجواسيس والعيون يأتون المتوكل بالأخبار عن تحركات الإمام وعن الذين يتّصلون به، وكان المتوكل يُصدر أوامره بتفتيش منزل الإمام وتشـديد الرقابة عليه، كانت تلك الأوامر سرعان ما تتميّع بسبب السلطة الروحية التي كان الإمام يتمتع بها، حتى على بيت الخلافة نفسه.

- رَوَى ابْـنُ قُولَوَيْـهِ عَنِ الْكُلَيْنِيِّ، عَنْ عَـلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَـنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِـرِيِّ، قَالَ: «مَرِضَ الْمُتَوَكِّلُ مِنْ خُرَاجٍ(٣) خَـرَجَ بِهِ فَأَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى التَّلَفِ فَلَمْ

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٢٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٨٥. تجارب الأمم، ج٤، ص٢٩٨. تاريخ الإسلام، ج١٧، ص١٨. المناقب، ج٢، ص٢١١. وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص٢٧٥، بعد أن ذكر جريمة المتوكل النكراء: «وكان المتوكل معروفًا بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك».

(٣) القروح والدماميل الكبيرة.

يَجْسُرْ أَحَدٌ أَنْ يَمَسَّهُ بِحَدِيدَةٍ، فَنَذَرَتْ أُمُّهُ إِنْ عُوفِيَ أَنْ تَحْمِلَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام مَالًا جَلِيلًا مِنْ مَالِهَا.

وَقَالَ لَهُ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ(١): لَوْ بَعَثْتَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ (يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام) فَسَأَلْتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَ عِنْدَهُ صِفَةُ شَيْءٍ يُفَرِّجُ اللهُ بِهِ عَنْكَ.

قَالَ: ابْعَثُوا إِلَيْهِ، فَمَضَى الرَّسُولُ وَرَجَعَ فَقَالَ: خُذُوا كُسْبَ الْغَنَمِ(٢) فَدِيفُوهُ بِمَاءِ وَرْدٍ وَضَعُوهُ عَلَى الْخُرَاجِ، فَإِنَّهُ نَافِعٌ بِإِذْنِ اللهِ. فَجَعَلَ مَنْ بِحَضْرَةِ الْمُتَوَكِّلِ يَهْزَأُ مِنْ قَوْلِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْفَتْحُ: وَمَا يَضُرُّ مِنْ تَجْرِبَةِ مَا قَالَ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو الصَّلَاحَ بِهِ.

فَأُحْضِرَ الْكُسْبُ وَدِيفَ بِمَاءِ الْوَرْدِ، وَوُضِعَ عَلَى الْخُرَاجِ فَانْفَتَحَ وَخَرَجَ مَا كَانَ فِيهِ. وَبُشِّرَتْ أُمُّ الْمُتَوَكِّلِ بِعَافِيَتِهِ، فَحَمَلَتْ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، تَحْتَ خَتْمِهَا فَاسْتَقَلَّ الْمُتَوَكِّلُ مِنْ عِلَّتِهِ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ سَعَى الْبَطْحَائِيُّ بِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام إِلَى الْمُتَوَكِّلِ فَقَالَ: عِنْدَهُ سِلَاحٌ وَأَمْوَالٌ. فَتَقَدَّمَ الْمُتَوَكِّلُ إِلَى سَعِيدٍ الْحَاجِبِ أَنْ يَهْجُمَ لَيْلًا عَلَيْهِ، وَيَأْخُذَ مَا يَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسِّلَاحِ، وَيَحْمِلَ إِلَيْهِ.

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: قَالَ لِي سَعِيدٌ الْحَاجِبُ، صِرْتُ إِلَى دَارِ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام بِاللَّيْلِ وَمَعِي سُلَّمٌ فَصَعِدْتُ مِنْهُ إِلَى السَّطْحِ، وَنَزَلْتُ مِنَ الدَّرَجَةِ إِلَى بَعْضِهَا فِي الظُّلْمَةِ، فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَصِلُ إِلَى الدَّارِ، فَنَادَانِي أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام مِنَ الدَّارِ، يَا

---

(١) اتخذه المتوكل أخًا ووزيرًا له، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله، كان في نهاية الذكاء والفطنة، وحسن الأدب من أولاد الملوك، كان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين. وقيل: إن من شغفه بالكتب أنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجةٍ أخرج كتابًا من كمه أو خفه وقرأه إلى أن يعود إليه المتوكل، بل كان يقرأ حتى في الخلاء. اجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن. ألّف كتابًا سماه (اختلاف الملوك)، وكتابًا في (الصيد والجوارح)، وكتاب (الروضة والزهر). وقتل مع المتوكل في الليلة نفسها على يد الأتراك. كان ذلك سنة ٢٧٤هـ. الأعلام، ج٥، ص١٣٣. تاريخ الإسلام، ج١٨، ص٣٩٠.

(٢) عصارة الدهن.

سَعِيدُ مَكَانَكَ حَتَّى يَأْتُوكَ بِشَمْعَةٍ.

فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَتَوْنِي بِشَمْعَةٍ فَنَزَلْتُ، فَوَجَدْتُ عَلَيْهِ جُبَّةً مِنْ صُوفٍ وَقَلَنْسُوَةً مِنْهَا، وَسَجَّادَتَهُ عَلَى حَصِيرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى الْقِبْلَةِ.

فَقَالَ لِي: **دُونَكَ بِالْبُيُوتِ**. فَدَخَلْتُهَا وَفَتَّشْتُهَا فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا شَيْئاً، وَوَجَدْتُ الْبَدْرَةَ مَخْتُومَةً بِخَاتَمِ أُمِّ الْمُتَوَكِّلِ وَكِيساً مَخْتُوماً مَعَهَا. فَقَالَ أَبُوالْحَسَنِ عليه السلام: **دُونَكَ الْمُصَلَّى**.

فَرَفَعْتُ فَوَجَدْتُ سَيْفاً فِي جَفْنٍ غَيْرِ مَلْبُوسٍ، فَأَخَذْتُ ذَلِكَ، وَصِرْتُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى خَاتَمِ أُمِّهِ عَلَى الْبَدْرَةِ بَعَثَ إِلَيْهَا، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْبَدْرَةِ؟. فَأَخْبَرَنِي بَعْضُ خَدَمِ الْخَاصَّةِ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: كُنْتُ نَذَرْتُ فِي عِلَّتِكَ إِنْ عُوفِيتَ أَنْ أَحْمِلَ إِلَيْهِ مِنْ مَالِي عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ.

وَهَذَا خَاتَمُكَ عَلَى الْكِيسِ مَا حَرَّكَهَا، وَفَتَحَ الْكِيسَ الْآخَرَ. وَكَانَ فِيهِ أَرْبَعُمِائَةِ دِينَارٍ فَأَمَرَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى الْبَدْرَةِ بَدْرَةً أُخْرَى.

وَقَالَ لِي: احْمِلْ ذَلِكَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ، وَارْدُدْ عَلَيْهِ السَّيْفَ، وَالْكِيسَ بِمَا فِيهِ.

فَحَمَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، عَزَّ عَلَيَّ بِدُخُولِ دَارِكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، وَلَكِنِّي مَأْمُورٌ بِهِ.

فَقَالَ لِي: **﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾**(١)»(٢).

ومرة جاء إلى المتوكل أحد أعوانه وقال: أنت جالس في قصرك والأموال تُحمل إلى علي بن محمد، ستأتي قافلة من قم ومعها أموال إليه. فطلب المتوكل فتح بن خاقان أكبر وزرائه وهو أيضاً قائد الجيش وكلفه بأمر القافلة(٣). فخرج فتح بن

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٩٨.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٢٤.

خاقان إلى المهمة.

لكن مكر المتوكل لم يُنجز بسبب أن خبر علم السلطات بأمر القافلة قد عرفه الإمام فأمر بتأخير مسيرها.

فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الْقُمِّيِّ وَمُحَمَّدٍ الطَّلْحِيِّ قَالَا: «حَمَلْنَا مَالًا مِنْ خُمُسٍ، وَنَذْرٍ وَهَدَايَا وَجَوَاهِرَ، اجْتَمَعَتْ فِي قُمَّ وَبِلَادِهَا، وَخَرَجْنَا نُرِيدُ بِهَا سَيِّدَنَا أَبَا الْحَسَنِ الْهَادِيَ عليه السلام فَجَاءَنَا رَسُولُهُ فِي الطَّرِيقِ، أَنِ ارْجِعُوا فَلَيْسَ هَذَا وَقْتَ الْوُصُولِ، فَرَجَعْنَا إِلَى قُمَّ، وَأَحْرَزْنَا مَا كَانَ عِنْدَنَا، فَجَاءَنَا أَمْرُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ، أَنْ قَدْ أَنْفَذْنَا إِلَيْكُمْ إِبِلًا عِيراً فَاحْمِلُوا عَلَيْهَا مَا عِنْدَكُمْ وَخَلُّوا سَبِيلَهَا. قَالَ: فَحَمَلْنَاهَا وَأَوْدَعْنَاهَا اللهَ فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِ. فَقَالَ عليه السلام: انْظُرُوا إِلَى مَا حَمَلْتُمْ إِلَيْنَا؟. فَنَظَرْنَا فَإِذَا الْمَنَائِحُ كَمَا هِيَ»(١).

فهل كان الخليفة عاجزاً وكانت مخابراته ضعيفة إلى درجة بحيث لم تكن توصل إليه الأخبار؟ بالعكس فقد كان أقرب الناس إليه مكاناً هو الإمام الهادي عليه السلام ، حيث كان منزل الإمام عليه السلام قريباً من قصر الخليفة في سامراء، ولذلك كان الإمام يلقب بالعسكري نسبة إلى منطقة سامراء العسكرية.

إن هذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على طبيعة الوضع الذي كان في ذلك الزمان، فقد كانت جماعات الرساليين ترد على سامراء من كل حدب وصوب، فمثلًا يزوره في سامراء من قم رئيس القميين وهو: محمد القمي(٢) الراوي الشهير الذي روى عن مجموعة من الأئمة عليهم السلام وهو من الرجال الصالحين(٣). بالطبع تعرفون أن قم كانت وما تزال مركزاً علميًّا وروحيًّا، فيه الكثير من الرواة الثقاة

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٨٥.

(٢) محمد بن عيسى بن عبدالله الأشعري القمي، أبوعلي، ثقة، إمامي، صحيح المذهب، شيخ القميين. رجال النجاشي، ص٣٣٨. رقم: ٩٠٥. خلاصة الأقوال، ص٢٥٧.

(٣) طالع: رجال النجاشي، ص٣٨٨. جامع الرواة، ج٢، ص١٦٥. مستدركات علم رجال الحديث، ج٧، ص٢٧٥.

والفقهاء العلماء(١)، الذين يتمتعون بقدر كبير من القوة والنفوذ بحيث إن السلطات الدنيوية تخشاهم باستمرار.

ومن المناطق الأخرى كان يأتيه أبو هاشم الجعفري(٢)، وجعفر بن سهيل(٣)، ومعاوية بن حكيم الكوفي(٤) من الكوفة، ومن المدينة، ومن مصر(٥)، وكلهم من وجهاء الرساليين.

ومع أن الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم الإمام الهادي عليه السلام كانوا يبذلون كل جهدهم للحيلولة دون اتصال الإمام بالرساليين، حيث فرضوا على الإمام الإقامة الجبرية في سامراء، إلَّا أن الأمر كان يجري على غير مرام السلطات، نظراً لوجود الموالين للإمام داخل الجهاز الحاكم، حيث كانوا يؤدون دوراً كبيراً في ذلك.

---

(١) للإفادة طالع كتاب: رياض المحدثين في ترجمة الرُّواة والعلماء القميين من المتقدمين والمتأخرين، للشيخ محمد علي بن الحسين القمي، المتوفي سنة ١٣٣٥هـ. تحقيق: محمد رضا القمي، وبإشراف: د. السيد محمود المرعشي، نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى. ط: ١، سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) داود بن القاسم، يكنى أبو هاشم الجعفري، من أهل بغداد، ثقة، إمامي صحيح المذهب، جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، ولقي من الأئمة عليهم السلام: (الرضا، والجواد، والهادي، والعسكري)، وروى عنهم. قال الكشي، ج١، ص٥٧١: «قال أبو عمرو: له -أبو هاشم- منزلة عالية عند أبي جعفر وأبي الحسن وأبي محمد عليهم السلام وموضع جليل، على ما يستدل بها روى عنهم في نفسه ورواياته...». رجال الطوسي، ص٣٨٦. والفهرست، ص١٢٤.

(٣) جعفر بن سهيل الصقيل، وكيل الإمام الهادي، والإمام الحسن العسكري والإمام الحجة عليهم السلام، وقال النمازي في مستدركاته، ج٢، ص١٦٣: «ولا خلاف فيه».

(٤) معاوية بن حكيم بن معاوية بن عمار الدهني، ثقة، جليل، عده في الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الجواد عليه السلام تارة، وأخرى في أصحاب الهادي عليه السلام ووصفه بالكوفي. معجم رجال الحديث، ج١٨، ص٢٠٢.

(٥) منهم: الراوي المعروف محمد بن الفرج الرخجي، ثقة، كانت له اتصالات وثيقة بالإمام، وعدة مراسلات، اعتقلته السلطات من مصر فقيدوه بالحديد، ومكث في السجن ثماني سنين، بعدها خرج وذهب إلى سامراء للإمام عليه السلام، مرض فبعث له الإمام الهادي عليه السلام ثوبًا، وضعه تحت رأسه ولما مات كفن به. أصول الكافي، ج١، ص٥٠٠. بحار الأنوار، ج٥١، ص٢٩٩. معجم رجال الحديث، ج١٧، ص١٣١-١٣٣.

روى الصَّقْرُ بْنِ أَبِي دُلَف الْكَرْخِيِّ قَالَ: «لَمَّا حَمَلَ الْمُتَوَكِّلُ سَيِّدَنَا أَبَا الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيَّ عليه السلام -أي استدعاه إلى سامراء- جِئْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَبَرِهِ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ الزَّرَافِيُّ وَكَانَ حَاجِباً لِلْمُتَوَكِّلِ فَأَمَرَ أَنْ أُدْخَلَ إِلَيْهِ فَأُدْخِلْتُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: يَا صَقْرُ، مَا شَأْنُكَ؟!.

فَقُلْتُ: خَيْرٌ أَيُّهَا الْأُسْتَاذُ!. فَقَالَ: اقْعُدْ.

فَأَخَذَنِي، مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَقُلْتُ -في نفسي- أَخْطَأْتُ فِي الْمَجِيءِ. قَالَ: فَوَحَى النَّاسَ عَنْهُ -أي أبعدهم-، ثُمَّ قَالَ لِي: مَا شَأْنُكَ وَفِيمَ جِئْتَ؟!.

قُلْتُ: لِخَيْرٍ مَا. فَقَالَ: لَعَلَّكَ تَسْأَلُ عَنْ خَبَرِ مَوْلَاكَ؟!.

فَقُلْتُ لَهُ: وَمَنْ مَوْلَايَ؟!. مَوْلَايَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ!.

فَقَالَ: اسْكُتْ مَوْلَاكَ هُوَ الْحَقُّ، فَلَا تَحْتَشِمْنِي، فَإِنِّي عَلَى مَذْهَبِكَ.

فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لله. قَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهُ؟. قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: اجْلِسْ حَتَّى يَخْرُجَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ مِنْ عِنْدِهِ.

قَالَ: فَجَلَسْتُ فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ لِغُلَامٍ لَهُ: خُذْ بِيَدِ الصَّقْرِ وَأَدْخِلْهُ إِلَى الْحُجْرَةِ الَّتِي فِيهَا الْعَلَوِيُّ الْمَحْبُوسُ، وَخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ...»[1].

وهكذا الحال بالنسبة لرجل مثل فتح بن خاقان الذي كان أكبر وزير في العصر العباسي الثاني، هذا الرجل حيث كان معروفًا أنه يظهر التشيع للإمام الهادي عليه السلام.

روى الْفَحَّامُ عَنِ الْمَنْصُورِيِّ، عَنْ عَمِّ أَبِيهِ، قَالَ: «قَصَدْتُ الْإِمَامَ عليه السلام يَوْماً، فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَطْرَحَنِي وَقَطَعَ رِزْقِي، وَمَلَّنِي وَمَا أَتَّهِمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا عِلْمَهُ بِمُلَازَمَتِي لَكَ، وَإِذَا سَأَلْتُهُ شَيْئاً مِنْهُ يَلْزَمُهُ الْقَبُولُ مِنْكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيَّ بِمَسْأَلَتِهِ.

---

[1] بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٩٤.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **تُكْفَى إِنْ شَاءَ اللهُ.**

فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ طَرَقَنِي رُسُلُ المُتَوَكِّلِ، رَسُولٌ يَتْلُو رَسُولًا. فَجِئْتُ وَالْفَتْحُ عَلَى الْبَابِ قَائِمٌ، فَقَالَ: يَا رَجُلُ، مَا تَأْوِي فِي مَنْزِلِكَ بِاللَّيْلِ كَدَّنِي هَذَا الرَّجُلُ مِمَّا يَطْلُبُكَ.

فَدَخَلْتُ وَإِذَا المُتَوَكِّلُ جَالِسٌ عَلَى فِرَاشِهِ فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، نُشْغَلُ عَنْكَ وَتُنْسِينَا نَفْسَكَ، أَيُّ شَيْءٍ لَكَ عِنْدِي؟.

فَقُلْتُ: الصِّلَةُ الْفُلَانِيَّةُ، وَالرِّزْقُ الْفُلَانِيُّ. وَذَكَرْتُ أَشْيَاءَ فَأَمَرَ لِي بِهَا، وَبِضِعْفِهَا.

فَقُلْتُ لِلْفَتْحِ: وَافَى عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ إِلَى هَاهُنَا.

فَقَالَ: لَا. فَقُلْتُ: كَتَبَ رُقْعَةً. فَقَالَ: لَا.

فَوَلَّيْتُ مُنْصَرِفاً فَتَبِعَنِي. فَقَالَ لِي: لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّكَ سَأَلْتَهُ دُعَاءً لَكَ، فَالْتَمِسْ لِي مِنْهُ دُعَاءً. فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِي: **يَا أَبَا مُوسَى هَذَا وَجْهُ الرِّضَا.**

فَقُلْتُ: بِبَرَكَتِكَ يَا سَيِّدِي. وَلَكِنْ قَالُوا لِي: إِنَّكَ مَا مَضَيْتَ إِلَيْهِ، وَلَا سَأَلْتَهُ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ مِنَّا أَنَّا لَا نَلْجَأُ فِي المُهِمَّاتِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا نَتَوَكَّلُ فِي المُلِمَّاتِ إِلَّا عَلَيْهِ، وَعَوَّدَنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ الْإِجَابَةَ، وَنَخَافُ أَنْ نَعْدِلَ فَيَعْدِلَ بِنَا.**

قُلْتُ: إِنَّ الْفَتْحَ؛ قَالَ لِي كَيْتَ وَكَيْتَ (أي الطلب الذي يطلبه وهو الدعاء له).

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِنَّهُ يُوَالِينَا بِظَاهِرِهِ، وَيُجَانِبُنَا بِبَاطِنِهِ. الدُّعَاءُ لِمَنْ يَدْعُو بِهِ إِذَا أَخْلَصْتَ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَاعْتَرَفْتَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبِحَقِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَسَأَلْتَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَيْئاً لَمْ يَحْرِمْكَ..»**(١).

رَوَى أَبُو سَعِيدٍ؛ سَهْلُ بْنُ زِيَادٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ فَضْلُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٢٧.

إِسْرَائِيلَ الْكَاتِبُ، وَنَحْنُ فِي دَارِهِ بِسَامَرَّاءَ، فَجَرَى ذِكْرُ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام، فَقَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ، حَدَّثَنِي بِهِ أَبِي قَالَ: كُنَّا مَعَ الْمُعْتَزِّ، وَكَانَ أَبِي كَاتِبَهُ، فَدَخَلْنَا الدَّارَ وَإِذَا الْمُتَوَكِّلُ عَلَى سَرِيرِهِ قَاعِدٌ، فَسَلَّمَ الْمُعْتَزُّ وَوَقَفَ، وَوَقَفْتُ خَلْفَهُ، وَكَانَ عَهْدِي بِهِ إِذَا دَخَلَ رَحَّبَ بِهِ وَيَأْمُرُ بِالْقُعُودِ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ رِجْلًا وَيَضَعُ أُخْرَى، وَهُوَ لَا يَأْذَنُ لَهُ بِالْقُعُودِ، وَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ يَتَغَيَّرُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ وَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي تَقُولُ فِيهِ مَا تَقُولُ. وَيُرَدِّدُ الْقَوْلَ وَالْفَتْحُ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ يُسَكِّنُهُ، وَيَقُولُ: مَكْذُوبٌ عَلَيْهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَهُوَ يَتَلَظَّى وَيَقُولُ: وَاللهِ لَأَقْتُلَنَّ هَذَا الْمُرَائِيَ الزِّنْدِيقَ، وَهُوَ يَدَّعِي الْكَذِبَ وَيَطْعَنُ فِي دَوْلَتِي. ثُمَّ قَالَ: جِئْنِي بِأَرْبَعَةٍ مِنَ الْخَزَرِ.

فَجِيءَ بِهِمْ، وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ أَرْبَعَةَ أَسْيَافٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْطُنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ، إِذَا دَخَلَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام، وَيُقْبِلُوا عَلَيْهِ بِأَسْيَافِهِمْ فَيَخْبِطُوهُ. وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَأُحْرِقَنَّهُ بَعْدَ الْقَتْلِ.

وَأَنَا مُنْتَصِبٌ قَائِمٌ خَلْفَ الْمُعْتَزِّ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ، فَمَا عَلِمْتُ إِلَّا بِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام، قَدْ دَخَلَ وَقَدْ بَادَرَ النَّاسُ قُدَّامَهُ. وَقَالُوا: قَدْ جَاءَ.

وَالْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِهِ، وَشَفَتَاهُ يَتَحَرَّكَانِ، وَهُوَ غَيْرُ مَكْرُوبٍ وَلَا جَازِعٍ. فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ الْمُتَوَكِّلُ رَمَى بِنَفْسِهِ عَنِ السَّرِيرِ إِلَيْهِ، وَهُوَ سَبَقَهُ وَانْكَبَّ عَلَيْهِ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَيَدَهُ وَسَيْفُهُ بِيَدِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا سَيِّدِي يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، يَا خَيْرَ خَلْقِ اللهِ يَا ابْنَ عَمِّي، يَا مَوْلَايَ يَا أَبَا الْحَسَنِ.

وَأَبُو الْحَسَنِ عليه السلام يَقُولُ: **أُعِيذُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ أَعْفِنِي مِنْ هَذَا.**

فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا سَيِّدِي فِي هَذَا الْوَقْتِ؟.

قَالَ عليه السلام: **جَاءَنِي رَسُولُكَ، فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ يَدْعُوكَ!.**

فَقَالَ: كَذَبَ ابْنُ الْفَاعِلَةِ، ارْجِعْ يَا سَيِّدِي مِنْ حَيْثُ شِئْتَ. يَا فَتْحُ، يَا عُبَيْدَاللهِ،

يَا مُعْتَزُّ شَيِّعُوا سَيِّدَكُمْ وَسَيِّدِي..»(١).

وكذلك كان إسحاق بن إبراهيم الطاهري، والي المتوكل على بغداد، أو وصيف التركي أحد أعمدة جيش المتوكل، أو غيرهم ممن كان يوالي الإمام في باطنه.

روى المسعودي عن ابن الأزهر، قال: حدَّثني القاسم بن عباد قال: حدثني يحيى بن هرثمة، قال: «وَجَّهني المتوكل إلى المدينة لإشخاص علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر لشيء بلغه عنه، فلما صرت إليها ضجّ أهلها وعجوا ضجيجًا وعجيجًا ما سمعت مثله، فجعلت أسكّنهم وأحلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه، وفتَّشت بيته، فلم أجد فيه إلَّا مصحفاً ودعاء وما أشبه ذلك، فأشخصته وتوليت خدمته وأحسنت عشرته.

فبينا أنا نائم يوماً من الأيام، والسماء صاحية، والشمس طالعة، إذ ركب وعليه ممطر، وقد عقد ذنب دابته فعجبت من فعله، فلم يكن بعد ذلك إلَّا هنيهة حتى جاءت سحابة فأرخت عزَاليها، ونالنا من المطر أمر عظيم جدًّا، فالتفت إليَّ، وقال: أنا أعلم أنك أنكرت ما رأيت، وتوهَّمت أني علمت من الأمر ما لا تعلمه، وليس ذلك كما ظننت، ولكن نشأتُ بالبادية، فأنا أعرف الرياح التي يكون في عقبها المطر فلما أصبحت هبَّتْ ريح لا تخلف وشممت منها رائحة المطر، فتأهبت لذلك.

فلما قدمت مدينة السلام بدأت بإسحاق بن إبراهيم الطاهري -وكان على بغداد- فقال لي: يا يحيى، إن هذا الرجل قد ولده رسول الله ﷺ، والمتوكل من تعلم، وإن حرضته على قتله كان رسول الله ﷺ خصمك.

فقلت: والله ما وقفت له إلَّا على كل أمر جميل.

فصرت إلى سامراء، فبدأت بوصيف التركي، وكنت من أصحابه، فقال: والله لئن سقطت من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون المطالب بها غيري، فعجبت

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٩٦.

من قولهما، وعرفت المتوكل ما وقفت عليه..»(١).

وهنا يطرح السؤال التالي: ماذا قدَّم الإمام للأمة الإسلامية وللحركة الرسالية خلال مدة إمامته التي دامت ثلاثاً وثلاثين سنة؟

هناك عدة أعمال قام بها الإمام الهادي عليه السلام منها:

أولاً: قيادة الحركة الرسالية

كان الرساليون قد انتشروا في كافة البلاد الإسلامية، وأصبح لهم التأثير الواضح في مجريات الأحداث، وكانت تقع عليهم مسؤولية حمل الرسالة وقيم الدين في قبال الواقع الفاسد، حتى أصبحوا مشعل الحرية في الأمة الإسلامية، كما أن الدولة كانت قد اتَّسعت بحيث أصبحت تضم مجموع تسع وسبعين دولة من دول اليوم، أي نصف المعمورة آنئذٍ.

وكان الإمام عليه السلام يقود هذه الحركة المنتشرة في هذه الرقعة، والتي تعمل ليل نهار في سبيل رفع مستوى الأمة وإيصالها إلى ممارسة الحركة الحقيقية المرتكزة على هدى القرآن الكريم.

وقد أشرنا سابقاً إلى أن أحداث التاريخ، وتطوراته، دلت على أن حركة الرساليين كانت تنمو نموًّا متصاعداً منذ عهد الإمام علي عليه السلام وستظل هكذا إلى ظهور الإمام الحجة عجل الله فرجه وقيامه، والذي كان يقود هذا النمو والتصاعد المُطَّرد هم الأئمة المعصومون عليهم السلام، أي إنهم قادوا الحركة الرسالية، ونمَّوها وربَّوها ووسّعوها، وهذه هي المسؤولية الأولى التي قام بها الإمام الهادي عليه السلام.

وقد تسأل: كيف كان الإمام عليه السلام يقود هذه الحركة؟.

إننا إذا نظرنا إلى التاريخ نجد أن تعيين الوكلاء في الأمة لم يكن معروفاً عند

---

(١) مروج الذهب، ج٤، ص٨٥. بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٠٧.

الأئمة قبل الإمام الهادي عليه السلام، الذي كان يُوكل نُوَّاباً له في كل المناطق الإسلامية. فقد كان في عهد الأئمة الأوائل عليهم السلام أن الإمام عليه السلام يُوثِّق رجلاً فيأخذ الرساليُّون منه التعاليم الرسالية، ويستلم منهم الحقوق الشرعية ليُوصلها بدوره إلى الإمام عليه السلام. أما في عهد الإمام الهادي عليه السلام فإن هذا الأمر أصبح أكثر دقة وتنظيماً.

بالطبع إن ممارسة الإدارة والقيادة لا تُسَجَّل يومياتها تفصيليًّا في كتب التواريخ. فالقيادة ليست من الأشياء التي تُكتَب، أو تبقى آثارها بشكل عيني أمامنا. إنها ليست كبناء بناية، أو كتابة كتاب، أو إنشاد شعر. القيادة هي عبارة عن مجموعة أعمال ومهمات يجب أن نقيسها ونحكم عليها من خلال نتائجها، التي تمثَّلت في نمو وانتشار الحركة الرسالية في عهده بفضل العمل الدؤوب الذي اضطلع الإمام الهادي عليه السلام بالقيام به.

وحتى في وجه المتوكل العباسي نفسه، فإن الإمام عليه السلام كان يحمل لواء الرسالة. فيحنها: «سُعِيَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ بِعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجَوَادِ عليه السلام أَنَّ فِي مَنْزِلِهِ كُتُباً وَسِلَاحاً مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ أَهْلِ قُمَّ، وَأَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى الْوُثُوبِ بِالدَّوْلَةِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْأَتْرَاكِ فَهَجَمُوا دَارَهُ لَيْلًا فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا شَيْئاً، وَوَجَدُوهُ فِي بَيْتٍ مُغْلَقٍ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الله تَعَالَى يَتْلُو آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَحُمِلَ عَلَى حَالِهِ تِلْكَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ، وَقَالُوا لَهُ: لَمْ نَجِدْ فِي بَيْتِهِ شَيْئاً، وَوَجَدْنَاهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ.

وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ جَالِساً فِي مَجْلِسِ الشُّرْبِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَالْكَأْسُ فِي يَدِ الْمُتَوَكِّلِ، فَلَمَّا رَآهُ هَابَهُ وَعَظَّمَهُ وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ، وَنَاوَلَهُ الْكَأْسَ الَّتِي كَانَتْ فِي يَدِهِ. فَقَالَ عليه السلام: **وَالله، مَا يُخَامِرُ لَحْمِي وَدَمِي قَطُّ فَأَعْفِنِي**. فَأَعْفَاهُ.

فَقَالَ -المتوكل-: أَنْشِدْنِي شِعْراً.

فَقَالَ عليه السلام: **إِنِّي قَلِيلُ الرِّوَايَةِ لِلشِّعْرِ**.

فَقَالَ: لَا بُدَّ.

فَأَنْشَدَهُ عليه السلام وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ:

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ   غُلْبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنْفَعْهُمُ الْقُلَلُ
وَاسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ   وَاسْكِنُوا حُفَراً يَا بِئْسَمَا نَزَلُوا
نَادَاهُمُ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ دَفْنِهِمُ   أَيْنَ الْأَسَاوِرُ وَالتِّيجَانُ وَالْحُلَلُ
أَيْنَ الْوُجُوهُ الَّتِي كَانَتْ مُنَعَّمَةٌ   مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالْكِلَلُ
فَأَفْصَحَ الْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَلَهُمْ   تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ تَقْتَتِلُ
قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْراً وَقَدْ شَرِبُوا   وَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ بَعْدَ الْأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا

قَالَ: فَبَكَى الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى بَلَّتْ لِحْيَتَهُ دُمُوعُ عَيْنَيْهِ، وَبَكَى الْحَاضِرُونَ وَدَفَعَ إِلَى عَلِيٍّ عليه السلام أَرْبَعَةَ آلَافِ دِينَارٍ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ مُكَرَّماً»(١).

إن أهم شيء في حياة الإمام الهادي عليه السلام أنه قاد الأمة، ونمّى حركتها الرسالية، ودفعها خطوات واسعة نحو الأمام، نحو شواطئ الهداية والصلاح.. وهناك روايات كثيرة تكشف عن مدى العطاء الذي كان يقدمه الإمام للحركة الرسالية في كل الجوانب التي يجب على قيادة حيوية أن تقدمه(٢).

---

(١) مروج الذهب، ج٤، ص١١. البداية والنهاية، ج١١، ص١٥. بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢١٢-٢١٣.
ونرى كيف يُجابه الإمام عليه السلام المتوكل، بينما نرى غيره كيف يُؤلّه هذا الطاغية. فقد روى المسعودي في مروج الذهب، ج٤، ص٩. عن المبرد قال: «وردتُ سر من رأى، فأُدخلت على المتوكل، وقد عمل فيه الشراب، فَسُئلت عن بعض ما وردت له، فأجبت، وبين يدي المتوكل البحتري الشاعر، فابتدأ ينشده قصيدة يمدح بها المتوكل، وفي المجلس أبو العنبس الصيمري، فأنشد البحتري قصيد ته التي أولها:

عن أي ثغر تبتسم؟   وبأي طرف تحتكم؟
حسن يضيء بحسنه   والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ   ـمتوكل ابن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى   والمنعم ابن المنتقم

إلى أن قال:

نلنا الهدى بعد العمى   بك والغنى بعد العَدَم

(٢) للتوسع طالع للمصنف: الإمام الهادي عليه السلام قدوة وأسوة.

ثانياً: التصدي للتيارات الفكرية المنحرفة

في أيام الإمام الهادي عليه السلام كانت هناك نزاعات فكرية حادَّة، منها النزاع المشهور حول خلق القرآن(١). ولا يمكن لنا اليوم أن نعرف أهمية هذه المسألة ومدى خطرها، إلَّا عندما نقارنها بمسألة حديثة، كالأزمات الحادة التي نعيشها اليوم، فالأزمة اللبنانية مثلاً، لا نجد لها التفسير المناسب والواقعي للأحداث بعد ألف أو ألفين سنة من الآن، فكل ما يمكن أن يسجله التاريخ عن تلك الأزمة هو الحدث على مستوى الظاهر وصور الاقتتال.

لكننا اليوم ونحن نعايش تلك الأزمة، فإننا نعرف ضخامة تلك الأحداث وما هي أهميتها وارتباطاتها وعواملها وإلى أي مدى امتدت تأثيراتها وتشعباتها(٢). كذلك قصة خلق القرآن، فإنها الآن تُذْكَر كقصة عابرة، لكن في وقتها كانت قصة أساسية، ومثلما توجد الآن في العالم الإسلامي تيارات شرقية، وغربية، وإسلامية مختلفة، كذلك في العهد الإسلامي السابق. كانت تتقاسم الأمة الإسلامية حركتان فكريتان هما:

- حركة الاعتزال.
- حركة الأشاعرة.

وهاتان الحركتان؛ لم تكونا فقط مجرَّد حركتين فكريتين في المدارس، بل كان لكل واحدة منهما أتباعها بين جماهير المسلمين، وكانت كثيراً ما تقع بين أتباع الحركتين نزاعات دموية، وكانت السلطات تُغذِّيها وتزيد من حدتها من أجل تحقيق

---

(١) ظهرت هذه الفكرة في أواخر الدولة الأموية، أبدعها الجعد بن درهم، الذي أخذها عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت بن أعصم اليهودي، والجعد هو: معلم الخليفة الأموي مروان بن محمد، وقيل: إنه أول من تكلَّم بها، وأول من أذاعها في دمشق، فطلبته السلطات فهرب ونزل الكوفة، وتعلمها منه الجهم بن صفوان (مؤسس الجهمية). تاريخ الإسلام للذهبي، ج٧، ص٣٣٧. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١٣، ص٢٥٥. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج١، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٢) انتهت أحداث الأزمة اللبنانية سنة ١٩٨٩م. بتوقيع بعض الأطراف اللبنانية وثيقة الاتفاق الوطني والذي عُرف باتفاق الطائف.

مصالحها اللامشروعة.

كانت السلطة العباسية تدعو إلى حركة الأشعرية وإلى الأشاعرة، وكان جلاوزتها يأخذون كل معتزلي ويتّهمونه بالزندقة ويقتلونه. ولما جاء المأمون العباسي إلى الحكم فإنه اتّجه إلى الاعتزال، وكان الاعتزال حركة الطبقة الواعية في ذلك اليوم، وقد ظلّت السلطة في عهد المأمون العباسي، والمعتصم العباسي، والواثق العباسي⁽¹⁾ تُؤيِّد الاعتزال التي تقول بخلق القرآن⁽²⁾، ولما جاء المتوكل صار مع الأشاعرة، وعاقب كل من قال بخلق القرآن⁽³⁾.

إننا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى أوحى بالقرآن، فإذن القرآن مخلوق⁽⁴⁾، أي إن القرآن لم يكن مع الله منذ الأزل، بل خُلِقَ فيما بعد، كان الله أولاً ولم يكن معه شيء⁽⁵⁾، ثم أوحى بالقرآن، وهذا شيء واضح، إلاّ أن الأشاعرة قالوا: إن القرآن قديم مثل الله⁽⁶⁾.

ومرة كان رجل يُدعى أحمد بن نصر⁽⁷⁾ قد دبّر عمليَّةً مّا ضد الواثق، إلّا أنها لم يُكتب لها النجاح، فاستدعاه الواثق العباسي، وقال له: يا أحمد، ما تقول في القرآن؟.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٦٣١. تجارب الأمم، ج٤، ص١٦٦. الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٢٣.

(٢) لاحظ: تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي زهرة، ص١٤١. و: المعتزلة، لزهدي جار الله، ص١٦٠-١٧٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٩٠.

(٤) انظر: بحوث في الملل والنحل، ج٢، ص٢٦٨-٢٧٠.

(٥) الكافي، ج١، ص١١٥، عَنِ ابْنِ أبِي يَعْفُورٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أبَا عَبْدِالله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، فقال عليه السلام: فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِحَالَةٍ وَاحِدَةٍ، هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْآخِرُ..».

(٦) لاحظ: مقالات الإسلاميين، ج٢، ص٢٥٦.

(٧) أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، من رواة الحديث، كتب عن مالك وجماعة، قتله الواثق لأنه أنكر القول بخلق القرآن. وبقي مصلوبًا حتى عصر المتوكل، فأمر بإنزال جثته وسلَّموه إلى أهله بعد أن جمعوا بين رأسه وجسده. قال في البداية والنهاية، ج١٠، ص٣١٦: «ففرح الناس بذلك فرحًا شديدًا، واجتمع في جنازته خلق كثير جدًّا، وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه، وكان يومًا مشهودًا..».

قال: كلام الله. قال: أفمخلوق هو؟.

قال: هو كلام الله. قال: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامه؟.

قال: يا أمير المؤمنين، جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ترون ربكم يوم القيامه كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته». فنحن على الخبر.

.. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟.

فقال عبد الرحمن بن إسحاق -وكان قاضيًا على الجانب الغربي فعزل، وكان موادًا لأحمد بن نصر قبل ذلك- : يا أمير المؤمنين، هو حلال الدم.

وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب ابن أبي دواد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين... ووافقه الحاضرون في البلاط إلَّا ابن أبي دواد (قاضي القضاة) قال: يا أمير المؤمنين، كافر يستتاب، لعل به عاهة أو تغيُّر عقل.

فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قمت إليه، فلا يقومنَّ أحد معي، فإني أحتسب خطاي إليه، ودعا بالصمصامة -[وهو] سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان في الخزانة..- فأخذ الواثق الصمصامة ... فمشى إليه وهو في وسط الدار، ودعا بنطع فُصيِّر في وسطه، وحبل فشد رأسه، ومدَّ الحبل، فضربه الواثق ضربة، فوقعت على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه.. وحمل رأسه إلى بغداد، فنُصب في الجانب الشرقي أيامًا، وفي الجانب الغربي أيامًا، ثم حُوِّل إلى الشرقي، ... وكتب في أُذنه رقعة: «هذا رأس الكافر المشرك الضال، وهو أحمد بن نصر بن مالك، ممَّن قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجه في خلق القرآن ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكَّنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلَّا المعانده والتصريح، والحمد لله الذي عجَّل به إلى ناره وأليم عقابه..»(١).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٣٨-١٣٩. البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٠٥.

لطالما طارت رؤوس علماء كانوا من ذوي المكانة الحسنة في المجتمع بسبب أمثال هذه الآراء، بينما كانت الأخطار تتهدَّد الأمة الإسلامية من كل جانب.

وهذه الحادثة تُشبه حادثة المسلمين عندما وصلوا إلى القسطنطينية وحاصروها وهدَّدوا المدينة، كان المسيحيون وقتها داخل السور مشغولين في التفكير والاختلاف حول (جنس الملائكة)، هل هو من الناسوت أو اللاهوت، هذه الخلافات التي تُدْخِل الأمة في متاهات فكرية لا طائل من ورائها سوى تضييع جهود الأمة، وقد كان الخلاف حول خلق القرآن أو عدم خلق القرآن، هو من أمثال تلك الخلافات التي تمنع الأمة من التوجُّه نحو إنجاز المشاريع.. وقد قيل قديماً: إذا كثر الجواب ضاع الصواب.

هنا يأتي الأئمة المعصومون عليهم السلام، كما جاء الأنبياء عليهم السلام من قبلهم لفض خلافات الناس وتوجيههم إلى الطريق القويم، الذي يتمثَّل باتِّباع القرآن الكريم الذي أنزله الله سبحانه دستوراً للحياة.

إن المجتمع كثيراً ما يفقد المقاييس الثقافية الصحيحة، ويستبدلها بمقاييس خاطئة، وأبرز مكان لحدوث ذلك هو عادات وسلوك المجتمع، فإذا رأيت الرذيلة والفساد قد بدءا بالانتشار في المجتمع، فاعرف أن قيمًا ومقاييس فاسدة، ومعايير خاطئة، هي التي تعلَّق بها المجتمع. أما إذا رأيت أن حالة التوجُّه إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإقبال على الالتزام بالتعاليم الدينية، قد انتشرت بين الناس، فذلك دليل على اتِّباع المجتمع للقيم والمعايير الصحيحة.

إن العادات الاجتماعية حبل تشدُّه تارة القيم الصالحة، وأخرى القيم الفاسدة، وهنا نرى أن الأئمة الأطهار عليهم السلام يُحافظون على قوة شد القيم الصالحة لهذا الحبل الاجتماعي الهام إذ إن سلوك الأمة هو وقود تقدمها.

وكان الأئمة عليهم السلام يتصدون أبدًا لموجات الإنحراف العقائدي، التي كانت تنتشر في أوساط العلماء طورًا بخلق أزمات فكرية منشؤها الثقافات الدخيلة، مثل

أزمة خلق القرآن، ومثل رواج أفكار التجسيد والتشبيه لمقام الربوبية. ومرة بمواجهة التشدد والمروق، وبالتالي الغلو في مقام الأولياء وفي طليعتهم الأئمة عليهم السلام وهكذا.

نُورد فيما يلي هذه الرواية المأثورة عن الإمام الهادي عليه السلام، والتي تعالج كثيرًا من القضايا العقائدية.

روى العلامة المجلسي في موسوعة بحار الأنوار، عن كتاب الدلائل عن أيوب، قال: «قَالَ فَتْحُ بْنُ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيُّ: ضَمَّنِي وَأَبَا الْحَسَنِ عليه السلام، الطَّرِيقُ مُنْصَرَفِي مِنْ مَكَّةَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى الْعِرَاقِ فَسَمِعْتُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: مَنِ اتَّقَى اللهَ يُتَّقَى، وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ يُطَاعُ.

قَالَ: فَتَلَطَّفْتُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ وَأَوَّلُ مَا ابْتَدَأَنِي بِهِ. أَنْ قَالَ: **يَا فَتْحُ، مَنْ أَطَاعَ الْخَالِقَ لَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ الْمَخْلُوقِ، وَمَنْ أَسْخَطَ الْخَالِقَ فَأَيْقَنَ أَنْ يُحِلَّ بِهِ الْخَالِقُ، سَخَطَ الْمَخْلُوقِ، وَإِنَّ الْخَالِقَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَنَّى يُوصَفُ الْخَالِقُ الَّذِي يَعْجِزُ الْحَوَاسُّ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَوْهَامُ أَنْ تَنَالَهُ، وَالْخَطَرَاتُ أَنْ تَحُدَّهُ ،وَالْأَبْصَارُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ.**

جَلَّ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَتَعَالَى عَمَّا يَنْعَتُهُ النَّاعِتُونَ، نَأَى فِي قُرْبِهِ، وَقَرُبَ فِي نَأْيِهِ، فَهُوَ فِي نَأْيِهِ قَرِيبٌ، وَفِي قُرْبِهِ بَعِيدٌ. كَيَّفَ الْكَيْفَ، فَلَا يُقَالُ: كَيْفَ، وَأَيَّنَ الْأَيْنَ، فَلَا يُقَالُ: أَيْنَ، إِذْ هُوَ مُنْقَطِعُ الْكَيْفِيَّةِ وَالْأَيْنِيَّةِ.

هُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ فَجَلَّ جَلَالُهُ.

بَلْ كَيْفَ يُوصَفُ بِكُنْهِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، وَقَدْ قَرَنَهُ الْجَلِيلُ بِاسْمِهِ، وَشَرِكَهُ فِي عَطَائِهِ، وَأَوْجَبَ لِمَنْ أَطَاعَهُ جَزَاءَ طَاعَتِهِ. إِذْ يَقُولُ: ﴿وما نقمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(١).

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧٤.

وَقَالَ، يَحْكِي قَوْلَ مَنْ تَرَكَ طَاعَتَهُ، وَهُوَ يُعَذِّبُهُ بَيْنَ أَطْبَاقِ نِيرَانِهَا، وَسَرَابِيلِ قَطِرَانِهَا: ﴿يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾(١).

أَمْ كَيْفَ يُوصَفُ بِكُنْهِهِ مَنْ قَرَنَ الْجَلِيلُ طَاعَتَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٢).

وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾(٣).

وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها﴾(٤).

وَقَالَ: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

يَا فَتْحُ؛ كَمَا لَا يُوصَفُ الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالرَّسُولُ، وَالْخَلِيلُ، وَوَلَدُ الْبَتُولِ، فَكَذَلِكَ لَا يُوصَفُ الْمُؤْمِنُ الْمُسَلِّمُ لِأَمْرِنَا، فَنَبِيُّنَا أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَخَلِيلُنَا أَفْضَلُ الْأَخِلَّاءِ، وَوَصِيُّنَا أَكْرَمُ الْأَوْصِيَاءِ، وَاسْمُهُمَا أَفْضَلُ الْأَسْمَاءِ، وَكُنْيَتُهُمَا أَفْضَلُ الْكُنَى، وَأَحْلَاهَا، لَوْ لَمْ يُجَالِسْنَا إِلَّا كُفْوٌ لَمْ يُجَالِسْنَا أَحَدٌ، وَلَوْ لَمْ يُزَوِّجْنَا إِلَّا كُفْوٌ لَمْ يُزَوِّجْنَا أَحَدٌ.

أَشَدُّ النَّاسِ تَوَاضُعاً، أَعْظَمُهُمْ حِلْماً وَأَنْدَاهُمْ كَفًّا، وَأَمْنَعُهُمْ كَنَفًا، وَرِثَ عَنْهُمَا أَوْصِيَاؤُهُمَا عِلْمَهُمَا، فَارْدُدْ إِلَيْهِمَا الْأَمْرَ، وَسَلِّمْ إِلَيْهِمْ، أَمَاتَكَ اللهُ مَمَاتَهُمْ، وَأَحْيَاكَ حَيَاتَهُمْ، إِذَا شِئْتَ رَحِمَكَ اللهُ.

قَالَ فَتْحُ: فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، تَلَطَّفْتُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ. فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، أَتَأْذَنُ فِي مَسْأَلَةٍ اخْتَلَجَ فِي صَدْرِي أَمْرُهَا لَيْلَتِي؟.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٨٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٧.

قَالَ عليه السلام: **سَلْ وَإِنْ شَرَحْتَهَا فَلِي، وَإِنْ أَمْسَكْتَهَا فَلِي، فَصَحِّحْ نَظَرَكَ، وَتَثَبَّتْ فِي مَسْأَلَتِكَ، وَأَصْغِ إِلَى جَوَابِهَا سَمْعَكَ، وَلَا تَسْأَلْ مَسْأَلَةَ تَعْنِيتٍ، وَاعْتَنِ بِمَا تَعْتَنِي بِهِ، فَإِنَّ الْعَالِمَ وَالْمُتَعَلِّمَ شَرِيكَانِ فِي الرُّشْدِ، مَأْمُورَانِ بِالنَّصِيحَةِ، مَنْهِيَّانِ عَنِ الْغِشِّ.**

وَأَمَّا الَّذِي اخْتَلَجَ فِي صَدْرِكَ، فَإِنْ شَاءَ الْعَالِمُ أَنْبَأَكَ، إِنَّ اللهَ لَمْ يُظْهِرْ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ، فَكُلُّ مَا كَانَ عِنْدَ الرَّسُولِ، كَانَ عِنْدَ الْعَالِمِ، وَكُلُّ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ، فَقَدِ اطَّلَعَ أَوْصِيَاؤُهُ عَلَيْهِ، كَيْلَا تَخْلُوَ أَرْضُهُ مِنْ حُجَّةٍ، يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ، وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ.

يَا فَتْحُ؛ عَسَى الشَّيْطَانُ أَرَادَ اللَّبْسَ عَلَيْكَ، فَأَوْهَمَكَ فِي بَعْضِ مَا أَوْدَعْتُكَ، وَشَكَّكَ فِي بَعْضِ مَا أَنْبَأْتُكَ، حَتَّى أَرَادَ إِزَالَتَكَ عَنْ طَرِيقِ اللهِ، وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ؟. (فَقُلْتُ: مَتَى أَيْقَنْتَ أَنَّهُمْ كَذَا فَهُمْ أَرْبَابٌ). **مَعَاذَ اللهِ، إِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ مُطِيعُونَ للهِ، دَاخِرُونَ رَاغِبُونَ، فَإِذَا جَاءَكَ الشَّيْطَانُ مِنْ قِبَلِ مَا جَاءَكَ، فَاقْمَعْهُ بِمَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ.**

فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَرَّجْتَ عَنِّي، وَكَشَفْتَ مَا لَبَسَ الْمَلْعُونُ عَلَيَّ بِشَرْحِكَ، فَقَدْ كَانَ أَوْقَعَ فِي خَلَدِي، أَنَّكُمْ أَرْبَابٌ.

قَالَ: فَسَجَدَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام، وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: **رَاغِماً لَكَ يَا خَالِقِي، دَاخِراً خَاضِعاً.**

قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى ذَهَبَ لَيْلِي.

ثُمَّ قَالَ: يَا فَتْحُ؛ كِدْتَ أَنْ تَهْلِكَ، وَتُهْلِكَ، وَمَا ضَرَّ عِيسَى عليه السلام إِذَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، انْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ رَحِمَكَ اللهُ.

قَالَ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا فَرِحٌ بِمَا كَشَفَ اللهُ عَنِّي مِنَ اللَّبْسِ بِأَنَّهُمْ هُمْ، وَحَمِدْتُ اللهَ عَلَى مَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَنْزِلِ الْآخَرِ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حِنْطَةٌ مَقْلُوَّةٌ،

يَعْبَثُ بِهَا، وَقَدْ كَانَ أَوْقَعَ الشَّيْطَانُ فِي خَلَدِي، أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا، إِذْ كَانَ ذَلِكَ آفَةً، وَالْإِمَامُ غَيْرُ ذِي آفَةٍ.

فَقَالَ عليه السلام: اجْلِسْ يَا فَتْحُ، فَإِنَّ لَنَا بِالرُّسُلِ أُسْوَةً، كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَكُلُّ جِسْمٍ مَغْذُوٌّ بِهَذَا، إِلَّا الْخَالِقَ الرَّازِقَ، لِأَنَّهُ جَسَّمَ الْأَجْسَامَ، وَهُوَ لَمْ يُجَسَّمْ، وَلَمْ يُجَزَّأْ بِتَنَاهٍ، وَلَمْ يَتَزَايَدْ، وَلَمْ يَتَنَاقَصْ، مُبَرَّأٌ مِنْ ذَاتِهِ، مَا رُكِّبَ فِي ذَاتِ مَنْ جَسَّمَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، مُنْشِئُ الْأَشْيَاءِ، مُجَسِّمُ الْأَجْسَامِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ، عُلُوّاً كَبِيراً.

لَوْ كَانَ كَمَا يُوصَفُ، لَمْ يُعْرَفِ الرَّبُّ مِنَ الْمَرْبُوبِ، وَلَا الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا الْمُنْشِئُ مِنَ الْمُنْشَإِ، لَكِنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ جَسَّمَهُ، وَشَيَّأَ الْأَشْيَاءَ، إِذْ كَانَ لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، يُرَى وَلَا يُشْبِهُ شَيْئاً»(١).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٧٧ - ١٨٠.

صفو الكلام

* في عهد إمامة الإمام الهادي عليه السلام كانت الحركة الرسالية قد فرضت نفسها على الأحداث بشكل مباشر. وكان الإمام يعين الوكلاء ويتصرف وكأنه دولة في داخل دولة. وقد امتد تأثير الإمام إلى كبار رجال البلاط العباسي، الأمر الذي مكّن الإمام من الاطلاع على الخطط المضادة للحركة الرسالية.

* وفي فترة إمامته قام الإمام بمهمتين أساسيتين هما: قيادة الحركة الرسالية، والتصدي للتيارات الفكرية المنحرفة.

واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام

ولكي تتوضَّح الصورة أكثر فأكثر حول ما قدَّمه الإمام الهادي عليه السلام للأمة الإسلامية، نطلع على وضع الثورة والتحركات التي صاحبت عهده. حيث إن فترة إمامته عليه السلام كانت من الفترات الطويلة، ومن ثم كانت هنالك ثورات عديدة فجَّرتها الحركة الرسالية، وقد بدأت بمحمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب(١).

وكان محمد بن صالح من شجعان آل أبي طالب، كما كان من طرفائهم وشعرائهم، وكان قد ثار في سويقة(٢)، وخرجت معه جموع الناس، وفي تلك السَّنة التي ثار فيها كان أمير الحاج من قبل السلطات العباسية، أبو الساج، فسُعي عنده بمحمد بن صالح، وكان الذي سعى به، عمُّه موسى بن عبد الله، الذي أفضى بخبر الحركة، الأمر الذي مكَّن أبا الساج من قائدها الذي اقتيد خدعة ومن ثم حمل إلى المتوكل العباسي الذي سجنه، ثم أطلق سراحه بعد عدة سنوات وبقي في سامراء إلى أن تُوفِّي(٣).

---

(١) أبو عبدالله، من مفاخر بيت النبوة، صاحب فضيلة علمية وأدبية، كان ظريفًا حلو المعاشرة، شاعر الحجاز. ومن فتيان آل أبي طالب وشجعانهم وشعرائهم. مقاتل الطالبيين، ص٤٨٠. الأغاني، ج١٦، ص٥٠٩.

(٢) تصغير ساق، مواضع كثيرة في البلاد، وهي -في بلاد العرب- موضع قرب المدينة المنورة يسكنه آل علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهي منزل بني الحسن عليه السلام، وكانت من جملة صدقات علي بن أبي طالب عليه السلام. معجم البلدان، ج٣، ص٢٨٦.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص٤٨٠.

وممَّن ثار في تلك السنين الحسن بن زيد(١)، ومعه محمد بن إسماعيل بن زيد(٢)، حيث ثارا في طبرستان ونواحي الديلم، فغلبوا السلطات العباسية هناك(٣)، ولعل هذه الثورة هي الثورة الوحيدة التي انتصرت في تلك الفترة. كما ثار محمد بن جعفر بن الحسن(٤) بالري إلّا أنه لم يحقق انتصاراً، فحبسه عبد الله بن طاهر(٥) بنيشابور حتى مات(٦).

حياة أحمد بن عيسى

وكان أحمد بن عيسى(٧) بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام قد توارى عن

---

(١) المعروف بالحسن العلوي [ت: ٢٧٠هـ]، وهو: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني، مؤسس الدولة العلوية في طبرستان. كان فاضل السيرة، حسن التدبير، مرهوب الجانب حازمًا مهيبًا. كان يسكن الريّ فحدثت فتنة بين صاحب خراسان وأهل طبرستان (سنة ٢٥٠هـ) فكتب إليه هؤلاء يبايعونه. فجاءهم وزحف بهم على آمد (ديار بكر) فاستولى عليها وكثر جمعه، فقصد سارية (بقرب جرجان) فملكها بعد قتال عنيف، ووجَّه جيشاً إلى الريّ فملكها -وذلك في أيام المستعين العباسي- ودامت إمرته مدة عشرين عامًا. الأعلام، ج٢، ص١٩٢.

(٢) محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني، [ت: ٢٨٧هـ]، كان شجاعًا، فاضلاً في أخلاقه، عارفًا بالأدب والشعر والتاريخ. صاحب طبرستان والديلم. ولي الإمرة بعد وفاة أخيه الحسن بن زيد (سنة ٢٧٠هـ) وكانت في أيامه حروب وفتن، وطالت مدته. أصابته جراحات في واقعة له مع محمد بن هارون، من أشياع إسماعيل الساماني، على باب جرجان فمات من تأثيرها. الأعلام، ج٦، ص١٣٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢٧٣-٢٧٥. الكامل في التاريخ، ج٧، ص١٣١-١٣٣. مروج الذهب، ج٤، ص٦٨.

(٤) محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين العلوي الطالبي، خرج سنة ٢٥٠هـ يدعو إلى الحسن بن زيد.

(٥) محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي [٢٠٩-٢٥٣هـ]، أبو العباس، أمير، حازم، من الشجعان، ولي نيابة بغداد في أيام المتوكل العباسي، وتوفي بها. الأعلام، ج٦، ص٢٢٢.

(٦) مروج الذهب، ج٤، ص٦٩. مقاتل الطالبيين، ص٤٩٠. تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢٧٥. الكامل في التاريخ، ج٧، ص١٣٣.

(٧) أبو عبد الله الحسيني العلويّ الطالبي [١٥٧-٢٤٧هـ]، فاضلاً عالمًا بالدين والحديث، مقدمًا في أهله معروفًا، ومن زعماء الزيدية في العصر العباسي. الأعلام، ج١، ص١٩١.

الأنظار بعد هروبه من سجن هارون العباسي، فأمر هارون بتفتيش كل دار يتهم صاحبها بالرسالية بحثاً عنه، ولكنه كان قد توارى في بغداد مدة ثم انتقل منها إلى أماكن عديدة(١).

وقد كان لهارون الرشيد محاولات عديدة للقبض عليه، منها أنه دعا برجل من أصحابه يقال له: ابن الكردية، واسمه يحيى بن خالد، فقال له: «قد وليتك الضياع بالكوفة، فامضِ إليها وتولى العمل بها، وأظهر أنك تتشيع، وفرِّق الأموال في الشيعة حتى تقف على خبر أحمد بن عيسى.

فمضى ابن الكردية هذا، ففعل ما أُمر به، وجعل يُفيض الأموال في الشيعة ويُفرِّقها عليهم ولا يسألهم عن شيء، حتى ذكروا له رجلاً منهم يقال له: أبو غسان الخزاعي فاطنبوا في وصفه، وأعرض عنهم ولم يكشفهم عنه، إلى أن ذكروه مرة أخرى فقال: وما فعل هذا الرجل؟. إنَّا إليه لمشتاقون. قالوا: هو مع أحمد بن عيسى بالبصرة.

فكتب بذلك إلى الرشيد فأمره بالرجوع إلى بغداد، ثم ولَّاه البصرة مثل ما كان ولَّاه بالكوفة، فمضى إليها، وكان مع أحمد بن عيسى بن زيد رجل من أصحاب يحيى بن عبد الله يقال له: حاضر، وكان ينقله من موضع إلى موضع.

وجاء ابن الكردية هذا إلى البصرة ففعل ما فعله بالكوفة، وجعل يُفرِّق الأموال في الشيعة حتى ذكروا له حاضرًا وأحمد بن عيسى، فتغافل عنهم، ثم أعادوا ذكره بعد ذلك، فتعرَّض لهم بذكره ولم يستقصه، ثم عاودوه فقال لهم: إني أحب أن ألقى هذا الرجل.

فقالوا له: لا سبيل إلى ذلك.

قال: فاحملوا إليه مالًا يستعين به، وأعلموه أن لو قدرت على أن أعطيه جميع

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٩٣-٤٩٤.

مال السلطان لفعلت.

فأخذوا المال وحملوه إلى حاضر فقبله، وجعل ابن الكردية يتابع الأموال إلى حاضر بعضها ببعض حتى أنسوا به واطمأنوا إليه.

فقال لهم يوماً: ألا يجيئنا هذا الشيخ؟.

فقالوا له: لا يمكن ذلك.

قال: فليأذن لنا نأته نحن.

قالوا: نسأله ذلك.

فأتوه وسألوه إياه. فقال: لا والله لا آذن له أبداً، ويحكم ألا تنتهون؟. هذا والله محتال!.

فقالوا له: لا والله ما هو بمحتال.

فلم يزالوا به حتى أجابهم إلى أن تلقاه. فلما كان الليل قال لأحمد بن عيسى: قم فاخرج إلى موضع آخر، فإن ابتليتُ سلمتَ أنت.

فخرج أحمد وبعث ابن الكردية إلى أحمد بن حرث الهلالي، وكان أمير البصرة يأمره أن يبعث بالرجال إليه ليهجموا عليه حيث يدخل، ومضى هو حتى أتى الدار، وبعث بغلامه حتى جاء معه بالرجال فهجموا على حاضر فأخذه.

فأُتي به هارون الرشيد فقال له: هيه صاحب يحيى بن عبد الله بالحيل، عفوت عنك وأمنتك. ثم صرت تسعى عليَّ مع أحمد بن عيسى، تنقله من مصر إلى مصر، ومن دار إلى دار، كما تنقل السنور أولادها، والله لتجيئني به أو لأقتلك.

قال: يا أمير المؤمنين؛ بلغك عني غير الحق.

قال: والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك.

قال: إذاً أخاصمك بين يدي الله.

قال: والله لتجيئني به، أو لأقتلنك، وإلَّا فأنا نفي من المهدي.

قال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها لك عنه، أنا أجيئك بابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تقتله؟، إفعل ما بدا لك!.

فأمر هرثمة فضربت عنقه(١).

فاستشهد، فكانت هذه نماذج من الأفراد الذين بات أحمد بن عيسى يُربيهم حتى مات. وما اكتفت السلطات بذلك بل أقدمت على محاولة أخرى للقبض على أحمد، عندما علمت أنه في الأهواز فدبَّرت رجلاً يذهب ليُقنعه -بعد أن يظهر له أنه من مواليه- بالذهاب إلى مصر وأفريقيا، وذلك لأن العمل الرسالي مطلوب هناك إضافة إلى أن العمل في مصر بعيد عن عيون السلطات العباسية.

وكان إرسال النظام العباسي رجلاً واحداً فقط، لأنه يعرف لو أنه أرسل إلى أحمد جيشاً، فإن خبر ذلك يصل إلى أحمد قبل أن يتحرَّك الجيش خطوة تجاه الأهواز، فرأى النظام العباسي أن أفضل طريقة هي طريقة الرجل الذي يظهر رساليته لأحمد بن عيسى.

جاء في مقاتل الطالبيين: «أن رجلًا رفع إلى صاحب البريد بأصبهان، أن أحمد بن عيسى وحاضرًا بالبصرة، وكور الأهواز يترددان، فكتب الرشيد في حملهما والقدوم بهما عليه، وكتب إلى أبي السّاج وهو على البحرين وإلى خالد بن الأزهر، وهو على الأهواز، وإلى خالد طرشت، وكان على بريد طريق السند، بالسمع والطاعة لصاحب بريد أصبهان، وأمر له بثلاثين ألف، وأمره بالمصير إلى هذه النواحي، وطلب أحمد بن عيسى.

فورد الأهواز، وأظهر أنه يطلب الزنادقة، وكان الذي أتاه بالخبر رجل بربري

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٩٤-٤٩٦.

كان أحمد بن عيسى يأنس به، فلما قدم هذا الرجل وكان يعرف بعيسى الرواوزدي، أتى ذلك البربري أحمد بن عيسى، كما كان يأتيه. فوصف له عيسى هذا وقال له: إنه من شيعتك ومن حاله ومن قصته. فأذن فدخل إليه وهو جالس، ومعه ابن إدريس بن عبدالله، وكاتب كان لإبراهيم بن عبدالله، فبدأ بأحمد بن عيسى وابن إدريس فقبَّل أيديهما، وجلس معهما وآنسهما، وجعل يُرسل إليهما بالهدايا والكسوة، واشترى لهما وصيفتين، فاطمأنا إليه وأكلا من طعامه وشربا من شرابه، فلما وقعت الثقة. قال لهما: هذا بلد ضيّق ولا خير فيه، فهلمَّا معي حتى أوافي بكما مصر وأفريقية، فإن أهلهما يخفُّون معي ويطيعونني.

قالوا: وكيف تأخذ بنا؟.

قال: أجلسكم الماء إلى واسط، ثم آخذ بكم على طريق الكوفة، ثم على الفرات إلى الشام.

فأجابوه فأجلسهم في السفينة، وصيَّر معهم أعوان أبي السّاج أمناء عليهم ومضوا، ولما كان في بعض الطريق، قال لهم: أتقدمكم إلى واسط لإصلاح بعض ما نحتاج إليه من سفرنا من كراء أو غيره.

ومضى هو والبربري فركبا دواب البريد وأوصى الموكلين بهما ألَّا يُعلمونهم بشيء، ولا يُوهمونهم أنهم من أصحاب السلطان، وأن يحتاطوا عليهم ما قدروا، ففعلوا ذلك ومضوا، ولما كانوا ببعض الطريق حبسهم أصحاب الصدقة، وقالوا: لا تجوزوا.

فصاح بهم الموكلون: نحن من أصحاب أبي الساج وأعوانه، جئنا في أمر مهم، فخلوا عنهم.

وانتبه أحمد بن عيسى وأصحابه لذلك، فلما جاوزوا قليلاً، قال لهم أحمد بن عيسى: أقدموا إلى الشط لنصلي.

فقدم الملاحون، وخرجوا، فتفرَّقوا بين النخل وتستَّروا بها وابتعدوا عن أعين الموكلين. والموكلون في الزورق لا يُوهمونهم أنهم معهم، فلما بعدوا عن أعينهم جعلوا يحضرون على اقدامهم حتى فاتوهم هربًا وبعدوا عنهم. وطال انتظار الموكلين بهم، فلم يعرفوا خبرهم وما الذي أبطأ بهم، فخرجوا يطلبونهم، فلم يجدوهم، وتتبَّعوا آثارهم وجدُّوا في أمرهم، فلم يقدروا عليهم، فرجعوا إلى الزورق خائبين حتى أتوا واسط، وقد قدمها عيسى صاحب بريد أصبهان الذي دبَّر على القوم ما دبَّر، وقد وجَّه معه الرشيد ثلاثين رجلاً ليتسلم أحمد، فأخبروه ما كان، فقال: لا والله، ولكن ارتشيتم وصانعتم وداهنتم.

وقدم بهم على الرشيد فضربهم بالسياط ضرباً مبرحاً، وحبسهم جميعاً في المطبق، وغضب على أبي السّاج دهراً حتى سأله فيه أخوه الرشيد فرضي عنه بعد أن كان قد همّ به ومضى أحمد بن عيسى وأصحابه فرجعوا إلى البصرة، فلم يزالوا مُقيمين حتى مات أحمد بن عيسى، وذلك في سنة سبع وأربعين ومائتين»⁽¹⁾.

حياة عبد الله بن موسى

وكان ممَّن تواروا أيضاً عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام منذ خلافة المأمون. يقول صاحب المقاتل: «فكتب إليه بعد وفاة الرضا عليه السلام يدعوه إلى الظهور ليجعله مكانه ويُبايع له، واعتدَّ عليه بعفوه عمَّن عفا من أهله، وما أشبه هذا من القول.

فأجابه عبدالله بن موسى فيها: «فبأي شيء تغرُّني؟. ما فعلته بأبي الحسن عليه السلام بالعنب الذي أطعمته أياه فقتلته.

والله ما يُقعدني عن ذلك خوف من الموت ولا كراهة له، ولكن لا أجد لي فسحة في تسليطك على نفسي، ولولا ذلك لأتيتك حتى تُريحني من هذه الدنيا الكدرة.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٩٦-٤٩٨

ويقول فيها: هبني لا ثأر لي عندك وعند آبائك المُستحلِّين لدمائنا، الآخذين حقَّنا، الذين جاهروا في أمرنا فحذرناهم، وكنت ألطف حيلة منهم بما استعملته من الرضا بنا والتستر لمحننا، تختل واحدًا فواحدًا منا، ولكني كنتُ امرأً حُبِّب إليَّ الجهاد، كما حُبِّب إلى كل امرئ بغيته، فشحذت سيفي، وركبت سناني على رمحي، واستقرهت⁽¹⁾ فرسي. لم أدرِ أيّ العدوّ أشد ضررًا على الإسلام، فعلمت أن كتاب الله يجمع كل شيء، فقرأته فإذا فيه: ﴿يـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾⁽²⁾.

فلم أدرِ من يلينا منهم، فأعدت النظر، فوجدته يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾⁽³⁾. فعلمت أن عليَّ أن أبدأ بما قرب مني. وتدبَّرت فإذا أنت أضرُّ على الإسلام والمسلمين من كل عدوٍّ لهم، لأن الكفار خرجوا منه، وخالفوه فحذرهم الناس وقاتلوهم، وأنت دخلت فيه ظاهرًا فأمسك الناس وطفقت تنقض عُراه، عروة عروة، فأنت أشد أعداء الإسلام ضرراً عليه»⁽⁴⁾.

وروى جعفر بن محمد الورَّاق الكوفي، قال: حدثني عبدالله بن علي بن عبيدالله العلوي عن أبيه، قال: «كتب المأمون إلى عبد الله بن موسى وهو متوارٍ يُعطيه الأمان ويضمن له أن يُوليه العهد بعده، كما فعل بعلي بن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول: ما ظننت أن أحداً من آل أبي طالب يخافني بعدما عملته بالرضا». وبعث الكتاب إليه.

فكتب إليه عبدالله بن موسى: «وصل كتابك وفهمته، تختلني فيه عن نفسي

---

(١) قَرِهَ جِلْدُه قَرَهًا: تَقَشَّرَ أَو اسْوَدَّ من شدَّةِ الضَّرْب. (لسان العرب، مادة قره). واستقرهت أي شددت الضرب أكثر فأكثر على ظهر الفرس فصار أسودًا من كثرة الضرب، تحفيزًا لها لِلعَدْوْ بسرعة أكثر.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٣) سورة المجادلة، آية: ٢٢.

(٤) مقاتل الطالبيين، ص٤٩٨-٤٩٩.

ختل القانص، وتحتال عليَّ حيلة المغتال القاصد لسفك دمي.

وعجبت من بَذْلِكَ العهد وولايته لي بعدك، كأنك تظن أنه لم يبلغني ما فعلته بالرضا عليه السلام، ففي أي شيء ظننت أني أرغب من ذلك؟.

أفي المُلك الذي قد غرتك نظرته وحلاوته؟. فوالله لأن أُقذف وأنا حيّ في نار تتأجج أحب إليَّ من أن ألي أمرًا بين المسلمين، أو أشرب شربة من غير حلها مع عطش شديد قاتل.

أم في العنب المسموم الذي قتلتَ به الرضا عليه السلام؟.

أم ظننتَ أن الاستتار قد أملّني وضاق به صدري، فوالله إني لَذَلِك، ولقد مللت الحياة وأبغضت الدنيا، ولو وسعني في ديني أن أضع يدي في يديك حتى تبلغ من قلبي مرادك لفعلت ذلك. ولكن الله قد حظر عليَّ المخاطرة بدمي، وليتك قدرت عليَّ من غير أن أبذل نفسي لك فقتلتني، ولقيت الله -عز وجل- بدمي ولقيته قتيلاً مظلوماً، فاسترحت من هذه الدنيا.

واعلم أني رجل طالب النجاة لنفسي، واجتهدت فيما يرضي الله عز وجل عني، وفي عمل أتقرَّب به إليه، فلم أجد رأيًا يهدي إلى شيء من ذلك، فرجعت إلى القرآن الذي فيه الهدى والشفاء، فتصفَّحته سورة سورة، وآية آية، فلم أجد شيئًا أزلف للمرء عند ربه جل وعز من الشهادة في طلب مرضاته.

ثم تتبَّعته ثانية أتأمَّل الجهاد، أيّه أفضل ولأي صنف، فوجدته جل وعلا يقول: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾(١). فطلبت أيّ الكفّار أضر على الإسلام، وأقرب من موضعي، فلم أجد أضر على الإسلام منك، لأن الكفّار أظهروا كفرهم، فاستبصر الناس في أمرهم، وعرفوهم فخافوهم.

وأنت ختلتَ المسلمين بالإسلام، وأسررتَ الكفر، فقتلتَ بالظنّة وعاقبت

---

(١) سورة التوبة، آية:١٢٣.

بالتُّهمة، وأخذت مال الله من غير حله، فأنفقته في غير محله، وشربتَ الخمر المحرمة صراحًا، وأنفقت مال الله على الملهين، وأعطيته المغنين، ومنعته من حقوق المسلمين، فغششت بالإسلام، وأحطت بأقطاره إحاطة أهله، وحكمت فيه للمشرك، وخالفت الله ورسوله في ذلك خلافة المضاد المعاند، فإن يسعدني الدهر، ويعينني الله عليك بأنصار الحق، أبذل نفسي في جهادك، بذلاً يُرضيه مني، وإن يُمهلك ويُؤخِّرك ليُخزيك بما تستحقه في منقلبك، أو تخترمني الأيام قبل ذلك، فحسبي من سعيي ما يعلمه الله عز وجل من نيتي. والسلام»⁽¹⁾.

ولم يزل عبدالله متوارياً إلى أن مات في أيام المتوكل، فقد رُوي عن محمد بن سليمان الزينبي أنه قال: «نُعي عبدالله بن موسى إلى المتوكل صبح أربع عشرة ليلة من يوم مات. ونُعي له أحمد بن عيسى فاغتبط بوفاتهما وسُرَّ، وكان يخافهما خوفاً شديدًا، ويحذر حركتهما، لما يعلمه من فضلهما، واستنصار الشيعة الزيدية بهما، وطاعتهما لهما، لو أرادوا الخروج عليه، فلما ماتا أمن وأطمأن، فما لبث بعدهما إلّا أسبوعاً حتى قتل»⁽²⁾.

كما تقدَّم سابقاً عند الحديث عن زيد بن زين العابدين عليه السلام أنه كان من أولاده الحسين ذو الدمعة، الذي تربّى وتفقّه على يد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وأن الحسين ذا الدمعة كان له حفيد يُدعى (يحيى بن عمر بن الحسين ذي الدمعة)، وأن الأخير حكم الكوفة، ونُشير هنا إلى أن أحداث ثورة يحيى بن عمر بن الحسين ذي الدمعة كانت في خلافة المتوكل إلى خلافة المستعين العباسي، حيث كان يحيى قد قام بانتفاضة في أيام المتوكل في خراسان، فَهُزِم من قبل عبد الله بن طاهر، فأمر المتوكل بتسليمه إلى عمر بن الفرج الرخجي فَسُلِّم إليه، فكلمه بكلام فيه بعض الغلظة فردَّ عليه يحيى وشتمه، فشكا ذلك إلى المتوكل فأمر به فَضُرِب درراً وضُرِبَ ثمانية عشر مقرعة، ثم حبسه ببغداد في المطبق، فمكث على ذلك مدة، ثم أطلق

---

(١) مقاتل الطالبين، ص٤٩٩-٥٠٠.

(٢) مقاتل الطالبين، ص٥٠١.

فمضى إلى بغداد فلم يزل بها حيناً حتى قام بالثورة في الكوفة، فدعا إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله، وأظهر العدل وحسن السيرة إلى أن قُتِل رضوان الله عليه، وكان رضي الله عنه رجلاً فارساً شجاعاً، شديد البدن، مجتمع القلب، بعيداً من رهق الشباب وما يُعاب به مثله.

واستمر الوضع إلى استشهاد الإمام الهادي عليه السلام حيث حدث ما يزيد على عشرين تحركاً وانتفاضة في المناطق المختلفة، إلَّا أن من المهم أيضاً أن نعرف الآتي:

- كانت هذه الثورات والانتفاضات وليدة خلافة المتوكل العباسي الذي كان مشهوراً بسفك دماء المجاهدين والثوار.

فبعد أن كان وضع الحركة الرسالية أكثر انفتاحاً، أي إن القضايا السرية كانت قد خفَّت حدتها، فأصبح كثير من رؤوس الحركة على السطح البارز العلني، فلما تولى المتوكل الخلافة شرع منذ اللحظة الأولى في سياسة الإرهاب والعنف، وجاء ليقلب المعادلة رأسًا على عقب، ويضرب الحركة بقوة، فتفرَّقت أجنحة الحركة الرسالية بالخصوص الأجنحة المختصة بالعمل السياسي العسكري وهذا ما يُؤكِّده المؤرخون حيث يقول صاحب المقاتل: «وكان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً على جماعتهم مهتمًا بأمرهم، شديد الغيظ والحقد عليهم، وسوء الظن والتُّهمة لهم، واتَّفق له أن عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزيره يسيء الرأي فيهم، فحسَّن له القبيح في معاملتهم، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله، وكان من ذلك أن كرب(١) قبر الحسين عليه السلام وعفّى آثاره، ووضع على سائر الطريق مسالح له لا يجدون أحدًا زاره إلّا أتوه به فقتله أو أنهكه عقوبة»(٢).

ويضيف أبو الفرج الأصفهاني: «بعث (المتوكل) برجل من أصحابه يقال له: الديزج، وكان يهوديًا فأسلم، إلى قبر الحسين عليه السلام، وأمره بكرب قبره ومحوه

---

(١) الكرب: إثارة الأرض للزرع.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص٤٧٨.

وإخراب كل ما حوله، فمضى لذلك وخرَّب ما حوله وهدم البناء، وكرب ما حوله نحو مائتي جريب، فلما بلغ إلى قبره عليه السلام لم يتقدَّم إليه أحد، فأحضر قومًا من اليهود فكربوه، وأجرى الماء حوله، ووكل به مسالح بين كل مسلحتين ميل، لا يزوره زائر إلّا أخذوه ووجهوا به إليه»(١).

ويقول وهو يصف حالة العلويين في زمن المتوكل: «واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخّجي، فمنع آل أبي طالب من التعرُّض لمسألة الناس، ومنع الناس من البر بهم، وكان لا يبلغه أن أحداً أبرّ منهم بشيء (من العلويين) وإن قلَّ إلّا أنهكه عقوبة، وأثقله غُرمًا، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يُصلين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه..»(٢).

إن الثورات والانتفاضات الكبيرة التي كانت الحركة الرسالية تقوم بها، كانت -إلى جانب ردع السلطة- تُعطي الأمة روح الصمود والثبات والاستقامة، وإذا ما لاحظنا أصحاب هؤلاء الثورات مَنْ هم، نجد أن أكثرهم من صنع الإمام الهادي عليه السلام وتربيته. كان هذا وجه آخر لا أخير، من وجوه قيادة الإمام للأمة وللحركة، وتبقى وجوه ندعها للزمن لعله يكشفها.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٧٩.

(٢) مقاتل الطالبين، ص٤٧٩. وإلى ذلك تُشير كتب التاريخ: الفخري، ص٢١٣. الكامل في التاريخ، ج٧، ص٥٦. تاريخ أبي الفداء، ج٢، ص٣٨.

صفو الكلام

* شهدت فترة إمامة الإمام الهادي عليه السلام -وهي من الفترات الطويلة- ثورات وانتفاضات عديدة فجّرتها الحركة الرسالية تجاوزت العشرين ثورة وانتفاضة قادها رجال علويون من أبناء الإمام الحسن والإمام السجاد عليه السلام، وكان أكثرهم من صنع وتربية الإمام الهادي، وكانت هذه الثورات والانتفاضات تُعطي الأمة روح الصمود والثبات والاستقامة.

الباب الرابع: مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الخامس: الحركة الرّساليّة في عهد الإمام العسكري عليه السلام

الإمام العسكريّ عليه السلام وقيادة الأُمّة

واقع الحركة الرّساليّة في عهد الإمام العسكريّ عليه السلام

٩| الإمام العسكري عليه السلام وقيادة الأمة

استُشهِد الإمام الهادي عليه السلام مسموماً، وقد سمّه: المعتمد العباسي(١)، أو المعتز العباسي(٢)، إذ ثبت أن استشهاده كان في ٢٥٤هـ. وبعد استشهاد الإمام الهادي عليه السلام أصبحت الإمامة على عاتق الإمام أبي محمد الحسن العسكري. وقد ولد عليه السلام في ربيع الآخر عام ٢٣١هـ(٣)، أو ٢٣٢(٤)، واستشهد في سامراء لثمان خلون من ربيع الأول على الأشهر عام ٢٦٠هـ، وكانت أيام إمامته ست سنين(٥).

الإمام العسكري وتحديد ملامح القيادة

لقد تميَّزت الأحاديث التي تدور حول القيادة بأنّ الكثير منها رُوي عن

---

(١) قاله ابن بابويه، والكفعمي كما نقل عنهما صاحب البحار، ج٥٠، ص٣٣٥: وأيضًا: في المناقب، ج٤، ص٤٠٠.

(٢) قال الطبرسي في إعلام الورى، ص٣٥٥: «ثم ملك المعتز ثماني سنين وستة أشهر وفي آخر ملكه استشهد ولي الله علي بن محمد». ومثله في الفصول المهمة، ج٢، ص١٠٧٥. والطبري في دلائل الإمامة، ص٢١٦. والأربلي في كشف الغمة، ج٢، ص٣٩٧. وقال في الأنساب، ج٩، ص٣٠٢: «إلى أن تُوفِّي بها -سامراء- في أيام المعتز».

(٣) تاريخ مواليد الأئمة، ص٤٣. وفيات الأعيان، ج٢، ص٩٤.

(٤) كما في بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٣٦-٢٣٨، نقلًا عن: المناقب لابن شهر آشوب، والدلائل للحميري، وإعلام الورى، والكافي، ومصباح الكفعمي.

(٥) وهو ما عليه أكثر المؤرخين، وكانت ولادته في المدينة المنورة. الكافي، ج١، ص٥٠٣. الإرشاد، ج٢، ص٣١٣، و٣٣٦. إعلام الورى، ص٣٦٧.

الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، فهل الصدفة هي منشأ هذه الميزة؟.

بالطبع لا، فكل شيء بميزان وبحكمة، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الرسالة كانت لها ثلاث مراحل متميزة. فهذه الميزة التي أفرد بها الإسلام الإمام الحسن العسكري عليه السلام كانت تعني أن الحركة الرسالية قد استعدَّت للوقوف على رجليها، خاصة وأن هذه الأحاديث هي حول القيادة فيما بعد الأئمة، أي في زمن الغيبة.

وهنا تبرز أهمية هذا العمل الذي قام به الإمام العسكري عليه السلام ، حيث إنه لم يكن مجرّد إلقاء الحديث على مجموعة من ثقات الحركة الرسالية، بل هو هداية هؤلاء القادة إلى هذه التشريعات، ومن ثم تأتي الوظائف التابعة لهذه العملية وهي وظيفة المحافظة على الأحاديث، والتفريع من الأصول، وتربية الفقهاء لهذا العصر، وسائر الأعمال المتشابهة عند الأئمة الأواخر عليهم السلام .

كما كان للإمام عليه السلام دور نستطيع أن نلحظه من خلال الروايات التالية:

روى القاسم الهروي قال: «خَرَجَ تَوْقِيعٌ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام إِلَى بَعْضِ بَنِي أَسْبَاطٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَيْهِ أُخْبِرُهُ عَنِ اخْتِلَافِ الْمَوَالِي وَأَسْأَلُهُ إِظْهَارَ دَلِيلٍ. فَكَتَبَ إِلَيَّ عليه السلام: **وَإِنَّمَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَاقِلَ لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي بِآيَةٍ، أَوْ يَظْهَرَ دَلِيلًا أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقَالُوا: سَاحِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَكَذَّابٌ، وَهَدَى اللهُ مَنِ اهْتَدَى، غَيْرَ أَنَّ الْأَدِلَّةَ يَسْكُنُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْذَنُ لَنَا فَنَتَكَلَّمُ وَيَمْنَعُ فَنَصْمُتُ. وَلَوْ أَحَبَّ أَلَّا يَظْهَرَ حَقًّا مَا بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَصَدَعُوا بِالْحَقِّ فِي حَالِ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ وَيَنْطِقُونَ فِي أَوْقَاتٍ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَيُنْفِذَ حُكْمَهُ.**

النَّاسُ فِي طَبَقَاتٍ شَتَّى، وَالْمُسْتَبْصِرُ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ مُتَمَسِّكٌ بِالْحَقِّ مُتَعَلِّقٌ بِفَرْعٍ أَصِيلٍ، غَيْرُ شَاكٍّ وَلَا مُرْتَابٍ، لَا يَجِدُ عَنْهُ مَلْجَأً. وَطَبَقَةٌ لَمْ تَأْخُذِ الْحَقَّ مِنْ أَهْلِهِ، فَهُمْ كَرَاكِبِ الْبَحْرِ يَمُوجُ عِنْدَ مَوْجِهِ، وَيَسْكُنُ عِنْدَ سُكُونِهِ. وَطَبَقَةٌ ﴿اسْتَحْوَذَ

عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ﴾(١)، شَأْنُهُمُ الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الحَقِّ، وَدَفْعُ الحَقِّ بِالْبَاطِلِ: ﴿حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾(٢)، فَدَعْ مَنْ ذَهَبَ يَمِيناً وَشِمالاً، فَالرَّاعِي إِذَا أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ غَنَمَهُ جَمَعَهَا فِي أَهْوَنِ السَّعْيِ.

ذَكَرْتَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ مَوَالِيَّ فَإِذَا كَانَتِ الْوَصِيَّةُ وَالْكِبَرُ فَلَا رَيْبَ، وَمَنْ جَلَسَ مَجَالِسَ الحُكْمِ فَهُوَ أَوْلَى بِالحُكْمِ، أَحْسِنْ رِعَايَةَ مَنِ اسْتَرْعَيْتَ، وَإِيَّاكَ وَالْإِذَاعَةَ، وَطَلَبَ الرِّئَاسَةِ، فَإِنَّهُمَا يَدْعُوَانِ إِلَى الهَلَكَةِ. ذَكَرْتَ شُخُوصَكَ إِلَى فَارِسٍ فَاشْخَصْ خَارَ اللهُ لَكَ، وَتَدْخُلُ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِناً. وَأَقْرِئْ مَنْ تَثِقُ بِهِ مِنْ مَوَالِيَّ السَّلَامَ، وَمُرْهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الْمُذِيعَ عَلَيْنَا، حَرْبٌ لَنَا.

قَالَ: فَلَمَّا قَرَأْتُ، وَتَدْخُلُ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ أَعْرِفْ مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ إِلَى بَغْدَادَ وَعَزِيمَتِي الْخُرُوجُ إِلَى فَارِسَ، فَلَمْ يَتَهَيَّأْ ذَلِكَ فَخَرَجْتُ إِلَى مِصْرَ»(٣).

وروى القاسم الهروي قال: «كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام **فِتْنَةٌ تُظِلُّكُمْ فَكُونُوا عَلَى أُهْبَةٍ.**

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَقَعَ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ، وَكَانَتْ لَهُمْ هَنَةٌ لَهَا شَأْنٌ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أَهِيَ هَذِهِ؟. قَالَ عليه السلام: **لَا، وَلَكِنْ غَيْرُ هَذِهِ، فَاحْتَرِسُوا.**

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ، كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُعْتَزِّ مَا كَانَ»(٤).

«كَتَبَ أَخِي مُحَمَّدٌ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام وَامْرَأَتُهُ حَامِلٌ مُقْرِبٌ، أَنْ يَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَهَا، وَيَرْزُقَهُ ذَكَراً وَيُسَمِّيَهُ. فَكَتَبَ يَدْعُو اللهَ بِالصَّلَاحِ، وَيَقُولُ: **رَزَقَكَ اللهُ ذَكَراً سَوِيًّا، وَنِعْمَ الاسْمُ مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ.**

فَوَلَدَتْ اثْنَيْنِ فِي بَطْنٍ، أَحَدُهُمَا فِي رِجْلِهِ زَوَائِدُ فِي أَصَابِعِهِ، وَالْآخَرُ سَوِيٌّ،

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٦. كشف الغمة، ج٢، ص٤١٦.

(٤) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٨. كشف الغمة، ج٢، ص٤١٧.

فَسَمَّى وَاحِداً مُحَمَّداً، وَالْآخَرَ صَاحِبَ الزَّوَائِدِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ»(١).

وعن جعفر بن محمد القلانسيِّ قال: «كَتَبْتُ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، وَكَانَ خَادِماً يَسْأَلُهُ عَنْ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ، وَسَأَلَهُ الدُّعَاءَ لِأَخٍ خَرَجَ إِلَى إِرْمِينِيَّةَ يَجْلِبُ غَنَماً، فَوَرَدَ الْجَوَابُ بِمَا سَأَلَ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَخَاهُ فِيهِ بِشَيْءٍ، فَوَرَدَ الْخَبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ أَخَاهُ مَاتَ يَوْمَ كَتَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ جوابَ الْمَسَائِلِ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ لِأَنَّهُ عَلِمَ بِمَوْتِهِ»(٢).

وعن أبي هاشم قال: «كَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَوَالِيهِ يَسْأَلُهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ دُعَاءً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عليه السلام أَنِ ادْعُ بِهَذَا الدُّعَاءِ: **يَا أَسْمَعَ السَّامِعِينَ، وَيَا أَبْصَرَ الْمُبْصِرِينَ، يَا عِزَّ النَّاظِرِينَ، وَيَا أَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. وَأَوْسِعْ لِي فِي رِزْقِي، وَمُدَّ لِي فِي عُمُرِي، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِرَحْمَتِكَ، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِكَ، وَلَا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي.**

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي فِي حِزْبِكَ، وَفِي زُمْرَتِكَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقَالَ: **أَنْتَ فِي حِزْبِهِ، وَفِي زُمْرَتِهِ، إِذْ كُنْتَ بِاللهِ مُؤْمِناً، وَلِرَسُولِهِ مُصَدِّقاً، وَلِأَوْلِيَائِهِ عَارِفاً، وَلَهُمْ تَابِعاً، فَأَبْشِرْ، ثُمَّ أَبْشِرْ**»(٣).

وعن محمد بن الحسن بن ميمون قال: «كَتَبْتُ إِلَيْهِ عليه السلام أَشْكُو الْفَقْرَ. ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **الْفَقْرُ مَعَنَا خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ غَيْرِنَا، وَالْقَتْلُ مَعَنَا خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ مَعَ عَدُوِّنَا؟** فَرَجَعَ الْجَوَابُ: **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَصُّ أَوْلِيَاءَنَا إِذَا تَكَاثَفَتْ ذُنُوبُهُمْ بِالْفَقْرِ، وَقَدْ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، كَمَا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ: الْفَقْرُ مَعَنَا خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ عَدُوِّنَا، وَنَحْنُ كَهْفٌ لِمَنِ الْتَجَأَ إِلَيْنَا، وَنُورٌ لِمَنِ اسْتَبْصَرَ بِنَا، وَعِصْمَةٌ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِنَا، مَنْ أَحَبَّنَا كَانَ مَعَنَا فِي السَّنَامِ الْأَعْلَى، وَمَنِ انْحَرَفَ عَنَّا**

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٨. كشف الغمة، ج٢، ص٤١٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٨. كشف الغمة، ج٢، ص٤١٨.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٨. كشف الغمة، ج٢، ص٤٢١.

فَإِلَى النَّارِ»(١).

هذه بعض يسير من الروايات التي تحكي عن سيرة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، حيث نشاهد جليًّا أنه كان يقوم بِحثِّ الأمة والطليعة الرسالية على الاستقامة على خط الرسالة، والتعمُّق في الأمور التي بثَّها القادة الأوائل من الأئمة للحركة الرسالية. وهذا شيء يعادل مرحلة بث وتشريع هذه المسائل، حيث إن الاستقامة تُعادل الإنشاء. لقد بيّن عليه السلام في كثير من الأحاديث أن قليلاً من العمل الصالح يداوم الإنسان عليه، خير وأفضل من كثير لا يداوم عليه، وهذه حقيقة علمية ثابتة، فكيف إذا لم يكن الأمر من ناحية الاستقامة فقط بل في تعميق العمل وتحسين كيفيته.

وكان الإمام العسكري عليه السلام يقوم بأخطر مهمة لا تزال تُؤثِّر في العالم الإسلامي ككل، ألا وهي تحديد ملامح القيادة، وصلاحياتها، ومواصفاتها، ومسؤولياتها، وكافة التفاصيل المتعلقة بها(٢)، إنّ هذا الأمر المحوري البالغ الأهمية لأي مجتمع، ليس بالشيء البسيط تربية الناس عليه ومن ثم تدريبهم على تطبيقه، فيجب أن تسبق كل خطوة في هذا الأمر حالة من الإيمان والوعي. ثم تأتي الخطوات التالية من تطبيق واستمرار وجودة. ولنأخذ جانباً من هذه المسؤولية التي كان يقوم بها الإمام عليه السلام.

رُوي عن أبي هاشم أنه سأله عن قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ**﴾(٣).

قَالَ عليه السلام: «**كُلُّهُمْ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ. الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: الَّذِي لَا يُقِرُّ بِالْإِمَامِ، وَالْمُقْتَصِدُ:**

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٩. كشف الغمة، ج٢، ص٤٢١. المناقب، ج٤، ص٤٣٥.

(٢) للتوسع في بحث مواصفات القيادة الإسلامية، يرجى مطالعة كتاب: القيادة الإسلامية، الصادر عام ١٣٩١هـ، لمؤلفه العلامة جواد كاظم.

(٣) سورة فاطر، آية: ٣٢.

الْعَارِفُ بِالْإِمَامِ، وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ: الْإِمَامُ.

فَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِي نَفْسِي، عِظَمَ مَا أَعْطَى اللهُ آلَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وَبَكَيْتُ. فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ عليه السلام: **الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِمَّا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُكَ، مِنْ عِظَمِ شَأْنِ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فَاحْمَدِ اللهَ أَنْ جَعَلَكَ مُتَمَسِّكاً بِحَبْلِهِمْ، تُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهِمْ، إِذَا دُعِيَ كُلُّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ، إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ**»(١).

كان هذا هو العمل الذي تفرَّد به الإمام العسكري عليه السلام بالخصوص، وهو رسم معالم القيادة الإسلامية وتربية الأمة على الطاعة لها.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٥٨. الخرائج، ج٢، ص٦٨٧.

صفو الكلام

* إن فترة إمامة الإمام الحسن العكسري عليه السلام القصيرة (ست سنوات) استثمرها الإمام في رسم معالم القيادة فيما بعد الأئمة، وتربية الأمة على الطاعة لها والاستقامة على خط الرسالة.

واقعُ الحركة الرِّساليّة في عهدِ الإمامِ العسكريّ عليه السلام

في عهد الإمام العسكري عليه السلام كانت هناك تموُّجات سياسية لم تكن بعيدة عن تيار الحركة الرسالية. والدليل على ذلك أن أي تحرُّك كان يطبع هويته ويعرض نفسه للجماهير على أساس أنه وليد الحركة الرسالية، حتى لا يكون ضد التيار العام، وهذا ما نشاهده في صاحب ثورة الزنج التي استمرت أربعة عشر عاماً من سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٧٠هـ(١). فقد كان يزعم صاحب الزنج(٢) أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنه هو الذي يُشار إليه في خطبةٍ لأمير المؤمنين علي عليه السلام في أخبار الملاحم بالبصرة حيث يقول عليه السلام: «**يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لجَبٌ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلَا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ، يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ، كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ..**»(٣).

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «فأما صاحب الزنج هذا فإنه ظهر في فرات البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين.. فتبعه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ في

---

(١) أنظر: الفخري، ص٣٦.

(٢) للوقوف على تفاصيل حركة صاحب الزنج، طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٤١٠. المنتظم، ج١٢، ص١٠٢. الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢٠٥. الفخري، ص٢٤٥. البداية والنهاية، ج١١، ص١٨.

(٣) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة. بحار الأنوار، ج٤١، ص٣٣٤. المناقب، ج٢، ص٢٧٢.

البصرة..»[١]. ثـم ذكر أن جمهور النَّسَّـابين اتَّفقوا على أنه من عبـد قيس وأنه علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأمه أسدية من أسد بن خزيمة، جدها محمد بن حكيم الأسدي من أهل الكوفة أحد الثائرين مع زيد بن علي بن الحسين عليه السلام في ثورته.

وأيضاً نشـاهد أن الجعفري وهو من أولاد جعفر المتوكل العباسي الذي أراد المستعين العباسي قتله، ينسب نفسه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام باعتبار المذهب، فلما حُوصر بنزول الجيش بساحته كتب إلى أبي محمد العسكري عليه السلام وسأله الدعاء لدفـع المكروه فأجاب عليه السلام بـما روي عن علي بن الفضل قال: «نَزَلَ بِالْجَعْفَرِيِّ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ، خَلْقٌ كَثِيرٌ لَا قِبَلَ لَهُ بِهِمْ. فَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام يَشْـكُو ذَلِكَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عليه السلام: **تُكْفَوْنَهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ**.

قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِي نَفَرٍ يَسِـيرٍ، وَالْقَـوْمُ يَزِيدُونَ عَلَى عِشْرِينَ أَلْفَ نَفْسٍ، وَهُوَ فِي أَقَلَّ مِنْ أَلْفٍ فَاسْتَبَاحَهُمْ -أي استأصلهم-»[٢].

طبعاً كانت في إمامة أبي محمد عليه السلام عدَّة تحرُّكات قام بها العلويون، إلَّا أن كثيراً منها كان أمرها يُكتشف من قبل السلطة، ومع ذلك كانت هذه التحرُّكات تُعتبر بمثابة استعداد للفـترة القادمـة. ولأن الظروف الأمنيـة التي عاصرها الإمـام كانت صعبة للغايـة، لذلـك نقرأ فيما رُوي عنه الكثير من الأحاديث حول التقية، حيث كان عليه السلام يأمر أصحابه بالالتزام بها، واعتبارها شرطاً من شروط الولاء للإمام.

رُوِيَ عن علي بن جعفر عن حلبيٍّ قال: «اجْتَمَعْنَا بِالْعَسْكَرِ وَتَرَصَّدْنَا لِأَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام يَـوْمَ رُكُوبِـهِ، فَخَـرَجَ تَوْقِيعُهُ: أَلَا لَا يُسَـلِّمَنَّ عَلَيَّ أَحَـدٌ، وَلَا يُشِـيرُ إِلَيَّ بِيَدِهِ، وَلَا يُومِئُ، فَإِنَّكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ. قَالَ وَإِلَى جَانِبِي شَابٌّ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟!.

قَالَ: مِنَ الْمَدِينَةِ. قُلْتُ: مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا؟!.

---

[١] شرح نهج البلاغة، ج٨، ص١٢٨.

[٢] الإرشاد، ج٢، ص٣٢٩. بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٨٠. كشف الغمة، ج٢، ص٤١٢. المناقب، ج٤، ص٤٣١.

قَالَ: اخْتَلَفُوا عِنْدَنَا فِي أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام فَجِئْتُ لِأَرَاهُ، وَأَسْمَعُ مِنْهُ، أَوْ أَرَى مِنْهُ دَلَالَةً لِيَسْكُنَ قَلْبِي، وَإِنِّي لِوُلْدِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ.

فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ خَرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام مَعَ خَادِمٍ لَهُ، فَلَمَّا حَاذَانَا نَظَرَ إِلَى الشَّابِّ الَّذِي بِجَنْبِي، فَقَالَ عليه السلام: أَغِفَارِيٌّ أَنْتَ؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: مَا فَعَلَتْ أُمُّكَ حمدوية؟.

فَقَالَ: صَالِحَةٌ. وَمَرَّ فَقُلْتُ لِلشَّابِّ: أَكُنْتَ رَأَيْتَهُ قَطُّ، وَعَرَفْتَهُ بِوَجْهِهِ قَبْلَ الْيَوْمِ؟!.

قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَيَنْفَعُكَ هَذَا؟. قَالَ: وَدُونَ هَذَا»⁽¹⁾.

كما حدثت ثورات في زمانه عليه السلام في:

مصر⁽²⁾، وطبرستان⁽³⁾، وقزوين والديلم⁽⁴⁾، وخراسان⁽⁵⁾، والكوفة⁽⁶⁾،

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٦٩. الخرائج، ج١، ص٤٣٥.

(٢) خرج إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بـ(الصوفي العلوي)، في صعيد مصر سنة ٢٥٦هـ. طالع: الكامل في التاريخ، ج٧، (أحداث سنة ٢٥٦ و ٢٥٩هـ). وانظر: المقريزي في خططه، ج٢، وتاريخ الشيعة، ص١٨١.

(٣) خرج في خلافة المستعين، سنة ٢٥٠هـ، الطالبي الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل، وخاض حروباً كثيرة، إلى أن مات في سنة ٢٧٠هـ. انظر: مروج الذهب، ج٤، ص٦٩.

(٤) خرج في قزوين سنة ٢٥٠هـ الحسن بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله المعروف بـ(الكركي)، لقيه موسى بن بُغا التركي، ثم صار إلى الديلم... انظر: مروج الذهب، ج٤، ص٧٠.

(٥) خرج في خراسان -أيام المتوكل- الطالبي أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، لكنه أخذ إلى المتوكل وأمر بجلده وحبسه في محبس الفتح بن خاقان، وبقي حتى مدة حتى خرج من حبسه فتوجه إلى بغداد وبقي فيها مدة من الزمن، ثم إلى الكوفة إلى أن خرج مرة أخرى أيام المستعين. انظر: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢٦٦. الفخري، ص٢٣٧.

(٦) خرج داعيًا إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام الطالبي يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد، ويُكنى بأبي الحسين، وقد اجتمعت إليه الزيدية في الكوفة، كما تولّاه العامة من أهل بغداد، وبايعوه، وخاض قتالاً شديداً بالقرب من جسر الكوفة مع عبدالرحمن بن الخطاب (وجه الفلس)، وفيها كان مقتله. انظر: مقاتل الطالبيين، ص٥٠٦. تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢٦٩. وفي سنة ٢٥٠هـ خرج ثائرًا في عهد المستعين الطالبي الحسين بن محمد بن الحمزة المعروف بـ(الحرون)، فبعث المستعين بمزاحم بن خاقان لحربه، وقبل وصول الجيش العباسي غادر الحسين الكوفة متوجهاً إلى سامراء، وبعد مدة عزم على الخروج مرة أخرى. انظر: مقاتل

والكثير من المناطق⁽¹⁾ التي يطول ذكرها.

ولما كانت السلطات العباسية عاجزة عن كشف خيوط الحركة الرسالية ومِن ثَـمَّ تصفيتها، عمـدت إلى فرض الإقامة الجبرية على الإمام العسـكري عليه السلام تحت حجة أن الخليفة العباسي يُريد الإمام المعاصر له أن يمكث معه في حاضرة الخلافة. حيث كان يضعه في بيت يسـهل مراقبته ليكون أشبه بالسجن غير المعلن⁽²⁾. إلّا أن ذلك كان يجري تحت اسـم أن الإمام مستقر في حـاضرة الخلافة، وقد حصل ذلك بعد المأمون، أي إن الخلفاء العباسـيين بعد المأمون رأوا في سياسة المأمون مع الإمام الرضـا عليه السلام، أسـلوباً يُقتـدى به، فكان الخلفاء العباسـيون يعملـون بذلك لعزل الإمـام عن الحركـة الجماهيرية، وهذا أفضل مـا يمكنهم عملـه، إلَّا أنه كان يفوتهم واقع العلاقة التنظيمية بين الإمام والحركة الرسالية.

رُوِيَ عَـنْ أَحْمَدِ بْنِ إِسْـحَاقَ بْـنِ مَصْقَلَةَ قَالَ: «دَخَلْتُ عَـلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَقَالَ لِي: **يَا أَحْمَدُ، مَا كَانَ حَالُكُمْ فِيمَا كَانَ النَّاسُ فِيهِ مِنَ الشَّكِّ وَالارْتِيَابِ؟**.

قُلْـتُ: لَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ بِخَبَرِ مَوْلِدِ سَـيِّدِنَا عليه السلام، لَمْ يَبْقَ مِنَّا رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ، وَلَا غُـلَامٌ بَلَغَ الْفَهْمَ، إِلَّا قَالَ بِالْحَقِّ. قَالَ عليه السلام: **أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةِ الله تَعَالَى..**»⁽³⁾.

الطالبيين، ص٥٠٦-٥١٢. كما خرج خليفة الحسين بن محمد (الحرون) محمد بن جعفر بن الحسين، وقد كتب إليه مخادعاً ابن طاهر يعده بتوليته على الكوفة فلما تمكن منه حمله إلى سامراء وحبس بها حتى وفاته المنية. انظر: مقاتل الطالبيين، ص٥٢٤. وفي سنة ٢٥٥هـ خرج العلويان علي بن زيد وعيسى بن جعفر. طالع: مقاتل الطالبيين، ص٥٢٩. الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢٣٩. مروج الذهب، ج٤، ص٩٥.

(١) خرج في مكة المكرمة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم، على ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، ج١١. والطبري في تاريخ الأمم والملوك، ج٩، انظر ذلك في حوادث سنة ٢٥٠-٢٥١هـ.

(٢) حُبس الإمام العسكري عليه السلام في عهد المهتدي وكان المتولي لسجن الإمام هو صالح بن وصيف، ومن بعده في عهد المعتمد. طالع: المناقب، ج٤، ص٤٣٠. حياة الإمام العسكري دراسة وتحليل، ص٢٩٤-٢٩٦.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٣٣٥.

وبقيت السلطات العباسية في نكد من أمرها حتى أقدمت على اغتيال الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، وذلك في سنة ٢٦٠هـ، وكان الإمام العسكري قد رُزِق بالإمام المهدي عجل الله فرجه يوم الجمعة في شعبان عام ٢٥٥هـ، وكان يحتفظ بالإمام المهدي عليه السلام بعيداً عن الأنظار إلَّا للصفوة من الرساليين، وكيف لا يحتفظ به ويخشى عليه، وبه يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، فكانت غيبته الصغرى من يوم مولده.

فلما استشهد أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام اجتهد المعتمد العباسي كثيراً في العثور على الإمام المهدي عليه السلام، إلى درجة أنه حبس جواري الإمام العسكري عليه السلام، وجعل عليهن الرصد خشية أن يكون عند إحداهن حمل من الإمام عليه السلام، فأخفاه الله عنه وعن أعدائه ليوم يريد به أن يُطهِّر الأرض من الجور والطغيان والشرك، ويُرسي فيها العدل والأمن والإيمان.

فقد رُوي انه لما تُوفِّي الإمام العسكري عليه السلام بعثت السلطات إلى داره من يفتشها ويفتش جميع حجرها، وختم على جميع ما فيها، وطلبوا أثر ولده، وجاؤوا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن على جواريه فنظرن اليهن فذكر بعضهن أن هناك جارية بها حمل، فأُمر بها فجعلت في حجرة ووكّل بها نعرير الخادم وأصحابه، ونسوة معهم، ثم أخذوا بعد ذلك في تهيئة جثمان الإمام العسكري عليه السلام، وعطّلت الأسواق، وركب بنو هاشم والقواد والكُتَّاب وسائر الناس إلى جنازته، فكانت سر من رأى يومئذٍ شبيهة بالقيامة⁽¹⁾.

وهناك كثير من الكتب التي تتحدَّث عن حالة السلطات العباسية عند سماعها بوفاة الإمام العسكري وطلبها الإمام المهدي عليه السلام الذي جاء عن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله «.. **فَيَمْلَؤُهَا عَدْلًا وَقِسْطاً، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً**»⁽²⁾.

فمثلاً، يقول ابن الصباغ المالكي في كتابه (الفصول المهمة): «خلف أبو محمد

---

(١) انظر: بحار الأنوار، ج٥٠، ص٣٢٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٥١، ص٧٢. كفاية الأثر، ص٤٧. كمال الدين، ج١، ص٣٣. وانظر للمؤلف: الإمام العسكري.. قدوة وأسوة.

الحسن من الولد ابنه الحجّة القائم المنتظر لدولة الحقّ، وكان قد أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت وشدة طلب⁽¹⁾ السلطان وتطلّبه للشيعة، وحبسهم والقبض عليهم..»⁽²⁾.

وكثير من الكتب التاريخية تتحدَّث حول هذا الأمر بالمضمون نفسه⁽³⁾.

إنّ هذا التخوُّف من جانب السلطات، وضخامة الاحتياطات المتخذة من قبلها، كل ذلك يدلّ على أن الحالة غير طبيعية، فإذا رأينا رئيس دولة ما يُجنِّد الجيوش، ويضع كل وزارات ومؤسسات الدولة في حالة استعداد وترقُّب، فإن هذه الحالة تعني أن أمراً كبيراً يترقّب حدوثه قريباً ربما يُؤثِّر في مسيرة الدولة العباسية آنذاك، وهذا ما هو منقول في كتب التاريخ بشكل مستفيض، وهذا له دلالة قوية على أن فكرة المهدي المنتظر عليه السلام كانت فكرة يعتقد بها كل مسلم آنذاك إلاّ ما ندر، وأن هذه العقيدة كانت عامة عند كل أبناء الأمة الإسلامية.

والأهم أن اعتقاد كل المسلمين كان في أن هذا المصلح لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو من آل محمد عليهم السلام ومن سلالته، وذلك للنصوص المتواترة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم التي تُصرِّح بهذه الحقيقة.

ولو لم يكن هذا الاعتقاد قائماً لم يكن كل المسلمين -آنذاك- يعتقدون بأن الإمام الثاني عشر ابن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام هو المهدي المنتظر، وهو المهدي الموعود⁽⁴⁾.

---

(١) وفي نسخة أخرى: وخوف...

(٢) الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ج٢، ص١٠٩١.

(٣) منها: ابن كثير، ج٧، ص٩٠. تاريخ الفداء، ج٢، ص٥٢. عمدة الطالب، ص ١٨٦، وغيرها كثير.

(٤) راجع إضافة لما ذكر من الكتب التاريخية كلًا من: سبائك الذهب للسويدي، ص ٧٨، و: البيان في أخبار صاحب الزمان، لمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي، وابن خلكان في ترجمته (أبو القاسم المنتظر).

وقد ورد ذكره في الأحاديث النبوية: أنه من آل محمد عليهم السلام⁽١⁾، وأنه هو الإمام الثاني عشر، محمد المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب عليهم السلام⁽٢⁾.

والسلطات العباسية كانت في تلك الدرجة من الخوف والإجراءات الأمنية المشددة التي تُعبِّر عن حالة الهيجان التي يعيشها النظام بسبب هذا الاعتقاد المجمع عليه من المسلمين. ويدل ذلك أيضاً على شيء مهم آخر، هو أن تيار الحركة الرسالية التي كانت في البدء تتجسد في أفراد يُعدّون على الأصابع أصبحت اليوم تعني مجاميع غفيرة من المسلمين.

وقد أحدثت غيبة الإمام المهدي عليه السلام تموُّجاً قويًا في العالم الإسلامي، حيث عيَّن الإمام المهدي له سفراء أربعة، وهم: عثمان بن سعيد العمري⁽٣⁾، وكان من وكلاء جده وأبيه عليهما السلام، ومحمد بن عثمان العمري⁽٤⁾، ابن السفير الأول، وكان من

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٨٣. عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ الْأَدَمِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْعَظِيمِ بْنِ عَبْدِاللهِ الْحَسَنِيِّ، قَالَ: «قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى عليهم السلام: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْقَائِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً. فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ مَا مِنَّا إِلَّا قَائِمٌ بِأَمْرِ اللهِ وَهَادٍ إِلَى دِينِ اللهِ، وَلَيْسَ الْقَائِمُ الَّذِي يُطَهِّرُ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، وَيَمْلَؤُهَا عَدْلًا وَقِسْطاً، إِلَّا هُوَ الَّذِي يَخْفَى عَلَى النَّاسِ وِلَادَتُهُ، وَيَغِيبُ عَنْهُمْ شَخْصُهُ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمْ تَسْمِيَتُهُ، وَهُوَ سَمِيُّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَكَنِيُّهُ».

(٢) بحار الأنوار، ج٣٦، ص٣٦٨. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ».

(٣) السفير الأول في زمن الغيبة الصغرى، يكنى أبا عمرو جليل القدر عظيم المنزلة ثقة، له خدمة صاحب الزمان عليه السلام، وله منزلة جليلة عند الطائفة. انظر: رجال الطوسي، ص٣٨٩.

(٤) السفير الثاني في زمن الغيبة الصغرى، كنيته أبو جعفر، جليل القدر، ثقة، وكيل من جهة الإمام صاحب الزمان عليه السلام، وله منزلة جليلة عند الطائفة، ومن دلائل إيمانه وورعه أنه حفر قبراً لنفسه وسوَّاه بالسياج، فسُئل فقال: للناس أسباب، ثم سُئل بعد ذلك فقال: قد أمرت أن أجمع أمري، فمات بعد ذلك بشهرين. انظر: رجال الطوسي، ص٤٤٧. رجال بن داوود، ص٣٢٣.

وكلاء الإمام الحسن العسكري عليه السلام، والحسين بن روح(١)، وعلي بن محمد السُمري(٢). وكانت السفارة تنتقل لأحدهم بعد الآخر، وبعد موت السمري عام ٣٢٩هـ، انقطعت السفارة. وكانوا جميعاً يعيشون في بغداد، فقد كانوا بمثابة وسطاء بين الحركة الرسالية، والإمام عليه السلام، لحمل مجمل الأسئلة إليه، وأخذ الجواب منه بتوقيعه عليه السلام(٣) إليهم.

والسفير هو عالم كبير، وفي الوقت ذاته يحمل توجيهات ورسائل الإمام الحجة الغائب إلى العلماء الباقين. وبجانب ذلك كان للإمام الحجة عليه السلام وكلاء(٤)

---

(١) السفير الثالث في زمن الغيبة الصغرى، «هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ الْحُسَيْنُ بْنُ رَوْحِ بْنِ أَبِي بَحْرٍ النَّوْبَخْتِيُّ، الْقَائِمُ مَقَامِيُّ، وَالسَّفِيرُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْأَمْرِ، وَالْوَكِيلُ لَهُ، وَالثِّقَةُ الْأَمِينُ، فَارْجِعُوا إِلَيْهِ فِي أُمُورِكُمْ، وَعَوِّلُوا عَلَيْهِ فِي مُهِمَّاتِكُمْ..». بحار الأنوار، ج٥١، ص٣٥٥.

(٢) السفير الرابع في زمن الغيبة الصغرى، الثقة، جليل القدر والمنزلة، «وهو الذي أخبر بموت علي بن الحسين بن بابويه القمي». مات السمري في النصف من شعبان سنة ٣٢٨هـ، وقيل: ٣٢٩هـ. وبموته وقعت الغيبة الكبرى، خرج التوقيع الشريف من مولانا صاحب الأمر يخبر بموته إلى ستة أيام، وتُوفِّيَ في اليوم السادس. مستدركات علم رجال الحديث، ج٥، ص٤٥٠-٤٥١.

(٣) للتوسع انظر: كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق رحمه الله. موسوعة الإمام المهدي، للشهيد الصدر الثاني. الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، السيد كاظم القزويني. الإمام المهدي المنتظر دراسة وتحليل، للعلامة باقر شريف القرشي.. وغيرهم.

(٤) مما لا شك فيه أن ثمة فارق كبير بين السفير والوكيل، فالأول: له ارتباط مباشر بالإمام المهدي، وأنه يلتقي بالإمام مباشرة، ويرى الإمام ويجالسه، ويأخذ منه التوقيعات والتوجيهات للشيعة، ويوصل إلى الإمام رسائل الشيعة وحاجياتهم، وتتلخص وظيفته ومسؤوليته في الحفاظ على الدين عقيدة ومنهجاً، وتمتين العلاقة بين الشيعة والإمام المهدي عليه السلام. أما الثاني (الوكيل) فهو يتَّصل بالإمام عن طريق السفير، بمعنى هو همزة الوصل بين الشيعة والسفير، بل يكون هو جسر العلاقة بين منطقته أو محلته والسفير، وتنحصر مسؤولية الوكيل في تسهيل عمل السفير ووظيفته مع العمل على توسيع دائرة عمل السفير في واقع الأمة، كما يكون هو المعين والمحافظ على شخصية السفير وحراسته بعيداً عن أعين الطواغيت. وعن هؤلاء الوكلاء غير السفراء روى المحدث الشيخ الصدوق في كتابه (كمال الدين، ج٢، ص٤٤٢)، عن أبي علي الأسدي عن أبيه عن محمد بن أبي عبد الله الكوفي أنه ذكر عدد من انتهى إليه ممَّن وقف على معجزات صاحب الزمان عليه السلام ورآه من الوكلاء: «ببغداد العمري وابنه، وحاجز، والبلالي،

كثيرون في أثناء الغيبة الصغرى، إلَّا أن السفراء هم الأربعة فقط، والذين يُلقّبون بالنُّواب أيضاً.

وبعد الغيبة الصغرى، أي بعد موت هؤلاء السفراء الأربعة، وقعت الغيبة الكبرى التي يُنتظر فيها الإمام الحجة عليه السلام: «**وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً**..»(١).

والعطار، ومن الكوفة: العاصمي، ومن أهل الأهواز: محمد بن إبراهيم بن مهزيار، ومن أهل قم: أحمد بن إسحاق، ومن أهل همدان: محمد بن صالح، ومن أهل الري: البسامي، والأسدي -يعني نفسه- ومن أهل آذربيجان: القاسم بن العلاء، ومن أهل نيسابور: محمد بن شاذان،...».

(١) بحار الأنوار، ج٢٦، ص٢٦٢.

صفو الكلام

* شهد عهد الإمام العسكري سياسة لم تكن بعيدة عن تيار الحركة الرسالية، وقد قاد العلويون عدة تحركات اكتشف أمرها من قبل السلطة. ولأن الظروف الأمنية كانت صعبة فإن الإمام جعل التقية شرطاً من شروط الولاء.

* وقد فرضت السلطات الإقامة الجبرية على الإمام العسكري، كما بذلت جهداً كبيراً في البحث عن الإمام المهدي المنتظر، إلَّا أنها فشلت -بإذن الله- في ذلك.

التَّارِيخُ الإِسلامِيُّ.. دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

الخَاتِمَةُ

كَيفَ نقرأ تاريخ الحركةِ الرِّساليَّةِ

تأثيرُ الحركةِ الرِّساليَّةِ على الحضارةِ الإنسانيَّةِ

كيف نقرأ تاريخ الحركة الرِّساليَّة

عند الحديث عن حياة بعض الأئمة، نرى أنّ الحديث يطول إلى درجة لا يستطيع الإنسان أن يجمعه في بحث واحد، أو حتى في كتاب واحد، وقد يتحوَّل الحديث عن الإمام علي عليه السلام فقط إلى كتاب في عشرة مجلدات، وكذلك الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام.

لكننا حين نُراجع حياة إمام آخر كالإمام الجواد عليه السلام أو الإمام الهادي عليه السلام فإننا نجد أن مادة الحديث قليلة إلى درجة نعجز معها عن التوسع في حياة هذا الإمام، فهل يدل ذلك على أن بعض الأئمة كانوا أثرى من غيرهم علميًّا، وفقهيًّا، وحركيًّا؟.

وقبل أن نخوض في الجواب عن هذا السؤال، نذكِّر بأن السياسة وتحكّمها بعملية تدوين التاريخ قد طبعت بصماتها بصورة واضحة على تاريخ الحركة الرسالية. فسياسة القتل، والإرهاب، والملاحقة التي اتَّبعتها السلطات بحق كل من كان يُحدِّث، أو يكتب عن الحركة الرسالية، سواء عن فكرها، أو شخصية رجالها، أو عن تحرُّكاتها وجهادها، هذه السياسة حالت دون وصول الكثير من الحقائق عن الحركة الرسالية إلينا.

ولكن بالرغم من كل المحاولات التي بذلتها السلطات الجائرة في طمس الحقائق وتشويهها، وإلصاق التُّهم الرخيصة بأبطالها، وبالرغم من كل ما قامت به

تلك السلطات من إتلاف وحرق الكثير من الكتب التي تُبيِّن معالم مدرسة الرسالة، إلَّا أن ما وصلنا يرسم لنا صورة جلية عن مجمل مسيرة الحركة الرسالية.

الظاهرة السابقة التي يطرحها التساؤل، إنما تدل على أن هناك تقصيراً فادحاً من العلماء والباحثين في استقصاء حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام أو أنهم ركَّزوا على جوانب من شخصيتهم وأهملوا جوانب أخرى، لعدم استيعابهم لتلك الجوانب.

إن أعمال الأئمة المعصومين عليهم السلام كانت على نوعين:

الأول: بمثابة رسم معالم الحركة الرسالية وتوضيحها.

الثاني: بمثابة مواصلة للمسيرة السابقة، لكي تنمو وتتوسع. فمثلاً نجد الإمام علي عليه السلام هو الذي أسس الحركة الرسالية بتفاصيلها التنظيمية والقيادية، بينما الإمام الحسن تابع المسيرة نفسها التي بدأها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كذلك نجد أن الإمام الصادق عليه السلام أسس الكيان الفقهي للحركة، أما الإمام الكاظم فإنه نمّى البناء السابق.

من هنا نجد حياة أحد الأئمة عليهم السلام مليئة بالأحداث والأحاديث لأنه هو الذي بدأ عملاً ما، بينما الإمام التالي لا نجد في حياته ما يثيرك من ذلك الجانب الذي سبق تأسيسه، لأنه قام بدعم العمل السابق. وهذا لا يعني أن الإمام الأول كان أفضل من الثاني، إنما مَنْ يُوسِّع البناء ويُنمّيه يشترك مع مؤسسه في الأهمية والعظمة، فالرجل الذي اخترع الكهرباء عظيم، وكذلك الذي نشر الكهرباء في الآفاق وحوّلها إلى مادة رفاهية في كل ناحية من نواحي حياتنا، فهو عظيم أيضاً.

ثم إننا نجد أنّ المؤرخين قد كتبوا عن الأئمة عليهم السلام الذين احتكوا بالحركات الإسلامية والتيارات الفكرية والسياسية الأخرى أكثر من باقي الأئمة عليهم السلام، والسبب في ذلك، لأن في هذا لون من الصراع والخلاف الفكري أو السياسي. وطبيعي أن الخلاف يُحفظ، لأن فيه إثارة، فتتوجَّه له أنظار رجال التاريخ أكثر، بينما نجد أن حياة الإمام الذي لم يحتك احتكاكاً مباشراً مع سائر المذاهب، لا تُدوّن

حياته ولا تُحفظ في كتب التاريخ، لا لعدم وجود أشياء عظيمة في حياته، وإنما لعدم اهتمام المؤرخين بها.

فلماذا لم نؤرخ كل الوقائع؟. ولماذا لا نستنبط من التاريخ أفكاراً جيدة تُراعى فيها الظروف التي كان يعيشها كل إمام من الأئمة عليهم السلام؟. ويبقى التساؤل: لم لا نُسلِّط الضوء على المناطق المظلمة من التاريخ؟.

لأننا نحن الذين ندع التاريخ جانباً، وتتَّجه كل طاقاتنا إلى الجوانب المثيرة، والأكثر ظهوراً ووضوحاً، الأمر الذي يجعلنا بعيدين عن مواجهة الأسئلة الصعبة والجوانب الغامضة في التاريخ، ولذلك نجد أن الحركة الرسالية انشغلت بالجانب العلمي، والجانب السياسي الذي كانا يتطلبان طاقات وجهود كبيرة.

ولذلك نرى أن أتباع أهل البيت عليهم السلام نما عندهم الفقه، بما لم ينمُ عند أي جماعة إسلامية أخرى، كما كانوا حريصين في إسناد الأحاديث والروايات على أن تكون موثقة صحيحة، حتى لا يقع التحريف والتزييف فيها، بينما لا نرى هذه الدقة في الإسناد عند غيرهم. وكذلك نمت عندهم بقية العلوم الأساسية في الشريعة(١)، بعكس التاريخ الذي لم يَنَلْ من الاهتمام ما نالته العلوم الأخرى، لأن التاريخ تأتي أهميته بعد تلك العلوم الأساسية في الشريعة، فقد أُعطيَ اهتماماً أقل نظراً لصرف الجهود بكثافة على العلوم الأساسية السابقة، ولكثرة الطاقات التي كانت تُصرف في المجال السياسي، ومع أخذ هذا الاعتبار ضمن التعليلات، إلَّا أن التساؤل يبقى قائماً.

وهناك السؤال الآخر: هل عدم وجود مادة كافية في حياة أي إمام دليل على أننا لا نستطيع أن نكشف كامل خبايا حياة ذلك الإمام؟.

بالطبع كلَّا. فنحن نستطيع الاستنتاج من بين السطور، ونستطيع أن نقرأ عبر ربط السابق باللاحق من الأحداث، أن نقرأ حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام. مثل

---

(١) انظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، و: الشيعة وفنون الإسلام. وأيضاً: فلاسفة الشيعة.. حياتهم وآراؤهم.

الإمام الجواد عليه السلام الذي لم يُدّون التاريخ عن حياته شيئاً كثيراً.

إننا حينما ندرس حياة الإمام الجواد ضمن حياة الأئمة جميعاً فإنه ستتكون عندنا صورة كاملة عن حياته، فحين دراستنا لرواية أو قضية تاريخية، فلا يجب أن نقتصر عليها هي بالذات ونكتفي بنقلها وسردها، وإنما ينبغي أن ندرسها دراسة وافية بمراجعة التاريخ المعاصر للأئمة المعصومين عليهم السلام .

إن كتاب بحار الأنوار -مثلاً- ليس كتاباً تاريخيًّا يُبين لنا مَنْ هم الأشخاص الذين كانوا يحضرون عند هذا الإمام أو ذاك. لذلك علينا أن نُراجع كتب التاريخ الأخرى.

فمثلاً حينما نقرأ في كتب الأحاديث أن فتح بن خاقان كان يحضر عند الإمام الهادي عليه السلام، ولكن مَنْ هو فتح بن خاقان؟. إننا لا نعرف عنه شيئاً إلّا إذا قرأنا كتب التاريخ لنعرف أنه كان أكبر وزراء المتوكل العباسي، ولا نستطيع أن نعرف عن فترة حكمه المظلمة شيئاً إلّا بمطالعة التاريخ. فبمطالعة التاريخ نعرف أن فتح بن خاقان كان يميل إلى الإمام الهادي عليه السلام وأن الكثير من الخطط التي كانت السلطة العباسية تحوكها ضد الحركة الرسالية كان خبرها ربما يتسرب إلى الإمام عبره.

كل هذه الأمور يجب أن ندرسها في كتب التاريخ، وبعد أن ندرس التاريخ بشكل دقيق فإننا نعرف الروايات أيضاً بشكل جيد(١).

إنّ بعض الخطباء يرتقون منبر الخطابة ويذكرون الرواية ويسندونها دون أن يذكروا الخلفيات التاريخية والظروف الاجتماعية لها، وهذه طريقة غير صحيحة في المنهج الخطابي. إن الطريقة الحديثة في كتابة التاريخ تركّز حتى على بيان طريقة العيش للفرد. مثلاً كيف كان شكل البيوت التي كان يسكنها الناس قديماً؟. وكم

---

(١) للمزيد من البحث حول الوثائق التاريخية، راجع كتاب: المنطق الاسلامي، مناهجه ومقاصده. للمؤلف، القسم السادس: عن مناهج التاريخ، البحث الثاني: دراسة الوثائق التاريخية، ص٥٢١-٥٦٢.

غرفة كانت في البيت؟. وهل كانت البيوت من طابق واحد أو طابقين؟. ووسائل الترفيه كيف كانت؟. أين كان البئر؟. والسبب في ذلك، لأن ذلك سيُعطي المؤرخين رؤية.

فعندما يقرؤون في التاريخ أن رجلاً وقع في البئر، فهل كانت البئر في وسط البيت حتى وقع فيها، أم خلف البيت، ولماذا لم يحس به أحد عندما وقع؟ وهكذا. فإنهم يستطيعون معرفة حقائق كثيرة من التاريخ من خلال معرفة الظروف التي كان يعيشها الفرد، من كيفية وضعه المعيشي وحتى السكني. كذلك ماذا كانت ملابسهم؟. وماذا كانوا يأكلون؟. كيف كانت إضاءتهم؟.

إن كتاب تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، يبحث عن التفاصيل الدقيقة، مثلاً يذكر في التاريخ أنه في مدينة بغداد، بلغ عدد حماماتها في أيام المأمون (١٦.٠٠٠) حمام⁽¹⁾، بالطبع عندما نذكر هذا الإحصاء لشخص فرنسي أو إنجليزي فسيقول: (١٦.٠٠٠) حمام، يعني (١٦.٠٠٠) بيت، باعتبار أن في كل بيت يوجد حمام واحد، ولكن الذي يراجع التاريخ يعلم أن الحمام كان لكل منطقة، أو لكل حي، والحي الذي يوجد فيه حمام كم يسكن فيه من الناس؟.

وهذا كله يجب أن نعرفه من التاريخ حتى نستطيع اكتشاف عدد سكان مدينة معينة عن طريق عدد حماماتها ووسائل معيشتها، ومن ثم نعرف مثلاً ارتباط عدد سكانها مع دورها التاريخي. كذلك يمكن معرفة عدد سكان مدينة معينة عن طريق الأنهر التي فيها، وعن طريق عدد الجزارين، وكم كانوا يذبحون من الغنم يوميًا. هذه إذا ذكرها التاريخ، فإننا نتمكن أن نعرف من خلالها كم كان عدد السكان الموجودين في منطقة ما. لماذا؟.

لأن هناك مقدمة أخرى، أو حلقة ثانية، وهي أن نعرف كم كان يستهلك الأفراد من اللحم يوميًا، فإذا كانوا مثلاً كأهل مصر الذين لا يأكلون اللحم في

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص٤٢٩.

الأسبوع إلَّا يوماً واحداً أو يومين، فهذا يختلف عمَّا إذا كانوا كأهل الحجاز، أو أهل البادية، الذين يأكلون اللحم يوميًّا لأن طريقة الأكل تختلف من مكان لآخر.

إذن فدراستنا للروايات، ودراستنا للمقاطع المختلفة من التاريخ، والأخبار المقتضبة منه، يجب أن تتم عبر رؤية متكاملة عن التاريخ، فأولاً؛ ندرس التاريخ كله، وبعدئذٍ ندرس الرواية، وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نستنبط حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام خصوصاً الأئمة الذين لا نملك من حياتهم الشيء الكثير، وهم الأئمة المتأخرون، من بعد الإمام الرضا عليه السلام، ندرس حياتهم ونستوعبها عن طريق دراسة التاريخ، ومعرفة الظروف المختلفة التي كانوا يعيشون فيها.

توجد روايات يذكرونها في باب معجزات ومكارم الإمام الهادي عليه السلام، لكن ومن خلال الرواية نستطيع أن نستنبط حياة الإمام الهادي عليه السلام، وهذا يجعلنا نعرف حياة الإمام بصورة أحسن من مجرَّد إلقاء أضواء متفرقة عليها، لأنه لا توجد قضايا معينة ومحددة بوضوح شديد في تاريخ حياة الإمام الهادي تجمع كل أحداث حياته، لذلك نضطر إلى بحث الحياة بشكل مجزَّأ.

مثلاً حينما نقرأ الرواية التالية: رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْأَشْتَرِ الْعَلَوِيِّ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ أَبِي بِبَابِ الْمُتَوَكِّلِ، وَأَنَا صَبِيٌّ فِي جَمْعِ النَّاسِ، مَا بَيْنَ طَالِبِيٍّ إِلَى عَبَّاسِيٍّ إِلَى جُنْدِيٍّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام، تَرَجَّلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لا نَتَرَجَّلْ لِهَذَا الْغُلَامِ!. وَمَا هُوَ بِأَشْرَفِنَا، وَلَا بِأَكْبَرِنَا، وَلَا بِأَسَنِّنَا، وَلَا بِأَعْلَمِنَا.

فَقَالُوا: وَاللهِ؛ لَا تَرَجَّلْنَا لَهُ.

فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هَاشِمٍ: وَاللهِ لَتَرَجَّلُنَّ لَهُ صَغَاراً وَذِلَّةً إِذَا رَأَيْتُمُوهُ.

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَقْبَلَ وَبَصُرُوا بِهِ، فَتَرَجَّلَ لَهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هَاشِمٍ: أَلَيْسَ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تَتَرَجَّلُونَ لَهُ؟!.

فَقَالُوا: وَاللهِ مَا مَلَكْنَا أَنْفُسَنَا حَتَّى تَرَجَّلْنَا»⁽¹⁾.

بالطبع هذه رواية تُذكَر في باب معجزات ومكارم أخلاق الإمام عليه السلام ولكنها تعني لنا شيئين:

الأول: أنا لا أعتقد -في الواقع- أن هذه من معجزات الإمام عليه السلام فقط، فالإمام عنده معجزات ولا نُنكرها، لكن هذه من طبيعة وضع الإمام في كل مكان.

فماذا يعني هذا؟. لماذا الناس -كما في التاريخ- حينما جاء الإمام السجاد عليه السلام يطوف حول الكعبة فسحوا له الطريق ليُقبِّل الحجر؟.

إن الأئمة عليهم السلام كانوا يمتلكون قلوب الناس بأخلاقهم العالية وشخصياتهم المحببة. إن طبيعة حياة الأئمة عليهم السلام ، وعلمهم وشخصيتهم وقدرتهم لم تكن أموراً غيبية فقط. بل كانت متكاملة بشكل نموذجي، لذلك كانوا يفرضون هيبتهم على الناس بشكل طبيعي.

الثاني: إنّ الذي يظهر من هذه الرواية هو أن مجيء الإمام عند المتوكل العباسي كان بصفة السيادة، لأنّ وجهاء الأسرة العباسية الحاكمة، ومعهم وجهاء الطالبيين كانوا عندما يصل الإمام يترجَّلون فوراً ويفسحون له ليدخل.

- وفي رواية عن محمد بن الفرج، وهو أحد أصحاب الإمام الهادي عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام كَتَبَ إِلَيَّ: **أَجْمِعْ أَمْرَكَ وَخُذْ حِذْرَكَ.**

قَالَ: فَأَنَا فِي جَمْعِ أَمْرِي لَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي أَرَادَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيَّ رَسُولٌ حَمَلَنِي مِنْ مِصْرَ مُقَيَّداً مُصَفَّداً بِالْحَدِيدِ، وَضَرَبَ عَلَى كُلِّ مَا أَمْلَكُ.

لاحظ أن الامام كتب له يُحذره ويُخبره بأن رجال المباحث كانوا يُفتشون عنه. والرجل كان في مصر، يقول: لست أدري. فالإمام قال له: أَجْمِعْ أمرك وخُذ حذرك، ولم يقل له شيئا آخر. ولم أفهم ما القضية، فأخذت أجمع أمري وأصفي ديوني وأرتب

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٣٧.

أوضاعي، فإذا بالقضية تطوَّرت فجاؤوا وقيَّدوني وصادروا أموالي كلها وأرسلوني إلى بغداد.

فَمَكَثْتُ فِي السِّجْنِ ثَمَانِيَ سِنِينَ (لعل الرجل لم يعمل بكلام الإمام عملاً صحيحاً، ولعله لم يفهم ما كان يشير إليه الإمام، وربما تلكَّأ فوقع في المحذور)، ثُمَّ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابٌ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام وَأَنَا فِي الْحَبْسِ: **لَا تَنْزِلْ فِي نَاحِيَةِ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ.**

فَقَرَأْتُ الْكِتَابَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَكْتُبُ إِلَيَّ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام بِهَذَا، وَأَنَا فِي الْحَبْسِ إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ!. فَمَا مَكَثْتُ إِلَّا أَيَّاماً يَسِيرَةً حَتَّى أُفْرِجَ عَنِّي وَحُلَّتْ قُيُودِي وَخُلِّيَ سَبِيلِي.

وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ لَمْ يَقِفْ بِبَغْدَادَ لِمَا أَمَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام وَخَرَجَ إِلَى سُرَّ مَنْ رَأَى.

قَالَ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ خُرُوجِي أَسْأَلُهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ لِيَرُدَّ عَلَيَّ ضِيَاعِي. فَكَتَبَ إِلَيَّ: **سَوْفَ يُرَدُّ عَلَيْكَ، وَمَا يَضُرُّكَ أَلَّا تُرَدَّ عَلَيْكَ.**

قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا شَخَصَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَرَجِ إِلَى الْعَسْكَرِ كَتَبَ لَهُ بِرَدِّ ضِيَاعِهِ فَلَمْ يَصِلِ الْكِتَابُ إِلَيْهِ حَتَّى مَاتَ»⁽¹⁾.

ونحن الآن لا يهمنا نهاية الرواية، وإنما نُعالج نقطتين:

الأولى: أن الإمام أبو الحسن الهادي عليه السلام كان في سامراء، وصاحبه كان في مصر، فربما كان للإمام عين تُوصل إليه الأخبار مع عدم استلزام ذلك لعنصر المعجزة، كأن يكون رئيس الوزراء يتشيَّع للإمام ويكون عيناً له.

وقد سبق وأن رأينا في حادثة أن رئيس الوزراء وهو الفتح ابن خاقان يقول له المتوكل: اذهب وخذ المال الذي يأتيك من الطريق الفلاني، فيذهب هذا ويُخبر الإمام بالأمر.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٤٠.

الثانية: وهي الأهم، ترى أن الرجل في السجن والإمام يكتب له رسالة. فكيف يُوصل له الرسالة؟. وكيف يُعطيه التعليمات؟.

إن هذا يدلنا بوضوح على طبيعة أعمال وأساليب الأئمة عليهم السلام في داخل الأمة الإسلامية، فلم يكونوا يجلسون في زوايا بيوتهم بعيدين عن الأحداث.

وللقضية نهاية وهي: أن الإمام عليه السلام قال له حول أمواله: «**سَوْفَ يُرَدُّ عَلَيْكَ، وَمَا يَضُرُّكَ أَلَّا تُرَدَّ عَلَيْكَ**». أي ما أهمية الأموال ما دمت تقوم بمهمة دينية كبيرة، وهي أنك من موالينا وتعمل في سبيل الله، فليأخذوا أموالك، فالإنسان ما دام عنده هدف أسمى في حياته، فما يهمه من أمر المال وسائر متاع الدنيا الزائل، أليست هذه أشياء غير مهمة بالنسبة له.

وبكلمة: إننا من الجوانب المختلفة للروايات، نستطيع أن نرسم أغلب خطوط حياة الإمام، أي إن المسألة تحتاج إلى قراءة دقيقة لما بين السطور، وبالنهج الذي فصَّلنا فيه الكلام قليلاً.

وبهذا نتمكَّن أن نسد النقص التاريخي الحاصل من جراء عدم تسجيل المؤرخين لحياة الأئمة الأربعة الأواخر عليهم السلام -خصوصاً- وبشكل تفصيلي.

صفو الكلام

* إنّ السياسية وتحكّمها بعملية تدوين التاريخ قد طبعت بصماتها بصورة واضحة على تاريخ الحركة الرسالية.

* ومن جهة أخرى، يهتم المؤرخون عادة بتدوين الجوانب المثيرة من التاريخ ويهملون الجوانب الأخرى.

* لذلك علينا استنباط الجوانب المهملة من تاريخ الأئمة المعصومين عن طريق دراسة الروايات، والظروف، وخلفيات الأمور برؤية ثاقبة وبصيرة نافذة. وبذلك نستطيع أن نرسم أغلب خطوط حياة الأئمة عليهم السلام.

تأثيرُ الحركةِ الرِّساليّةِ على الحَضارةِ الإنسانيَّةِ

كانت الحياة على طول التاريخ مليئة بكثير من الإنجازات العظيمة والهامة، التي من أبرزها منهج الحركة الرسالية. فماذا كان يعني هذا المنهج في الحياة؟. وما هي خطوطه العريضة؟. وبماذا خدم الإنسانية؟. وبماذا خدم الحضارة الإسلامية؟.

إن هذه التساؤلات ضرورية جدًّا، لأنه من دون معرفة هذه الحقيقة لن نُقدِّر تضحيات أولئك الصالحين الذين ندين لهم فيما نملك من خير. قبل كل شيء لا بد من معرفة، أن الحركة الرسالية كان لها مضامين كثيرة، منها: مضامين اجتماعية، وأخرى مضامين حضارية، وأخرى فكرية وثقافية.

في هذه الحقول الثلاثة، وبهذه المبادئ خدمت الحركة الرسالية العالم كله، وخدمت الإنسانية جمعاء.

نظرة عامة في الدولة الإسلامية

لقد كانت الحركة الرسالية عَلَماً ينضوي تحته كل محروم، وقد مثَّل هؤلاء المحرومون تيارًا عريضًا ممتدًا في كل العالم الإسلامي، فكان منهم المحروم بسبب لونه وعرقه، أو حتى بسبب لغته، وطوائف حُرِمت بسبب حرفتها، وأخرى بسبب مذهبها. فقد كانت هناك تفرقة عنصرية، وكان هناك تفاوت طبقي، وظلم اجتماعي، وإرهاب فكري، والأمثلة عديدة. فمثلاً: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن

جندب، فقال: «إني رأيت هذه الحمراء[١] قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان؛ فقد رأيت أن أقتل شطرًا، وأدع شطرًا لإقامة السوق وعمارة الطريق..»[٢].

وهذا يُبيّن فكرة الأمويين حول القوميات غير العربية، فحتى لو كانوا مسلمين فإنهم يعدّون -حسب التصنيف الأموي- مواطنين من الدرجات الأدنى، وإذا كثر عددهم فإنهم يستحقون الإبادة، لا لسبب إلا للخوف من أن يطالبوا بحقوقهم المهضومة.

الخراج

في الوقت الذي جعل الإسلام لجباية الخراج قوانين دقيقة تلحظ شروطاً عدة فيمن يجب أن يُعطي الخراج، ووضع شروطاً قاسية فيمن يجب أن يجبي الخراج، وحدَّد الموارد التي تُصرف فيها الأموال التي تُجبى، كانت الدولة الأموية والعباسيّة تأخذ الخراج أضعافاً مضاعفة، كما تقتضيه أهواء الأمراء والولاة والخلفاء.

أما الجزية التي أمر الإسلام بإسقاطها عن الإنسان الذي يتحوَّل من دينه إلى الإسلام حيث يجب عليه آنئذٍ الزكاة والصدقات[٣]، نجد أن الدولة الأموية كانت

---

[١] كانت العرب في أيام الدولة الأموية، تسمي الموالي بالحمراء، لأنهم يرون أنفسهم سادة والموالي عبيدًا، بل كانوا يرونهم دونهم في الخَلق والفضل، حتى إشتهر عنهم: «لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاثة: حمار، أو كلب، أو مولى». أنظر: العقد الفريد، ج٣، ص٣٦٠ (باب المتعصبين للعرب). وأيضًا: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص٣٤١. (العرب والموالي).

[٢] العقد الفريد، ج٣، ص٣٦٢.

[٣] قال المحقق الحلي قدس سره في شرائع الإسلام، ج١، ص٣٠٠: «وإذا أسلم (الذمي) قبل الحول أو بعده قبلِ الأداء سقطت الجزية على الأظهر..»، وقال صاحب الجواهر قدس سره معلقًا: «لا أجد فيه خلافًا.. بل في المنتهى ومحكي التذكرة الإجماع عليه، وهو الحجة»، والمستند فيه النبوي المروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم -المستغني بشهرته نقلًا وعملًا عن البحث في سنده-: «**الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**». أنظر: جواهر الكلام، ج٢١، ص٢٥٨. أما في مسألة وجوب الزكاة عليهم، فقد قال المحقق الحلي قدس سره «كل أرض أسلم أهلها عليها فهي لهم على الخصوص، وليس عليهم شيء فيها سوى الزكاة إذا حصلت شرائطها». شرائع الإسلام، ج١، ص٢٩٣.

تستمر في أخذ الجزية ولا تقبل إسلامهم(١)، وبذلك تفرض نوعاً من التمييز بين المسلم قديماً، والمسلم حديثاً.

فالذي أسلم قديماً، يكون باستطاعته أن يشترك في الحرب والغنائم، وأن يمتلك الأرض ويعمل ما يشاء، بينما الذي أسلم حديثًا فإنه محروم من كل هذه الحقوق، وكانت نتيجة ذلك الكثير من المآسي والويلات، والارتداد عن الدين، وانكفاء الفتوحات الإسلامية، بل وسقوط بعض المناطق التي أسلم أهلها طوعاً وارتدادهم، بعد أن رأوا في الدين الجديد، من خلال ما تمارسه السلطات السياسية، أداةً لتسلط مَنْ لا يتوَرَّع عن ركوب أيِّ محرم من أجل جمع المال.

يقول الطبري: «ذكر أن أشرس(٢) قال في عمله بخراسان: أبغوني رجلًا له ورع وفضل، أُوجِّهه إلى من وراء النهر، فيدعوهم إلى الإسلام، فأشاروا عليه بأبي الصيداء صالح بن طريف، مولى بنى ضبة، فقال: لست بالماهر بالفارسيه، فضموا معه الربيع بن عمران التميمى.

فقال أبو الصيداء: أخرج على شريطة إنّ مَنْ أسلم لم يُؤخذ منه الجزية، فإنما خراج خراسان على رؤوس الرجال. قال أشرس: نعم، قال أبو الصيداء لأصحابه: فإني أخرج فإن لم يفِ العمال أعنتموني عليهم. قالوا: نعم.

فشخص إلى سمرقند، وعليها الحسن بن أبي العمرطة الكندي، على حربها وخراجها، فدعا أبو الصيداء أهل سمرقند، ومن حولها إلى الإسلام، على أن تُوضع عنهم الجزية، فسارع الناس، فكتب غوزك إلى أشرس: إن الخراج قد انكسر. فكتب

---

(١) قال المقريزي في الخطط: «وأوّل من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمّة: الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان: أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمّة، فكلمه ابن حجيرة في ذلك فقال: أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أوّل من سنّ ذلك بمصر، فو الله إن أهل الذمّة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك». المواعظ والإعتبار، ج١، ص٢٢٦.

(٢) الأشرس بن عبد الله المسلمي كان والياً على خراسان في عهد هشام بن عبد الملك.

أشرس إلى ابن أبي العمرطة كتاباً جاء فيه: «.. فانظر من اختتن، وأقام الفرائض، وحسن إسلامه، وقرأ سورة من القرآن، فارفع عنه خراجه».

ثم عزل أشرس ابن أبي العمرطة عن الخراج، و صيَّره إلى هانئ بن هانئ، وضم إليه الأشحيذ... فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الجزية ممَّن أسلم، فكتب هانئ: إن الناس قد أسلموا و بنوا المساجد. فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا: ممَّن نأخذ الخراج، وقد صار الناس كلهم عرباً؟.

فكتب أشرس إلى هانئ وإلى العمال: خذوا الخراج ممَّن كنتم تأخذونه منه، فأعادوا الجزية على من أسلم، فامتنعوا، واعتزل من أهل الصغد سبعة آلاف، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند، وخرج إليهم أبو الصيداء، وربيع بن عمران التميمي، والقاسم الشيباني، وأبو فاطمة الأزدي، وبشر بن جرموز الضبي، وخالد بن عبدالله النحوي، وبشر بن زنبور الأزدي، وعامر بن بشير الخجندي، وبيان العنبري، وإسماعيل بن عقبة، لينصروهم.

قال: فعزل أشرس ابن أبي العمرطة عن الحرب، واستعمل مكانه المجشر بن مزاحم السلمي، وضَمَّ إليه عميرة بن سعد الشيباني. قال: فلما قدم المجشر كتب إلى أبي الصيداء يسأله أن يقدم عليه هو وأصحابه، فقدم أبو الصيداء وثابت قطنة، فحبسهما، فقال أبو الصيداء: غدرتم ورجعتم عمَّا قلتم!.

فقال له هانئ: ليس بغدر ما كان فيه حقن الدماء. (ثم) حمل أبا الصيداء إلى الأشرس، وحبس ثابت قطنة عنده، فلما حُمِل أبو الصيداء اجتمع أصحابه، وولَّوا أمرهم أبا فاطمة، ليُقاتلوا هانئاً.

فقال لهم: كفُّوا حتى أكتب إلى أشرس فيأتينا رأيه، فنعمل بأمره. فكتبوا إلى أشرس، فكتب أشرس: ضعوا عليهم الخراج.

فرجع أصحاب أبي الصيداء، فضعف أمرهم، فتتبَّع الرؤساء منهم فأُخِذوا، وحُملوا إلى (مرو)، وبقي ثابت محبوساً، وأشرك أشرس مع هانئ بن هانئ، سليمان بن

أبي السرى مولى بني عوافة في الخراج، فألحَّ هانئ والعمال في جبايه الخراج، ... وأخذوا الجزية ممَّن أسلم من الضعفاء، فكفرت الصغد وبخارى، واستجاشوا(١) الترك...»(٢).

ويعلق السيد حسن الأمين رَحِمَهُ اللهُ على هذه الحادثة فيقول: «لم يشأ هانئ هذا أن يُثقل ضميره فشهد بإسلامهم وإسراعهم إلى بناء المساجد، ولكن الإسلام وبناء المساجد ليسا ممَّا يُرضيان والي الأمويين، وما المساجد وما العرب وما المسلمون والإسلام، إذا كان ذلك يحول دون سلب الشعوب واستصفاء أموالها، فأصر الأشرس على أخذ الجزية ممَّن كانوا يأخذونها ولو حال ذلك دون انتشار الإسلام واستعراب الناس.

وممَّا يلفت النظر هنا أن الدهاقين -وهم مجوس- كانوا مع رأي الأشرس، وهذا يُؤكِّد أنه قد هالهم انتشار الإسلام، وخافوا المستقبل، وطغيان الدعوة الإسلامية... هؤلاء الدهاقين المجوس الذين كان الأمويون يولونهم جباية الخراج ويمنعون العرب والمسلمين من ذلك، يتَّفق رأيهم كل الاتّفاق مع الرأي الأموي في منع انتشار الإسلام.. فيُحرّضون الأمويين وعمَّالهم على هؤلاء الذين أسلموا، فيقولون: ممَّن نأخذ الخراج وقد أصبح الناس كلهم عرباً مسلمين.

لقد أحسّوا بالخطر قبل غيرهم، وخافوا على مجوسيتهم أن يجرفها الإسلام، فتصايحوا مغضبين: لقد أصبح الناس كلهم عرباً، وماذا يسوء الأشرس وسادته الأمويون إذا صار الناس كلهم مسلمين؟.

إنه عجيب على مَنْ لم يعلم أحداث هذه الدولة وموقفها الصحيح من الإسلام، ولكنه ليس بعجيب عند مَنْ يعلم ذلك، ليس بعجيب أن يتَّفق رأي الدهاقين المجوس مع رأي الأمويين من انتصار الإسلام.

ولا نستطيع إلَّا أن نُحيي (الورع الفاضل) أبا الصيداء وعصبته الخيِّرة الذين

---

(١) أي طلبوا منهم جيشاً.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٥٦.

أخرجهم معه ليُعينوه إذا لم يفِ الوُلاة (العمال)، فإنهم تضامنوا جميعاً مع أهل الصغد وذهبوا إلى السبعة آلاف الذين اعتزلوا لينصروهم ويتَّفقوا معهم. ولكن الوُلاة استدرجوا هؤلاء الأبرار فكان مصيرهم السجن والنفي والتشريد.

نعم، السجن والنفي والتشريد للذين دعوا إلى الإسلام، للذين أسلمت على أيديهم الأفواج، واستعربت بدعوتهم الألوف.

ثم كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك، النتيجة التي أرادها الأمويون وولاتهم، كانت النتيجة بنص الطبري: «فكفرت الصغد[1] وبخارى واستجاشوا الترك».

وقرَّت عيون الدولة (الإسلامية) فالدعاة إلى الإسلام في سجونها ومنافيها، والناس يخرجون من الإسلام ويعودون إلى مجوسيتهم ووثنيتهم، وهل تريد الدولة الأموية غير ذلك؟».

ويضيف: «ولكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، والبلاء كان أقوى ممَّا تتصوَّر، فإن كفر الصغد وبخارى واستجاشتهم الترك لم تمضِ مضياً سهلاً بل دفع المسلمون الثمن غالياً، دفعوه أكثر من سبعين ألف قتيل... دفعوه هناك لسيوف الصغد وبخارى وخاقان الترك على السفوح القفراء والسهوب[2] الجرداء والمفاوز المهلكة.

فإن الصغديين والبخاريين قرَّروا أن يردُّوا على الأشرس ردًّا جباراً... وتتابعت المعارك معركة بعد معركة، وفي كل منها تتساقط ألوف الأبطال صرعى في سبيل لا شيء، وحسبك أن معركة واحدة منها بقيادة سورة بن الحر التميمي[3] كان فيها اثنا عشر ألف شاب مسلم.. (وحين) التقى سورة وجيشه بخاقان الترك، لم

---

[1] (١) وردت بالسين (السغد)، في تاريخ الطبري، ج٧، ص٥٦، و: تجارب الأمم، ج٣، ص٤٢. وفي: الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٤٨. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ١٠٩. الصُّغْد. قال في معجم البلدان، ج٣، ص٤٠٩: «بالضم ثمّ السكون، وقد يقال بالسين مكان الصاد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان صغد سمرقند، وصغد بخارى..».

[2] (٢) السُّهْبُ مِن الأَرضِ: المُسْتَوِي في سُهُولَةٍ، والجمع سُهُوبٌ.

[3] (٣) أمير سمرقند، وأحد رؤساء تميم. أنظر: الأعلام، ج٣، ص١٤٥. الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٥٧.

ينجُ من الجيش الإسلامي سوى ألف، وذهب الباقون طعمة للسيوف وللنيران.

نعم للنيران، فإن نيراناً قد أُشْعِلت أمامهم في الحشائش والغابات. يقول الطبري: «وثار الغبار فلم يُبصروا، ومن وراء الترك اللهب فسقطوا فيه»⁽¹⁾. وقُتِل فيمن قُتِل سورة قائد الجيش، واستمرت المعارك وكان من أشدها هولاً معركة (الشعب) التي فني فيها الجيش الإسلامي وقتل منه خمسون ألف قتيل.

وفي ذلك يقول الشاعر:

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعة ... هزلى كأنهم في الحائط الحجل
وارحم وإلَّا فهبها أمة دمرت ... لا أنفس بقيت فيها ولا ثقل
لا تأملن بقاء الدهر بعدهم ... والمرء ما عاش ممدود له الأمل
لاقوا كتائب من خاقان معلمة ... عنهم يضيق فضاء السهل والجبل»⁽²⁾

بهذه الأبيات صوَّر الشاعر ضياع الأمة نفسها لا ضياع يتاماها فحسب.

ثم يقول السيد حسن الأمين رَحِمَهُ اللهُ تحت عنوان: الحكم الذي عارضه الشيعة: «هذه السياسية التي سار عليها الحكم الأموي، وهذه الأحداث التي رأينا مثالاً منها، هي التي عارضها التشيع ودعا إلى الرجوع إلى الصواب في حكم الشعوب ومعاملتها بالعدل، وتطبيق رسالة الإسلام عليها، التطبيق الذي أراده محمد بن عبدالله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وكانت نقمة الشعب نقمة عارمة، ولكنه كان محكوماً بالقهر، والسيف يسلط عليه، وعندما كانت تحين له أول فرصة، كان يُعبر عن نقمته بشتى ألوان التعبير، وعندما كان يجد للثورة المسلحة مجالاً كان لا يتأخر عنها»⁽³⁾.

وحول الكيفية التي كان الأمويون يعاملون بها أهل البلاد المفتوحة، يقول

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٧٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٥، ص٤٦٠-٤٦١. نقلًا بتصرف يسير.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٥، ص٤٦٣.

نقلاً عن الطبري⁽١⁾، وهو يحدِّث عن إحدى الحملات على بلاد الأتراك، وكان يقودها أحد أركان العهد الأموي يزيد بن المهلب: «دخل يزيد بن المهلب دهستان، فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي شيئاً لا يُحصى، ثم قبض على أربعة عشر ألف رجل تركي وقتلهم، وكتب بذلك إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك»⁽٢⁾.

وتحدث الطبري⁽٣⁾ في موضع آخر عن هجوم يزيد بن المهلب هذا على جرجان فقال: «قصد لجرجان، فأعطى الله عهدًا، لئن ظفر بهم ألَّا يُقلع عنهم، ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه».

ثم يصف الطبري⁽٤⁾ ما جرى بعد انتصار يزيد: «ونزل أهل جرجان على حكم يزيد بن المهلب، فسبى نسائهم وأولادهم، وقتل رجالهم، وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره، وساق منهم اثني عشر ألف رجل إلى وادي جرجان وقتلهم هناك وأجرى الماء في الوادى على الدم، وكان فيه مطاحن ليطحن بدمائهم، فطحن وخبز وأكل..». ويقول الطبري: «قتل يزيد من أهل جرجان أربعين ألفاً».

هذا ما فعله حاكم أموي واحد في بلدتين اثنتين فقط. وإليك ما فعله حاكم أموي آخر هو قتيبة بن مسلم حاكم خراسان. قال الطبري: إنه قتل نيزك بعدما أمّنه، وقتل معه اثني عشر ألفاً. وقال الطبري -أيضاً-: «إن قتيبة لما تغلَّب على ملك (خام جرد) جيء إليه بأربعة آلاف أسير فقتلهم، قتل أمامه ألف، وعن يمينه ألف، وعن يساره ألف، وخلف ظهره ألف».

ويقول الطبري⁽٥⁾ عن حاكم آخر من حكام الأمويين هو قحطبة بن شبيب:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٥٣٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٥، ص٤٦٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٥٤١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٥٤٣.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٤٠١.

«إنه قتل من أهل جرجان زهاء ثلاثين ألفاً». وقال الطبري(١) إن الجَرَّاح الحَكَمِي(٢) غزا أرض الترك ففتح (بلنجر)، وغرقهم وعامة ذراريهم في الماء، وسبوا ما شاؤوا.. وقال الطبري(٣) -أيضاً- وهو يروي عن الوالي الأموي ابن أبي العمرطة في إحدى غزواته لبلاد الترك: «ما أتونا بل أتيناهم وغلبناهم على بلادهم واستعبدناهم..»(٤).

الحرب بين الشمال والجنوب

أضف إلى ذلك ما ذكره المؤرخون كثيراً إلى درجة أن بعضهم اعتبره أحد الأسباب الرئيسة في انهيار الدولة الأموية، ألا وهي التفرقة العنصرية التي مارسوها بين أهل الشمال (المضريين) -نجد وأطرافها- وأهل الجنوب (اليمنيين) -قبائل ربيعة واليمن-، ولقد ظلَّت الحروب والعداوة منتشرة بين الفريقين منذ زمن معاوية وحتى زمن المأمون العباسي، وإذا كانت تخفُّ في بعض الفترات إلَّا أنها ظلَّت مستمرة على شكل مناوشات وثارات بين الطرفين.

فالقبيلة المضرية تقتل عشرين رجلاً من اليمنيين، وهؤلاء بدورهم إذا رأوا عشرين مضريًّا فإنهم يُبادرون إلى قتلهم حتى لو لم يكن لهم ناقة ولا جمل فيما يحدث.

كل ذلك كان يجري على عين ومرأى السلطة، وبتشجيع منها على استمراره.. بدلالة أنها -السلطة- عندما أرادت أن تُوقف هذه الحروب فإنها استطاعت. وقد حدث هذا في عهد هارون الرشيد عندما بعث جعفر البرمكي ليقوم بهذه المهمة فتوقَّفت الحرب. وإلى ما يقارب من العشرين سنة لم يحدث أن قُتل أحد من قِبَل أحد الطرفين، ولكن بعدها عاودت المعارك استمراريتها، بسبب بعض الخلفاء الذين غذّوا الخلافات مرة أخرى.. وعادت بذلك المجازر التي كانت تأخذ في

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٥.

(٢) أمير على أرمينية وأذربيجان (خراسان). وكان والياً على البصرة في زمن الحجاج. قتلته الترك. الأعلام، ج٢، ص١١٥. البداية والنهاية، ج٩، ص٢٣٤. شذرات الذهب، ج٢، ص٦٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص٣٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٥، ص٤٦٣-٤٦٤.

طريقها الأخضر واليابس، ويذهب ضحيتها النساء والشيوخ والأطفال والمساكين.

الفساد الإداري والمحسوبيات

كما كانت هناك الكثير من العصبيات الأخرى منتشرة في الدولة الإسلامية، وبالذات في الجهاز الحاكم المسيطر على مقاليد الأمور، ومن أبرز أمثلة ذلك وأكثرها وضوحاً أنه عندما كان أحد الأشخاص يصبح وزيراً، أو والياً، فإنّ هذا الأمر يستتبعه أن تُصبح كل المجموعة القريبة منه ذات أهمية، وتتولّى بذلك مناصب عالية، لا لشيء يمتازون به، أو كفاءة يمتلكونها، سوى قربهم من هذه الشخصية صاحبة الموقع والمنصب الحساس(١).

فهذا معاوية بن أبي سفيان يُؤمّر أبنه يزيد بن معاوية، ويجعله على رأس جيش من جيوش المسلمين الذاهبة للقتال ضد الروم(٢)، وفعلًا سار بهم ولكنه في الطريق وصل إلى منطقة ذات ماء عذب وهواء عليل، وفيها دير مرّان(٣) (وقديمًا كان في الأديرة -جمع دير- أنواع مختلفة من الخمور المعتَّقة)، فوجد يزيد ذلك فرصة مناسبة، حيث وجد له بالإضافة إلى ذلك عشيقة تُؤنسه وتُلاطفه(٤)، فاستقر هناك، وطاب له العيش في ذلك الدير، فتوقَّف الجيش فترة، فانتشر فيه الوباء وتحطَّمت نفسيات الجند والمقاتلين، وجاء البعض إلى يزيد لِيُحثَّه على الخروج والمسير لقتال الروم، ولكن يزيدَ رفض رفضًا قاطعًا، قائلاً:

---

(١) كان هذا واضحاً وبارزاً في خلافة الثالث، وقد مرَّ ما يؤكد ذلك في أول بحوث الكتاب، فراجعه.

(٢) أنظر: الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٥٨. أنساب الأشراف، ج٥، ص٨٦. تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص١٢. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٢٩. مروج الذهب، ج٣، ص٢٤. تاريخ مدينة دمشق، ج٧٠، ص٢٦٠. الأغاني، ج١٧، ص١٣٦.

(٣) من الأديرة المشهورة يقع بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران، وفي تاريخ مدينة دمشق: (ج٧٠، ص٢٦٠) دير سمعان، وهو -أيضًا- من نواحي دمشق وحواليه قصور منتزهات وبساتين لبني أمية. أنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٥٠-٢٥١.

(٤) هي: أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر. تذكر المصادر التاريخية أنها زوجته وعشيقته، قد هام فيها.

إذا ارتفقتُ على الأنماط مصطبحا بديرِ مرّانَ عندي أمّ كلثومِ
فما أبالي بما لاقت جنودهمُ بالغذقذونة(١) من حمىً ومن مومِ

إن هذا الجيش في ضخامته لو كان يُواجه البيزنطيين لكان من الممكن أن يقضي عليهم ويُسجِّل نهايتهم إلى الأبد، ولكن مع الأسف، إن القائد الذي كان يُمسك بزمام الأمور، لم يكن يملك ذرَّة من كفاءة ومقدرة على إنجاز ما وُجِّه إليه، ولذلك فلا غرابة أن يعود هذا الجيش منكسراً ذليلاً محطّماً نفسيًّا.

ومظهر آخر من مظاهر المحسوبية، وهو أنه إذا عُزل خليفة ما أو مات فإن الذي يحل مكانه كان أول ما يفعله هو أن يأتي على الأخضر واليابس ممَّا خلَّفه الذي سبقه في الحكم، إذ يُبادر في البدء إلى تغيير جميع الولاة ويستبدلهم بأهل بيته وخاصته، ليس لأنّ من يأتي بهم أصحاب كفاءة وتجربة وإنما لأنهم من أهله فقط. ويسبب بذلك الاضطراب والتوتر في البلاد الإسلامية، كما يدمر أوضاع الكثير من الأهالي. وعلى سبيل المثال: عندما جاء البرامكة إلى الحكم، أتوا حتى بأطفالهم ونصبوهم في مواقع حساسة في الدولة، وعندما جاء جماعة الفضل نصبوا الشخصيات التي تُواليهم في السلطة دون أدنى تقدير للكفاءة والقدرة(٢).

وقبل أولئك، نجد الحجاج بن يوسف الثقفي، عندما كان واليًا من قِبَل

---

(١) تقع في آسيا الصغرى.

(٢) حكم يحيى البرمكي مدة سبعة عشرة سنة، ويساعده -ومنذ نعومة أظفارهم- في إدارة شؤون الدولة العباسية أبناؤه الأربعة، وهم: الفضل، جعفر، محمد، موسى. قال اليعقوبي في تاريخه، ج٢، ص٤٢٩: «وكان الغالب على الرشيد يحيى بن خالد بن برمك، وجعفر والفضل إبناه، صدرًا من خلافته، حتى ما كان له معهم أمر ولا نهي، فأقاموا على تلك الحال، وأمور المملكة إليهم سبع عشرة سنة، ثم كان الفضل بن الربيع يغلب عليه، وإسماعيل بن صبيح، وعلى شُرَطِهِ القاسم بن نصر بن مالك، ثم عزله وولى خزيمة بن خازم، ثم عزله وولى المسيب بن زهير الضبي، ثم عزله واستعمل عبد الله بن مالك، ثم عزله واستعمل علي بن الجراح الخزاعي، ثم عزله، واستعمل عبد الله بن خازم، وكان على حرسه جعفر بن محمد بن الأشعث، ثم عزله واستعمل عبد الله بن مالك، ثم هرثمة بن أعين، وكان حاجبه الفضل ابن الربيع».

الأمويين على الكوفة⁽¹⁾، فإنه يُولِّ ابن عمِّه محمد بن القاسم الثقفي على السند⁽²⁾. وعندما جاء والٍ غيره، فإنّه سرَّح كل العمال الذين كان الحجاج قد عيَّنهم، وسجن قسماً آخر منهم⁽³⁾.

إذاً هكذا كانت الصورة على صعيد المحسوبيات التي كانت متفشية ومنتشرة في الجهاز الحاكم والمسيطر على مقاليد الأمور في البلاد الإسلامية.

الإرهاب الفكري

وشكّل الإرهاب الفكري جزءًا آخر من الصورة التي كانت تعيشها البلاد الإسلامية، هذا الإرهاب الفكري الذي سيطر وخيَّم على الوضع، حيث مارسه الخلفاء في أجلى صوره، وكُتب التاريخ مليئة بالشواهد والأمثلة، التي تحكي واقع هذا الإرهاب وانعكاساته السلبية على الحركة الثقافية، وعلى المفكرين المسلمين، وبالتالي على مصير الأمة الإسلامية ككل⁽⁴⁾.

---

(١) ولّي الحجاج -من قِبل عبدالملك بن مروان- ولاية الكوفة، وذلك عام ٧٨هـ، وفي ذات السنة عزل عبدالملك أمية بن عبدالله عن إمرة خراسان، وضمها إلى أعمال الحجاج مع سجستان فأصبح الحجاج واليًا على الكوفة وخراسان، فكان يعزل ويُعيّن من العمال، كما يرى ووفق مصالحه. أنظر: تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٣١٩. البداية والنهاية، ج٩، ص٢١.

(٢) عرف بفاتح السند، من كبار رجال بني أمية. أنظر: تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤٤٢. أنساب الأشراف، ج٩، ص١١٧. تاريخ الإسلام، ج٦، ص٢٥٧. الأعلام، ج٦، ص٣٣٣.

(٣) هو: سعيد بن عبدالعزيز بن الحرث، والي خراسان، عيّنه مسلمة بن عبدالملك بن مروان، الذي جمع له يزيد بن عبدالملك ولاية البصرة والكوفة وخراسان، قال ابن خلدون في تاريخه، ج٣، ص١٠١: «واستعمل مسلمة على خراسان صهره سعيد بن عبد العزيز بن الحرث.. ثمّ حبس سعيد (يقال له سعيد خذينه) عمّال عبدالرحمن بن عبدالله وأطلقهم، ثم حبس عمال يزيد بن المهلب، فعذبهم فمات بعضهم في العذاب، وبقي بعضهم بالسجن حتى غزاهم الترك والصغد فأطلقهم». أنظر أيضًا: تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٦٠٦.

(٤) قال المأمون بخلق القرآن، فحمل العلماء والناس على رأيه بالقهر والقوة، وسجن كل من لايقول بمقالته، وتبعه على ذلك المعتصم، والواثق. أنظر: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٦٣٤. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٦٨. تاريخ بغداد، ج٥، ص٣٨٦. حياة الحيوان الكبرى، ج١، ص١١٧.

فبالرغم من أن الإسلام جاء بشعار ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾(١) فإن الإرهاب الفكري قد ساد لفترات طويلة، ولو كانت الحرية هي السائدة في الدولة الإسلامية، لطرح الجميع آراءه، ولحصل تلاقح فكري على كل الأصعدة، ولنضجت الرؤى والأفكار بما يعود على المجتمع الإسلامي بالفوائد الجمة، ولحُلّت الكثير من الاختلافات الفكرية والفقهية التي نشأت بين المسلمين، ومن ثم لعادت على البشرية جمعاء بالفوائد الجمة الكثيرة.

إن التقدُّم العلمي الذي نشاهده في الدول الأوروبية اليوم، إنما تحقق الجزء الأكبر منه بسبب الحرية الفكرية التي سادت بعد العصور الوسطى. ففي عصر النهضة أنتجت الرؤى الناضجة، وساعدت الحرية الفكرية على تنميتها، بينما الذي حصل في الدول الإسلامية هو العكس، حيث ساد الإرهاب الفكري بسبب سيطرة الحكومات الظالمة المنحرفة(٢)، ممّا عرقل نمو الفكر البشري، وأوقف عملية نمو المسيرة الإسلامية.

دور الحركات الرسالية

إن الحركات الرسالية إنما كانت تُمثِّل محاولة جادة لإزالة كل هذه السلبيات من المجتمع، مستهدفة صهر كل أبناء البشر في بوتقة الإسلام على أساس قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣). وليس غريباً أنك تجد أن الإمام زين العابدين عليه السلام لا يضره أن يتزوج بواحدة من الإماء، وعندما يسمع عبد الملك بن

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) قال معاوية بن أبي سفيان لسفيان الغامدي: «إنّي باعثك بجيشٍ كثيفٍ ذي أداةٍ وجلادةٍ، فالزم لّي جانب الفرات حتّى تمرّ بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جُندًا فأغر عليهم، وإلاّ فامض حتّى تُغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جندًا فامض حتّى تغير على المدائن، ثمّ أقبل اليّ، واتّق أن تقرب الكوفة، واعلم أنّك ان أغرت على الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة، إنّ هذه الغارات ياسفيان على أهل العراق تُرعب قلوبهم، وتُفرح كلّ مَنْ له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كلّ ما خاف الدوائر، فاقتل كلّ مَنْ لقيته ممّن هو ليس على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى، وأحرِب الأموال فإنّ حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب». الغارات، ج٢، ص٤٦٦.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

مروان بذلك يبعث برسالة إليه يقول فيها: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي تَزْوِيجُكَ مَوْلَاتَكَ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ كَانَ فِي أَكْفَائِكَ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ تَمَجَّدُ بِهِ فِي الصِّهْرِ، وَتَسْتَنْجِبُهُ فِي الْوَلَدِ، فَلَا لِنَفْسِكَ نَظَرْتَ وَلَا عَلَى وُلْدِكَ أَبْقَيْتَ، وَالسَّلَامُ».

فيرد عليه الإمام زين العابدين عليه السلام: **«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تُعَنِّفُنِي بِتَزْوِيجِي مَوْلَاتِي، وَتَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي نِسَاءِ قُرَيْشٍ مَنْ أَتَمَجَّدُ بِهِ فِي الصِّهْرِ وَأَسْتَنْجِبُهُ فِي الْوَلَدِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وآله مُرْتَقًى فِي مَجْدٍ، وَلَا مُسْتَزَادٌ فِي كَرَمٍ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مِلْكَ يَمِينِي خَرَجَتْ مِنِّي، أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنِّي بِأَمْرٍ أَلْتَمِسُ بِهِ ثَوَابَهُ، ثُمَّ ارْتَجَعْتُهَا عَلَى سُنَّتِهِ، وَمَنْ كَانَ زَكِيًّا فِي دِينِ اللهِ فَلَيْسَ يُخِلُّ بِهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدْ رَفَعَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ الْخَسِيسَةَ، وَتَمَّمَ بِهِ النَّقِيصَةَ، وَأَذْهَبَ اللُّؤْمَ، فَلَا لُؤْمَ عَلَى امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِنَّمَا اللُّؤْمُ لُؤْمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالسَّلَامُ»**(١).

أي إن عملي هذا هو تكريس للقيم الإسلامية، وذلك بالاقتداء بالرسول صلّى الله عليه وآله، فالإسلام جاء ليرفع هذه الجاهليات. فإمام المسلمين هو الذي يجب أن يبدأ لكي يكون القدوة، فقيمة هذا العمل من الناحية الحضارية عظيمة، كما أنه يدفع الأمة إلى المعاني والقيم المثلى، لأن هذه التفرقة حينما تزول تبدأ الكفاءات بالعمل.

وحينما نقرأ التاريخ نجد أمامنا قائمة طويلة بأسماء العباقرة المسلمين، الذين ذاع صيتهم في العالم الإسلامي، وكانوا أفضل الأطباء والفلاسفة، والمحدثين، والمخترعين، وكان أكثرهم من أصول غير عربية، وكانوا ممّن يُسمّون بالموالي، وهؤلاء إنما برزوا بسبب بعض الفترات التي عاشت فيها الأمة الإسلامية نوعاً من الحرية الفكرية، حيث استطاع الإمام الصادق عليه السلام مثلاً، أن يبثّ من علومه، وأن يُخرّج عشرات العلماء في مختلف حقول المعرفة.

ولو قُدّر للأمة أن تعيش جو الحرية على امتداد الفترة التي حكم فيها الأمويون والعباسيون، لوجدنا من العباقرة والعلماء أضعاف ما وجدناهم في تاريخنا.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٦٤.

إننا نرى أن فاتح الأندلس، طارق بن زياد، الذي قاد جيش المسلمين إلى تلك الأرض، وأصبح كالجسر في حمل الحضارة الإسلامية إلى الغرب، كان رجلاً من الموالي(١). فالإسلام أطلق حرية هذا الرجل، وهو بدوره فجَّر طاقاته.

إن الفتوحات الإسلامية ممَّا لا شك فيه تختلف اختلافاً جذريًّا عن الاستعمار، فقد كان الإسلام في فتوحاته يستهدف رفعة تلك الشعوب. وفعلاً رأينا ذلك كثيراً، فقد كان المسلمون عندما يفتحون منطقة كانوا يتقدَّمون صوب منطقة أخرى وهم مدعومين بأبناء المنطقة التي افتتحت حديثاً، كما كانوا يُشاركونهم السَّرَّاء والضَّرَّاء في حياتهم، ولذلك فإن تلك المناطق التي فتحها الإسلام خرج منها الفلاسفة، والأطباء، والعلماء، والكثير من القيادات العسكرية التي لها أيادٍ بيضاء على مسيرة الإسلام.

هذه بعض القيم التي أراد الإسلام أن تتكرَّس، وهذه القيم هي التي حاربت من أجلها الحركة الرسالية والتي سقت بدماء أبنائها شجرتها حتى تبقى وتنمو.

ويبقى سؤال: إذا لم تكن الحركة الرسالية موجودة في التاريخ الإسلامي، فماذا كانت ستكون عليه البلاد آنذاك؟.

والجواب ببساطة: لو لم تكن الحركة الرسالية في التاريخ لكانت البلاد الإسلامية ومنذ ما يزيد عن ١٣٠٠ سنة في وضع يُشبه وضعها اليوم، حيث المسلمون مقهورون في كل مكان، وهم يُعانون من القهر والتخلّف.

لماذا تحطمَّت البلاد الإسلامية في القرن العشرين؟.

لأن القبيلة الفلانية التي تحكم ذلك الجزء من البلاد الإسلامية تحارب على مصالحها ضد الحزب الفلاني، الذي يُحاول أيضاً أن يزيد من أعضاء حزبه، ولأن الأمة الواحدة تحوَّلت إلى ألف جزء كما قال الشاعر:

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

---

(١) مولى موسى بن نصير، بربري من المغرب. تاريخ الإسلام، ج٦، ص٣٩٣.

فبينما يجب أن تكون الروابط بين دول العالم الإسلامي هي روابط التعاون والتكاتف، نجد أن علاقات بعضها ببعض هي علاقات تناحر وتطاحن، وهذا أكبر أسباب تحطم البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر.

إن العنصرية، والتفرقة، والإرهاب الفكري، كل ذلك مسببات أدَّت إلى جلب الويلات على رؤوسنا، ونزول الكوارث بنا في غابر الزمن وفي الوقت الحاضر.

إنّ الحركة الرسالية كانت تُدافع عن القيم السامية التي كانت رابطة للأمة، ومحوراً لوحدتها، ومنطلقاً لحضارتها، وكانت تكرس هذه القيم في ضمير الأمة، وحينما خمدت هذه الحركة، تفرَّقت البلاد الإسلامية شيئاً فشيئاً، وبدأ يسودها الإرهاب والعنصرية. وهذا شيء طبيعي، وسُنّة كونية أوجدها الله، ذلك لأن القيم الجاهلية تُمزِّق الأسرة الواحدة فكيف لا تُمزِّق البلدان المتحدة؟.

وبنظرة بسيطة إلى خارطة العالم الإسلامي اليوم نجد كيف تحوَّلت الأمة الواحدة إلى أوصال، كل قطعة معزولة عن الأخرى.

لماذا حدث كل هذا؟.

لأنّ الحركة التي كانت تجمعهم وتشد لحمتهم ذهبت، وقُضي عليها، وهي تلك التي كانت تُكرّس القيم الإسلامية، وبها تردع الدولة عن أي انحراف وخروج عن جادة الصواب.

إن جسم الإنسان يتكوَّن من لحم وعظام، والعظام هي التي تجمع الأعضاء وتعطيها هذا الشكل المتناسق، والحركة الرسالية في التاريخ كانت بمثابة الهيكل العظمي للإسلام. حافظت على وجوده، وحاولت أن تُقوِّم المسيرة أنّى اهتدت إلى ذلك سبيلاً.

ولو لم تكن الحركة الرسالية قائمة في الأمة الإسلامية لرأينا التخبط والانهيار منذ زمن بعيد. ولأصبحت الأمة كومة من اللحم. وإذا ما أصبحت لحماً فلا بد أن يستلمه الجزّار، وهذا هو عين ما حدث بعد مؤامرة تغييب الحركة الرسالية عن

الساحة، وحينما وُئِدت الحركة الرسالية تحوَّل المسلمون إلى جثث هامدة، بلا حركة وبلا روح، وكان الجزّارون حاضرين.

وحينما يقع الجمل تكثر سكاكينه كما يقول المثل المعروف، حيث إن الجمل يُضرب أولاً، بالسكين أو بالسيف على رقبته، فيقوم بالدوران والنطل، حتى ينهار. ونحن كُنَّا إبلاً سقطنا بعد أن نُحِرنا، فتكاثرت علينا الجموع تتناهبنا، وقد كانت بداية النحر هو ذلك اليوم الذي وُئِدت فيه الحركة الرسالية.

وهنا نطرح التساؤل التالي:

- ماذا كانت آثار الحركة الرسالية على الحضارة الإسلامية، وبالتالي على الحضارة الإنسانية جمعاء؟. ويتحدَّد السؤال أكثر عندما نقول: ماذا كانت آثار الحضارة الإسلامية على الحضارة الإنسانية؟.

للتعرُّف إلى شيء بسيط من هذه الآثار، فإن كتاب (شمس العرب تُشرق على الغرب)(١)، لإحدى المؤلفات الألمانيات، يُعطي صورة بسيطة من هذه الآثار، هذا الكتاب يحوي تتبُّعاً قليلاً لآثار الحضارة الإسلامية على كل علم مُتطوِّر.

إن التطوُّر العلمي الذي هو ليس ملكاً لأحد، هذا التطوُّر إنما هو وليد الحضارة الإسلامية. ولو لم تكن هناك حضارة إسلامية لما كانت الحضارة الإنسانية لتصل إلى كل هذا التطوُّر، وهذه الحقيقة ربما يتحسَّسها ويُؤمن بها أكثر منا، أولئك الباحثون في شؤون الحضارات والتاريخ، مثل: توينبي(٢) الباحث الإنجليزي الذي

---

(١) كتاب مترجم، للكاتبة الاستشراقية الألمانية: زجريد هونكة، حمل عنوان: شمس العرب تشرق على الغرب، أو: شمس الله تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا. نقله للعربية: فاروق بيضون، وكمال دسوقي.

(٢) أرنولد جوزيف توينبي، من أشهر مؤرخي القرن العشرين. ولد في لندن عام ١٨٨٩م، توفي عام ١٩٧٥م، كتب سلسلة سنوية في التاريخ الدولي، ومن أشهر أعماله: دراسة التاريخ. جاء في ١٢ مجلد، فسر قيام الحضارات على أساس التحدي والاستجابة، وينظر لما قاله بأن مجرى التاريخ تضبطه وتسيره قوى نفسية أكثر منها قوى مادية. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص١٠٧١.

يُؤكِّد كثيراً على هذه الحقيقة، لأنه بحث تاريخ الحضارات لمدة خمسين سنة، وتحسَّس بعمق وآمن بقوة بهذه الحقيقة.

ومِمَّا لا شك فيه ومن خلال دراستنا لتاريخ الحركة الرسالية نجد أن الحضارة الإسلامية بدورها كانت وليدة هذه الحركة وظلّت رهينة لها.

من خلال تلك الدراسة نعرف أن الإمام الحسين عليه السلام حينما استُشهد في كربلاء، كان يسقي بدمه ملايين الملايين من البشر ليُحييهم، لقد كانت شهادته من أجل القيم التي نُكرِّرها:

١- قيمة الوحدة، والعدالة، والأخوة، والتي تعارضها العنصرية.
٢- قيمة الاهتمام بالكفاءات، وتعارضها المحسوبية، والقيادات غير الكفوءة التي كانت تحكم الأمة الإسلامية.
٣- قيمة الحرية الفكرية، والتي يُعارضها الإرهاب الفكري.
٤- المساواة بين جميع الطبقات وجميع الألوان، والتي دافعت عنها الحركة الرسالية وعمل الأئمة الأطهار عليهم السلام في سبيلها.

ولو قُدِّر للحركة الرسالية، أن تستلم الحكم في عهد أئمة أهل البيت عليهم السلام لكانت عملت من التغيير والعطاء أكثر مِمَّا يتصوُّره الإنسان.

ويبقى سؤال هو: إن الذين ورثوا الكتاب، وورثوا تاريخ الرسالة، وورثوا الحركة الرسالية، والذين يعتقدون أنهم في خطِّها، هل استطاعوا أن يُؤدُّوا ما عليهم من واجبات الوراثة؟. وهل هم الآن رُوَّاد الحضارة الإسلامية والإنسانية؟. وهل هم الآن يُدافعون عن الحرية والمساواة والعدالة أم لا؟.

نسأل الله القدير أن يُوفِّقني والقراء الكرام لهذا العمل العظيم.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، وعلى مَنْ اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

صَفوُ الكَلامِ

* كانت الحركة الرسالية تدافع عن القيم السامية التي كانت رابطة للأمة، ومحوراً لوحدتها، ومنطلقاً لحضارتها، وحينما خمدت هذه الحركة تفرّقت البلاد الاسلامية، وبدأ يسودها الإرهاب والعنصرية.

* إن الحضارة الإنسانية هي وليدة الحضارة الإسلامية -باعتراف الغربيين قبل غيرهم- والحضارة الإسلامية هي وليدة القيم الإسلامية السامية التي جاهدت الحركة الرسالية في سبيل تكريمها في ضمير الأمة.

قائمة المصادر والمراجع في التحقيق

١. **ابن أبي الحديد**، عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين المدائني، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى.

٢. **ابن الأثير**، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ**، الناشر: دار صادر ودار بيروت، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م، الطبعة الأولى.

٣. **ابن الجوزي**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى.

٤. **ابن حزم**، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: لجنة من العلماء، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

٥. **ابن حمدون**، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن على، **التذكرة الحمدونية**، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

٦. **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، المشهور بـ(تاريخ بن

خلدون)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الطبعة الثانية.

٧. **ابن خلّكان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

٨. **ابن الصَّبّاغ**، الشيخ الإمام علي بن محمد المالكي المكي، **الفصول المهمة في معرفة الأئمة** عليهم السلام، حققه ووثق أصوله وعلق عليه: الأستاذ سامي الغريري (الغراوي)، الناشر: مؤسسة دار الحديث للطباعة والنشر، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

٩. **ابن الصُّوفي**، العلّامة النسّابة الشريف نجم الدين أبي الحسن علي العلوي العمري الأطرفي، المجدي في أنساب الطالبيين، تقديم آية الله العظمى السيد المرعشي النجفي، تحقيق: الدكتور أحمد مهدوي دامغاني، الناشر: مكتبة المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعةالثانية.

١٠. **ابن الطقطقي**، محمد بن علي بن طباطبا، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تحقيق: عبدالقادر محمد مايو، الناشر: دار القلم العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

١١. **ابن عباد**، الصاحب، **الزيدية**، تحقيق الدكتور: ناجي حسن، الناشر: الدار العربية للموسوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

١٢. **ابن عبد البر**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى.

١٣. **ابن عبد ربه**، شهاب الدين أبو عمرو أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى.

١٤. **ابن عساكر**، أبو القاسم على بن حسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، **تاريخ مدينة دمشق**، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى.

١٥. **ابن عساكر**، أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، تاريخ مدينة دمشق. الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ. الطبعة الأولى.

١٦. **ابن العمراني**، محمد بن علي بن محمد، **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، تحقيق: قاسم السامرائي، الناشر: دار الآفاق العربية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

١٧. **ابن عنبة**، عمدة النسابين جمال الدين أحمد بن علي الحسني، **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب** عليهم السلام، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى.

١٨. **ابن الغضائري**، أحمد بن الحسين بن عبيدالله الواسطي البغدادي، **الرجال**، تحقيق: السيد محمد رضا الحسيني الجلالي، الناشر: مؤسسة دار الحديث، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

١٩. **ابن الفقيه**، أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني، **البلدان**، الناشر: عالم الكتب، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى.

٢٠. **ابن قتيبة**، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **المعارف**، تحقيق: ثروت عكاشة، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٩٢م، الطبعة الثانية.

٢١. **ابن كثير الدمشقي**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

٢٢. **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، حققه

وصححه: أحمد فارس - صاحب الجوائب، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر - دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة.

٢٣. أبو زهرة، الإمام محمد، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسية والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، الناشر: دار الفكر العربي، مصر - القاهرة، لم يذكر تاريخ النشر.

٢٤. **أبو الفداء**، المؤيد عماد الدين إسماعيل، **المختصر في أخبار البشر** (تاريخ أبي الفداء)، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة - مصر، لم يذكر تاريخ النشر والطبعة.

٢٥. أرنولد، سير ت، **الدعوة إلى الإسلام.. بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٤٧م، الطبعة الأولى.

٢٦. **الأشعري**، أبو الحسن علي بن إسماعيل، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، الناشر: المكتبة العصرية، لبنان - صيدا، سنة النشر: ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٢٧. **الأصفهاني**، أبو الفرج علي بن الحسين، **الأغاني**، الناشر: دار إحياء التراث، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى.

٢٨. **الأصفهاني**، أبو الفرج علي بن الحسين، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعرفة، لبنان - بيروت، مجهولة التاريخ.

٢٩. **الأصفهاني**، الميرزا عبدالله أفندي، **تعليقة أمل الآمل**، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى.

٣٠. **آل علي**، الدكتور نور الدين، **الإمام الصادق عليه السلام كما عرفه علماء الغرب**، راجعه: الأستاذ وديع فلسطين، الناشر: مكتبة الألفين - الكويت، مؤسسة الوفاء - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

٣١. **آل ياسين**، الإمام المجاهد الشيخ راضي، **صلح الحسن** عليه السلام، تصدير: آية الله السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، الناشر: ناصر خسرو، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، الطبعة الرابعة.

٣٢. **الأمين**، العلامة السيد محسن، **أعيان الشيعة**، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى.

٣٣. **الأمين**، حسن، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الطبعة الخامسة.

٣٤. **الأمين**، حسن، **الإمام الرضا** عليه السلام **والمأمون وولاية العهد.. وصفحات من التاريخ العباسي**، الناشر: دار الجديد، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

٣٥. **باشا**، إبراهيم فوزي، **السودان بين يدي غردُون وكتشنر**، الناشر: المؤلف وجريدة المؤيد، سنة النشر: ١٣١٩هـ. الطبعة الأولى.

٣٦. **البرقي**، أبو جعفر أحمد بن أبي عبدالله، **كتاب الرجال**، الناشر: مؤسسة النشر في جامعة طهران، طهران - إيران، سنة النشر: ١٣٨٣هـ، الطبعة الأولى.

٣٧. **بروكلمان**، كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس - منير البعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٦٨م، الطبعة الخامسة.

٣٨. **البسوي**، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، الطبعة الثانية.

٣٩. **البصري** (ابن سعد)، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٤٠. **البغدادي**، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.

٤١. **البغدادي**، يوسف بن فرغلي بن عبدالله (سبط ابن الجوزي)، **تذكرة الخواص**، تقديم: العلامة الكبير السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: مكتبة نينوى الحديثة، إيران - طهران، لم يذكر سنة النشر.

٤٢. **البغدادي** (السويدي)، الشيخ الفاضل محمد أمين، **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب**، الناشر: دار إحياء العلوم، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة النشر.

٤٣. **البلاذري**، أبو الحسن أحمد بن يحيى، **فتوح البلدان**، الناشر: دار ومكتبة الهلال، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

٤٤. **البلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار، ورياض الزركلي، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

٤٥. **البهلولي**، القاضي الإمام جعفر بن أحمد بن عبد السلام اليماني، **تيسير المطالب في أمالي أبي طالب**، الناشر: مؤسسه الإمام زيد بن علي، اليمن - صنعاء، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

٤٦. **تامر**، الدكتور عارف، **الإمامة في الإسلام**، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

٤٧. **تامر**، الدكتور عارف، **تاريخ الإسماعيلية**، الناشر: دار رياض الريّس للكتب والنشر، لندن - قبرص، سنة النشر: ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

٤٨. **التبريزي**، العلامة الرجالي آية الله ملا علي العلياري، **بهجة المقال في شرح زبدة المقال**، الناشر: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ومؤسسة المعارف الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٩٥هـ، الطبعة الأولى.

٤٩. **التستري**، العلامة المحقق آية الله العظمى الشيخ محمد تقي، **قاموس الرجال**، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٣٢هـ، الطبعة الخامسة.

٥٠. **التفرشي**، الرجالي المحقق السيد مصطفى بن الحسين الحسيني، **نقد الرجال**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى.

٥١. **الثقفي**، إبراهيم بن محمد الكوفي، **الغارات أو الاستنفار والغارات**، تحقيق: جلال الدين الحسيني الأرموي، الناشر: لجنة الآثار الوطنية، إيران، طهران، سنة النشر: ١٩٧٤م، الطبعة الأولى.

٥٢. **الجاحظ**، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، **الرسائل السياسية**، الناشر: دار ومكتبه هلال، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الثانية.

٥٣. **جدعان**، الدكتور فهمي، **أسس التقدم عند فكري الإسلام في العالم العربي الحديث**، الناشر: دار الشروق، الأردن - عمان، سنة النشر: ١٩٨٨م، الطبعة الثالثة.

٥٤. **الجزري**، عز الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمد، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

٥٥. **جعفريان**، رسول، **الشيعة في إيران دراسة تاريخية**، تعريب: علي هاشم الأسدي، الناشر: مؤسسة النشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، إيران - مشهد المشرفة، سنة النشر: ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

٥٦. **الجلالي**، السيد محمد حسين الحسيني، **فهرس التراث**، تحقيق: محمد جواد الحسيني الجلالي، الناشر: دليل ما، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

٥٧. **الجلالي**، السيد محمد حسين الحسيني، **مزارات أهل البيت عليهم السلام وتأريخها**، الناشر: الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة النشر: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، الطبعة الثالثة.

٥٨. **الجمحي**، محمد بن سلام، **طبقات فحول الشعراء** (السفر الأول)، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، لم يذكر اسم الناشر، أو سنة النشر.

٥٩. **الجهشياري**، أبو عبدالله محمد بن عبدوس، **الوزراء والكُتّاب**، تقديم: الدكتور حسن الزين، الناشر: دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

٦٠. **الحائري**، العلامة الفاضل محمد بن علي الأردبيلي الغروي، **جامع الرواة وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد**، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

٦١. **الحر العاملي**، المحدث الكبير والعلامة المحقق الشيخ محمد بن الحسن، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.

٦٢. **الحر العاملي**، المحدث الكبير والعلامة المحقق الشيخ محمد بن الحسن، **أمل الآمل في علماء جبل عامل**، الناشر: مكتبة الأندلس، العراق - بغداد، سنة النشر: ١٣٨٥هـ، الطبعة الأولى.

٦٣. **الحراني**، الشيخ أبو محمد حسن بن علي بن حسين بن شعبة، **تحف العقول عن آل الرسول** ﷺ، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية.

٦٤. **حرز الدين**، المؤرخ الكبير آية الله الشيخ محمد، **مراقد المعارف في تعين مراقد العلويين والصحابة والتابعين**، علق عليه وحققه: محمد حسين حرز الدين، الناشر: انتشارات سعيد بن جبير، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٨٠هـ. الطبعة الأولى.

٦٥. حسن، الدكتور حسن إبراهيم - شرف، الدكتور طه أحمد، عُبيدالله المهدي **إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب**، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م، الطبعة الأولى.

٦٦. **حسن**، الدكتور حسن إبراهيم، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي**

والاجتماعي، الناشر: دار الجيل - مكتبة النهضة المصرية، لبنان - بيروت، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، الطبعة الخامسة عشر.

٦٧. **الحسني**، السيد هاشم معروف، **الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ**، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٦٨. **حسين**، الدكتور محمد كامل، **طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها**، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٥٩م، الطبعة الأولى.

٦٩. **الحلّي**، السيد رضي الدين علي بن طاووس، **الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف**، الناشر: مطبعة الخيام، قم المقدسة - إيران، سنة النشر: ١٤٠٠ هـ، الطبعة الأولى.

٧٠. **الحلّي**، العلامة أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي، **خلاصة الأقوال في معرفة الرجال**، تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: نشر الفقاهة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

٧١. **الحلّي**، العلامة نجم الدين جعفر بن حسن، **المعتبر في شرح المختصر**، حققه وصححه: محمد علي الحيدري، السيد مهدى شمس الدين، السيد أبو محمد المرتضوي، السيد علي موسوي. الناشر: مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، قم المقدسة، إيران، تاريخ نشر: ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى.

٧٢. **الحلّي**، تقي الدين الحسن بن علي بن داود، **كتاب الرجال**، الناشر: مؤسسة النشر في جامعة طهران، طهران - إيران، سنة النشر: ١٣٨٣هـ، الطبعة الأولى.

٧٣. **الحلّي**، العلامة نجم الدين جعفر بن الحسن، **شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام**، حققه وصححه: عبدالحسين محمد علي بقال، الناشر: موسسة إسماعيليان، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية.

٧٤. **الحموي**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، **معجم البلدان**، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.

٧٥. **الحميري**، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، الناشر: مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٤م، الطبعة: الثانية.

٧٦. **الحنبلي الدمشقي**، ابن العماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العكري، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

٧٧. **حيدر**، العلامة الشيخ أسد، **الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة**، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.

٧٨. **خسرو شاهي**، إعداد وتقديم: السيد هادي، **أهل البيت عليهم السلام في مصر**، بأقلام: مجموعة من الباحثين، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى.

٧٩. **الخصيبي**، أبو عبدالله الحسين بن حمدان، **الهداية الكبرى**، الناشر: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، سنة النشر: ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الطبعة الرابعة.

٨٠. **الخطيب البغدادي**، أبو بكر أحمد بن على بن ثابت أحمد بن مهدي، **تاريخ بغداد**، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

٨١. **الخوئي**، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي، **معجم رجال الحديث**، الناشر: مركز نشر الثقافة الإسلامية، قم المقدسة - إيران، سنة النشر: ١٤١٤هـ، الطبعة الخامسة.

٨٢. **الدجيلي**، جمع بحوثها: جعفر، **موسوعة النجف الأشرف**، إشراف: لجنة من رجال الفكر والعلم والأدب، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، الطبعة الأولى.

٨٣. **الدّميري**، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، **حياة الحيوان الكبرى**، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٤هـ، الطبعة الثانية.

٨٤. **الدَّيبع**، عبدالرحمن بن علي، **الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد**، الناشر: مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، سنة النشر: ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

٨٥. **الدينوري**، أبو حنيفة أحمد بن داود، **الأخبار الطوال**، تحقيق: عبد المنعم عامر، ومراجعة جمال الدين الشيال، الناشر: منشورات الرضي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

٨٦. **الدينوري**، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة المعروف بـ(تاريخ الخلفاء)**، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ،١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٨٧. **الدينوري**، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، دار الحديث، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

٨٨. **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، الطبعة الحادية عشرة.

٨٩. **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، الطبعة الثانية.

٩٠. **الرازي**، أبو علي مسكويه، **تجارب الأمم**، تحقيق: أبو القاسم إمامي، الناشر: دار سروش، إيران - طهران، سنة النشر: ٢٠٠٠م، الطبعة الثانية.

٩١. **الراوندي**، الفقيه والمحدث الكبير الشيخ قطب الدين، **الخرائج والجرائح**، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدسة، إيران، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.

٩٢. **الزبيدي**، محب الدين السيد محمد مرتضى الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، حققه وصححه: علي الشبري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.

٩٣. **الزركلي**، خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، الناشر: دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٩م، الطبعة الثامنة.

٩٤. **زيدان**، جرجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، علق عليه: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار الهلال، مصر - القاهرة، لم يذكر سنة النشر والطبعة.

٩٥. **السبحاني**، الأستاذ المحقق الشيخ جعفر، **بحوث في الملل والنحل دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية**، الناشر: مؤسسة الصادق عليه السلام، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى.

٩٦. **السبحاني**، الأستاذ المحقق الشيخ جعفر، **كليات في علم الرجال**، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٥هـ الطبعة الثانية.

٩٧. **السبحاني**، بإشراف الأستاذ المحقق الشيخ جعفر، **موسوعة طبقات الفقهاء**، تأليف: اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

٩٨. **السياغي**، القاضي العلامة شرف الدين الحسين بن أحمد، **الروض النضير في شرح مجموع الفقه الكبير**، الناشر: مطبعة السعادة، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٣٤٨هـ، الطبعة الأولى.

٩٩. **السيوطي**، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، **تاريخ الخلفاء**، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

١٠٠. **السيوطي**، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، **جامع الأحاديث**، جمع وترتيب: عباس أحمد صقر، أحمد عبدالجواد، بإشراف: مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق - سورية، لم يذكر سنة النشر ورقم الطبعة.

١٠١. **الشافعي**، كمال الدين محمّد بن طلحة بن الحسن القرشي العدوي النصيبي، **مطالب السؤول في مناقب آل الرسول** عليهم السلام، تحقيق: ماجد أحمد العطية، الناشر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، قم المقدسة - إيران، سنة النشر: ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

١٠٢. **الشافعي**، محمّد بن يوسف الكنجي، **البيان في أخبار صاحب الزمان** عليه السلام، (كتاب ملحق بكتاب: كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام) تحقيق وتصحيح وتعليق: محمد هادي الأميني، الناشر: دار احياء تراث أهل البيت عليهم السلام، طهران - إيران، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة.

١٠٣. **الشاهرودي**، العلامة المحقق الشيخ علي النمازي، **مستدركات علم رجال الحديث**، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، الطبعة الأولى.

١٠٤. **الشرقاوي**، عبدالرحمن، **أئمة الفقه التسعة**، الناشر: دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

١٠٥. **الشريف الرضي**، أبو الحسن محمد بن حسين الموسوي، **ديوان الشريف الرضي**، الناشر: منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى.

١٠٦. **شلبي**، الدكتور أحمد، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٨٧م، الطبعة الثانية عشر.

١٠٧. **الشهرستاني**، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد، **الملل والنحل**،

تحقيق: أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، الناشر: دار المعرفة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، الطبعة الثالثة.

١٠٨. **الشوشتري**، القاضي نور الله، **إحقاق الحق وإزهاق الباطل**، الناشر: مكتبه آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ.ق. الطبعة الأولى.

١٠٩. **الصدوق**، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **الخصال**، تصحيح وتحقيق وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية.

١١٠. **الصدوق**، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **كمال الدين**، تصحيح وتحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٩٥هـ، الطبعة الثانية.

١١١. **الصفدي**، صلاح الدين خليل بن أبيك، **الوافي بالوفيات**، حققه واعتنى به: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

١١٢. **الطباطبائي**، سيد الطائفة محمد المهدي بحر العلوم، **رجال السيد بحر العلوم (الفوائد الرجالية)**، حققه وعلق عليه: محمد صادق بحر العلوم وحسين بحر العلوم، الناشر: مكتبة الصادق، إيران - طهران، سنة النشر: ١٣٦٣هـ، الطبعة الأولى.

١١٣. **الطبرسي**، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٩٠هـ، الطبعة الثالثة.

١١٤. **الطبرسي**، الشيخ أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، **الاحتجاج**، تحقيق وتعليق: السيد محمد باقر الموسوي الخرسان، السيد الناشر: نشر المرتضى، إيران - مشهد المشرفة، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

١١٥. **الطبرسي**، خاتمة المحدثين الشيخ الميرزا حسين النوري، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٨هـ. الطبعة الأولى.

١١٦. **الطبرسي**، خاتمة المحدثين الشيخ الميرزا حسين النوري، **خاتمة مستدرك الوسائل**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٥هـ. الطبعة الأولى.

١١٧. **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار التراث، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.

١١٨. **الطبسي**، الشيخ محمد جعفر و: المولائي، الشيخ عزت الله، **الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء**، الناشر: مركز الدراسات الإسلامية لممثلية الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية، طهران - إيران، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

١١٩. **الطهراني**، الشيخ آغا بزرك، **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، الناشر: إسماعيليان والمكتبة الإسلامية، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٠٨هـ. الطبعة الأولى.

١٢٠. **الطوسي**، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، **اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)**، تحقيق وتصحيح: محمد تقي فاضل الميبدي، السيد أبو الفضل الموسويان، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، مؤسسة الطباعة والنشر، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ الطبعة الأولى.

١٢١. **الطوسي**، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، **الفهرست**، تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مؤسسة نشر الفقاهة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

١٢٢. **الطوسي**، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، **رجال الشيخ الطوسي**، تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، الطبعة الأولى.

١٢٣. **الطوسي**، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، **كتاب الغيبة**، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.

١٢٤. **ظاهر**، العلامة الشيخ سليمان، **تاريخ الشيعة السياسي، الثقافي، الديني**، حققه وضبطه: عبدالله سليمان ظاهر، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

١٢٥. **العاملي**، السيد جعفر مرتضى، **الصحيح من سيرة الإمام علي** عليه السلام **(المرتضى من سيرة المرتضى)**، الناشر: المركز الإسلامي للدراسات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٢٦. **العاملي**، المحقق السيد جعفر مرتضى، **دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام**، الناشر: مركز جواد، للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، الطبعة الثالثة.

١٢٧. **عرديه**، لويس - ج. قنواتي، **فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية**، نقله إلى العربية: الشيخ الدكتور صبحي الصالح - الأب الدكتور فريدجبر، الناشر: دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٧٩م، الطبعة الثانية.

١٢٨. **العسقلاني**، أحمد بن علي بن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

١٢٩. **العسقلاني**، أحمد بن علي بن حجر، **لسان الميزان**، تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند، الناشر: موسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، الطبعة الثالثة.

١٣٠. **العلوي**، العلامة المحقق السيد محمد بن عقيل، **النصائح الكافية**، تحقيق

وتدقيق: غالب الشابندر، راجعه: ع. ح. الخطيب، الناشر: مؤسسة الفجر، لندن – بيروت، سنة النشر: ١٤١٢هـ-١٩٩١م، الطبعة الأولى.

١٣١. **علي**، محمد كرد، **الإسلام والحضارة العربية**، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر – القاهرة، سنة النشر: ١٩٦٨م، الطبعة الثالثة.

١٣٢. **علي**، محمد كرد، **خطط الشام**، الناشر: مكتبة النوري، سورية – دمشق، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.

١٣٣. **غالب**، الدكتور مصطفى، **تاريخ الدعوة الإسماعلية**، الناشر: دار الأندلس، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٩٦٥م، الطبعة الثانية.

١٣٤. **الفراهيدي**، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي – الدكتور إبراهيم السامرائي، الناشر: منشورات الهجرة، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الثانية.

١٣٥. **فلهورن**، يوليوس، **تاريخ الدول العربية.. من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية**، نقله عن الألمانية وعلق عليه: الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدّه، راجع الترجمة: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر – القاهرة، سنة النشر: ١٩٦٨م، الطبعة الثانية.

١٣٦. **الفيروزآبادي**، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، **القاموس المحيط**، (نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، الطبعة الأولى.

١٣٧. **القائيني**، السيد أبو طالب الحسيني، **اللؤلؤة الغالية في أسرار الشهادة**، تحقيق: جعفري، الناشر: مديرية الأوقاف والأمور الخيرية – طهران، انتشارات أسوة، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، الطبعة الأولى.

١٣٨. **القرشي**، الداعي إدريس عماد الدين، **زهر المعاني**، تقديم وتحقيق: الدكتور مصطفى غالب، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، سنة النشر: ١٤١١هـ-١٩٩١م، الطبعة الأولى.

١٣٩. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام الحسن العسكري** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٠. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام الحسن بن علي** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤١. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام الحسين بن علي** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٢. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام جعفر بن محمد الصادق** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، **الطبعة الأولى**.

١٤٣. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام علي الهادي** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٤. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام علي بن الحسين** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٥. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام علي بن موسى** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٦. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام محمد الباقر** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٧. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام محمد الجواد** عليه السلام **دراسة**

وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٨. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الإمام موسى بن جعفر** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٤٩. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **زيد بن علي** عليه السلام **دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٥٠. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **الشهيد الخالد.. مسلم بن عقيل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٥١. **القرشي**، العلامة الشيخ باقر شريف، **المختار الثقفي دراسة وتحليل**، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار الذخائر الإسلامية، سنة النشر: ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، الطبعة الرابعة.

١٥٢. **القزويني**، العلامة الخطيب السيد محمد كاظم، **الإمام المهدي** عليه السلام **من المهد إلى الظهور**، الناشر: منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

١٥٣. **القلقشندي**، القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة النشر.

١٥٤. **القلقشندي**، القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد، **مآثر الأناقة في معالم الخلافة**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، الناشر: عالم الكتب، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة النشر.

١٥٥. **القمي**، المحدث الشيخ عباس، **منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل** عليهم السلام، و: **تتمة المنتهى**، ترجمة: نادر تقي، الناشر: محبين، توزيع: مكتبة فدك -

مكتبة الصفا، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، الطبعة الثالثة.

١٥٦. **القيرواني**، إبراهيم بن علي الحصري، **زهر الآداب وثمر الألباب**، الناشر: دار الجليل، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة الطبع.

١٥٧. **القندوزي**، العلامة الفاضل الشيخ سليمان بن الشيخ إبراهيم البلخي، **ينابيع المودة**، صححه وعلق عليه: علاء الدين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، سنة النشر: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

١٥٨. **الكاظمي**، العلامة المحقق الشيخ عبدالنبي، **تكملة الرجال**، تحقيق وتقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: دار أنوار الهدى، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، الطبعة الأولى.

١٥٩. **الكاظمي**، المولى المقدس محمد أمين، **هداية المحدثين إلى طرائق المحمدين**، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، باهتمام: السيد محمود المرعشي، الناشر: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

١٦٠. **الكردي**، الإمام حافظ الدين محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز، **مناقب الإمام الأعظم أبو حنيفة**، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند - حيدر آباد، سنة النشر: ١٣٢١هـ، الطبعة الأولى.

١٦١. **الكليني**، المحدث الشيخ محمد بن يعقوب، **الكافي**، **(الأصول والفروع والروضة)**، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، سنة النشر: ١٣٦٥هـ.ش. الطبعة الأولى.

١٦٢. **الكوفي**، أبو محمد أحمد بن أعثم، **الفتوح**، تحقيق: علي شيري، الناشر: دارالأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

١٦٣. **لكهنوي**، مير حامد حسين، **عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار** عليهم السلام،

الناشر: كتابخانه عمومي إمام أمير المومنين علي عليه السلام، إيران - أصفهان، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية.

١٦٤. **الليثي العصفري**، أبو عمرو الخليفة بن خياط بن أبي هبيرة الملقب بشباب، **تاريخ الخليفة بن خياط**، تحقيق: فواز، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

١٦٥. **الليثي**، الدكتورة سميرة مختار، **جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول**، وثق أصوله وحققه وعلق عليه: الأستاذ سامي الغريري (الغراوي)، الناشر: انتشارات كلمة الحق، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.

١٦٦. **المازندراني**، الرجالي الخبير الشيخ محمد بن إسماعيل (أبو علي الحائري)، **منتهى المقال في أحوال الرجال**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى.

١٦٧. **المازندراني**، رشيد الدين محمد بن شهر آشوب، **معالم العلماء**، الناشر: منشورات المطبعة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، سنة النشر: ١٣٨٠هـ، الطبعة الأولى.

١٦٨. **المازندراني**، رشيد الدين محمد بن شهر آشوب، **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق وتصحيح وتعليق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الناشر: مؤسسة العلامة للنشر، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٧٩هـ، الطبعة الأولى.

١٦٩. **المجلسي**، العلامة المولى الشيخ محمد باقر، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، الناشر: مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الرابعة.

١٧٠. **محفوظ**، الدكتور محمود محمد، ومجموعة من الخبراء والعلماء، **الموسوعة العربية الميسرة**، الناشر: الجمعية المصرية لنشر والمعرفة والثقافة العالمية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م، الطبعة الثالثة.

١٧١. **محمدي**، عبد الله، و: رحيميان، محمد حسين، **الحقائق من الصواعق**،

الناشر: دليل ما، إيران - قم القدسة، سنة النشر: ١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى.

١٧٢. المزي، الحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، حققه وضبط نصّه وعلق عليه: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

١٧٣. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: أسعد داغر، الناشر: دار الهجرة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الثانية.

١٧٤. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، **التنبيه والإشراف**، تصحيح: عبدالله إسماعيل الصاوي، الناشر: دار الصاوي، مصر - القاهرة، مجهولة التاريخ.

١٧٥. المظفر، العلامة الشيخ محمد حسين، **تاريخ الشيعة**، الناشر: دار الزهراء للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، الطبعة الثانية.

١٧٦. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان، **الاختصاص**، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، إيران - قم المقدسة، سنة النشر ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى.

١٧٧. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، إيران - قم المقدسة، سنة النشر ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى.

١٧٨. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الناشر: مكتبة مدبولي، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤١١هـ، الطبعة الثالثة.

١٧٩. المقدسي، مطهر بن طاهر، **البدء والتاريخ**، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر - بور سعيد، مجهولة التاريخ.

١٨٠. المقرم، العلامة الحجة السيد عبدالرزاق الموسوي، **زيد الشهيد - تنزيه**

المختار، الناشر: المكتبة الحيدرية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، الطبعة الأولى.

١٨١. **المقرم**، العلامة الحجة السيد عبدالرزاق الموسوي، **الشهيد مسلم بن عقيل**، الناشر: مكتبة الألفين، الكويت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى.

١٨٢. **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، الطبعة الثانية.

١٨٣. **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)**، تحقيق: الدكتور محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، راجعه وضبط هوامشه: أحمد أحمد زيادة، الناشر: مكتبة مدبولي، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

١٨٤. **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي، **النّزاع والتّخاصم فيما بين بني أميّة وبني هاشم**، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار المعارف، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

١٨٥. **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي، **إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

١٨٦. **الملطي**، غريغوريوس المعروف بابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، الناشر: دار الشرق، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٢م، الطبعة الثالثة.

١٨٧. المؤلف مجهول (ق ٣)، **أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده**، تحقيق: عبد العزيز الدوري، و: عبد الجبار المطلبي، الناشر: دار الطليعة، لبنان - بيروت، سنة ١٣٩١هـ، الطبعة الأولى.

١٨٨. **المؤيدي**، الإمام الحجة مجد الدين بن محمد، **التحف في شرح الزلف**، الناشر: منشورات مكتبة أهل البيت عليهم السلام للدراسات الإسلامية، اليمن – صنعاء، سنة النشر: لم يذكر تاريخ النشر.

١٨٩. **الميانجي**، آية الله علي الأحمدي، **مكاتيب الرسول** صلى الله عليه وآله، الناشر: دار الحديث، طهران – إيران، سنة النشر: ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

١٩٠. **النجاشي**، الرجالي الخبير أحمد بن علي بن أحمد بن العباس، **رجال النجاشي**، تحقيق: آية الله السيد موسى الشبيري الزنجاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ، الطبعة الأولى.

١٩١. **النجفي**، الحبر العلم الحجة الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني، **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

١٩٢. **النجفي**، المؤرخ الشهير السيد حسين بن السيد أحمد البراقي، **تاريخ الكوفة**، حرّره وأضاف إليه: العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: دار الأضواء، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٧هـ، الطبعة الرابعة.

١٩٣. **النجفي**، الشيخ محمد حسن، **جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام**، حققه وصححه: عباس قوجاني، علي آخوندي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة السابعة.

١٩٤. **النديم**، محمد بن اسحاق، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، تحقيق: رضا تجدّد بن علي الحائري المازندراني، لم يذكر اسم الناشر وتاريخ النشر.

١٩٥. **النشار**، الدكتور علي سامي، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، الناشر: دار المعارف، القاهرة – مصر، لم يذكر تاريخ النشر، الطبعة الثامنة.

١٩٦. **نعنعي**، الدكتور عبدالمجيد، **تاريخ الدّولة الأمويّة في الأندلس – التاريخ**

السياسي، الناشر: دار النهضة العربية، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

١٩٧. **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، مصر – القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

١٩٨. **النيسابوري**، الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، حققه وصححه ورقّمه: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة – مصر، سنة النشر: ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م، الطبعة الأولى.

١٩٩. **الهاشمي**، الإمام علي بن أبي طالب القرشي، **نهج البلاغة**، جمع وترتيب: السيد محمد بن الحسين الموسوي (السيد الرضي)، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور: صبحي الصالح، الناشر: دار الهجرة للنشر، إيران – قم المقدسة، لم تذكر سنة النشر.

٢٠٠. **الهاشمي**، الدكتور محمد يحيى، **الإمام الصادق** عليه السلام **ملهم الكيمياء**، الناشر: دار الأضواء، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

٢٠١. **الهمداني**، حميد بن أحمد بن محمد الصنعاني، **الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية**، الناشر: مكتبة بدر، اليمن – صنعاء، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى

٢٠٢. **الهمداني**، أبو عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه، **كتاب البلدان**، تحقيق: يوسف الهادي، الناشر: عالم الكتب، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

٢٠٣. **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب واضح (الكاتب العباسي)، **تاريخ اليعقوبي**، الناشر: دار صادر، لبنان – بيروت، مجهولة التاريخ.

٢٠٤. **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب واضح (الكاتب العباسي)، **البلدان**، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٢هـ الطبعة الأولى.

المحتويات

مقدمة الناشر ٧
مقدمة الطبعة المحققة ١١
مقدمة الطبعة الخامسة ١٥

الباب الأول: مدخل لدراسة التاريخ الرسالي ١٧

لماذا ندرس التاريخ؟ ١٩
فهم التاريخ ضرورة لفهم الشريعة ١٩
التاريخ ينبوع الحضارة ٢٢
من أجل اللحاق بركب الحضارة ٢٢
التاريخ بين السلطة والثورة ٢٤
كيف يجب أن ندرس التاريخ؟ ٣٥
الرؤية التاريخية تصنع شخصية الأمة ٣٦
دراسة التاريخ ككائن حي ٣٧
التاريخ يعلّمنا السنن الإلهية ٤٠
الثورة بين العلويين والعباسيين ٤١
نشوء الحركة الرسالية ٤٧
أولاً: طبيعة النظام الأموي ٤٨
تنامي الحزب الأموي ٤٩
بناء الجيش الأموي ٥٢

مستشار رومي للاستخبارات العسكرية ٥٤

ضحالة الوعي السياسي في الشام ٥٥

ثانياً: طبيعة الحركات الرسالية ٥٨

الوضع الاجتماعي في الكوفة ٥٨

القاعدة الاجتماعية للحركات الرسالية ٦١

حركة الفقهاء والعُبّاد ٦٢

حركة السياسيين والعسكريين: ٦٤

أهداف الحركات السياسية ٦٥

الحركة الرسالية امتداد لحركة الأنبياء عليهم السلام ٦٩

تنمية الضمير الديني ٧٠

تنظيم حياة الإنسان ٧١

الباب الثاني: مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي ٨١

الفصل الأول: سيرة وحياة الإمام السجاد عليه السلام ٨٣

عصر الإمام السجاد عليه السلام دراسة وتحليل ٨٥

أهداف الحركة الرسالية ٨٦

السلطة السياسية بنت الحالة الاجتماعية ٨٧

زرع حب الحرية في النفوس ٨٨

بناء الإنسان هدف الأنبياء وبرنامج الأئمة ٨٩

الفرق الأساس بين حركة العباسيين وحركة العلويين ٩٠

الحركة الرسالية ضمان بقاء الإسلام ٩١

الصحيفة السجادية زبور الحركة الرسالية ٩٢

وضع الدولة الإسلامية في عصر الإمام السجاد عليه السلام ٩٩

أولاً: الأزمة السياسية ١٠٣

ثانياً: الأزمة الخلقية ١٠٥

ثالثاً: الأزمة الفكرية ١٠٩

رابعاً: الأزمة الاجتماعية ١١١

الإمام السجاد يزرع روح الإيمان في الأمة ١١١
الفصل الثاني: الحركة الرسالية في عهد الإمام السجاد عليه السلام ١١٧
ثورة التوابين.. ثورة استشهادية ١١٩
عند قبر الحسين عليه السلام ١٢٠
أسباب فشل ثورة التوابين سياسيًّا ١٢٥
ثورة المختار بين الانتصار والهزيمة ١٣٣
الخلافات الداخلية بين الرساليين ١٣٤
العلاقة بين الأئمة والثورات ١٣٧
الأئمة عليهم السلام في رأس الهرم القيادي ١٤١
المختار يدعو إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام ١٤٢
الإمام زين العابدين عليه السلام والثورة الثقافية ١٤٩
الفصل الثالث: الحركات السياسية في زمن الدولة الأموية ١٥٣
الوضع السياسي في عهد عبد الملك بن مروان ١٥٥
حياة عبد الملك بن مروان ١٥٥
قراءة في مسار الحركات السياسية ١٦١
أولاً: حركة الخوارج ١٦٢
ثانياً: حركة الزبيريين ١٦٥
كيف ولماذا سقط ابن الزبير؟ ١٦٧
ثالثاً: حركة أهل المدينة ١٦٧
أسباب فشل حركة أهل المدينة ١٦٨
الإمام زين العابدين وحركة أهل المدينة ١٧٠
ماذا قدمت الحركات للأمة الإسلامية؟ ١٧١
الفصل الرابع: الحركة الرسالية في عهد الإمامين الصادقين عليهما السلام ١٧٧
الحركة الزيدية.. منطلقاتها وأهدافها ١٧٩
زيد يخطط لحركته الرسالية ١٨٠
الظروف تستعجل زيداً ١٨١

زيد يتخذ من الكوفة منطلقاً لثورته ١٨٥
انطلاق الثورة........ ١٨٧
الوالي يعلن الاستنفار........ ١٨٨
الحركة الرسالية بين زيد والإمامين الصادقين عليهما السلام ١٩٥
الخلفية الثقافية والإحساس بالحاجة إلى الثورة........ ١٩٦
علم الإمام الباقر لسعادة الإنسانية ١٩٩
الإمام الباقر يواجه الأفكار التبريرية........ ٢٠٠
الفكر الرسالي هو الفهم الصحيح للإسلام ٢٠١
حركة زيد بن علي والإمام الصادق عليه السلام ٢٠٢
الإمام الرضا عليه السلام يُثني على زيد بن علي ٢٠٤
الإمام الصادق عليه السلام ينعى عمه زيداً عليه السلام ٢٠٥
كبار الفقهاء يؤيدون حركة زيد عليه السلام ٦٠٢
الإمام الصادق يتمنى لو كان مع زيد عليه السلام ٢٠٧
أبناء زيد وامتداد الحركة الزيدية في التاريخ........ ٢١٣
حركة يحيى بن زيد........ ٢١٣
العمل العسكري درع الحركة الرسالية........ ٢١٤
استشهاد يحيى بن زيد عليه السلام وسقوط بني أميّة........ ٢٢١
الحسين بن زيد........ ٢٢٤
يحيى يقود ثورتين........ ٢٢٤
يحيى يستولي على السلطة في الكوفة........ ٢٢٥
قوات العباسيين تهزم يحيى ٢٢٦
عيسى بن زيد........ ٢٢٧
وفاة عيسى بن زيد ٢٣١
سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية ٢٣٩
الجيش القائم على العطاء ٢٤٠
حلفاء النظام الأموي طائفة من المرتزقة ٢٤١

العباسيّون خلفاء النظام الأموي ٢٤٣
تحوُّل القيادة إلى العباسيين........................ ٢٤٤
أسباب نجاح حركة العباسيين ٢٤٩
الإمام الصادق ودوره في التحولات........................ ٢٥١

الباب الثالث: مدخل إلى واقع الحركة الرسالية في العهد العباسي.......... ٢٥٥

الحركة الرسالية في عصر الإمام الصادق عليه السلام........................ ٢٥٧
حركة محمد ذي النفس الزكية........................ ٢٥٩
فلسفة الغيبة عند الثوار ٢٦١
التجسس على الحركة........................ ٢٧٠
أبناء الحسن يتوارثون لواء المعارضة ٢٧٣
حركة الزيدية تفضح العباسيين ٢٧٤
حركة الحسين صاحب فخ ٢٧٤
أخطاء حركة (فخ) ٢٧٦
إدريس وريث حركة (فخ)........................ ٢٧٧
يحيى بن عبد الله يتابع مسيرة إخوته........................ ٢٧٩
كيف كان الإمام الصادق عليه السلام يوجه الأمة........................ ٢٨٥
شمولية توجيه الأئمة ٢٨٥
موقف تجاه كل حدث........................ ٢٨٦
التقية دعامة ثابتة في قيادة الأئمة ٢٨٨
حركة إسماعيل ابن الإمام الصادق ٢٩٢
أئمة أهل البيت والصراع السياسي في الأمة........................ ٢٩٨

الباب الرابع: مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي.......... ٣٠٣

الفصل الأول: الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام........................ ٣٠٥
سيرة وحياة الإمام الكاظم عليه السلام........................ ٣٠٧
الحركة الرسالية دولة داخل دولة ٣١٣

سعي السلطات العباسية لكشف الحركة الرسالية ٣١٤
حياة الإمام الكاظم عليه السلام في السجن ٣٢١
الرساليون في عهد الإمام الكاظم عليه السلام ٣٢٧
استقامة إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام ٣٣٢
قوة الحركة الإسماعيلية ٣٣٧
دور الإمام الكاظم عليه السلام في الحركة الرسالية ٣٤٣
الترف في العصر العباسي ٣٤٣
لماذا قام العلويون بحركات استشهادية؟ ٣٤٦
الإمام عليه السلام يبعث الروح في الأمة ٣٤٧
هارون الرشيد يعتقل الإمام ٣٤٩
الإمام عليه السلام ينشد تغييراً حقيقيًّا ٣٥٠
دولة الأدارسة ٣٥١
تطور الحركة الإسماعيلية ٣٥٩
رسائل إخوان الصفا.. منهج فكري للحركة ٣٦٢
منهج الغيبة عند الإسماعيلية ٣٦٣
علاقة الإسماعيلية بأئمة أهل البيت عليهم السلام ٣٦٥
الحركة الإسماعيلية وإشراف الأئمة ٣٧٢
الإسماعيلية بين الباطنيّة والتأويل ٣٧٣
الفصل الثاني: الحركة الرسالية في عهد الإمام الرضا عليه السلام ٣٨٣
سيرة الإمام الرضا عليه السلام ودوره في الحركة الرسالية ٣٨٥
تنامي الحركة الرسالية ٣٨٥
الحركة الرسالية حركة متنامية ٣٨٥
حياة الإمام الرضا عليه السلام فاتحة عهد جديد ٣٨٦
أولاً: قوة المعارضة ٣٩١
ثانياً: شخصية الإمام الرضا عليه السلام ٣٩٤
ثالثاً: تهالك السلطة ٣٩٥

رابعاً: الظلم المتزايد ٣٩٦
خامساً: ضعف السلطة المركزية ٣٩٧
سادساً: انحطاط النظام ٣٩٨
سابعاً: الدويلات المستقلة ٣٩٨
ثورة أبي السرايا ٤٠٠
العباسيون يواجهون الثورة ٤٠٢
هزيمة عبدوس ٤٠٥
وفاة محمد بن إبراهيم ٤٠٦
انتخاب محمد بن زيد قائداً للثورة ٤٠٧
محمد بن زيد يُعيّن الوكلاء ٤٠٨
هرثمة يقود جيوش العباسيين ٤٠٩
السحر ينقلب على الساحر ٤١٤
أسباب قبول الإمام الرضا بولاية العهد ٤١٥
دور الإمام الرضا عليه السلام السياسي والثقافي في الأمة ٤٢٩
انتشار الترجمة في زمن المأمون ٤٣١
دور الإمام الرضا عليه السلام ٤٣٣
الإمام يناظر أصحاب المقالات ٤٣٤
الفصل الثالث: الحركة الرسالية في عهد الإمام الجواد عليه السلام ٤٤٩
الإمام الجواد عليه السلام ومسألة الإيمان بالغيب ٤٥١
بين حصر الغيب وإطلاقه ٤٥١
الإمام الصادق ملهم الكيمياء ٤٥٤
الإمام الجواد والإلهام الإلهي ٤٥٥
لماذا اغتال المعتصم الإمام الجواد عليه السلام؟ ٤٥٩
عهد الإمام الجواد عليه السلام وانتشار الحركة الرسالية ٤٦٥
قصة زواج الإمام الجواد عليه السلام ٤٦٦
لماذا صاهر الإمامُ الخليفةَ؟ ٤٧٠

ثورة محمد بن القاسم ٤٧٤
بركة الإمام الجواد عليه السلام ٤٨٠
العسكر يسيطرون على السلطة ٤٨١
الفصل الرابع: الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام ٤٩١
الإمام علي الهادي عليه السلام وقيادة الأمة ٤٩٣
أولاً: قيادة الحركة الرسالية ٥٠٥
ثانياً: التصدي للتيارات الفكرية المنحرفة ٥٠٨
واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام ٥١٧
حياة أحمد بن عيسى ٥١٨
حياة عبد الله بن موسى ٥٢٣
الفصل الخامس: الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري عليه السلام ٥٣١
الإمام العسكري عليه السلام وقيادة الأمة ٥٣٣
الإمام العسكري وتحديد ملامح القيادة ٥٣٣
واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري ٥٤١

الخاتمة ٥٥١

كيف نقرأ تاريخ الحركة الرسالية؟ ٥٥٣
تأثير الحركة الرسالية على الحضارة الإنسانية ٥٦٣
نظرة عامة في الدولة الإسلامية ٥٦٣
الخــراج ٥٦٤
الحرب بين الشمال والجنوب ٥٧١
الفساد الإداري والمحسوبيات ٥٧٢
الإرهاب الفكري ٥٧٤
دور الحركات الرسالية ٥٧٥
قائمة المصادر والمراجع في التحقيق ٥٨٣
المحتويات ٦٠٩